السلسلة الجامعية

فرحات الدشراوي

الخلافة الفاطمية بالمغرب

(296-365 هـ / 909-975 م)

التاريخ السياسي والمؤسسات

نقله إلى العربية
حمادي الساحلي



الخلافة الفاطمية
بالمغرب

فرحات الدشراوي

الخلافة الفاطمية بالمغرب

(296-365 هـ / 909-975 م)

التاريخ السياسي والمؤسسات

نقله إلى العربية
حمادي الساحلي



الطبعة الأولى
1994

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

إنّه لمن دواعي الغبطة والسرور أن نقدّم إلى قرّائنا الأفاضل ترجمة الدراسة التي أعدّها السيد فرحات الدشراوي، أستاذ الحضارة الإسلامية بالجامعة التونسية في نطاق الأطروحة الرئيسيّة المقدمة إلى جامعة السوربون سنة 1970 لنيل شهادة دكتوراه الدولة[1]. وبصدور هذه الدراسة تكتمل سلسلة البحوث والدراسات الجامعية المتعلقة بتاريخ الدول الإسلامية التي تداولت على الحكم في إفريقية في العصر الوسيط، والمنقولة من اللغة الفرنسية إلى لغة الضاد.

وقد حرصت دار الغرب الإسلامي ببيروت على نشرها للمساهمة في إثراء المكتبة التاريخية العربية والتعريف ببعض جوانب من الحضارة العربية الإسلامية في هذا الربوع. فأصدرت على التوالي من هذه السلسلة الجامعية الكتب التالية:

1 ـ **الدولة الأغلبية** (800 - 909) تأليف محمد الطالبي وتعريب المنجي الصيادي، 1985.

2 ـ **الخلافة الفاطمية بالمغرب** (909 - 975) تأليف فرحات الدشراوي وتعريب حمادي الساحلي، 1994.

3 ـ **الدولة الصنهاجية** (من القرن 10 إلى القرن 12) تأليف الهادي روجي إدريس وتعريب حمادي الساحلي، 1992.

(1) صدرت هذه الدراسة باللغة الفرنسية سنة 1981 عن الشركة التونسية للتوزيع بتونس تحت عنوان: «Le Califat Fatimide au Maghreb».

4 ـ **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، تأليف روبار برنشفيك وتعريب حمادي الساحلي، 1988.

وقد أعدّ الأستاذ الدشراوي هذه الدراسة بإشارة من أستاذه المستشرق الكبير المأسوف عليه ليفي بروفنسال، لتسليط مزيد من الأضواء على الفترة المغربيّة من الخلافة الفاطمية، «تلك الفترة المظلمة والمجهولة بوجه خاص، إن لم نقل غير المقدّرة حق قدرها» (التمهيد). وسار المؤلف على نفس المنهج الذي اتبعه قبله بالخصوص روبار برنشفيك في أطروحته السالفة الذكر «**تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**». فاستهل كتابه بدراسة نقدية مستفيضة للمصادر التي اعتمدها في تأليفه والمتمثلة أولاً وبالذات في كتب القاضي النعمان الآتي ذكرها:

1 ـ **افتتاح الدعوة**، تحقيق نفس المؤلف في إطار أطروحته التكميلية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1975.

2 ـ **كتاب المجالس والمسايرات**.

3 ـ **كتاب الهمّة وآداب أتباع الأئمة**.

4 ـ **كتاب دعائم الإسلام**.

كما تتمثّل في المصادر الإسماعيلية التالية.

1 ـ **سيرة جَوْذر**.

2 ـ **سيرة جعفر**.

3 ـ **عيون الأخبار**، للداعي إدريس عماد الدين.

وقد نقل المؤلف في سياق دراسته عدة فقرات من هذه المؤلفات بحذافيرها. فرأينا من باب الأمانة العلمية إثباتها بنصها العربي الأصلي. ولكنه لم يهمل بعض المصادر السنية الهامة مثل **البيان المغرب** لابن عذاري **واتّعاظ الحنفاء** للمقريزي **ورياض النّفوس** للمالكي. فكان في كل مرة يقابل بين «النصوص السنية المناهضة صراحة للفاطميين والمغرضة أحيانًا بصورة واضحة،

وبين نصوص المؤلفين الخوارج المشحونة بمعطيات خرافية والأشد مناهضة للإسماعيليين والنصوص الإسماعيلية المستراية لأول وهلة، لأنها تقدم رواية رسمية للأحداث والوقائع» (التقديم).

وفي سرده لتاريخ الفاطميين، دون تمجيد ولا تحقير، لم يقتصر صاحب الكتاب على مقابلة المصادر الإسماعيلية التي اعتمدها بالأساس، بالمصادر الأخرى، بل كان يقارن دوماً وأبداً بين مختلف الروايات ويبرز ما فيها من تناقضات، بل يتجاسر في أغلب الأحيان على تأويل الأحداث حسب الافتراضات التي اعتمدها، متحلياً بروح نقدية عالية ونزاهة علمية جديرة بالتنويه، رغم إعلانه بصريح العبارة عن تعاطفه مع الفاطميين وتقديره للجهود التي بذلوها في سبيل «إقامة نظام عتيد وتشييد دولة قوية ومزدهرة بالمغرب». ذلك أنه مهما اختلفت الروايات، فلا ينكر أحد قيمة الدولة العبيديّة التي بسطت سلطانها على المغرب مدة تزيد على الستة عقود.

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ الدشراوي قد ركز على فكرتَيْن أساسيَّتَيْن:

1 ـ إن الفاطميين لم يمروا من إفريقية مرّ الكرام في طريقهم إلى المشرق، بل بالعكس من ذلك، «فقد فرض عليهم مذهبهم السياسي والديني إرساء أسس الدولة العظيمة التي طالما حلم بها أنصارهم».

2 ـ خلافاً لما توحي به بعض الدراسات الحديثة التي حكمت على الفاطميين «بالفشل» و«الإفلاس» في المغرب، فإنهم قد نجحوا في آخر الأمر في تذليل جميع العقبات التي اعترضت سبيلهم وإخماد جميع الثورات والفتن، لا سيما منها ثورة «صاحب الحمار» التي كادت تقضي على دولتهم الفتية القضاء المبرم، وتوفقوا إلى النهوض بإفريقية في جميع الميادين والسموّ بها إلى أعلى مراتب الحضارة.

وقد قسّم المؤلف كتابه إلى قسمَيْن اثنين:

القسم الأول: وقد تناول فيه بالدرس تاريخ إفريقية من قيام الدولة العُبَيْدية سنة 909 إلى انتقالها إلى مصر سنة 975، وقد أصبحت تُسَمَّى منذ ذلك الحين

بالدولة الفاطمية. كما سلط مزيد من الأضواء على علاقات الخلافة الفاطمية بالمغرب مع سائر الدول الإسلامية والأوروبية في تلك الفترة.

ـ **القسم الثاني**: وقد خصّصه لدراسة النظم الإدارية والسياسية ومختلف المؤسسات التي أنشأها الخلفاء الأربعة الأوائل (المهدي والقائم والمنصور والمعزّ) أو أعادوا تنظيمها على أسس جديدة، كالبريد وديوان الرسائل والقضاء والشرطة والجيش والبحريّة.

وكان الأستاذ الدشراوي ينوي تخصيص قسم ثالث لدراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية خلال الفترة المعنيّة بالأمر. إلا أن الظروف لم تسمح له وقتئذٍ بتحقيق رغبته، فاقتصر على إصدار القسمين الأول والثاني من دراسته التي هي ثمرة سنين من البحوث الجادة والجهود المضنية، عاقداً العزم على إصدار القسم الثالث على حِدَة في فترة لاحقة إن شاء الله.

ونظراً إلى ما يكتسيه هذا الكتاب من أهمية تاريخية وتوثيقية، فقد أقدمت على نقله إلى اللغة العربية، نزولاً عند رغبة صاحب دار الغرب الإسلامي المحترم، وبناءً على موافقة حضرة المؤلف على ذلك، جازاهما الله كل خير.

وقمت بتعريب الكتاب بجميع أبوابه وفصوله وهوامشه وفهارسه، دون زيادة ولا نقصان، ما عدا إضافة بعض العناوين الفرعية لمزيد الإيضاح، والإحالة على بعض المصادر الهامة التي كانت مخطوطة ونشرت بعد تقديم الكتاب للطبع. وقد وضعت تلك الإحالات بين حاصرتين [ ] للتمييز بينها وبين الإحالات الواردة في النص الفرنسي. واعتمدت بالنسبة إلى المصادر المذكورة على النشرات التالية:

ـ **كتاب المجالس والمسايرات** للقاضي النعمان، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبّوح ومحمد اليعلاوي، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، 1978.

ـ **عيون الأخبار** للداعي إدريس (القسم المغربي)، تحقيق محمد اليعلاوي ونشر دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985.

ـ **رياض النفوس** للمالكي، تحقيق البشير البكوش ومراجعة محمد العروسي المطوي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983.

وبعد هذه الملاحظات لا بّد من التنويه بالجهد الذي بذله المؤلف ووُفِّق بواسطته إلى إزاحة الستار عن فترة حاسمة من تاريخ مغربنا العربي الكبير بكل موضوعية وتجرد، فله جزيل الشكر وبالغ التقدير.

والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل

تونس في 15 ربيع الثاني 1414

الموافق لأول أكتوبر (تشرين الأول) 1993

حمّادي الساحلي

تمهيد

إن هذا الكتاب لا يشبه من سوء الحظ إلا جزئياً التصنيف الذي كنت وعدت نفسي بكتابته، حين شرعت في درس هذا الموضوع، بإشارة ـ بل قل ـ بإيعاز من أستاذي المأسوف عليه ليفي بروفنسال. والحال أن رغبتي الأولى التي كانت ترمي إلى النسج على منوال مؤرخ الغرب الإسلامي الجليل، حتى أساهم ـ كما فعل هو بنجاح فائق بالنسبة إلى الأندلس التي تمثل الجزء الخارجي من المغرب النائي ـ في إزاحة ستار الظلام والنسيان الذي أسدله تسلسل الأحداث التاريخية على وجه المغرب عبر القرون، بعد أيام قرطاج الخالدة والعهد الروماني والبيزنطي المشرق. ذلك أن طموحي الخفي والعظيم كان يهدف من أول وهلة إلى تسليط كل الأضواء على العصر الفاطمي، تلك الفترة المظلمة والمجهولة بوجه خاص، إن لم نقل غير المقدرة حق قدرها، من تاريخ هذه البلاد في العهد الإسلامي.

وممّا زاد في ذلك الطموح الملحّ في قرارة نفسي، أن خلافة ذريّة فاطمة، بنت الرسول ﷺ قد بلغت درجة عالية من العظمة والحضارة الباهرة أثناء الفصل الثاني من المغامرة الفاطمية التي جرت أحداثها في قطر آخر من أقطار العالم العربي الإسلامي، ألا وهي مصر. كما أن الشهادات التي أُدْلِيَ بها في هذا الشأن قد أصبحت غزيرة وبليغة بالنسبة إلى التاريخ. ولذلك فقد آليت على نفسي، إثر محادثتي الأخيرة مع مؤرخ إسبانيا الإسلامية الذائع الصيت، وأنا أمشي على جسر الإسكندر وفي أرصفة نهر السين، أن أتولى مهمة تأليف كتاب كامل حول تاريخ الفاطميين بالمغرب. ولكن ها أنا ذا أقدّم في آخر الأمر جزءاً واحدًا

لا غير من ذلك الكتاب، بعد انقضاء ثلاث عشرة سنة منذ ذلك العهد. ذلك أنه لم يكن كافياً لا الوقت المخصص للبحث، رغم جميع مشاغل الحياة، ولا الوثائق الضنينة إلى أبعد حد، لتمكيني من بلوغ غايتي الأولى. إذ أعوزتني الوسائل اللازمة للانتقال بسرعة ولكن بخطى ثابتة، من ميدان البداهة الحسية وأضواء الاستقراء، إلى ميدان التاريخ وحقيقته المبرهن عليها.

وبناءً على ذلك فإن أخشى ما أخشاه اليوم بعد هذه المسيرة الطويلة والشاقة، أن تعوزني مثل تلك الوسائل مدة طويلة إلى آخر رمق من هذه الحياة التي هي دائماً قصيرة بقدر ما هي فانية، في نظر الإنسان الذي يتأمل ويبحث.

على أنّه من الضروري لفهم هذا الكتاب المخصص لدراسة التاريخ السياسي والمؤسسات، والذي يحمل بالتالي عنوان «الخلافة الفاطمية بالمغرب»، أن نعتبره بمثابة الجزء الثاني من تصنيف يحتوي على قسمين اثنين، يتمثل أولهما في الأطروحة التكميلية التي تحمل بالضبط هذا العنوان: «بداية الخلافة الفاطمية بالمغرب».

فبقدر ما كان هذا الجزء الأول مليئاً بالحواشي والهوامش كان الجزء الثاني المتمثل في الأطروحة الرئيسية خالياً من الحواشي المطولة والإحالات الببلوغرافية التي يتعين على المؤرخ الحديث الحرص على إثباتها في أسفل كل صفحة أو في آخر كتابه. ذلك أني قد اقتصرت، رغم خطر الإخلال بقواعد المنهجية المتعارف عليها، على إحالة القارىء في أغلب الأحيان على الأطروحة التكميلية وإعفائه أيضاً من كثير من المراجع والحواشي المتوفرة بكثرة في دراستَيْن حديثيتَيْن أولاهما، وهي الأقدم عهداً، تتعلق بالدولة الصنهاجية[1] والثانية تتعلق بالدولة الأغلبية[2]. حيث أن إثبات تلك المراجع والحواشي

(1) لقد أمكننا حينئذٍ الاستفادة من أطروحة الهادي روجي إدريس التي ظهرت في سنة 1962، عندما كنا شرعنا في تحرير هذا الكتاب. [«بلاد البربر في عهد بني زيري La Berbérie orientale sous les Zirides) (جزآن)، الجزائر 1962. [الترجمة العربية «الدولة الصنهاجية». تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992].

(2) لم نتمكّن من الاطلاع على أطروحة الدولة التي أعدها زميلنا وصديقنا السيد محمد الطالبي إلا في =

بصورة آلية في كتابي، انطلاقاً من الجذاذات التي وضعتها استناداً إلى مصادر مشتركة طوال عدة سنوات من البحث، قد يبدو مملاً، بقدر ما هو غير ذي جدوى.

على أن تقسيم هذا التصنيف إلى قسمَيْن لم يستجب لغاية شكلية صرف، بل بالعكس من ذلك فهو نابع من نية مقصودة للابتكار، سواء من حيث المحتوى أو من حيث المنهجية. ألم تتطرق الدراستان المذكورتان إلى جزء كبير من الموضوع الذي يشغل بالنا؟ فالدراسة الأقرب عهداً التي ظهرت في الوقت الذي كنت فيه على وشك الانتهاء من تحرير الأطروحة الرئيسية، قد تطرقت فعلاً إلى ذلك الموضوع في صفحاتها الأخيرة التي يناهز عددها المائة والخمسين. كما تطرقت الدراسة الأخرى إلى الموضوع ذاته بطريقة خاصة بها، ولكن بشكل مكثف، من خلال رجوعها المتكرر إلى العصر الفاطمي الذي أطلقت عليه اسم «فترة ما قبل العصر الصنهاجي».

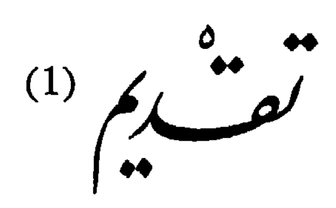
إلا أن هناك سببًا آخر قد حتم ذلك الترتيب المتميز للأطروحتين. وهو سبب داخلي مرده ما تكتسيه الأطروحة التكميلية من صبغة خاصة. ذلك أن كتاب **«افتتاح الدعوة»** الذي نشرته وحللته وصدرته بمقدمة تؤكد قيمته الوثائقية النادرة، قد نقلت محتواه في الجملة إلى الأطروحة الرئيسية، فكان بمثابة القاعدة الراسخة التي يرتكز عليها البناء برمته، واتخذ شكل تمهيد طبيعي للعرض المقدم حول تاريخ الخلافة الفاطمية. إذ يندرج كتاب قاضي المعز الذائع الصيت أبي حنيفة النعمان بصورة منطقية في إطار تحقيقي لذلك التصنيف باعتباره النصف الأول من مجموع متكامل ومن كتاب واحد مقسم إلى مجلدَيْن.

ومع ذلك فإن مقصدي الأول لم يفقد أي شيء من أغراضه، لا من حيث الالتزام ولا من حيث الأمل. ذلك أنّي ما زلت مصمماً، بعدما أنهيت دراسة

= شهر مارس 1969، عندما انتهينا من عملنا، وبناءً على ذلك فقد تعذر علينا استعمالها. [«L'Emirat Aghlabide»، باريس 1966. الترجمة العربية، **«الدولة الأغلبية»** تعريب المنجي الصيّادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985].

التاريخ السياسي والمؤسسات كيفما كان الحال، على إتمام ما تبقى من العناصر اللازمة لكتابة الجزء الثاني المتعلق بالحياة اليومية. فأتمنى حينئذٍ أن لا يطول الانتظار أكثر مما ينبغي، لظهور «لوحة الحياة بالمغرب في العصر الفاطمي».

تونس في 26 أغسطس 1969

 (1)

لما شرعت منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة خلت في دراسة الفترة الإفريقية من تاريخ الفاطميين، لم أكن أتصور أبداً أني سأعيش مع «أصحاب المهدية» كما لو كنت مستغرقاً في حلم مرعب.

ومع ذلك فإن مؤلف كتاب «عصور المغرب المظلمة»[2] كان قد نبه إلى ذلك كل من يفكر في التوغل في ماضي بلاد المغرب الغامض خلال العصر الوسيط، مشيراً إلى ما ستعترض سُبُله الوعِرة من عقبات. وقد عكفت على القيام بمهمتي دون خشية، مُعززاً بوثائقي الإسماعيلية المكتشفة منذ عهد قريب ومتسلّحاًبالحزم، بل قل بالحماس. أليست كتابة التاريخ يسيرة للغاية إذا كان المؤلف مزوداً بالوثائق؟ أليس ذلك من السهولة بمكان، بما أن الأمر لا يتعلق في آخر المطاف باكتشاف أو خلق أي شيء؟ ألا يكفي حينئذٍ بالنسبة إليّ بأن أترك المصادر الجديدة تتحدث؟ ولكن ما لبث أن زال غروري وتبددت أوهامي. والأدهى من ذلك أني خشيت بعد مرور بضع سنوات من البحث أن لا أصل أبداً إلى نهاية المطاف. وفي آخر الأمر اكتسى في نظري رقم 7 العزيز جداً على الفاطميين، مدلولاً سيء الطالع، يكاد يكون مفجعاً. فهل سيختفي سر الفاطميين في المغرب عن أبحاثي، بعد محاولة غاتو[3] ومنشورات كامل حسين

---

(1) [نص الكلمة التي ألقاها المؤلف أمام لجنة الامتحان في مستهل مناقشة أطروحته].

(2) [وهو المؤرخ الفرنسي E.F. Gautier صاحب كتاب: «L'Islamisation de l'Afrique du Nord, les siècles obsurs du Maghreb».]

(3) [A. Gateau، سيرة جعفر الحاجب، بحث حول تاريخ الفاطميين، مجلة هسبيريس، 1947، ص 375 - 396].

والشيال[4] اللذين اختطفتهما يد المنون، وبعد دراسات لويس[5] وشتارن[6] وأبحاث ماريوس كنار[7] ، ذلك أن الوثائق قد أصبحت أولاً وقبل كل شيء متضاربة وغير كافية.

وكان من الممكن أن يكون تضاربها مفيداً، لو استطعنا اكتشاف أسباب انحياز مواقف أصحابها. وكان من الممكن أيضاً أن يكون ذلك التضارب مفيداً، لو تسنى لنا التوفيق بين النظريات المتناقضة، بالتمييز بين الغثّ والسّمين، وغربلة المعلومات المجموعة بكل عناية، وذلك للإحاطة بالحقيقة كما ينبغي. ولكن كيف يمكن المقابلة بين ثلاثة أنواع من المصادر يعسر التوفيق بينها، دون خشية الوقوع في الخطإ؟ وهي النصوص السنيّة المناهضة صراحة للفاطميين، والمغرضة أحياناً بصورة واضحة، ونصوص الخوارج المشحونة بمعطيات خرافية والأشد مناهضة للفاطميين، والنصوص الإسماعيلية المسترابة لأول وهلة، لأنها تقدم رواية رسمية للأحداث والوقائع.

ومع ذلك فقد كان من اللازم الحرص على استجواب تلك النصوص، بالتسلح مسبقاً بجميع الأسلحة التي يقتضيها النقد التاريخي، والسعي إلى جمع المعلومات الصحيحة والمدققة لا غير. إلا أنه غالباً ما كان من الضروري الاكتفاء بالوقوف على جانب واحد من القضية، والابتهاج بالظفر بمعلومة كذا أو كذا، واعتبارها لأول وهلة معلومة قيمة ونفيسة يتعذر تقديرها. وكان من اللازم في أغلب الأحيان الوثوق بالقاضي النعمان الذي أشرت إليه منذ قليل، باعتباره حقوقياً مدققاً ونزيهاً، وشاهداً على عصره، تسمح له المكانة التي يحتلها بملاحظة تسلسل الأحداث عن كثب. ولا شك أن قاضي المعز الذائع الصيت الذي كان بالنسبة إليّ أوثق دليل أثناء تلك المسيرة الطويلة إلا أن المعلومات

(4) [كامل حسين، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، القاهرة 1949].

(5) [B. Lewis، ترجمة كتاب: أصول الإسماعيلية، القاهرة 1947].

(6) [S.M. Stern:

«Heterodox isma'ilisme at the time of al - Mu'izz», BSAOS, 17 - 1 - 1955].

(7) [انظر منشورات M. Canard في مصادر ومراجع هذا الكتاب].

المستمدة من المصادر المتوفرة لديّ قد ظلت غير كافية، بالنظر إلى الحقيقة، كل الحقيقة.

ولعله من العبث التسلّي بهذا العذر وتبني النظرية التي تزعم أنه لا جود لحقيقة مطلقة في التاريخ.ومع ذلك فقد كان البحث عن الحقيقة بالنسبة إليّ بمثابة الهاجس طوال ذلك الصراخ الصاخب بيني وبين مصادري. وكثيراً ما كان الشك يستولي على جـذاذاتي، فيتساقط عدد كبير منها من يدي كالأوراق الذابلة الفاقدة للحياة.، وفي الحين ترتبك الأمور ويعسر توضيحها، فيضمحل كل شيء من جديد في كنف ظلام العصور.

وبناءً على ذلك فإني أرى لزاماً علي في هذا المقام أن أقدم من جديد بعض الاحترازات حول هذا الكتاب المعروض عليكم لإبداء الرأي. فهو لا يفتقر فحسب إلى الدراسة التي بقي عليّ القيام بها حول بعض جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بل إنه لا يقدم على وجه الخصوص سوى صورة من الحقيقة. وهي بلا شك الصورة التي نستطيع تقديمها اليوم، بحسب ما تسمح الوثائق المتوفرة لدينا بالوصول إليه بصورة موضوعية ومتجردة. إلا أنها لا تمثل سوى المظهر الذي يمكن تقديمه من مظاهر الحقيقة في الوقت الحاضر.

إلا أنني ربما حابيت الفاطميين أكثر من اللازم، بل اتخذت موقفاً يكاد يكون موالياً لهم. وإني لا أخفي تعاطفي مع أولئك الملوك الشيعيّين الجديرين بذلك، رغم أني أبرىء نفسي من العدوى بمذهبهم والتأثر بدعوتهم.ويمكنني تبرير هذا التعاطف، دون أن أكون في حاجة إلى تكرار ما توصلت إليه من استنتاجات في هذا الكتاب.

ذلك أن الفاطميين الذين أُبعِدوا عن الخلافة، وحُرِموا من السلطة، واضطُهِد أتباعم في المشرق مدة طويلة في عهد الأمويين والعباسيين، قد كانوا يدافعون عن قضية «العادلين»، وانتزعوا التقدير، بفضل ما كانوا يتميزون به من خصال الشجاعة والحزم والجد، وما يتحلون به من تلك الفضائل السامية التي

كانت تعوز الكثير من ملوك المسلمين سواء في المشرق أو في المغرب، أولئك الملوك الذين لم يتركوا ذكرى طيبة. وإني أود في هذا المضمار تأكيد فكرتين اثنتين، قد حرصت على إثباتهما والدفاع عنهما. الأولى أن الفاطميين لم يمروا بالمغرب العربي مرّ الكرام. بل بالعكس من ذلك، فقد فرض عليهم مذهبهم السياسي والديني أن يضعوا في تلك الربوع أُسُس الدولة التي طالما كان أنصارهم يحلمون بها، وأن يفتكوا الخلافة من «المغتصبين»، أعني العباسيين شرقاً، والأمويين بالأندلس غرباً. ولذلك فقد كانت أنظارهم متّجهة على حد سواء إلى قرطبة وبغداد.

إلاّ أن بلاد المغرب ـ كما أشار إلى ذلك غوتيي بصواب ـ لم تكن أرض خلافة على قدر طموحاتهم الكبيرة، وبالتالي لم تكن قادرة على تحمل ما كانت تستوجبه أمبرياليتهم من جهد متواصل من أجل الكفاح على ثلاث جبهات في آن واحد، أي جبهة الأمويّين في الأندلس والمغرب الأقصى، وجبهة العباسيين في برقة ومصر، وجبهة النصارى في صقلية وإيطاليا الجنوبية.

فلا يمكنني حينئذٍ أن أشاطر الآراء المتضاربة التي عبر عنها H. Monès من جهة، وحسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف من جهة أخرى، في كتابَيْن متفاوتَيْ القيمة، هما «عُبَيْد الله المهدي» و «المعز لدين الله»[8].

أما الفكرة الثانية، فهي المتعلقة بالقطيعة بين المغرب وحكامه الفاطميين. ولئن كانت أطروحة هذه القطيعة معقولة لما أصدرها جورج مارسي[9]، فإنها أصبحت ضعيفة في ضوء الوثائق الشيعية التي كانت تنقصها. وبالعكس من ذلك فقد كانت تلك الوثائق في متناول أولئك الذين توسعوا منذ عهد قريب في بسط فكرة جورج مارسي، واصفين «فشل الفاطميين» وإفلاسفهم التام تجاه إفريقية المالكية.

---

(8) [ـ المعز لدين الله، القاهرة، 1367 هـ/ 1948.

ـ عُبيد الله المهدي، القاهرة 1947].

(9) [G. Marcais :

«Les Arabes en berbérie du XI^e au XIV^e siècle», قسنطينة، باريس، 1913].

فقد تعرض الفاطميون، كغيرهم من أصحاب الأُسَر المالكة في العصر الوسيط، لجملة من الصعوبات والاضطرابات والقلاقل، ولكنهم اجتهدوا، والحق يقال، لإقامة نظام عتيد وراسخ، وتشييد دولة قوية ومزدهرة في المغرب.

وقد حاولتُ أن أقيم الدليل على سعيهم، في مثل تلك البلاد ذات الجبال والسباسب والأراضي القاحلة، وفي «بلاد الملح» التي لا تعمر فيها الأُسَر المالكة مدة طويلة، إلى القيام بعمل مثمر وحضاري.

باريس في 24 مايو 1970

المقدّمة

1 ـ المصادر: وصف موجز ونقدي:

إن الوثائق المتعلقة بتاريخ الفاطميين، وبالخصوص الفترة الإفريقية التي تهمنا، غزيرة بما فيه الكفاية، لا سيما وقد أصبح اليوم من الأيسر الحصول على المخطوطات الإسماعيلية المحفوظة بعناية فائقة لدى بعض الخواص من أتباع المذهب الإسماعيلي سواء في الهند أو اليمن أوسوريا أو إيران. وقد كشفت للعموم أبحاث إيفانوف وعدد كبير من الباحثين من بعده، من بينهم بعض الإسماعيليين، عن وجود وثائق نفيسة ظلت مخفية مدة طويلة من الزمن، ثم سمحت الظروف بنشرها. وبفضل ذلك اتسع نطاق الدراسات الإسماعيلية منذ حوالي عشرين سنة، وأثْرت باكتشاف عدد من المصادر الأصلية التي سلطت أضواء جديدة سواء على بعض جوانب من الحركة الإسماعيلية، أو على تاريخ الدولة التي حققت انتصار تلك الحركة. ومن حسن الحظ فقد استفادت إفريقية التي شهدت ميلاد تلك الدولة من غزارة تلك الوثائق، لا سيما وأنه لم يبق، حسبما يبدو، أي أثر لكل ما يتعلق بها في المحفوظات أو المؤسسات العمومية أو الخزائن الخاصة التونسية.

وقد سقط الحاجز الرئيسي الذي كان يوهن همة كل من يفكر في كتابة تاريخ الفاطميين في إفريقية، ألا وهو انعدام الوثائق الأصلية، وذلك منذ ظهور بعض مؤلفات القاضي النعمان وغيرها من الوثائق الأخرى، مثل **سيرة جوذر**. بل الأحسن منذ لك، أن المادة الغزيرة والطريفة التي توفرها تلك الوثائق تخول لمؤرخ الفاطميّين تجديد موضوعه تجديداً كاملاً، وذلك بإماطة اللثام عن بعض

الجوانب، أو مراجعة بعض النظريات المتعارف عليها أو تصحيح معلومة ناقصة تعوزها روح النقد.

ومن بين هذه الوثائق، يمثل كتاب القاضي النعمان **افتتاح الدعوة** الجزء الرئيسي الذي يُعَد المصدر الأصلي الوحيد حول بداية الدعوة الإسماعيلية وقيام الدولة الفاطمية في إفريقية[1]. وقد انتهى صاحبه الذي كان من كبار رجال تلك الدولة، من تأليفه سنة 950/346، في عهد المعز لدين الله. ومن مزايا هذا المؤلف الذي عاش معظم أحداث العصر المعني بالأمر، أنه اعتمد وثائق معاصرة للوقائع التي رواها. وهكذا فإن التغييرات السياسية والاجتماعية العميقة التي أحدثتها دعوة الداعي أبي عبد الله في بلاد كتامة البربرية، ومراحل اجتياح إفريقية، وسقوط نظام الأغالبة السنّي، وأهم الأحداث التي شهدتها عهود الخلفاء الفاطميين الأربعة الأوائل، قد اتضحت بصورة مباشرة، في ضوء معلومات غزيرة ودقيقة، ضمن رواية للأحداث محبوكة السبك ومسترسلة.

كما أن كتاب **المجالس والمسايرات** لنفس المؤلف، رغم أنه مخصص لتاريخ عهد المعز المروي من خلال مختلف المجالس، يتطرق عرضاً إلى عهود الخلفاء الثلاثة السابقين ويتجاوز حدود الموضوع المطروق ليتناول بالدّرس بعض المسائل المذهبية أو الوقائع المتعلقة بتطور الحركة الإسماعيلية بوجه عام. ومما يزيد في قيمة هذا الكتاب على المستوى التاريخي، أنه من الممكن اعتباره تكملة **لافتتاح الدعوة**، لا سيما بالنسبة إلى عهد المعز لدين الله. فهو يسلط أضواء جديدة على بعض جوانب من سياسة الفاطميين، مثل علاقاتهم بالأمويين في الأندلس[2]، والبيزنطيين[3]، والأُسر المالكة في فاس

---

(1) انظر الدراسة التي نشرناها تحت عنوان «بداية الدعوة الإسماعيلية» في مجلة «الدراسات الإسلامية» المجلد 20، 1964، ص 89 - 102.

(2) انظر الدراسة التي نشرناها في مجلة «الأندلس» 1958، ص 97 - 106 تحت عنوان «محاولة تسرب شيعي بالأندلس في عهد الحكم الثاني».

(3) انظر الدراسة التي نشرناها في مجلة «كراسات تونسية» 1959، عدد 26 - 27، ص 307 - 318 تحت عنوان «اقريطش في خضم النزاع بين بيزنطة والمعز».

وسجلماسة[4]. كما يعرض المؤلف على أنظارنا نسخاً من عدة وثائق تتعلق بدواليب الدولة والمؤسسات وحكومة المعز. ولكن كتاب **المجالس** الذي يكتسي صبغة سرديّة يمثل بطبيعة الحال مصدراً متقطعاً ذا قيمة متفاوتة، حسب الأقوال التي نقلها النعمان أو الوقائع التي سجلها وهو بصحبة الخليفة. إلا أن هذا المظهر المتقطع الذي يمثل العيب المميز لمثل هذه المصادر، يعوض عنه إلى حد كبير تنوع المواضيع المطروقة، وحيوية الملاحظات، ودقة التفاصيل وغزارتها، مما يضفي على **المجالس** روعة أدبية، ويقدم إلينا النعمان لا فحسب في مظهر فقيه، بل أيضاً في مظهر كاتب أنيق العبارة، وقصاص بارع، وصاحب «نوادر» غزير المادة، يشبه الصولي في **أخبار الراضي والمتقي** أو التنوخي في «نشواره».

ونجد مثل هذه الصفات في سيرتَيْن ذاتيتَيْن، هما **سيرة جعفر وسيرة جوذر**. وقد أدلى هذان الحاجبان اللذان عاشا في صلب حاشية الأيمّة وتقلدا أعلى المناصب في الدولة، بشهادات حية، وقدما معلومات لم يسبق نشرها حول التاريخ السياسي والمؤسسات ونظام الدواليب الإدارية وسيرها، والحياة داخل البلاط، والحياة الاجتماعية والاقتصادية والمالية.

وتنضاف إلى هذه المصادر الأصلية الممتازة المتعلقة خصوصاً بالفترة الإفريقية، عدة كتب أخرى من تأليف القاضي النعمان أو غيره من المؤلفين الإسماعيليين، وقد أشرنا إليها في المراجع، ولا حاجة لنا إلى ذكرها هنا. وهي تُكمل معلوماتنا وتثريها عند الاقتضاء. إلا أنه يجدر بنا تأكيد أهمية كتاب **عيون الأخبار** للداعي إدريس عماد الدين القرشي المتوفى سنة 1468/872، والذي نقل عن عدة كتب إسماعيلية سابقة من بينها **الافتتاح**، وخصص السبع الخامس وقسماً من السبع السادس[5] للفترة التي ندرسها[6].

---

(4) انظر الفصل الذي نشرناه في مجلة «كراسات تونسية» 1956 عدد 5، ص 295 - 299، تحت عنوان «أسر ابن واسول، متمرد سجلماسة».

(5) [انظر، السبع الخامس والسبع السادس من عيون الأخبار، تحقيق مصطفى غالب، بيروت 1984].

(6) [انظر أيضاً، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**، للداعي إدريس، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985].

وينبغي مع ذلك إبداء بعض الاحترازات حول قيمة المصادر الإسماعيلية. وحيث أن أي تاريخ رسمي مستراب لأول وهلة، فكثيراً ما ترانا نميل إلى الشك في تجرد المؤلفين الإسماعيليين، إذ يمكننا أن نظن أن حرصهم على الدفاع عن الأيمة ضد أهل السنّة قد أثر في موضوعية أخبارهم. ولكن بالرغم من هذا الضعف، لا يسعنا إلا أن نبتهج بالحصول على بعض الوثائق المعاصرة للوقائع أو السابقة لها بمدة قليلة. وهي وثائق تمتاز بجدة معلوماتها وغزارتها، كما هو الشأن بالنسبة إلى **افتتاح الدعوة** أو **سيرة جوذر**. ومما يزيد في ابتهاجنا أنها تمتاز أيضاً بكونها تكمل المعطيات الواردة في المصادر السنّية، وتتوافق معها، وتثبتها، بل تدققها وتصححها في أغلب الأحيان. ومن بين هذه المصادر، تعتبر كتب الأخبار المشرقية والمغربية الصادرة بعد الفترة التي نحن بصدد درسها، ضرورية لا سيما بالنسبة إلى التاريخ السياسي الوارد في الصفحات المخصصة للدولة العُبَيْديّة. من ذلك أن ابن الأثير، والمقريزي الذي اقتبس منه أخباره، والنويري، وابن خلدون، وابن الخطيب، قد ساهموا في تقديم سرد مسترسل يكاد يكون شاملاً للأحداث التاريخية البارزة، من دخول الداعي أبي عبد الله إلى إفريقية إلى رحيل المعز إلى القاهرة. وقد أفضت بنا المقابلة بين تلك الكتب وبين **الافتتاح** إلى نسبة المعطيات الواردة فيها إلى هذا الكتاب الذي اعتبرناه نقطة انطلاق الرواية التاريخية المتعلقة بالفاطميين في إفريقية، وعلى الأرجح فإن ابن الأثير وابن خلدون اللذين اقتبسا أخبارهما من مؤلفات الرقيق وابن شداد المفقودة والمعتمدة من قبل القاضي النعمان كمصدر أساسي، قد نقلا بهذه الصورة محتوى كتاب **افتتاح الدعوة**. وإذا استثنينا مشكل نسب الفاطميين الذي قدم بشأنه معظم الأخباريين معطيات غير ثابتة وآراء متنازع فيها، ما عدا ابن خلدون الذي اتخذ في هذا المضمار موقفاً نقدياً واقتدى به المقريزي، فإن مثل تلك المصادر تعتبر في الجملة جديرة بالثقة بالنسبة إلى التاريخ السياسي وإنما يمكن الشكّ في موضوعيتها بخصوص الحياة الدينية في إفريقية في عهد الفاطميين، نظراً إلى ما اكتسته طريقتها في تقديم الوقائع المتعلقة بالنزاع بين الشيعة والسنّة من صبغة مغرضة.

ولكن البدعة الإسماعيلية التي نددت بها كتب الأخبار السنّية قد كانت محل استنكار أشد وأعم في مصادر سنّية ثانوية أخرى، وهي كتب السير والتراجم. ذلك أن هذه الكتب سواء منها **طبقات** أبي العرب (ت. 114/544) والخشني (ت. 981/371)، أو **رياض النفوس** للمالكي (ت. 1058/450)، أو **مدارك** القاضي عياض (ت. 544/ 1149)، أو **معالم الإيمان** لابن ناجي (ت. 837/ 1433)، قد كان عيبها الأكبر يتمثل في الإساءة إلى ذكرى الشيعة. حيث أن أخبار الاضطهادات التي تعرض لها فقهاء المالكية، والإشارات إلى المساوي وتجاوزات السلطة، قد شُحِنت بالفظائع والتفاصيل المدهشة والأحكام المسبقة، إلى حد يجعل من الصعب تصديقها. ومع ذلك فإن هذا العيب لا ينقص أبداً من قيمة تلك المصنفات المفعمة بالمعلومات المتنوعة والنفيسة التي يتعذر العثور عليها في كتب الأخبار، حول المؤسسات وسير الإدارة، وحول بعض جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية. ولا جرم أن المعلومات المختصرة الواردة فيها حول الحياة الثقافية هي بطبيعة الحال ناقصة. وبما أن أصحابها لم يولوا عنايتهم الدينية إلا إلى فقهاء المالكية والمتعبدين والنساك، فقد أهملوا بصورة تكاد تكون تامة الأحناف والتيارات الأخرى من الفكر الديني وغير الديني. ولكن كثيراً من المعطيات الواردة في **الطِّبقات** ـ إذا ما اقتصرنا على هذا المصدر الأقدم عهداً والمعاصر للوقائع ـ تتطرق عند الحاجة إلى بعض المسائل الدينية أو القانونية وإلى التاريخ السياسي، وتقدم بهذه الصورة إيضاحات مفيدة حول بعض الأحداث التي أشار إليها الأخباريّون إشارة خاطفة.

ولا يقل قيمةً عن تراجم العلماء، الأدب الفقهي الذي لا يمكن أن يستغني عنه مؤرخ إفريقية وغيرها من البلدان الإسلامية. وبالنسبة إلى العصر الفاطمي، تتمثل كتب الفقه الإسماعيلي في مؤلفات القاضي النعمان، **دعائم الإسلام**، **والاقتصار**، **وكتاب الهمّة**. وهناك فائدة في الاطلاع عليها، على الأقل ليعرف القارىء، من خلال المقارنة مع الفقه المالكي والحنفي على وجه الخصوص، كيف تم وضع الفقه الإسماعيلي في إفريقية بعناية القاضي النعمان، ولا تقل فائدة عن ذلك مطالعة النصوص الفقهية السنّية التابعة للعصر الأغلبي (مثل مدونة

سحنون، والقطع التي وصلتنا من مصنفات أسد بن الفرات الحنفية[7] والهيثم القيسي[8]) أو التابعة للعصر الصنهاجي (مثل نوادر ابن أبي زيد)، إذ يمكن أن نجد فيها كثيراً من التفاصيل التي تهم العصر الفاطمي.

ولكن تجدر الإشارة بوجه خاص إلى نصين قانونيين فنيين يكتسيان أهمية بالغة بالنسبة إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وهما **أحكام السوق** ليحيى بن عمر (ت. 902/289) و**مسائل السماسرة** للأبياني (ت. 352 - 963). فالكتاب الأول رغم أنه سابق للفترة التي تهمنا، يبقى صالحاً إلى حد كبير بالنسبة إلى القرن العاشر، ويتميز بجميع خصائص كتب الحسبة المقدرة حق قدرها من قبل المؤرخ الذي يكون سعيداً بالتمكن من سبر أغوار الحياة العملية والنشيطة للمجتمع الذي يدرسه، من خلال تلك الكتب. أما الكتاب الثاني الذي يتعلق بمسؤولية السماسرة في النسيج لا غير، فهو من شأنه أن يهم أيضاً الفروع الأخرى من التجارة في المدن، ويكتسي بهذا العنوان أهمية بالغة لا سيما وقد تم تأليفه حسبما يبدو في عهد الخليفة الفاطمي الثالث المنصور.

وعلى غرار كتب التراجم والنصوص القانونية والفنية، تعتبر كتب الجغرافيين تكملة ضرورية بقدر ما هي ثمينة، للأخبار الجافة والمخيّبة للآمال، والبيانات الهزيلة والمعلومات الزهيدة.

---

(7) انظر حول هذا القاضي الحنفي الشهير وفاتح صقلية، دائرة المعارف الإسلامية، ج 1 (أسد بن الفرات بقلم جورج مارسي، ص 706).

(8) قطعة هامة من كتاب مفقود يحمل عنوان: الكتاب الرابع في أدب القاضي والقضاء بقلم الفقيه والقاضي الحنفي هيثم بن سليمان بن حمدون القيسي الذي خصص له الخشني في طبقاته ترجمة قصيرة (تحقيق ابن الشنب، ص 192). وهو تلميذ رئيس المدرسة الفقهية العراقية بالقيروان سليمان بن عمران، وقد تقلد منصب القضاء الحنفي في مدينة تونس. وتسمح تلك القطعة التي قمنا بتحقيقها، وهي الان تحت الطبع، بمتابعة ضبط وتطوير المذهب الحنفي بفضل تأثير تلميذ الإمام أبي حنيفة، محمد بن الحسن الشيباني الذائع الصيت. وقد كان لهيثم ولدٌ اسمه محمد، وهو أيضاً فقيه على المذهب الحنفي ذكره الخشني (في نفس الترجمة) وابن عذاري(البيان، ص 187)، وقد توفي سنة 309 هـ.

كما أن الفقرات التي خصصها ابن خرداذبه[9] أو ابن الفقيه[10] لإفريقية، والصالحة أساساً للقرن التاسع، يمكن أن تهم عند الاقتضاء العصر الفاطمي، لا سيما فيما يتعلق بأسماء المواقع والمسالك أو فيما يتعلق بخصائص الشعوب.

ولكن الفقرات المقابلة لذلك في كتاب **البلدان** لليعقوبي الذي زار إفريقية خلال إحدى رحلاته العديدة، على الأرجح فيما بين 876 و 896، وجمع معلوماته في حدود سنة 891، تمتاز بكونها تتعلق بتلك البلاد في نفس الفترة التي شهدت طلوع نجم الفاطميين في الأفق وأفول نجم الأغالبة. على أن المعلومات التي قدمها اليعقوبي حول الطرقات الاستراتيجية والواقع السياسي والاجتماعي والنظام العسكري في المدن المحصنة، مثل ميلة وسطيف وبجاية وبلزمة... قبيل الغزوة الكتامية، تتطابق مع عديد المعطيات الواردة في **افتتاح الدعوة**، وتساعد من خلال تأكيد ضعف النظام الدفاعي غربي المملكة، على تفسير سقوطه السريع وما أحرزته تلك الغزوة من نجاح باهر.

إلا أن الصفحات القليلة التي خصصها الإصطخري[11] (ت 332 - 934) للمغرب لا تكتسي أهمية خالصة. ولكن هناك كتاب جغرافيا آخر، وهو كتاب **المسالك والممالك** لابن حوقل، يتسم بميزة استثنائية تتمثل في تقديم وصف لإفريقية كما شاهدها المؤلف خلال الفترة التي نتناولها بالدرس. ورغم أن ابن حوقل قد حرر «دليله» على الأرجح حوالي سنة 977/367، استناداً إلى دليل الأصطخري، فإنه قد قام بعمل مبتكر في الأقسام المتعلقة بالمغرب وصقلية، وأثبت فيها ثمرة تجربته الذاتية ونتائج ملاحظاته الشخصية[12]. ذلك أنه قد

---

(9) [ابن خرداذبة، **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق الحاج صادق، الجزائر، 1949].

(10) [ابن الفقيه الهمذاني، **كتاب البلدان**، تحقيق الحاج صادق، الجزائر، 1949].

(11) [الأصطخري، **المسالك والممالك**، تحقيق محمد عبد العال، القاهرة، 1961].

(12) انظر في هذا الصدد ملاحظات أندري ميكال حول ابن حوقل في دائرة المعارف الإسلامية، ص 810 - 811.

استقى معلوماته حول تلك الربوع أثناء الرحلة التي قام بها في إفريقية سنة 943/331، وهو ما زال صغير السنّ. وقد كان مدفوعاً بالرغبة الملحة في المعرفة، والميل إلى المغامرة، وجاذبية الرحلات الطويلة والبلدان النائية، بقدر ما كان مهتماً بالكسب التجاري وثراء كبار التجار. فلم يقتصر لحسن الحظ على الملاحظات الجغرافية الصرف، بل وفر لنا معطيات تاريخية غزيرة ومدققة، ومعلومات نفيسة حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية. ومما يزيد في قيمتها أن ملاحظاً نبيهاً مثل ابن حوقل قد استقاها على عين المكان.

هذا وإن وصف ابن حوقل لإفريقية، الصالح للعصر الفاطمي بتمامه وكماله، من شأنه أن يسمح للمطالع بأن يدرك على أحسن وجه ممكن مدى أهمية الانقلاب الذي أحدثه في تلك البلاد انتصار القضية العلوية التي غذاها طموح الكتلة البربرية الكامن، وإقامة نظام مرتكز ارتكازاً راسخاً على قوة كتامة، وتأصيل المذهب الإسماعيلي على حساب المذهب السنّي. وتتمثل ميزة هذا الوصف بالمقارنة مع وصف اليعقوبي، في المساعدة على تقدير الحدث الشيعي وأبعاده، من خلال التغييرات التي طرأت على ملامح إفريقية منذ أوائل القرن العاشر، والتعرف على طبيعة الحضارة الفاطمية وخصائصها على أحسن وجه ممكن.

ولا تقل الفقرات التي خصصها المقدسي للمغرب أهمية بالنسبة إلى موضوعنا عن كتابات ابن حوقل، رغم أنها أقل منها اتساعاً. ومع أن المقدسي قد حرر كتابه سنة 985/375، فإن وصفه لتلك البلاد يبقى صالحاً للعصر الفاطمي. ولئن لم يرتحل المقدسي إلى إفريقية، حسبما يبدو، كما فعل ابن حوقل أو اليعقوبي، إلا أن كتاباته تكتسي صبغة دقيقة وثابتة. وقد أكد أنه أهمل نقل الأخبار التي رواها الكتاب الذين سبقوه حول المغرب، وحرص على القيام بعمل مبتكر. ذلك أن الوثائق التي جمعها كانت ثرية بما فيه الكفاية، والمعلومات التي استقاها من خلال استجواب بعض الحجيج أو المسافرين أو التجار كانت غزيرة ومتنوعة، تتضمن تفاصيل حول الوضع السياسي والحياة

الدينية، ومنتجات الصناعة التقليدية والنشاط التجاري والموازين والمكاييل والأشياء العجيبة[13].

أما وصف البكري لبلاد المغرب، فرغم أنه يتعلق بفترة موالية للعصر الفاطمي بمدة طويلة، يمكن مع ذلك أن يهم القرن العاشر بأكمله. ذلك أن صورة إفريقية، لما ألّف هذا الجغرافي الأندلسي كتابه حوالي سنة 1062، لم تتأثر كثيراً برحيل الفاطميين إلى مصر، ولا بتقلّد بني زيري الحكم ثم بانفصالهم عن الخلافة الفاطمية. كما لم تدخل عليها غزوة بني هلال تغييرات ذات بال. أضف إلى ذلك أن البكري، رغم عدم مغادرته لبلاده، كان مطلعاً كما ينبغي على الأمور، وكانت معلوماته غزيرة بقدر ما هي ثابتة. وقد سعى، لتحرير «دليله» الذي أثراه بلا شك بالمعطيات الأصلية والحديثة العهد التي استقاها هو ذاته لدى المخبرين القادمين من المغرب، إلى نقل ما وجده في كتاب **المسالك والممالك** للكاتب القيرواني محمد بن يوسف الورّاق الذي كان قد فرّ من إفريقية واستقر في قرطبة في عهد الحكم الثاني. وبناء على ذلك فإن كتاب البكري المستند إلى مصدر إفريقي معاصر للوقائع التي شاهدها صاحبه، قد أكمل لحسن الحظ الوثائق التي قدمها ابن حوقل بالنسبة إلى نفس العصر، حول التاريخ السياسي والحياة الاقتصادية والاجتماعية وخصائص البشر[14].

ولكننا لا نستفيد كثيراً من الإدريسي الذي ألف كتابه «**نزهة المشتاق**» سنة 1154. ذلك أن إفريقية التي وصفها هذا الجغرافي قد تغيرت منذ الغزوة الهلالية إلى حد يجعلنا نستعمل هذا الكتاب بحذر بالنسبة إلى الفترة التي تهمنا. ومن بين كتب الرحلات، لم نستفد بصورة تستحق الذكر إلا من «**رحلة**» التجاني التي امتدت من 1306 إلى 1308. فقد وجدنا في هذا الكتاب عدة استشهادات مستمدة من بعض الكتب المفقودة مثل أخبار الرقيق وابن شداد وابن شرف. كما

---

(13) انظر المقدسي، ترجمة بلاّ (مقدمة المترجم ص. 7 - 10) وميكال (المقدمة وبالخصوص ص 30 - 34).

(14) انظر بالخصوص، دائرة المعارف الإسلامية 1، (أبو عبيد البكري) بقلم ليفي بروفنسال، ص 159 - 161.

اقتبسنا منه عدة معلومات ذات صبغة تاريخية وعرقية لم يسبق نشرها من قبل، حول بعض المدن، مثل طرابلس والمهدية.

وبالإضافة إلى هذه المصادر المستمدة من الكتب القديمة اعتمدنا مصادر أخرى خاصة، قد ساعدتنا مساعدة كبيرة. وهي تتمثل في بعض الذخائر النفيسة والنادرة على حد سـواء، مثل النقود وقطع الخزف والنسيج والزجاج. كما تتمثل أيضاً في نتائج الحفريات الأثرية الحديثة العهد التي جرت في المهدية ورقادة. وهي جملة من العناصر من شأنها أن تساعد على توضيح ثراء الفن والحضارة في العصر الفاطمي.

وهكذا فقد اقتصرنا على تقديم لمحة مختصرة ونقدية حول المصادر الأساسية التي اعتمدناها دون سواها، تاركين جانباً عدة وثائق أخرى ذات أهمية ثانوية، قد أثبتناها مع الدراسات القديمة والحديثة العهد في قائمة المصادر والمراجع، أو أحلنا عليها في صلب هذه الدراسة.

إلّا أنّ بعض الأعمال التي تناولت بالدرس بعض جوانب من موضوعنا، مثل أبحاث إيفانوف أو ليويس أو شتـارت أو كنار أو جورج مارسي أو فايزي، أو كامل حسين أو الهمذاني، قد خففت من مهمتنا، وهي تستحق ما تستوجبه قيمتها من درجة مشرفة.

وفي الختام نرى من واجبنا الإشارة إلى أطروحة روبار برنشفيك[15] ومؤلفات ليفي بروفنسال، مع الإشادة اللازمة بقيمتها التي يتعذر تقديرها.

---

(15) [**تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988].

2 ـ إفريقية قبل قيام الدولة الفاطمية
البلاد والعباد

أ ـ التطور السياسي:

ـ من الفتح إلى ارتقاء إبراهيم الثاني العرش.

لقد تميز الفتح العربي لإفريقية الذي تم في حدود منتصف القرن السابع من الميلاد، وعلى وجه التحديد سنة 27/647، بكثرة الصعوبات التي واجهته، وبضراوته وطول مدته. فلم يتمكن الفاتحون العرب من ضم هذه الرقعة من المغرب النائي إلى ممالكهم الممتدة الأطراف إلا في مطلع القرن الموالي، بعد ما تغلبوا نهائياً على الجيوش البيزنطية باستيلائهم على قرطاج سنة 79/698، وقمعوا المقاومة البربرية المستميتة إثر وفاة الكاهنة سنة 82/701 (16).

---

(16) إن المصادر والمراجع المتعلقة، بفتح إفريقية غزيرة جداً ولكنها متفاوتة القيمة فلا فائدة حينئذٍ في وضع قائمة مفصلة بأسمائها بل سنقتصر على الإشارة إلى المصادر الأساسية وأوثق الدراسات وأقربها عهداً:

1 ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ترجمة A. Gateau، الجزائر 1942، الطبعة الجديدة، الجزائر 1948.

2 ـ ابن عذاري، البيان، ج 1، ص 1 - 92.

3 ـ برنشفيك، ابن عبد الحكم وفتح العرب لشمال إفريقيا، دراسة نقدية في حوليات معهد الدراسات الشرقية، الجزائر، 1942/6 - 47، ص 108 - 155.

4 ـ جورج مارسي، بلاد البربر الإسلامية والمشرق في العصر الوسيط، الجزائر، باريس 1946، 19 - 57.

5 ـ ليفي بروفنسال Arabica occidentalia II: رواية جديدة لفتح العرب لشمال إفريقية، أرابيكا 1، (1154)، ص 17 - 43. =

وطوال هذا القرن الثامن تداول الولاة الأمويون ثم العباسيون على الحكم بنسق على غاية من السرعة، مما استوجب تعيين ما لا يقل عن عشرين والياً لإقرار سلطة غير ثابتة ومتزعزعة باستمرار في إفريقية، إلى أن عين هارون الرشيد على رأسها إبراهيم بن الأغلب سنة 184/800. وخلال تلك السنوات المائة من التاريخ «المظلم» الذي لم تستطع لا المصادر القديمة ولا الدراسات الحديثة توضيحه إلا بصعوبة، لم تعكس صورة إفريقية «تحت وصاية المشرق» سوى الاضطراب والارتباك. فقد اندلعت وخمدت بسرعة ثورات دامية، من أجل افتكاك سلطة الولاة الواهية، مثل ثورة عبد الرحمان بن حبيب الفهري على حنظلة بن صفوان، أو ثورة حبيب بن عبد الرحمان على عمّه إلياس بن حبيب. وثار الجند أثناء الانتفاضات التي قام بها بعض قواد العناصر الشامية أو الخراسانية الأصل، ولم يتمكن الولاة من إخمادها، مثل ثورة عيسى بن موسى الخراساني على محمد بن الأشعث، أو ثورة تمام بن تميم على محمد بن مقاتل العكي، كما اندلعت اضطرابات سياسية واجتماعية ودينية، أثارها البربر الخوارج والإباضية والصفرية الذين واصلوا تمردهم الوراثي على الغزاة الشرقيين، تحت غطاء النزاعات الدينية.

تلك هي لمحة وجيزة عن الأحداث الدامية التي تخللت هذا القرن الثامن، مقيمةً الدليلة على حالة عدم الاستقرار والاضطراب التي كانت سائدة عهدئذٍ في إقليم إفريقية[17].

وخلال المائة سنة الموالية، يبدو أن هذه البلاد قد وجدت توازنها في ظل السلطة الأغلبية المتواصلة بلا انقطاع. وهذا لا يعني أن القلاقل والحروب الداخلية وأعمال القمع المميزة لحالة «الفتنة» الملازمة لحكم الأسر المالكة الإسلامية في العصر الوسيط قد توقفت بغتةً. وإنما يعني أن الأمراء الأغالبة قد

= 6 هشام جعيط، ولاية إفريقية في القرن الثاني هـ/ الثامن م، مجلة الدراسات الإسلامية (ج. 27 - 28)، 1967، ص 77 - 121 و80 - 107.

(17) انظر حول عدم استقرار سلطة الولاة الأمويين والعباسيين، هشام جعيط، نفس المرجع، ص 82 - 87.

توفقوا، رغم بعض التقلبات، إلى قمع الثورات الخطرة والفتاكة، مثل ثورة منصور الطنبذي[18]، والمحافظة على عرشهم. فقد كانت الدولة الأغلبية المعترفة ظاهرياً بالسيادة العباسية، تتمتع باستقلال فعلي قلما يتضايق من علاقات التبعية تجاه بغداد. ذلك أن تلك الدولة القائمة حول الكتلة العربية المضرية، والمستندة بالخصوص إلى الفرع التميمي الذي تنتمي إليه الأسرة المالكة، قد اكتسبت، من بين الدول الأخرى القائمة في حوض البحر الأبيض المتوسط من بيزنطة إلى قرطبة، هيبة وسطوة، بفضل فتح صقلية الذي تم في عهد زيادة الله الأول. وإن هذه القوة المتمثلة في الاستقرار النسبي للنظام، ومتانة بنيته التي لا يمكن إنكارها خلال العهود الموالية، قد بلغت ذروتها لما اعتلى إبراهيم الثاني العرش سنة 261/875 [19].

ـ من الانحطاط إلى سقوط الدولة الأغلبيّة:

ومع ذلك ففي الوقت الذي بدت فيه الدولة في تمام صحتها تحت سلطة ذلك العاهل، أخذت تظهر علامات تفككها، وبدأت الأزمة التي ستؤول حتماً إلى سقوطها.

واعتماداً على رواية معظم الأخباريين الذين أطنبوا ـ باستثناء ابن الأثير ـ في الحديث عن جرائم إبراهيم الثاني، قد نميل إلى اكتشاف سبب من أسباب ضعف سلطته من خلال عيوبه وقساوته وميله المرضي إلى العنف والقتل. ومما لا شك فيه أن الإسراف في الاستبداد ينخر سلطة الملوك ويوهن نظامهم. ألم يثبت ابن خلدون الذي أكد مساوي ذلك الأمير في مقدمته أن مثل تلك التجاوزات تعتبر من العوامل الفعالة في انحطاط الممالك؟. إلا أنه لا يوجد

---

(18) انظر حول ثورة منصور الطنبذي (باللغة الفرنسية)، حسن حسني عبد الوهاب، المجلة التونسية 31 - 32، ص 243 - 352.

[وانظر النص العربي لهذه الدراسة في ورقات، ج 3، ص 281، ثورة الطنبذي منعرج في تاريخ الأغالبة].

(19) انظر حول العصر الأغلبي، دائرة المعارف الإسلامية 1، ص 255 - 258 بقلم جورج مارسي وشاخت. انظر أيضاً، الافتتاح، ص 134 - 218.

مثال واحد لأسرة مالكة إسلامية في العصر الوسيط لا تعد من بين أفرادها ملكاً سفاحاً. بل كثيراً ما نجد نفس الملك ـ كما هو الحال بالنسبة إلى إبراهيم الثاني ـ يتحول بين عشية وضحاها من الجنون الفتاك إلى الورع، ويقوم بأعمال مفعمة بالفضيلة، بعد كل ما ارتكبه من فظائع.

ومعذ لك يبدو إبراهيم الثاني في مظهر ملك عظيم ومثقف دقيق، قوي الشكيمة، محب للقتال، مما جعل جيرانه النصارى في صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية، يخشونه. وبناءً على ذلك فإنه من باب المبالغة اعتبار سلوكه ـ مهما كان سيئاً ـ ذا تأثير أكيد على الداء الذي استولى على الدولة منذ سنة 226/880، فقد ظهر عهدئذٍ الخطر الطولوني الذي تصدى له «الجند» الأغلبي بجهد جهيد، ولكنه كشف ضعف ذلك الجيش الذي تضاءلت خصاله الحربية منذ أن نجح أسلاف إبراهيم الثاني في تعقيله.

وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات اندلعت الثورة المعروفة «بثورة الدراهم»[20]، بسبب الإصلاح النقدي الذي حققه إبراهيم الثاني، رغم ما اكتساه ذلك الإصلاح من صبغة صائبة. وقد بينت تلك الثورة نفور الناس من ذلك الأمير الذي أحبط هيجان العامة سلطته المعززة بوجه خاص بالحرس الأسود. وبما أن النظام لم يعد قادراً على فرض احترامه على الناس، فقد كان ذلك إشارة لحدوث أزمة ما لبثت أن اندلعت سنة 280/983. وهي السنة المقدرة التي بدأ فيها البناء الأغلبي يتزعزع قبل أن ينهار تماماً بعد ذلك بستة عشر عاماً أي سنة 296/909، تحت تأثير الضربات المتكررة التي سددها إليه الكتاميون البربر.

وقد استرعت بعض الأحداث البارزة انتباه الأخباريين إلى هذا التاريخ الهام. وهي تتمثل أولاً في دخول الداعي أبي عبد الله إلى إفريقية ونزوله عند بني سكتان في إيكجان، ثم تحريضه سكان منطقة القبائل الصغرى على شق عصا الطاعة في وجه رّقادة، واشتعال نيران الثورة التي تجنب إبراهيم الثاني التصّدي

(20) انظر حول ثورة الدراهم بالخصوص، البيان، ص 120 - 121.
[وانظر أيضاً ح. ح. عبد الوهاب، ورقات، ج 1. ص 432]

لها، وسنستعرض وقائعها في فقرة لاحقة[21].

أضف إلى ذلك أن إبراهيم الثاني قد أفنى الجند العربي في بلزمة في نفس الوقت الذي نزل فيه الداعي في بلاد كتامة. وحول خصومات الأمير مع أصحاب هذه المدينة المحصنة[22] يقدم إلينا **الافتتاح**، علاوة على المعطيات الواردة في كتب الأخبار، الأخرى لا سيما منها **البيان**، بعض الإيضاحات: فقد استقر بنو مالك المنتمون إلى بطن من بطون تميم في بلزمة، حيث كانوا لا يعترفون بالسلطة الأغلبية إلا صورياً. من ذلك أنهم قد تخلوا عن القتال أثناء الحملة العسكرية التي قادها سنة 865 في الزاب أبو خفاجة، أحد قواد الأمير أبي الغرانيق، وتركوا جيشه يتعرض لهزيمة نكراء. وبعدما فشل أبو الغرانيق في قمع تمردهم بالقوة، حاول خلفه إبراهيم الثاني إخضاعهم بالحيلة، وذلك بقتل ألف رجل من خيرتهم في كمين نصبه لهم في رقادة. وقد أشار القاضي النعمان إلى أسباب هذه الواقعة فقال: «كان إبراهيم بن أحمد قد اعتقل رجلاً في حبسه من أهل باغاية يقال له كريم بن زرزر لأمرٍ نقمه عليه. فهرب من حبسه، فأتى بني مالك ببلزمة مستجيراً بهم من إبراهيم بن أحمد فأجاروه»[23]. فسلط عليهم إبراهيم الثاني ذلك العقاب الشنيع لينتقم منهم. ولكن هذا الحادث لم يكن سوى ذريعة ليس إلاّ. إذ أن السبب الحقيقي هو حرص الأمير، من خلال قتل أبناء قبيلته التميميين، على إبادة آخر من تبقى من «الجند» العربي الذي حافظ على سلامة خصاله الحربية، وكثرة رجاله، واعتزازه بقبيلته والتحامه بها.

وحسب القصيدة التي نظمها شاعر شيعي معاصر من أهل نفطة[24] يقال له محمد بن رمضان[25]، وأشاد فيها بذكرى الأسياد البلزميين، وندد بالطاغية، فقد أجّجت تلك الواقعة حقد السكان على بني الأغلب وأنذرت بقرب انقراض

(21) **الافتتاح**، ابتداء من الفقرة 30.

(22) نفس المصدر، الفقرة 64.

(23) [نفس المصدر، ص 70].

(24) نفس المصدر، الفقرتان 28 - 64.

(25) نفس المصدر، الفقرات، 65 - 66 - 67.

دولتهم، والواقع أن مقتل «جند» حصن بلّزمة الذي كان أصحابه العرب يسيطرون على كتامة من البربر، وكان يشرف على بلادهم، قد فتح في الناحية الغربية من إفريقية ثغرة واسعة في الجهاز الدفاعي الأغلبي.

وإثر هذه الفاجعة، وجدت الدولة الأغلبية نفسها ـ كما كان الشأن في عهد زيادة الله الأول أثناء ثورة منصور الطنبذي ـ على قاب قوسين أو أدنى من سقوطها. ولكن هذه المرة لم تتحرك العناصر المتمردة من الجند، بل إن سكان المدن والأرياف هم الذين شقوا عصا الطاعة في وجه السلطة. فقد ثارت أولاً تونس والجزيرة[26] ثم الأربس وباجة وقمودة، وما لبثت أن اشتعلت نيران الثورة في كامل البلاد، ما عدا منطقة الساحل والشريط الساحلي الشرقي حتى طرابلس. فانزوى إبراهيم الثاني أول الأمر داخل الخنادق التي حفرها حول رقادة، ثم تمكنت جيوشه المعززة بالخصوص بالعناصر المخلصة من حرسه الأسود من تدارك الوضع تدريجياً فاستقر الأمير في تونس التي افتتحها من جديد «بحد السيف». ولكن ذلك لم يكن يمثل سوى فترة توقف قصيرة، فقد تفاقم نفور الناس من إبراهيم الثاني، مما دفع الخليفة العباسي، المعتضد الذي بلغته شكوى من أهل تونس، إلى مطالبة تابعه بتحسين سلوكه مع البشر. إلا أن ذلك لم يمنع الأمير الأغلبي من معاملة نفوسة معاملة قاسية، لما تحول إلى طرابلس للقيام بحملة عسكرية ضد واليها محمد بن زيادة الله، ابن عمه. ولكنه خاف من النجاح الذي أحرزته الدعوة الشيعية لدى كتامة، وتعاظم نفوذ الداعي الذي اجتنب محاربته، مقتصراً على توجيه تهديدات شفاهية حملها إليه المنجم ابن المعتصم[27]. فأظهر إبراهيم من جديد التحلي بالورع وتوخي الاستقامة، وانتهى به الأمر، بتحريض من الخليفة المعتضد، إلى التنازل عن العرش لفائدة ابنه أبي العباس (عبد الله الثاني) والرحيل إلى صقلية في شهر يونيو 289/902 لمحاربة النصارى.

---

(26) [أي الوطن القبلي].

(27) الافتتاح، الفقرتان 53 - 54.

وهكذا ففي الوقت الذي بدأ فيه الخطر الشيعي يتوضح بالمغرب، تحول الأمير الأغلبي إلى الشرق للقتال في منطقة لا تمثل أي خطر جدي يهدد مملكته. ورغم تأكيد القاضي النعمان على ما كان يشعر به إبراهيم الثاني من خوف تجاه الداعي وإطنابه في الحديث عن مشاعر الأمير وبعض أفراد عائلته وكبار رجال حاشيته، الموالية للشيعة، فإنه يصعب علينا تصديق مثل هذا التأويل لقرار متناقض إلى ذلك الحد. كما لا يمكننا تصديق ما قدمه ابن الأثير من تأويل خاطىء بوجه واضح. فحسب رواية هذا المؤرخ المشرقي، أراد إبراهيم الثاني أداء مناسك الحج، بعدما تزهد. ولكنه اجتنب المرور بالقوة من مصر الطولونية لتلافي إراقة دماء المسلمين، واختار الطريق البحرية التي تمر من صقلية للجمع بين عملين صالحين وهما الحج والجهاد، ومن المحتمل أكثر أن يكون الأمير الأغلبي قد حرص من خلال القيام بحملة عسكرية في صقلية، استغلال سياسة الحزم والهيمنة التي كان قد انتهجها في القسم الشرقي من الجزيرة وفي إيطاليا ذاتها. ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد فكر في التوجه لا إلى بيزنطة ـ كما أشار إلى ذلك ابن الأثير خطأً ـ بل إلى رومة البابوية، تحدوه حمية المجاهد المتحمس، أو تدفعه قوته المتعاظمة إلى مواصلة تحقيق أغراضه الكبرى. ولا شك أن إبراهيم الثاني قد قام بحملته ضد العدو النصراني، على أمل إصلاح الوضع الفاسد السائد في إفريقية عهدئذٍ، وإحراز بعض الانتصارات ذات الصدى البعيد(28).

ومن الأكيد أن فتح صقلية في عهد زيادة الله الأول قد أعاد السلم الداخلية إلى نصابها في إفريقية وسمح بتشييد دولة عتيدة. ولكن هذه الحملة التي قررها إبراهيم الثاني في وقت غير مناسب، إذ أنها ستبعد من البلاد الجيوش اللازمة للدفاع عنها ضد الداعي، ستوفر لهذا الأخير الفرصة الملائمة للهجوم والاستيلاء على حصن ميلة في سبتمبر 902 / شوال 289 (29). وهكذا ففي الوقت

---

(28) نفس المصدر، الفقرة 70.

(29) نفس المصدر، الفصل 14.

الذي فتح فيه إبراهيم الثاني طبَرْمين [بصقليّة]، استولى الداعي على أولى المدن المحصنة واستهل حملته على رقادة بانتصار عسكري باهر.

على أن إبراهيم الثاني لم يلبث أن لقي حتفه أثناء حصار كُسَنْتَه[30] يوم 19 أكتوبر 13/902 ذو القعدة 289، بعدما عهد بقيادة الجيش إلى ابنه أبي الأغلب الذي تخلى بدوره عنها لفائدة ابن أخيه زيادة الله. وقد حاول هذا الأخير تحريض صقلية على الثورة على أبيه عبد الله الثاني. والحال أن هذا الأمير قد سعى منذ ارتقائه العرش إلى إنقاذ الموقف، بفضل ورعه وردود فعله الحازمة ضد الداعي. فقد وجه حملتين قويتين متتاليتين إلى بلاد كتامة بقيادة ابنه أبي حوال[31]، واستقدم زيادة الله من صقلية وسجنه في قصره[32].

ثم إن الوضع الذي تحسن مدة من الزمن تعكر من جديد. فقد قتل عبدَ الله الثاني بعضُ غلمانه ليلة الأربعاء 27يوليو 28/903 شعبان 290، ربما بإيعاز من زيادة الله الذي تقلد إثر ذلك الحكم، ومنذ ذلك الحين تسارعت أحداث الفصل- الثاني الذي سنستعرض تفاصيله فيما بعد عند حديثنا عن اجتياح إفريقية. فقد استدعى زيادة الله الثالث أخاه أبا حوال من منطقة القبائل الصغرى وأمر بقتله هو وعدد كبير من أفراد عائلته. ثم حاول عبثاً عرقلة زحف الكتاميين، وتسلى عن عجزه بتعاطي الفسق والفجور، وتنازل أخيراً عن عرشه ليلة الاثنين 21 مارس 25/909 جمادي الثانية 295، إثر كارثة الأربس، ولاذ بالفرار إلى المشرق في جنح الليل.

ب ـ الوضع الديموغرافي والتوازن الاجتماعي:

لقد حدد تقويم تقريبي عدد العناصر العربية المستقرة بإفريقية طوال مدة الفتح، أي من منتصف القرن السابع من الميلاد إلى نهاية القرن الثامن، بحوالي

---

(30) [في الافتتاح، كُشتة].

(31) [هكذا في الافتتاح، وفي بعض المصادر الأخرى أبو عبد الله الأحول]

(32) نفس المصدر، الفصلان 15 - 16.

150.000 نسمة. وتفتقر المصادر المتوفرة لدينا بصورة تكاد تكون تامة إلى المعلومات المتعلقة بالوضع الديموغرافي المترتب على انتصاب أفراد القوات المسلحة العربية في تلك البلاد بعد فتحها. إلا أنه من الممكن أن نعتبر أن ذلك الرقم يمثل في الجملة سدس مجموع السكان، وأن هذا المجموع يتركب أساساً من البربر الذين يمثلون «أقدم عنصر من أهل البلاد الأصليين»، وبدرجة أقل من ذلك بكثير، من «الأفارق» و «الروم».

ويبقى مع ذلك بعض الشك عالقاً بالأذهان، رغم الملاحظات الثمينة التي أبداها جورج مارسي وليفيكي حول تعريف أولئك الأفارق تعريفاً صحيحاً[33]. ويبدو أن كلمة «أفارق» أو «أفارقة»، ومفردها إفريقي، تعني لا فحسب الإفريقيين الذين اندمجوا في الرومان واعتنقوا الدين المسيحي، أي أعقاب أهالي مقاطعة «أفريكا» الذين امتزجوا بالعناصر الرومانية، بل تعني أيضاً ذرية قدماء المستوطنين اللاتينيين الذين استقروا في البلاد واندمجوا في العناصر الإفريقية.

أما تعريف كلمة «روم»[34] فهو أكثر وضوحاً. إذ أن هذه الكلمة تعني البيزنطيين، كما تعني قدماء الرومان أو «الروم القدم». وقد لاحظ ليفيكي بصواب أن هذا الاسم يكتسي صبغة أعم، ويطلق على جميع السكان الناطقين باللغة الرومانية.

ورغم أهمية المدد البشري العربي، يمكن أن نستنتج من ذلك أن طول مدة الفتح، أي أكثر من نصف قرن، والمقاومة البربرية المستميتة، والنزاعات السياسية الدينية، قد جعلت من العسير نشر الإسلام في إفريقية وتعريبها، وعلى هذا الأساس فإن علاقات المناهضة بين العرب وأهل البلاد الأصليين قد حالت

---

(33) انظر ليفيكي T. Lewicki، لغة رومانية منسية في إفريقيا الشمالية، Rocznik orienmtalisticgnyg XVII، كراكوفي، 1953، ص 417 - 418.

[انظر أيضاً، ح. ح. عبد الوهاب، ورقات 241/3، عناصر الشعب التونسي وامتزاجها].

(34) ليفيكي، المرجع المذكور، ص 419 - 426.

بلا شك دون اندماجهم العميق، ولو أن اندماج الأجناس المختلفة قد تم في الحال عقب بعض الفتوحات الإسلامية الأخرى، مثل فتح الأندلس الذي كان سريعاً وناجحاً بصورة استثنائية.

وإثر تولي الأغالبة زمام الحكم، وتأسيس الدولة، وقيام نظام يكتسي أقل هشاشة من نظام الولاة الذين كانت تهزهم دوماً وأبداً الاضطرابات، وتجديد الموظفين المضطلعين بمهام الولاية، طرأت بعض التغييرات على الوضع الديموغرافي في إفريقية قبل أن يصبح في أواخر القرن التاسع على الحالة التي وصفها اليعقوبي في مصنفه كتاب **البلدان**[35]. وينبغي الرجوع إلى الوراء لنشعر بظهور تغيير هام في مدة ولاية «المهلب الأول». إذ لا شك أن الخليفة العباسي المنصور، بتوجيه يزيد بن حاتم المهلبي إلى القيروان سنة 155/772، قد فكر في انتزاع الصبغة الأموية من الإقليم المغربي، لا سيما وقد قامت في طرفه الآخر إمارة أموية بالأندلس منذ سنة 138/756. ومن المعلوم أن الجيش الذي قدم مع يزيد بن حاتم لنجدة القيروان كان يضم عناصر تابعة لجند الشام والعراق وخراسان. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن الوالي العباسي الجديد والولاة الذين جاؤوا من بعده من آل المهلبي كانوا يعتمدون على الفرق العراقية والخراسانية، وأن معظم أفراد الجند التابعين للعصر الأموي قد تم تسريحهم أو تنصيبهم في عدة مناطق داخل المدن المحصنة أو في الأراضي التي اقتطعت لفائدتهم. أضف إلى ذلك أن «الفتنة» التي أثارها البربر في إفريقية قد خفت نفسها طوال هذا الربع الأخير من القرن الثامن وأوشكت على الانتهاء، لتحل محلها حركات تمرد لا تقل عنها حدة، تتمثل في ثورة الجند على سلطة الأمراء الأغالبة. وخلال هذه الفترة بالذات التي تصادف فترة «الأمراء المهالبة»، على حد تعبير بعض الأخباريين[36]، بدأ استقرار الوضع وتنظيم السلطة التي ورثها بنو الأغلب على

---

(35) انظر، **البلدان** 208/8 وما بعدها.

وانظر أيضاً جورج مارسي، بلاد البربر في القرن العاشر حسب اليعقوبي، المجلة الإفريقية، 1941، 40 - 61.

(36) **البيان**، 78 - 79.

رأس الدولة التي كان من الممكن أن يأسسها المهالبة لو كان خلفاء يزيد حازمين وسائرين سيرة حسنة مثله.

إلاّ أن الاستقرار الذي أشار إليه اليعقوبي لم يكن فعلياً إلا بعد فتح صقلية. فقد تم تقريباً تدجين الجند الذي استقر عدد كبير منه في تلك الجزيرة بعد فتحها. كما أن البربر الذين تم تشريكهم في ذلك الفتح، مثلما شاركوا من قبل في فتح الأندلس، قد دانوا تقريباً للسلطة داخل البلاد، أو أوقف تقدمهم في غرب وجنوب البلاد بمناطق القبائل الصغرى وأوراس ونفوسة، البعيدة عن مركز الإمارة. وقد اتسع نطاق نشر الإسلام وتعريب السكان إلى أبعد حدّ، سواء في المدن مثل القيروان وتونس وسوسة وصفاقس وقابس، أو في الأرياف مثل الزاب والهضاب العليا وقمودة وصطفورة وجزيرة أبي شريك [الوطن القبلي]. . ورغم أن اليعقوبي قد قدم إلينا صورة فسيفساء عرقية توجد بها جنباً إلى جنب عناصر متباينة في صلب فئات اجتماعية متجانسة، أفلا يجوز لنا أن نتصور بداية عملية امتزاج عناصر السكان في بلد قد خضع في آخر الأمر لسلطة مركزية قابلة للدوام في ظل دولة منظمة تنظيماً محكماً؟، وأن نتصور مثل هذا الامتزاج في الأحياء الآهلة والمحيطة بأسواق عاجة بالسكان في القيروان أو تونس أو سوسة؟ بل يبدو أن التصنيف الاجتماعي الذي قدمه إلينا اليعقوبي يعبر أحسن تعبير عن هيكلة واقعية قد لاحظها ونقلها إلينا نقلاً أميناً. ذلك أن اختلاط مختلف الأجناس، الذي أشار ذلك الجغرافي إلى وجوده في قابس والقيروان وطبنة مثلاً[37] ـ وهو يعني تعايش عناصر من أجناس مختلفة تنتمي من جهة إلى العرب، ومن جهة أخرى إلى غير العرب «الأعاجم»، سواء «أعاجم البلد» (من بربر وأفارقة وروم)، أو «أعاجم خراسان» (بعض عناصر الجند التي استقرت في البلاد) ـ قلت إن ذلك الاختلاط يستبعد حسبما يبدو أي علاقة امتزاج بين مجموعات ظلت ملتحمة ومتماسكة[38].

(37) البلدان، 214/10 - 215.

(38) ليفيكي، المرجع السابق، ص 417 - 419.

وهكذا فقد ميّز اليعقوبي بوضوح بين مختلف تلك العناصر العرقية، مبرزاً تفوق هذا العنصر أو ذاك حسب المدينة أو المنطقة. ففي القيروان مثلاً ذكر على التوالي القرشيين والعرب المنحدرين من أغلب بطون ربيعة، والأعاجم من أصيلي خراسان، والجنود المهاجرين إلى إفريقية مع الأمويين، و «أعاجم البلد» من بربر وروم وغيرهم. وفي الناحية الغربية من البلاد كان العرب يتحكمون في المدن المحصنة. والجدير بالذكر أن بعض المعطيات الواردة في الافتتاح تؤكد أو تكمل المعلومات التي قدمها اليعقوبي. من ذلك أن بني مالك المنتمين إلى بطن من بطون تميم كانوا يسيطرون على بلزمة[39]، وأن بني عبد الصمد التابعين لبطن من بطون سُلَيْم كانوا يتحكمون في حامية ميلة[40]. «وكان بنو أبي خنزير من وجوه أهل ميلة، وهم من العرب من ربيعة، ويُعرَفون بالسناجرة، (نسبة إلى سنجار) مدينة من ديار ربيعة»[41]، وقد انضموا إلى الداعية، وفي سطيف كان يقيم بنو عسلوجة، «وهم قوم من بني أسد بن خزيمة عمّال من قبل ابن الأغلب»[42]. «وأهل مجّانة قوم يقال لهم السناجرة»[43]. وفي الزاب كان قوم من بني ضبة يقيمون في مقرة[44]. ولكن أهل طبنة كانوا يمثلون على حد السواء العرب والأعاجم (من بربر وأفارقة وروم). وفي باغاية كانت تقيم قبائل الجند إلى جانب الخراسانيين وبقايا الروم[45]. وكان يقيم في قسطيلية [الجريد] قوم من الأعاجم المسيحيين (الروم والأفارقة) ومن البربر[46].

وبالإضافة إلى المعطيات الواردة في كتاب اليعقوبي، تشير بعض المعلومات الثمينة التي وفرها لنا القاضي النعمان إلى بقاء عدد كبير من العناصر

(39) الافتتاح، الفقرتان 36 - 64.

(40) نفس المصدر، الفقرة 47.

(41) نفس المصدر، الفقرة 134.

(42) نفس المصدر، الفقرة 155.

(43) نفس المصدر، الفقرة 134، والبلدان، ، 211/10.

(44) البلدان، 214/10 - 215.

(45) نفس المصدر، 71 - 215.

(46) نفس المصدر، 211/10.

البربرية في الناحية الغربية والشمالية الغربية من البلاد، مثل وزداجة حول باجة(47)، ونفزة حول تيجس، وبطن آخر من نفزة بقرب مجانة(48)، ومزاتة في ضواحي بلزمة(49)، وكـرناية من القبائل الخارجة عن صلب زناتة ومكلاتة هوارة في ناحية قصر الإفريقي(50)، وبني ورديم وبني هراش وبني وشنو وصدغيان في ضواحي تيفاش وقالمة(51)، ومدغرة في باغية(52)، وهوارة وبني ماجن وبني معاد في ناحية تيجس(53).

ويبدو أنه قد تحقق شيء من التوازن الاجتماعي من خلال ذلك التعايش بين أهل البلاد الأصليين (البربر والأفارق والروم) وبين العناصر الدخيلة (العرب والخراسانيون)، بفضل التهدئة التي تحققت أثناء النصف الثاني من القرن التاسع. بل يمكن أن نتصور بداية الامتزاج بين مختلف العناصر في المدن التجارية والصناعية، مثل القيروان وتونس وسوسة. ويمكن أن نستشف ذلك الامتزاج من خلال الوصف الذي قدمه يحيى بن عمر للأسواق في كتابه حول الحسبة، كما شاهدها المؤلف، مع توافد المشترين وكثافة نشاط الحرفيين والتجار المرتبط لا محالة بعضهم ببعض بعلاقات مشتركة للعمل والمعاملات، أكثر من العلاقات المميزة المرتبطة بالأصل. وقد أشار اليعقوبي إلى ذلك الاختلاط عندما قال إن أهل سوسة والأربس خليط من البشر، كما لو أنه لم يستطع من خلال خصائص أولئك «الأخلاط» التمييز بين مختلف عناصر السكان.

ويمكن أن نكتشف ضمن هؤلاء السكان بعناصرهم الأصلية والدخيلة مختلف الفئات التي يتركب منها المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط، وهي

(47) نفس المصدر.

(48) الافتتاح، الفصل 28 ـ الفقرة 168 والفصل 27 الفقرة 189.

(49) نفس المصدر، الفقرة 93.

(50) نفس المصدر، الفقرة 191.

(51) نفس المصدر، الفقرتان 192 - 193.

(52) نفس المصدر، الفقرتان 64 - 206.

(53) نفس المصدر، الفقرتان، 168 - 201.

الأرستقراطية والبرجوازية الثقافية والتجارية والجماهير الشعبية الحضرية والريفية والموالي والعبيد.

وقد كانت الأرستقراطية الأغلبية (أو الخاصة)[54] الواقعة في أعلى الهرم الاجتماعي تضم أفراد عائلة الأمير أو «أهل بيته» الذين كانوا يقيمون في مساكن القصر القديم ورقادة، وكانت الدولة تختار من بينهم أصحاب أعلى المناصب العسكرية والمدنية[55]. وهكذا فقد برز في خدمة الدولة إلى جانب ذرية إبراهيم الأول موظفون سامون يحملون لقب غلبون[56] أو أبي حجر[57] أو سوادة[58] أو حبشي[59] أو ابن المُضا[60]. وكانت هذه الطبقة من «الخاصة» تضم أيضاً «رجال بني الأغلب» (أي كبار رجال الدولة) التابعين للعائلات العربية الشهيرة، لا سيما المضريين، وقد كان الأمراء الأغالبة يعهدون إليهم بالمناصب السامية مثل الحجابة والبريد وولاية الأقاليم، وكان هؤلاء الموظفون يحملون لقب ابن قرهب[61]، أو ابن الصمصامة[62] أو ابن نافد[63]. . . وينبغي أن نضيف إلى هذه الفئة المحظوظة من المجتمع الأغلبي عناصر تابعة للقبائل العربية والجند الأموي والعباسي كانت تقيم في المدن الكبرى مثل تونس والقيروان، أو في

---

(54) انظر حول الأندلس في عهد الخلافة الأموية وتطور تركيبة المجتمع الأندلسي والطبقات الاجتماعية، الخاصة والعامة، ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية (العنوان المختصر: إسبانيا)، 138/3 - 198.

(55) الافتتاح، الفقرات 58 - 216 - 290 - 291.

(56) انظر Vonderheyden، بلاد البربر الإسلامية في عهد أسرة بني الأغلب: شجرة نسب الأسرة الأغلبية.

(57) الافتتاح، الفقرة 57.

(58) Vonderheyden، المرجع السابق.

(59) الافتتاح، الفقرة 157.

(60) نفس المصدر الفقرة 68.

(61) Vonderheyden، المرجع المذكور ص 43 - 63 - 103 - 165 - 271.

(62) نفس المرجع، ص 101.

(63) نفس المرجع، ص 166 والافتتاح، الفقرات 161 - 162 - 163 - 164.

المناطق الزراعية مثل الوطن القبلي والزاب وباجة وصطفورة. وفي القيروان مثلاً ذكر اليعقوبي على التوالي القرشيين والمضريين وبني ربيعة وبني قحطان. ولا شك أن هذا الترتيب كان مطابقاً لمراتب اجتماعية طبيعية في صلب دولة عربية، كان ملوكها التميميون يفضلون المضريين، وكان العنصر العربي يحتل فيها بطبيعة الحال أعلى درجة في السلم الاجتماعي.

وبين طبقة «الخاصة» ذات السلالة العربية ومواليها، وطبقة «العامة» المتركبة من العنصر الأصلي ـ ومعظمه من البربر ـ الذي يمثل العنصر الأهلي الصميم في المدن والأرياف، ويمكن أن يضاف إليه عنصر العبيد، كانت توجد في المدن على وجه الخصوص طبقة وسطى (البرجوازية)، تضم «الوجوه» (أو الأعيان) المحاطين بالفقهاء المالكية والأحناف وكبار الباعة في الأسواق وأثرياء التجار.

ويتضح من هذا الوصف الموجز للمجتمع الإفريقي في أواخر القرن التاسع أن تحقيق التوازن الاجتماعي قد ارتكز منذ الفتح على تفوق العنصر العربي على حساب البربر الذين أنزلوا منزلة دنيئة، بعد ما تم التغلب عليهم وإخضاعهم وهضمهم وإدماجهم بواسطة نشر الإسلام في صفوفهم بصورة تدريجية، أو إجلاؤهم إلى المناطق البعيدة عن المركز في غرب وجنوب البلاد تحت حراسة حاميات المدن المحصنة. ولكن نجاح الدعوة الإسماعيلية التي أيدتها كتامة سوف لا يلبث أن يقضي على ذلك التوازن ويتيح الفرصة للبربر للأخذ بثأرهم بصورة باهرة.

ج ـ الازدهار الاقتصادي:

لا يمكن أن يتعلق الأمر هنا بتقديم وصف كامل للحياة الاقتصادية في إفريقية في العهد الأغلبي. إذ أن ذلك يقتضي القيام بدراسة دقيقة حول نظام الموازين والمكاييل، والعملة، والنظام العقاري المعمول به منذ الفتح، والنظام الجبائي وما طرأت عليه من تغييرات، والزراعة بما في ذلك زراعة الحبوب والزيتون، وغراسة الأشجار المثمرة، وتربية الماشية، واستغلال الموارد

الطبيعـة، والنشاط الصناعي والتجاري. . على أن هذه الدراسة التي تتجاوز إلى حدّ كبير إطار لمحة عامة عن إفريقية قبل سقوط الدولة الأغلبية، لو قمنا بها لكانـت تكـراراً للـدراسـة التي ستخصـص للعصـر الفـاطمي. ذلك أن الحيـاة الاقتصادية لم تشهد تغييراً عميقاً إبان تولي الفاطميين زمام الحكم، وأن مصادر التاريخ الاقتصادي هي نفس المصادر المتعلقة بالقرنين التاسع والعاشر من الميلاد. فسنقتصر حينئذٍ على نظرة خاطفة، وسنكتفي باستخلاص ما يتسم به اقتصاد إفريقية من خصائص أساسية(64).

وكما أن إفريقية استطاعت في النهاية، منذ أن تمكن الفاتحون العرب من الاستقرار في أرضها، أن تشهد في ظل العرش الأغلبي الاستقرار السياسي اللازم للحفاظ على التوازن الاجتماعي، فإنها استطاعت أيضاً أن تبلغ درجة عالية من الازدهار الاقتصادي. ذلك أن إقامة أي نظام كان، مهما كانت قلة متانته، لا بدّ أن يؤثر تأثيراً ملائماً في النشاط الاقتصادي، إذا عرف الماسكون بزمام الحكم كيف يفرضون الطاعة، ويضمنون أمن أهالي المدن والأرياف وحماية قوافل التجار والمسافرين السالكين طرقاً معروفة بقلة أمنها، ويسهرون على تنظيم المواصلات مع المناطق النائية في البلاد، وتنمية المبادلات التجارية مع البلدان القريبة أو البعيدة. على أن النظام الذي أقامه الأغالبة، بعد هزائم الفتح ـ التي ربما كانت أقسى ما مني به العرب من هزائم على درب مسيرتهم الظافرة ـ وبعد كل الاضطرابات التي أدت إلى تمادي الفوضى، فأفقرت السكان وخربت الأرياف، كان من فضله على الأقل، رغم ما تعرض له من هزات عنيفة، أنه دام أكثر من قرن. وحسب رواية بعض الأخباريين وشهادة اليعقوبي الذي زار إفريقية في عهد إبراهيم الثاني، كان الناس خلال ذلك القرن يعبرون من غير إزعاج هذه البلاد التي كانت تضم عدة مدن مزدهرة وتبسط حقولها ذات

---

(64) حول اقتصاد إفريقية في العصر الذي يهمنا وكذلك في العصر الأغلبي والعصر الصنهاجي، انظر، جورج مارسي، بلاد البربر الإسلامية والمشرق في العصر الوسيط، ص 76 - 87. وانظر أيضاً إدريس. الدولة الصنهاجية ج 2، الباب العاشر، ص 603 - 685. وبالنسبة إلى القرن الحادي عشر انظر بالخصوص S.D Goitein، تحية ليفي بروفنسال 2، باريس 1962، ص 570 - 574.

الزراعات المتنوعة، فتبدو في مظهر قطر غني، موفور الخيرات ومستغل على نطاق واسع. ويبدو أن اقتصاد إفريقية الذي تدهور تدهوراً كبيراً في عهد الوندال والبيزنطيين، ثم اضطرب على إثر الفتح واختلال الأمن الذي تواصل حتى نهاية القرن الثامن، قد استعاد في عهد بني الأغلب التوازن الذي كان يتسم به في العصر الروماني، وشهد نمواً جديداً[65].

ولو لم تعوزنا الوثائق الفنية الوافرة والدقيقة، لأمكننا الحصول على فائدة جمة من تحديد الاتجاه المضبوط الذي وجهت إليه السلطة العربية ذلك الاقتصاد. فلا يسعنا حينئذٍ إلا أن نتقدم بخطى وئيدة حتى لا نستخلص سوى استنتاجات وقتية.

وتشير المصادر العربية إلى أن إفريقية التي فتحت عنوة قد كانت بالنسبة إلى أصحابها الجدد أرض «خراج» ثم أصبحت أرض «سبي»، على الأقل حتى منتصف القرن الثامن في عهد الوالي العباسي عبد الرحمان بن حبيب[66]. فبالرغم من التناقضات التي اكتنفت النظام القائم في البلاد، والذي أصبح رجال القانون عاجزين عن تحديده بالتأكيد، . ورغم الشكوك التي تثيرها بعض المعلومات الواردة في كتب الأخباريين المندهشين من كثرة الخيرات المنقولة إلى المشرق، نستطيع أن نؤكد أن الغنائم التي جمعت بالخصوص أثناء الغارات

---

(65) البلدان، 213/10، وجورج مارسي، المرجع المذكور، ص 77 - 78. بالرغم مما تعرضت له إفريقية من خراب في عهد الوندال. والبيزنطيين وبالخصوص من جراء غارات الأعراب الرحل القادمين من طرابلس، فإنها كانت مغطاة بالأشجار المثمرة وعامرة بالقرى الزراعية، انظر تقرير بول بورد حول الأشجار المثمرة ولا سيما زراعة الزيتون في وسط البلاد التونسية، 1893، ص 18 - 19. وحول ازدهار إفريقية في العصور القديمة، يعتبر كتاب S. Gsell المتعلق بتاريخ إفريقيا الشمالية في العصور القديمة، كتاباً بالغ الأهمية. وبالنسبة إلى العصر الوندالي استقى شارل كورتوا المعلومات التي أوردها في كتابه الهام من المصادر والدراسات السابقة. وحول تدهور الاقتصاد طوال قرن ونصف من الاحتلال البيزنطي، انظر Dehl، إفريقيا البيزنطية، طبعة نيوروك، ص 302وما بعدها، وص 342 - 377.

(66) انظر، البيان، 40 - 41 - 43 - 54 ورياض النفوس، 38/1 وفتوح مصر، ص 87، وجورج مارسي، بلاد البربر الإسلامية، ص 24 - 26.

الأولى كانت عظيمة. ومما لا شك فيه أن العناصر العربية التي استقرت في إفريقية قد عقدت صفقات رابحة وجنت من هذا الفتح الجديد فوائد جمة. ولكن هل غيّر هذا المدد الشرقي اقتصاد البلاد؟ لقد ترك الأعراب الرحل من بني هلال أثرهم في إفريقية منذ منتصف القرن الحادي عشر، وسيكتسي اقتصاد إفريقية اعتباراً من ذلك التاريخ صبغة «بدوية» قوية[67]. ومن المعلوم أن ابن خلدون قد تأسف كثيراً لهذه الظاهرة لما درس خصائص العمران البشري في هذه البلاد. ولكن السكان العرب الذين استقروا في إفريقية في العهد الأموي ثم العباسي لم يكونوا مثل أولئك «الأعراب» الرعاة من بني هلال وبني سليم. فقد قدموا بالخصوص من سوريا وفلسطين والعراق.. وكانوا بالأحرى من المقيمين الميالين إلى تعمير المدن التجارية الكبرى أو الإقامة في المراكز العمرانية المحاطة بمناطق زراعية شاسعة، لتعاطي زراعة الأرض وإحيائها.

على أن العرب الرحل الذين استقرّوا في إفريقيا قد تحولوا إلى مقيمين بحكم مقتضيات الفتح ذاته وبحسب ما تكتسيه الحضارة الإسلامية من صبغة حضرية. ذلك أن الإسلام ـ كما بين ذلك المأسوف عليه ويليام مارسي على نحو جدير بالملاحظة ـ قد أثبت منذ ظهوره أنه دين حضري وأن باعثه وأتباعه القليلي العدد كانوا ينتمون إلى برجوازية المدن بالحجاز... وقد ظهر المسلمون منذ بروزهم على مسرح التاريخ في مظهر مؤسسي المدن... وسيتخذ المقاتلون الأعراب من هؤلاء التجار النبهاء وهؤلاء المنظمين للقوافل، قادة لأركان الجيش ومسؤولين عن الإدارة العسكرية، وسيكونون أول من يتقلد مهام ولاة المدن المفتوحة، كما سيسهرن على تنظيم الجموع المتعددة العناصر من الغزاة حسب نمط العيش الذي ألفوه، أي الحياة الحضرية[68].

ومن المفروض أن يكون تأثير المسلمين في اقتصاد إفريقية بعد فتحها

(67) انظر إدريس، الدولة الصنهاجية 603/2 - 613 - 652 - 653 - 829 ـ وانظر بالخصوص Despois، البلاد التونسية الشرقية ص 145 - 155.

(68) ويليام مارسي، الحركة الإسلامية والحياة الحضرية، ص 86 وما بعدها وجورج مارسي، المرجع المذكور، ص 85 - 86.

تأثيراً مفيداً، حيث سيوجهونه في الاتجاه الطبيعي الموروث عن العصور القديمة. فقد كان ذلك الاقتصاد في العصر الروماني ذا طابع حضري وريفي[69]، وسيبقى كذلك في عهد العرب. ذلك أن معظم المراكز القديمة التي عرب اسمها تعريباً طفيفاً قد استعادت نشاطها السالف في شكل مدن نشيطة ومزدهرة. وإلى جانب المراكز العمرانية المتدهورة، اكتست بعض المراكز الأخرى أهمية بالغة، مثل مدكور[70] القريبة من سبيطلة، وتونس الواقعة في ضواحي قرطاج. ومع قدوم العرب، شهدت المدن نمواً مطرداً، وأصبحت القيروان وصفاقس مدينتين عربيّتين بأتم معنى الكلمة. ومنذ أواخر القرن الثامن ظهرت القيروان[71] في مظهر العاصمة، وقد نظم يزيد بن حاتم أسواقها وركز فيها عدة حرف، ويمكن أن نتصور من خلال كتاب يحيى بن عمر، **أحكام السوق**، أو كتب التراجم، أو الأوصاف القليلة والمقتضبة جداً لسوء الحظ، الواردة في كتب الجغرافيين العرب، ما شهدته من ازدهار اقتصادي بعض المدن مثل القيروان وسوسة وتونس وطبنة، وبعض المراكز العمرانية الواقعة في منطقة قسطيلية.

ونلمس في هذه النصوص[72] آثار النشاط الكثيف في أسواق المدينة، مع حركيّتها اليومية، والجمهور المتوافد عليها، والمتاجر المكتظة بالباعة، ومختلف الحرف مع أصحابها المنضمين إلى مجموعات حرفية والمنتصبين للعمل في دكاكين تكاد تكون متماثلة، وقد توقفت أمامها جموع «السوقة». كما نكتشف عدة بيانات تتعلق بالإنتاج الصناعي المتنوع، من النسيج إلى الصياغة، مروراً بصناعة الأحذية، والسروج والحصر والحلفاء والخزف

(69) بالإضافة إلى S. Gsell وRostoviseff، انظر Le Boeuf، تعمير أقصى الجنوب التونسي في العصر الروماني، المجلة التونسية، 1903، ص 352 وما بعدها، والدكتور كرتون Carton، المجلة التونسية، 1902، ص 24 وما بعدها وص 165 وما بعدها.

(70) ح. ح. عبد الوهاب، السباسب التونسية (قمودة) في العصر الوسيط، الكراسات التونسية، عدد 5، 1954، ص 5 - 16.

(71) البيان، ص 78، ورقات، 43/1 - 61.

(72) سيصدر عما قريب عن الشركة التونسية للتوزيع كتاب أحكام السوق الذي حققته بالاشتراك مع المرحوم العلامة ح. ح. عبد الوهاب. [صدر هذا الكتاب سنة 1975 في 144 صفحة].

والزجاج. وبعض التجارات المزدهرة، من التجارة بالجملة إلى التجارة بالتفصيل، ومن المعاملات التي يقوم بها تاجر السوق الكبير أو النخاس (تاجر الرقيق) الثري، إلى المعاملات العادية، ومن المبادلات التجارية مع الأرياف المجاورة إلى المبادلات التجارية مع الأقطار القريبة أو البعيدة، مثل الأندلس وصقلية، عن طريق البحر، انطلاقاً من تونس وسوسة وقليبية، أو مصر والمغرب الأقصى والسودان، بواسطة القوافل. وقد ساهم تطور هذا النشاط التجاري في إثراء إفريقيا الأغلبية.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أهمية المبادلات التجارية مع السودان الذي كانت تروج في أسواقه البضائع المصنوعة في إفريقية، وكان يزود أسواق هذه البلاد بالعبيد والذهب[73]. وقد كانت قسطيلية مركزاً هاماً من مراكز تجارة الذهب، كما هو الشأن بالنسبة إلى سجلماسة.

وتعتبر النقود الرائعة التي ضربها الأمراء الأغالبة، وكان المرحوم حسن حسني عبد الوهاب يحتفظ بمجموعة بديعة منها، دليلاً بليغاً على تلك الثروة[74].

وتفيدنا أيضاً نفس النصوص أن الاقتصاد الريفي قد ورث هو أيضاً خصائصه من الاقتصاد السالف. ذلك أن الفلاحة وزراعة الزيتون وغراسة الأشجار المثمرة قد احتفظت مع تطور الحياة الريفية، بما كانت تكتسيه من أهمية في العصور القديمة[75]. ولا شك أن استغلال خيرات الأرض وتحت

---

(73) انظر M. Lombard، المذهب الإسلامي من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر: (Annales-Econmies - Sociétès - Civilisations II) إبريل - يونيو 1947، 143 - 160، وحول قسطيلية (الجريد)، انظر ص 150 - 151 وانظر حول سجلماسة، ص 150، انظر أيضاً Goitein، المرجع المذكور، ص 570 - 571 (تصدير الذهب في القرن الحادي عشر)، وإدريس، الدولة الصنهاجية ج 2 ص 674 - 676 (التجارة مع السودان) وص 668 - 674 (التجارة مع مصر والشرق).

(74) ورقات، 428 - 436.

(75) انظر بالخصوص، البلدان، 213/10.

الأرض كان يتمّ حسب الأساليب الفنية العتيقة التي لم تتطور قط. كما يبدو أن الإنتاج قد أصبح أقل وفرة مما كان عليه في العهد الروماني. إلا أن فلاح الوطن القبلي أو الساحل أو منطقة باجة ما زال يواصل عمله في العهد الأغلبي بحزم ونجاح. فهو يقوم بإثمار الزراعات الجديدة التي أتى بها الفتح، ومن بينها غراسة أشجار الخوخ والبرقوق والفستق وبعض أنواع النخيل[76]. وقد استطاع الاستفادة من الأشغال المائية التي أنجزها الأمراء الأغالبة، سواء لضمان استعمال المنشآت الموروثة عن القدماء من خلال الجمع بين الفنيات القديمة والفنيات الشرقية أو لتطويرها وإنجاز منشآت جديدة، كخزانات الماء وقنوات الري والآبار ذات المياه المتدفقة[77]. هذا وإن ولوع الأمراء الأغالبة مثل الخلفاء الفاطميين الذين جاؤوا من بعدهم، بالأشغال المائية، لم يكن بمعزل عن الأغراض الاقتصادية، ولا يكفي العامل الديني وحده لتفسيره. ذلك أن نمو الاقتصاد الريفي من شأنه لا محالة أن يدر عليهم خيراً عميماً. ولدينا بعض الشهادات على ذلك من خلال المعلومات الواردة مثلاً في **البيان** و**الافتتاح**، حول مداخيلهم الجبائية بالنسبة إلى طبنة وقسطيلية وقفصة، والثروات التي كانت تحت تصرف إبراهيم الثاني أو زيادة الله الثالث وأهمية، «ما غنمه الشيعة من أموال وغنائم»[78].

وهكذا فقد بلغ اقتصاد إفريقية درجة كبيرة من النمو في الوقت الذي

---

(76) انظر إدريس، المرجع المذكور، 296/2 - 630. بالمقارنة بين قائمة الثمار التي ذكرها ستيفان غسال S. Gsell في كتابة تاريخ شمال إفريقيا في العصور القديمة، وبين قائمة الثمار التي ورد ذكرها في المصادر العربية، لاحظنا أن الفاتحين العرب وربما السوريين والخراسانيين قد أدخلوا إلى إفريقية نخيل العراق وأشجار البرقوق (أو الدراق) والفستق (وهي أسماء من أصل فارسي) والخوخ.

(77) لقد استعمل الأغالبة المنشآت الرومانية، كما أدخلوا إلى إفريقية تقنية خاصة تتمثل في الأحواض المزدوجة التي تتضمن في غالب الأحيان حوضاً ثالثاً، وهو حوض الاغتراف مثل الأحواض التي أنشأها أبو إبراهيم أحمد من سنة 859 إلى سنة 863، انظر، Solignac، ص 126 - 181 على وجه الخصوص.

(78) **الافتتاح**، الفقرة 160 والفصل 10، الفقرة 167 والفصل 29، الفقرة 203، و**البيان**، ص 141.

استعادت فيه هذه البلاد توازنها الاجتماعي وشيئاً من الهدوء السياسي. ويُعزى هذا النمو بوجه خاص إلى الجمع الطبيعي بين التقاليد العتيقة والتأثيرات الشرقية، والصلة المتناسقة بين البقية الباقية من الحضارة اللاتينية والإضافات العربية الإسلامية(79). وسيرث الفاطميون عند انتصابهم في رقادة على العرش الذي تخلى عنه زيادة الله الثالث، ذلك الازدهار الاقتصادي الذي سيعطونه دفعاً جديداً.

د ـ تطور الثقافة والحضارة العربية الإسلامية:

عندما نفكّر في النتائج التي أسفرت عنها غزوة بني هلال على الصعيد الاقتصادي، نميل دوماً وأبداً إلى الاعتقاد أن هذه الكارثة قد كان لها في المقابل الفضل في تعريب إفريقية تعريباً حقيقياً. والواقع أن نشر الإسلام والتعريب اللذين تزامنت بدايتهما مع الفتح قد شهدا منذ القرن التاسع من النمو ما مكن هذه البلاد من بلوغ درجة عالية من الثقافة والحضارة(80).

ولكن لم يظهر أي نشاط ثقافي في القيروان إلاّ في مدة ولاية يزيد بن حاتم(81) ذلك أن هذه المدينة التي لا شك أن سبب تأسيسها لا يرجع إلى أغراض استراتيجية فقط، قد كانت تقوم قبل ذلك بدور هام مماثل للدور الذي ستقوم به فاس وقرطبة فيما بعد(82)، في نشر الإسلام واللغة العربية، وتستعد لتصبح مركزاً للثقافة العربية الإسلامية مثل العواصم الشرقية. ويبدو أن أول الولاة المهالبة قد حرص على أن يجعل من عاصمته «بصرة صغيرة»، على غرار المدينة العراقية الكبيرة التي سطع فيها نجم أسرته منذ أوائل العهد الأموي. فقد استقدم بعض العلماء الشرقيين وأغدق عليهم العطايا، أمثال الشعراء ربيعة بن

---

(79) انظر، ورقات، 15/1 - 19.

(80) انظر ويليام مارسي، كيف تم تعريب شمال إفريقيا، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1938/4 ص 1 - 23 و 1956، ص 5 - 17.

(81) البيان، 80 - 81 وورقات، 137/1 - 138 - 141.

(82) انظر، إسبانيا، 488/3 - 501.

ثابت الرقي، والمسهر التميمي، وابن المولى[83] والنحويين يونس النحوي وقتيبة الجعفي، والطبيب ماسويه والد يوحنا الذائع الصيت[84]. وفي مدته ظهرت القيروان التي تطورت تطوراً كبيراً منذ عهد حسان بن النعمان وموسى بن نصير، في مظهر مدينة إسلامية كبيرة.

وما لبث تكوين دولة منظمة ومرتبطة بالدولة العباسية، ولكنها مستقلة عملياً، إثر إمساك الأغالبة بزمام الحكم، أن ساعد على إشعاع تلك المدينة التي ارتقت إلى مصاف العواصم. على أن إفريقية التي اقتدت بالمشرق لتأخذ عنه وتستوعب إبداعاته الثقافية عن طريق الرحلة أو الحج أو الهجرة، لم تخط خطواتها الأولى على درب الاقتباس ومجرد التقليد[85]. وقد تطورت دراسة العلوم الدينية وتعليم اللغة والنحو والاهتمام بالجدل المذهبي، وحب النثر الفني والشعر، حتى استطاعت القيروان منذ منتصف القرن التاسع أن تتباهى بمساهمتها الذاتية في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية. ولا حاجة لنا هنا إلى التذكير بشهرة مدرستها الفقهية المرتبطة بشهرة فقيه جليل مثل أسد بن الفرات أو سحنون أو غيرهما من الفقهاء الكثيرين الذين لا يقلون عنهما قيمة، وقد بلغت الدراسات الفقهية وشهرة بعض شيوخ العلم من التألق ما جعل أنفاراً من الأندلسيين يختصرون رحلتهم ويكتفون بدروس العلماء القيروانيين[86]. ومن خلال المنافسة القائمة بين المذهبين المالكي والحنفي[87]، والمجادلات والخصومات الدائرة رحاها، بين أتباع المذهب الأول المؤيدين من قبل «العامة» وأتباع المذهب الثاني الذين يتمتعون بحظوة الأمراء و «الخاصة»[88]، وولوع

---

(83) ورقات، 141/1 - 146.

(84) نفس المرجع، 146 - 150 - 269 - 271.

(85) نفس المرجع، 64 - 74.

(86) انظر، إسبانيا 466/3 - 476. وانظر أيضاً، محمد الطالبي، القيروان والمذهب المالكي الأندلسي، تحية ليفي بروفنسال، 1962، 1962، 320/1 - 322، 325، 327 - 337.

(87) انظر بالخصوص، إدريس، الدولة الصنهاجية، 687/2 - 70. والمقدسي، ترجمة بلاّ، ص 40 - 45.

(88) رياض، مجلة الدراسات الإسلامية، ص 129 - 137.

بعض الفقهاء وعدد من كبار رجال الدولة بمذهب المعتزلة[89]، يمكن أن نتصور مدى تألق وكثافة مثل ذلك النشاط الثقافي الذي لم تسلط كتاب التراجم بعض الأضواء إلا على جانبه الديني[90]. ولم تبق لنا من النحاة والشعراء والكتاب المترسّلين وعلماء الفلك والمنجمين والأطباء والموسيقيّين، حسب الوثائق المتوفرة لدينا، سوى بعض الأسماء أو قليل من المعلومات غير الكافية المتعلقة بتراجمهم.

كما لا تتوفر لدينا سوى بعض البيانات الهزيلة المتعلقة بنشاط ودور «بيت الحكمة» الذي أسسه إبراهيم الثاني في رقادة حوالي سنة 264/878[91]. إلاّ أن من فضل هذه المؤسسة التي أنشئت اقتداءً بمثيلتها العباسية، أنها جعلت من تلك المدينة، زهاء القرن قبل «الزهراء» الأموية[92] و «المنصورية» الفاطمية[93]، لا فحسب مقراً لإقامة الأمراء و «الخاصة» الأغلبية، بل أيضاً مركزاً ثقافياً. وقد ازدهرت العلوم الرياضية[94] حول ذلك الأمير المولع بالكتب والراعي للآداب والعلوم، والذي لا يقل فضلاً عن الحكم الثاني[95] أو المعز لدين الله الفاطمي[96]. وقد كان حريصاً على استقدام الأدباء والعلماء البغداديين، ومولعاً بالتنجيم وعلم الفلك. ومن بين العلماء البارزين الذين كانوا يترددون على بيت الحكمة سواء في عهد إبراهيم الثاني أو في عهد عبد الله الثاني وزيادة الله الثالث ـ وقد دخل البعض منهم فيما بعد في خدمة الخليفة الفاطمي

(89) نفس المصدر، ص 137 - 139. إدريس المرجع السابق ص 698 الهامش 53.

(90) إدريس، نفس المرجع، الباب الحادي عشر حول الحياة الدينية، وهو يعتمد على كتب التراجم الإفريقية (مثل الطبقات ورياض النفوس ومعالم الإيمان). انظر بالخصوص، رياض، مجلة الدراسات الإسلامية، ص 122 - 141.

(91) انظر الدراسة الضافية حول هذه المؤسسة في ورقات، 192/2 - 219 ـ وحول المؤسسة العباسية، انظر دائرة المعارف الإسلامية، 1/2 (بيت الحكمة) ص 1175، بقلم سوردال.

(92) إسبانيا، 130/2 - 140، 488/3 - 501.

(93) إدريس المرجع السابق، 425/2 - 427.

(94) إسبانيا، 493/3 - 501.

(95) الافتتاح، المقدمة، ص 3، عدد 2.

(96) ورقات 222/1 - 225.

الأول ـ نذكر العالم الرياضي والشاعر والكاتب والفقيه أبا اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي[97]، وعلماء الأدب أبا جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي[98] والفضل بن علي بن ظُفْر[99] ومحمد بن محمد بن الفرج البغدادي[100]، والفيلسوف أبا بكر بن القمودي[101]، والأطباء إسحاق بن عمران وابنه علي، وإسحاق الإسرائيلي وابن خنبس اليوناني وزياد بن خلفون[102]، والمنجمين حمديس وابن المعتصم[103]، والموسيقي والأديب مؤنس البغدادي[104].

وقد ازدهر بوجه خاص مظهر آخر من الحضارة العربية الإسلامية في القرن التاسع، وهو الفن الأغلبي[105]، ومن أحسن ما عرف منه الفن المعماري الديني، بفضل الدراسات الضافية التي كشفت عن وجود تأثير مزدوج شرقي وقديم، وبينت ما يتيمز به «من صلابة وقوة شخصية»[106]. ولم تكشف بعد حفريات رقادة عن ثراء زخراف الفن المعماري المدني وروائع الأثاثات، التي لا شك أنها استفادت من ولوع بعض الأمراء بالبذخ والقصور. إلا أنه من الممكن تصور ازدهار فن ضليع مماثل لفن المعالم الدينية، داخل قصور «سمراء الإفريقية» ذات البساتين المزدانة بالأحواض، ومنازل الأمراء الواقعة بالعباسية والتي أدهشت سكان الجبال الغلاظ من أبناء كتامة، وكذلك في المباني ذات المنفعة العامة[107].

---

(97) نفس المرجع ص 244 - 247. انظر أيضاً الافتتاح، فقرة 63.

(98) الافتتاح، الفقرة 275، الهامش 3. انظر أيضاً R. Canard، ترجمة سيرة جعفر الحاجب، هسبيريس، 1152، وسيرة الأستاذ جوذر، ص 184.

(99) ورقات، 243/1 - 244.

(100) البيان، ص 136.

(101) ورقات، 251/1 - 252. والافتتاح، الفقرة 225، الهامش 1.

(102) ورقات، 233/1، 236، 237 - 239، 257 - 258 - 241 - 242.

(103) ورقات 252/1 - 253 والافتتاح، الفقرة 53 الهامش 1.

(104) Vonder heyden ص 206.

(105) الهندسة المعمارية، باريس 1954 ص 9 - 36.

(106) نفس المرجع، ص 9 - 26.

(107) نفس المرجع، ص 26 - 28.

تلك هي باختصار ملامح إفريقيا قبل قيام الدولة الفاطمية، كما رسمناها في مستهل هذه الدراسة. ونستخلص من هذه اللمحة عن «البلاد والعباد» السمات البارزة التالية:

لقد بلغت إفريقية إلى نهاية مرحلة انتقالية تصادمت خلالها القوة المهتزة للحضارة القديمة التي كانت تغذيها منذ انقراض الحضارة القرطاجنية، وبين قوة ما زالت في عنفوانها، أي قوة الحضارة العربية الإسلامية المقرة العزم على التمركز في هذه البلاد، ولا غرو أن تلك المرحلة الانتقالية كانت أليمة وطويلة، بقدر ما كانت الصدمة عنيفة بين البربر والفاتحين العرب. ومما لا شك فيه أن الاضطرابات السياسية والقلاقل الاجتماعية والنزاعات القانونية والدينية التي كانت تهز الشرق الإسلامي قد امتدت إلى إفريقية، إلا أن هذه البلاد، قد انتهى بها الأمر إلى قبول الـدين الجديد ولغته وثقافته وما ينطوي عليه من نمط عيش. ثم إن «عصر الولاة» قد كان عصر الازدهار الذي وفرت له التبعية الاسمية للدولة العباسية و «الوصاية الشرقية»، الإطار الأنسب. ذلك أن إفريقية التي كانت مقر إمارة سنية قد قدمت عهدئذٍ إلى الحضارة العربية الإسلامية مساعدة تستحق الذكر، واكتسبت نصيباً من المجد من بين الأقطار الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ومن ذلك الازدهار سيـغنم الفاطميون فوائد جمة، وسيجنون ثماره عند إيناعها. وحينما سيلوذ آخر أمراء بني الأغلب بالفرار، وقد أصبح عاجزاً عن حماية نظامه المتفكك، سيترك لهم دولة منظمة، بدواليبها الإدارية وأغلب موظفيها الذين حنكتهم التجارب، وأسطولاً سليماً وبلداً مزدهراً وثروات طائلة. وعندئذٍ سيحكم على إفريقية قدرها الغريب بأن تصبح مطية لانتصار القضية العلوية وتحقيق وعود المذهب الإسماعيلي الشيعي. وبتحويل هذه البلاد إلى مقر للخلافة الفاطمية المضادة ستكول بالرغم من بعض التقلبات الأليمة، منبع قوتها والمركز الأول من مراكز حضارتها.

القسم الأول

التاريخ السياسي

الباب الأول

انتصاب الدولة الفاطمية في إفريقية

الفصـل الأول

نسب الفاطميين

تطور الحركة الإسماعيلية إلى أن تقلّد المهدي الإمامة

لقد ترددنا كثيراً في استهلال الباب الأول من هذا الكتاب بعرض موضوع نسب الفاطميين الذي كان محل جدال حاد، ما دامت بحوثنا حول هذه المسألة لم تسفر عن نتائج تستحق الذكر. ومن المهم لا محالة بالنسبة إلى مؤرخ الفاطميين أن يعرف في آخر الأمر هل أن نسبهم العلوي صحيح أم لا. ولكن من العبث أن نربط معرفة تاريخ هذه الأسرة معرفة جيدة بحل هذا المشكل، كما لو ربطنا دراسة الشعر الجاهلي بدراسـة صحته.

وقد اعتبر ابن خلدون، ذلك الناقد الثاقب الفكر والمنهجي الأسلوب، هذه القضية في مقدمته[1] من بين القضايا التي حيرت من سبقوه من الأخباريين وقادتهم إلى متاهات الزيغ والضلال، فكان مثلها كمثل خرافة العبّاسـة أخت الرشيد أو أسطورة «وادي الرمل» بالمغرب المتعذر عبوره.

ولا شك أن هذه «القضية» تتجاوز حدود مؤامرة دبرتها حاشية القادر ضد منافسه بالقاهرة، أو سجل ادعاء النسب الذي شهد به فقهاء سنيون أجلاء من المتزلفين أو أصحاب المصالح، أو مجرد رد فعل المذهب السني على البدعة

(1) ابن خلدون المقدمة، ص 21 - 23، لاووست، ص 167، دائرة المعارف الإسلامية 2/1: (الفاطميون) ص 871 بقلم كانار، الاتعاظ، ص 57 - 59.

الشيعية الظافرة[2]. فكيف السبيل إذن للاهتداء إلى طريق الحقيقة، عبر تشعب هذه المسألة العويصة، وكثرة التناقضات وتأكيد المصادر المتحيزة؟ وقد أصبحت قضية نسب الفاطميين لغزاً يتعذر علينا تفسيره تفسيراً معقولاً، لا سيما وقد زادت في تعقيدها طوال الثلاثة قرون الأولى من العهود الإسلامية عدة عوامل ذات صبغة دينية وسياسية واجتماعية، مثل التعارض بين تصورين متناقضين تمام التناقض للخلافة، أو الصراع الوراثي المستمر بين الكتل القبلية الهاشمية والأموية، ثم العباسية والفاطمية، أو بروز مطامح عميقة كانت تحدو عناصر الأجناس المختلفة التي وحد الإسلام بينها وبين الجنس العربي، أو صياغة مذهب يمثل شكلاً من أشكال اضطراب العقيدة الإسلامية التي تسربت إليها عدوى المعتقدات الأجنبية والعلوم الدنيوية. ولعله من باب قلة الحذر ادعاء تقديم لمحة مفصلة ومدققة تاريخياً عن هذه القضية. إلا أننا سنحاول عرضها بأقصى ما يمكن من الموضوعية والوضوح.

لقد صدرت منذ ما يزيد على القرن عدة دراسات وبحوث حول أصول الحركة الإسماعيلية، دون أن تسفر عن نتائج لا جدال فيها[3]. ولا شك أن شوطاً كبيراً قد قطع منذ ظهور كتاب الديانة الدرزية في باريس سنة 1838 إلى صدور «دليل الأدب الإسماعيلي» في لندن سنة 1933[4]. ويرجع الفضل إلى

---

(2) من بين العلماء المتزلفين أو أصحاب المصالح، ذكر ابن خلدون أبا حامد الإسفراييني والقدوري والصيمري وابن الأكفاني والأبـوردي وأبا عبد الله بن النعمان (فقيه الشيعة)، انظر الاتعاظ، ص 45 - 47.

(3) انظر دائرة المعارف، المرجع السابق، ص 870 - 871 (ملخص كانار القيم حول شجرة نسب الفاطميين). انظر أيضاً الافتتاح، قائمة المصادر والمراجع. وتجدر الإشارة بالخصوص إلى بحوث إيفانوف وشتارن وأطروحة برنار ليويس. كما توجد لمحة عن الحركة الإسماعيلية وإحالات هامة على المصادر والمراجع في الفصل المخصص للحركة الإسماعيلية في دائرة المعارف الإسلامية، الملحق، ص 103 - 109 بقلم إيفانوف.

(4) لقد وُضِع دليل إيفانوف على أساس ثبت للمصادر والمراجع بعنوان فهرست المجموع ضبطه المؤلف الإسماعيلي إسماعيل بن عبد الرسول الأجني المتوفى سنة 1769/1183 أو 1770/1184.

سيلفاستر دي ساسي في فتح باب النقاش حول هذا الموضوع، انطلاقاً من المصادر القديمة، لا سيما منها المصادر السنية. أما إيفانوف فله الفضل في تجديد الموضوع تجديداً تاماً عن طريق اكتشاف بعض المصادر الإسماعيلية النفيسة. إلا أن نشر عدد كبير من تلك الوثـائق والبحوث التي خصصت لها، ومقارنتها مع النصوص السنّية لم تسمح ـ ويا للأسف ـ إلا باستخلاص نتائج لا تزال وقتية. كما أن الأطروحات التي قدمها عدد من العلماء الأعلام، مهما تكن جاذبيتها، ما زالت واهية ورهينة أي اكتشاف آخر كفيل بطرح أقوى البراهين للمناقشة ثانية. وهذا يعني أننا سنعيد النظر أثناء العرض الموالي في الدراسات التي خصصها لهذا الموضوع الشائك بعض الباحثين أمثال لويس ماسينيون وإيفانوف وليويس وفيازي والحمداني وشتارن، وسنسعى بالخصوص في ضوء بعض الاعتبارات التي لم يسبق نشرها إلى تحديد وضع هذه المسألة في الوقت الحاضر.

منذ تولي معاوية بن أبي سفيان مقاليد الخلافة سنة 40/660، نظم أتباع الإمام علي صفوفهم بعد مقتله، ضمن حركة معارضة للحكم الأموي، بقيادة ابْنَيْه الحسن والحسين. ولكن استبعاد الحسن ثم مقتل الحسين الذي سيعيد استشهاده ما تميز به المذهب الشيعي من صلابة في الفترة العلوية، وذلك في سنة 61/681، قد أفضيا إلى تعيين ابن آخر من أبناء علي ـ ولكن ليس من أبناء فاطمة ـ على رأس الحركة الشيعية، وهو محمد بن الحنفية. ومنذ ذلك الحين ضعفت الحركة بسبب الخلافات التي نشبت بين أصحاب النزعة الفاطمية الخالصة من الحسنيّيـن والحسينيّين، وبين أتباع محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم، مما مكن الخلفاء الأمويين سنة 66/625 من إخماد ثورة المختار الثقفي المنتسب إلى ابن الحنفية، وقمع المحاولات المفجعة التي قام بها زيد بن علي

(5) انظر أولاً دائرة المعارف الإسلامية (العباسيون) ص 17 - 25 و (العلويون) بقلم ليويس. وحول خلافة معاوية وإقصاء الحسن، انظر لاووست، ص 16 - 17. وحول فاجعة كربلاء ومحمد بن الحنفية والمرجئة وثورة المختار، انظر نفس المرجع ص 25 - 30. وحول ثورة زيد بن علي =

زيـن العابدين وابنه يحيـى سنة 122/740 وسنة 125/743[5].

إلا أن الفرع الهاشمي التابع لبني العباس قد عرف، حينما كان بنو أمية في حالة انحطاط، كيف يستفيد من تلك الخلافات، بعدما أقنع أبـا هاشم بن محمـد بن الحنفيـة بـالاعتـراف بحـق العبـاسيـين في الإمـامـة، وذلـك في عهـد سليمان بن عبد الملك، وضمن لنفسه التحكم في الحركة المناهضة لبني أمية، والحصول على تأييد خراسان. فاستطاع بنو العباس من غير صعوبات جمة خلع بني أمية والاستيلاء على الحكم على حساب المطالبين بالخلافة من الفرع الفاطمي.

وبتولي العباسيين مقاليد الخلافة وجد العلويّون أنفسهم- وهم الذين دفعوا غالياً ثمن معارضتهم للشق الأموي - مبعدين عن الخلافة، ولكن هذه المرة من طرف فرع من الشق الهاشمي. وبناءً على ذلك فقد شعروا بهذا الحرمان بمرارة أكبر، وستكون مقاومتهم لخصـومهم الجدد أشد ضراوة. ومع ذلك فقد أسعف الحظ الخليفة المنصور بإحباط مساعيهم، مستفيداً من خلافاتهم الحادة. وهكذا فقد شهدت المحاولة التي قام بها الحسنيون بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم نهاية مفجعة سنة 145/762[6]. فعززت هزيمتهم صفوف الحسينيين الملتفين حول جعفر الصادق[7] الذي استطاع بفضل مهارته وفكره الثاقب اتقاء غضب المنصور، إلى أن أدركته المنية سنة 148/765. ومن الجدير بالذكر أن الحركة الشيعية قد دخلت مع اتباع جعفر الصادق في منعرج حاسم من تاريخها، تمثل في ظهور الفرقة الإسماعيلية المتطرفة التي تحمل اسم الإمام إسماعيل ابن جعفر الصادق، وطرأت عليها تغييرات عميقة.

= وابنه يحيـى، انظر نفس المرجع أيضاً، ص 34 - 34 وحول الثورة العباسية، نفس المـرجع، ص 299 - 317.

(6) انظر لاووست ص 63 - 66 حول ثورة محمد بن عبد الله المعروف باسم النفس الزكية وثورة أخيه إبراهيم ومصرعهما، وقد اندلعت الثورة الأولى في المدينة والثانية في البصرة.

(7) دائرة المعارف الإسلامية (جعفر) ص 384 - 385، انظر جعفر ص 115 - 139 والافتتاح، الفقرة 20، ولاووست ص 67 - 69.

وبعدما أخفقت الحركة الشيعية كحزب عربي في كفاحها المسلح ضد الشق الأموي، تحولت إلى فرقة سياسية دينية قد فتحت بابها على مصراعيه في وجه العناصر الناقمة من الموالي النبطيين والأراميين الذين يمنحهم اعتناقهم للإسلام عند الاقتضاء حق الطموح إلى العدالة الاجتماعية والمساواة مع العرب. وهكذا فقد بعثت الحركة أثناء اندلاع ثورة المختار الثقفي بالكوفة فكرة المهدي «المنتظر»[8] الذي «سيملأ الدنيا عدلاً كم ملئت ظلماً وجوراً». ولكن ظهور عدة نزعات تتنازع شرعية الإمامة والحق في الخلافة قد قسمت الحركة الشيعية إلى عدة فرق يناهض بعضها بعضاً. غير أن استيلاء الشق العباسي على الحكم على حساب المطالبين بالخلافة من الشق الفاطمي، ثم فشل العباسيين في تحقيق ما يتميز به المثل الأعلى الشيعي من مساواة وعدالة اجتماعية، وفي تطبيق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الإسلامي، قد خلقا في النهاية جواً ملائماً لتفوق النزعة المتطرفة. وعندئذٍ وجدت النزعة الشيعية الثورية أشد اتباعها تحمساً من بين أعقاب السلالة الحسينية أي الإسماعيليين[9].

ويتضح من مقابلة الوثائق التي حللها برنار ليويس تحليلاً ضافياً أن الإمام السابع إسماعيل قد تمكن، قبل وفاته التي لا شك أنها سبقت بمدة قليلة وفاة والده جعفر الصادق حوالي سنة 145/762، من وضع أسس الحركة الإسماعيلية، بمساعدة الداعي أبي الخطاب. ثم أن ابنه محمد الإمام الأول «المستور» هو الذي ضبط مذهب الحركة ونظم «الدعوة» بفضل مساعدة المبارك ميمون القداح، وبالخصوص ابنه عبد الله بن ميمون[10].

واعتباراً من محمد بن إسماعيل، الإمام الأول «المكتوم» أو «المستور» ستبدأ في مطلع النصف الثاني من القرن الثامن حلقة «الستر» التي ستنتهي في

(8) انظر الافتتاح، الفقرة 18، ولاووست ص 27 - 28 والثورة العباسية، ص 3 - 30، 313.

(9) دائرة المعارف الإسلامية (الملحق) ص 103 - 104، نفس المرجع (الفاطميون) ص 870، وجعفر، ص 136 - 137 وبالخصوص ليويس 85 - 90. وانظر أيضاً لاووست ص 67 - 68.

(10) ليويس ص 33 وما بعدها وص 126 وما بعدها، وإيفانوف (Rise) ص 53 - 56 والكشف، ص 196 - 200.

أواخر القرن التاسع «بظهور» المهدي. وهي بالنسبة إلى المؤرخ حلقة السر الخفي والفترة الأشد غموضاً. والأكثر إثارة أيضاً، نظراً إلى ما يواجهه من صعوبات جسيمة لإدراك شـيء من الحقيقة، من خلال مصادر غزيرة بقدر ما هي متناقضة[11].

فما هو الترتيب الأكيد لتعاقب الأئمة خلال تلك الفترة الطويلة التي بلغت قرناً ونصف القرن وامتدت من وفاة إسماعيل إلى تولي الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي مقاليد الحكم؟[12]. وهل خرجت الإمامة فعلاً من نسل الحسين لتنتقل إلى أسرة ميمون القداح؟ وهل ينتمي المهدي حقاً إلى سلالة عليّ، أم هو من أعقاب القداح ليس إلاّ؟ وهكذا فقد طرحت مشكلة نسب الفاطميين وأثارت لدى معظم المؤلفين السنيين آراء متناقضة ومتحيزة، وتأكيدات رسمية مغرضة، بل قل مخالفة للصواب[13]. ولا تزال هناك اختلافات جوهرية بين المؤلفين الإسماعيليين أنفسهم. ففي حين تؤكد صراحةً كتب «الظاهر» الموجهة للعموم أن الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله هو ابن المهدي، تنفي بعض النصوص «الباطنية» الموجهة للمطلعين على الأسرار نسبته إلى المهدي وتنسبه إلى أصل غير علوي بل ميموني[14].

وسوف لا ندرس هنا لا المصادر السنية، ولا الأطروحات المتقادمة التي

---

(11) دائرة المعارف الإسلامية (الفاطميون) ص 870 - 871. انظر التأويلين المختلفين، بقلم إيفانوف (Rise) ص 233 - 258 وليويس ص 126 - 131، ص 83 - 163 وبالخصوص الجدول، ص 162.

(12) الافتتاح، الفقرة 150 والكشف ص 196 - 198 وص 65 - 67 (حسب رواية زهر المعاني للداعي إدريس) وص 37 - 38 (حسب رواية غاية المواليد).

(13) دائرة المعارف الإسلامية (الفاطميون) ص 870 - 871 انظر في البيان ص 158 الشهادة الغريبة المنسوبة إلى الحَكَم الثاني الخليفة الأموي بالأندلس المشهور بتعلقه بالمذهب المالكي وكذلك بسعة معارفه وولوعه بالعلم، وقد أثبت صحة نسبة المهدي إلى العلويين (وهو مذهب الحَكَم المستنصر بالله الأموي).

(14) انظر مادلونغ، (Das Imamat)، ص 60، 70، 77 وإيفانوف (Rise) ص 31، 37، 140، وليويس ص 33 - 38.

قدمها سيلفاستر دي ساسي أو كازانوفا أو غوج أو الأمير مامور، ولا المصادر الإسماعيلية التي درسها عدد كبير من الباحثين، بل سنكتفي بالإحالة على المقدمة القيمة التي صدر بها برنار ليويس أطروحته حول أصول الحركة الإسماعيلية.

فقد أفضت الدراسات التي أجراها ليويس بالاعتماد على المقارنة بين المصادر الإسماعيلية والسنية إلى اقتراح حل طريف يرتكز على مبدإ النبوة الروحية ونظرية الإمام «المستقر» و«المستودع». وتتمثل هذه الأطروحة التي تبناها بعد ذلك بسبع سنين حسن إبراهيم وطه أحمد شرف في كتابهما «المهدي»، في التمييز بين الإمام «المستقر» أي الإمام الحقيقي، والإمام «المستودع» الذي يحجبه خلال فترة «الستر». وهكذا فقد ظهرت اعتباراً من وفاة إسماعيل، حسب رأي ليويس، إمامة حقيقية في ذرية الحسين، وإمامة «بالوصاية» في أعقاب القداح وتبتدىء الإمامة الأولى مع محمد بن إسماعيل وتفضي إلى القائم بأمر الله، في حين تبتدىء الإمامة الثانية مع عبد الله بن ميمون وتفضي إلى عبيدالله المهدي. على أن الإمام «المستقر» هو المؤهل وحده لنقل الإمامة إلى ابنه الذي «يحجبه» الإمام «المستودع»، إلى أن يأتي اليوم الذي يسلمها فيه إليه. وبناءً على ذلك فإن المهدي الذي هو الإمام «المستودع» لم يكن - حسب رأي ليويس - سوى الوصي والأب الروحي للقائم الذي هو الإمام «المستقر، وقد سلم إليه المهدي الإمامة «المستودعة» لديه. فالخليفة الأول «المكشوف» والإمام الفاطمي الشرعي هو حينئذٍ القائم بأمر الله، أما المهدي «مستودعه» فهو ينتمي إلى أسرة القداح. وهكذا يرتقي نسب الفاطميين بلا انقطاع من القائم إلى فاطمة، بواسطة ابنها الحسين، من غير تزييف[15].

وأما إيفانوف فإنه لم ينتظر طويلاً لتفنيد هذه الأطروحة التي دافع عنها ليويس. ففي كتابه[15م] الذي أورد فيه عدة نصوص إسماعيلية مع ترجمتها

(15) انظر ليويس، ص 33 وما بعدها وص 126 وما بعدها وص 160 - 163.

(15 م) إيفانوف: «Rise Ismaili tradition concerning the rise of the Fatimids».

الانجليزية، طعن هذا العالم المتخصص في الدراسات الإسماعيلية في شهادة الداعي أبي الخطاب التي اعتمد عليها ليويس، ونقض نظرية الإمام «المستقر» والإمام «المستودع»، معتبراً أن هذه النظرية قد اختلقت في أيام الأئمة «المكشوفين»، لتبرير انتقال الإمامة بالوراثة، وعلى هذا الأساس فإن الخلفاء الفاطميين، حسب رأيه، بما في ذلك المهدي، ينتمون إلى نسب علوي صحيح.

ولا شك أن أطروحة ليويس جريئة، ولكن البناء الذي شيده بعد القيام بمقابلة منهجية بين المصادر الإسماعيلية والسنّية قد صمد أمام معول إيفانوف الذي لم تستطع آراؤه، مهما كانت حصافتها، إزالة التناقضات التي ظلت موجودة في النصوص الإسماعيلية.

ولئن اعتمد ليويس على مؤلف كتاب «**غاية المواليد**» الذي هو من كتب «الباطن» ليؤكد أن القائم ليس ابن المهدي الحقيقي، فإن النعمان، قاضي قضاة إفريقية في عهد الدولة الفاطمية، ومؤرخ «الظاهر» الرسمي وكاتبه الخاص قد أثبت بصريح العبارة بنوة القائم الجسمانية من المهدي حين قال: «فخرج المهدي بنفسه وبالإمام ابنه القائم من بعده، معه»[16]. ولكن عندما يفسر صاحب الافتتاح سياسياً المؤامرة التي دبرها أبو عبد الله وأخوه أبو العباس ضد الإمام[17]. لا يخفي الشكوك التي أبداها المتآمرون حول صحة إمامته. فقد أنهى أبو عبد الله مهمة الدعوة بنجاح دون أن يرى المهدي. أما أخوه أبو العباس محرك المؤامرة» فقد بايع الإمام السابق «من وراء حجاب». ولما رفع الحجاب إثر البيعة ـ حسب رواية جعفر الحاجب ـ رأى الإمام والمهدي ومعهما القائم «وهو يومئذٍ غلام حدث السن»[18]. ولعلّ أبا العباس الذي كان أكثر اطلاعاً من أخيه على التنظيم الداخلي للحركة الإسماعيلية في سلمية، قد كانت له من

(16) الافتتاح، الفقرة 150 ص 158.

(17) سنستعرض تفاصيل هذه المؤامرة في الفصل الثاني من الباب الثاني.

(18) الافتتاح، الفقرة 150 Chambellan، ص 287 - 288 Gateau، ص 385.

الأدلة الدامغة ما حمله على الشك في صحة إمامة المهدي، وكان سبباً في هلاكه.

وكشف لنا مصدر إسماعيلي آخر وهو سيرة جوذر عن مدى أهمية الشقاق الذي كان يدب داخل الأسرة الفاطمية(19) في عهد المنصور والمعز، وقبل ذلك بلا شك في عهد القائم والمهدي، فقد بلغت الشكوك حول إسناد الإمامة حداً كبيراً، حتى خشي القائم أن يحرم منها لفائدة أخيه أحمد، وأرغم المنصور على الانتظار زهاء الاثني عشر عاماً، قبل أن يعلم بتوليه مقاليد الإمامة. على أن المنافسة بين القائم وأخيه أحمد الذي لم يكن ليطمع في الإمامة بصورة شرعية لو لم يكن المهدي من أصل علوي، والمنافسة بين المنصور وأعمامه وإخوته، من شأنهما إقامة الدليل ـ إن كنا في حاجة إلى دليل إضافي ـ على ضرورة التساؤل حول صلة القرابة بين القائم والمهدي. ومن ناحية أخرى يمكن تأويل لفظتي «مستقر» و «مستودع» التابعتين لعلوم الباطن تأويلاً متبايناً. إلا أن مفهوم «الاستيداع» كما حدده ليويس يرجع أصله تاريخياً إلى الفترة الموالية رأساً لاغتيال الإمام علي. ذلك أن الحسن الإمام «المستودع» هو الذي حجب أخاه الحسين الإمام «المستقر». ، فالإمام «المستودع» يمكن حينئذٍ أن يكون من ذرية فاطمة أو أجنبياً عنها. أضف إلى ذلك أن الاستيداع يوافق حدثاً قد ثبتت تاريخيته. ذلك أن اضطهاد الخلفاء العباسيين للمطالبين الفاطميين بالخلافة، قد أرغم هؤلاء على العمل في كنف السرية وإسناد الإمامة أثناء فترة «الستر» إلى «المستودع» أو «الحجة».

وقد أيد هذا الرأي المعز ذاته في تعليقه على كتاب وجّهه إليه أحد الدعاة وزعم فيه، حسبما رواه القاضي النعمان «أن الإمامة انتقلت عن بعض الأئمة إلى ميمون القداح وإلى فلان وإلى فلان لقوم ذكرهم من أفناء الناس». فتعجب المعز من هذا القول وقال: «إذا كان ذلك كذلك فقد انقطع السبب ـ ونعوذ بالله ـ من أيدينا فصار أخذنا لما أخذناه من الفضل من قبل غيرنا وصاروا أحقّ به

(19) سيرة جوذر، ص 19، 91 - 92، 106 - 107.

منّا، ولن يجعل الله (عج) ذلك عند الضرورة عند من جعله في يديه من أهل البيت من غير الأعقاب المتصلة (ذرية الحسين) إلا مستودعاً عندهم غير مستقر فيهم، إلى أن يستحق ذلك مستحقه فيأخذه من أيديهم».

«. . . فليس المستقِر كالمستودَع ولا الوكيل كالموكِل ولا الوصيّ كالمُوصَى عليه. . فإذا كان هذا هكذا في أهل البيت الأقربين، فكيف ينبغي أن يقطع القول فيه بأنه قد سار بالحقيقة إلى الأبعدين كالذين ذكرهم (هذا الداعي)، من ميمون القداح وغيره؟».

ثم «قال: نعم، إن صاحب الحق لهو الميمون المبارك السعيد قادح زناد الحق وموري نور الحكمة، فإن ذهب من ذهب إلى هذا، فنعم»[20].

ومما لا شك فيه أن المعز، بتمييزه بين «المستقر» و «المستودع» قد نقض الفكرة القائلة بأن الإمامة يمكن أن تكون قد انتقلت بصورة شرعية إلى فرع من فروع أهل البيت من غير الفرع الحسيني، ومن باب أولى وأحرى إلى عائلة القداح. ولكن بإشاراته إلى ميمون القداح أو المبارك، مولى الإمام إسماعيل، أو سعيد الذي قد يكون المهدي ذاته أو عمه سعيد الخير، قد التجأ إلى تأويل رمزي تابع لعلم «الباطن». والواقع أن هذا النص من **المجالس** ورسالة المعز إلى داعي السند التي درسها شتارن[21] يقيمان الدليل على أن الشك في نسب الفاطميين الذي كان قائماً منذ أواخر القرن التاسع لم يكن حكراً على الأوساط السنية، بل شمل أيضاً حتى بعض الدعاة الإسماعيليين وسواء خلف عبد الله بن ميمون القداح محمد ابن إسماعيل أم لا، وسواء أكان المهدي من أصل علوي بصورة شرعية، أم أحد أعقاب القداح، فإنه من العبث نفي ما قامت به عائلة القداح من دور بارز لا فحسب في ضبط المذهب الإسماعيلي الذي سندرس

(20) **المجالس والمسايرات**، المخطوط ص 341 وما بعدها. [طبعة تونس ص 409 - 410 - 411].

(21) شتارن، (Heterodox Ismailism)، ص 12 وما بعدها. وقد أورد المؤلف مقتطفات من الرسالة التي وجهها المعز إلى داعي السند سنة 354 هـ/ 965، ويوجد نص هذه الرسالة في كتاب **عيون الأخبار** للداعي إدريس [انظر، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**، تحقيق محمد اليعلاوي، ص 658 وما بعدها، رسالة المعز إلى حليم بن شيبان].

خطوطه الكبرى في فصل آخر[22]، بل بالخصوص في تنظيم الحركة وسيرها أثناء فترة «الستر» بالكوفة وفي جنوب العراق وفارس، ثم في سوريا واليمن. ولئن كانت المصادر الإسماعيلية التي استغلها إيفانوف دون سواه تقريباً، ضنينة بالمعلومات المتعلقة بهذه العائلة، فإن المؤلفات السنية التي لا يمكن إهمالها مسبقاً، وقد وفرت لنا مجموعة كبيرة من المعطيات التي تسمح لنا بعد تفحصها بدقة بتأكيد الدور التاريخي الذي قامت به تلك العائلة.

ويتعلق الأمر، بالنسبة إلى الأئمة «المستورينْ» والتنظيم الأعلى «للدعوة» الذي كانت تشرف عليه عائلة القداح، بتوضيح فشل العباسيين في تحقيق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي المندمج ضمن المثل الأعلى الذي اختارته الحركة الشيعية منذ ثورة المختار في الكوفة، والمقام على العدل والمساواة. وهكذا فإن الدعوة الإسماعيلية التي افتتحها وأشرف عليها محمد بن إسماعيل انطلاقاً من المدينة المنورة ذاتها خلال السنوات الأخيرة من عهد الخليفة المنصور (754 - 136/775 - 158)، قد اتسع نطاقها في أواخر القرن الثامن في عهد هارون الرشيد (786 - 170/809 - 193) بعيداً عن تلك المدينة التي اختفى منها الإمام، عبر فارس وجنوب العراق والشام. وانتشرت الحركة بأكثر سهولة انطلاقاً من سلميّة في تلك الربوع بين جموع الموالي النبطيين والأراميين، في عهد المأمون (813 - 198/833 - 218). وازداد نطاقها اتساعاً بلا شك من خلال بوادر الانحطاط الأولى التي ظهرت في صرح الخلافة الضخم اعتباراً من عهد المعتصم (833 - 318/842 - 327)[23].

---

(22) انظر القسم الثاني، تنظيم الدولة الفاطمية، الباب الرابع، نظام القضاء. وحول أصل ودور ميمون القداح وابنه عبد الله، انظر دائرة المعارف الإسلامية ـ الملحق (الإسماعيلية) ص 107 - 109 (والقرامطة) ص 813 - 818، وقد ذكر ماسينيون أن ميمون القداح من موالي الشق المخزومي (قريش)، وهو أصيل مكة وفقيه مشهور، روى عن الإمام الباقر والإمام جعفر الصادق في القرنين الخامس والسادس، أما ابنه عبد الله راوي الإمام جعفر الصادق، فقد توفي في سجن الكوفة سنة 201 في عهد المأمون.

(23) يرى سيلفاستردي ساسي أن الحركة الإسماعيلية تعبر عن رد فعل سياسي وديني من قِبَل الفرس =

وسيشهد نصف القرن الموالي انتشار الحركة الإسماعيلية بأكثر جرأة انطلاقاً من مركزها الجديد بسلمية، عبر العالم الإسلامي المقسم إلى دوائر أو «جُزر» الدعاية، وتسربها إلى اليمن واليمامة والبحرين ومصر والسند وبلاد المغرب النائية[24]. وأخيراً ستكون هذه الحقبة بالنسبة إلى الدعوة الإسماعيلية الفترة الملائمة التي ستشهد شيئاً فشيئاً حتى عهد المعتضد (892 - 279/902-289) ضعف السلطة العباسية التي أوهنتها قوة الأمراء الأتراك المتزايدة، واستقلالية الصفاريين والطاهريين والطولونيين[25]، وبوجه أخص الاضطرابات السياسية والاجتماعية. ذلك أن الحركة الإسماعيلية قد دخلت في مدة الإمام الحسين بن أحمد طورها الثوري النشيط، في الوقت الذي ظهرت فيه حركة القرامطة حوالي سنة 264/877، بينما قد أفضت ثورة «الزنج» التي اندلعت منذ سنة 255/868 إلى زعزعة النظام الاجتماعي الذي أقامته الخلافة العباسية[26].

= ضد الهيمنة العربية والسلطة الإسلامية، وقد تولى تنظيمها عبد الله بن ميمون القداح، ولم تكن حركة القرامطة سوى فرع منبثق عنها. أما ماسينيون، فإنه يرى أن الحركة لها أصول اجتماعية واقتصادية في جنوب العراق وسوريا. وقد أثبت برنار ليويس هذه الملاحظات في أطروحته التي تتضمن الأفكار الأساسية التالية حول أصول الحركة الإسماعيلية :ـ

1 ـ نشأت الحركة حول حاشية جعفر الصادق وابنه إسماعيل ومحمد بن إسماعيل، وذلك بفضل نشاط أبي الخطاب وميمون القداح وابنه عبد الله

2 ـ وأفضت هذه الحركة التي نظمها عبد الله بن ميمون إلى الحركة الإسماعيلية التي ظهرت في كل من اليمن وإفريقية. وينحدرد المهدي من عبد الله المذكور، في حين ينحدر القائم من الأئمة «المستورين».

3 ـ يمثل القرامطة في العراق وسوريا فرعاً من الحركة الإسماعيلية.

4 يرجع نشوء نظرية المهدي المنتظر إلى ثورة المختار التي انتشرت في الكوفة في محيط اجتماعي وثقافي ملائم (انظر الثورة العباسية، ص 303 - 307).

5 ـ نجحت الدعاية الإسماعيلية لدى المسلمين غير العرب، أي الفرس والأراميين. وقد كانت عقيدتهم الإسماعيلية التي تغذيها الأفكار الموروثة عن الديانة المسيحية والنزعة الإيرانية، تعبيراً عن ثورتهم السياسية والاجتماعية على حكم العباسيين.

(24) الافتتاح، الفصلان الأول والثاني وبالخصوص الفقرتان 16 و 17.

(25) انظر حول هذه الدويلات الإقليمية، لاووست ص 141 - 132.

(26) دائرة المعارف الإسلامية ج 4 (الزنج) 1281 - 1282 بقلم ماسينيون، ولاووست، ص 131 - =

ويرجع إلى لويس ماسينيون[27] الذي ركز على الأسباب ذات الصبغة الاجتماعية والاقتصادية، الفضل في كونه أول من أدرك الصلة الوثيقة بين الحركة الإسماعيلية وحركة القرامطة التي «كانت حركة اجتماعية تدعو إلى الإصلاح وتنادي بالعدالة والمساواة». والواقع أن حركة القرامطة التي ظهرت في ناحية الكوفة ـ كما أشار إلى ذلك برنار ليويس ـ لم تكن سوى فرع من الحركة الإسماعيلية. ذلك أن حمدان قرمط وصهره عبدان،[28] لما أشعلا نيران الثورة، قد تصرفا وفقاً للتعليمات الواردة من سلميّة، لفائدة الإمام الإسماعيلي الحسين بن أحمد. كما أن وجه الشبه واضح بين ثورة القرامطة في بدايتها وثورة ابن حوشب في اليمن وأبي عبد الله في بلاد كتامة بإفريقية، أي نفس الطريقة النشيطة والعنيفة في بث الدعوة، ونفس تنظيم الأتباع، ونفس تأسيس «دار هجرة للمؤمنين»[29].

ولكن لما انتهت الإمامة إلى المهدي إثر وفاة الحسين بن أحمد حوالي سنة 285/898في عهد المعتضد، رفض حمدان وعبدان الاعتراف بسلطة الإمام

= 133، انظر أيضاً دائرة المعارف الإسلامية، ج 2 (القرامطة) ص 813 - 818، بقلم ماسينيون الذي حدد العلاقة بين حركة القرامطة وثورة الزنج. انظر بالخصوص مادلونغ: Fatimiden، ص 34 وما بعدها.

(27) انظر تعريف ماسينيون لحركة القرامطة، في دائرة المعارف الإسلامية المرجع المذكور: «يُطلَق هذا الاسم بمعناه الضيق على المجموعات الثائرة من العرب والنبطيين الذين نظموا صفوفهم في جنوب العراق بعد ثورة الزنج ابتداء من سنة 877/264 على أسس التعادلية الباطنية. وقد تمكنوا بفضل دعايتهم النشيطة من نشر الجمعيات السرية ضمن تكتلات العملة الفلاحيين والحرفيين».

«وتدل هذه التسمية بمعناها العام على الحركة الاجتماعية الواسعة المنادية بالإصلاح والتعادلية، التي زعزعت العالم الإسلامي من القرن الحادي عشر إلى القرن الثاني عشر... وقد استحوذت على الحركة ووجهتها مجموعة من الطموحين تتمثل في الأسرة الإسماعيلية التي أسست الخلافة الفاطمية المضادة للخلافة العباسية سنة 910/297».

(28) نفس المرجع، وقد أوضح ماسينيون أن الثورة بدأت مع حمدان قرمط في ضواحي واسط. وفي سنة 890/277 أسس حمدان شرقي الكوفة «دار الهجرة» لأتباعه. انظر لاووست، ص 140.

(29) الافتتاح الفقرة 142، الاتعاظ، ص 113.

الجديد وقطعا علاقاتهما مع سلمية[30]. وهذا ما تؤكده على الأقل بعض المصادر السنية، في حين يذكر المؤلفون الإسماعيليون أنهم لا يعلمون أي شيء عن علاقة حمدان قرمط بالدعوة الإسماعيلية. وقد انجر عن ذلك انشقاق في حركة القرامطة تمثل في إقصاء حمدان في ظروف غامضة وقتل عبدان سنة 289/899 بإيعاز من زكرويه بن مهرويه الذي تمكن من التحكم في الحركة قبل إعطاء إشارة انطلاق الثورة العامة في بادية الشام سنة900 / 288[31].

ويحيط الغموض بعلاقات زكرويه وخلفائه مع المهدي أثناء قيام الثورة. فهل كان أولئك القادة القرامطة يعملون في أول الأمر باتفاق مع المهدي ولحسابه؟ إن هذا الاحتمال مشكوك فيه جداً، ولو أن الأخبار المتوفرة لدينا لا تسمح لنا بأي جواب مؤكد. إلا أن هناك شيئاً ثابتاً يدل على المناهضة المتبادلة التي كانت تسود العلاقات بين القرامطة والمهدي عهدئذٍ. ففي الوقت الذي كانت فيه قوات زكرويه تزحف نحو سلمية في أواخر صائفة 239/902، لاذ المهدي بالفرار في اتجاه مصر، في ظروف سوف نستعرضها فيما بعد، لا للإفلات من قبضة أعوان المكتفي، بل لاجتناب الوقوع بين أيدي عدو لا يقل عنهم فظاعة، وهو القرمطي «الخارجي»[32].

ويكفي لمعرفة سبب هذه المناهضة توضيح سر قطع العلاقات بين حمدان والمهدي. إذ يمكن أن يجد فيها من يقدح في نسبة المهدي إلى العلويين حجة قاطعة. ولكن هل يكفي ذلك لتفسير مثل تلك الخلافات في صلب الحركة الإسماعيلية، في الوقت الذي شن فيه فرعها القرمطي الثورة على العباسيين؟ لا شك أن قضية الإمامة كثيراً ما أثارت الخلافات داخل الأسرة الشيعية قبل ظهور الفرقة الإسماعيلية وبعده. ولكن يبدو أن الانحراف القرمطي يرجع أولاً وبالذات إلى أسباب سياسية. فسنرى في الباب الموالي كيف رفض الداعي أبو

(30) الافتتاح، الفقرة 150 والاتعاظ، ص 222 - 22 ولاووست ص 140 - 141.

(31) دائرة المعارف الإسلامية ج 2 (القرامطة) ص 813 - 818. وانظر بالخصوص **الاتعاظ**، ص 223 - 224 ـ انظر أيضاً لاووست، 141 ومادلونغ المرجع المذكور ص 34.

(32) الافتتاح، الفقرة 150 والاتعاظ ص 227 - Rise، ص 75 وما بعدها.

عبد الله وأخوه أبو العباس اللذان كان يحدوهما طموح سياسي، سلطة المهدي، وكيف شككوا في صحة إمامته. ولعل موقف حمدان وصهره يتضح أكثر لو نظرنا إليه في ضوء التطور السياسي للحركة الإسماعيلية.

ففي الوقت الذي انتهت فيه الإمامة إلى المهدي في سلمية التي كانت تتخبط في خضمّ الاضطرابات القرمطية، أحرزت القضية الإسماعلية في اليمن وإفريقية انتصاراً باهراً أطنب في الحديث عنه القاضي النعمان وفق المراد في كتابه «**افتتاح الدعوة**»، مجتنبا التعرض ولو بكلمة واحدة «للخائن» حمدان. فقبل سبع سنوات من تأسيس القائد القرمطي لحصنه المنيع شرقي الكوفة المعروف باسم «دار الهجرة»، أسس ابن حوشب داعي اليمن الذي نزل سنة 268/881 عند بني موسى في ناحية عَدَن لاعة، حصنه في جبل مِسْوَر سنة 270/883 وأشهر الحرب على بني يَعْفُر[33]. وكان ابن حوشب الذي استحق لقب «منصور اليمن» بفضل انتصاراته الباهرة، قد تمكن قبل وفاة الإمام الحسين بن أحمد من تركيز نواة دولة إسماعيلية في تلك الربوع، وإقامة مركز نشيط للدعوة ينطلق منه الدعاة في اتجاه «اليمامة والبحرين والسند والهند وناحية مصر والمغرب»[34].

أما أبو عبد الله الذي ارتحل إلى بلاد كتامة سنة 283/893، بعدما قضى فترة تدريب عند ابن حوشب، فقد بث دعوته وركز مواقعه في «دار هجرته» إيكجان، قبل أن يوجه سيل أتباعه البربر إلى غزو إفريقية الأغلبية[35].

وهكذا ففي الوقت الذي قطع فيه حمدان علاقاته مع المهدي، ظل ابن حوشب وأبو عبد الله مخلصين له، يسعى كل واحد منهما إلى إقامة خلافة فاطمية باسم المهدي. ولكن حمدان وعبدان، لما شنا الثورة على العباسيين في عهد المعتضد المضطرب، بالاتفاق مع الإمام الحسين بن أحمد، قد فكرا

(33) الافتتاح، الفصلان 1 و 2 وبالخصوص الفقرات 14، 15، 16.

(34) نفس المصدر، الفقرة 17.

(35) نفس المصدر، الفقرة 17.

لا محالة في إقامة تلك الخلافة المضادة للخلافة العباسية في العراق ذاته[36].
ويمكن الاعتقاد أن المهـدي، لما رأى المعتضد قد أعاد الوضع إلى نصابه وأبعد الخطر الطولوني عن الشام، حول آمال الفاطميين إلى ابن حوشب في اليمن، وبالأحرى إلى أبي عبد الله في المغرب، حيث أسعف الحظ قبل ذلك الأدارسة من بني عمومتهم الحسنيين[37]، وأخذ في كبح جماح القرامطة وإحباط مشاريعهم، ولو أدى ذلك إلى خطر الدخول في نزاع معهم.

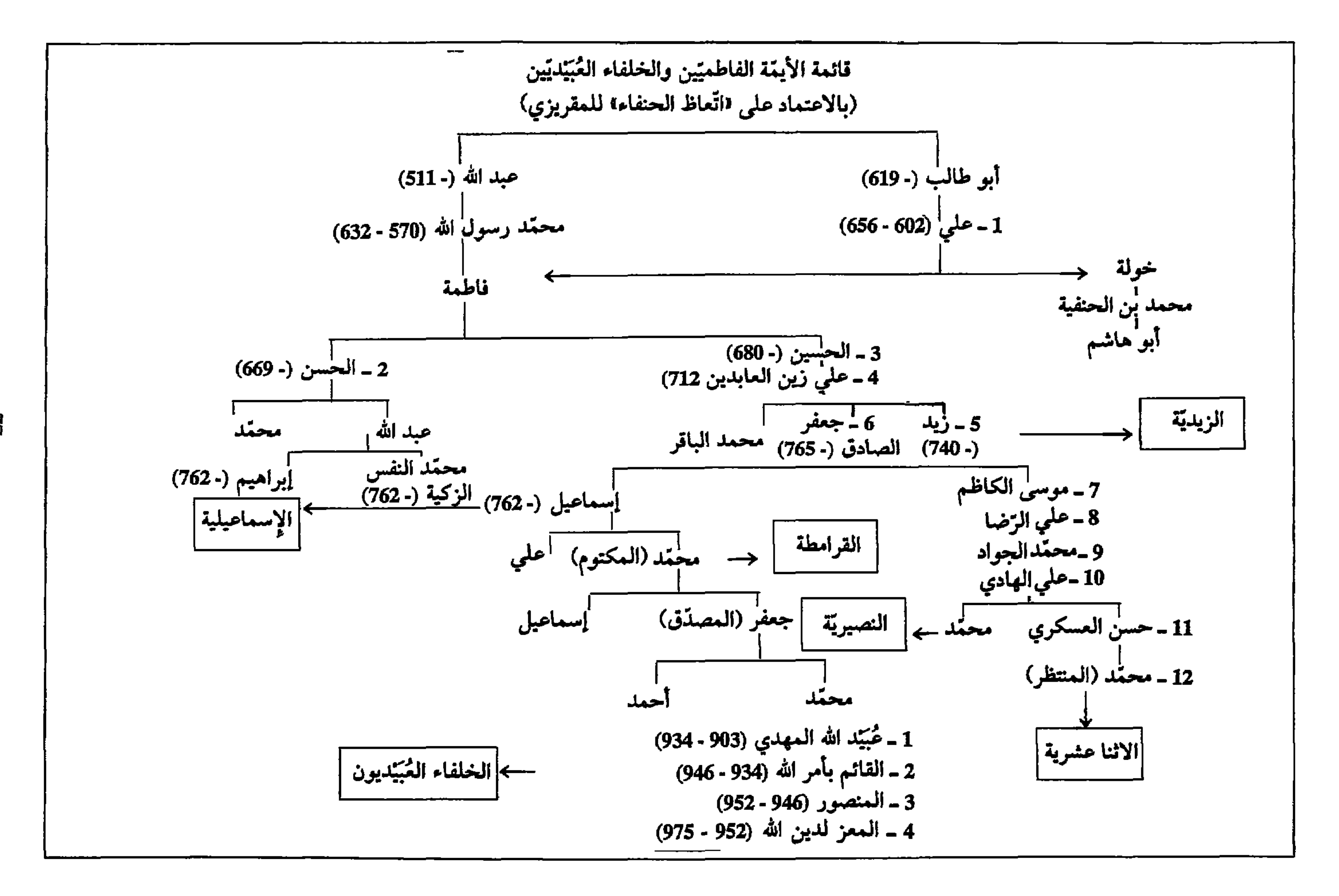
وقد أظهر المهدي بهذا السلوك أنه على الأقل ذو فكر ثاقب. إذ لم تمض سوى بعض سنوات على فراره من سلمية حتى تم قمع حركة القرامطة في جنوب العراق، وانتهى أمرها سياسياً سنة909 / 264[38]، في الوقت الذي كان فيه داعيته أبو عبد الله يزحف بجيوشه لاقتحام آخر معاقل الأغالبة. وإن هذا الانتصار الإسماعيلي في إفريقية هو الذي سيتوج في سنة 297/910 بتحقيق المشروع الذي طالما فكر فيه الفاطميون، ألا وهو إقامة الدولة الفاطمية التي سنستعرض تفاصيل نشأتها في الفصل الموالي.

---

(36) الاتعاظ، ص 209 - 219، ومادلونغ، المرجع السابق.

(37) انظر حول ثورة الحسنيين بالمدينة سنة 786/169، دائرة المعارف الإسلامية، 47/2. وحول الأدارسة، انظر نفس المرجع (الأدارسة) 478/2- 480.

(38) دائرة المعارف الإسلامية ج 2 (القرامطة) ص 813 - 818، لاووست، ص 141 - 142 - الاتعاظ، ص 228 - 237.


قائمة الأيمّة الفاطميّين والخلفاء العُبَيْديّين
(بالاعتماد على «اتّعاظ الحنفاء» للمقريزي)
عبد الله (- 511)
أبو طالب (- 619)
محمّد رسول الله (570 - 632)
1 - علي (602 - 656)
فاطمة
خولة
محمد بن الحنفية
أبو هاشم
2 - الحسن (- 669)
3 - الحسين (- 680)
4 - علي زين العابدين 712)
محمّد
عبد الله
محمد الباقر
6 - جعفر الصادق (- 765)
5 - زيد (- 740)
الزيديّة
إبراهيم (- 762)
محمّد النفس الزكية (- 762)
إسماعيل (- 762)
الإسماعيلية
7 - موسى الكاظم
8 - علي الرّضا
9 - محمّد الجواد
10 - علي الهادي
علي
محمّد (المكتوم)
القرامطة
إسماعيل
جعفر (المصدّق)
النصيريّة
محمّد
11 - حسن العسكري
12 - محمّد (المنتظر)
أحمد
محمّد
الاثنا عشرية
1 - عُبَيْد الله المهدي (903 - 934)
2 - القائم بأمر الله (934 - 946)
3 - المنصور (946 - 952)
4 - المعز لدين الله (952 - 975)
الخلفاء العُبَيْديون

الفصـل الثانـي

افتتاح الدعوة الإسماعيلية في إيكجان وتازروت مع الداعي أبي عبد الله

الداعيان الحلواني وأبو سفيان

أكد القاضي النعمان[1] أن إفريقية قد استقبلت الداعيين الشيعيين الأولين سنة 762/145 - 63، فيكون حينئذٍ بين دخولهما المغرب ودخول الداعي أبي عبد الله سنة 293/280 مائة وخمس وثلاثون سنة. ويقال إن جعفر الصادق ذاته هو الذي أوفدهما إلى المغرب «وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة وينشرا فضلـهم. وأمرهما أن يتجاوزا إفريقيا إلى حدود البربر». ويبدو أن هذا الخبر غير مستبعد، لأن محمداً بن إسماعيل الذي انتقلت إليه الإمامة إثر وفاة أبيه إسماعيل، وفي حياة جده جعفر الصادق، وعلى وجه التحديد سنة 145 هـ، هو الذي نظم «جزر» الدعوة الإسماعيلية، ومن بينها بلا شك بلاد المغرب النائية.

وبفضل الافتتاح تتوفر لدينا معلومات دقيقة حول هذا التسرب الأول للحركة الشيعية. وهذان الداعيان هما أبو سفيان والحلواني. وقد دخلا إقليم إفريقية في وقت كان فيه الوالي ابن الأشعث يحاول عبثاً إرجاع النظام إلى نصابه، إثر الاضطرابات التي أثارتها حركة الخوارج. ولا نعلم شيئاً عن أصل هذين الرجلين ولا عن مستواهما الثقافي.

فقد نزل أبو سفيان بقرية زراعية في ناحية مرماجنّة يقال لها تالا، حيث «ابتنى مسجداً، وتزوج امرأة واشترى أمة وعبداً. فيقال إنه كان يعمل مع عبده،

(1) الافتتاح، الفصل 3 الفقرات 27، 28، 29.

ويأمـر امرأته فتعمل مع أمَتِها. وكان له من الفضل والعبادة والذكر في الناحية ما قد اشتهر به ذكره. وكان أهل تلك النواحي يأتونه ويسمعون فضائل أهل البيت منه ويأخذونها عنه. فمن قبله تشيع من تشيع من أهل مرماجنة... وكذلك أهل الأربس، ويقال إنه كان أيضاً سبب تشيع أهل نفطة»[2].

وأما الحلواني، «فإنه تقدم حتى وصل إلى سوجمار (جنوبي شرقي قسطيلية)، فنزل منه موضعاً يقال له الناظور. فبنى مسجداً وتزوج امرأة واشترى عبداً وأمة. وكان في العبادة والفضل والعلم علماً في موضعه. فاشتهر به ذكره وضرب الناس من القبائل إليه، وتشيع كثير منهم على يده من كتامة ونفزة وسماتة. وكان يقول لهم: بُعِثْتُ ـ أنا وأبو سفيان ـ فقيل لنا: اذهبا إلى المغرب، فإنكما تأتيان أرضاً بوراً، فاحرثاها وكرباها[3] وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها».

«فمات أبو سفيان بمرماجنة... وعاش الحلواني دهراً طويلاً حتى لحق من لحقه أبا عبد الله. وخلف ابنة له، يقال لها أم موسى، قد بلغت هي وغيرها من «عجائز» البربر درجة الدعوة»[4].

وهكذا سينزل «صاحب البذر» في آخر الأمر أرضاً «محروثة» قد ظل أهلها من البربر منذ الفتح يتلقون الآراء السياسية والدينية الواردة من المشرق، وتأثر

---

(2) نفس المصدر الفقرة 28، إن كتاب النعمان هو أول مصدر ـ حسب علمنا ـ أشار إلى تـالا (أو تالة)، وحول هذه البلدة انظر بالخصوص اللمحة الممتازة التي خصصها لها القبطان ونكلار في المجلة التونسية، سنة 1896 ـ ص 522 - 527. انظر بالخصوص حول أهل البيت، **الافتتاح**، الفقرة 245 ودائرة المعارف الإسلامية (1) ص 165 - 266 (أهل البيت) وص 272 (أهل الكساء).

(3) [كذا في الافتتاح، ص 29، وفي المهدي، ص 74 «أكرياها»].

(4) الافتتاح، الفقرة 133. وحول دور المرأة البربرية في نظام المجتمع القبلي، انظر ليفي بروفنسال، **تأملات حول الامبراطورية المرابطية في أوائل القرن الثاني عشر**، في الإسلام المغربي، باريس 1948، ص 253 - 254.

عدد منهم من أبناء كتامة ـ كما أسلفنا ـ بالدعاية الشيعية التي بثها فيهم الحلواني.

الداعي أبو عبد الله[5]:

لدينا أكثر معلومات حول هذا الداعي الذي ملأ تاريخه لحسن الحظ كتاباً كاملاً سنكون مضطرين إلى الاقتباس منه، وهو **افتتاح الدعوة** للقاضي النعمان.

وآسمه الكامل أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، وهو ليس من أصل صنعاني، كما يشير إلى ذلك اللقب الذي أضفي عليه في بداية دعوته، بل هو من الكوفة، مهد الحركة الشيعية ومركز تخرج الدعاة الذين انتشروا في جميع أرجاء العالم الإسلامي للتعريف بقضية أهل البيت والدفاع عنها.

فهل كان «محتسباً» في البصرة أو «معلماً» اكتسب هذا اللقب ـ حسب ابن خلدون ـ لأنه درس مذهب الإمامية الاثني عشرية[6]؟ أم كان صوفياً ـ حسب جعفر الحاجب[7] ـ مجاوراً لأبي علي داعي الكوفة؟ إن الخبر الأول مشكوك فيه جداً، والخبر الثاني لا يقل عنه ريبة، فلئن أمكن لبعض أتباع الاثني عشرية في أغلب الأحيان اجتياز المسافة القليلة الفاصلة بين هذه الفرقة والفرقة الإسماعيلية، بل حتى التحول إلى دعاة إسماعيليين بارزين، إلا أننا نعلم أن أبا عبد الله قد ادعى في أول أمره أنه «معلم»، على غرار زملائه، ليتمكن من أداء رسالته السرية على أحسن وجه. أما الخبر الذي رواه جعفر الحاجب، فعلاوة على كونه صادراً عن مرجع إسماعيلي حسن الاطلاع، يبدو أقرب من الواقع، لا سيما وقد أكده القاضي النعمان الذي وصف لنا أبا عبد الله منذ دخوله إلى

---

(5) الافتتاح، مقدمة المحقق. وحول ترجمة الداعي أبي عبد الله انظر نفس المصدر الفصل 4.

(6) نفس المصدر، الفقرة 30 ـ ودائرة المعارف الإسلامية (2)، ص 599 - 600: (الإثنا عشرية).
وحول المشكل المعقد المتعلق بتكوين مختلف الفرق الشيعية، انظر: لاووست، ص 31، 67 - 69، 80 - 92، 146 - 151.

(7) غاتو (Gateau) ص 380 ـ وشامبلان (Chambellan)، ص 281 ـ ودائرة المعارف الإسلامية (1)، ص 106 - 107 (أبو عبد الله الشيعي).

الدعوة بقوله: «وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة»[8]. ولما اعتنق أبو عبد الله المذهب الإسماعيلي بفضل اتصاله بجاره أبي علي لا محالة، أدى اليمين هو وأخوه أبو العباس بين يدي فيروز، وهو حمو أبي علي داعي الدعاة، دون أن يرى إمام ذلك العصر الحسين بن أحمد[9]، وبعدما أنهى أبو عبد الله تعليمه الإسماعيلي الذي تلقاه عن فيروز، وتضلع في «علم الباطن»، أرسل إلى اليمن حيث بدأت الدعوة تنتشر وتتعزز، لقضاء فترة تدريبية لدى ابن حوشب، واتقان معلوماته في مجال الدعاية المذهبية. ولما اتجه عن طريق مصر إلى اليمن التي عين فيها أبو علي داعياً، وأبو العباس مكلفاً بمساعدته، كان أبو عبد الله قد عين داعياً بالمغرب، حسب القاضي النعمان، وأمر بالتحول في نهاية المطاف إلى بلاد كتامة[10].

وعند وصول أبي عبد الله إلى اليمن مع رجوع الحجيج اليمنيين من مكة المكرمة سنة 891/278، كانت تلك البلاد مركزاً لانتشار الدعوة الإسماعيلية «في آفاق الأرض»[11]. وكان الإمام الحسين بن أحمد قد أوفد إليها قبل ذلك بعشر سنوات، 882/268 داعياً من أهل الكوفة يقال له الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان، كان الإمام قد حوله من مذهب الاثني عشرية إلى المذهب الإسماعيلي. وأوفد معه رجلاً يمنياً من أهل جيشان متشيعاً ومنتمياً إلى سلك الدعاة، بعدما اجتاز الاختبارات المفروضة على المبتدئين، وهو علي بن الفضل الذي سنتحدث فيما بعد عن تخليه عن الدعوة[12] وتأثير ذلك على رحيل المهدي إلى المغرب.

وفي حين اتجه ابن الفضل إلى ناحية يافع الجبلية، قصد ابن حوشب

(8) الافتتاح، الفقرة، 30.

(9) نفس المصدر، الفقرتان 150 - 151.

((10) نفس المصدر، الفقرة 30.

(11) نفس المصدر الفصلان 1 و 2.

(12) انظر الباب الثاني من هذه الدراسة (القسم الأول). انظر أيضاً الافتتاح، مقدمة المحقق وترجمة المهدي.

المنطقة المعينة له، وهي ناحية عدن لاعة شمال غربي صنعاء، بعدما اتصل في عدن أبين ببعض التجار الشيعة من بني موسى، «وأقام ابن الفضل وابن حوشب باليمن سنتين يدعوان مستورين ثم ظهرت الدعوة»، بعد وفاة ابن يعفر أمير صنعاء سنة 893/270 - 94. وما لبثا أن أحرزا انتصارات باهرة، مكنتهما من احتلال قسم كبير من اليمن. وسمي ابن حوشب «بمنصور اليمن لما أتيح له من النصر»، فابتنى بجبل المسور حصناً للأولياء يقال له: «دار الهجرة»، وألف مجموعة إسماعيلية كثيرة العدد. ولما استقبل ابن حوشب أبا عبد الله الذي كان قد تعرف عليه في الكوفة، قربه منه وشركه في نشاطه وغزواته. ولكن فترة التدريب لم تدم مدة طويلة، إذ لم تمضِ سوى أقل من سنة على قدوم أبي عبد الله إلى اليمن، حتى انضمّ إلى قافلة الحجيج سنة 892/279 وخرج معهم إلى مكة المكرمة ليبتدىء معهم الفترة المغربية من حياته.

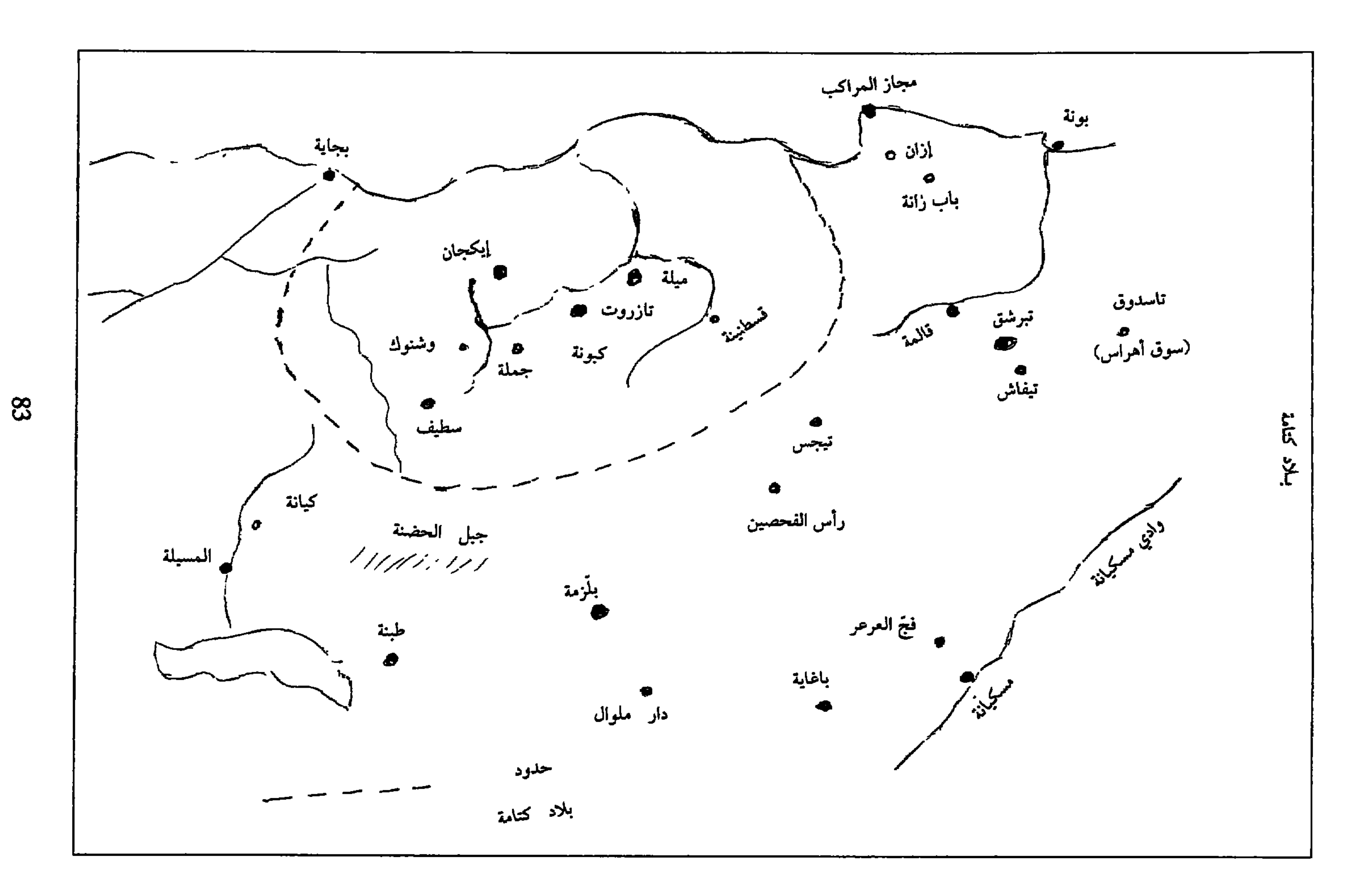
انتصاب أبي عبد الله في بلاد كتامة[13]:

وصل أبو عبد الله حينئذٍ إلى البقاع المقدسة لربط الصلة مع الحجيج البربر القادمين من بلاد كتامة وكان مرفوقاً ـ «بحسب ما جرت به السيرة في الدعاة» ـ برجل يقال له عبد الله بن أبي الملاحف. إلا أن هذا الرجل سوف لا تطول إقامته في إيكجان، إذ سيدعي إلى العودة إلى بلاده بسبب مرض والدته، وسيعوضه في منصبه إبراهيم بن إسحاق الزبيدي[14].

وقد اجتمع أبو عبد الله بالحجيج الكتاميين في منى، ولم يكن ذلك بلا شك من باب الصدفة. إذا كانت الجماعة التي اقترب منها تضم شخصين ينتميان إلى بطن كبير من بطون كتامة يقال له جيملة، وهما حريث الجيملي وموسى بن مكارم اللذان اعتنقا المذهب الشيعي تحت تأثير الحلواني، وقد سمعهما أبو عبد الله «يذكران لأصحابهما فضائل عليّ»، وكان بلا شك على علم بوجودهما ضمن الحجيج الكتاميين. «فجلس إليهما يذكر شيئاً من ذلك

(13) الافتتاح، الفصلان 5 و 6 من القسم الأول والفصل 6 من القسم الثاني.

(14) نفس المصدر، الفقرتان 31 و 32.



بلاد كتامة
مجاز المراكب
بونة
بجاية
إزان
باب زانة
إيكجان
ميلة
تازروت
قسطنينة
قالمة
تبرشق
تاسدوق
(سوق أهراس)
وشنوك
كبونة
جملة
تيفاش
سطيف
تيجس
رأس الفحصين
كيانة
جبل الحضنة
المسيلة
وادي مسكيانة
بلزمة
فجّ العرعر
طبنة
باغاية
مسكيانة
دار ملوال
حدود
بلاد كتامة

معهما. وأقبل عليه كل من كان حاجاً ذلك العام من كتامة. وحدثهم طويلاً. . . وأوسع في الحديث وازدادوا فيه رغبة وعليه إقبالاً». فلما حان وقت الرحيل، انضم أبو عبد الله إلى قافلتهم، وقد كانت وجهتهم مصر، فسرّوا بذلك، وأكرموه حسب عادتهم في إكرام الضيف، وأحسنوا معاملته، من فرط ما أعجبوا بثقافته الواسعة. وأثناء الطريق استقى منهم بعض المعلومات حول وضعهم السياسي والاجتماعي وكل ما من شأنه أن يفيد مهمته ولم يكشف شيئاً عن نواياه الحقيقية.

فلما وصلوا إلى مصر أظهر لهم أبو عبد الله أنه يريد المقام بها لتعاطي مهنة التعليم. فاقترحوا عليه التحول معهم إلى بلادهم ووعدوه بالنجاح في مهنته والحصول على مزايا ملائمة أكثر. «وجعلوا يزيدون في الرغبة إليه إلى أن أجابهم إلى الخروج معهم»، فلم يخف الكتاميّون اعتزازهم بانتداب مثل هذا المعلّم العالم وأحاطوه برعايتهم. ثم استأنفوا رحلتهم، «فكانت طريقهم من طرابلس إلى قسطيلية لأنها الجادّة. فلم يدخلوا إفريقية». ولما وصل الكتاميون إلى سوجمار من أرض سماتة، «تلقاهم أهل الموضع، فأنزلوهم عندهم». واستقبل حريثاً وموسى عدد من الشيعة من أهل تلك البلدة التي بث فيها الحلواني الدعوة وهم أبو حيون [أو أبو المفتش] وأبوالقاسم الورفجومي وأبو عبد الله الأندلسي[15]، وقدم إليهم حريث وموسى رفيقهما. فنظر أبو حيون الذي كان من أتباع الحلواني إلى أبي عبد الله وقال له: «والله إني لأظنك صاحب البذر الذي يذكره الحلواني»[15م]. وفي آخر السهرة الطويلة التي قضاها في بيت الأندلسي أعلم أبو عبد الله مضيفه دون سواه بحقيقة الغرض من مهمته. والواقع أن الشخص الذي ناله شرف «كشف الأمر» هو أيضاً معلم مقيم في تلك المنطقة. ويبدو أن الدور الذي قام به في إعداد مهمة الداعي كان كبيراً. فهو يستحق أن نتوقف عنده قليلاً، لا سيما وأن النعمان الذي لا يمكن أن يجهل

---

(15) نفس المصدر، الفقرة 38، [في النص الأصلي «أبو المفتش»].

(15 م) نفس المصدر.

أصل هذا الرجل، وكان يعرف أعقابه بلا شك، قد رأى من الفائدة أن لا يقدم عنه معلومات أوفر.

فاسمه حمدون بن سماك بن منصور الجذامي. وكانت عائلته اليمنية الأصل قد هاجرت من الشام إلى المرية في الأندلس ثم إلى بجاية. ومن المحتمل أن تكون قد تعهدت بنشر الدعوة الشيعية في الأندلس في كنف السرية. ومن المحتمل أيضاً أن يكون حمدون الذي لقبه النعمان بالأندلسي وكناه بأبي عبد الله، داعياً إسماعيلياً انتقلت إليه مهمّة الدعوة في سماتة وكتامة إثر وفاة الحلواني وسنرى أنه رافق أبا عبد الله في مكان لا يبعد كثيراً عن بجاية[16]، وكان في انتظاره بحكم دقة نظام الاستخبارات وسرية الاتصالات في الدعوة الإسماعيلية مما يدعو إلى الاعتقاد أيضاً أنه كان على اتصال بمركز الدعوة في سلمية، أو مع ابن حوشب في اليمن، وأنه هو الذي أعد اللقاء في منى بين أبي عبد الله والكتاميين الشيعيين. وسيتبوأ ابنه علي وحفيداه جعفر ويحيى في الدولة الفاطمية مكانة مرموقة سوف نتعرض لها في فصل آخر[17].

وبعد ما قضت القافلة يوماً في الاستراحة بسوجمار، استأنفت رحيلها في اتجاه بلاد كتامة. وقد صاحب أبا عبد الله، الأندلسي والورفجومي، ولم يستطع أبو حيّون الذي أوهنه الكبر الانضمام إليهم. ووصلت الجماعة إلى بلاد كتامة يوم الخميس 14 ربيع الأول 3/280 يونيو 893. «فتنازع أبا عبد الله كل واحد من الكتاميين ليذهب به إلى موضعه رغبة فيه». واندهش الجميع لما علموا أنه يعرف الموضع الذي سينزل فيه، حيث وقع اختياره على قلعة صغيرة يقال لها إيكجان، تقع في «فج الأخيار»، وتقيم بها قبيلة سكتان التي ينتمي إليها حريث وموسى.

وتضفي بعض الأخبار الإسماعيلية المأثورة طابعاً مقدساً على هذا الاختيار، وتبرره بحديث شيعي هذا نصه: «إن للمهدي هجرة تنبو على

---

(16) انظر الباب الثاني، من القسم الأول الإحالة 109.

(17) انظر الباب الخامس من القسم الأول حول المعز.

الأوطان، في زمان محنة وافتتان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان»[18]. ولا شك أن الأسباب التي دعت التنظيم المركزي للدعوة في سلمية إلى اختيار كتامة لتوجيه داع إلى المغرب، كانت بالأحرى ذات صبغة سياسية واجتماعية. ذلك أن الداعي أبا عبد الله، باستفساره للحجيج الكتاميين أثناء حديثه معهم عن وضع بلادهم، قد توفرت له لا محالة المعلومات المطلوبة التي أكدتها أو أوضحتها بيانات رفقائه في السفر. ففي الوقت الذي نزل فيه الداعي بالمغرب، كانت تتقاسم الحكم في تلك البلاد الممتدة الأطراف ثلاث أسر، هي الأسرة الإدريسية في المغرب الأقصى بفاس، والأسرة الرستمية في المغرب الأوسط بتاهرت، والأسرة الأغلبية في إفريقية، علاوة على الأندلس التي يمكن أن تثير فيها الإمارة الأموية مطامع الإسماعيليين، إلا أن بعدها والفشل التي منيت به الدعوة الإسماعيلية هناك في القرن التاسع من الميلاد، لا يساعدان على قيام أي حركة ثورية[19]. ومن ناحية أخرى فإن المملكة الإدريسية التي أسسها أحد أعقاب الفرع الحسني من الشيعة، قد كانت من أجل ذلك غير ملائمة لانتشار الحركة الإسماعيلية. كما أن مملكة تاهرت التي يمسك فيها بزمام الحكم أعداء ألداء من «الخوارج الملاعين»، ويقوم نظامها على أساس مذهب منافس عتيد، تمثل المنطقة الأشد مقاومة للدعوة الإسماعيلية. أما الأسرة الأغلبية. فمن مزاياها أنها تابعة للعباسيين. وبناءً على ذلك فإن تقويضها يمثل ضربة قاضية موجهة إلى المغتصبين، ومن شأنه أن يفضي إلى افتكاك إحدى الممالك الإسلامية، وتمكين أبناء فاطمة من استرداد الخلافة التي انتزعت منهم.

ففي هذه النواحي المختارة، تعتبر بلاد كتامة، أي منطقة القبائل الصغرى

---

(18) الافتتاح، الفقرة 44.

(19) انظر حول الدعاية الشيعية في الأندلس، دراسة محمود علي المكي القيمة «التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية» R. I.E.E.I مدريد II، 1964، ص 93 - 145. انظر أيضاً، فرحات الدشراوي، «محاولة تسرب شيعية بالأندلس في عهد الحَكَم الثاني»، مجلة الأندلس 1958.

الحالية، البعيدة عن المركز والواقعة في طرفه الشمالي الغربي، الإطار الأمثل لمهمة الداعي أبي عبد الله، بفضل جبالها المنيعة وهضابها العالية الخصبة.

وتمثل قلعة إيكجان، ملجأً منيعاً يطلّ على منطقة زراعية تقع شمالي بلزمة بين سطيف وميلة وتضم عدة مراكز عمرانية ريفية تقيم فيها مختلف بطون كتامة[20]. وتمتد هذه المنطقة الشاسعة على مسيرة خمسة أيام طولاً وثلاثة أيام عرضاً، وتبعد عن رقادة بمسافة عشرة أيام، مما يجعلها في مأمن من رقابة السلطة المركزية، أو الحصون المجاورة لها، وهي بلزمة وسطيف وميلة التي يمارس أصحابها الحكم باسم الأمراء الأغالبة، ولكنهم لا يعترفون بسلطتهم إلا صورياً. وينقسم الكتاميون من البربر الذين يقيمون بها إلى عدة قبائل وبطون وفرق، كثيراً ما تحدث بينها خصومات قبلية، ولا تخضع للسلطة التي يمارسها أكابر القوم وعلماؤهم، وقد زادت تضاريس منطقتهم الجبلية في سطوتهم التي جعلت منهم رجالاً مخيفين يخشاهم قواد الحاميات الأغلبية المجاورة ويقرؤون حسابهم، ولا يتجاسر أي خصم على مهاجمتهم.

وكان الكتاميون لا يخضعون من قبل السلطة الأغلبية لأي نوع من أنواع الجباية، ما عدا زكاة العشر، والصدقة المقدمة إلى الفقراء، مما جعلهم يتصرفون تصرفاً مطلقاً في مكاسبهم، ويتمتعون، علاوة على الاستقلال السياسي، بشيء من الرفاه، بفضل محاصيل الزراعة وموارد تربية الماشية.

أضف إلى ذلك أنهم قد ظلوا في معزل عن اضطرابات الخوارج التي ألهبت إفريقية في القرن الثامن من الميلاد. ولا شك أن الدعوة الإباضية قد شملتهم منذ سنة 757/140 - 58، حين حاول الداعي الإباضي أبو الخطاب[21] الذي ارتقى إلى منصب الإمامة، بسط نفوذه على إفريقية بتمامها وكمالها. إلا

---

(20) يعتبر الافتتاح أهم مصدر في الوقت الحاضر حول التركيبة الاجتماعية لقبائل كتامة. انظر تصنيف تلك القبائل من خلال تاريخ ابن خلدون، البربر، 1" ص 291 وما بعدها.

(21) دائرة المعارف الإسلامية (1)، ص 128 (أبو الخطاب المعافري). انظر أيضاً لاووست، ص 70 - 72.

أن منطقتهم قد أفلتت من سلطة الدولة الإباضية التي أقامها عبد الرحمان بن رستم في تاهرت سنة 776/166 - 77. والغالب على الظن أن التأثير الإباضي في بلاد كتامة لم يكن عميقاً. ويمكننا في هذا الصدد تصديق القاضي النعمان الذي أكد ـ خلافاً للرواية التي نقلها ابن عذاري عن الوراق ـ[22] أن بني عفنيت كانوا عند افتتاح الدعوة «يذهبون إلى مذهب الإباضية قديماً، ليس في جميع كتامة من يذهب إلى ذلك عندهم»[22م]. ويبدو أن الكتاميين المقيمين الذين استقروا في منطقة بابورس الجبلية، كانوا يكنون حقداً دفيناً للأعراب الرحل الزناتيين الذين اعتنقوا المذهب الخارجي. وبما أنهم ظلوا في معزل عن الاضطرابات السياسية ـ الدينية الدامية التي اندلعت في إفريقية قبل قيام الدولة الأغلبية، وشتت شمل الجماعات البربرية الأخرى، فقد حافظوا على أهميتهم العددية وتماسكهم القبلي، وعلى تلك الصرامة «العصبية» التي رأى فيها ابن خلدون بذرة «الملك» ومبعث العزّة.

مهمّة أبي عبد الله وانعكاساتها:

بدأ أبو عبد الله مهمته ـ كما أسلفنا ـ في ظروف ملائمة منذ أن وصل إلى إيكجان، وسيعرف كيف يستغل بذكاء ومهارة تلك الظروف الاستراتيجية السياسية والاجتماعية والاقتصادية المناسبة.

وقد اكتست تلك المهمة في البداية صبغة دينيّة خالصة. إلا أن مخاطبيه من البربر لم تكن لهم معرفة جيدة بالإسلام، ولم يكونوا يملكون من اللغة العربية سوى بعض المبادىء الضرورية لإقامة شعائرهم الدينية. ونحن ندرك جيداً كيف كان أولئك الجبليون الغلاظ لا يفقهون شيئاً من المجادلات المذهبية، ولا دقائق العلوم الشرعية. ومع ذلك فقد كانوا ينكرون أنهم لا يعرفون من «العلم» إلا

---

(22) ابن عذاري، البيان، ص 124 - 129. الافتتاح، الفقرة 109.

(22 م) الافتتاح، الفقرة 109.

(23) دائرة المعارف الإسلامية (1)، ص 701 - 702 (العصبية) ـ إيف لاكوست، ابن خلدون، باريس 1966، ص 123 - 157.

بعض المعلومات البسيطة، وسنقيم الدليل على ذلك في فقرة موالية[24]. وبناءً على ذلك فقد بدت المهمة الروحية الموكولة إلى أبي عبد الله يسيرة من أول وهلة، ولن تعترض سبيله أية عقبة ذات صبغة مذهبية. وما لبثت أن آتت هذه المهمة أكلها. فقد انتشر في كل ناحية خبر قدوم عالم مشرقي نزل عند بني سكتان، «وتسامع مع الناس بأنه يدعو إلى أمر مكتوم لا يعلمونه، وأن من دخل ذلك الأمر لم يظهره ولا شيئاً منه»[24م]. وسرعان ما انضافت إلى جاذبية «الأمر المكتوم» روعة الشرق النائي، بقدر ما هو سحري. فتوافد الناس على إيكجان للاستماع إلى ذلك العالم العجيب.

وقد اجتهد أبو عبد الله لكي لا يستعرض في أول الأمر من المذهب الذي يسعى إلى نشره سوى جانبه «الظاهر»، وفضلاً عن ذلك كان متمرناً على الطريقة الباطنية التي يستعملها الدعاة الإسماعيليون، وقد ثبتت جدواها لدى الكتاميين. «فأقبل الناس إليه.. وكان يجلس لهم ويحدثهم بظاهر فضائل علي بن أبي طالب... فإذا رأى الواحد منهم بعد الواحد قد لقن عنه وأحس فيه ما يريده، ألقى إليه شيئاً بعد شيء حتى يجيبه فيأخذ عليه»[25].

وهكذا التفت حوله المجموعة الشيعية الأولى التي كانت تضم، علاوة على الحاجين حريث الجيملي وموسى بن مكارم، والمريدين أبي عبد الله الأندلسي وأبي القاسم الورفجوسي من أهل سوجمار،، عدداً من العناصر التابعة لمختلف البطون الكتامية. وتكوّنت من بين أبرز المنضمين إليه الزمرة الأولى من الأولياء الذين سيساعدونه على الاضطلاع بمهمته وسيكونون أخلص المساندين له، وهم هارون بن يونس الذي سيتبوأ بفضل تلقّبه بشيخ المشايخ، مكانه مرموقة بين أبناء عشيرته مسالتة، وهي بطن من بطون كتامة يقيم في هضبة تقع شمالي سطيف وغربي جبل إيكجان؛ والحسن بن هارون، «وكان شاباً عاقلاً

(24) Rosenthal, Political thought in médieval Islam, الباب الرابع، ص 84 - 109 - كمبريدج، 1958.

(24 م) الافتتاح، الفقرة 48.

(25) نفس المصدر، الفقرتان 45 و 48.

وسيماً كريم الأخلاق، من أهل الجدة واليسار، وكان له أفعال جميلة وفضائل مذكورة»[26]، وهو من بني غشمان المقيمين حول هضبة تازروت الواقعة بين إيكجان وميلة[27]؛ وأبو يوسف ماكنون بن ضُبارة وابن أخيه أبو زاكي تمام بن معارك، من أبناء بطن من البطون الكتامية الكبيرة، هم بنو إجّانة الذين يسيطرون مع بني جيملة على كامل المنطقة الواقعة جنوبي شرقي إيكجان. «وقد رأى أبو عبد الله من أبي زاكي حركة ونباهة ونشاطاً في حوائجه وخفة ورغبة في ذلك وحرصاً عليه، وكان أبو زاكي يخدمه بين يديه لا يفارقه»[28].

وقد أحرز الداعي من النجاح ما جعل الدعوة التي كان يقوم بها على رؤوس الملإ مشهورة لدى الجميع، وعندئذٍ جد حادث سيزيد من نفوذه، رغم أنه كان بسيطاً في حد ذاته. «فقد عرضت له علة من حصارة كانت تعتريه فتبلغ به. فقالوا له: لو أصبت حمّاماً. وقيل له الحمّام بميلة[29]، وهو قريب منك. فمضى مع رجل من بني سكتان، حتى دخل ميلة، فقصد فندقاً بها كان لفرجون مولى لموسى بن العباس صاحب ميلة[30]. فنزل فيه وجاء رجل إلى موسى بن العباس، فقال له: إن الرجل المشرقي الذي انتهى إليك أنه نزل بإيكجان وأن الناس من كتامة يأتونه، قد دخل ميلة ونزل في فندق فرجون. فقال لفرجون موسى مولاه: اذهب فجئني بهذا الرجل من فندقك، فما ينبغي أن تهمل أمر مثله فخرج فرجون ليأتي به... وخاف أن يكون من موسى إليه ما يكرهه، فيكون ذلك نقصاً عليه، فدس إلى (أبي عبد الله) من أنذره وأمره بالخروج»[31]. وتدل هذه القصة كما رواها النعمان على أن عامل ميلة لم يكن يبالي بوجود ذلك العالم المشرقي في إيكجان. وإلا لما أدركنا كيف تمكن

(26) نفس المصدر، الفقرة 46.

(27) نفس المصدر.

(28) نفس المصدر.

(29) نفس المصدر، الفقرة 74.

(30) انظر مقدمة هذه الدراسة، الإحالة 35.

(31) الافتتاح، الفقرة 47.

الداعي من الانسحاب والعودة إلى معقله في الجبل، حتى لو سلمنا بما أحس به صاحب الفندق من جزع.

ولكن الخيال الشعبي سرعان ما استحوذ على هذا الحادث البسيط ليضفي عليه صبغة ملحمية. فقد نقل الناس في كل ناحية من بلاد كتامة خبر هذه المغامرة، بعدما حرفوها وضخموها في شكل مطاردة صاحب ميلة للرجل المشرقي الذي وصفوه وهو يتجه نحو إيكجان على صهوة «بغلته الشهباء»(32)، «وتسامعوا بأنه يدعو إلى أمر مكتوم لا يعلمونه وأن من دخل ذلك الأمر لم يظهره ولا شيئاً منه، فإذا سأله أخص الناس به وأقربهم إليه وأعزهم عليه عما دخل فيه وما قيل له، قال: أَبْلُغ تُوقِن»(33). وقد أصبحت هذا الجملة عبارة يرددها أتباعه الذين سماهم «بالإخوان»، ولقبهم الآخرون «بالمشارقة» نسبة إلى زعيمهم الروحي أبي عبد الله المعروف «بالمشرقي»، وافتتن بفضائلهم أبناء قبيلتهم الذين أقبلوا إلى إيكجان من كل حدب وصوب ودخلوا في الدعوة تم قفلوا راجعين إلى ديارهم، ومنهم من أقاموا في إيكجان حيث كان «المؤمنون» يستضيفونهم ويقومون بشؤونهم، وكان الداعي يعقد مجالس «للسماع» (سماع الدروس الشفهية)، فنشأت حوله جماعة بربرية إسماعيلية من أهل كتامة(34).

ولما بلغت مهمة الداعي إلى هذه المرحلة من تطورها، أثارت ردود فعل دينية لدى الكتاميين، لأن الدخول في الدعوة لم يبلغ آنذاك درجة الإجماع. فقد كان من بين أبناء قبيلة سكتان والقبائل الأخرى ـ كما قال القاضي النعمان ـ «من لم تطاوعه نفسه الخسيسة على ترك المعاصي ورئاسة الدنيا»، فأخذ ينسب الكفر والخروج عن الملة إلى من وصل الدعوة ويقول: «لو كان هذا الأمر فيه خيرٌ ما

(32) في البيان، ص 125 نقلاً عن الوراق، «بعلة شهباء» وفي الافتتاح، بغلة بلقاء».

(33) الافتتاح، الفقرة 48.

(34) المقصود «بالسماع» الدروس الشيعية الشفهية، انظر الافتتاح، الفقرة 49 قارن مع «سماع الحكمة»، أي تدريس المذهب الشيعي من طرف القاضي في عهد المعز ـ انظر أيضاً الباب الرابع من القسم الثاني من هذه الدراسة: نظام القضاء.

ستروه، وما هو إلا خلاف دين الإسلام»[34م]. وتسببت دعوة أبي عبدالله عند انتشارها في ظهور بعض الخصوم، لأنها لم ترض بوجود مذهب آخر منافس لها، فيتعين عليها لإحراز النصر أن تفرض نفسها على الجميع، وقد كانت توجد يومئذٍ فرقتان دينيتان على وشك التناحر.

فبدأت تتأكد آنذاك تخوفات موسى بن العباس صاحب ميلة. ألم يظهر ذلك «المشرقي» تماماً في مظهر «الخارجي». فطلب العامل إلى بني سكتان أن يرسلوا إليه أبا عبد الله «ليستخبر أمره ويجمع بينه وبين العلماء عنده، فأنفوا من ذلك وردوا عليه وقالوا: ما كنا بمن يسلم ضيفنا إليك. فحاولهم ورد الرسول إليهم، ولطف بهم وحذرهم عواقب الأمور، وأن أمره إن اتصل بإبراهيم بن أحمد (إبراهيم الثاني) أخرج إليهم العسكر ونالهم من ذلك ما يكرهون. فأغلظوا له في الجواب وقالوا: ما كنا بمن يسلمه ولا يخذله ولا يدع أحداً تمتد يده إليه، وهو ضيفنا وبين أظهرنا. فلما يئس منهم وعلم أنهم لا يطيعونه حاول أن يضرهم بغيرهم من كتامة، فأنفوا من ذلك أن يكونوا له يداً على أهل بيوتاتهم من غيرهم».

«واتصل خبر أبي عبد الله بإبراهيم بن أحمد صاحب إفريقية فكتب إلى موسى بن العباس عن خبره. فضعف موسى بن العباس من أمره وخاف من قدوم إبراهيم بن أحمد إن قدم أن يوقع به ويعزله. . »[35].

وإلى هذا الحد بلغت مهمة الداعي الإسماعيلي الروحية ـ كما رأينا ـ مرحلتها الحاسمة، وأصبحت مقرونة بمهمة دنيوية خالصة. ذلك أن أبا عبد الله لم يعد فحسب الزعيم الديني للمجموعة التي اجتهد في تكوينها في إيكجان، بل أصبح على أهبة التحول إلى زعيم سياسي يدعو بني سكتان إلى التمرد على حامية ميلة، ويسعى إلى بعث حركة ثورية في بلاد كتامة ضد السلطة الأغلبية.

وما لبث أن أحس إبراهيم الثاني بذلك الخطر، فوجه إلى ميلة منجّمه ابن

(34 م) الافتتاح، الفقرة 50.

(35) نفس المصدر، الفقرة 52.

المعتصم[36]، محملاً برسالة شفهية إلى الداعي وخطاب إلى موسى بن العباس يأمره بتنظيم لقاء سري بينهما، فربط موسى الصلة مع أبي عبد الله بواسطة رجل من بني سكتان تولى تنظيم هذا اللقاء. واستقبل الداعي مبعوث إبراهيم الثاني بلطف وأعطاه الأمان، ثم استمع إلى الرسالة التي وجهها إليها الأمير، وهذا نصها:

«ما حملك على تعرض سخطي والتوثب على مملكتي وإفساد رعيتي والخروج عليّ؟ إن كنت تبتغي عرضاً من أعراض الدنيا، فإن ذلك مما تجده عندي، إن كنت تلافيت نفسك ورجعت عن غيك، فاقدم إليّ فأنت آمن، فإن أردت المقام ببلدي أقمت، وإن أحببت الانصراف إلى الموضع الذي جئت منه انصرفت، وإن كان قصدك قصد من سولت له نفسه الخلاف على الأئمة واستفساد جهلة الأمة، فقد لعلك عرفت كيف كانت عواقب من منته نفسه أمنيتك وسولت له ما سولت نفسك لك، من الهلاك العاجل قبل سوء المصير في الآجل. فلا يغرنك ما رأيته من إقبال هؤلاء الأوباش عليك، واتباعهم إياك، فإني لو قد صرفت وجهي إليك لأسلموك وتبرؤوا منك، واعلم أني إنما أردت الإعذار إليك لإظهار الحجة عليك».

ثم انتقل الأمير من التحذير إلى التهديد، فقال:

«هذا وأول كلامي إليك وآخره، لن أقبل لك بعده توبة، ولا أقبل لك عثرة ولا أجعل جواب ما يكون منك إلا النهوض بنفسي إليك بجميع أبطال رجالي وأنصار دولتي وحملة أهل مملكتي. . .»[37].

واستهل أبو عبد الله جوابه على رسالة الأمير بقوله:

«قل له: أما ما ذكرت من التهديد والوعيد، فما أنا ممن يروع بالوعد والإيعاد، ولا من الإبراق والإرعاد، ولا تخويفك إياي بأنصار دولتك ورجال

---

(36) نفس المصدر، الفقرة 3.

(37) نفس المصدر، الفقرة 54.

مملكتك أبناء حطام الدنيا، وذياب طمعها، الذين يرتاعون لكل بارق ويجيبون كل داع وناعق. فإني من أنصار الدين وحماة المؤمنين الذين لا يروعهم كثرة أنصار الظالمين. . . ».

ثم رفض عروض الأمير باحتقار قائلاً:

«فأما ما أطمع به من دنياه وعرضه من زبدها وحطامها، فلست من أهل الطمع فأميل إليه، ولا ممن يرغب فيما عنده وما عرضه فيأتيه، وإنما بعثت رسولاً لأمر حمّ وقرب، وانتجاز وعد من الله سبق. . . ».

وبعد ذلك أوضح أبو عبد الله الغرض من المهمة التي يقوم بها، فقال:

«إني أدعوه إلى الله وإلى كتابه وإلى الإمام المهدي من ذرية رسوله، دعوة محتج عليه وأرغب فيما ينجيه. فإن قبل عني قبل رشده، وإن عَنِدَ قدّمت إليه المعذرة. . . ».

وختم جوابه بهذ الإنذار:

«لو كان صاحبي لعجّلت السير نحوه، ولكن له ولمَنْ بعده متاع إلى حين، حتى إذا بلغ الأجل وحان الحين. . . »[38].

ويبدو أن نص الرسالة والجواب عليها ـ ذلك النص الذي نقله كلّ من النويري وابن الخطيب ـ لم يكن بالضرورة مزيفاً[39]. ذلك أن صاحب **الافتتاح** قد اعتمد على وثائق من المحفوظات، ونقل أحياناً نصّها بحذافيره، حسبما يظهر[40]. ويعبّر ذلك النص، من خلال اللهجة الحادة التي استعملها الأمير، عن خليط من الحيرة والاحتقار لهذا المتمرّد الذي لم يكن سوى واحد من كثير من المتمرّدين الذين يظهرون وسرعان ما يختفون بعد قطع دابرهم. ومع ذلك فقد كُتِبَ لهذا الداعي أن يلقى حظاً استثنائياً. ذلك أن المهمة الروحية والدنيوية التي حدّدها لنفسه وتشبع بها، تبدو كأنها ليست عادية. فهو

(38) نفس المصدر، الفقرة 55.

(39) بالنسبة إلى النويري، انظر تعليق دي سلان في البربر، 11/2 الإحالة 6 ـ أعمال، ص 445.

(40) الافتتاح، مقدمة المحقق· القيمة الوثائقية للافتتاح

يعمل لا لحسابه الخاص، بل لحساب «المهدي المنتظر»، من ذرية الرسول ﷺ. ولذلك فقد أوجس الأمير خيفة عند عودة رسوله ـ حسبما رواه النعمان ـ ولم يبادر إلى رد الفعل[41]. وقد أول صاحب **الافتتاح** هذا الموقف الانهزامي تأويلاً يثير كثيراً من الاحتراز. إذ زعم أن إبراهيم الثاني كان يظهر «في الملإ» التهاون بأمر أبي عبد الله وقلة الاكتراث به، ولا يخفي «في الخلاء» توقّعاته المشؤومة. «فقد كان يعنى بعلم الحَدَثان»[42]، ويهتم بالتنبؤات المتعلقة بصروف الدهر وانحطاط الممالك على مر العصور. وكان متيقناً أن العاصفة التي ستهب في غرب مملكته ستقضي على دولته. ومن ناحية أخرى كان ـ حسب القاضي النعمان ـ «يميل إلى التشيع هو وعدد كبير من أهل بيته»، لا سيما منهم الخاصة، ومن بينهم «السالميون»، أنصار سالم بن غلبون الذي ثار على محمد بن الأغلب سنة 847/233، وقتل إثر فشل ثورته[43]. ولم يخش أحد المتشيعين من أهل بيته، وهو علي بن أبي حجر من الإفصاح عن مشاعره الشيعية. فقد عينه إبراهيم الثاني عاملاً على قفصة وقسطيلية، وقال له وهو يتأهب للالتحاق بمنصبه: «سر فيهم سيرة العمرين»[43م] فأجابه: «لا والله لا أسير فيهم إلا بسيرة علي بن أبي طالب، فإن شئت وإلا فهذا عهدك». فقال له إبراهيم: «أفضل سيرة والله فسر بها، وما أراك تفعل»[44].

كما رأى القاضي النعمان في مناهضة الأرستقراطية الأغلبية للمذهب المالكي دليلاً على الموقف الموالي للشيعة الذي نسبه إلى الأمراء ورجال الدولة[45]. واستشهد على ذلك بمناوأتهم للإمام سحنون الذي أولاه محمد بن الأغلب القضاء، «ليسترضي بذلك عامة أهل القيروان، لما كان بينه

(41) نفس المصدر، الفقرة 56.

(42) نفس المصدر.

(43) نفس المصدر.

(43 م) المقصود بذلك: أبو بكر وعُمَر.

(44) **الافتتاح**، الفقرة 57.

(45) نفس المصدر (آخر الفقرة 57)

وبين أحمد أخيه ما كان»[46]. ثم روى هذه الواقعة ذات المغزى البليغ:

«لما مات سحنون، اجتمع أصحابه فدبروا مع ابنه محمد أن يأتي محمد بن الأغلب فيخبره بموت أبيه ويذكر له أنه أوصاه أن يصلي عليه، وقالوا: إذا أتى وصلى تكلمنا فيك أن يستقضيك... فأتى محمد بن سحنون إلى محمد بن الأغلب بذلك، وواعده صلاة العصر. وأخرج نعش سحنون إلى السبخة مما يلي داره، وخرج محمد بن الأغلب، فخرج جماعة من أهل بيته ورجاله من القصر القديم. فلما انتهوا إلى الهارونية نزلوا إليه، فوقف لهم وقال: ما الذي أنزلكم؟ قالوا: تَعْفينا من الصلاة عليه. قال: قد أعفيتكم. قالوا: فنقيم ههنا... قال: افعلوا. فنزلوا في الهارونية وفرشت لهم اللّبود وجلسوا. وتقدم محمد بن الأغلب في عبيده، فصلى على سحنون....»[47].

وقد فسر كتاب التراجم هذا الاستعفاء بميل «الخاصة» إلى المذهب المعتزلي الذي قاومه سحنون بشدة. كما أثبتت عدة مصادر اعتناق كبار القوم في العصر الأغلبي للمذهبين الحنفي والمعتزلي[48]. ولعل النعمان قد أول موقف «الخاصة» تأويلاً متكلفاً، حين اعتبر مناهضتهم للمذهب المالكي وميلهم إلى مذهب المعتزلة، بمثابة «التشيع» الصريح، وقد وجد أرجح شهادة على ذلك في شغفهم بالتنبؤات المتعلقة بالمهدي المنتظر. وخصص لهذا الموضوع في **افتتاح الدعوة** فقرات نرى من الفائدة أن نورد على الأقل أهم ما جاء فيها[49]. فمن فرط اهتمام إبراهيم الثاني بأخبار «علم الحَدَثان» أنه استقدم شيخاً من «قرية من قرى تونس يقال لها قرية الخربتين»، وكان شاعراً متضلعاً في ذلك العلم، فسأله عن المهدي، فأنشده شعراً يتضمن أخباراً عن المستقبل، تنبأ فيه بظهور المهدي في سنة ست وتسعين (296 هـ)، وتحدث عن نسبه الفاطمي وعهده

---

(46) [لقد ثار أحمد بن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على أخيه محمد].

(47) **الافتتاح**، الفقرة 58.

(48) انظر بالخصوص، **طبقات**، ص 197 - 213، 238 و**رياض النفوس**، ص 288 و**معالم الإيمان**، 66/2.

(49) **الافتتاح**، الفقرة 59.

المفعم بالعدل والرحمة. كما نقل النعمان قصيدتين من هذا القبيل منسوبتين إلى ابن عقب الليثي، مؤكداً أن هذا الشعر كان يرويه المثقفون من أهل القيروان، وأن الشاعر ابن يسر قد أنشده بين يدي الداعي أبي عبد الله بعد دخوله إلى رقادة بمحضر شيوخ أهل القيروان، فقال ابن عبدون: «ما سمعنا بشيء من الحدثان أصّح من هذا»[50].

ورغم أن ملوك العصور القديمة والعصر الوسيط كانوا مولعين بعلم التنجيم وأخبار المستقبل، وأن شغف إبراهيم الثاني بذلك كان شديداً، فإنه لا يمكننا إعطاء أي قيمة لهذا الشعر الذي لا شك أنه كان مختلقاً. وبالعكس من ذلك فإن صحة شعر محمد بن رمضان لا جدال فيها[51]. فقد نظم هذا الشاعر الشيعي من أهل نفطة قصيداً للإشادة بذكر البلزميين الذين لقوا مصرعهم في الكمين الذي نصبه لهم إبراهيم الثاني، وقد سبق أن رأينا ما كان له من عواقب وخيمة على الدفاع عن إفريقية. وأشار الشاعر في قصيدته إلى ما تعرض له ضحايا ذلك الغدر من مصائب جسيمة، مندداً بالطاغية وبفعلته الشنيعة، ومعلناً عن قرب ظهور المهدي وسقوط بني الأغلب وبني العباس وبني مروان بالأندلس. وقد التجأ لدى بني مالك في بلزمة ونجا من غضب الأمير الذي أعرب عن رغبته في استقدامه، ووعده بالأمان، بالرغم من قصائده الهجائية. «وأدرك محمد بن رمضان هذا أيام المهدي، واستقضاه (ولاّه القضاء) على ميلة وكان بها، ومات وهو قاضٍ عليها»[52].

وأخيراً روى النعمان ما تنبأ به يعقوب بن المُضا، وهو متعبد «من بني الأغلب له ضياع بناحية جمة»، بخصوص اختيار موقع المهدية[53]. ثم شبّه الروايات المتعلقة بظهور المهدي بالأخبار التي جاءت بمبعث الرسول ﷺ، «وذكرها كثير من العرب، كأمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو،

(50) نفس المصدر، الفقرات 60، 62، 63.
(51) نفس المصدر، الفقرات 64 - 65 - 66.
(52) نفس المصدر، الفقرة 67.
(53) نفس المصدر، الفقرة 68 ـ وانظر مقدمة هذه الدراسة، الإحالة 55.

وأسعد بن كرب، وقسّ بن ساعدة، وخالد بن سنان، وغيرهم»[54].

وتبدو الصبغة الخرافية التي تكتسيها هذه الروايات والأخبار المتعلقة بالمهدي المنتظر من البديهيات، أما الأخبار التي أكدها النعمان حول مشاعر الارستقراطية الأغلبية الموالية للشيعة، فإن أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها مريبة. على أن تلك الروايات المطولة، إذا ما أخضعناها للنقد التاريخي لا يمكن أن تكون صالحة لتفسير عدم رد فعل إبراهيم الثاني، بعد اللقاء السلبي الذي جمع بين منجمه وبين أبي عبد الله. وبالأحرى فإن سبب ذلك يكتسي صبغة سياسية. إذ من المحتمل أن يكون ذلك اللقاء قد تم في حدود سنة 895/282، أي بعد سنتين من وصول الداعي إلى بلاد كتامة، وقبل حوالي سبع سنوات من التدخل الأول للجيش الأغلبي في سنة 902/289[55]. ويمكن أن نعزو إلى الأزمة التي كانت تهز آنذاك الدولة الأغلبية ـ وقد سبق لنا أن قدّمنا لمحة عنها ـ ذلك الاحتقار المتعالي الذي خص به إبراهيم الثاني المتمرد في بلاد كتامة، وعدم اكتراثه بالخطر الذي بدأ يظهر في غرب المملكة. ومن الجدير بالتذكير أن إفريقية قد فقدت، إثر إبادة الجند في بلزمة، الحامية التميميّة العتيدة التي كانت ترقب الكتاميتين الرهيبين، وأنها قد تخلصت منذ مدة قليلة من الثورة المريعة التي اجتاحت قمودة والأربس وباجة، وعلى وجه الخصوص تونس وجزيرة شريك، وأرغمت إبراهيم الثاني على الاعتصام برقادة مع حرسه الأسود[56]. وخلال السنوات الموالية التي استغلها الداعي لإخضاع كتامة لسلطته، كان الأمير الأغلبي مشغولاً بتمرد أعراب تونس، وبمطالبهم التي أرسلوها إلى حكومة بغداد. ورداً على الإنذارات التي وجهها إليه المعتضد، زحف إبراهيم الثاني على طرابلس لقتل ابن عمه الذي عينه ـ من سوء حظه ـ الخليفة العباسي أميراً على إفريقية. ثم وجه ابنه أبا العباس لقمع نفوسة سنة

---

(54) الافتتاح، الفقرة 68، الإحالات.

(55) انظر مقدمة هذه الدراسة من الانحطاط إلى سقوط الدولة الأغلبية.

(56) نفس المرجع.

897/284 وبني بلطيط في بسكرة، وإخماد الثورة في صقلية سنة 900/287[57].

ولئن لم يبادر إبراهيم الثاني بعد رجوع مبعوثه، إلى التحول بنفسه ـ أو إرسال أحد قواده ـ لإلقاء القبض على المتمرد ومعاقبة أتباعه، فذلك لأنه لم يكن أي شيء يدعو آنذاك إلى العجلة. إذ أن الداعي لم يتمكن بعد من تحقيق إجماع الكتاميين حول اسمه، ولم يقل رؤساء القبائل الكتامية كلمتهم الحاسمة. كما أن حصون ميلة وسطيف وبلزمة لا تزال بين أيدي نفس العائلات العربية الموالية للسلطة المركزية.

سيطرة أبي عبد الله على سائر بلاد كتامة[58]:

لا شك أن الأمير الأغلبي قد أصاب في الانتقاص من قيمة الخطر الإسماعيلي الناشيء. ولكنه أخطأ لما ترك لخصمه الوقت الكافي لتنظيم صفوفه وإخضاع رؤساء القبائل المناهضة، واستمالة الكتاميين واكتساب القدرة على اقتحام الحصون المجاورة والتصدي للجيوش الموجهة ضده. وسنتناول الآن بالدرس ظروف سيطرة الداعي على الكتاميين خلال السنوات السبع التي تلت اجتماعه بمبعوث إبراهيم الثاني.

وحول هذه المرحلة بالذات من دعوة أبي عبد الله، لم تكن متوفرة لدينا قبل اكتشاف **الافتتاح** سوى نظرة مبهمة على أساس رواية مقتضبة مشبوه فيها ومشوبة بمعتقدات إباضية، وهي رواية الوراق التي احتفظ بها ابن عذاري[59]، وكذلك بعض المعطيات المتفرقة التي نقلها ابن الأثير والنويري وابن خلدون والمقريزي، اعتماداً على الرقيق الذي اقتبسها هو نفسه بلا شك من القاضي النعمان[60]. ومن فرط التشذيب وحذف بعض فقرات كاملة من النص الأصلي، انتهى الأمر بهؤلاء الأخباريين إلى تشويه المصدر وبالتالي إرباك

(57) نفس المرجع.

(58) **الافتتاح**، الفقرات، 71 - 78، 79 - 83، 84 - 93، 94 - 106، 107 - 114.

(59) **البيان**، ص 124 - 129.

(60) **الافتتاح**، مقدمة المحقق. انظر أيضاً مقدمة هذه الدراسة، المصادر والمراجع.

الباحث. ومع ظهور الافتتاح اتضح سياق الكلام، وترابطت الرواية، وتسلسلت الوقائع، وخرجت هذه الفترة من الظل الذي اختفت في كنفه مدة طويلة. فقد رأينا الداعي بعد النجاح الأول الذي أحرزته دعوته، يضطلع بمهمة سياسية، ويصرح بذلك بوضوح لمبعوث إبراهيم الثاني، ويتمثل الهدف المصرح به في الاستيلاء على الحكم لحساب الإمام المهدي. فانتشرت الحركة الثورية التي كان يقودها، وأخذ نفوذه يتزايد بسبب تأخر ظهور رد فعل السلطة المركزية. وتبعاً لذلك، فإن ولاة المدن المحصنة المتخوفين من الخطر الذي كان يهددهم، وبعض رؤساء القبائل «الذين خافوا على زوال رئاستهم من أيديهم» قد اضطروا إلى الاعتماد على أنفسهم وتعاقدوا لتفادي هذا الوضع.

«وكان ممن تعاقد على ذلك موسى بن العباس صاحب ميلة، وعلي بن عسلوجة صاحب سطيف، وحيّ بن تميم صاحب بلزمة... ومن مقدمي قبائل كتامة وكبارهم وولاة أمورهم، فتح بن يحيى المسالتي، ومهدي بن كناوة رئيس لهيصة، وفرح بن جيران رئيس أجانة، وتميم بن فحل رئيس لطاية، وزياد المتوسي رئيس متوسة»[61].

«وقد استخفى حينئذٍ أبو عبد الله لما بلغه ذلك. فلم يكن ظهر عليه ولا يعرف مكانه إلا من كان من المؤمنين». وقدم بنو سكتان إليه الدعم من غير تحفظ وأقروا العزم على حمايته بحدّ السلاح، إن لزم الأمر. فخشي رؤساء التحالف بث الشقاق في صفوف القبائل وإثارة نزاع مسلح بين بطن جيملة الذي ينتمي إليه بنو سكتان، وبين البطون الكتامية الأخرى، ورأوا أنه لا سبيل وقتئذٍ إلى استعمال السلاح، فالتجأوا إلى الحيلة، وقرروا توجيه وفد إلى بيان بن صقلان، وكان وجهاً من وجوه بني سكتان. «فأرسل القوم جماعة منهم إلى بيان وبعثوا إليه أربعة أفراس ومائة شاة هدية، وقالوا: إن هذا الرجل قد بدل الدين وفرق الجماعة وشتت الكلمة وأدخل الشتات بين الأقارب. وقد قصدناك في

(61) الافتتاح، الفقرة 72.

أمره وأملنا قيامك في قطع هذا المكروه عنا، بأن تقبض على هذا الرجل فتخرجه من بلدنا وتنفيه عنا».

«فقال لهم بيان: هذا الرجل قد نزل بين أظهرنا وصار ضيفاً عندنا فكيف ينبغي لنا أن نفعل فيه مثل هذا؟ . . . ولكن من الرأي أن نجمع العلماء ويخرج إليهم ويناظرهم. . . ».

فلم يقتنع المتحالفون بهذا الرأي، لأنهم لم يتوقعوا حصول أي نتيجة من مثل هذه المناظرة، وحاولوا حينئذٍ أخذ أبي عبد الله عنوةً.

فاجتمعوا وساروا في جمع عظيم من الفرسان والمشاة في اتجاه إيكجان، بدعوى أنهم أتوا بالعلماء، إلى أن وصلوا إلى مكان يقال له «وادي النجاة» شرقي الجبل بالقرب من غابة «تاكوت»[62]. ولما تأكد بنو سكتان من نواياهم العدوانية، هجموا عليهم بقوة. واستجاب بطن جيملة بتمامه وكماله لنداء الحرب، وأبلى «الأولياء» من أنصار الداعي البلاء الحسن. «فانهزم الجمع وولوا الدبر»، وخرج «المؤمنون» منتصرين وازدادوا يقظةً. إلا أن المتحالفين لم يعترفوا بهزيمتهم، ولم ييأسوا من تفريق شمل بني سكتان، فقدموا عروضاً جديدة إلى بيان وحثوه على جمع كلمتهم، مثيرين فيه روح الحمية البربرية، لمقاومة هذا الدخيل، ومنددين بالمذهب الخفيّ الذي أقدم على نشره هذا «الشيطان المشرقي» الذي لا يقوى على مناظرته وتفنيد حججه علماء البربر من أهل الجبال. فأظهر بيان الذي لم يكن يخفي مناهضته للداعي، اقتناعه بأقوالهم وحاول حث قبيلته على التخلي عنه. وكان من آثار موقف بيان ومناورات المتحالفين أن أصبح أبو عبد الله و «جماعة المؤمنين» في وضع حرج للغاية، حتى أنهم قرروا مغادرة إيكجان لاجتناب تفريق بني سكتان.

فانتقلوا إلى قلعة تازروت التي تقع جنوبي شرقي جبل إيكجان في اتجاه ميلة. وبتخلي الجماعة البربرية الشيعية عن أبي عبد الله في مركز الدعوة الأول

(62) «التاكوت»: نوع من الشجر ذو علك كعلك الصنوبر.

بإيكجان، ونزوله في تازروت، دخلت دعوته مرحلة مضطربة ستؤول به إلى إخضاع القبائل المناهضة في نهاية فترة مليئة بالمحن القاسية. ومما لا شك فيه أن الداعي لم يغادر إيكجان بطيبة خاطر. بل إنه لم يذعن للهجرة، إلا بعد العقبة الأولى التي اعترضت سبيله، وذلك ليحتمي من القوى المتحالفة ضده على أحسن وجه. ولكنه لم يُسيء التقدير، لما قبل الانتقال إلى الملجإ الذي عرضه عليه بنو غشمان، تحت حماية رئيسهم الحسن بن هارون[63].

ولعل قلعة تازروت الجاشمة فوق الربوة التي استمدت منها اسمها كانت أقل مناعة من إيكجان، ولكنها تحظى في المقابل بميزة أخرى تتمثل في اتصالها المباشر بمواقع القبائل التي لم يتم بعد إخضاعها، وهي أجانة وملوسة ولهيصة ولطاية وجيملة[64]... أضف إلى ذلك أنها تقع في موضع ترصّد على بعد بضعة فراسخ من أقرب مدينة محصنة أغلبية، وهي ميلة التي ستختنق شيئاً فشيئاً وستسقط هي الأولى. أما الداعي فيمكنه الاعتماد على قوة حماته الجدد من بني غشمان، وعلى كرمهم. ذلك أن رئيسهم الحسن كان يتصرف في ثروة طائلة وكان من أول من دخل إلى الدعوة[65].

فها هو إذن أبو عبد الله قد انصرف من إيكجان مع معظم أتباعه، «واستخلف على الضعفاء منهم ومن لم يستطع السير معه الحكم بن ناسب». وفي تازروت استقبلهم المؤمنون الغشمانيون بكل حفاوة ـ كما هو الشأن بالنسبة إلى الطائفة الإسماعيلية عند نشأتها ـ وهو أمر يتماشى مع الكرم القبلي المألوف. وأقبل عليهم المؤمنون من كل حدب وصوب، وقدموا إليهم كل ما يحتاجونه من طعام ومتاع. أما الحسن بن هارون الذي أنزل أبا عبد الله في بيته، فقد «بذل من ماله في ذلك وأموال خاصة أهل بيته ما أوسع المؤمنون به». وتوافد الأولياء على تازروت وأقاموا بها وهم على أهبة القتال. وتعزز وضع

(63) الافتتاح، الفقرات، 73، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 80.

(64) نفس المصدر، الفقرة 81.

(65) انظر الباب الأول من القسم الأول، الإحالة 65.

الداعي وانضم إليه أتباع آخرون، من بينهم بيان، ذلك الوجيه السكتاني ذاته، الذي ساهم في إخراجه من إيكجان. فاستقام حال الجماعة البربرية الشيعية في مركزها الجديد بعد ما كان حرجا، مما أثار من جديد مناوأة التحالف. وستبدأ حينئذٍ جولة جديدة من الصراع بين الداعي وأتباعه وبين القوى المتحالفة ضده، وستكون عناصرها متشابهة مع عناصر الجولة الأولى من جميع النواحي: تفريق الغشمانيين وتأليب أحد وجهائهم على الداعي والتلويح بخطر الحرب الأهلية وتشتيت المجموعة الكتامية والدعوة إلى التضامن ضد الأجنبي. وعندما سيتعذر على المتحالفين تحكيم العلماء سيلتجؤون إلى السلاح[66].

على أن استقبال الداعي في تازروت لم يتم دون أن يجعل من الحسن بن هارون قبلة أنظار الكتاميين. كما أن وجود مثل هذا الضيف الذائع الصيت في بيته لم يلبث أن جلب له احترام أبناء قبيلته وتقديرهم، ورفع من شأنه إلى أعلى درجة. إلا أن أخاه الأكبر محمود لم ينظر إلى ذلك بعين الرضى وأحس بغيرة شديدة واستاء المتحالفون مما أصبح يحظى به الداعي من رعاية فائقة لدى الغشمانيين. فما إن «اتصل بالجماعة ما كان من غيرة محمود بن هارون بأخيه الحسن»، حتى لاحظوا ما يمكن أن يجنوه من فائدة من هذا الخلاف، وذلك باستغلال المنافسة بن الأخوين لتفريق الغشمانيين وبالتالي عزل محروسهم. فقرروا إرسال واحد منهم إلى محمود لتأليبه على الداعي، وعهدوا بهذه المهمة إلى مهدي بن كناوة، أحد رؤساء لهيصة، المرتبط بمحمود بالجوار والصداقة. إلا أن مسعى اللهيصي لم يكلل بالنجاح، ذلك أن محموداً الذي كان مع ذلك مناهضاً لأبي عبد الله، قد أبى إثارة نزاع مسلح داخل جماعته، وفضل الاقتراح الذي كان قدمه بيان بن صقلان، أي دعوة العلماء إلى مناظرة الداعي[67]. واستطاع محمود أن يقنع أصحابه بجدوى مثل هذه المناظرة. «فاجتمع رأيهم على ذلك، واختاروا من أبطال الرجال وحماتهم من يسير مع العلماء، فإذا خرج

(66) الافتتاح، الفقرتان 82 (83.

(67) نفس المصدر، الفقرات 84 - 85 - 86.

أبو عبد الله اقتربوا منه وقتلوه ولكنهم قالوا: لا نجيء في الاحتفال أيضاً كما جئنا إلى بني سكتان، فيكون من ذلك مثل ما كان».

إلا أن الداعي الذي بلغته أخبار الحيلة التي دبرها القائد اللّهيصي قد سعى إلى إحباطها بمهارة. فاقترح أن يذهب وجهاء غشمان، وعلى رأسهم الحسن، إلى أخيه محمود ويحاولوا التصالح معه والاعتراف بسلطته عليهم، وإثارة حساسيته بتذكيره بمشاعر الشرف والحمية القبلية. «ففعلوا ذلك. وأتاه الحسن وجماعة غشمان وقالوا له: نحن أهل بيتك وعشيرتك وأنت مقدمنا وأميرنا. وهذاضيفك وضيفنا وقد أجرناه، وقد رأيت ما لحق ببني سكتان في إخراجه من النقص، وأنهم قد ندموا على ذلك، وأن بياناً قد دخل في أمره.. فلا تجعل علينا عاراً ونقصاً».

فابتهج محمود بهذا المسعى الذي استماله بوصفه قائداً بربرياً، ولم يتأخر عن الاستجابة لرغبة الغشمانيين الذين سرعان ما استعادوا تماسكهم.

ولما اقترب المتحالفون من تازروت مصحوبين بوفد علمائهم، توجه نحوهم محمود مع جماعة من غشمان يساندهم المؤمنون المستعدون لشن الحرب. فلما التقوا اشترط عليهم محمود أن ينعقد مجلس المناظرة في تازروت بمحضر عشرة من وجهائهم لا غير[68]. ولكن المتحالفين طالبوا بإخراج أبي عبد الله لتجري المناظرة بينه وبين العلماء على مرأى ومسمع من الجميع. فاحتد الخلاف بين الفريقين وآل الأمر إلى القتال، وشن محمود والمؤمنون معركة ضارية إلى أن أرغموا خصومهم على الانسحاب دون تحقيق أغراضهم.

وفي تازروت التي بلغ فيها الذعر ذروته، أسفرت تلك المحاولة الفاشلة عن رجوع الوضع إلى نصابه لفائدة الداعي، ولقي محمود مصرعه، وكان قد

---

(68) نفس المصدر، الفقرة 87. انظر حول «التحكيم» و «المناظرة» الخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية، لاووست، ص 11 - 12.

جرح أثناء المعركة. فابتهج بهذه الوفاة كل من أبي عبد الله والحسن الذي ورث عن أخيه قيادة غشمان بلا نزاع. وأثار واجب المطالبة بدم محمود كافة الغشمانيين الذين «صاروا إلباً واحداً»، على حد تعبير القاضي النعمان، مستعدين لمواصلة الحرب الدائرة رحاها بينهم وبين لهيصة. «وظهر» أبو عبد الله الذي انضمت إليه ملوسة مع أكثر القبائل[69]، «وكان يشهد الحرب ويباشرها». وتواصلت المعارك بين أتباع أبي عبد الله وبين لهيصة، «وكان صاحب أمرهم مهدي بن أبي كناوة أشد فارس في عصره»، وقد اشتهر بمآثره الحربية وكان يدخل الرعب في نفوس خصومه. أما أخوه أبو مديني الذي دخل الدعوة مع جماعة من لهيصة، فقد حاول عبثاً جلبه إلى حظيرة الداعي. «فلما نظر إلى تمادي أخيه في غيه وإصراره، فكر من تلقاء نفسه في قتله»[70]، وقد دفعه إلى ذلك بلا شك تحمس الأتباع المبتدئين. واستعان لتنفيذ مشروعه بأحد أبناء قبيلته من الشيعة، لاوة بن صوحان. فالتقيا في أحد المعارك، «وكلمه أخوه أبو مديني بمثل ما كان يكلمه حتى أنس إليه ثم ضرباه جميعاً ضربة رجل واحد، فاختلف رمحاهما فيه، فسقط إلى الأرض، وحمل الأولياء، وحملت لهيصة، فاستنقذته وحملته. فمات من جراحه تلك بعد أن وصل إلى موضعه. وتفرق أمر لهيصة من بعده وأقبلوا إلى الدعوة، واصطلح غشمان ولهيصة». فتعزز حزب الداعي، وتشجع أتباعه بهذا النصر، وشنوا الغارات لا على ضواحي تازروت فحسب، بل حتى على النواحي البعيدة عنها. «وخرجت لهم خيل مغيرة على مزاتة، ورئيس مزاتة يومئذٍ يوسف العطاشي، وكان قد قدم على إبراهيم بن أحمد (إبراهيم الثاني) فحباه. . وأعطاه جارية نفيسة. فقصد المؤمنون بالغارات إليه وأخذوا جميع ما كان له وسبوا الجارية التي أعطاه إياه إبراهيم بن أحمد. . . ووصلوا بالغنيمة إلى أبي عبد الله، فاصطفى الجارية لنفسه، فهي أم ولده ولم يكن له غيرها»[71].

(69) الافتتاح، الفقرة 91.

(70) نفس المصدر، 92.

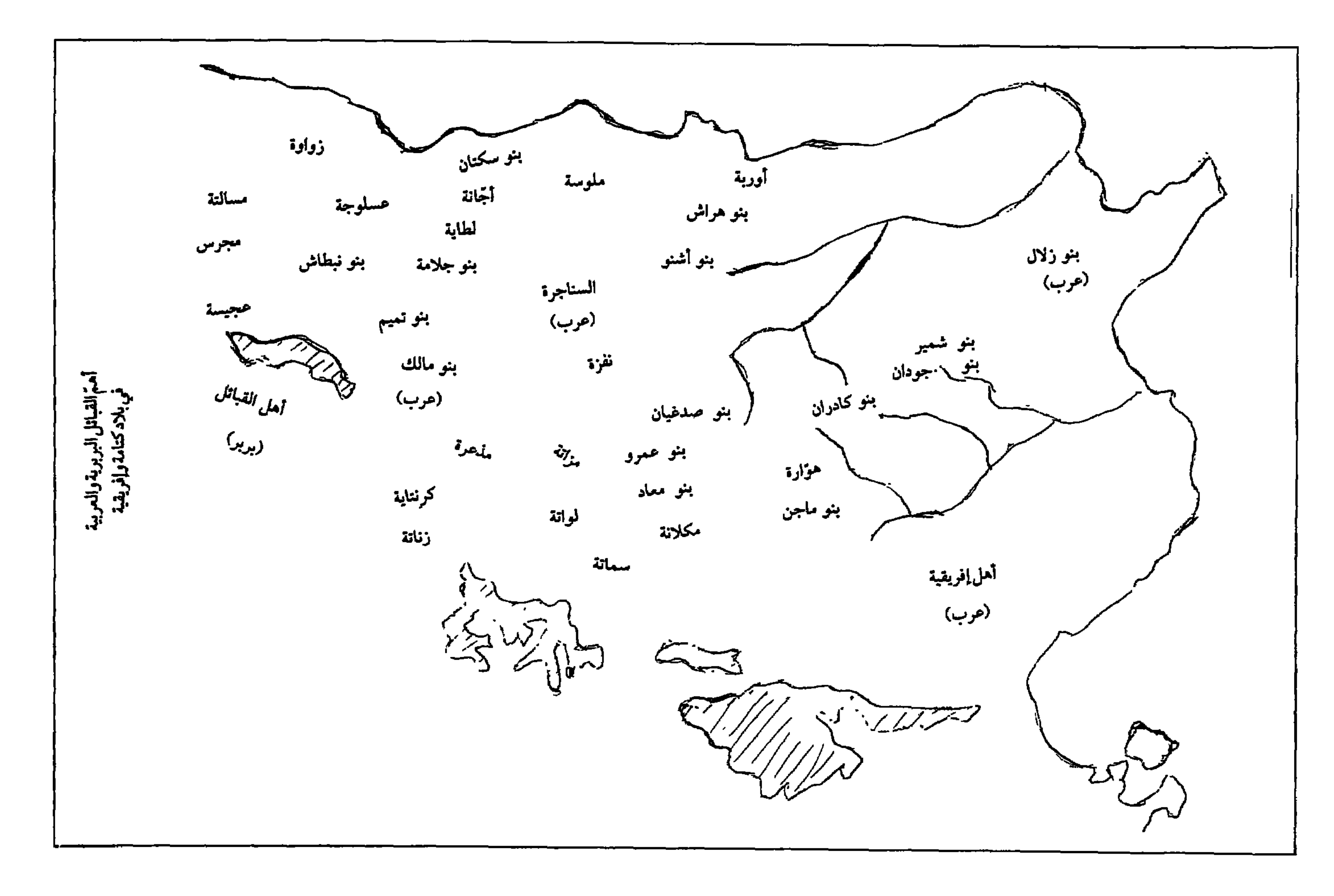
(71) نفس المصدر، 93.

وكان هلاك رئيس لهيصة بمثابة صيحة الفزع التي دوت في معسكر المتحالفين. ذلك أن مهدي بن كناوة هو الذي كان قد تصدى لذلك «المشرقي»، ومنع دعوته المثيرة للشغب من الانتشار خارج تازروت. فتركت وفاته كامل الحرية لأبي عبد الله لتركيز مواقعه وبسط سلطته على كامل البلاد. وعندئذٍ قرر خصومه التخلي عن فكرة القبض عليه بالحيلة، وعمدوا إلى تجنيد كافة القبائل التي بقيت خارج نفوذه، والزحف على تازروت للقضاء عليه وعلى أتباعه إذا رفضوا تسليمه. فتشكل التحالف من جديد، وأحاط تازروت بكل ما أمكنه جمعه من قوات. «فكان أهل المدائن ناحية في عسكر، واجتمع أجانة ولطاية وجميع من يلي ميلة من القبائل في عسكر، واجتمع من يلي سطيف من كتامة في عسكر»، تحت إمرة قائد مسالتة فتح بن يحيى الذي سيكون خصماً رهيباً بالنسبة إلى الداعي، على غرار مهدي بن أبي كناوة. وأخيراً قدم رجال مزاتة الحريصون على إزالة الإهانة التي لحقتهم، للاشتراك مع المتحالفين في حصار تازروت(72).

ولما انتشر خبر قدوم هذه الجيوش الجرارة أخذ المعسكر الشيعي يتأهب للقتال. فتجمع في تازروت كافة أتباع الداعي، مقرين العزم على الدفاع عنه ولو ماتوا عن آخرهم، وذلك رغم اندهاشهم من كثرة جيوش العدو. وبما أن هدفهم كان يرمي أولاً بالذات إلى وضع زعيمهم في مأمن من الخطر، حتى ينجو من هزيمة نكراء ويواصل رسالته، فقد اقترح عليه الأولياء والدعاة والمشايخ أن يخفوه في مكان آمن تحت حراسة مشددة، وأن ينتظر هناك نتيجة المعركة، فتأثر الداعي بمثل هذا التفاني، وحثهم على الصبر وعمل على رفع معنوياتهم وتقوية إيمانهم، مؤكداً لهم ثقته في النصر النهائي، وقد ساهم في هذا العمل أيضاً أبو عبد الله الأندلسي الذي كلف بمساعدة الداعي على القيام بمهمته منذ وصوله إلى إيكجان. فعبر عن إعجابه بما يتحلى به «المؤمنون» من قوة إيمان قادرة على زعزعة الجبال المقابلة لهم(73). وقد نظموا صفوفهم واستعدوا للحرب،

(72) نفس المصدر، 94.

(73) نفس المصدر، 96.



أهمّ القبائل البربرية والعربية
في بلاد كتامة وإفريقية
زواوة
مسالتة
مجرس
عجيسة
أهل القبائل
(بربر)
عسلوجة
بنو نبطاش
بنو سكتان
أجّانة
لطاية
بنو جلامة
بنو تميم
بنو مالك
(عرب)
كرنتاية
زناتة
ملوسة
السناجرة
(عرب)
نفزة
لواتة
سماتة
أوربة
بنو هراش
بنو أشنو
بنو صدغيان
بنو عمرو
بنو معاد
مكلاتة
هوّارة
بنو ماجن
بنو كادران
بنو شمير
بنو جودان
بنو زلال
(عرب)
أهل إفريقية
(عرب)

«فأخرج كل واحد منهم ما كان عنده من مال وكراع وسلاح وأتى به. فحملوا من الرجّالة على الخيل من كان يحسن الركوب، وأعطوا العدة لمن لا عدة له، وفرقوا ما عندهم بعضاً على بعض، حتى استووا في الهيئة والأموال والعدة، واعترضوا، فبلغت عدتهم سبع مائة فارس، وبلغت رجالتهم نحو ألفي راجل، بعد أن خلفوا جميع من فيهم من الضعفاء وممن لا يقدر على الحرب»(74) وأقام أبو عبد الله معسكره في خندق على وادي تافرت خارج تازروت.

وها هو ذا الداعي يواجه حينئذٍ آخر عقبة وضعها في طريقه الكتاميون الرافضون لدعوته، فيقرر في أول الأمر محاولة تفريق المتحالفين، حتى يتحاشى مواجهة عدو أقوى منه بكثير. «فدعا المشائخ وقال لهم: أرى لكم أن ترسلوا منكم رجلاً بينه وبين فحل بن نوح خلطة، فيلطف به ويدعوه إلى السلم. فلعلنا أن نفرق هذه الجماعة. فقالوا: سهل بن بركاس بينه وبين فحل صهر وهو له مخالط. فأوصاه بما يقول له وأرسله إليه». فتوجه سهل إلى فحل ودعاه إلى السلم، فأجابه أنه لا يحقد إلا على الرجل الذي أوقع هذه الفتنة، وهو ذلك «المشرقي» الذي بدّل الدين، وطالب بتسليمه لاجتناب الحرب. فقال له سهل إن الواجب المقدس يقتضي حماية الضيف، وعاب عليه تحالفه ضد «إخوانه» مع أعدائهم الألداء من أهل مزاتة، مشدداً على مبدإ التضامن بين كافة الكتاميين. ثم قدم إليه هذا الاقتراح. «فقال له: نصالحكم وتصالحونا، ونعاهدكم وتعاهدونا، ونحلف لكم وتحلفون لنا على قطع الحرب بيننا، ويرجع كل قوم إلى مواضعهم، ونكون كأهل مذهب المسلمين: من أراد منكم الدخول في مذهبنا دخل فيه، ومن أراد منا الرجوع إلى ما أنتم عليه رجع إليه، لا يكره أحد على ذلك ولا يؤخذ عليه فيه، بحسب ما عليه أهل المذاهب في البلدان، وبكل وجه ومكان»(76).

---

(74) نفس المصدر، 98.

(75) نفس المصدر، 100. مزاتة: عدهم ابن حوقل (ص 106) من «القبائل الخارجة من صلب زناتة».

(76) **الافتتاح**، الفقرة 100. انظر حول المطالبة بالتسامح الديني وحرية الرأي، الموقف الحنفي في =

فطلب فحل الذي زعزعته هذه الحجج، استشارة رؤساء التحالف الآخرين. ولكن هؤلاء أصروا، تحت تأثير فرح بن جيران، على تسليم الداعي إليهم. واضطر فحل إلى مشاطرة رأي الأغلبية، ولو أنه كان يميل إلى الاعتدال. فرجع سهل إلى أبي عبد الله وأخبره، بمحضر المشائخ، بما أسفرت عنه مساعيه من نتيجة سلبية.

ولما علم أبو عبد الله بنوايا العدو قرر أن يبادر بمهاجمة كل قبيلة على حدة، حتى لا يترك للقبائل المتحالفة الوقت الكافي لتنظيم صفوفها والمبادرة بالهجوم. «وكان جميع مزاتة في ناحية بلد ملوسة، وجميع المدائن وكتامة وسطيف بناحية مسالتة مما يلي ملوسة. فعبأ أبو عبد الله من معه ومشى ناحية كتامة وميلة، وهم أجانة ولطاية وجيملة وملوسة ودنهاجة وغشمان سجا وأهل ميلة»[77]. ومنذ الاشتباك الأول لم يصب أي أحد من جنود الداعي، في حين قتل فارس من فرسان العدو. وأثناء المعركة التي جرت من الغد كانت الخسائر في الأرواح أفدح بالنسبة إلى الخصوم، فقد قتل منهم عدد كبير وسلم الأولياء. وفي اليوم الثالث اشتد القتال «وبدت فيه نجدة غزوية، وأبلى بلاءً عظيماً وكان في الرجالة، وجرح الجرح الذي انقطع منه صوته»[78]. وانتصر أبو عبد الله انتصاراً تاماً. «وتفرق جمع الأعداء، فدخل من دخل منهم ميلة، ورجع من رجع من القبائل إلى مكانه». وفي اليوم الرابع هجم أبو عبد الله وأتباعه على عساكر سطيف وما والاها من أبناء كتامة وهزمهم. وفي اليوم الموالي هجموا على جنود مزاتة وهزموهم هزيمة نكراء، «وحازوا جميع أموالهم وما كان لهم، فبيعت الجمال يومئذٍ عشرين بعيراً بدينار، وبيع الجمل بخمس بصلات». وإثر هذا الانتصار عاد أتباع الداعي إلى تازروت، محملين بما افتكوه من العدو من

= عصر أبي حنيفة وموقف معاصره سفيان الثوري، لاووست، ص 85 - 87. إلا أنه لا ينبغي أن نرى في هذه النزعة موقفاً مذهبياً خاصاً، إنما هو تصرف تكتيكي من قِبَل الداعي في فترة صعبة من فترات دعوته.

(77) الافتتاح، الفقرتان 102 - 103.

(78) نفس المصدر، الفقرة 104.

غنائم وفيرة ومتنوعة. فبالإضافة إلى العدد الكبير من الخيل والغنم، «أصابوا من أموال المدائن ومن السروج واللجم المحلاة والسلاح والبنود والطبول ما لا يحصى عدة كثرة»[79].

وإثر تشتيت شمل التحالف حوالي سنة 900/287 ـ حسب روايتين متطابقتين أوردهما كل من الوراق والنعمان[80] ـ شهد أبو عبد الله إزالة آخر عقبة كانت تمنعه من أن يصبح رئيس كتامة بلا نزاع. فقد رفعت الانتصارات العسكرية من شأنه، وحثت القبائل التي قاومته على الدخول في طاعته. وتبعاً لذلك فإن المجموعة الشيعية التي أصيبت بهزات عنيفة ما انفكت تعرض وجودها للخطر طوال أكثر من سبع سنوات، قد نالت في نهاية المطاف حظوتها في تازروت مقر إقامة المؤمنين. وحرصاً على تركيز نظامه، جعل الداعي من تلك المدينة «دار هجرة» لأتباعه، وابتنى بها قصراً وأقطعهم دوراً حولها[81]. ثم استغل انتصاره على التحالف، فعمل خلال ما يناهز السنتين على تعزيز سيطرته على كافة بطون كتامة والتحكم في آخر العناصر المترددة.

وخاف رؤساء أجانة فرح بن جيران ويوسف بن محمود ووزرة بن نصر، من الحظوة التي نالها ابنا قبيلتهم أبو يوسف ماكنون وابن أخيه أبو زاكي، لدى الداعي، فارتحلوا إلى ميلة. «وخلص لأبي عبد الله جميع أجانة، ولحق بميلة فحل بن نوح في جماعة من لطاية واستقام أمر باقيهم لأبي عبدالله».

«وجمع فتح بن يحيى إليه من أطاعه من مسالتة أهل بيته، وبني عفنيت ـ لأنهم يذهبون إلى مذهب الإباضية قديماً ـ وليس في جميع كتامة من يذهب إلى

---

(79) نفس المصدر، الفقرة (106).

(80) البيان، 128: «وأقام هذا الشيخ في حرب مع قومه وبني عمه مدة من سبعة أعوام». الافتتاح، الفقرتان 70 و 111: انحل التحالف قبل سنتين من احتلال ميلة سنة 289 وارتحال إبراهيم الثاني إلى صقلية المسيحية في نفس السنة للقيام بحملة عسكرية. فقد تم انحلال التحالف حينئذٍ في سنة 287 أي بعد سبع سنوات من دخول الداعي إلى بلاد كتامة.

(81) الافتتاح، الفقرة 107.

ذلك غيرهم[82] ـ وفارقه من مسالتة أزاية ـ وهم أهل بيت أبي موسى هارون بن يونس ـ وصاروا إلى الدعوة، فاتصل بأبي عبد الله أمره، فحاربه وغلب عليه وقتل كثيراً ممن كان معه. وهرب في جماعة من أهل بيته إلى سطيف. ثم كتب إلى أبي عبد الله يسأله الأمان والدخول في أمره، فأمنه».

إلا أن رئيس مسالتة قد أبى في آخر الأمر الانضمام إلى الداعي، خشية منافسة ابن قبيلته هارون بن يونس، وحرصاً على رفض انتزاع سلطته على جماعته. فالتجأ إلى قبيلة عجيسة التي كانت تحتل منطقة جبلية غربي سطيف، وجمع حوله عدداً كبيراً من الرجال.

«وتحصن فتح بن يحيى ومن معه في قلعة منيعة بالموضع الذي عقدوا فيه، يقال له توبر، ويسمى أيضاً وشنوك»[83]. فقاد أبو عبد الله بنفسه حملة عسكرية للتغلب عليهم. ولكن بعدما تصدى فتح في مأواه لحصار طويل، وشن عدة معارك ضارية أسفرت عن مقتل عدد كبير من رجاله، من بينهم شقيقه تصولا، اضطر إلى الهروب. فالتحق بإفريقية، «إذ لم يجد موئلاً دونها، وقدم على أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد[84]، وهو يومئذٍ بتونس»، وذلك في ربيع سنة 902/289.

وقد أسفرت هذه الحملة التي قام بها أبو عبد الله على الأرجح في خريف سنة 901/288، عن انضمام أبناء قبيلة عجيسة، وزواوة الذين كانوا يقيمون في الناحية الشرقية من بلاد كتامة، شرقي جبل جرجرة الحالي، وقبيلة مجرس التي تمتد بلادها شمالي شرقي سطيف، حيث يوجد جبل ما زال يعرف إلى اليوم باسمها[85]. كما تمكن الداعي بفضل هذه الحملة من بسط سلطته على كافة قبائل كتامة في المنطقة الممتدة بين سطيف وميلة من الغرب إلى الشرق، وبين

(82) نفس المصدر، الفقرة 109.

(83) نفس المصدر، الفقرة 110.

(84) [وهو الأمير الأغلبي عبد الله الثاني]، الافتتاح، الفقرة 111.

(85) نفس المصدر، الفقرة 110.

جبل بابورس وبلزمة من الشمال إلى الجنوب. ولم تكن سلطته محل نزاع إلا في المدن المحصنة وضواحيها التي اعتصمت بها العناصر المعارضة للمذهب الشيعي[86].

وهكذا فما إن حلت سنة 902/289 حتى تمكن الداعي الإسماعيلي الذي قدم إلى إيكجان قبل ذلك بثماني سنوات، من الوصول إلى نهاية المرحلة الأولى من المهمة التي عهد بها إليه في سلمية. وقد كانت مرحلة شاقة وطويلة، تخللتها عدة عقبات، منها ما كان حجمها كفيلاً بسد الطريق في وجهه نهائياً. ولكن أبا عبد الله قد عرف، من خلال العقبات التي كان عليه تذليلها، كيف يصنع من الكتاميين القوة الضاربة التي ستمكنه من مواجهة السلطة الأغلبية دون أن يسقط. وما إن أوشك الفصل الأول على النهاية، حتى بدأ الفصل الثاني والأخير في كنف الانتصار المتمثل في فتح مدينة ميلة[87].

سياسة أبي عبد الله:

ولكن قبل النظر في سير أحداث هذا الفصل الثاني المتعلق بالكفاح المسلح الذي سيخوض الداعي غمارها اعتباراً من ذلك التاريخ ضد الجيوش الأغلبية، وسينتهي في ظرف سبع سنوات من الحرب بهزيمة الأربس سنة 909/296، نرى لزاماً علينا، لتقدير أهمية القوة التي سيتصرف فيها أبو عبد الله، أن نتعرف على خصائص السياسة التي طبقها لإخضاع كتامة لسلطته.

فقد حرص منذ بداية دعوته على أن ينشر بين المجموعة البربرية الشيعية مبادىء أخلاقية متشددة تقوم على أساس الورع الذي لا تشوبه شائبة، وتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً. وأجبر أولئك السكان الجبليين الذي ما زال إسلامهم سطحياً بلا شك، على العيش والعمل طبق التعاليم الدينية، معاقباً المخالفين بلا شفقة ولا رحمة، ومسلطاً عليهم عقوبات رادعة. كما حمل أتباعه

(86) نفس المصدر الفقرتان 113 - 114.

(87) نفس المصدر، الفصل 14.

على اعتناق مذهب ديني وحيد، وهو المذهب الذي سهر على نشره بينهم، وتمكن من إخضاعهم لتلك الصرامة التي يتميز بها كل المصلحين السياسيين والدينيين[88]. وتبعاً لذلك فقد شهد ذلك المجتمع الشيعي الكتامي، علاوة على ذلك التزمّت، استقامة أخلاقية جديرة بالملاحظة، واضطر «المؤمنون» حينئذٍ إلى العيش عيشة التقشف والزهد، مقتدين بسيرة زعيمهم المثالية المفعمة بالعفة والفضيلة. وقد مكنهم تطبيق المبادىء الأخلاقية الشيعية من تحقيق المساواة والعدالة والأخوة والثقة والأمان والوحدة، وحول مجتمعهم إلى مجتمع موحد ومتساوٍ[89]. وقد حرص الداعي، سواء عن طريق إعطاء المثل بتواضعه وخصاله الذاتية، أو بواسطة الدروس التي كان يسهر على إلقائها على أتباعه أثناء مجالس الوعظ والسماع[90]، على أن يغرس في نفوسهم ذلك الشعور بالأخوة الذي هو من أخص خصائص الأخلاق الإسلامية، ولكنه كثيراً ما يكون مجهولاً ومنسياً داخل المجتمع الإسلامي التقليدي والمحافظ الذي أعادت إليه حيويته الدعوة الشيعية المنادية بالمساواة الاجتماعية. وتبعاً لذلك فقد كان الأنصار يتنافسون في ذلك المجتمع «الإخواني»[91] على توخي سلوك لا عيب فيه، والتحلي بالفضائل، والانقطاع لخدمة المجموعة بكل تفانٍ وحماس، فكانوا يكرسون جهودهم لأعمال البر والإحسان، ويقومون بأنشطة اجتماعية تعود بالفائدة على المجموعة، ويشهدون مجالس «سماع الحكمة»، ولم تشذ النساء عن حضورها «فكان منهن عجائز يسمعن ذلك، مما بلغن حد الدعوة»[92].

---

(88) انظر في هذا المعنى سلوك المهدي بن تومرت، ليفي بروفنسال، تحية Henri Basset، 21/2 - 37.

(89) انظر حول المجتمع القرمطي، دائرة المعارف الإسلامية (2)، ص 813.

(90) الافتتاح، الفقرة 128.

(91) حول ميثاق الأخوة، انظر سيرة الأستاذ جوذر، ص 207 الإحالة 451، وحول فكرة الأخوة حسب النظرية الإسماعيلية، و «إخوان الصفاء»، انظر، Marquet، ص 94 وما بعدها.

(92) انظر الباب الأول من القسم الأول، الإحالة 42.

أضف إلى ذلك أن أبا عبد الله الذي بادر ـ كما أسلفنا ـ إلى إضفاء صبغة دنيوية على مهمته الروحية وأعد أتباعه للقيام بدور المدافعين عن الدعوة، قد أنشأ في إيكجان ثم في تازروت تنظيماً سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ومالياً جديداً. ومما لا شك فيه أنه لم يستطع، ضمن تلك المجموعة المقامة على الوحدة والمساواة والأخوة، التلاؤم مع ما يتسم به الكتاميون من خصائص قبلية. ففكر على الأقل في تفضيل روابط الانتماء إلى نفس المذهب الديني والتمسك بنفس القضية المشتركة على روابط العصبية القبلية، إن لم يكن تعويض هذه بتلك. وسعى إلى تنظيم أتباعه ليجعل منهم رفقاء مخلصين ومستعدين للذب بحد السلاح عن القضية التي عهد إليهم بالسير بها نحوالنصر، والقيام بأخطر الأعمال، ومقاومة أقرب المقربين من أبناء قبيلتهم وأهل بيتهم، وسفك دمائهم إن لزم الأمر. وحول هذا الإصلاح الملائم للنظام الجماعي الجديد المقام في «دار الهجرة» والمستجيب للضرورات العسكرية التي تقتضيها الدعوة، لدينا معلومات نفيسة واردة في الافتتاح، تستحق أن ننقلها بحذافيرها[93]:

«وقسم أبو عبد الله كتامة أسباعاً، وجعل لكل سبع منها عسكراً قدم عليه مقدماً، وأطلق بكل موضع داعياً. وسمى المقدمين والدعاة المشايخ ـ وإن كان فيهم من لم يبلغ السن ـ وأبقى أعمال المؤمنين وما أفاء الله من المغانم على ولي المسلمين (أي الإمام) في أيدي المشايخ، ولم يكن يقبض من ذلك شيئاً، ولا يصل إليه ولا يأتيه ولا يراه، وكان في أيديهم إلى أن قدم المهدي فدفعوه إليه»[94].

«ومن ذلك أنه لم يكن يقبل من أحد منهم لنفسه قليلاً ولا كثيراً، وجهدوا في ذلك، فلم يكن يفعله، ولم يكن ينفق إلا ما أطلقه له مولاه (أي المهدي)، وأتاه كتابه يأخذه، وربما أبطأ ذلك عليه، فيحتاج، فيرجع إلى بيع ما عنده في

(93) الافتتاح، الفقرة 123.

(94) نفس المصدر، وحول سيرة الدعاة، انظر، Marquet، ص 122 - 124.

السر وإنفاقه، والأموال الكثيرة في يده وله مباحة»[95].

وبمثل هذا النظام الذي وفر للمجموعة البربرية الشيعية أطرها السياسية والعسكرية، وبفضل المشايخ الذين شركهم الداعي في ممارسة الحكم، بإسناد أعلى المناصب إليهم، وقد كانوا يقومون حوله بدور يساوي على الأقل دور رؤساء الفرق في المجالس القبلية، أراد أبو عبد الله أن يقيم الدليل على أنه لا يعمل لحسابه الخاص، بل يعمل باسم الإمام، باعتباره نائباً عنه ليس إلا. وقد نقل الوراق في هذا المعنى خبراً مطابقاً للمعلومات التي أوردها النعمان، ملاحظاً أن الكتاميين قد خضعوا لسلطة أبي عبد الله، وأن كثيرين منهم قد دخلوا الدعوة، كما أنشأ الداعي ديواناً لتسجيلهم، وفرض عليهم الخدمة العسكرية. وكان يقول لهم إنه يقوم بمهمته لا لفائدته الشخصية، بل لدعوتهم إلى الدخول في طاعة الإمام المعصوم من أهل البيت.

ويتضح من كل ذلك أن النظام الذي أقامه أبو عبد الله في بلاد كتامة كان يستند إلى بنية أساسية متينة. ولذلك فإننا ندرك كيف صمد من غير تعثر أمام هجومات القبائل المتحالفة التي كانت ـ على حد تعبير النعمان ـ «تقاتل بلا رأس ولا كثرة عدة، وتقاتل من يعرفها من أهل البلد»[96]، مما عرقلها وأفقدها ميزة التفوق العددي. واعتماداً على مثل هذا النظام قامت في إيكجان وتازروت دولة بأتم معنى الكلمة. ومنذ ذلك الحين انبعثت قوة الفاطميين بدعم من الجماعات الكتامية، وسيبتسم لهم الحظ في نهاية المطاف.

---

(95) البيان، ص 128.

(96) الافتتاح، الفقرة 111، انظر ما قاله فتح بن يحيى للأمير عبد الله الثاني لحثه على قتال الداعي.

الفصل الثالث

انتشار الثورة البربرية الشيعية
حتى سقوط الدولة الأغلبية

فتح ميلة ورد فعل الأغالبة:

إن الصفحات التي خصصها الأخباريون من أهل السنّة للنزاع المسلح الذي نشب بين الكتاميين بإيعاز من الداعي الإسماعيلي أبي عبد الله، وبين القوات الأغلبية، منذ مطلع القرن العاشر من الميلاد، قد أعطتنا قبل اكتشاف كتاب **افتتاح الدعوة**، فكرة عامة مستوفاة حول تلك الفترة المضطربة. إلا أن رواياتها التي تفتقر في الغالب إلى تسلسل الحوادث ودقة التواريخ، علاوة على الثغرات العديدة والتناقضات المتكررة، لم تكن كافية لتوضيح الأسباب العميقة للانقلاب الذي شهده المغرب عند اندلاع الثورة البربرية الشيعية[1].

وبناءً على ذلك فإن رواية **الافتتاح** التي كنا قد أكدنا ما تتميز به من قيمة[2]، بمقارنتها مع روايات ابن الأثير والمقريزي وابن خلدون، ومقابلتها مع رواية ابن عذاري المختلفة عنها، قد سمحت لنا من حسن الحظ، بأن نستعرض، بصورة مفصلة وفي آنٍ واحد مستفيضة، الأحداث التي سنشير إليها فيما يلي.

فمن الجدير بالتذكير أن الداعي أبا عبد الله الذي كان مشغولاً حتى مطلع سنة 902 م/ 289 هـ. ببسط سلطته على كتامة، لم يدخل بعد في صراع مسلح

(1) **افتتاح الدعوة**، مقدمة المحقق: غزو إفريقية وسقوط الأغالبة.

(2) نفس المصدر: القيمة الوثائقية للافتتاح.

مع القوات الأغلبية. ذلك أن ثورته لم تثر أي رد فعل، لا من قبل الأمير الجالس على العرش عهدئذٍ، وهو إبراهيم الثاني ـ وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أسباب ذلك التراخي[3] ـ ولا في المدن المحصنة المجاورة التي كانت تشرف عليها حاميات ضعيفة. وكانت ناحية ميلة ـ وهي أقرب مدينة محصنة من تازروت ـ قد تعرضت لعدة غارات شيعية. ولا شك أن أبا عبد الله المطلع على الوضع في إفريقية اطلاعاً جيداً، كان ينتظر الوقت المناسب للزحف على تلك القلعة. ولم تلبث أن حانت تلك الفرصة. فقد تنازل إبراهيم الثاني عن العرش في رجب 289/ فبراير. مارس 902 لفائدة ابنه عبد الله الذي كان قد استدعاه من صقلية منذ عهد قريب. وبعد ذلك بأقل من ثلاثة أشهر أبحر من سوسة ليقود بنفسه حملة على تلك الجزيرة[4]. وقد ألح الأخباريون على كثرة الجنود المشاركين في تلك الحملة. وأكد القاضي النعمان من جانبه أن الأمير «عندما أراد الخروج في البحر، بذل العطايا للفارس عشرين ديناراً وللراجل عشرة»[5].

ولا بدّ أن أبا عبد الله قد ابتهج بخبر هذه الحملة ورأى الوضع ملائماً للهجوم على ميلة. وكان قبل ذلك قد عمل على استمالة بعض الأنصار من أهلها. من ذلك أن حسن بن أحمد رئيس بني أبي خنزير ـ وهم من عرب ربيعة ويعرفون بالسناجرة، لأن أولهم من سنجار ـ «قد وصل إلى أبي عبدالله سراً ودعاه. فأطلعه على أمر المدينة»[6].

وفي أواخر فصل الصيف، وعلى الأرجح في شهر شوال/ سبتمبر، في الوقت الذي كان فيه إبراهيم الثاني يتوغل في قلورية بعدما استولى على طبرمين، زحف أبو عبد الله على ميلة وأحاط بها أصحابه من كل ناحية «فخرج إليهم

(3) انظر مقدمة هذه الدراسة: من الانحطاط إلى سقوط الدولة الأغلبية.

(4) الافتتاح، الفقرة 134.

(5) حسب نظام «العطاء» المعمول به في العصر الوسيط بالنسبة إلى الجنود تبلغ جراية الفارس 1000 درهم وجراية الراجل 500 درهم، انظر دائرة المعارف الإسلامية 1، ص 751 - 752، (العطاء)، بقلم كلود كاهين، وانظر أيضاً هشام جعيط، ولاية إفريقية من القرن الثاني إلى القرن الثامن، ستودي إيسلاميكا، 1967، ص 112 - 113.

(6) الافتتاح، الفقرة 134.

موسى بن العباس بمن معه ومن لجأ إليه من كتامة، مثل فحل بن نوح وفرح بن جيران ويوسف بن محمود ووزرة بن نصر، وقاتلهم قتالاً شديداً. فقُتِل فحل بن نوح، وغلب أبو عبد الله وأصحابه على أرباض ميلة، ودخل جميع من فيها إلى الحصن فانحصروا به»[7].

«فلما نظروا إلى ما لا قوام لهم به، دعا موسى بن العباس حسن بن أحمد بن أبي خنزير ـ وقد كان علم بأنه قد دعاه ـ فأرسله إلى عبدالله يسأله الأمان. فأمنهم أبو عبدالله في أنفسهم ما لم يحدثوا حدثاً. وفتحوا أبواب المدينة، ودخل الأولياء. وتسلل أبو إبراهيم بن موسى بن العباس مع جماعة منهم في الليل، فهربوا، فوصلوا إلى إفريقية. . . ولما دخل الكتاميون قتلوا فرح بن جيران ويوسف بن محمود ووزرة بن نصر الأجانيين. ويقال إن الذي سعى في قتلهم أبو زاكي، لأن هؤلاء كانوا وجوه أجانة، فخشي أن يعلو أمرهم عليه. وأخرج أبو عبدالله موسى بن العباس واستوصى به خيراً. وولى على ميلة أبا يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني، وهو عم أبي زاكي، وانصرف إلى تازروت بالعساكر»[8].

وهكذا سقطت أول مدينة محصنة أغلبية بين يدي الداعي، رغم ما كانت تتسم به من مناعة حسب شهادة اليعقوبي الذي أكد أن «لها حصن دون حصن»[9]. فلو كانت تدافع عنها حامية أقوى، لأمكنها التصدي للحصار مدة أطول، في انتظار وصول الإمدادات الأغلبية. ومهما يكن من أمر، فقد بلغ خبر سقوطها إلى مدينة تونس التي كان يقيم بها يومئذٍ الأمير الجديد عبد الله الثاني. فكان ذلك الخبر منذراً بالخطر. وقد وصل أبو إبراهيم بن موسى بن العباس إلى تونس لحث الأمير على تنظيم حملة عسكرية ضد أبي عبد الله، وقيل إن أخاه ذاته هو الذي دبر فراره، ولم يعد عبد الله الثاني يستطيع بعد حصول مثل هذا الحادث، التهاون بأمر المتمرد الشيعي، وقد كان قبل ذلك لا يرى من المتأكد

---

(7) نفس المصدر.

(8) نفس المصدر، الفقرة 135.

(9) أي يوجد بها حصن في حصن، مما يزيدها تحصيناً، البلدان، 11 - 214/12.

الاستجابة إلى الطلبات المتكررة التي كان يقدمها إليه القائد المسالتي فتح بن يحيى. إذ أن العاهل الجديد ـ وهو ذلك الجندي الباسل الذي حنكته القيادات العديدة التي تقلدها في صقلية ـ قد اكتسب من الخبرة ما يؤهله لتقدير جسامة الخطر الذي يهدده والتنقيص من أهميته. لا سيما وقد تمكن منذ اعتلائه العرش قبل ذلك بحوالي ستة أشهر، من إصلاح الوضع المتردي السائد في البلاد، بفضل حزمه وسيرته الفاضلة والعادلة. وتبعاً لذلك لم يتأخر رد فعله كثيراً[10].

«فقد أمر بالحشود وبذل العطايا». وجمع جيشاً يضم 12000 رجل بين فارس وراجل، وأمّر عليه أحسن من عنده من القواد، وجهزه بالعتاد وزوده بالمؤونة، وعين على رأسه ابنه محمداً المعروف بأبي حَوَال، وهو لم يكن أحول، وإنما لقب بذلك «لأنه كان ربما كسر عينه إذا أدمن النظر إلى الشيء»[11]. وقد كان هذا الأمير «فارساً شديداً وبطلاً كمياً»، على غرار معظم أهل بيته الذين كان ملوك بني الأغلب يعهدون إليهم بقيادة الجيوش دون سواهم، إلا ما قل وندر.

وخرج القائد الأغلبي من مدينة تونس في ذي القعدة من سنة تسع وثمانين ومائتين (أكتوبر 902)، أي بعد مدة قليلة من وفاة جده إبراهيم الثاني أمام مدينة كشتة في صقلية، وكان متبوعاً بجماعة من وجوه عساكره، من بينهم فتح بن يحيى وأبو إبراهيم بن موسى بن العباس وغيره من حماة كتامة، وقد أمر لهم بالخلع والسلاح والسروج واللجم المحلاة. وسار أبو حَوَال في اتجاه سطيف عن طريق بجاية. «فكل من مر عليه من القبائل بذل لهم العطاء والخلع والحملان لوجوههم، فسارعوا وقصدوا نحوه. وصار إلى سطيف، فلم يصل إليها حتى زاد في عسكره مثله. وتلقاه بنو عسلوجة أصحاب سطيف، وبنو تميم أصحاب بلزمة فيمن معهم. . فصاروا في عساكر عظيمة، ومال بهم على من

((10) الافتتاح، الفقرة 136.

(11) نفس المصدر، فينبغي حينئذٍ عدم اعتماد التسمية الواردة في المصادر السنية، أي «ابن الأحول».

كان دخل في حزب أبي عبد الله من كتامة أهل مجرس، فقتلهم قتلاً ذريعاً وانتهب أموالهم وسبى ذراريهم. ثم قصد أبا عبد الله إلى تازروت»[12].

«واتصل الخبر بأبي عبد الله أن موسى بن العباس هو الذي وجه ابنه (أبا إبراهيم إلى الأمير الأغلبي ليلتمس منه التدخل). فأمر أن يحتفظ به في كجارمة ـ وهي في بلد لطاية بالقرب من ميلة ـ وجعل عليه الحرس. ثم أمر بقتله لما صح ذلك عنده، وقربت العساكر منه، فقُتِل صبراً في بني جلامة وأُلقِي في مطمورة بها»[13].

ولما اقترب أبو حوال من تازروت خرج منها أبو عبد الله، «وبرز إليه فيمن معه». وحصل الاشتباك الأول في فصل الشتاء ببلدة ملوسة الواقعة شمالي غربي تازروت، حيث نصب القائد الأغلبي معسكره في خندق، وفق الخطة الحربية البارعة التي اعتمدها منذ خروجه من باغاية. «فإذا نزل لم يبت إلا في خندق يحتفر حوله من وقت نزوله.. فإذا أظلم الليل وقف الحرس على أبواب الخندق، ودارت به الرجالة من داخله بالدِّرق، والخيل تعسّ دون الرجّالة في داخل الخندق. وتخرج ألف فارس فتعس حوله إلى أن يصبح»[14]. وقد سار أبو حوال على هذا الترتيب أثناء هجومه على بلادكتامة، وبفضل ذلك كان جيشه دواماً واستمراراً في حالة استنفار. ولما وجد أبو عبد الله نفسه أمام خصم متمرن على القتال ومجهز إلى أبعد حد، انهزم هو وأصحابه في آخر يوم من المعارك الطاحنة. «واتبعهم أبو حوال إلى قرب الليل. فنزل وخندق، ولما أصبح زحف عليهم ـ وقد كانوا نزلوا بقربه ـ فاقتتلوا وانهزم أيضاً أصحاب أبي عبد الله، وجاء ثلج عظيم فحال فيما بينهم. وانصرف أبو عبد الله وأصحابه إلى تازروت، فلم يروا أنها تحصنهم. فأخذوا ما قدروا عليه من أموالهم وانضموا عليه بأجمعهم إلى إيكجان. وارتفع الثلج وأتى أبو حوال إلى تازروت فأصابها خالية، فأحرقها

---

(12) الافتتاح، الفبرة 138.

(13) نفس المصدر، الفقرة 137.

(14) نفس المصدر، الفقرة 139.

وهدم قصر أبي عبد الله الذي ابتناه بها. ومضى حتى أتى ميلة، فأصابها أيضاً قد ارتحلوا منها وانضموا إلى إيكجان»(15).

وقد دارت كل هذه المعارك في ديسمبر 902 - يناير 903. وعرقلت رداءة الأحوال الجوية سير القائد الأغلبي، فلم يبادر إلى الزحف على إيكجان التي كان من الصعب عليه الوصول إلى منطقتها الجبلية، «ونزل بناحية دبور القبلة (في ناحية ميلة) بقرب الجنان الكبير المعروف بموسى بن العباس وخندق في مكانه»(16).

«فلما أصبح استأذنه أبو إبراهيم بن موسى بن العباس في أن يمضي إلى كجارمة يستخرج أباه فيدفنه، فأذن له في ذلك. ومضى في خيل كثيرة حتى أتى كجارمة، فأصابها خالية قد ارتحل أهلها مع أبي عبد الله. (وبينما كان) يستخرج جثة أبيه إذ أقبلت خيل ومعهم دواب من أهل كجارمة يحتملون طعاماً لهم. فوافقوا أبا إبراهيم ومن معه، فقاتلهم. وقتل أبو عقال بن موسى بن العباس. واتصل الصراخ بالفريقين. فأمد كل قوم أصحابهم، والتحم القتال بينهم وتكاثروا. فلما قرب الليل وقعت الهزيمة على أصحاب أبي حوال. . . فطلبهم الأولياء إلى أن قربوا من العسكر ودخل الليل عليهم، فانصرفوا عنهم. وبات أهل العسكر مع أبي حوال، وقد ماجوا. فلما اعتكر الليل وقعت فيهم نفرة، فاقتحموا الخندق وضربوا على وجوههم، كل قوم إلى مواضعهم، وحاول أن يصلح ذلك أبو حوال فلم يستطع. فأمر برفع الثقل، وأشعل المشاعل وسار في الليل، وأخذ ناحية جيملة يريد إفريقية، فلم يصلح حتى خرج من حد كتامة. واتصل الخبر بأصحاب أبي عبد الله فأتوا مناخه،

(15) نفس المصدر، الفقرة 140.

(16) نفس المصدر. انظر أيضاً: «La caverne miraculeuse de Sidi Bou Yahia», Lucien Jacquot. قسنطينة 1909 - وصف ميلة التي تقع على بعد 55 كم غربي قسنطينة في الطريق الرابطة بين تلك المدينة ومدينة جيجل، والطريق الرابطة بينها وبين جيملة وسطيف. وهي مدينة مزودة بالماء بكثرة ومحاطة بعدة بساتين (من النخيل وأشجار الليمون والرمان والكروم، إلخ. . .).

فغنموا ما بقي فيه. وانقطعت خيل منهم في طلبه فلم يلحقوا به. وسار أبو حوال حتى وصل إلى أبيه بتونس وتراجع كتامة إلى موضعهم وأهل ميلة إلى مدينتهم»[17].

ويعزو القاضي النعمان تقهقر القائد الأغلبي إلى قساوة الشتاء واندلاع معركة كجارمة. ولكن يبدو أن الهزيمة التي مني بها الجيش الأغلبي في تلك المعركة لم تبلغ حداً يفرض على قائده الانسحاب والرجوع فوراً إلى تونس. فقد كان بإمكان أبي حوال أن يعسكر في ميلة إلى أن ينقضي فصل الشتاء ثم يزحف على إيكجان ويستولي عليها. ذلك أنه قد أقام الدليل على تفوقه العسكري في ملوسة، وأن الخطة التي طبقها طوال هجومه قد أثبتت نجاعتها. وحتى لو صدقنا رواية النعمان، فإنه يصعب علينا التسليم بأن هزيمة كجارمة كانت كافية وحدها لحمل القائد الأغلبي على التقهقر. فينبغي حينئذٍ البحث عن سببها الأصلي في الحوادث التي جدت خلال نفس تلك الفترة في إفريقية وعلى وجه الخصوص في صقلية[18].

فمن الجدير بالتذكير أن إبراهيم الثاني قد لقي مصرعه أمام مدينة كشتة في صقلية يوم 19 أكتوبر 902[19]، وذلك في الوقت الذي كان فيه أبو حوال يزحف على تازروت. وقد تحولت قيادة الجيش إثر وفاة الأمير إلى حفيده زيادة الله الذي كان حريصاً على إرضاء طموحه أكثر من حرصه على مواصلة الجهاد. فرفع الحصار على كشتة وعاد إلى بلرم حيث أثار الجيش على أبيه عبد الله الثاني. فمن المحتمل أن يكون أبو حوال، بعد اطلاعه على الوضع المضطرب الذي تسبب فيه أخوه، قد رأى من الأحسن الرجوع إلى تونس، ربما بتعليمات صادرة عن أبيه ذاته. ولعل ذلك ما يفسر إسراعه إلى وضع حد لحملته بلا شك في شهر صفر 290/ أواخر يناير 903، والرجوع إلى إفريقية»[20].

(17) الافتتاح، الفقرة 141.

(18) نفس المصدر، الفقرتان 143 - 146.

(19) نفس المصدر، الفقرة 70.

(20) نفس المصدر، الفقرة 146.

وقد كان الوضع حقاً حرجاً بالنسبة إلى الداعي. ألم ينج من هزيمة منكرة، بسبب عودة خصمه إلى إفريقية، بتدبير من العناية الإلاهية؟ أضف إلى ذلك أن تازروت المهدمة لم تعد صالحة لتكون «دار هجرة»، لا سيما وقد حرمته وفاة الحسن بن هارون من مساندة رفيق مخلص. ولكن نظراً إلى إلحاح وجهاء سكتان، ومن بينهم بيان بن صقلان وأبو جعفر أحمد بن سليمان، استوطن أبو عبد الله إيكجان من جديد وبني بها قصراً وجعلها «دار هجرة للمؤمنين». ثم ازداد يقظة فأعاد تنظيم قواته ووجه دعاته إلى القبائل، «وكان يرسل إلى إفريقيا قوماً يأتونه بالأخبار، ولا ينقطع ذلك عنه»[21].

إلا أن الأخبار الواردة إليه لم تكن تبعث على الاطمئنان. فقد أمسك عبد الله الثاني بزمام الأمور، وتمكن بفضل حسن سيرته من إعادة النظام إلى نصابه. وفشلت الثورة التي قام بها زيادة الله في بلرم، لأنه لم يجد ما يكفي من الدعم لدى قواد الجيش. فعاد الأمير الشاب إلى إفريقية يوم 19 جمادي الثانية (20/29 مايو 905، وهو مقر العزم على خلع أبيه. ولكن عبد الله الثاني الذي كان على علم بنواياه قد اتخذ الاحتياطات اللازمة لاعتقاله عند نزوله. وبالفعل فقد ألقى عليه القبض وسجنه في القصر. ومن ناحية أخرى، فإن أبا حوال الذي كان قد أوشك على احتلال إيكجان، قد أعاد الكرة من جديد[22].

ومن الجدير بالملاحظة أن الأخباريين قد غفلوا عن ذكر هذه الحملة الأغلبية الثانية، أو قدموا عنها معلومات غير مطابقة للواقع، إن لم يخلطوا بينها وبين الحملة الأولى[23]. إلا أن القاضي النعمان قد أمدنا في **الافتتاح** برواية منمقة شيئاً ما لا محالة، ولكنها مفعمة بالمعلومات الغزيرة. فقد خرج أبو حوال من تونس على الأرجح في آخر فصل الصيف، رجب 290/ يونيو 903، أي بعد مدة قليلة من رجوع أخيه زيادة الله من صقلية. «وسـار حتى نزل سطيف على

(21) نفس المصدر، الفقرة 142.

(22) نفس المصدر، الفصل 16.

(23) نفس المصدر، الفقرة 145.

مثل ما كان سيره في المرة الأولى، وزحف من سطيف، وانتهى خبره إلى أبي عبد الله، فزحف إليه من إيكجان بجميع من كان معه، فنزل بتاسدق من بلد لهيصة. ونزل أبو حوال ببلد ملوسة، . فجرد أبو عبد الله عامة الخيل التي معه، فقدمها إلى أبي حوال وأقام بتاسدق»(24).

«فلما أشرفت الخيل على أبي حوال، خرج من خندقه بجميع أصحابه. فاقتتل القوم قتالاً شديداً، والغلبة في كل ذلك على أبي حوال، حتى أدخلهم أصحاب أبي عبد الله في خندقهم. فحال الليل بينهم فانصرفوا عنه فباتوا. وأصبحوا إليهم من غدٍ، فاحتصر أبو حوال في الخندق، فلم يخرج إليهم، ورأى أن أصحابه به قد غلبوا. فأقاموا عليهم يومهم إلى الليل. فلما جن الليل رفع أبو حوال ثقله فقدمه بين يديه. ثم أوقد المشاعل وكرَّ راجعاً إلى سطيف. وكانت خيل كثيرة خرجت من عسكر أبي عبد الله إذ تيقنوا هروب أبي حوال، فقربوا منه. فلما ارتحل ضربوا في ساقته، فقتلوا جماعة من أصحابه وغنموا كثيراً مما كان معه. وأصبح عسكر أبي عبد الله، فغنموا ما بقي في مناخ أبي حوال وانصرفوا إلى إيكجان مع أبي عبد الله. وانصرف أبو حوال بمن معه إلى سطيف»(25).

فللمرة الثانية حينئذٍ ينسحب أبو حوال من أمام الداعي دون شن المعركة الحاسمة ولا التعرض لهزيمة نكراء. وقد وصفه لنا القاضي النعمان وهو قانط ومتأكد من عجزه عن التغلب على خصمه، وألحّ على موقفه الانهزامي. ولكن صاحب الافتتاح قد حرّف الحقيقة شيئاً ما، ذلك أنه لا يمكن تفسير موقف القائد الأغلبي، إلا إذا ربطناه بالحوادث المفجعة التي جدت في إفريقية منذ عهد قريب. فقد ترك أبو حوال الوضع هادئاً هناك عند خروجه للقيام بحملته العسكرية. ولكن بعد انصرافه ببضعة أسابيع جد في تونس حادث مفاجىء. «ففي ليلة الأربعاء ليومٍ بقي من شعبان سنة تسعين ومائتين» (27 يونيو 903)

(24) نفس المصدر، الفقرة 144.

(25) نفس المصدر، الفقرة 145.

عمد بعض الخدم إلى قتل أبيه الأمير عبد الله الثاني في قصره، ثم أفرجوا عن أخيه زيادة الله الذي تسلم في الحين مقاليد الحكم. والغالب على الظن أن هذا الأمير الطموح والماجن قد كان له ضلع في هذه المؤامرة التي آلت إلى قتل أبيه، إلا أن النعمان لم يتهمه بذلك بصورة قطعية وأورد الروايتين اللتين نقلهما عنه الأخباريون اللاحقون. فحسب الرواية الأولى يقال إن زيادة الله هو الذي أوعز بقتل أبيه. وحسب الرواية الثانية يقال إن الخدم قد تصرفوا من تلقاء أنفسهم ليرضوه ويتيحوا له الفرصة لإعتلاء العرش[26].

وسواء أكان زيادة الله هو الذي أوعز بقتل أبيه أم لا، فإنه قد سارع من الغد، بعدما أمسك بزمام الحكم، إلى إرسال كتاب إلى أبي حوال يأمره فيه باسم أبيه بالرجوع فوراً إلى إفريقية، خشية تمرده عليه. وكلف مولاه فتوح الرومي حامل الكتاب بتسليم كتاب آخر إلى وجوه العسكر يخبرهم فيه بموت أبيه، ويأمرهم بالقبض على أبي حوال إن رأوه «قد تثاقل عن القدوم». وتسلم أبو حوال الكتاب وهو يحارب أبا عبد الله، فقرر فجأة وقف القتال استجابة لدعوة أبيه، وانحصر في خندقه ثم انسحب تحت جنح الظلام. وبناءً على ذلك فإنه لم يتوقف طويلاً في سطيف وقفل راجعاً إلى إفريقية. فلما وصل إلى بلزمة أخبره صاحبها حي بن تميم بمقتل أبيه، «وقال له: إن أحببت المقام عندنا، فنحن نحميك ونمنعك، فلم ير ذلك»، وفضل مواصلة طريقه. فلما قرب من باغاية لقيه صالح بن الروحاني على رأس كوكبة من الجند، مزوداً بتعليمات كتابية من زيادة الله، فتسلم منه قيادة الجيش وقبض عليه وكبله وحمله على البريد إلى تونس حيث كانت تنتظره نهاية مفجعة[27].

فقد أسرع زيادة الله إلى قتله هو وأغلب أهل بيته، وأعدم منهم تسعة وعشرين شخصاً دفعة واحدة في جزيرة الكراث التي تبعد عن مدينة تونس بضعة أميال. ذلك أن الأمير الجديد لم يكن له من هم سوى الاستحواذ على الحكم

(26) نفس المصدر، الفقرة 146.

(27) نفس المصدر، الفقرة 147.

والقضاء على جميع منافسيه المحتملين وقد أعمى بصيرته جنون فتاك، ربما يرجع سببه إلى المرض الذي ألم به من قبل، وهو «ضيق النفس» أو «الملخونية»[28]. فلم يدرك أن إعدام أبي حوال من شأنه أن يريح الداعي من الخصم الوحيد الذي يساويه قيمةً. ولا شك أن أبا حوال، لو لم يُمنع من خوض المعركة الحاسمة، لأمكنه التغلب على أبي عبد الله والانتصار على الثورة الكتامية. ذلك أن الجيش الأغلبي قد وجد فيه ما كان ينقص جيوش التحالف المضاد للشيعة، أي القائد الفذ المتسم بالذكاء والبسالة، والمتمتع بتلك «الهيبة» التي يتميز بها القواد المعتزون بشجاعتهم وأصوالهم الملكية. وكان ذلك الجيش المجهز بالعدة والسلاح أحسن تجهيز، «يقاتل بقتال لا يعرفه الكتاميون من النشاب والقنا»، ويتفوق عليهم تفوقاً واضحاً[29]. أضف إلى ذلك أنه كان تحت إمرة قواد متمرنين على السلاح ومدربين على القتال في صقلية، يثيرون الرعب في النفوس، سواء بكثرة عددهم أو بكونهم «عسكر السلطان»[30].

ولكن بوفاة أبي حوال، فقد الجيش الأغلبي قائده الباسل، ولم يعد زيادة الله الثالث قادراً إلا على تعبئة جنود بلا روح، ينقصهم القائد الحقيقي الذي يعرف مثل أبي حوال كيف يضع خطته الحربية وكيف يقود رجاله ويعدّهم للحرب. واعتباراً من ذلك التاريخ لن يعرف الجيش الأغلبي سوى الهزائم المتكررة التي ستقضي الواحدة تلو الأخرى على النظام وتسير بالدولة نحو الانقراض.

أما الداعي فقد يسرت له العناية الإلاهية مهمته بلا شك. فما إن بدأ

---

(28) نفس المصدر، انظر أيضاً ورقات، 235/1 - 236. لا شك أن الطبيب الذي كان يعالج الأمير هو الطبيب الشهير أبو يعقوب بن سليمان الإسرائيلي الذي قدم من المشرق واستقر برقادة، البيان، 141.

(29) الافتتاح، الفقرة 111. انظر أيضاً، دائرة المعارف الإسلامية 2 (فرس) ص 803 - 806 بقلم F. Viré. وانظر نفس المرجع، ص 974 - 975، (فروسية) بقلم G. Douillet.

(30) الافتتاح، الفقرة 111: «ولعسكر السلطان هيبةٌ».

يستجمع قـواه بعد الصدمة التي أصابته، حتى أتاه خبر الحادث المفاجىء الذي جدّ بتونس، ليخفف عنه ألمه ويشرح صدور «المؤمنين». فقد تبدد الخطر الذي كان يمثله القائد الأغلبي الراحل. أضف إلى ذلك أن المهدي «المنتظر» قد أصبح على وشك الظهور. ذلك أن الإمام الذي توجه إليه عدد من المبعوثين لإعلامه بنجاح الدعوة وفتح ميلة، قد غادر مركزه بسلمية متوجهاً إلى مصر. ولكنه كان ينوي بلا شك ـ كما سنرى فيما بعد ـ التحول إلى المغرب ليقيم فيه الخلافة الفاطمية[31].

هجوم الداعي على المدن المحصنة: فتح سطيف:

لقد انتهت سنة 903/290 في كنف الهدوء والسكينة، وأخذ كل خصم يسعى إلى الاستفادة من تلك المهلة، بعد الاضطرابات البالغة التي شهدتها الفترة السابقة. ففي حين كان أبو عبد الله يعيد تنظيم قواته في انتظار استئناف القتال، كان زيادة الله الثالث مشغولاً بتركيز سلطته. فقد اتخذ جملة من الإجراءات الكفيلة بإصلاح الوضع لفائدته، بعدما تلقى البيعة في تونس وفي سائر مراكز الأقاليم، وضمن لنفسه ولاء الخاصة من المدنيين والعسكريين، بما أغدق عليهم من العطايا، وقضى على معظم الأمراء من أهل بيته الذين ربما كانوا سينازعونه السلطة، وعهد بالوظائف السامية إلى الأشخاص المتمتعين بثقته أمثال ابن الصائغ وأبي مسلم بن منصور[32] اللذين كان الأمير الراحل قد سجنهما بتهمة التواطؤ مع ابنه[23].

وكان جدّ الأمير الجديد، إبراهيم الثاني قد عزل قبل ذهابه إلى صقلية القاضي المالكي عيسى بن مسكين، وعوضه بالقاضي الحنفي محمد بن أسود الصديني. أما أبوه عبد الله الثاني، فقد كان يرى رأى أبي حنيفة مع ميل إلى المذهب المعتزلي الذي أخذه عن شيخه عبد الله بن الأشج، ذلك المتكلم

---

(31) انظر الباب الثاني: رحلة المهدي المليئة بالمغامرات.

(32) البيان، ص 135 - 137، 145 - 146.

(33) نفس المصدر، ص 135 - 136.

الجليل والمجادل البارع، وكان مولعاً أيضاً بعلم الفتيا ومعجباً بتضلع أبي عبد الله البجلي في هذا العلم، فعرض عليه خطة القضاء، ولكنه رفضها، فأبقى في ذلك المنصب محمد الصديني الذي كان يتمتع بحظوة فائقة وسلطات واسعة، وعهد إليه بخطة «قاضي القيروان وواليها»، مع تكليفه بمراقبة سلوك موظفي الدولة وجامعي الضرائب[34]. ولم يخف فقهاء السنة والعامة نقمتهم على ذلك الأمير المعتزلي. «فلما ولي زيادة الله أراد أن يسترضي العامة»[35]، فعزل الصديني عن القضاء وولى حماس بن مروان (بن سالم الهمداني)، وكان يذهب إلى مذهب مالك ويسمى سنياً. وكتب في بنوده: نصر من الله للأمير زيادة الله بن عبد الله القائم بسنّة رسول الله»[36]. ثم حرص على الظهور في مظهر زعيم أهل السنّة، واستمالة أتباع مذهب الإمام مالك المناهضين للشيعة. فجمع في بيت وزيره ابن الصائغ عدداً من فقهاء المالكية للتنديد بالداعي[37]، «وأظهر الفقهاء لعنه والبراءة منه، وحرضوا الناس على قتاله وأفتوهم بمجاهدته». وأخيراً وجه مبعوثاً خاصاً إلى بغداد، وهو أبو الحسن بن حاتم محملاً بهدايا إلى الخليفة المكتفي لالتماس عطفه ورعايته. وسعياً إلى التخفيف من الرعب الذي بعثته فيه الثورة الكتامية، انغمس زيادة الله في الملذات والملاهي وركن إلى «الخلاعة والمجون والفساد»[38].

وكان الداعي ينتظر نهاية فصل الشتاء (290 - 903/291 - 94) ليستأنف عملياته الحربية. وكان عليه قبل مواجهة الجيش الأغلبي فتح أقرب مدينة محصنة من إيكجان بعد ميلة، وهي مدينة سطيف التي أصبحت منذ سقوط ميلة

(34) الافتتاح، الفقرة 148.

(35) نفس المصدر، حسب تعبير القاضي النعمان يمثل العامة الطبقة السفلى من المجتمع أي الرعاع، وعلى وجه التحديد الجماهير الموالية للمذهب السنّي، بمن في ذلك فقهاء المالكية الذين يسميهم النعمان «فقهاء العامة».

(36) الافتتاح، الفقرة 148.

(37) لقد انعقد مجلس الفقهاء في تونس عند ابن الصائغ، البيان، ص 137.

(38) الافتتاح، الفقرة 148.

تعرقل تحركاته وتمثل قاعدة لقوات العدو. وقد كانت محاطة بسور قديم حصين، يمنع الكتاميين من دخول المدينة إلا مقابل دفع غرامة مهينة. أضف إلى ذلك أنها لا تزال مناهضة لأي تسرب شيعي، في حين تمكن أبو عبد الله من استمالة بعض الأنصار في ميلة.

وكان صاحب سطيف علي بن حفص وأخوه أبو حبيب يضمران للداعي حقداً دفيناً. وهما ينحدران من أسرة بني أسد بن خزيمة. ولكنهما كانا يعرفان أكثر باسم أمهما «عسلوجة»، التي هي بلا شك امرأة بربرية وكانا قد ساهما ـ كما أسلفنا ـ في تحريك التحالف المضاد للشيعة وشاركا مع أبي حوال في الحملتين الموجهتين ضد إيكجان(39).

وقام أبو عبد الله بهجومه الأول على سطيف في سنة 903 م/ 293 هـ، وذلك خلال فصل الربيع، حسب الاحتمال. فحاصر مدة أربعين يوماً المدينة التي أبدت مقاومة مستميتة، وقاتل رجال ابن عسلوجة خارج المدينة بلا وهن، فاضطر أبو عبد الله إلى رفع الحصار والانسحاب إلى إيكجان. «فأقام بها شهراً وجمع الأولياء وأوعب في جمعهم وزحف إلى سطيف في عساكر لا يحصى عددها، حتى أحاط بها. وخرج إليه علي بن عسلوجة بجمعه، فقاتله ـ كما كان يقاتله في المرة الأولى خارجاً من المدينة ـ إلى أن غلب عليه واحتصن في الحصن فمات هو وأخوه أبو حبيب جميعاً في أيام قليلة. فلما ماتا انحل أمر سطيف. وكان فيمن نزع إليها من الكتاميين داود بن حباسة اللهيصي ـ وكان من فرسان لهيصة وخيارهم ووجوههم، فآل أمره بعد ذلك إلى أن كان داعياً من الدعاة ـ فرمّ أمر سطيف وكلمه إخوته (من الشيعة)، وهم مع أبي عبد الله، في أن يستأمن. فقال: إن كنت استأمن على أمان أهل البلد كلهم، فعلت. فأخبر بذلك أبو عبد الله، فأمنه ونزل إليه، فأخذ الأمان لأهل سطيف منه، خلا منْ استحق القتل عنده، وانصرف إليهم، ففتحوا أبوابها ودخل الأولياء إليها...»(40). وأمر الداعي بهدم ذلك السور الذي ذاق منه الأمرين،

(39) نفس المصدر، الفقرة 155.

(40) نفس المصدر، الفقرة 156.

وبالخصوص لكي لا تكون سطيف في المستقبل قاعدة يستعملها الجيش الأغلبي الذي ما زال يخشى هجومه. ثم «انصرف أبو عبد الله إلى إيكجان بجميع العساكر واستعمل عاملاً (شيعياً) على مدينة سطيف»[41].

رد فعل الأمير الأغلبي: حملة ابن حبشي[42].

ولما بلغ خبر سقوط سطيف إلى تونس، تحرك زيادة الله، «فأخذ في الحشود وأوسع في العطاء، فاجتمعت له عساكر عظيمة، فقدم عليها إبراهيم بن حبشي (التميمي) ـ وكان من أهل بيته، إلا أنه لم يكن من أهل الحرب ولا ممن له نكاية، وكان الغالب عليه اللين ـ فأخرج معه العسكر وحصله فبلغ أربعين ألفاً بين فارس وراجل... وأخرج أحمالاً كثيرة من الأموال والخلع والسلاح، ولم يدع أحداً من حماة رجاله ولا ممن نزع إليه من كتامة وأهل الزاب إلا أخرجه في ذلك العسكر».

وانطلق الجيش الأغلبي الجرار من الأربس على الأرجح في أوائل فصل الخريف، ذو القعدة 291/ سبتمبر 904، قاصداً قسنطينة. ومن الواضح أن ابن حبشي كان حريصاً على أن لا يتبع الطريق الذي سلكه أبو حوال من قبل، ولا الخطة الحربية التي اعتمدها. فلما وصل إلى طرف بلاد كتامة، نزل في مدينة قسنطينة العتيقة الجاثمة فوق جبل وعر، مجتنباً الهجوم على أبي عبد الله في فصل الشتاء فأقام بتلك المدينة ستة أشهر، وارتكب بذلك خطأً حربياً فادحاً، إذ ترك لخصمه الوقت الكافي للاستعداد للقتال بكل عناية. والحال أن الداعي قد اندهش من وجود مثل ذلك الجيش الجرار على بعد أقل من مرحلتين من إيكجان[43]، لا سيما وقد تعزز الجيش الأغلبي بجنود حامية طبنة، وعلى رأسهم شيب بن أبي الشداد.

«فلما رأى ابن حبشي إحجام أبي عبد الله زحف إليه بالعساكر التي معه

---

(41) نفس المصدر.

(42) نفس المصدر، الفصل 157.

(43) نفس المصدر، الفقرة 158.

حتى انتهى إلى كبونة من بلد أجانة. فأخرج أبو عبد الله خيلاً انتقاها واختارها ليختبر نزول ابن حبشي أين ينزل ويقصد، فوافته بكبونة. فلما تراءت له الخيل قصد إليها بنفسه فعل جاهل بالحرب.. فنشب القتال، وكان القوم الذين لقوه من خير فرسان كتامة، فقامت الحرب فيما بينهم واقتتلوا اقتتالاً شديداً»[44]. وقد تفنن في وصف تلك المعركة الطاحنة الكاتب الذي نقل عنه ابن عذاري[45]، وهو على الأرجح الرقيق.

«واتصل أمر القتال بأبي عبد الله، فزحف بالعساكر إليهم، فوقعت الهزيمة على ابن حبشي وأصحابه.. وأسلموا جميع الأثقال والأموال وأخذوا طريق باغاية. ولما وصل ابن حبشي بمن نجا إلى باغاية، كتب كتاباً إلى زيادة الله يخبره بهزيمته. ثم لم ينتظر الجواب أن يأتيه، فانصرف إلى إفريقية في بقية من بقي معه من أهلها، ورجع كل من كان سلم إلى موضعه. وانصرف شيب بمن بقي معه إلى طبنة»[46].

وقد غنم الكتاميون من هذا الانتصار غنائم لا يحصى عددها، من أسلحة ولجم محلاة وخلع، وغير ذلك من الأشياء النفيسة، «فكتب أبو عبد الله إلى المهدي بما وهبه الله من ذلك الفتح وما غنم من الأموال والغنائم، وأرسل إليه ببعض ذلك (ومنها دنانير أغلبية) مع رجال من قبله من الكتاميين»[47]. وكان المهدي قد وصل في الأثناء إلى المغرب والتجأ إلى سجلماسة ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ[48] وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه ابن حبشي يهدد إيكجان بأخطار جسيمة، انطلاقاً من قسنطينة[49].

---

(44) نفس المصدر، الفقرة 159.

(45) البيان، ص 138.

(46) الافتتاح، الفقرة 160.

(47) نفس المصدر.

(48) البيان، ص 139.

(49) الافتتاح، مقدمة المحقق: ترجمة المهدي.

فتح مدينة طبنة[50].

لقد أفضى النصر الذي أحرزه الكتاميون إلى إقناعهم - إن كانوا ما زالوا في حاجة إلى الإقناع - بأن إفريقية قد أصبحت في متناولهم. ذلك أن الألوية الأغلبية التي كانت تبعث فيهم الرعب في زمن أبي حوال، لم تعد تخيفهم بعد انهزام ابن حبشي. وقد كانت أخبار مآثر أبي عبد الله الحربية تدوي في إفريقية، وكان زيادة الله قد غادر تونس في شهر ربيع الثاني 296/ فبراير - مارس 905، متوجهاً إلى رقادة. «فابتنى سورها، ولم يكن عليها سور أيام إبراهيم بن أحمد (إبراهيم الثاني)، وإنما كان عليها خندق وأبواب»[51].

وخاف الأمير من قوة الداعي المتزايدة، فأعاد تنظيم جيشه منذ مطلع السنة الموالية (906 م/ 293 هـ)، وعهد بقيادته إلى مدلج بن زكرياء وأحمد بن مسرور، ووجهه إلى القاعدة العسكرية بالأربس للاستعداد للهجوم على إيكجان. ولكن القائدين ما لبثا أن شقا عصا الطاعة في وجهه في العاشر من جمادي الثانية 8/293 إبريل 906، وعادا إلى القيروان، حيث حاولا دون جدوى احتلالها ولقيا في آخر الأمر مصرعهما على نحو مفجع[52].

أما أبو عبد الله الذي شجعته الهزيمة النكراء الذي مني بها ابن حبشي، فقد رأى الوقت مناسباً للشروع في غزو إفريقية، وأخذ يتوغل في الجنوب في اتجاه منطقة الزاب المجاورة، لتمهيد الطريق نحو داخل البلاد. وقد كان يتصرف في جنود مجهزين أحسن تجهيز، ومزودين بالغنائم التي افتكوها من العدو، ومعززين بما يكفي من العدة والعدد للقيام بعمليات حربية على نطاق واسع. «وكان حشده بغير ديوان (كما كان الأمر من قبل)، إنما كان يكتب إلى رؤساء القبائل فيحشدون من يليهم طاعة له ورغبة فيه»[53]. وكانت بلزمة

---

(50) نفس المصدر، الفصل 20.

(51) نفس المصدر، الفقرة 149.

(52) نفس المصدر، الفقرة 161.

(53) البيان، ص 138.

وباغاية الواقعتان شمالي شرقي جبل أوراس، وطبنة الواقعة بالجنوب في منطقة الحضنة، من أقرب المدن المحصنة التي يتعين عليه فتحها، وأشدها مناعة. أضف إلى ذلك أن مدينة طبنة تمثل قاعدة الزاب، وتعتبر من أغنى وأكبر المدن الأغلبية بعد القيروان. ومن فرط أهميتها، وجه إليها زيادة الله عدداً من كبار رجال دولته للسهر على حظوظها. فقد عين عاملاً عليها حاجبه الحسن بن أحمد بن نافد المعروف بأبي المقارع، وعين «على أعنة العسكر» شيب بن أبي الشداد المعروف بشيب الأصغر وخفاجة العبسي، وعهد بمصلحة «الخبر» (الاستعلامات) إلى محمد بن قرهب، وبمصلحة «العطاء» (جرايات الجنود) إلى يحيى بن القسري، وعلاوة على ذلك، فإن رئيس مسالتة السابق، فتح بن يحيى، ذلك المقاتل الباسل وعدو أبي عبد الله اللدود، قد قدم على رأس جماعة من البربر المتمردين، للمساهمة في الذود عن المدينة، رغم الجرح الذي أوهنه[54].

وبعدما أمر الداعي رجاله بالقيام ببعض الغارات على طبنة لاختبار جهازها الدفاعي والتعرف على نواحيها، «نادى في الناس، فاجتمعوا إليه.. فزحف بجمع عظيم إلى المدينة. فانتهى إليها بجميع العساكر وأحاط بها من كل جهة. ونظر من بها إلى أمر لا قوام لهم ولا طاقة بالخروج إليه.. فاحتصروا في المدينة وعلوا السور يقاتلون عنها، فزحف إليهم الأولياء من كل جانب[55]، وقدموا إليهم دبابة، فنقبوا برجاً من أبرجة السور، فسقط وحمل الأولياء عليه فهرب جميع العسكر والمقاتلة والمقدمين، فدخلوا حصناً أولياً (أي عتيقاً) مبنياً بالحجارة، منيعاً داخل المدينة»[56].

واستولى أبو عبد الله على طبنـــة، وحرصا منه على كسب ود أهل إفريقية، لم يلحق أي أذى بأهلها الذين كانوا في معظمهم من التجار. فنجوا من

(54) الافتتاح، الفقرتان، 161، 162.

(55) لقد تدرب الكتاميون على معارك الأسوار منذ فتح ميلة وسطيف.

(56) الافتتاح، الفقرة 161.

القتل والنهب المصاحبين عادة لفتح المدن عنوة. أما الحامية المحاصرة في الحصن، فقد وجدت صعوبة للدفاع عن نفسها، ولم تستطع تشغيل المنجنيق الذي كان تحت تصرفها. وبعد التشاور مع شيب، استسلم أبو المقارع وطلب الأمان. فاستجاب أبو زاكي لطلبه وأمنه. ولكنه اشترط من باب الحذر أن يكون الأمان صادراً عن أبي عبد الله ذاته، وإلا فإنه لا يقبله، مستشهداً بقول الشاعر [طويل]:

فـأثْبتَ فـي مُسْتَنْقِـع المـوت رِجْلَـهُ   وقـال لها من تَحْتِ أَخْمَصِكِ الحَشْرُ

«فانصرف أبو زاكي إلى أبي عبد الله فأخبره بالخبر، فقـال له: أعطهم الأمان. فانصرف أبو زاكي، فأخبره بذلك، فنزل ومن معه»[57].

وذهب أبو المقارع مرفوقاً بأصحابه إلى أبي عبد الله ـ وهو في الفازة[58] ـ فسلم عليه وهنأه بالفتح ولما عاب عليه الداعي عناده وإصراره على مواصلة القتال، عرف كيف يعتذر إليه بفصاحة جلبت له إعجاب وعطف الزعيم الشيعي الذي لم يكن متعوداً على مثل تلك البلاغة لدى الكتاميين، «فأمر بحفظه وحفظ أصحابه. وقُتِل فتح بن يحيى وجماعة ممن كان معه من العساكر»[59].

ومما لا شك فيه أن أبا عبد الله لم يبخل بحلمه على المدافعين عن طبنة، وقد كان ذلك الحلم داخلاً في حسابه لاستمالة أهل إفريقية وإقناعهم بأنهم كانوا مخطئين في إنكار المذهب الشيعي. ولما عُرِضَت عليه محاصيل الجباية الأغلبية لم يقبل منها إلا الضرائب الشرعية، أي الجزية والصدقة وأرجع إلى دافعي الجباية ضريبة العشر التي استُخْلِصت نقداً، والضريبة العقارية التي اعتبرها غير شرعية.

ثم عين على طبنة عاملاً شيعياً، وهو يحيى بن سليمان، وعاد إلى إيكجان ومعه حاجب زيادة الله السابق (أبو المقارع). وقد خيره في المقام عنده

(57) نفس المصدر.

(58) الفازة: هي المظلة ذات العمودين.

(59) الافتتاح، الفقرة 164.

أو الرجوع إلى إفريقية، ففضل البقاء في إيكجان[60].

فتح بلزمة (906/293)[61].

لقد قامت القوات الشيعية طوال ثلاث سنوات بغارات موسمية على بلزمة لنهب محصولاتها الزراعية وإتلاف خيراتها. وشجعت أبا عبد الله انتصاراته العسكرية الأخيرة، فقام بهجوم قوي على تلك المدينة المحصنة في أواخر صائفة 906، بعد مدة قليلة من سقوط طبنة، وقد أبدى أهلها من العرب التميميين مقاومة مستميتة، ولقي رئيسهم حي بن تميم مصرعه أثناء الحصار. ومع ذلك فقد أبلوا البلاء الحسن في الدفاع عن أنفسهم بواسطة آلات الحرب، مثل «المجانيق والعرادات» التي كان يصنعها لهم رجل من أهل مجانة يقال له أبو عبد الله. واستعمل الكتاميون بلا جدوى «الدبابات والأبرجة» لقتالهم، فكانوا يحرقونها من أعلى سور مدينتهم بواسطة القذائف المحرقة ولم يضعفوا «إلا من شدة الجهد وغلبة الجوع عليهم»، فاستسلموا في آخر الأمر، بعدما نفد كل ما لديهم من مؤونة. وفتح الكتاميون المدينة عنوة ونهبوها، وقتلوا هذه المرة كل من كان فيها من المقاتلين وتلك هي القاعدة المعمول بها بالنسبة إلى جميع المدن المفتوحة عنوة بحد السيف. وبهذه الطريقة انتقم الكتاميون أيضاً من التميميين الذين استعبدوهم في الماضي. إلا أنهم ـ إذا صدقنا القاضي النعمان ـ «لم يعرضوا لامرأة حرة». وبعدما غنم الجيش الشيعي جميع خيرات بلزمة وهدم سورها، انصرف إلى إيكجان[62].

معركة دار ملوّل وفتح تيجس[63]:

وبسقوط طبنة وبلزمة كانت سنة 906 سنة نحس بالنسبة إلى الجيش الأغلبي. فقد فتح الكتاميون ثغرة في الحصون الغربية التي كانت تحمي إفريقية،

(60) نفس المصدر.

(61) نفس المصدر، الفصل 21.

(62) نفس المصدر، الفقرة 165.

(63) نفس المصدر، الفصلان 22و 23.

ولم يبق منها سوى حصن باغاية الذي ما زال يسد الطريق الرئيسية الواقعة بين جبال قسنطينة وأوراس والمفضية إلى داخل البلاد عبر تبسة ومجانة وبعد استيلائهم على طبنة وبلزمة، لن يتأخروا عن الهجوم على باغية. ولذلك فقد اتخذ زيادة الله جميع الاحتياطات اللازمة للدفاع عن هذه المدينة. فألف جيشاً يضم اثني عشر ألف رجل وجهزه ومونه بما فيه الكفاية، ثم عين على رأسه هارون الطبني، وأوفده على الأرجح في أواخر خريف 293/906 ليعسكر في باغاية التي كان عاملاً عليها أخوه زيادة الله الطبني. فزاد هارون في عدد الجنود، وأجزل العطاء لقبائل أوراس البربرية، وقام بغارته الأولى على دار ملول التي هي عبارة عن بلدة صغيرة تقع على بعد مرحلة من طبنة وتشتمل على حصن عتيق يحمي كامل المنطقة، وكان أهلها قد دخلوا في طاعة أبي عبد الله، «فخرج إليهم هارون بجميع من كان معه، فقتلهم وهدم حصنهم وانصرف»(64).

ولما وصل إلى «فحص الرياح»(64م) الواقع شمالي جبل أوراس اعترضته كوكبة من الجيش الشيعي تضم ألف فارس، كانوا في مهمة استطلاعية بقيادة غزوية، وهو من أحسن أعوان الداعي، . فلما فوجيء الجنود الأغالبة بالفرسان الكتاميين النازلين من الجبل بسرعة، حاولوا التحصن بجبل أوراس «الذي جعلوه خلف ظهورهم». فهجم عليهم الكتاميون وأرخوا لهم العنان وهزموهم شر هزيمة، «وقُتِل هارون في خلائق لا تحصى»(65). ورجع غزوية منتصراً إلى إيكجان، ومحملاً بغنائم كثيرة. «ولم يصل إلى باغاية من أهل إفريقية إلا أقلهم، وقتل أكثرهم»(66).

وقد جدت هذه الواقعة على الأرجح في ربيع 294/907. وكتب عامل باغاية إلى زيادة الله لإعلامه بذلك الخبر المؤلم. «فجاءه من ذلك غم عظيم»، وقرر اتخاذ الاحتياطات اللازمة ليواجه بنفسه الغزو الشيعي الوشيك الوقوع.

---

(64) نفس المصدر، الفقرة 166.

(64 م) [هكذا في النص الفرنسي وفي الافتتاح (النصّ العربي) «فحص الرماح»].

(65) الاتعاظ، ص 86.

(66) الافتتاح، الفقرة 167.

أما أبو عبد الله فقد قضى بقية فصل الصيف في إحراز الانتصار تلو الانتصار. وقبل الزحف على باغاية رأساً، قرر أن يتوغل بعض رجاله في ناحيتها، وفي المنطقة الواقعة شمالي شرقي بلزمة، في ضواحي قلعة تيجس التي كانت تحرسها حامية تتركب من خمسمائة فارس، بقيادة عبد من عبيد زيادة الله يقال له يعفور[67].

وقد كان يقوم بتلك الغارات رجال من أهل ذلك البلد ينتمون إلى بني معاد، وهم قوم من هوارة بجبل أوراس، كانوا قد تشيعوا في عصر الحلواني، وأقاموا في إيكجان عند الداعي. ونجح أحدهم، وهو المسمى حمزة الملزي، في الهجوم على ساعي زيادة الله وهو في طريقه إلى باغاية، فقتله في «فجّ العرعار» وأخذ رسائله وحملها إلى أبي عبد الله الذي ابتهج بالحصول على أخبار مفيدة بلا عناء، وما لبث أهل تيجس أن أحسوا بثقل الغارات الشيعية. فكتب رئيسهم (ابن ركاب) إلى الداعي ملتمساً منه إخضاع المدينة لسلطته. فأوفد إليها كتيبة من الجنود الكتاميين بقيادة مكتداس الجيملي ولما وصلوا أمام تيجس اعتصم رجال الحامية مع أهل المدينة بالحصن ولم يخرجوا منه، فأقام مكتداس أياماً ثم انصرف.

فأرسل أبو عبد الله عسكراً ثانياً وقدم عليه يوسف بن صقلب الغشمي، فنزل على تيجس فحاصرها، وصالحه أهلها على أن يسمح للجنود الأغالبة بالرجوع إلى إفريقية بأسلحتهم وأمتعتهم، فوافق يوسف على ذلك «ودخل الأولياء تيجس صلحاً، فلم يعرضوا لأحد من أهلها بمكروه وانصرفوا، ومضى إلى أبي عبد الله ابن ركاب وجماعة من وجوهها. فدخلوا الدعوة وانصرفوا إلى بلدهم»[68].

آخر رد فعل أغلبي (907 - 908)[69]:

لقد كان لرجوع حامية تيجس إلى بلادها سالمة، الأثر المحمود لدى أهل

---

(67) نفس المصدر، الفقرة 168.

(68) نفس الصدر، الفقرة 167.

(69) نفس المصدر، الفصلان 24 - 25.

إفريقية، حسب رغبة أبي عبد الله الذي أراد بذلك أن يقيم الدليل مرة أخرى على ما يتحلى به من حلم، وما فرضه على رجاله من سلوك لا تشوبه شائبة. فقد اطمأن أهل المدن والأرياف شيئاً ما، لما بلغتهم أبناء هذا الحلم الذي أظهره الزعيم الشيعي، وأصبحوا لا يشكون في قدوم الكتاميين عما قريب. إلا أن إفريقية قد اهتزت لما انتشر في جميع أرجائها من الهلع الذي أثاره انتظار توافد جحافل الغزاة وهم ينهبون ويقتلون ويعيثون في الأرض فساداً[70].

وفي أواخر صائفة 294/907، أي قبل سقوط تيجس بقليل، أصدر زيادة الله بياناً إلى رعاياه لتهدئة خواطرهم ودعوتهم إلى الهدوء والسكينة. ووجه نسخاً منه إلى كل ناحية من نواحي البلاد وقد أورد القاضي النعمان في افتتاح الدعوة، بالاعتماد على وثيقة مأخوذة من محفوظات الدولة، حسب الاحتمال، نص هذا البيان الذي جاء فيه بالخصوص ما يلي:

«أما بعد فإن الله تبارك وتعالى اسمه، وعزّ وجلّ آله، قد تكفل بالفتح والإعزاز لأهل دينه والذابّين عن سنّة رسوله على من ناواهم، والتمكين ممن انتصب لهم وعاداهم، وممن شاقه ونصب له وبدل دينه وغير سنن أنبيائه.

وقد انتهى معشر المسلمين عن هذا الكافر الصنعاني[71] المبدل لدين الله، المحرف لكتابه المستحل دماء المسلمين بغير حقها، المبيح للفروج بخلاف حلها، مرتكباً للمحارم فيها، الآكل أموالهم مستلباً لها قد عرفتموه فيما انتهى إليكم عنه. فإنه أولى إلى كتامة برابر أغتام[72] وجهّال طغام[73]، فاستزلهم واستهواهم واستغواهم، فدعاهم إلى تبديل دين الله فأجابوه وتحريف سنة رسوله فأطاعوه لجهلهم بالدين والسنّة.

---

(70) البيان، 142 - 143 - 144.

(71) يُستعمل لقب «الصنعاني» في النصوص السنّية بمعنى التحقير، أي الدخيل والغريب والمارق، انظر البيان، ص 137.

(72) أغتام: لا يفصحون في الكلام.

(73) طغام: أوغاد الناس.

ومن أيسر ما ظهر من كفره وانتشر من قبيح انتحاله وأمره فشاعنه، وعرف وأطبق عليه من اتبعه إظهار لعنة أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير.. وجماعة من أخيار الصحابة، ويزعم أن علياً كان يرى ذلك فيهم، ويذهب إليه من أمرهم. وقد برأه الله من ذلك.

ثم شرع شريعة غير شريعة الإسلام، وسن سنّة غير سنّة محمد ﷺ وآله... وافترض على كل امرىء ديناراً سماه دينار الهجرة، ودرهماً زعم أنه دينار الفطرة، وجعل لنفسه حقاً واجباً في أموال الأمة، وهدم المساجد وقطع الصلاة واستخف بحرمة الدين وبان من جماعة المسلمين.

وقد رأى الأمير زيادة الله بن عبد الله رغبة في ثواب الله ربه جهاد الفاسق بنفسه، والقصد إليه بحماة رجاله وأنصار دولته وانتهاز الفرصة فيه قبل أن يسبق إليه. فقد انتهى إلى الأمير أن أمير المؤمنين المكتفي بالله، لما انتهى إليه خبره، أمر بإخراج العساكر إليه من قبله.

والأمير زيادة الله سهم من سهامه وشهاب من شهبه، وما أظهره الله عليه، وأظفره به فهو منسوب إلى أمير المؤمنين وسبب من سببه.

فليحسن بالله ظنكم، وتطمئن بما وعدكم قلوبكم، وليظهر من قلة اكتراثكم بأمر هذا الفاسق، ما يكون دليلاً على ثقتكم بربكم، وانفروا إليه خفافاً وثقالاً كما أمركم الله، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم كما افْتُرِض عليكم.. ولا تفتتنوا في دينكم، وكافحوا عنه من بدله، وتبرؤوا ممن أحدث فيه وغيّره...»(74).

فقرىء هذا البيان على منبر جامع القيروان وفي سائر مدن إفريقية. وقد كان يرمي إلى تشويه سمعة الداعي والإفراط في اتهامه بماكان ينسبه أهل السنّة من تلقاء أنفسهم من جرائم إلى أتباع المذهب الشيعي. إلا أن ذلك لم يمنع من تكاثر الشائعات ضد زيادة الله، ولا من تفاقم الوضع أكثر فأكثر.

---

(74) الافتتاح، الفقرات: 170 - 180.

وبعد ذلك بقليل قدم إلى رقادة في الوقت المناسب رسولاً من الخليفة المكتفي محملاً بهدايا إلى الأمير الأغلبي، وبكتاب يرمي إلى طمأنة أهل إفريقية. إلا أن القاضي النعمان قد شكك في صحة نسبة هذا الكتاب إلى الخليفة العباسي، مؤكداً أن زيادة الله «استعمل رسولاً أظهر أنه جاء من بغداد»[75]. ومهما يكن من أمر فإن صاحب **الافتتاح** قد أورد أيضاً نص هذا الخطاب الذي كُتِبَت منه نُسُخ وقرئت على منابر الجوامع، وهو يتضمن نفس الأفكار الواردة في بيان زيادة الله، أي: حماية الإسلام من البدعة الشيعية، والتنديد بحركة التمرد التي يقودها «عدو الله الخارجي»، والإشارة إلى وجوب طاعة أولي الأمر «التي فرضها الله على المؤمنين من عباده»، والتنويه بالأمير زيادة الله وبولائه لأمير المؤمنين، والحث على أداء فريضة الجهاد[76].

إلا أن هذا الكتاب لم يكن كافياً، مثل الكتاب السابق، رغم صبغته الرسمية وصدوره عن الخليفة، لإرجاع الثقة في نظام عاجز عن الاضطلاع بمهمة الدفاع عن نفسه والتوصل إلى قمع حركة التمرد. فقد أصبح سلوك زيادة الله وتقاعسه محل انتقاد لاذع، «وجعل الناس يتكلمون بهذا ونحوه من الكلام في أسواقهم وشوارع سككهم وحاضرهم وباديهم علانية»[77].

«ولما نظر زيادة الله إلى اختلال أهل البلد عليه وكثرة الأشانيع فيه، أظهر الخروج بنفسه إلى أبي عبد الله وتقدم في الاستعداد لآلات الحرب وشد السلاح والأموال فنادى في البلدان بتوسعة العطاء للرجال والفرسان، وأخرج الحُشاد إلى الأمصاروالأجناد، وتقدم إلى أهل بيته وجميع خاصته ورجاله في الخروج معه، فاجتمعت له عساكر عظيمة، وتسارب الناس إليه لطلب العطاء وجعل يجلس في قبة برقادة يقال لها «قبة العرض» (الاستعراض) وتُصَب الدنانير بين يديه، ويعترض أهل البلدان عليه ويعطيهم العطاء. فإذا مر به من يرتضيه، غرف

(75) نفس المصدر، الفقرة 176.

(76) نفس المصدر، الفقرات 177 - 181.

(77) نفس المصدر، الفقرة 181.

غرفة من الدنانير بصحفة بين يديه نحوا من خمسين ديناراً فيعطيه إياها»[78].

«وأخرج زيادة الله مصون ما كان في خزائنه، من ذخائره وذخائر آبائه من العدة والحلي والخلع. فأظهر ذلك وأعطى منه قواده ووجوه رجاله وأهل بيته.. وعمل بنوداً كباراً منقوشة لم يعمل قبل ذلك مثلها ومضارب منقوشة»[79].

وبعد الانتهاء من هذه الاستعدادات غادر زيادة الله القيران، مصحوباً بعدد كبير من فقهاء القيروان في مطلع سنة 295/ أكتوبر 907 وتوجه إلى الأربس ليقضي بها فصل الشتاء، في انتظار الزحف على بلاد كتامة، وحرصاً منه على إرضاء خاصته، قرر في الأربس ذاتها عزل القاضي المالكي حماس بن مروان وتعويضه بالفقيه الحنفي محمد بن عبد الله المعروف بابن جيمال[80]. ثم غير خطته الحربية، بإلحاح من مستشاريه، فعدل عن الخروج بنفسه إلى إيكجان وعهد بقيادة الجيش إلى ابن عمه إبراهيم بن أبي الأغلب، وكلفه بمراقبة تحركات العدو والذود عن إفريقية بحصر المعنى. ثم قفل راجعاً إلى رقادة مرفوقاً بأهل بيته وخاصة رجاله. ولما وصل أنشأ مراكز للرصد قرب تلك المدينة، خارج باب سلم غربي القيروان، حيث نصب الحراس المسلحون أخبية وأقاموا بها ليلاً نهاراً.

وهكذا قد بادر زيادة الله في آخر الأمر إلى رد الفعل بكل حزم، وعبأ جميع قواه لإيقاف الخطر الشيعي. فاستعادت إفريقية ثقتها شيئاً ما، في حين ظل الجيش مرابطاً في الأربس، في انتظار قدوم العدو، وهو مصمم على الصمود والمقاومة. إلا أن الأخبار السيئة ما لبثت أن وردت على رقادة، معلنة عن استيلاء الكتاميين على باغاية[81].

---

(78) نفس المصدر، الفقرة 182 والبيان، ص 144.

(79) الافتتاح الفقرة 182 والبيان، ص 140.

(80) الافتتاح، الفقرة 183.

(81) البيان، ص 144.

فتح مدينة باغاية[82]:

لقد كان أبو عبد الله مطلعاً اطلاعاً جيداً على تطور الوضع في إفريقية، بواسطة جواسيسه بلا شك، بل ربما أيضاً بواسطة بعض كبار رجال الدولة المخلصين لقضيته، ومن بينهم ابن الصائغ ذاته صاحب البريد، فترك ابن أبي الأغلب يواصل إقامته في الأربس من غير قتال، وقبل أن يزحف إلى وسط البلاد ليتبارى مع خصمه في صراع يبدو أنه سيكون حاسماً، بقي عليه أن يضمن لنفسه التحكم في باغاية ومجانة وتبسة، وغيرها من المدن المحصنة التي ما زالت تحول بينه وبين طرق المرور، انطلاقاً من الهضاب العليا الشرقية في ناحية قسنطينة إلى منطقة التل الأعلى الجبلية. وقد كانت العملية الأولى التي قام بها في ربيع 295/908 موجهة ضد باغاية. ولكنه ضمن لنفسه قبل ذلك استعداد أهل تلك المدينة للدخول في طاعته، من خلال العروض الكتابية التي قدموها إليه بواسطة بعض أتباعه من أصيلي المدينة، من بينهم ابن المزيلي وعبد الله الردم وحمود القصير[83]. فتمكن من الاستيلاء على باغاية بلا قتال، بعدما أعطى أهلها الأمان. ثم عوض عاملها الذي لاذ بالفرار إلى الأربس بمساعدة ماكنون بن ضبارة، وترك بها حامية تتركب من خمسمائة فارس وقفل راجعاً إلى إيكجان [84]. «واتصل الخبر بزيادة الله فاغتم وخاض أهل إفريقية فيه، وكثرت الأشانيع وجمع زيادة الله إليه من يشاوره من رجاله، فشاورهم في ذلك، فقال له بعضهم: اكتب إلى ابن الأغلب بالنزول إلى باغاية ومحاصرتهم، فلعلهم يسلمون من بها إليه. قال عبد الله بن الصائغ: ما هذا وجه الرأي! ولو نزل ابن أبي الأغلب على باغاية لينفرن إليه أبو عبد الله في جميع كتامة، فإن قاومه لم يؤمن عليه، وإن تنحى من بين يديه كانت هزيمة ولم يؤمن من أن يتبعه، وإن اتبعه لم يؤمن أن ينحل العسكر. ولكن الرأي مقام ابن أبي الأغلب مكانه: فإن زحف الشيعي إلى غير باغاية عاجله قبل أن يصل إلى الموضع الذي يريد إليه.

---

(82) الافتتاح، الفصل 26.

(83) نفس المصدر، الفقرة 185.

(84) نفس المصدر.

ولو فعل هذا قبل أن يصل إلى باغاية، أو سبقه إليها، لكان ذلك رأيا. ولكن لما صار أهل باغاية معه، وفيها عامله وعسكره، وهي حض حصين، وهو منها بالقرب، فليس لزحف ابن أبي الأغلب إليه وجه»[85].

فاقتنع زيادة الله بهذه الحجج التي هي في حد ذاتها صائبة، واقتنع أكثر من ذلك بتسلية ندمائه الذين عمدوا إلى التخفيف من همومه بالانهماك معه في الملاهي والملذات. وأمر قائد جيشه ابن أبي الأغلب «بأن لا يتحرك من مكانه إلا لأمر مهم لا بدّ منه»[86].

الغارات الشيعية على مجانة ونواحيها مما يلي الأربس (296 - 908)[87]:

أما العملية العسكرية الثانية التي جرت في سنة 908/296، فقد قام بها الداعي ضد مجانة، على الأرجح في أول فصل الصيف. ذلك أنه لما رأى الجيش الأغلبي لا يحرك ساكناً، اكتفى بتوجيه أحد مساعديه، وهو أبو مديني، على رأس فرقة تضم نحو ألف فارس.

«فأخذوا على باغاية وخرجوا منها يريدون مجانة. فلما قربوا منها خرج عليهم خفاجة العبسي فيمن معه من الرابطة (الحامية) من أهل مجانة، فقاتلهم بقرب المدينة إلى أن حجز بينهم الليل. ونزل الأولياء على وادي مجانة (وادي ملاق) فباتوا. فلما أصبحوا أتوا المدينة، فاحتصر خفاجة ولم يخرج إليهم. فساروا إلى ناحية قلعة مجانة (= قلعة بسر)[88] فانتهبوا تلك المنازل وانصرفوا إلى أبي عبد الله بإيكجان»[89].

«ثم جرد (أبو عبد الله) خيلاً أيضاً وقدم عليهم أبا مديني وأمره أن يقصد

(85) نفس المصدر، الفقرة 186.

(86) نفس المصدر، الفقرتان 187 - 188.

(87) نفس المصدر، الفصل 27.

(88) نفس المصدر، الفقرتان 189 - 190. يتعلق الأمر بالقائد العربي بسر بن أَرْطَأَة الذي استولى على تلك القلعة، انظر بالخصوص البكري ص 145.

(89) نفس المصدر، الفقرة 189.

مجانة. فلما انتهوا إلى باغاية اتصل بهم أن أهل مجانة تقلعوا إلى قلعة بسر، فأخذ أبو مديني بالعساكر على تبسة ثم ناحية مجانة.. وأخذ على جبل المطاحن (جبل ونزة الحالي) وقصد ملزوزة، بيتاً من نفزة بقرب مجانة، وكانوا على خيولهم ورفعوا الأموال والعيالات والضعفاء إلى القلعة، فاتصلت بهم الصيحة، فخرج بمن معه. فوافاهم أبو مديني بالجبل، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقُتِل خفاجة وجماعة معه ولجأ الباقون إلى القلعة... وانصرف العسكر إلى أبي عبد الله فوصلوا إلى إيكجان»(90).

وجرت العمليتان المواليتان خلال الفترة ذاتها وأسفرتا عن نفس النتائج الإيجابية. فقد استغل الداعي المعركة الطاحنة التي داربت بين كرناية (90م) وبين أهل قصر الإفريقي، فوجه إلى ناحية وادي مجردة العليا شمالي شرقي مجانة فرقة من الجيش بقيادة أحد مساعديه المسمى أحمد بن سليمان السكتاني.

«فوصل إلى قصر الإفريقي فقاتلهم، فانهزموا بين يديه، فاتبعهم بالقتل حتى وصلوا إلى طبراشق، فانتهب منازل مكلاته وبني عمرو (التي لا تبعد كثيراً عن تيفاش) وانصرف إلى إيكجان»(91).

«وكان إسحاق بن سلاس عاملاً لزيادة الله على تيفاش. فلما رأى عسكر أبي عبد الله وصل إليه ولم يتحرك ابن أبي الأغلب من مكانه، خاف أن يعود عليه. فلحق بأبي عبد الله وخلّى تيفاش».

وعندئذٍ استطاع الداعي استمالة رجلين من وجوه أهل تيفاش بواسطة شيعي قديم التشيع، كان يأتيه بأخبار البلد. فاقترحا عليه توجيه عسكر لاحتلال تيفاش التي استعمل عليها زيادة الله قبل حين رجلاً من أهلها يقال له حبيب بن ليفة، ليقوم مقام العامل الفار. فعهد أبو عبد الله بهذه المهمة إلى صولات بن القاسم السكتاني، «وكان من الدعاة، وكان عدة من خرج معه خمسمائة فارس.

(90) نفس المصدر، الفقرة 190.

(90 م) وهي من القبائل الخارجة من صلب زناتة.

(91) الافتتاح، الفقرة 191.

فاتصل الخبر بحبيب بن ليفة، فخرج هارباً إلى الأربس. ووصل صولات إلى تيفاش، فتلقاه أهلها واستأمنوا إليه فأمنهم ودخلها وأقام بها»[92].

وما لبث صولات أن استمال أهل قالمة ورئيسهم خلفون بن مهدي[92م]، فوجه إليهم مساعده واكليد بن سنبل في ثلاثمائة فارس، وانضمت إليه جماعة من بني ورديم وبني هراش، فحثهم على التحول إلى إيكجان[93].

«واتصل بإبراهيم بن أبي الأغلب أنه لم يبق بتيفاش غير مائتي فارس، فزحف إليها في اثني عشر ألف فارس وما لا يحصى من الرجالة.. فلم يشعر صولات ومن معه من الأولياء بتيفاش حتى أظلتهم العساكر». فاضطر إلى الانسحاب والتقهقر إلى الوراء، واحتل ابن أبي الأغلب تيفاش من جديد.

«ومضى صولات بمن معه إلى قالمة، فاجتمع مع واكليد ومن معه من الخيل وأرسلوا إلى أبي عبد الله بالخبر، فأمرهم بالانصراف، فانصرفوا إلى إيكجان»[94].

وتمثلت آخر عملية عسكرية قام بها الداعي في صائفة 908، في الحملة التي وجهها ضد ناحية بونة لمحاربة الأوْرَبَة الذين خرجوا عليه وقتلوا مقدمهم الشيعي خليل الأورابي، فانقسم الكتاميون إلى ثلاث فرق عسكرية، «وشنوا الغارات على أوربة، فقتلوا كل من مروا به، وغنموا أموالهم وانصرفوا بالغنائم إلى إيكجان»[95].

غزو إفريقية: الهجوم الأول وواقعة دارمدين (صائفة 908/ أواخر 295)[96]:

لقد انتهت حينئذٍ غارات صائفة 908 بتقويض خط الدفاع الأغلبي المطابق

---

(92) نفس المصدر، الفقرة 192.

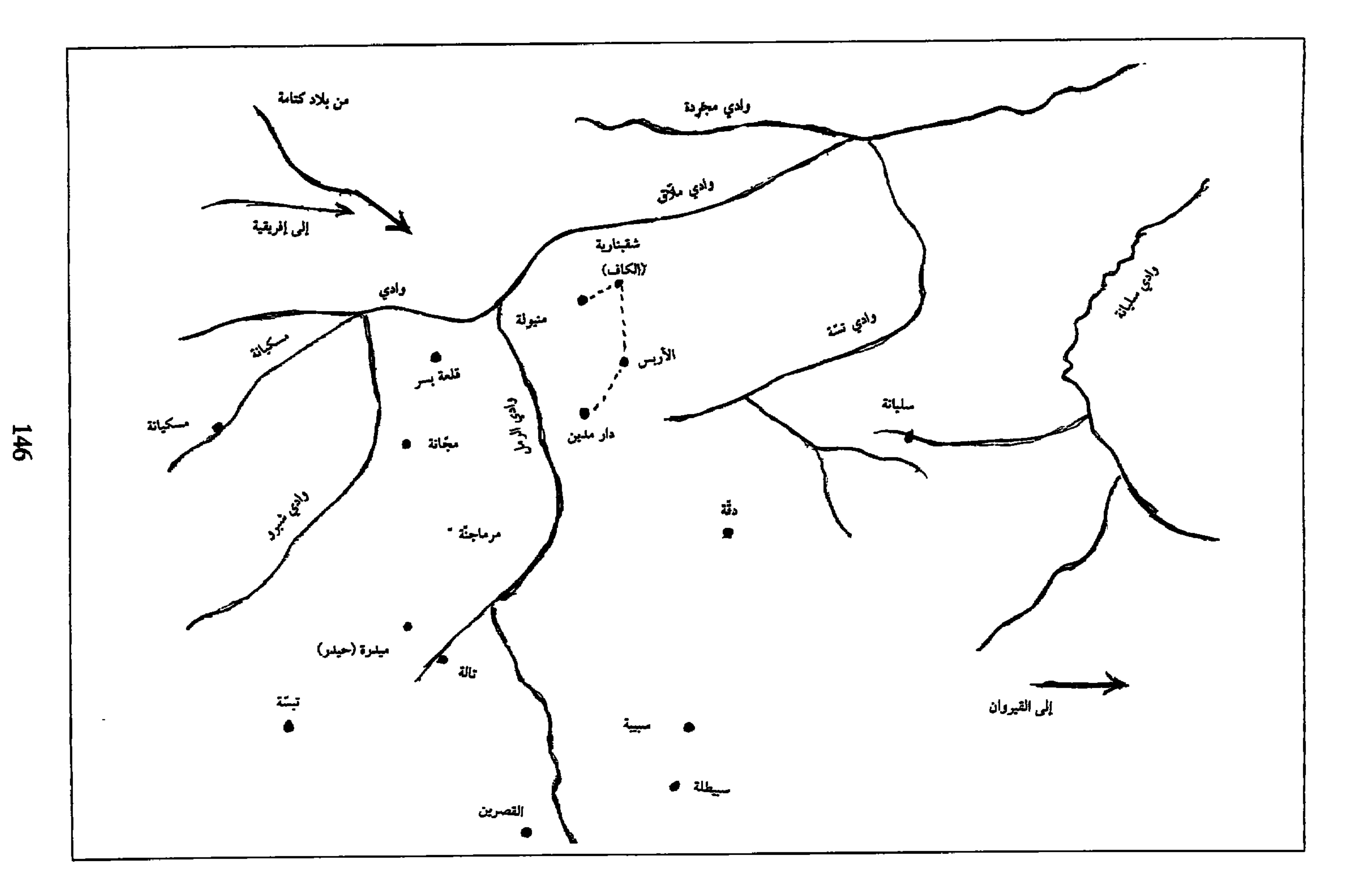
(92 م) [هكذا في النص العربي، وفي النص الفرنسي «بن يحيى»].

(93) الافتتاح، الفقرة 193.

((94) نفس المصدر، الفقرة 194.

(95) نفس المصدذر، الفقرة 195.

((96) نفس المصدر، الفصل 28.


من بلاد كتامة
إلى إفريقية
وادي مجردة
وادي ملاق
شقبنارية
(الكاف)
وادي
منيولة
الأربس
دار ملين
وادي تسة
وادي سليانة
سليانة
مسكيانة
مسكيانة
قلعة بسر
مجانة
وادي الرمل
وادي شبرو
مرماجنة
دقة
ميدرة (حيدرة)
تالة
تبسة
سبيبة
سبيطلة
القصرين
إلى القيروان

لحدود العصور القديمة والذي كان يحمي المملكة الأغلبية من بربر الغرب [97] فأصبح الطريق المؤدي إلى رقادة مفتوحاً، ولم يبق سوى تذليل العقبة الأخيرة المتمثلة في وجود جيش ابن أبي الأغلب في الأربس. ولم يتجاسر أبو عبد الله المتسم بالحذر على اقتحام هذه العقبة دفعة واحدة. فاضطر حينئذٍ إلى غزو إفريقية بحصر المعنى على ثلاث مراحل متتالية، تبلغ مدتها حوالي سبعة أشهر[98].

وأثناء الهجوم الأول الذي جرى في أواخر صائفة 908، سعى الداعي إلى الوصول إلى القيروان عن طريق قمودة، محاولاً جر خصمه إلى تلك الناحية[99]. فخرج مع جيشه على سبيل التقريب في شهر ذي القعدة/ أغسطس 908. «فوصل إلى باغاية وسار حتى أتى مسكيانة، ثم مال إلى تبسة وخرج منها. فأتى ميدرة[99م]، وهي حصن حصين، فأصاب بها بقايا من قصر الإفريقي وأهل مجانة والقلعة (قلعة بسر) وتبسة ومرماجنّة وأخلاط من الناس أووا إليها وتحصنوا بها. فنزل بها وأصابته علة شديدة من الحصاة التي كانت تعتريه، فاشتغل بنفسه[100]. وأغلق أهل ميدرة أبوابهم ووقفوا على السور يسألون الأمان، فأعطاهم الأمان بعض العسكر من قبل نفسه، ففتحوا لهم الباب، فلما دخلوا عليهم وتوسطوا المدينة وضعوا السيوف على من فيها، وانتهبوها. فبلغ ذلك أبا عبد الله، فاغتم لذلك وخرج بنفسه»[101] وأمر المشائخ بتدارك تلك الأخطاء ومعاقبة المذنبين.

«وارتحل أبو عبدالله من ميدرة، فنزل على القصرين من قمودة، واحتصر

(97) انظر الباب الثالث من القسم الثاني: النظام العسكري.

(98) انظر Vonderheyden، ص 308 - 310.

(99) انظر حول دور الخيالة في الحرب، الباب الثالث من القسم الثاني: الحملات العسكرية.

(99 م) ميدرة: اسمها باللاتينية أميدرة وتعرف اليوم باسم حيدرة، وهي تقع اليوم في البلاد التونسية قرب تالة والحدود الجزائرية.

(100) الافتتاح. الفقرة 196.

(101) انظر حول سلوك الداعي المتسامح في طبنة، نفس المصدر، الفقرة 164.

أهلها وسألوه الأمان، فأمنهم وأمرهم أن لا يفتحوا باب مدينتهم لما كان من أمر ميدرة. فكانوا يبايعون العسكر من فوق الحصن. وأظهر أبو عبد الله الغضب على أصحابه، وإنكار ما كان منهم إلى أهل ميدرة، وكثر اغتمامه به، واتصل به ما كان الكلام في ذلك بإفريقية، وبأن زيادة الله كتب كتباً فقرئت على المنابر بذلك»[102].

«واتصلت الأخبار بابن أبي الأغلب أن أبا عبد الله يريد أن يضرب على زيادة الله برقادة، وأنه انتهى إلى القصرين، فخرج ابن أبي الأغلب من الأربس بجميع عسكره، فنزل دار مدين. فاتصل بأبي عبد الله ذلك وهو بالقصرين، فأمر بإخراج ألفي فارس إلى ناحية دار مدين لاختبار أمر ابن أبي الأغلب. فانتهوا إليها، فوافاه بها وناشبوه القتال، وقتل جماعة من الأولياء».

«واستبطأ أبو عبد الله خبرهم، فعبأ العساكر وسار نحوهم، فبينما هو يسير إذ وافاهم، وقد انهزموا متفرقين في الوعر والشعراء»[102م].

فقفل راجعاً إلى القصرين، ثم أوقف عملياته الحربية وعاد إلى إيكجان»[103]. «وانصرف ابن أبي الأغلب إلى دار مدين، وكتب إلى زيادة الله بالخبر، وأنه قد هزم أبا عبد الله وقتل عسكره، وزاد في القول. فزاد في ذلك زيادة الله وكتب السجلات إلى البلدان بذلك، وقرئت على المنابر. وكان ذلك هدأ من الشناعة عليه وقطع كثيراً من قول الناس فيه»[104].

«وعاد ابن أبي الأغلب إلى الأربس، فصار إليه بنو وشنو وبنو صدغيان من بني هراش، بعد أن كانوا دخلوا طاعة أبي عبد الله. واتصل ذلك بأبي عبد الله، فأخرج إليهم عسكراً وقدم عليهم غزوية بن يوسف وأبا مكدول فتسللا بالعسكر حتى وصلا إلى قصر الإفريقي فأصاباه خالياً. فانتهيا إلى طبراشق فباتا بها، وبنو

---

(102) نفس المصدر، الفقرة 197.

(102 م) الشعراء: الأرض الكثيرة الأشجار.

(103) الافتتاح، الفقرة 198.

(104) نفس المصدر، الفقرة 199.

وشنو بقربهم، فكمنوا دونهم ولم يوقدوا ناراً، ثم أصبحوهم مع الصباح، فقتلوهم قتلاً ذريعاً. . .».

ثم انصرفوا إلى قالمة قبل أن يلتحق بهم عسكر ابن أبي الأغلب بقيادة ابن الهمداني، وقد جاؤوا إلى تلك الناحية لمعاقبة بني ورديم الذين انضموا إلى الشيعة. ولما علم أبو عبد الله بتحركات العدو، أرسل لنجدة بني ورديم خمسمائة فارس، فأعانوهم على صد المغيرين.

«ثم نافق إلى ابن أبي الأغلب بنو ماجن من هوارة كادران. فاتصل خبرهم بأبي عبد الله، فأخرج إليهم عسكراً من جيملة وأجانة، وقدم على الجيمليّين أبا مكدول وعلى الأجانيين أبا يوسف ماكنون بن ضبارة، فوصل العسكر إليهم، فقتلوهم وغنموا أموالهم»[105].

الهجوم الثاني: فتح قسطيلية وقفصة (خريف 296/908)[106]:

لم يستطع الداعي حينئذٍ الإشراف بنفسه على العمليات الحربية بتلك البراعة الفائقة التي أظهرها من قبل، وذلك بلا شك بسبب المرض الذي ألم به. بل إن تجاوزات جنوده في ميدرة والهزيمة التي منوا بها، قد أساءت إلى سمعته. وقد نجت رقادة من خطره وتقبلت بغاية الابتهاج خبر مرضه، وانتشر حتى خبر موته إثر تقهقره[107].

ولم يبق أبو عبد الله مدة طويلة بإيكجان. فلم تمض أكثر من ثلاثة أو أربعة أسابيع حتى شن هجومه الثاني. واجتنب مرة أخرى مواجهة ابن أبي الأغلب، محاولاً هذه المرة الوصول إلى القيروان عن طريق الجنوب[108]. فخرج من إيكجان في أوائل سنة 296/ أواخر أكتوبر 908، متوجهاً إلى قسطيلية. ولما وصل إلى باغاية التحق به عامله على طبنة يحيى بن سليمان

(105) نفس المصدر، الفقرتان 200 - 201.

(106) نفس المصدر، الفصل 20.

(107) نفس المصدر، الفقرة 199 والبيان، ص 145.

(108) انظر الافتتاح، مقدمة المحقق: غزو إفريقية وسقوط الأغالبة.

وأخبره بالكمين الذي نصبه بعض الزناتيين لجماعة من الشيعة كانوا راجعين من مهمة قاموا بها لدى المهدي في سجلماسة. ففكر أبو عبد الله في قطع حملته العسكرية والتوجه إلى معاقبة الزناتيين. ثم عدل عن مشروعه استجابة لنصائح المشائخ، وواصل طريقه إلى أن بلغ قسطيلية(109) فانسحب عاملها أبو مسلم منصور بن إسماعيل وقائد حاميتها شيب بن أبي الشداد إلى توزر بعدما أبديا مقاومة خفيفة. ونهب الكتاميون ضواحي المدينة التي استسلمت في آخر الأمر وطلبت الأمان.

«فأخذ أبو عبد الله ما كان بها من الأموال لزيادة الله ورجاله. وسار فنزل على قفصة وسأله أهلها الأمان، فأمنهم. وأخذ أيضاً ما كان لزيادة الله من الأموال عندهم (محصول الجباية). وانصرف فأتى إلى باغاية. فخلف بها أبا مكدول، في خمسمائة فارس. وحضر (توفي) محمد بن غزوية بها، فتخلف عليه (خلفه) أبوه غزوية ومعه خمسون فارساً من ملوسة ومضى أبو عبد الله بالعساكر حتى وصل إلى إيكجان» (110).

وقد كانت هذه الحملة أقصر من الحملة السابقة، ولكنها أسفرت عن نتائج أحسن، إذ أنها محت الإهانة التي تعرض لها جنود الداعي في دار مدين، وبعثت الهلع في إفريقية. ولئن لم يشأ أبو عبد الله مواصلة تقدمه خارج حدود قفصة، فإنه أنجز على الأقل عملية مثيرة للانتباه، مقيماً الدليل على أنه ما زال حياً يرزق، وله من القوة ما يسمح له بإرباك خصمه بل حتى باقتحام رقادة.

وفوق ذلك فإن النتائج التي أحرزها كانت مرضية، بفضل الأموال الطائلة التي استحوذ عليها في قسطيلية وقفصة. أضف إلى ذلك أن فصل الخريف قد أوشك على النهاية، وأن فصل الشتاء لا يسمح له بشن المعركة الحاسمة. وبناءً على ذلك فإن رجوعه إلى إيكجان لم يكن سوى مهلة(111).

(109) نفس المصدر الفقرة 202.

(110) نفس المصدر، الفقرتان 203 - 204.

(111) انظر البيان، ص 145.

وقد أدرك القائد الأغلبي هذه الاعتبارات إدراكاً تاماً. فقد فوجىء في أول الأمر بتحرك خصمه في اتجاه قسطيلية، وكان يتأهب للتوجه إليه ليقطع عليه طريق رقادة، لما بلغه أنه رجع إلى قواعده ولم يترك سوى حامية ضعيفة في باغاية، ولذلك فقد رأى الوقت مناسباً للقيام بعملية كان يفكر فيها منذ الربيع، ألا وهي انتزاع تلك القلعة من أيدي العدو. فخرج من الأربس في شهر ربيع الأول/ ديسمبر متوجهاً إلى باغاية بجميع عساكره(112).

«وأرسل أبو مكدول رُسلاً إلى أبي عبد الله؛ فلما وصلوا أمر في الوقت بضرب الطبول وتصايح كتامة ففاضوا من كل جانب، وعلوا السهل والوعر مبادرين إلى باغاية»(113). واضطر الداعي إلى التوجه إلى منازل بني سكتان لاعتراض حشود أتباعه المتوافدين في اتجاه باغاية. ذلك أنه كان حريصاً دوماً وأبداً على تجنب إرسال جميع رجاله لمواجهة الجيش الأغلبي في سفح جبل أوراس، وفضلاً عن ذلك في بداية فصل الشتاء. إلا أنه كان يأبى التفويت في تلك القلعة التي يمثل سقوطها ضربة قاضية موجهة إليه، إذ أن ذلك من شأنه أن يغلق طريق المرور إلى إفريقية في وجهه ويسمح لخصمه ـ وقد تسنى له تقدير قوة شكيمته في دار مدين ـ بتركيز رأس جسر للقيام، حسب مشيئته، بهجوم مضاد عند حلول فصل الربيع.

«فتخير أبو عبد الله اثني عشر ألف فارس وقدم عليهم أبامديني وقال له: «إن لحقت بباغاية فقاتلوك دونها، فاحمل نفسك عليهم. . . ولا يردك راد عن الوصول إلى باغاية. وإن أصبتهم قد انصرفوا أو قاتلتهم فانهزموا فلا تجاوز فج العرعار»(114).

وفي انتظار وصول هذه الإمدادات تصدى أبو مكدول ورجاله أمام أسوار المدينة لغارات الجيش الأغلبي، بمساعدة ثلاثمائة فارس من مدغرة،

(112) الافتتاح، الفقرة 205.

(113) نفس المصدر.

(114) نفس المصدر.

بقيادة حارث المدغري. فتمكنوا من الصمود من أول النهار إلى آخره بفضل شجاعتهم وبطولة رجلين من أتباع أبي عبد الله غـزوية ورجاء ابن أبي قتّة. فلما قرب المساء رجع ابن أبي الأغلب إلى معسكره بالقربات، في حين نصب أبو مديني معسكره بكرشة في الناحية الأخرى من باغاية. إلا أن القائد الأغلبي الذي أوهن عزيمته صمود القلعة غير المتوقع، ووصول الإمدادات، قد أمر جنوده بالانسحاب إلى الأربس قبل طلوع الصباح فلاحقهم أبو مديني ورجاله حتى انتهوا إلى فج العرعار، ثم قفلوا راجعين، تطبيقاً لتوصيات أبي عبد الله فانصرف أبو مديني إلى إيكجان ومعه أبو مكدول وغزوية، وترك في باغاية عاملها ماكنون بن ضبارة مع الحامية التي كانت معه[115].

الهجوم الثالث: معركة الأربس (909/296)[116]:

رغم وصول أبي عبد الله، إثر المعركتين السابقتين، إلى موضع لا يبعد سوى بضع مراحل عن رقادة، فإنه اجتنب المواجهة العامة مع خصمه، كما أسلفنا. إلا أن تقدّمه في اتجاه تلك المدينة لا يمكن أن يبلغ غايته إلا بتحطيم السدّ الذي أقامه ابن أبي الأغلب في طريقه. فلا بد حينئذٍ من حصول الاصطدام النهائي بين الكتاميين بمجرد استئناف القتال مع حلول الربيع. ولذلك فقد أنهى الـداعـي استعـداداتـه العسكـريـة لشـن حملتـه الأخيـرة قبـل نهـايـة شتـاء 909 908/296[117].

ولما أتم استعداداته خرج من إيكجان على رأس جيش جرار أول جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائتين. فنزل مدينة باغاية واستعرض جنوده وأحصاهم «فبلغوا مائتي ألف بين فارس وراجل». ثم انطلق في اتجاه الأربس التي بعث إليها زيادة الله «من العساكر ما لا يحصى عدده إلا الله».

«وسار أبو عبد الله من باغاية حتى انتهى إلى مسكيانة. فأخذ مع الوادي

---

(115) نفس المصدر، الفقرتان 205 - 206.

(116) نفس المصدر، الفصل 30.

(117) نفس المصدر، الفقرة 207.

(وادي مسكيانة) حتى خرج إلى وادي مجانة (وادي ملاق). ثم خرج على مرماجنة إلى وادي الرمل ونزل عليه. وأخرج خيلاً إلى منيولة يوم الخميس لثمان بقين من جمادي الآخرة (16 مارس) فانتهبوبها، ثم أصبح من غدٍ يوم الجمعة، فأخرج خيلاً إلى شقبنارية [118]، فوافتها قبل نصف النهار، فقاتلوهم إلى وقت العصر، ثم نزلوا إليهم على الأمان».

«وكان أبو عبد الله قد أخرج ذلك اليوم جرائد الخيل فضربت جريدة منها إلى بني جودان، فوافتها خيل كثيرة لابن أبي الأغلب، فقاتلوهم، فأُسِرَ رجل من الكتاميين، فأتوا به إلى ابن أبي الأغلب فأمر بقتله، فقتل»، رغم توسل رئيس هوارة محبوب بن عبدون[119].

«ثم أصبح أبو عبد الله لست بقين من جمادى الأخرى (السبت 18 مارس)، فميز العساكر (استعرضهم) وعبأها، فجعل في الميمنة بني نبطاش، وفي الميسرة بني يناوة، وفي القلب ملوسة ومسالتة. وانتقى عشرة آلاف فارس من الدعاة ووجوه القوم وأهل النكاية، فجعلهم معه وزحف إلى الأربس. فأصاب ابن أبي الأغلب قد عبأ عسكره (على طول الفحص المحاط بجبال زعفران والأربس ومعيزة وفاهة) فالتحم القتال. ووقف أبو عبد الله بعشرة آلاف فارس على كدية مطلة على المدينة. وانتشر القتال في الفحص، وأخذ الناس بعضهم بعضاً، وكانت معارك عظيمة ومواقفة شديدة، وقتل من الفريقين خلق كثير، وأقام القتال بينهم من أول النهار إلى وقت صلاة العصر وكلح أصحاب ابن أبي الأغلب، ولم يكن بقي بإفريقية ونواحيها وأطرافها من عربها وبربرها ورجال زيادة الله أحد مذكور إلا وكان مع ابن أبي الأغلب»[120].

«فنظر أبو عبد الله إليهم قد شقوا على أصحابه وأحس من أصحابه بعض الفشل وخاف عليهم الهزيمة، فقال لمن حوله من المشائخ. تنَقَّوْا من الرجالة من

(118) شقبنارية: اسمها باللاتينية «سكة فنارية» وتعرف اليوم باسم «الكاف».

(119) الافتتاح، الفقرة 208.

(120) نفس المصدر، الفقرة 209.

قدرتم عليه من خيارهم وابعثوهم يأخذون في هذه المسيلة ـ مسيلة تعرف بالمضارة ـ يستترون فيها حتى يضربوا في الخيل لعلهم أن يحركوهم. فانتقوا من الرجال خمسمائة وسبعين رجلاً من أشد من قدروا عليه. فتعروا عراة، وأخذ كل واحد منهم من رمحين ودرقة ومشوا في المسيلة. واتفق أن كان ابن أبي الأغلب قد رأى مثل ذلك الرأي، ودبر مثل ذلك التدبير، وأخرج رجالة من قبله في تلك المسيلة، فوافق بعضهم بعضاً في موضع يعرف بالغرة البيضاء بقرب جنان لوز على طريق الأربس إلى شَقْبَنَارِيَّة. فوافق أول رجل طلع من الكتاميين أول رجل طلع من أصحاب ابن أبي الأغلب وتقايسا بالرماح. وحمل كل واحد منهما على صاحبه. فقتل الكتامي الخارج إليه من أصحاب ابن أبي الأغلب، فانهزموا وقامت الصيحة فيهم. فانهزمت عساكر ابن أبي الأغلب وداخلت خيلها رجالة أبي عبد الله وحملت خيله عليهم، فولوا منهزمين، وقصد كل قوم منهم إلى جهة بلدهم»(121).

«وأخذ ابن أبي الأغلب ومن معه من رجال زيادة الله وأهل إفريقية على جبل الحراقين (جبل معيزة) وأخذت لواتة وكرناية ومكلاتة على طريق حشر ممِّس. وأخذ عامة العبيد وخلط الناس من أهل إفريقية طريق القيروان، وأخذ محبوب بن عبدون مع هوارة ونفزة على بني بشير. واتبعهم الأولياء بكل ناحية يقتلونهم ويأسرونهم ويغنمون ما معهم. وقصد قوم منهم إلى المدينة فقتلوا بها من وجدوه وانتهبوا ما قدروا عليه إلى أن غربت الشمس ودخل الليل، فانصرفوا إلى مناخهم فباتوا فيه. وأصبح أبو عبد الله (يوم الأحد 19 مارس)، فأمر بقصد مدينة الأربس. وذلك أن أهلها أضرموا ناراً واحتصروا مع ابن أبي الأغلب، فدخلها الأولياء بالسيف، فقتلوا بها من الخلق ما لا يحصى، وانتهبوا ما بها»(122). ولم يسلم من القتل حتى الناس الذين التجأوا إلى المسجد (123).

---

(121) نفس المصدر، الفقرة 210.

(122) نفس المصدر، الفقرة 211.

(123) البيان، ص 146 - 147.

ورغم الهزيمة النكراء التي ألحقها الداعي بالقائد الأغلبي، فإنه لم يبادر إلى ملاحقته. ذلك أنه كان يعرف معرفة جيدة الوضع السائد في إفريقية، ويعلم حق العلم أن زيادة الله ما زال يتصرف في موارد كافية لإعادة تنظيم جيشه والدفاع عن عرشه. ولا بدّ أنه كان يتوقع أن لا يستسلم الأمير بسرعة، بل كان يخشى استعمال خصمه لأسطوله العتيد للانسحاب إلى صقلية، أو الصمود وتوجيه الإمدادات إلى سوسة وتونس، وليس هناك تفسير آخر لتباطؤ الداعي أو تحوله نحو الجنوب في اتجاه قمودة بعد انتصاره الأخير. «فقد انصرف أبو عبد الله بجميع العساكر يوم الاثنين (20 مارس)، فأخذ على دقة يريد إلى قمودة والناس يقولون يريد قسطيلية»[124] ومن الواضح أنه لم يستعجل في الزحف على رقادة.

هروب زيادة الله وسقوط الدولة الأغلبية [125]:

«ووصل خبر الهزيمة إلى زيادة الله يوم الأحد بعد صلاة الظهر.. وكان قد تقدم في شدّ جميع أمتعته واستعد للهرب. فلما أتاه خبر الهزيمة أظهر أنه جاءه الفتح، وأرسل إلى السجن فجاء برجال منه فضرب أعناقهم واحتز رؤوسهم وأمر أن يطاف بها بالقيروان وبالقصر القديم. وأخذ في ضم حوائجه ورفع ثقله وأمواله، وأرسل إلى خاصة رجاله وأهل بيته فأنذرهم بالخروج معه وعرفهم ما جاءه من الخبر، فأشار عليه ابن الصائغ بالمقام وقال له: العساكر تجتمع إليك، فأظهر العطاء يأتك الناس، وليس يجسر الشيعي أن يقتحم عليك، فلا تدع ملكك، فقد حارب زيادة الله جدك (زيادة الله الأول) إفريقية كلها وقد أجمع أهلها من القصر القديم، وأنت في قوة من أهل بيتك وخاصتك، فلا تفرق جماعتك ولا تخسر ملكك وتثبت، فلم يقبل منه»[126].

وفي تلك اللحظات الحرجة لم يكن الأمير مستعداً لقبول مثل تلك

---

(124) الافتتاح، الفقرة 211.

(125) نفس المصدر، الفصلان 31 - 35.

(126) نفس المصدر، الفقرة 212.

النصائح التي عوض أن تحرك مشاعره وتشجعه، قد أغضبته وزادت من هلعه. وأيقن أن وزيره الذي كانت تحوم حوله شكوك قوية، قد كان يكاتب المتمرّد سرياً، بل ظن أنه قد دبر له مكيدة، ولامه لوماً لاذعاً. «فاعتذر إليه ابن الصائغ وتبرأ مما قيل فيه وأمسك عنه».

«وأخذ زيادة الله في شد الأموال ونفيس الخلع والجوهر والسلاح وما خف من الامتعة، وواعد من حضر من رجاله الليل وانصرف كل واحد منهم يحمل ما يريد حمله، وخافوا على أنفسهم القتل إن تخلفوا بعده. وحمل من يعز عليه من الجواري وأمهات الأولاد وبنيه وبناته، وانتخب من عبيده الخدم الصقالبة ألف خادم، وجعل على وسط كل واحد منهم منطقة فيها ألف دينار، خوفاً من أن يلحق أحمال أمواله، وشد باقي الأموال أحمالاً»[127].

وقد أشفق الأخباريون على مصير هذا الأمير المسكين الذي اضطر إلى الهروب في جنح الظلام، وتسابقوا إلى وصف مغامرته المؤلمة وصفاً مؤثراً. فأشاروا إلى تلك الجارية الجميلة التي كانت تغني على إيقاع العود أنغاماً مفعمة بالأسى والحب، وعيناها باكيتان وقلبها ممزق. ووصفوا الأمير الكريم، وقد تأثر إلى حد البكاء، فأنزل حملاً من الذهب، ووضع المركوب على ذمة المغنية الشابة. وأشاروا أخيراً إلى خروج القافلة على ضوء المشاعل، «والمؤذن يؤذن بصلاة العشاء الآخرة».

خرج زيادة الله حينئذٍ من رقادة ليلة الاثنين، «فأخذ إلى قلشانة جادة طريق مصر». وستكون رحلته طويلة ومرفوقة بمغامرات شاقة، وستنتهي على نحو مثير للرثاء. فقد توقف الأمير المخلوع في طرابلس وقضى بها عدة أيام، ثم واصل طريقه إلى أن بلغ الفسطاط. ولم يتمكّن من دخولها إلا بشقّ الأنفس. ولكنه لم يمكث فيها إلا أسبوعاً واحداً، بسبب خصومته مع عاملها النوشري وصاحب الخراج ابن بسطام. فتوجه إلى الرملة والتحق به أصحابه الذين تخلفوا عنه. ثم

---

(127) نفس المصدر، الفقرة 213.

سار إلى الرقة، ومنها وجه رسالة إلى ابن الفرات وزير الخليفة المقتدر، يستأذنه في الدخول إلى بغداد. وقد انتظر جواب الخليفة سنة كاملة دون جدوى. فساءت حاله واتهمه المحتسب بالمجون وأرغمه على بيع غلمانه. وأخيراً ورد جواب الخليفة وقد جاء فيه ما يلي: «يرد إلى المغرب فيطلب بثأر نفسه ويقوم على من قام عليه. وأمر النوشري وابن بسطام بتقويته بالرجال والأموال»(128).

فأقام زيادة الله في «ذات الحمام» التابعة لمنطقة الإسكندرية ولكن الإعانة العسكرية والمالية التي أذن بها الخليفة قد تأخرت إلى ما لا نهاية له، فتسلى عن همومه بالانهماك في الملذات. ثم انصرف إلى بيت المقدس، حيث مرض ومات في حالة يُرْثَى لها سنة 912/299(129).

وفي نفس الليلة التي هرب فيها زيادة الله، استولى الهلع على خاصة رجاله الذين تخلفوا في رقادة والقصر القديم. أما أهل بيته وكبار رجال دولته، وأهل الحرب وأصحاب الدواوين والموالي والعبيد الذين لم يصاحبوه، فقد التجأوا إلى القيروان وسوسة وبعض المدن أو النواحي الأخرى. كما تحوّل إلى سوسة وزيره ابن الصائغ الذي اتهم باطلاً بلا شك بخيانة الأمير، وقد كان في انتظاره مركب لنقله إلى صقلية.

وقد خرج ابن الصائغ من رقادة على ضوء المشاعل. «فأخذ على القصر القديم، وخرجت ثلاثون حملاً من المال تخلفت عن جملة المال. فنظر الذين خرجوا بها إلى مشاعل ابن الصائغ، فظنوا أنها مشاعل زيادة الله فاتبعوها. ووصل ابن الصائغ إلى سوسة، فدخل البحر من ساعته، ووصلت أحمال المال بعده إلى سوسة، فأخذها (عامل تلك المدينة) ابن الهمداني، فاختزنها. فلما دخل أبو عبد الله إلى رقادة أخذها»(130).

وقدم ابن عذاري رواية أخرى مخالفة لرواية القاضي النعمان، فقال إن ابن

---

(128) نفس المصدر، الفقرة 241.

(129) نفس المصدر، الفقرة 242.

(130) نفس المصدر، الفقرة 214.

الصائغ «واطأ خزّان الأموال على اقتطاع ثلاثين حملاً من المال، في كل حمل عشر ألف مثقال. فواعدهم موضعاً يجتمع فيه معهم، فأخطؤوه في الليل وخرجوا إلى مدينة سوسة، فقبض عليها ابن الهمداني عاملها وخزنها بسوسة حتى صارت إلى الشيعة»[131].

ومهما يكن من أمر فإن المركب الذي امتطاه ابن الصائغ «قد صرفته الريح إلى طرابلس» التي ما زال زيادة الله مقيماً فيها. «فنزل ابن الصائغ، ولما علم أن زيادة الله هناك، أتاه وأراه أنه قصد إليه، فأدخله إليه فأدناه وقربه». ثم انقاد زيادة الله إلى دسائس من كان معه من رجال، «حتى خاف أن يفسد أمرهم عليه من أجله، فأمر به فقُتِل»[132].

وما إن انتشر خبر هروب زيادة الله صباح يوم الاثنين، حتى هرع الناس من كل مكان إلى رقادة «ينتهبون ما بها ويحملونه... وشغل أهل الدعارة بنهب رقادة، فانتهبوا ما في قصورها مما خلفه زيادة الله، وما في دور رجاله ودور سائر الناس، الأنفس فالأنفس، والأعلى فالأعلى، إلى أن لم يبق شيء مما على وجه الأرض إلا انتهبوه. وصاروا إلى البحث عن المطامير وانتزاع حديد الأبواب... إلى أن دخلت خيل أبي عبد الله»[133].

وفي تلك الآونة العصيبة التي كان يكتنفها الغموض والفوضى، وهي تشهد انهيار البناء الذي شيده الأغالبة الأوائل، حاول ابن أبي الأغلب تسلم مقاليد الحكم الذي تخلى عنه زيادة الله. وهي عملية مألوفة ومحاولة يائسة تلجأ إليها الأنظمة المشرفة على الانقراض. إلا أن محاولة الأمير الأغلبي الأخير المطالب بعرش آبائه وأجداده كان بإمكانها على الأقل، لو نجحت، أن تسمح للدولة بالاستمرار بعض الوقت، حتى لا تنقرض من غير فخر. ذلك أن هذا القائد الذي لم تعوزه الشجاعة طوال معركة الأربس قد أبدى، إثر مغامرة زيادة

(131) البيان، ص 147 - 148.

(132) الافتتاح، الفقرة 234.

(133) نفس المصدر، الفقرة 215.

الله المخجلة، من الحزم والجرأة، ما كان يفتقر إليه الأمير الضعيف الإرادة. فقد وصل ابن أبي الأغلب إلى القيروان صبيحة يوم الثلاثاء، بعد يومين من الهزيمة، وقصد في الحين دار الإمارة حيث استدعى جماعة الفقهاء ووجوه أهل القيروان، فأتوه. «فذكر لهم أحوال زيادة الله وما كان عليه من سوء الحال، وأن ذلك هو الذي أخل بدولته وقوى عليه عدوه وسلبه ملكه. وذكر أبا عبد الله وكتامة وشنع عليهم أقبح الأشانيع وخوف من ناحيتهم، وقال: إنما قصدت إليكم وجئتكم لأجاهدكم عن حريمكم ودمائكم وأموالكم. فأعينوني على ذلك بالسمع والطاعة وأمدوني بأموالكم ورجالكم. . فقالوا: أما السمع والطاعة فهما علينا لك ولكل من وَلِيَنَا، وأما عونك بأموالنا وأيدينا فنحن سوقة تجار وباعة، لا تبلغ ما تريده. والقتال، فما لنا من قوة ولا نطيقه. . . فراجعهم في ذلك وراجعوه حتى قال لهم: فانظروا ما كان في أيديكم من أموال الأحباس والودائع، فأعطوني ذلك سلفاً ليُنَادَى بالعطاء ويجتمع الناس إليّ. فقالوا له: وما عسى أن يكون في الأحباس والودائع؟ ولو مددت يدك إليها لأنكر الناس ذلك وقاموا فيه».

«فلما يئس منهم صرفهم فخرجوا والناس مجتمعون على باب دار الإمارة لا يعلمون ما كان من الكلام، فلما خرجوا وأخبروهم بما كان منه صاحوا به وشتموه. فلما سمع ذلك ركب ومن كان معه في سلاحهم واقتحموا الباب، فهرب من كان على الباب بين أيديهم، وأفرجوا لهم، وأخذتهم الحجارة من فوق البيوت وهم يتقون ويركضون دوابهم حتى خرجوا من المدينة[134].

فالتحق ابن أبي الأغلب بزيادة الله الذي قابله بالغضب والوعد والوعيد ولكنه تمكن من اتقاء شره والاحتماء بعامل مصر، هو وأحد ضباطه، أبو المصعب بن زرارة[135].

---

(134) نفس المصدر، الفقرتان 217 - 218.

(135) نفس المصدر، الفقرة 238.

دخول أبي عبد الله إفريقية ونزوله برقّادة:

«ووافى أبا عبد الله (يوم الثلاثاء 21 مارس) الخبر بهرب زيادة الله، وقد خرج من دقة من قبل أن يصل إلى سبيبة، فأخذ على سليانة ونزل وادي الرمل (غربي القيروان) فبات به» [136]. وخرج شيوخ القيروان وفقاؤهم للقائه، فلما وصلوا إلى فحص بروقس بين جلولة وحمام السرادق في طريق الأربس،هجمت عليهم عصابات الهواريين التابعين لمحبوب بن عبدون، فعادوا على أعقابهم، وكتبوا إلى الداعي، فحدد لهم موعد ومكان اللقاء: يوم السبت بساقية ممس قرب القيروان.

وفي الأثناء وجه أبو عبد لله طليعة من جيشه متألفة من ألف فارس بقيادة غزوية، ولكنه حرص على أن يضم إليه قائداً عربياً، وهوالحسن بن أبي خنزير رئيس ربيعة ميلة، وذلك بلا شك لتهدئة خواطر أهل إفريقية، ودخلت الكتيبة الشيعية القيروان بسلام، ولم تتعرض للنهابين بأي أذى، لتأمين أهل القيروان أكثر فأكثر[137]. وجاء الفقهاء والشيوخ بأعداد غفيرة، للقاء ذلك الغازي الرهيب، بسبب اتباعه من البربر المثيرين للرعب ومذهبه الذي سبق لهم أن أنكروه. «فلقوه وسلموا عليه وهنؤوه بالفتح. فأقبل عليهم بوجهه ورد عليهم أحسن رد، وأمنهم في أنفسهم وأموالهم، فأعجبهم ما رأوه من تواضعه وحسن عشرته.. ثم أخذوا يذكرون له أخبار زيادة الله ويصفون سوء حاله ومساويه، وأبو عبد الله ساكت عن ذلك، حتى إذا أكثروا فيه قال لهم: أئمتهم الذين ولوه وقدموه، وآباؤه من قبله وآباؤهم من قبلهم أسوأ حالاً منه. فلو علمتم ورأيتم أحوال بني العباس وما هم عليه من الفسق وسوء الحال، لما تعاظمتم ما رأيتموه من هذا، وما وصفتموه من وهنه وضعف أمره[138]، فما أبقى في المدافعة

---

(136) نفس المصدر، الفقرة 219.

(137) البيان، ، ص 149.

(138) لقدكان من أغراض ثورة أبي عبد الله ودعوته إقامة الدولة الفاطمية. ولذلك فقد كان يرمي أولاً وبالذات إلى النيل من سلطة المغتصبين العباسيين. وهذا ما أراد التذكير به عندما أشار في كلمته إلى بني العباس.

والاجتهاد بما قدر عليه وأمكنه. ولقد كان له من القوة والمنعة ما رأيتموه، ولكن أمر الله لا يدافع ولا يغالبه مغالب، وأولياء الله المنصورون وجنده الغالبون...»[139].

وأخيراً توجه الداعي نحو رقادة على رأس جنود لا يحصى عددهم، وقد كانوا مقسمين إلى سبع فرق حسب النظام الذي أقر في إيكجان ودخل أبو عبد الله رقادة مسبوقاً بقارىء يتلو آيات بينات من الذكر الحكيم مناسبة للمقام. وكان دخوله يوم السبت غرة رجب سنة ست وتسعين ومائتين (25 مارس 909)[140].

وقد كانت حينئذٍ بضع سنوات كافية لهذا الداعي الإسماعيلي المغمور من أهل الكوفة، للقضاء على دولة بني الأغلب والسير بأتباعه من سكان جبال القبائل الصغرى إلى أبواب القيروان. وبالفعل فقد قامت الدولة الفاطمية قبل سنة من قدوم المهدي إلى إفريقية، وسيذهب الداعي الأمين إلى سجلماسة لإحضاره. وهكذا تدخل إفريقية مرحلة جديدة من تاريخها[141].

---

(139) الافتتاح، الفقرة 220.

(140) نفس المصدر، الفقرة 221.

(141) ذلك أن الأمر لا يتعلق بمجرد تعويض أسرة مالكة بأخرى، إنما يتعلق بانقلاب جذري، تحقق إثر انتصار مذهب خارج عن مذهب أهل السنّة، يحظى بتأييد بربر منطقة القبائل الصغرى. وسننظر في خصائص هذا الانقلاب ضمن الدراسة التي سنخصصها لنظام الدولة الجديدة.

الباب الثاني

وصاية الداعي وخلافة المهدي

الفصل الأول

وصاية الدّاعي
(909 ـ 910 م)

1 ـ الإجراءات الحكومية التي اتّخذها الداعي[1]:

ما إن استقر الداعي في قصر من قصور رقادة يعرف بقصر الصحن، حتى أقبل على إصلاح الوضع المتردي الناشىء عن انهيار دولة بني الأغلب. وبوصفه منظماً ماهراً ورئيساً سياسياً متمرناً على ممارسة الحكم في بلاد كتامة، فقد أظهر ما هو قادر عليه من براعة فائقة، وحرص من أول وهلة على إقامة النظام الجديد وتركيز سلطته، دون اعتبار ما كان يخالج نفوس أهل إفريقية من خوف وضغينة، وقد تعودوا على لعن مذهبه الشيعي والخشية من أتباعه البربر الكتاميين من أهل الجبال.

فاتخذ حينئذٍ جملة من التدابير السياسية والإدارية المناسبة. من ذلك أنه أمن كافة سكان المدن والأرياف، وأقر عدة إجراءات لتهدئة وتأمين «كل خائف كان يتولى شيئاً من خدمة زيادة الله ومن بقي من أهل بيته وعبيده ومواليه وموالي أبيه، ومن كان يتصل بأسبابهم. فأمنوا وظهرواوانتشروا واتصلوا به

(1) الافتتاح، الفصل 34.

وبرجاله، ودخلوا في خدمته وأعماله». ولكنه أعدم بعض عبيد زيادة الله السود، وبالخصوص أحد وجوه التميميين المعروف باسم القوس. ووجّه غزويّة إلى سوسة لتأمين أهلها واسترداد أحمال المال المخزونة بقصر الرباط[2].

ومن جهة أخرى أعرض أبو عبد الله عن التشريفات وامتنع عن مراسم الملك، مظهراً ما كان يتسم به من تواضع، حتى أنه كان يقوم ليسلم على من دخل عليه، فإذا قبل المسلم عليه يده عامله بالمثل. كما أنه لم يكترث بما تركه بنو الأغلب من ثروات طائلة، والتزم حياة البساطة بل حتى التقشف «وأمر بجمع ما ظهر من أموال زيادة الله وعبيده وسلاحه ودوابه، ومن بقي له من الجواري.. وأحضر إليه امرأة كانت عند زيادة الله تقوم عليهن، فأمرها بحفظهن والقيام عليهنّ»، إلى أن يأتي المهدي صاحب الحق. «وولى النظر في كل ذلك أحمد بن فتوح الطبني، المعروف بالأحدب»[3]. وكان همه الأول عند إعادة تنظيم المصالح الإدارية إضفاء الصبغة الشيعية على مؤسسات الدولة الجديدة. فاستعمل عاملاً متشيعاً من وجوه أهل ميلة على القيروان، وهو الحسن بن أبي خنزير، واستعمل أخاه حبيب على القصر القديم. وأسند خطة قاضي القضاة إلى فقيه قيرواني من جند خراسان، «له تشيع قديم»، وهو محمد بن عمر المَرْوَرّوذي، «وكانت توليته إياه في أول شهر رمضان من سنة ست وتسعين ومائتين» (24 مارس 909).

«ولما حضرت الجمعة أمر بإقامتها وقدم خطيباً بجامع رقادة وخطيباً بجامع القيروان، وكتب بذلك إلى البلدان. وأمر في الخطبة بالصلاة على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين عليّ وعلى الحسن والحسين وعلى فاطمة الزهراء...»[3م].

«وأمر أن يزاد في الأذان «حي على خير العمل»، وأمر بضرب السكة

---

(2) نفس المصدر، الفقرة 214.

(3) نفس المصدر، الفقرة 223 ـ البيان، ص 151.

(3 م) الافتتاح، الفقرة 225.

وولى عليها أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودي»[4]، وهو موظف أغلبي سابق[4م]. ونقش العلامات الشيعية على شعارات السيادة وكانت الأفكار الواردة في إعلانات الأمان متشبعة هي أيضاً بالعقيدة الشيعية. فقد جاء في ديباجتها ما يلي:

«أما بعد فالحمد لله الناصر لأوليائه (الشيعة) لما سبق لهم من وعده وخاذل أعدائه (أهل السنّة) بعد الإعذار إليهم بوعيده، الذي لم يجمع بين أنصار الحق وأتباع الباطل في موطن من مواطن التحاكم إلا وهب لأنصار دينه النصر وأيدهم بالعز وأنزل بأعدائه البأس والنقمة والدمار والهلكة، إظهاراً لفضل منزلة الحق عنده، وإذلالاً لمن عند عن سبيله وصدف عن حقه، حمداً يرضاه ويتقبله ويحسن المزيد عليه من فضله»[5].

وقد استقر النظام الجديد دون أي عائق، وعاد الأمن إلى نصابه بسرعة في كامل أنحاء البلا، إثر الأمان الذي مُنح لوفد فقهاء القيروان وشيوخهم بعد تقديم شواهد الإخلاص. وحث أبو عبد الله الناس على السمع والطاعة، وأمر الغزاة الكتاميين بالانضباط واحترام النظام، فامتثلوا إلى أوامره، رغم حرمانهم من الغنائم الضخمة. واعترفت جميع البلدان بسلطة أصحاب إفريقية الجدد بما في ذلك صقلية التي كان مـن الممكن أن يلتجىء إليها زيادة الله، ويتصدى للمغيرين بفضل أسطوله العتيد، لا سيما وقد أبدى الداعي عطفاً خاصاً على أهل تلك الجزيرة، باعتبارها أرض جهاد، ووعد بأن «يملأ جزيرتهم خيلاً ورجالاً من المؤمنين الذين يجاهدون في الله حق جهاده، فيعز الله الدين والمسلمين ويذل بهم الشرك والمشركين»[6].

أضف إلى ذلك أن نشر المبادىء الشيعية بين أناس متمسكين بالمذهب

---

(4) البيان، ص 151.

(4 م) وهو نفس الشخص الذي كان يتردد على بيت الحكمة برقادة. انظر مقدمة هذا الكتاب: تطور الثقافة والحضارة العربية الإسلامية: بيت الحكمة.

(5) الافتتاح، الفقرة 228.

(6) نفس المصدر، الفقرة 223.

المالكي قد تم من غير عنف. فقد أوصى أبو عبد الله دعاته الكتاميين باستعمال الإقناع وعارض اللجوء إلى الإكراه الذي كان ينادي به أخوه أبو العباس[7]. ومن الجدير بالذكر أن هذا الأخير الذي قدم من طرابلس حيث كان مختفياً بعدما أفلت من ملاحقة زيادة الله، قد اشترك مع الداعي في تسيير شؤون البلاد. واعتماداً على ما كان له من نفوذ على أخيه أبي عبد الله الذي يصغره بسنةٍ، وما كان له من شأن بسبب تكوينه المذهبي وخبرته في الجدل، فقد أراد أبو العباس القيام بدور متميز على رأس الدولة الجديدة، عن طريق فرض سلطته على فقهاء القيروان، بل حتى اضطهادهم. وسيفضي به طموحه المفرط ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ إلى تأليب المهدي عليه والإسراع بنكبته ونكبة أخيه.

إلا أن أبا عبد الله لم يفته ـ وقد سما به انتصاره إلى هذه المرتبة العليا التي جعلت منه صاحب إفريقية ـ أنه لم يكن سوى نائب صاحب البلاد الحقيقي والمتصرف باسمه، ألا وهو المهدي المعصوم الذي ينتظره عرش إفريقية الشاغر، بعدما تخلى عنه الأمير الأغلبي. وقد ظل نظر الداعي متجهاً نحو المغرب الأقصى الذي التجأ إليه الإمام قبل ذلك بسبعة أعوام، قادماً فجأة من المشرق لترقب انتصار أتباعه[8]. فلم يبق حينئذٍ لأبي عبد الله لكي يتم مهمته الطويلة على أكمل وجه، إلا الزحف على سجلماسة التي يقيم بها المهدي، والرجوع به إلى إفريقية ظافراً.

2 ـ رحلة المهدي المليئة بالمغامرات:

إن العروض التي تنقص أو تزيد طولاً والمتعلقة برحلة المهدي والواردة في مصادرنا، سواء منها الإسماعيلية أو السنية، تكفي وحدها لإمدادنا بلمحة تكاد تكون تامة حول مغامرته الخارقة للعادة. إلا أن المعطيات الأساسية الواردة في سيرة جعفر[9] . بالإضافة إلى المعطيات المكملة والمحققة لها في كتاب

(7) نفس المصدر، الفقرة 243.

(8) غادر المهدي سلمية بعد بضعة أشهر من استيلاء الداعي على ميلة سنة 902 واستقر في سجلماسة بعد ذلك بثلاث سنوات (905) في الوقت الذي كان فيه ابن حبشي يحاول الهجوم على إيكجان.

(9) انظر دراسة هذه المعطيات في: Gateau ص 375 - 395، و انظر نصها المنقول إلى الفرنسية =

الافتتاح الذي سبق لنا أن حللنا محتواه وأكدنا فائدته، توفر لنا معلومات مفصلة وتقدم إلينا رواية مسترسلة ودقيقة حول المراحل المتتابعة لهجرة المهدي من سلمية إلى سجلماسة. ورغم أن جميع الأضواء لم تسلط على بعض الوقائع، فإنه بإمكاننا استعراض أهم أطوار تلك الرحلة بصورة متماسكة، وذلك بتحديد أسبابها ومسبباتها، واستكشاف الأغراض التي قادت خطى المهدي إلى أن وصل إلى ناحية تافللت النائية وما صاحبت رحلته من تقلبات وتغييرات مفاجئة.

وإننا لنكتشف بكل وضوح، عند قراءة **الافتتاح**، **وسيرة جعفر** الأسباب التي دفعت المهدي منذ صائفة 902/289، إلى مفارقة الطائفة الإسماعيلية المقيمة في مركزه بسلمية، والتخلي عن أهله وجميع أصحابه. فقد كان مفروضاً عليه ـ كما أسلفنا[11] ـ منذ تقلده الإمامة مواجهة الخطر القرمطي، علاوة على تتبعات الأعوان العباسيين. ذلك أن القطيعة بين مركز الدعوة الإسماعيلية في سلمية وبين الحركة القرمطية، قد وضعته في موقف سيء. والحال أن الخطر القرمطي قد أخذ يتأكد منذ أكثر من سنة مع اندلاع ثورة ابن زكرويه. ذلك أن نجاح هذا الزعيم الخارجي في اجتياح سوريا، قد جعل سلمية تحت رحمته[12].

ولما اقتربت قوات القرامطة، قرر المهدي الفرار. فكلف أحد مماليكه المخلصين، وهو أبو أحمد جعفر بن عبيد المعروف «بالصعلوك» والداعي أبا جعفر الخزري بالسّهر على نساء الحريم ومرافقتهن على إثره. وخرج من سلمية على جناح السرعة في رجب 289/ يونيو ـ يوليو 902، ومعه ابنه أبو القاسم[21م] ـ وهو يومئذٍ صبيّ ـ وداعي الدعاة فيروز وأبو العباس أخو أبي عبد الله الداعي، وبعض الأتباع من الكتاميين، وعدد كبير من المماليك العاملين في خدمته، من بينهم حاجبه المقبل جعفر بن علي، صاحب السيرة. فوصل

= في: Chambellan، ص 279 - 329.

(10) الافتتاح، مقدمة المحقق: القيمة التوثيقية للافتتاح.

(11) انظر الباب الأول: نسب الفاطميين، الإحالة 32.

(12) نفس المرجع، الإحالة 31.

(12 م) [سيتولى أبو القاسم الخلافة بعد أبيه وسيُلقّب بالقائم بأمر الله].

المهدي إلى الرملة، بعدما توقف قليلاً في دمشق ولم ينزل بطبرية لأسباب أمنية، وقد أظهر إلى أصحابه أنه يريد اليمن. ولما انتهى إلى الرملة، «نزل بها عند عاملها، وكان مأخوذاً عليه عهد الإمام وأقام بها مدة أطول مما أشار إليه جعفر، أي ما يناهز السنتين، من رجب 289/ يونيو - يوليو 902 حتى بداية صائفة 904/291، إلى أن فشلت ثورة القرامطة وألقى العباسيون القبض على زعيمهم[13].

ولم يكن مقامه في الفسطاط خالياً من الصعوبات، وقد كان معه داعيته، كما كان الأمر في دمشق والرملة، وبعض أنصاره المقرين العزم على إيوائه وحمايته، ومكث في مصر إلى أوائل سنة 905. وقد أحدثت المعارك الدائرة بين العباسيين والقرامطة من جهة، وبينهم وبين الطولونيين من جهة أخرى[14] وضعاً غامضاً استغله المهدي للتستر والإفلات من التتبعات. إلا أنه سرعان ما أصبح عرضة لتفتيشات أعوان المكتفي، إثر انهزام بني طولون بعد مدة قليلة من إخفاق ابن زكرويه ودخول القائد العباسي محمد بن سليمان ظافراً إلى الفسطاط في صفر 292/ يناير 905. كما أن خصوماته مع محمد بن سليمان ثم مع العامل النوشري الذي استقر في الفسطاط في جمادي الثانية 296/ إبريل - مايو 905، قد حملته على البحث عن ملجأ آخر أكثر أماناً خارج مصر. وقد خرج الإمام من الفسطاط في منتصف صائفة 905 متوجهاً إلى إفريقية[15].

والجدير بالذكر أن المعطيات الواردة في الافتتاح والمتطابقة مع شهادة جعفر، قد قدمت إلينا تفسيراً مقبولاً لهذا القرار المتعلق بتوجه المهدي إلى المغرب، بعدما أظهر إلى أصحابه منذ خروجه من سلمية أنه يقصد اليمن. ولئن فكر المهدي في أول الأمر، إثر فراره المفاجىء أمام القرمطي، في الذهاب إلى

(13) الافتتاح، الفقرات 150 - 154.

(14) انظر دائرة المعارف الإسلامية 1 (العباسيون) و 2 (القرامطة) ص 813 - 818.

(الطولونيون) ص 877 - 880 بقلم جيب Gibb انظر أيضاً حول هذه الأحداث، كتاب زكي محمد حسن، الطولونيون، باريس 1937، وبالخصوص ص 140 وما بعدها.

(15) الافتتاح، الفقرة 150.

اليمن، فإن ترسيخ الدعوة الإسماعيلية في هذه البلاد يجعلنا لا نشك في ذلك. فقد كان الداعي ابن حوشب يعمل بها بالاشتراك مع اليمني ابن الفضل في الظروف التي أشرنا إليها آنفاً[16] الأمر الذي سمح للقضية العلوية بإحراز انتصار باهر منذ سنة 888/268 - 889. فمن حق الإمام وداعي دعاته فيروز أن يفكرا في التحول إل تلك البلاد، ليعلنا فيها قيام الخلافة الفاطمية[17].

ولكن هل كانت نية المهدي ثابتة واختياره لليمن صريحة، كما يدعونا إلى اعتقاد ذلك جعفر والنعمان؟ الواقع أن الأضواء التي سلطها صاحب الافتتاح على الظروف التاريخية التي تمت فيها هذه الهجرة في مطلع القرن العاشر من الميلاد، بالإضافة إلى التقدم الذي أحرزته الدعوة الإسماعيلية في المغرب، تجعلنا نفترض أن مشاريع المهدي السياسية لم تتحدد بعد، وأنه كان عليه لاختيار مقصده الأخير أن يتردد بين اليمن والمغرب، وبالأحرى أن يميل إلى البلاد الأخيرة[18].

ففي المشرق، حيث كانت الحركة الإسماعيلية مضطرة إلى مواجهة الدولة العباسية التي ما زالت قوية، والمعارضة القرمطية التي لا تقهر، يبدو أن اليمن لم يكن قادراً في نظر المهدي على توفير الظروف السياسية والاجتماعية بل حتى الاقتصادية ـ الملائمة لقيام دولة إسماعيلية وتوسعها. أضف إلى ذلك أن سلطة ابن حوشب، كان يتقاسمها معه رفيقه ابن الفضل الذي كان يتحكم في مسقط رأسه جَنَد في اليمن، ويميل بعض الميل إلى التمرد، بمعرفة الإمام وداعي دعاته فيروز[19].

وبالعكس من ذلك كانت الدولة الأغلبية في المغرب في حالة تفكك وكان

(16) نفس المصدر، الفقرات 1 - 20.

(17) نفس المصدر، الفقرة 150.

(18) نفس المصدر، الفقرة 151.

(19) يعتبر أحسن عرض حول تمرد علي بن الفضل، اعتماداً على وثائق إسماعيلية نفيسة، بحث الهمداني في «الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن»، القاهرة 1955، ص 41 - 48.

الداعي في نفس الوقت الذي خرج فيه المهدي من سوريا، قد أتم إخضاع كتامة لسلطته، واستولى على ميلة التي كانت أول حصن أغلبي يسقط بين يديه، وتغلب على الجيش الأغلبي الأول الذي زحف على إيكجان. ولا شك أن المبعوثين الكتاميين الذين انضموا إلى قافلة المهدي عند خروجه من سلمية، كانوا قد قدموا إليه لإعلامه بما أحرزته قضيته من انتصارات في بلادهم، وإقناعه بمساندة أتباعه من البربر مساندة فعالة. وبينما كان المهدي مختفياً في الرملة بعد سنة من خروجه من سلمية، كانت دعوته تتدعم في المغرب لدى الكتاميين. فقد استرجع الداعي ميلة وصد هجوماً أغلبياً ثانياً، وتفاقم الوضع في رقادة إثر اغتيال الأمير عبد الله الثاني بإيعاز من ابنه زيادة الله الثالث. ولا بدّ أن أخبار مثل هذه الحوادث التي بلغت إلى علم المهدي قد حثته على توجيه نظره نحو المغرب. ذلك أن انتصارات الدعوة، وتداعي النظام الأغلبي، ودعم القبائل الكتامية العتيدة، وثراء البلاد، وبعدها عن قواعد الدولة العباسية ومراكز الاضطرابات القرمطية، كان من شأنها، في نظر الإمام، أن تؤهل تلك البلاد لتكون مهد الدولة التي طالما حلم بها الفاطميون.

وبالعكس من ذلك، فإن اليمن الذي سبقه إليه فيروز المعارض لاختيار المغرب والمتأهب لخيانة الإمام عما قريب، لا يمكن أن يوفر له مثل تلك المزايا الاجتماعية والاقتصادية[20]. فلما علم المهدي وهو في الفسطاط بسقوط سطيف بين أيدي أتباعه البربر في أواخر سنة 904/291، أدرك أن الحظ قد ابتسم له في المغرب. ثم عملت خصوماته مع القائد العباسي محمد بن سليمان وعامل مصر النوشري على إقناعه بالانصراف في اتجاه إفريقية[21].

«وسار في رفقة في زي التجار حتى انتهى إلى ناحية الطاحونة[21م]،

---

(20) أحسن دراسة حول الوضع السياسي والاقتصادي في اليمن في عصر انتشار الدعوة الإسماعيلية، كتاب «تاريخ اليمن» تأليف عمارة بن أبي الحسن علي الحكمي اليمني، الطبعة الثانية، تحقيق سليمان محمود، القاهرة 1957، انظر بالخصوص ص 38 وما بعدها 1909 وما بعدها.

(21) الافتتاح، الفقرلا 151.

(21 م) الطاحونة: تقع على بعد بضع مراحل غربي الإسكندرية.

فخرج على الرفقة اللصوص، فسلبوا كثيراً من أهلها، وذهب بعض ما كان للمهدي فيها، وكان أعظم ما ذهب له كتب كان فيها علم من علوم الأئمة»[22]. وسيسترجع هذه الكتب ابنه أبو القاسم أثناء الحملة الأولى التي سيقودها ضد مصر سنة 913/291[22م]. وقد خرج في هذه الحملة أبو العباس، فلقب «بالمخطوم»[23].

وأقام المهدي وأصحابه في طرابلس دون أن يثيروا أي حادث في أول الأمر. ولما وجد نفسه في الطرف الشرقي من المملكة الأغلبية، قرر الإمام الذي كان ينوي التوجه إلى إيكجان، أن يسبقه إليها أبو العباس صحبة الكتاميين. ولكن من باب الحذر، وحرصاً منه على اختبار شبكة الاستعلامات الأغلبية والاطلاع على حقيقة الوضع في عاصمة إفريقية، أمرهم بالذهاب إلى القيروان، للقيام بمهمة استطلاعية، قبل الالتحاق بإيكجان. على أن تلك الاحتياطات لم تكن غير ذات جدوى. ذلك أن زيادة الله، لما علم بدخول المهدي إلى مملكته، أمر بالسؤال عنه. «فأخبر بعض من كان من الرفقة معه أنه يتخلف بطرابلس وذكروا أن أبا العباس من أصحابه.. فأُخِذ وقُرِّر، فأنكر وقال: إنما أنا رجل تاجر، فحُبِس».

«واتصل الخبر بالمهدي وهو بطرابلس، فصادفه رفقة خارجة إلى قسطيلية، فخرج فيها، وأتى كتاب زيادة الله إلى عامل طرابلس بطلبه ـ وقد كان استعطفه وأهدى إليه ـ فكتب بأنه قد خرج من عمله، ونفذ إلى ناحية قسطيلية»[24].

فلما وصل المهدي إلى هذه المدينة لم يبق له إلا قطع بضع مراحل للدخول إلى بلاد كتامة. ولكنه عدل عن الذهاب إلى إيكجان، وسار في طريق

(22) الافتتاح، الفقرة 151.

(22 م) انظر فيما يلي: المحاولة الأولى ضد مصر 301 - 914/302 - 915.

(23) الافتتاح، الفقرة 152ـ البيان، ص 150 و 155.

(24) الافتتاح، الفقرتان 152 - 153.

الجنوب متجهاً نحو عاصمة تافللت: سجلماسة. وقد أكد القاضي النعمان وجعفر الحاجب أن هذا القرار قد أملاه عليه خبر اعتقال أبي العباس. فلو ذهب إلى إيكجان، لتحققت الشكوك التي كانت تحوم حول أخي الداعي. فيبدو حينئذٍ أن المهدي قد غير اتجاهه لكي لا يعرض أبا العباس للموت[25].

إلا أن هذا التأويل لا يبدو مُقْنِعاً. فحتى لو سلمنا به على كل حال، فإن التغيير المفاجىء لموقف المهدي يبقى مع ذلك غريباً. لذلك ينبغي البحث عن أسبابه في ضوء المعطيات الأساسية الواردة في الافتتاح حول تطور الوضع السياسي في رقادة وإيكجان[26].

ففي الوقت الذي دخل فيه المهدي إلى إفريقية في أوائل خريف 904/291، كان زيادة الله يوجه حملته العسكرية الأولى ضد الكتاميين. وقد انطلق الجيش الأغلبي المجهز أحسن تجهيز تحت قيادة أحد أفراد الأسرة المالكة، ابن حبشي، ووصل إلى قسنطينة الواقعة على حدود بلاد كتامة[27]. ورغم الهزيمة النكراء التي مُنِيَ بها أبو حوال قبل ذلك، فإن القوة العسكرية الأغلبية مازالت سليمة. كما أن المدن المحصنة الواقعة في خطوط الدفاع، والتي استولى عليها الداعي ما زالت بين أيدي حاميات أغلبية، ما عدا ميلة وسطيف، وأن بلزمة وباغاية وقسنطينة وطبنة ما زالت تتحكم في طرق الوصول إلى إيكجان، وتعرض بلاد كتامة لخطر جسيم. وبناءً على ذلك فإن النظام الشيعي، رغم ما أحرزه من انتصارات ما زالا ضعيفاً. وإن الظروف ما زالت غير ملائمة لإقامة الإمام - بل حتى لظهوره - في جبال البربر[28].

وحيث أن المهدي قد تعود على أن لا يعمل إلا بحذر، فلا شك أنه لم يتخذ قراره إلا بعد أن فكر ملياً في الأخطار المحدقة به لو ذهب إلى إيكجان.

(25) نفس المصدر، الفقرة 153.

(26) نفس المصدر، مقدمة المحقق: ترجمة المهدي.

(27) انظر الباب الأول: حملة ابن حبشي.

(28) أي قبل هزيمة ابن حبشي، أعني قبل ربيع سنة 905.

ولعل اعتقال أبي العباس لم يكن سوى ذريعة مناسبة لإخفاء تخوفاته الحقيقية[29].

وحيث أنه، والحالة تلك، لا يمكنه الذهاب إلى إيكجان، ولا من باب أولى وأحرى البقاء في قسطيلية، حيث كان يعلم أنه في متناول أعوان زيادة الله، فقد كان عليه أن يبحث خارج المملكة الأغلبية، ولكن داخل البلاد المغرب ذاتها، عن ملجأ يستطيع أن ينتظر فيه في أمان نتيجة المعركة الدائرة رحاها بين نائبه الوفي وبين بني الأغلب. ففي أقصى تلك البلاد الممتدة الأطراف كان الأمويون بالأندلس يتمتعون بشيء من النفوذ، في حين كانت السلطة التي يمسك بزمامها الأدارسة الحسنيون في مملكة فاس قد جعلت من المغرب الأقصى بلداً لا يرغب في قدوم المطالب بالعرش العلوي من أبناء الفرع الحسيني.

أما المغرب الأوسط الذي يتحكم في حظوظه الخوارج الزناتيون، والدولة الرستمية التي أقامها الخوارج أيضاً في تاهرت، فدخوله ممنوع على المهدي، مثله مثل إفريقية السنية. فلم تبق له حينئذٍ سوى المملكة الصغيرة التي أقامها بنو مدرار في تافللت. فهي وحدها التي تستطيع أن توفر له مأوى وقتياً[30]. بفضل موقعها الجغرافي البعيد عن المركز. وقد كانت عاصمتها سجلماسة، رغم وجودها تحت سلطة صاحبها الخارجي اليسع بن مدرار مدينة كبيرة لا تقل أهمية عن القيروان، حسب ابن حوقل[31]. فقد اشتهرت بازدهارها ولطف أهلها من التجار، وكانت علاوة على ذلك مركزاً لمرور القوافل، قد أثرته تجارة الذهب والعبيد السودانيين[32]. وكانت تقيم بها عهدئذٍ جالية عراقية ثرية، سيجد المهدي عما قريب بين أفرادها ـ أو ربما وجد فعلاً ـ بعض الأنصار المخلصين.

---

(29) يتعلق الأمر بلا شك بتفسير رسمي اعتمده كل من الحاجب جعفر والقاضي النعمان، وهما إسماعيليان.

(30) انظر دائرة المعارف الإسلامية 4 (سجلماسة) ص 419 - 421 بقلم كولان.

(31) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 61، 91، 99.

(32) الذهب الإسلامي، ص 150.

فلما خرج من قسطيلية اختار حينئذٍ اتجاهاً ضرورياً وصائباً. وسوف يقيم في سجلماسة مدة ثلاث سنوات في أمن وأمان[33].

3 ـ حملة سجلماسة[34]:

ما إن ركز الداعي سلطته في رقادة، حتى أخذ يتأهب للزحف على سجلماسة لاستقدام المهدي وتنصيبه على العرش الذي كان قد افتكه من الأغالبة منذ عهد قريب باسمه.

«فاستخلف على إفريقية أبا زاكي، وقام معه أخوه أبو العباس فأقام مع أبي زاكي روابط (أي حاميات) في سائر البلدان»[35]. ولم تمض سوى أقل من ثلاثة أشهر على دخوله إلى رقادة، حتى خرج منها يوم الخميس 15رمضان من سنة ست وتسعين ومائتين (7 يونيو 909) على رأس جيش عظيم يحيط به وجوه قواده ودعاته وبعض شيوخ القيروان، من بينهم الشاعر أبو اليسر[36]، والطبيب زياد بن خلفون[37]، والفقيه الحنفي ابن سيرين[38]، «فأخذ الجادة ولم يعدل إلى كتامة».

وكان في صحبته أيضاً أبو القاسم بن المطلبي[39]، وهو تاجر قيرواني من أصل هاشمي، كان المهدي قد أدخله في الدعوة هو وأبوه في سجلماسة. وكانت مهمته تتمثل في مساعدة أبي عبد الله على التعرف على الإمام الذي لم يره من قبل[40].

---

(33) ابن حوقل، ص 61 - Chambellan، ص 296 - 297، الإحالة 3

(34) الافتتاح، الفقرات 243 - 253.

(35) نفس المصدر، الفقرتان 247 - 248.

(36)، (37)، (38): انظر البيان: ابن سيرين، وهو فقيه حنفي متشيع قد ولاه المهدي القضاء في برقة، انظر، طبقات، ص 190، 223 - 225 (ابن شهر أو ابن شهرين).

(39) Chambellan، ص 302، كنية ابن المطلبي هي أبو القاسم.

(40) توفي أحمد بن محمد أبو الحسن المطلبي بالقيروان في عهد المهدي سنة 318، البيان، ص 199.

«واهتزّ المغرب لخروجه وارتفعت القبائل وزالت في طريقه وخافت زناتة أن يقع بها لما كان تواعدها به لقتل من قتلوه من رجاله. فأتاه محمد بن خزر وهو يومئذٍ أمير زناتة كلها، وقبائل البربر بأسرها، فوافاه بطبنة يسأله الأمان. . فأمنه وقومه وأخذ عليه العهد[41]. ومر على تاهرت، فلم تبد أي مقاومة، فأعطاها الأمان. ولكنه أمر بقتل صاحبها وعدد كبير من أهل بيته، فقطعت رؤوسهم ووجهت إلى أبي زاكي لعرضها كعلامة للانتصار[42]. وهكذا بعد أشهر قليلة من انهيار الدولة الأغلبية، تبعتها الدولة الرستمية، دون أدنى قتال. وبعدما استعمل على تاهرت القائد اللهيصي دواس بن صولات، بمساعدة رفيقه في الدعوة اليمني إبراهيم بن إسحاق الزبيدي (الملقب بالسيد الصغير والمعروف بالهواري)[43]، واصل أبو عبد الله طريقه في اتجاه تافللت، وانتهى إلى سجلماسة، يوم السبت 6 ذو الحجة 26/296 أغسطس 909[44].

وكان المهدي عند وصوله إلى سجلماسة قد استأجر داراً جميلة وأقام فيها دون أن يثير أدنى شبهة حول شخصه. وقد اكتسب فيما بعد، بفضل هداياه، تقدير صاحب تلك المدينة اليسع بن مدرار الذي عامله معاملة حسنة، إلى أن بلغه كتاب من زيادة الله يخبره فيه بحقيقة أمر ضيفه، ثم علم باقتراب جنود الداعي، فاضطر إلى تغيير موقفه إزاء المهدي، فأوقفه، «وسأله عن نسبه وحاله، وهل إليه قصد أبو عبد الله. فاعترف بالنسب، إذ لم يسعه إنكاره»، ولكنه لم يعترف بعلاقاته مع الداعي «فلم يمتحنه بأكثر من أن جعله في دار وجعل عليها حرساً، وجعل ابنه القائم بأمر الله كذلك في دار أخرى ليفرق

(41) الافتتاح، الفقرة 248.

(42) البيان، ص 153.

(43) لقد ظهر من جديد رفيق الداعي الذي عينه ابن حوشب بلا شك لمساعدته في إيكجان طوال مدة الدعوة وتعويضه إن اقتضى الحال. ومن الغريب إننا وجدناه من جديد في تاهرت حين ذهب الداعي إلى سجلماسة، بعدما فقدنا أثره قبل ذلك.

(44) التاريخ المضبوط مذكور في البيان، ص 159.

بينهما... وامتحن رجالاً كانوا معهما بالعذاب ليقروا عليهما، فلم يكن منهم إلا ما قالاه»[45].

فلما اقترب الجيش الشيعي من سجلماسة، كان صاحبها قد اعتقل المهدي وأخذ يتأهب لشن الحرب عليه. فكان أبو عبد الله حريصاً أولاً وقبل كل شيء على إنقاذ حياة المهدي. وبناءً على ذلك سعى إلى ملاطفة اليسع وعدم إظهار أي عداء ضده. «وكتب إليه كتاباً يؤمنه جانبه ويتلطف له ويذكر أنه إنما قدم لحاجة، ولم يقدم لحرب، ووعده الجميل من نفسه والبر والإكرام.. فلما وصلت الرسل بكتابه رمى به بعدما علم ما فيه، وأمر بقتلهم، فقتلوا واتصل ذلك بأبي عبد الله، فعاوده ولاطفه خوفاً من أن يكون منه إلى المهدي ما يكرهه، وأعرض له عن ذكره تقيّةً عليه، وكان منه آخراً ما كان منه أولاً...»[46].

وأمام إصرار اليسع على عدوانه، اضطر الداعي إلى الهجوم على سجلماسة. فخرج إليه اليسع وأصحابه قرب المساء، وسرعان ما عادوا على أعقابهم ورجعوا إلى داخل المدينة. فلما جن الليل لاذ ابن مدرار بالفرار في جنح الظلام، دون أن يهتم بمصير سجينه، متوجهاً نحو السودان[47]. ومن الغد سلم وجوه أهل سجلماسة مدينتهم إلى أبي عبد الله، فدخلها وتمكن بمساعدة أبي القاسم بن المطلبي، من إطلاق سراح المهدي وابنه وخدمه. وقد قدم إلينا القاضي النعمان، وعلى الأخص جعفر بوصفه شاهد عيان، رواية معبرة ومؤثرة حول اللقاء المنتظر منذ عهد بعيد بين الإمام وبين داعيته الأمين وأتباعه الكتاميين.

«فكانت في الناس مسرة عظيمة استفزتهم وكادت تطيش لهم عقولهم وقرب (للمهدي وابنه) فرسان فركباهما، وحف المؤمنون بهما والدعاة يمشون

(45) الافتتاح، الفقرة 249.

(46) نفس المصدر، الفقرة 250.

(47) Chambellan، ص 311 - 312.

حولهما. وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: «هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون»! ويحمد الله ويشكره ويبكي من شدة الفرح، حتى وصل الإمام إلى فازة قد فرشت له فدخل وأقام إلى أن راح النهار، فخرج إلى المؤمنين وفرش له أمام الفازة وحفوا به يسمعون قوله ويبكون ويحمدون الله على ما بلغهم إياه من رؤيته، وهو يثني عليهم ويذكر فضلهم، إلى أن أذن المؤذن بصلاة المغرب، فقام فصلى بهم. . . وأتم الصلاة ودخل الفازة وانصرف الناس»(48). وكأنه أراد بذلك أن يظهر أنه قد أصبح منذ ذلك الحين الرئيس الروحي والزمني.

وإثر مطاردة في الصحراء دامت عشرة أيام، ألقي القبض على اليسع بن مدرار ومن هرب معه من أهل بيته، وأتي بهم إلى المعسكر لجلدهم وقتلهم. ولكن القائم بأمر الله قد شفع في اليسع بعد أن ضُـرب بالسياط، فعاش أياماً ثم مات من جراحه(48م). وبعد ما تركت سجلماسة للنهب إثر هروب ابن مدرار، تحصلت على الأمان، فأقام بها المهدي أربعين يوماً، واستعمل عليها عاملاً من مزاتة، هو إبراهيم بن غالب، وعينه على رأس حامية تضم 2000 فارس من الكتاميين، «ثم نهض بجميع عساكره يريد إفريقية»(49).

وكان الداعي قد وجه قبل ذلك كتاباً إلى أبي زاكي يخبره فيه بانتصاره وإطلاق سراح المهدي ورجوعه إلى رقادة في القريب العاجل.

«فلما وصل كتابه هذا إلى أبي زاكي وقرأه، أمر به مقرىء على المنبر. وسر الأولياء سروراً عظيماً. وأبطل الله شناعات المشنعين وأكذب أقوال المرجفين»(50).

---

(48) الافتتاح، الفقرة 251.

(48 م) سيرة جعفر، ص 131.

(49) الافتتاح، الفقرة 252 البيان، ص 154، حامية تضم 500 شخص ـ لم يذكر اسم العامل إلا كتاب عيون الأخبار 50الافتتاح، الفقرة 258.

(50) الافتتاح، الفقرة 258.

4 ـ دخول المهدي إلى إفريقية[51]:

لقد توقف الجيش الشيعي في تاهرت لتثبيت سلطة عاملها الكتامي دواس بن صولات، بعدما وهنت إثر ثورة القائد الزناتي محمد بن خزر[52]. والتحق بالمهدي في هذه المدينة رفيقه القديم ابن المطلبي وقاضي القيروان المرْوَرُّوذي.

واكتسى مرور المهدي بإيكجان صبغة احتفالية. «فقد وصل الإمام وولده في جميع أوليائه وكافة من معه من المؤمنين»[52م]. وقد توقف المهدي بتلك القلعة الشهيرة، كأنه يريد أن يستهل ولايته في مهد الحركة الشيعية بإفريقية. فأمر بإرسال كتاب إلى أبي زاكي لإعلامه بوصوله إلى إيكجان «دار الهجرة ومستقر الإيمان». وكانت إقامته في «دار الهجرة» إعلاناً عن بداية عهده بصورة فعلية. وكان أبو عبد الله «قد سلم الأمر له، وأوقف الدعاة على أنه الإمام الذي دعا له، وعرف جميع المؤمنين به»[53].

فرجعت حينئذٍ إلى المهدي، بوصفه «أمير المؤمنين»، مهمة ممارسة السلطة التي كان نائبه قد تقلدها باسمه. ولذلك فقد كان أول عمل قام به بصفته تلك استرجاع «الأموال التي كانت على أيدي الدعاة وكانوا قد دفنوها هناك، فأحضروها إليه»[53م]. وبعدما حدد الخليفة لأبي زاكي تاريخ وصوله إلى رقاده، وهو يوم الخميس لعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة سبع وتسع ومائتين (6 يناير 910)، خرج من إيكجان متجهاً إلى إفريقية[54]. فلقيه في باغاية جمع من العلويين من أهل القيروان، والحسينيين، والجعفريين، وبعض

---

(51) نفس المصدر، الفصل 37.

(52) عيون الأخبار [تحقيق محمد اليعلاوي ص 166].

(52 م) الافتتاح، الفقرة 262.

(53) نفس المصدر، الفقرة 259.

(53 م) نفس المصدر، الفقرة 261.

(54) نفس المصدر، الفقرة 262.

الأتباع من الشيعة، واستقبله أبو العباس رسمياً في فج سبيبة[54م].

«وأقبل المهدي في أنصار دولته واحتفال عساكره... وأبو عبد الله في جماعة الدعاة والشيوخ والأولياء، يسعون بين يديه، والقائم خلف ظهره والمواكب والعساكر قد أخذت طول فحص القيروان وعرضه»[55].

«فسلم عليه (فقهاء) وشيوخ القيروان بالخلافة والإمامة، وهنؤوه بالفتح والسلامة»[56]. فأمنهم في أشخاصهم وأبنائهم، ولم يذكر أموالهم[57]. ولكنه «رد عليهم رداً جميلاً وقال لهم خيراً وأمرهم بالانصراف، فانصرفوا. وقال لأبي عبد الله ومن كان بين يديه: كأنا رأينا قوماً يشبهون أهل مدائن المشرق»[57م].

وفي حين استقر أبو القاسم (القائم بأمر الله) في قصر الفتح[58] الأغلبي، نزل المهدي في قصر الصحن الذي كان الداعي قد أقام به من قبل، كأنه يريد أن يظهر بذلك أنه أصبح منذ ذلك الحين صاحب البلاد[58م].

(54 م) عيون الأخبار [تحقيق محمد اليعلاوي، ص 169].

(55) الافتتاح، الفقرة 264.

(56) انظر القسم الثاني من هذه الدراسة: الحكومة المركزية والملك.

(57) البيان، ص 158.

(57 م) الافتتاح الفقرة 264.

(58) [في عيون الأخبار، تحقيق محمد اليعلاوي، ص 170، «نزل المهدي القصر المعروف بأبي الفتح»].

(58 م) البيان، ص 158.

الفصل الثاني

خلافة المهدي
(934 - 322 - 910/297)

1 ـ ولاية الخليفة الفاطمي الأول[1]:

وُلِدَ صاحب إفريقية الجديد في عسكر مُكْرَم سنة 873أو 874، فيكون عمره لما تَولى الخلافة 36 أو 37 سنة. ووصفه لنا القاضي النعمان عند خروجه من سلمية، «وقد كَمُل شبابه ولم تبد به طالعة من الشيب»[2]. وقدّمته إلينا مصادرنا الإسماعيلية بطبيعة الحال في أحسن مظهر، مبرزة ما كان يتحلى به من شجاعة وحزم ومهارة وحكمة. على أن النصوص السنّية لم تنكر خصاله التي مكنته ـ كما أسلفنا ـ من تذليل كل العقبات غداة تولّيه الإمامة وطوال مدة هجرته. وقد رأيناه كيف كان يتصرف بصورة غامضة ـ والحق يقال ـ ولكن بثبات وبعد نظر في جميع المناسبات. وبما أنه كان مضطراً إلى تحمل أعباء مسؤولية قيادة الحركة الإسماعيلية، فقد كان حين تسلم مقاليد السلطة في رقادة وهو في مقتبل العمر، يتمتع بشيء من البراعة في ممارسة الحكم. وسيعرف طوال عهده الذي سيدوم زهاء الربع قرن كيف يستفيد من خبرته السياسية للاضطلاع بمهام الخلافة الصعبة، رغم التقلبات المتعددة. وسيتمكن بصعوبة لا محالة ولكن بنجاح، من تركيز سلطته في البلاد، تلك السلطة المقامة على أساس مذهب ينكره أهل السنّة. وسيترك بعد وفاته نظاماً قوياً ومملكة هادئة ومزدهرة، وسوف يكون له الفضل في إقامة الدولة التي طالما حلم بها آباؤه

---

(1) تبدأ ولاية المهدي بالله رسمياً في رقادة. إلا أن ظهوره كإمام كان في سجلماسة ثم في إيكجان.
(2) الافتتاح، الفقرة 259.

وأجداده، وإتاحة الفرصة لها لبسط سلطانها على المغرب ثم على مصر[3].

وغداة وصول المهدي إلى رقادة يوم الجمعة 21 ربيع الثاني 7/297 يناير 910، «دُعِي له بالخلافة برقادة والقيروان وبالقصر القديم، وأخرج توقيعاً أمر أن يدعى به على المنابر وأنفذه إلى خطيبي رقادة والقيروان بالدعاء، بعد الصلاة على محمد (صلعم) وعلى علي (ع. م) وفاطمة والحسن الحسين، وعلى الأئمة من ولده، الذي كان أمر أبو عبد الله به»، لفائدة عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين «وأمر بكتاب آخر، فكتب وقرىء على المنبر بالقيروان ووجه به نسخاً إلى البلدان». وقد أشار فيه المهدي إلى توليه الخلافة وحمد الله الذي «أنجز وعده لرسوله برد إرث النبوة ومقاليد الإمامة إلى عترة نبيه»[4].

«وأنفذ هذا الكتاب إلى الأمصار مع الدعاة.. فابتهج الناس وسروا بذلك وأكثروا الدعاء له. وجاءت وفود البلدان من كل جهة ومكان... ووصل أبو جعفر الخزري بالحرم من مدينة طرابلس أحسن وصول.. وقال الشعراء فيه ومدحوه، وكان أول من مدحه منهم وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني»[5].

2 ـ تنظيم الدولة الشيعية[6]:

أشار المهدي في خطاب التقليد إلى أن سياسته ستكون معتدلة ولكنها صارمة. وأعلن أن رعايته ستشمل «أشياعه من المؤمنين وجميع المسلمين»[7]. ولئن وعد في خطابه بمراعاة أوليائه ورعاياه الأوفياء المخلصين، إلا أنه أعرب عن عزمه على قمع «كل من نكث عليه وخان أمانته ونقض عهده وخفر ذمته».

(3) انظر دائرة المعارف الإسلامية 2: الفاطميون، ص 882.

(4) الافتتاح، الفقرة 265.

(5) نفس المصدر، الفقرتان 272 - 273.

(6) انظر القسم الثاني من هذا الكتاب: تنظيم الدولة الفاطمية، ملاحظات تمهيدية.

(7) الافتتاح، الفقرة 266.

كما أشاد بالدعم الذي حظيت به دعوته لدى «أوليائه وأنصار حقه أولي الأبصار النافذة من سادات العرب وأنجاد كتامة». ثم دعا أهل إفريقية المعروفين بمناهضتهم للمذهب الشيعي إلى «التمسك بحبل طاعته وأسباب ولايته ومحبة آل البيت».

ويتضح من ذلك أن همه الأول كان يتمثل في الحرص على استتباب الأمن والهدوء في كامل أنحاء البلاد وإصلاح الوضع المتردي الناشىء عن تفكك الدولة الأغلبية، وترسيخ مؤسسات النظام الجديد[8].

وهكذا فقد شرع الخليفة الفاطمي الأول منذ اعتلائه العرش في الاضطلاع بنفسه بالمهام التي كانت تنتظره. «فقسم على وجوه رجال كتامة أعمال إفريقية، وجعل لكل عسكر من كتامة ناحية منها ومن غيرها من البلدان». وسهر على إعادة تنظيم المصالح الإدارية، فأذن بإحياء «ديوان الخراج» الذي أحرق إثر هروب زيادة الله، وأمر بجبي الأموال وكان من حكمته في اختيار أعضاده أنه لم يستعن فقط بالموظفين الكتاميين المرتكزة عليهم الدولة الجديدة، بل استعان أيضاً بالعناصر العربية التي كانت في خدمة النظام السابق. فكان عليه أن يتخذ من أجل ذلك موقفاً متسامحاً تجاه «من بقي من بني الأغلب ومواليهم ورجالهم وأتباعهم»، فأعاد بعضهم إلى مناصبهم المدنية والعسكرية السالفة وانضم هؤلاء الموظفون العرب إلى الكتاميين والموالي والعبيد الذين كانوا في خدمة المهدي منذ عهد بعيد، فأكسبوا الإدارة الفاطمية الجديدة مزيداً من الاستقرار والنجاعة. وقد ترك لنا ابن عذاري والقاضي النعمان، حول «الدواوين» التي أنشأها المهدي أو أحياها والموظفين الذين عينهم على رأسها، معلومات مفيدة ستسمح لنا في الإبان بدراسة ذلك النظام الإداري الجديد[9].

(8) نفس المصدر، الفقرة 265.

(9) نفس المصدر، الفقرة 275.

3 ـ مؤامرة الداعي وأخيه أبي العباس ونهايتهما المفجعة[10]:

ما إن استقر الخليفة الفاطمي الأول في رقادة حتى أمسك بمقاليد الدولة وأقصى الداعي وأخيه أبي العباس ومشائخ كتامة الذين كانوا «كما عودهم أبو عبد الله يأمرون وينهون ويقبضون ويبسطون». وكان المهدي قد أزعجهم لما استولى على الأموال التي كانوا يحتفظون بها في إيكجان، وما لبث أن حط من شأنهم بحكمه الفردي[11].

وكان من أكبر المستائين من هذا التصرف أبو العباس وأبو زاكي اللذان ذاقا لذة الحكم مدة طويلة حينما كان أبو عبد الله يقود الحملة العسكرية ضد سجلماسة. وقد بلغ حقد الناقمين حداً كبيراً إلى أن أفضى إلى تأليف حزب معارضة وتدبير مؤامرة ضخمة للإطاحة بالمهدي قبل انتهاء السنة الأولى من ولايته[12].

وحول هذه المؤامرة التي سيذهب ضحيتها الداعي بعد أقل من سنتين من انتصاره على بني الأغلب، لدينا ـ بفضل المعطيات الواردة في الافتتاح والمكملة لما جاء في كتب الأخبار الأخرى ـ رواية واضحة بما فيه الكفاية من شأنها أن تسمح لنا باكتشاف أسباب المؤامرة والتعرف على مختلف أطوارها.

فقد نسبت رواية ابن عذاري[13] المبادرة بتدبير المؤامرة إلى أبي عبد الله ذاته الذي تشاور مع مشائخ كتامة للإطاحة بالمهدي، وأبدى شكوك حول صحة إمامته، خلال الحملة التي قام بها في أنحاء المغرب إلى أن وصل إلى تنس في أواخر سنة 297/ سبتمبر 910. فتعاقد مع المتآمرين في موضع يقال له الثور قرب تنس لاختبار عصمة المهدي وخلعه حالما يعودون إلى رقادة. ولكن ما لبث أن خانهم واحد منهم وهو غزوية الذي أحاط المهدي علماً بنواياهم

(10) نفس المصدر، الفصل 39 ـ الفقرتان 278 -288.

(11) نفس المصدر، الفقرة 261.

(12) نفس المصدر، الفقرة 278.

(13) البيان، ص 161.

السيئة. فاتخذ الخليفة خفية بعض الاحتياطات لحماية نفسه ونصب ديواناً «للكشف» (مصلحة المخابرات) وعهد به إلى أبي جعفر البغدادي[14]، ذلك الخادم الأمين الذي كان المهدي قد قربه إليه في سجلماسة ثم بعثه إلى الأندلس، ريثما يتولى مقاليد الخلافة. وعين خادماً آخر لا يقل إخلاصاً عن الأول، وهو عمران بن أبي خالد بن سلام الذي كلف بمساعدة أبي جعفر في مهمته البوليسية السرية. ويبدو أن المهدي قد تمكن، بفضل حماس هذا العون البغدادي، من إحباط المؤامرة وكف أيدي الداعي وشركائه[15].

وأطنب القاضي النعمان من جانبه في استعراض وقائع هذه المؤامرة التي خصص لها فصلاً في **الافتتاح**[16]، ولكنه لم يتهم الداعي بوجه خاص. فحسب روايته لم يكن محرك المؤامرة سوى أخيه أبي العباس. وتبدو صورة هذا الشخص كما رسمتها مصادرنا، لا سيما منها **الافتتاح وسيرة جعفر**، مبهمة شيئاً ما. ويظهر أن المرتبة التي كان يحتلها في سلم الدعوة بسلمية كانت تكتسي بعض الأهمية، بسبب معرفته الجيدة بالمذهب الإسماعيلي. ففي حين أرسل أخوه أبو عبد الله إلى اليمن للتدرب، ثم إلى المغرب لنشر الدعوة، بـقي أبو العباس في سلمية ضمن حاشية المهدي وحول داعي الدعاة فيروز. ولا شك أنه كان مطلعاً بما فيه الكفاية على الاضطرابات التي صاحبت وعقبت تولي المهدي مقاليد الإمامة، وعارفاً بحقيقة نسبه ونسب ابنه القائم[17]. ومن الجدير بالتذكير[18] أنه كان موجوداً إلى جانب المهدي أثناء هروبه قبيل دخول القرامطة إلى سلمية. وكان المهدي قد عينه في طرابلس ليسبق القافلة صحبة المبعوثين الكتاميين. وأمره بالتحول إلى القيروان للقيام بمهمة استطلاعية قبل الذهاب إلى إيكجان. ولما ألقى عليه القبض أعوان زيادة الله تمكن من إخفاء هويته والنجاة

(14) **الافتتاح**، الفقرة، 275.

(15) **البيان**، ص 163.

(16) **الافتتاح**، الفصل 39.

(17) انظر الباب الأول من القسم الأول: نسب الفاطميين.

(18) انظر الباب الثاني من نفس القسم: رحلة المهدي.

بنفسه، وظل مغموراً في سجن أغلبي إلى أن اندلعت ثورة مدلج بن زكرياء في جمادي الثانية 293/ أبريل 906. فاستغل تلك الفرصة للهروب من السجن واللجوء إلى طرابلس[19]. وألقي عليه القبض من جديد أثناء إقامة زيادة الله في تلك المدينة وهو في طريقه إلى المشرق. واستطاع مرة أخرى، ولكن بصعوبة، إخفاء قرابته مع أبي عبد الله، فأخلي سبيله قبل أن يلتحق بعد ذلك بقليل بأخيه الذي دخل رقادة ظافراً منصوراً.

وتُبيّن هذه الأسطر القليلة إلى أي مدى كان الحظ مؤاتياً لأبي العباس. وفي الوقت الذي عاد فيه إلى عاصمة بني الأغلب السابقة، كان من حقه أن يعتقد في حسن طالعه وأن يطمح إلى القيام بدور بارز في الدولة الجديدة. وقد كان يؤهله لذلك نفوذه على الداعي، ومعرفته الجيدة بالمذهب الإسماعيلي وخبرته في ميدان الجدل[20]. أضف إلى ذلك أنه لم يكن يفتقر لا إلى الطموح ولا إلى قوة الشخصية. فلما تولى الحكم في إفريقية بالاشتراك مع أبي زاكي، أثناء الحملة الطويلة التي قام بها الداعي في سجلماسة، مارس سلطته بقساوة مفرطة. فقد عانى أهل إفريقية من تعسفه وتألم منه بالخصوص فقهاء المالكية الذين تعرض بعضهم للاضطهاد إلى حد الموت[21].

وبناءً على ذلك فإننا ندرك بسهولة ما شعر به أبو العباس الطموح وأبو زاكي المتحمس من ضغن لما فقدا، إثر تولية المهدي، ما شرعا في القيام به من دور بارز ضمن الدولة الجديدة. كما اغتاظ المشائخ من جانبهم من طريقة الحكم التي اتبعها رئيسهم الجديد واستاؤوا هم أيضاً من هيبته وقوة شخصيته، وهم الذين عودهم أبو عبد الله على الاشتراك معه في ممارسة السلطة. أما الداعي فقد سلط عليه أبو العباس من الضغوط ما أفسده وألبه على مخدومه. فأصبح موقف المهدي ضعيفاً، بعدما تخلى عنه كبار أنصاره الذين نصبوه على

---

(19) الافتتاح، الفقرة 235.

(20) نفس الصدر، الفقرة 243.

(21) طبقات، ص 214 - 216، إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية، ص 144 - 152.

العرش منذ عهد قريب، لا سيما وهو لا يستطيع علاوة على ذلك التعويل على أهل البلاد المناهضين له بطبيعة الحال. فصار تحت رحمة أبي العباس المتمتع بمساندة أخيه ومشائخ كتامة، وتوفرت عندئذٍ للمؤامرة جميع أسباب النجاح[22].

ومع ذلك كان المتآمرون يفتقرون منذ البداية إلى الحزم وكانوا مترددين سواء بسبب خطورة العملية أو بالعكس من ذلك بسبب تحققهم من نجاحها، فحاولوا في أول الأمر تخويف المهدي بواسطة الداعي الذي تكفل بإيعاز من أبي العباس بتوجيه التحذيرات الأولى إليه.

«فجعله على طريق النصيحة له، وقال: يا مولانا إن كتامة قوم قد قومتهم بتقويم، وأجريتهم على ترتيب وتعليم، وتم لي منهم ما قصدت. وهذا الذي فعلته أنت بهم من إعطائهم الأموال وتوليتهم الأعمال وما أمرتهم به من اللباس والحلي، فساد لهم للخروج من عادتهم، فلو تركتهم كما كانوا إلى أن أباشرهم دونك، آمرهم وأنهاهم وأقيمهم على ما عودتهم.. فتكون وادعاً في قصرك لا يصل أحد منهم ولا من غيرهم إليك، ليكون ذلك أهيب لك وأشد لأمرك... فلما سمع ذلك منه المهدي أيقن بما تداخله وعلم من حيث أتى فرد عليه في ذلك رداً لطيفاً، ولم يره أنه علم بحاله ولا أوقفه على اليأس مما منته نفسه»[23].

«فلما علم ذلك أبو العباس زاد في فساده.. ثم داخل المشائخ والدعاة وكانوا يعظمونه لما رأوه من تعظيم أبي عبد الله له، وسمعوه من بلاغته وعلمه وتفننه، فأخلد كثير منهم إليه وجعل يرمز لهم بعض الرمز إلى أن صرح لمن رأى أن كلامه وقع فيه موقعاً، فطعن لهم في الإمامة وأدخل فيها الشبهة»[23م]. وعندئذٍ بدأت المؤامرة تنتشر وتتبع مجرى مقلق بالنسبة إلى الخليفة.

---

(22) انظر، البربر، 2/521 - 523.

(23) الافتتاح، الفقرة 279.

(23 م) نفس المصدر الفقرة 280.

«فاستخفّ هارون الذي يقال له شيخ المشائخ الأربابي[24]، إلى أن واجه المهدي بالقول الذي زينه له (أبو العباس) واستفسده من أجله. فقال للمهدي مواجهة: إننا شككنا في أمرك...»[25]. فكان رد فعل المهدي سريعاً هذه المرة، إذ أمر بقتل شيخ المشائخ المسالتي، فانضم معظم أبناء قبيلته إلى شقّ المتمردين. ولم يبق موالياً للإمام سوى شيخ واحد اسمه أبو خليفة، مع بعض الأنصار. «وكان ممن خالف واعتصم بحبل المهدي، وكان يأتيه بأخبارهم إليه غزوية بن يوسف، فقدمه المهدي على من استعبدَ من العبيد، وجمع إليه من سلم من النفاق من المؤمنين»[26].

إلا أن أبا العباس وشركاءه كانوا مترددين في شن المعركة. ومع ذلك فقد كان صاحب ديوان البريد ذاته، ابن القديم، مشاركاً لهم، وتمكن من استمالتهم «بأموال كانت في يديه من أموال زيادة الله وخاف من أمير المؤمنين مطالبته إياه بها»[27]. وقد تعددت اجتماعات المتآمرين في دار أبي زاكي الذي زاد من مناهضته ما كان يشعر به من حسد إزاء غزوية. ولكن رغم إجماعهم على الفتك بالمهدي، لم يقدموا على تنفيذ ما عزموا عليه[27م].

وبناءً على ذلك فقد كان للخليفة متسع من الوقت لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإحباط المؤامرة. وعرف كيف يحتفظ في اللحظات الحاسمة برباطة جأشه، ويبعث الرعب في قلوب خصومه، حتى أنه لم يكن في حاجة إلى المزيد من اليقظة وتعطيل مقابلاته. فتمكن بفضل ذلك من إفحام أبي عبد الله وتخويفه، وقد دخل عليه ثلاثة أيام متتالية بقميص مقلوب، لأنه بات في دار أبي زاكي ثلاث ليال متتابعة[28].

---

(24) نفس المصدر، الفقرة 46.

(25) نفس المصدر الفقرة 282.

(26) نفس المصدر، الفقرة 283.

(27) نفس المصدر الفقرة 286.

(27 م) نفس المصدر، الفقرة 285.

(28) نفس المصدر، الفقرة 285.

فكان تردد المتآمرين وبالاً عليهم، وتمكن المهدي من اغتنام الفرصة للتخلص من محركي المؤامرة. فبدأ بإقصـاء أبي زاكي بلباقة دون إثارة أي ضجيج. «إذ أخرجه إلى طرابلس، وكان عمه أبو يوسف (ماكنون بن ضبارة) عاملاً عليها. فلما وصل إليها كتب إليه بقتله. فقتله أبو يوسف عمه صبراً، وبعث برأسه إلى المهدي»[29] وقد تم ذلك يوم الاثنين 15 جمادي الثانية سنة 18/298 فبراير 911.

وكان ذلك اليوم أيضاً آخر يوم في حياة الداعي وأخيه أبي العباس اللذين لقيا نفس المصير المفجع، وذلك بلا شك حسب خطة مدبرة من قبل «فقد خرج أبو عبد الله وأبو العباس يوماً يريدان قصر المهدي (وهو قصر الصحن) على عادتهما. . فقتل غزوية أبا عبد الله وقتل حبر بن تماشت أبا العباس فيما بين القصرين»[30]، «ومكثا صريعين على ضف الحفير المعروف بالبحر»[30م]، ثم أمر المهدي بدفنهما، ولما اطمأن إثر هذا الاغتيال المزدوج الذي ارتكب بإيعاز منه، أسرع إلى لعن أبي العباس، «وترحّم على أبي عبد الله وذكره بخير». ولا ينبغي أن نستغرب من مثل هذا التكريم. ذلك أن الرجل الذي عرف كيف يصنع من الكتاميين قوة قادرة على تقويض الدولة الأغلبية، وكيف يمكن المطالب بالخلافة الفاطمية من اعتلاء العرش، لا يستحق مثل هذه النهاية المؤلمة. ومهما كانت مسؤوليته في المؤامرة فقد اكتسب نصيباً وافراً من المجد. فلو ذكره المهدي بسوء بعدما أمر بقتله لكان أظهر قلة كرامة. ولربما كان مكتوباً على مثل هذا الخادم المطيع أن يلقى مصرعه بأمر من الرجل الذي تفانى في خدمته، ألم يتعرض أبو مسلم الخراساني[31] لنفس المصير؟ وقد أسس هذا الداعي ـ هو أيضاً ـ سلطنة لحساب مخدومه الذي أمر بقتله جزاءًا له.

---

(29) نفس المصدر، الفقرة 286.

(30) نفس المصدر، الفقرة 287.

(30 م) البيان، ص 164.

(31) دائرة المعارف الإسلامية 1، أبو مسلم، ص 18.

وبموت أبي زاكي ثم الداعي وأخيه، فقدت المؤامرة زعماءها ولم يطل عهدها، فقد تمت مطاردة كبار المشاركين فيها وقتلهم، وأعدم بعد ذلك ببضعة أشهر كل من ابن القديم صاحب البريد ومحمد بن أبي سعيد الميلي المحتسب وثلاثة آخرين من كبار رجال الدولة، وهم محمد بن أبي رجّال البغائي وأبو الوهب بن زرارة العبدري ومحمد بن علي أيوب[32] ويحق للمهدي أن يبتهج عندئذٍ بتمكنه من إزالة عقبة كأداء كانت تعترض سبيله نحو الحكم المطلق، واستبعاد أي خطر جسيم يمكن أن يهدد عرشه. .

4 ـ الاضطرابات الداخلية وقمعها:

أ ـ الانتفاضة الأغلبية بالقصر القديم[33]:

كان قتل أبي عبد الله لا بدّ أن يسفر عن عواقب وخيمة. فلئن كانت بالنسبة إلى الخارج الإيضاحات التي قدمها المهدي إلى أوساط الدعوة الإسماعيلية في المشرق كافية لتبرير ذلك الحادث، إلا أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى الداخل، فقد تقبل أهل القيروان بفزع خبر اغتيال الرجل الذي لم يزل اسمه مرتبطاً بقيام الدولة الجديدة. فلم تعد العناصر الأغلبية من الخاصة تشعر بالأمن بعد مقتل الرجل الذي أمنها إثر سقوط الدولة الأغلبية فوجدت نفسها حينئذٍ تحت رحمة عدوها الشيعي. وقد خشي من بقي من بني الأغلب في القصر القديم من المهدي، وأصبحوا محتاطين منه، بقيادة أحد وجهائهم، وهو أبو الحسن بن أبي حجر[34]. وما لبث أن اندلع الحادث الذي سيؤول بهم إلى الثورة. فقد اغتنم بنو الأغلب فرصة خصومة نشبت في سوق القصر القديم بين بعض الكتاميين وبين أحد السكان، لإجلاء جميع الكتاميين من المدينة.

«وتصايح من كان حول القصر القديم من كتامة، فزحفوا إليه وأحاطوا به وأوقدوا النار على الصمعة ليمدّهم أهل القيروان. فجاءهم جماعة منهم. فمن

(32) البيان، ص 167 - 169.

(33) الافتتاح الفصل 40.

(34) الافتتاح، الفقرة 289.

قبل أن يصلوا إليهم، أخرج بنو الأغلب ما كان عندهم من السلاح والعدة وفرقوا ذلك على أهل النكاية منهم، وركبوا خيلهم وعبؤوا الخيل والرجال في داخل القصر بموضع يقال له الميدان، به رحبة واسعة، وفتحوا باب السعادة وهو بهذا الميدان، وخرجوا على ما كان عليه من كتامة بدفعة واحدة، فقتلوا منهم جماعة ثم واقفوهم ساعة، فرفعوهم وخرج يومئذٍ أبو خليفة (من القيروان) واتصل الخبر بالمهدي فأرسل من رد كتامة وأظهر الإنكار عليهم فانصرفوا»[35].

إلا أن بني الأغلب لم يلقوا السلاح. «فضربوا أخبيتهم خارجاً من القصر القديم مما يلي رقادة بموضع يقال له الهدف، وبرزوا مجاهدين بالعصيان. . . وقاموا كذلك أياماً ثم تخللوا وانصرفوا إلى دورهم واستحقوا القتل بنكثهم ومباينتهم، فتركهم المهدي ثم أمر بالقبض على جماعة من وجوههم، فقبض عليهم فقتلوا صبراً ثم قبض بعد ذلك بمدة على طبقة ثانية منهم فقتلوا، ثم أمر بطلبهم حيث كانوا من البلدان، فقتلوا بكل مكان. وتتبع من شذ منهم فحبس فلم يزالوا محبوسين إلى أن أطلقهم المنصور بعد الفتح[35م] مناً عليهم، ووصلهم وسيرهم إلى مصر، وذلك حين أطلق أهل السجون»[36].

ب ـ ثورة أهل القيروان على كتامة[37]:

لم تكن حادثة القصر القديم تعبيراً عن القطيعة بين العناصر الأغلبية والنظام الشيعي فحسب، بل كانت تعبر أيضاً عن هشاشة علاقات حسن الجوار التي حرص الداعي منذ دخوله إلى رقادة على إقامتها بين الكتاميين وأهل إفريقية. وقد برزت بقوة العداوة الكامنة بين المجموعتين في القيروان بعد ذلك بمدة قليلة أثناء اندلاع انتفاضة دامية إلى أبعد حد. فقد أثار شجار بين بعض

---

(35) نفس المصدر، الفقرة 290.

(35 م) أي الانتصار على أبي يزيد صاحب الحمار.

(36) الافتتاح، الفقرة 291. انظر صيغة ابن حماد ص. 37 «وأطلق من الحبس عشرين رجلاً من بقايا بني الأغلب ووصل كلا منهم بعشرين مثقالاً ونفاهم إلى مصر».

(37) الافتتاح، الفقرة 292.

أهل القيروان وبعض الكتاميين حوادث عنيفة يوم الثلاثاء 22 شعبان سنة 13/299 إبريل 912. «فقام أهل القيروان على من كان بداخلها من الكتاميين، فقتلوا منهم في ساعة واحدة زهاء سبعمائة رجل»(38). ثم أعاد العامل الحسن بن أحمد بن أبي خنزير الأمن إلى نصابه(39).

«واتصل الخبر بالمهدي فقال: ألهم عقد أو رئيس في هذا الأمر؟ قيل: لا، وإنما فعل ذلك الغوغاء ومن لا يُعْرَف ولا يوجد لو طلب ولا يؤبه له. فتمثل بقول الشاعر [رجز]:

أخشى على ديسم من بَرْدِ الثَّرَى(39م) أَبَى قَضَاءُ اللّهِ إلا مَا أَرَى

وأتاه شيوخ القيروان مع المَرْوَرُّوذي القاضي(40)، فاعتذروا من ذلك، فأعرض عنهم ولم يعجل بالعقوبة عليهم مدة. ثم عاقبهم بعد ذلك في أموالهم وقتل من قتل منهم في أمصارهم وبين جماعتهم»(41).

«وقيل إن قوماً عرفوا ممن قتل ذلك اليوم وأثخن في الأولياء وكانوا يعرفون بذلك. فلم يعرض لهم. إذ لم يقم في ذلك بينة عليهم ولم يجب في الحكم بالظاهر قتلهم»(42).

إلا أن بعض المصادر السنية قد أشارت بأطناب إلى ما أصاب فقهاء المالكية من عذاب خلال السنوات التي تلت ثورة القيروان. وقد كان من

---

(38) نفس المصدر، وحسب ابن عذاري، ص 166: أكثر من 1000 رجل.

(39) البيان، ص 166.

(39 م) [في الأصل: «أحثو على ديثم من جعد الثرى»، والصحيح من عيون الأخبار].

(40) الافتتاح، الفقرة 223.

(41) نفس المصدر، الفقرة 292.

(42) نفس المصدر، الفقرة 293.

نلاحظ الحرص على الحكم بالظاهر لعدم إزعاج السكان المتعلقين بالسنة والمناهضين للحكم بالباطن. وانظر حول هذا الموضوع اللمحة المتعلقة بالسياسة الدينية في عهد الخلفاء الفاطميين الأوائل بقلم كانار، دائرة المعارف الإسلامية 2، الفاطميون، ص 879. و انظر أيضاً مقدمة تحقيق وحيد ميرزا لكتاب القاضي النعمان «الاقتصار» دمشق 1957.

الطبيعي أن يتعرضوا للقمع الذي أثارته مثل تلك الاضطرابات، بسبب مناهضتهم للمذهب الشيعي وما كان لهم من تأثير في أهل القيروان. ومهما يكن من أمر فقد استتب الأمن بسهولة في القيروان والقصر القديم على حد سواء[43].

5 ـ ثورات الأقاليم الخارجية وقمعها:

أ ـ الحملات التأديبية في المغرب الأوسط[44].

خلال نفس السنة التي اعتلى فيها العرش، كان المهدي، مضطراً إلى التصدي للشغب الذي أثارته القبائل غربي المملكة. فبعد عودته ظافراً من سجلماسة مع الداعي، تجمع الزناتيون الذين منعهم الجيش الشيعي من التقدم في طريقه، حول تاهرت، وحاصروا عاملها الكتامي دواس بن صولات. ولكن «شيخ المشائخ» هارون بن يونس الذي قدم للقيام بحملة ضدهم، قد هزمهم ورفع الحصار على تاهرت. وفي نفس سنة 910/297 أمر المهدي الداعي بالذهاب بنفسه على رأس جيش جرار لتهدئة بلاد البربر[45]. فخرج أبو عبد الله في اليوم الثالث من ذي القعدة/ 15 يوليو، «فانتهى إلى طبنة ووافى بها ابن خزر الزناتي، وقد انضم إليه قوم من أهل الخلاف من قبائل كثيرة فقتل أبو عبد الله ممن معه أبرح قتل، وولى ابن خزر هارباً في شرذمة قليلة، وتفرق من كان معه، وأوقع بعد ذلك بوسفانة ومليلة ومدهنة وصبارة وصدينة وغيرهم من موضع يقال له ناوليت»[46].

وواصل أبو عبد الله حملته المظفرة، فانتهى إلى تاهرت حيث قمع ثورة

(43) ولكن الكتاميين الغاضبين على اغتيال الداعي وأخيه لم يلبثوا أن شقوا عصا الطاعة في بلادهم، البيان، ص 166 - 167. انظر فيما يلي ثورة الماوطنتي.

(44) لقد أهمل النعمان ذكر هذه الأحداث لأنه كان يرى أن دور الداعي السياسي والعسكري قد انتهى عندما تقلد المهدي الحكم. ولذلك فهو لم يذكره إلا بمناسبة مشاركته في المؤامرة التي ذهب ضحيتها.

(45) البيان، ص 160.

(46) [في النص الأصلي «تاولت» والتصحيح من عيون الأخبار» (تحقيق محمد اليعلاوي)، ص 179، الإحالة 52].

اندلعت هناك وأخضع عدة قبائل متمردة ثم قصد مدينة تنس وأعاد الأمن إلى منطقتها في محرم 298/ منتصف سبتمبر 910 وقفل راجعاً إلى رقادة[47].

وبعد موت الداعي ببضعة أشهر ثار الزناتيون من جديد في ناحية تاهرت ووضعوا العامل والحامية في موقف حرج. فوجه المهدي إلى تاهرت عدداً كبيراً من الجنود، فاسترجعوا المدينة يوم الثلاثاء 4 صفر 299/ أول أكتوبر 910 وأعادوا الأمن إلى نصابه بعد أن كبدوا الزناتيين خسائر فادحة. واستدعي دواس إلى رقادة وأعدم بعد ذلك بقليل. وقد عوضه في تاهرت القائد المكناسي مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول[48].

ب ـ مغامرة المتمرد الماوطنتي في بلاد كتامة[49].

لقد انزعج الكتاميون من فشل المؤامرة المدبرة ضد المهدي، وقتل الداعي مع عدد كبير من أبناء قبيلتهم، ومن الموقف المتسامح المتخذ إزاء أهل إفريقية إثر ثورة القيروان. فخرج كثيرون منهم من إفريقية وقفلوا راجعين إلى مناطقهم الجبلية في بلاد القبائل الصغرى. وسرعان ما تحول غضبهم إلى حركة ثورية[50]. «فأقاموا غلاماً حدثاً من أخس أهل بيت فيهم يقال لهم بنو ما وطنت من أورسة (يعرف باسم كادو بن معارك)، وزعموا أنه المهدي، وقالوا: أبو عبد الله حي لم يمت. . . وزحفوا إلى ميلة فأخذوها»[51].

«فأخرج إليهم المهدي بنطاس بن حسن الملوسي في عساكر عظيمة وجماعة من رؤساء كتامة، فأوقع بهم الماوطنتي وهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة»[52]. فحثت هذه الهزيمة النكراء المهدي على رد الفعل بأكثر حزم.

---

(47) البيان، ص 161 - 162 وعيون الأخبار (المصدر المذكور) ص 180.

(48) البيان، ص 166.

(49) في الافتتاح، الفقرة 294 الماوطنتي نسبة إلى ماوطنت، وفي سيرة جعفر: الماوطي وفي البيان 166: المارطي، وفي عيون الأخبار، 190 الماوطي.

(50) الافتتاح، الفقرة 294 والبيان، ص 166.

(51) الافتتاح الفقرة 294.

(52) عيون الأخبار، ص 190.

«فأنهض ولده وولي عهده والخليفة من بعده ألقائم بأمر الله (أبو القاسم)، وهو يومئذٍ لاثنتين وعشرين سنة» فخرج من رقادة يوم السبت 2 رمضان 16/299 مايو 912 لقتال المهدي المزعوم[53].

«وقدم المهدي بين يديه عسكرين على أحدهما أبو ذخار الملوسي وعلى الآخر محمد بن يعلى. وسار بعدهما القائم، ففتح مدينة قسنطينة من بلاد كتامة لسبع يقين من شوال (11 يونيو) وزحف إلى ميلة». وبعد ذلك بعشرة أيام التقى القائم يوم الأحد 3 ذو القعدة/ 21 يونيو بالماوطنتي في وادي الزيت فهزمه وأرغمه على الفرار. ثم توجه إلى إيكجان وأقام بها معسكره.

«ولما انهزم الماوطنتي أنفذ القائم خلفه غزوية، فأخذ، بوادي سهر[54]. ومعه أهل بيته». ورجع القائم إلى رقادة في مطلع سنة 300/ خريف 912. فقتل الماوطنتي وأصحابه بعد ما طيف بهم على ظهور الجمال في القيروان[55].

ج ـ ثورة مدينة طرابلس[56]:

وكما كان الأمر بالنسبة إلى الزناتيين في غرب المملكة، كان الهواريون يثيرون الشغب في الناحية الجنوبية الشرقية من إفريقية، في ناحية طرابلس. وبعد أقل من سنة من انتصاب المهدي في رقادة ثارت القبائل الهوارية بمساعدة بعض عناصر من زناتة ولماية، تحت قيادة هارون الهواري. فحاصرت مدينة طرابلس التي كان عاملاً عليها ـ كما أسلفنا ـ الأجاني ماكنون بن ضبارة عم أبي زاكي[57]. فأمره المهدي بالخروج على رأس عدد كبير من العساكر لإرجاع

(53) بما أن الشكوك أصبحت تحوم حول إمامة المهدي، فقد كان من الطبيعي أن يفكر الكتاميون في اختيار «مهدي» يناسبهم ويحترم امتيازاتهم وسلطتهم التي عمد الخليفة الفاطمي إلى الحط منها منذ مروره بإيكجان وقبل دخوله إلى رقادة.

(54) [وادي سهر يُعرَف اليوم بوادي القصب].

(55) إن النعمان وابن عذاري متفقان على تأكيد قتل المتمرد في رقادة. أما الداعي إدريس فقد ذكر في عيون الأخبار أن القائم هو الذي قتل المتمرد في إيكجان.

(56) الافتتاح، الفقرة 295.

(57) العامل على ميلة ثم على باغاية وأخيراً على طرابلس بعد سقوط الأغالبة، انظر، الافتتاح، =

الأمن إلى نصابه وإخضاع القبائل المتمردة. وكان الغرض من ذلك معاقبة تلك القبائل، وفي نفس الوقت إبعاد عامل طرابلس الذي كان يتآمر ضد الخليفة[58].

وفي مطلع سنة 300/ خريف 912 ثار على السلطة الفاطمية أهل طرابلس الذين أرهقهم تعسف عاملهم وأبناء قبيلته. فأطردوا ماكنون بن ضبارة والقاضي الشيعي أفلح بن هارون. وقتلوا عدداً كبيراً من الكتاميين، وولّوْا عليهم عاملاً عربياً من أهل باغاية اسمه أحمد بن نصر، ومعه رجل قرشي يقال له محمد بن إسحاق، ويعرف أكثر باسم ابن القرلين[59].

وفي حين كان الجيش الفاطمي يسير في اتجاه طرابلس في أوائل جمادي الأولى/ منتصف ديسمبر 916، ساهم في هذه الحملة أيضاً أسطول صغير يتركب من 15 سفينة. وقد أبدت طرابلس مقاومة مستميتة، وكانت المؤونة تصل إليها عن طريق البحر بواسطة الهواريين، واستمر الحصار مدة ستة أشهر، بعد ما أحرق أسطول العدو السفن الفاطمية[60]. فهزم القائم الهواريين ومنع بذلك وصول المؤونة إلى طرابلس التي «افتتحها عنوة، فعفا عن عامتها من أهلها وقتل الذين عقدوا الخلاف بها من أكابرها، واستصفى أموالهم»[61]. ورغم الأمان الذي أعطاه لأهلها، «فقد أغرمهم ما أنفق على الجيش، وذلك أربعمائة ألف دينار، وكان المتولي لتغريمهم وتعذيبهم خليل بن إسحاق، وهو من أبناء جندها وممن ولد بها»[62]. ثم استخلف على المدينة «أبا مديني بن كناوة اللهيصي، وترك معه حباسة بن يوسف الملوسي (وهو أخو غزوية)، وعاد إلى رقادة ظافراً منصوراً»[63].

= الفقرات، 135، 185- 186 - 286.

(58) البيان، ص 163 والبربر، 524/2.

(59) عيون الأخبار، ص 192، الإحالة عدد 73.

(60) البيان، ص 169.

(61) الافتتاح، الفقرة 295.

(62) رحلة التجاني، ص 241.

(63) عيون الأخبار ص 192.

د ـ ثورة صقلية[64]:

إثر سقوط الدولة الأغلبية أخرج أهل صقلية الحسن بن رباح الذي كان عاملاً على الجزيرة باسم زيادة الله الثالث، وعوضوه بعامل آخر موافق لهم، يقال له علي بن أبي الفوارس[65]. وكان الداعي الذي أسرع منذ دخوله إلى رقادة إلى إعطاء الأمان للصقليين ـ كما أسلفنا ـ وأبدى تجاههم عطفاً خاصاً، قد أبقى ذلك العامل في منصبه[66]. لأن الوقت لم يكن آنذاك مناسباً لفرض النظام الشيعي الجديد على صقلية، كما فرض على إفريقية. وبناءً على ذلك فقد اعترف الصقليون دون أي اعتراض بسلطة حكام إفريقية الجدد[67].

وبعد بضعة أشهر من اعتلائه العرش، رأى المهدي من الأحسن أن يستعمل أحد أعوانه على صقلية، على غرار سائر مقاطعات مملكته. ولكن حرصاً منه على مجاملة الأسر العربية العريقة المقيمة بالجزيرة، وقع اختياره، للاضطلاع بتلك المهمة، على عامل القيروان الحسن بن أبي خنزير المنحدر من سلالة العرب السناجرة، والذي دخل الدعوة في ميلة في وقت مبكر[68].

فنزل ابن أبي خنزير بمازرة في العاشر من ذي الحجة سنة 19/297 أغسطس 910، في نفس الوقت هو والقاضي المتشيع إسحاق بن أبي المنهال[69]. وقد حكم الحسن صقلية بكل صرامة طوال ما يناهز السنتين وأخضعها لنظام قائم على الإرهاب، مع مواصلة الغارات الفتاكة التي كان يقوم

---

(64) انظر أماري، تاريخ المسلمين في صقلية، الطبعة الثانية التي راجعها نالينو.
وانظر أيضاً حول هذا الموضوع عيون الأخبار وسيرة جعفر.

(65) فاسيلاف، بيزنطا والعرب، ج 2 ص 231 وأماري، 165/2 - 166.

(66) الافتتاح، الفقرة 232.

(67) فاسيلاف، نفس المرجع، وأماري، ص 167.

(68) أماري، المرجع المذكور.

(69) فاسيلاف، الفقرة 144، أماري، 168/2 - 169، وحول ابن أبي المنهال، انظر بالخصوص البيان، 182 وطبقات، ص 225، 233 - 231، 240.

بها أسلافه في قلورية. وأخيراً ضجر أعيان الجزيرة من سياسة الحسن الجائرة ومن تعسف أخيه الذي كان عاملاً على جرجنت، فقبضوا عليه، وأرغموا المهدي على دعوته إلى رقادة[70] وتعويضه بعامل جديد يقال له علي بن عمر البلوي في منتصف سنة 912/299[71]. إلا أن تغيير العامل لم ينجح في وضع حد للاضطرابات التي اكتسحت صقلية وفي آنٍ واحد بعض المقاطعات الخارجية، مثل بلاد القبائل الصغرى والزاب، إثر مقتل الداعي. على أن الصقليين لم يقصدوا بطرد الحسن بن أبي خنزير الاحتجاج فقط على تجاوزات ذلك العامل، بل أرادوا أيضاً، بعد المعاملة الحسنة التي عاملهم بها الداعي، باعتبارهم يؤلفون مجموعة متماسكة يسودها العنصر العربي والمذهب المالكي، الإعلان عن ثورتهم على النظام الجديد الذي كانوا يكرهونه مثل أهل إفريقية. فحاولوا حينئذٍ التحرر من الهيمنة الفاطمية، ولم يلبثوا أن تخلصوا من البلوي مثلما تخلصوا قبل ذلك من سلفه. وبالفعل فقد اكتست ثورتهم منذ سنة 912/300 بصورة واضحة صبغة موالية للنظام السابق[72].

وسعياً إلى اختيار رئيس ينتمي إلى مجموعتهم، ولوا عليهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب الذي كانت أسرته تضم عدداً من كبار رجال الدولة الأغلبية[73]. ويؤكد الأخباريون أن ابن قرهب لم يقبل الاضطلاع بتلك المهمة العسيرة إلّا على مضض، بعد ما تعهد أنصاره بمساندته والإخلاص له دون قيد أو شرط[74]. فبادر صاحب صقلية الجديد بالاتصال ببغداد للحصول على إقرار سلطته من قبل الخليفة المقتدر، رئيس أهل السنّة، وأعلن عن قطع علاقته مع خليفة رقادة المارق[75]. وقد جاء الاعتراف العباسي بسرعة وأعلن ابن قرهب

(70) فاسيلاف، نفس المرجع، البيان، 168، البربر، 521/2، أماري 169/2 - 170.

(71) أماري، 171/2.

(72) البيان، 168 الكامل، 142/6 - 143.

(73) انظر مقدمة هذا الكتاب.

(74) البيان، المصدر المذكور.

(75) وفي نفس ذلك الوقت رفض الخليفة العباسي السماح لزيادة الله الثالث بدخول بغداد وأمره =

عن دخول صقلية في طاعة المقتدر، بعدما تجهز بالألوية والخلع السوداء[76]. ثم أسرع إلى شن الحرب قبل أن يأتي رد فعل الخليفة الفاطمي، فتوجه أسطول صقلي عتيد إلى إفريقية للهجوم على سواحلها، بعدما قام ببعض الغارات في قلورية، وذلك في نفس الوقت الذي كانت فيه القوات الفاطمية تقاتل في مصر بقيادة حباسة ثم القائم بأمر الله نفسه[77]. وقد فاجأ الأسطول الصقلي الذي كان على رأسه محمد نجل ابن قرهب ذاته، أسطولاً فاطمياً راسياً في لمطة على أهبة الهجوم على صقلية، فدمره[78]. ثم ذبح محمد بن قرهب بيديه أمير البحر الفاطمي ابن أبي خنزير، ذلك الشخص الذي روع الصقليين قبل ذلك بثلاث سنوات. كما أوقع في الأسر حوالي 600 شخص. فأسرعت كتيبة فاطمية إلى لمطة، ولكنها هزمت وتكبدت خسائر جسيمة وقام الأسطول الصقلي إثر ذلك بغارة على ضواحي صفاقس وعاد إلى قواعده سالماً[79].

ورغم ما أحرزه ابن قرهب من انتصارات عسكرية، فإنه شهد في ظرف أقل من سنتين تدهور سلطته وتعفن الوضع في بلده وتمرد قسم كبير من جيشه[80]. فعرض أهل صقلية الذين كانوا يخشون أن تسلط عليهم عقوبات قاسية، على المهدي استرجاع سلطته على الجزيرة ووعدوه بتسليم قائدهم الذي كانوا مقرين العزم على الإطاحة به. وحاول ابن قرهب عبثاً الفرار إلى الأندلس فألقي عليه القبض وكبل بالسلاسل وأرسل إلى إفريقية. ولقي نفس المصير القاضي الذي كان قد عينه، واسمه ابن الخميّـي. فأنزلا في سوسة حيث كان يقيم المهدي في أوائل سنة 304/ يوليو 916. وقد أمر بنقلهما إلى رقادة،

= بالتوجه إلى المغرب ووعده بلا جدوى بمساعدته على استرجاع مملكته. انظر الافتتاح، الفقرتان 241 - 242 وأماري 175/2 - 176.

(76) البيان، ص 168 وأماري، 176/2.

(77) يتعلق الأمر بالحملة الأولى على مصر من 914/301 إلى 915/302.

(78) البيان، ص 171، البربر، 525/2، أماري، 177/2.

(79) الكامل، 142/6، أماري، المرجع المذكور.

(80) البيان، ص 174 وأماري 178/2 - 181.

«فقطعت أيديهما وأرجلهما على قبر الحسن بن أبي خنزير بباب سلم في القيروان»[81].

وقد أراد أهل صقلية بتسليمهم ابن قرهب إلى المهدي، أن يحمّلوا رئيسهم مسؤولية تمردهم ودفع ثمنه، مؤملين استحقاق حلم الخليفة. ولكن هذا الاخير ليس بالإنسان الذي ينسى خطورة ثورتهم على سلطته الشرعية. ولذلك كان رد فعله قاسياً. فهو لم يقتصر على إيفاد عامل وقاض من الشيعة إلى صقلية ـ وقد كان أهلها يتوقعون ذلك ـ بل وجه ضدهم أسطولاً يضم عدداً كبيراً من الجنود بقيادة أقرب المقربين إليه، وهو المسمى موسى بن أحمد المعروف أكثر بنسبة «أبي سعيد» ولقب «الضيف»[82].

وقد اتخذت هذه الحملة التأديبية شكل إعادة فتح بأتمّ معنى الكلمة. فحاولت صقلية التصدي للغزاة، ولكن «الضيف» الشديد المراس قد تمكن في آخر الأمر من إخضاعها لنظام إرهابي قوامه القتل والنهب، وفرض على أهلها غرامات حربية، ولم يعطهم الأمان إلا بعد أن سلط على أنصار الحركة المناهضة لسلطته عقوبات قاسية. وقبل أن يرجع إلى إفريقية استعمل على الجزيرة أحد مساعديه، وهو سالم بن أبي راشد، وترك معه فيلقاً من الجنود الكتاميين[83].

فأعيد الأمن إلى نصابه في صقلية بكل صرامة، وأصبح الخليفة الفاطمي منذ ذلك التاريخ في مأمن من كل محاولة ثورية.

---

(81) البيان، ص 171.

(82) البيان، ص 183 - 184 - 185 - 186 وأماري، 184/2 - 188.

(83) بقي سالم بن أبي راشد على رأس الجزيرة مدة 11 سنة من 925 إلى 935، انظر سيرة جعفر، ص 104 وأماري، 188/2 - 189، 214 - 221.

الفصـل الثالـث

سياسة المهدي الخارجية

1 ـ النزعة التوسعية الفاطمية[1]:

لقد انجرّ عن انتصار الدعوة الإسماعيلية ـ كما أسلفنا ـ بفضل العصبية البربرية الكتامية في منطقة القبائل الصغرى الجبلية، تغيير التوازن السياسي الذي حصل في المغرب خلال القرن التاسع، تغييراً عميقاً. فلم تبق قائمة الذات بعد ذلك الانفجار العظيم أية دولة من الدول الثلاث التي كانت تتقاسم بلاد المغرب إلى حد ذلك التاريخ، في كنف السلام، وهي الدولة الأغلبية السنّية في الناحية الشرقية، والدولة الإدريسية العلوية في الناحية الغربية والدولة الرستمية الخارجية في الناحية الوسطى. وسقط المغرب بأسره في قبضة الفاطميين.

ففي الوقت الذي تقلد فيه المهدي الحكم برقادة، أصبحت سلطته لا تقف عند حدود المملكة الأغلبية التي استولى عليها الداعي، بل امتدت من الناحية الغربية ـ بصورة غير ثابتة والحق يقال ـ إلى مملكة تاهرت سابقاً واحتوت على قسم كبير من المغرب الأقصى يصل إلى سجلماسة التي ظهر فيها المهدي إثر سقوط دولة بني مدرار. وفي الجملة فقد صار المغرب بأسره ـ لا إفريقية فقط ـ اعتباراً من ذلك التاريخ تحت رحمة العساكر الكتامية الرهيبة.

كما أحدث قيام خلافة شيعية في المغرب، تطمح إلى بسط سلطانها على البلاد الإسلامية قاطبة، انقلاباً سياسياً في العالم الإسلامي وهيأ البلاد المغربية

---

(1) حول هذا الموضوع، انظر دائرة المعارف الإسلامية 2 (الفاطميون)، ص 873. وانظر أيضاً M. Canard، حوليات معهد الدراسات الشرقية، الجزائر 6 ـ ص 167 وما بعدها.

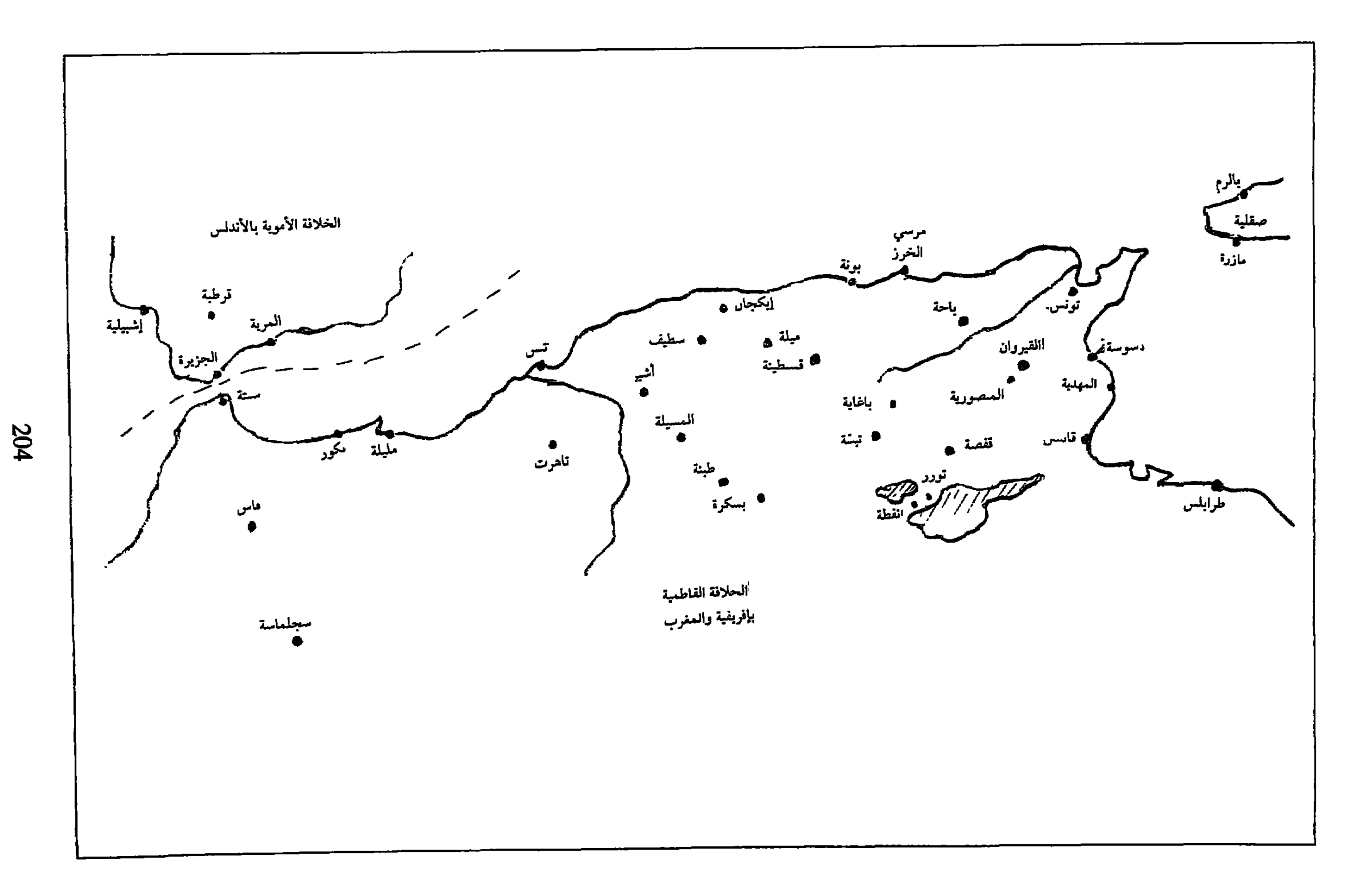
لمصير جديد. ذلك أن الدولة الفاطمية ستمثل خطرين جسيمين: أولهما داخل الغرب الإسلامي ذاته بالنسبة إلى الأمويين في الأندلس، وثانيهما في المشرق بالنسبة إلى العباسيين. فإلى حد ذلك التاريخ لم يكن أمراء الأندلس يشعرون بأي خوف ذي بال من قبل المغرب، ولم يحصل أي حادث يذكر من شأنه أن يعكر صفو علاقاتهم مع أي دولة من الدول في تلك الربوع الممتدة الأطراف[2].
وكان العباسيون منذ عهد بعيد لا يولون أي اهتمام لمصير المغرب، مكتفين بوصايتهم الملائمة على المملكة الأغلبية. واعتباراً من ذلك التاريخ أصبح من الواجب أن يقرأ كل من خليفة بغداد وخصمه صاحب قرطبة حساباً لعدوهما المشترك الإمام الإسماعيلي المنتصب في رقادة.

ذلك أن المهدي، بإعلانه عن قيام خلافة فاطمية في إفريقية، قد تعهد طبعاً بإزاحة المغتصبين العباسيين، وفي الوقت ذاته تقويض النظام الذي شيده أعداؤه الألداء من ذوي الأصل الأموي في الأندلس[3]. كما يفرض عليه واجب الجهاد المقدس أن يواصل في صقلية وقلورية الكفاح الذي كان أسلافه يخوضون غماره بلا انقطاع ضد بيزنطة. فكان من واجب الخليفة الفاطمي الأول حينئذٍ أن يدفع جيوشه إلى القتال بلا كلل ولا ملل على ثلاث واجهات. وبناءً على ذلك فقد حرص، عند تنظيم إدارة مختلف أقاليم مملكته وتوجيه العسكر إليها، على تعيين أحسن ضباطه على رأس المناطق الحربية، فولى ابن أبي خنزير على صقلية، وعهد بالنواحي الغربية إلى غزوية في باغاية ودواس بن صولات في تاهرت، ووضع النواحي الجنوبية الممتدة إلى برقة تحت قيادة حباسة بن يوسف المتمركز في قاعدة توزر بقسطيلية[4].

(2) انظر ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية 80/3 - 83.

(3) لقد شددنا على هذا الجانب من السياسة الخارجية الفاطمية في المغرب في دراستين: «محاولات للتسرب الشيعي في الأندلس في عهد الحكم الثاني»، مجلة الأندلس 1958 (انظر بالخصوص ص 107)، و «افريتش في النزاع بين بيزنطة والمعز» الكراسات التونسية 1959 (وبالخصوص ص 309).

(4) تميز حباسة بن يوسف الملوسي بمساهمته في إعادة فتح طرابلس بوصفه نائب القائم. وبتلك =


الخلافة الأموية بالأندلس
الخلافة الفاطمية بإفريقية والمغرب
بالرم
صقلية
مازرة
طرابلس
سوسة
المهدية
قابس
تونس
القيروان
المنصورية
قفصة
توزر
باجة
مرسى الخرز
بونة
باغاية
تبسّة
ميلة
قسنطينة
إيكجان
سطيف
أشير
المسيلة
طبنة
بسكرة
تنس
تاهرت
مليلة
نكور
سبتة
فاس
سجلماسة
المرية
الجزيرة
قرطبة
إشبيلية

وعلى وجه الخصوص لم يقصر المهدي اهتمامه على تعزيز سلطته في المناطق التي استولى عليها الداعي باسمه، وإخماد الثورات التي اندلعت هنا وهناك، بل حرص منذ الأيام الأولى من ولايته على تحقيق مطامعه التوسعية. على أن الأمير الأموي عبد الرحمان الثالث والخليفة العباسي المقتدر بالله لم يكونا يجهلان الخطر الفاطمي المحدق بهما. ولذلك سيكون من واجب صاحب قرطبة في المستقبل، أن يضع مملكته في مأمن من الفرسان الكتاميين القادرين في كل آنٍ وحين على استئناف زحفهم الذي لا يقهر ومواصلة تقدمهم حتى حدود الأندلس. وسيتعين عليه بالخصوص الوقاية من الغارات التي يستطيع الأسطول الفاطمي العتيد شنها على السواحل الأندلسية، ومنع المتمرد ابن حفصون من استلام الإعانات التي يوجهها إليه صاحب إفريقية. وبالفعل فقد بادر الناصر بعيد اعتلائه العرش في قرطبة إلى التحول إلى ميناء الجزيرة لتفقد أسطوله وإصدار التعليمات لصنع سفن جديدة وتجهيزها، وتركيز حراسة دائمة على السواحل الأندلسة[5].

وأوصى المقتدر من جانبه ممثله في مصر أبا منصور تكين ـ حسب رواية الكندي ـ[6] بالاهتمام بالمغرب والاحتماء منه كما ينبغي. فكلف تكين نائبه أبا النمر أحمد بن صالح بقيادة الحامية في برقة. وتمركز هذا الأخير في تلك القاعدة على رأس قوات مسلحة عظيمة، وتصدى للقائد الفاطمي حباسة بن يوسف الذي انطلق من قاعدة توزر وتوغل في الصحراء الطرابلسية[7].

2 ـ مطامع المهدي في الأندلس[8]:

ولكن هل كان الخليفة الفاطمي قادراً فعلاً على التصدي لخصميه الاثنين

= الصفة كُلّف بإدارة التخوم الجنوبية للملكة وإعداد الحملة على مصر مع تمتعه بكامل السلطات المدنية والعسكرية، انظر عيون الأخبار [تحقيق اليعلاوي ص 192) والبيان، ص 170 - 171.

(5) إسبانيا الإسلامية، 90/2.

(6) الكندي، كتاب ولاة مصر، ص 286.

(7) عيون الأخبار [النشرة المذكورة ص 193].

(8) إسبانيا الإسلامية، 86/2، 90 - 91.

في بداية عهده؟ وهل يستطيع، رغم ما كان له من جنود كثيرين ومتمرنين على القتال، ومن أسطول حربي ورثه عن الأغالبة، أن يفتح الأندلس أو مصر، في الوقت الذي تعددت فيه الانتفاضات في مملكته ذاتها، وكان مضطراً إلى إخضاع أهلها المناهضين للنظام الجديد؟ أجل! لقد كانت الأندلس عهدئذٍ فريسة مغرية، إذ أن عهد الأمير عبد الله قد أوشك على النهاية في خضم الاضطرابات، وأن سلطة الأسرة الأموية قد ضعفت وأوهنتها حركات التمرد العديدة، ونخرت جسمها الثورات المتكررة. وقد تزعزع عرش قرطبة مراراً وتكراراً تحت تأثير أخطر ثورة شهدتها الأندلس منذ عهد عبد الرحمان الداخل، أي ثورة ابن حفصون ولا ريب أن المهدي قد تابع باهتمام بعض تطوراتها حين كان يقيم في سجلماسة التي لا تبعد كثيراً عن الأندلس، في انتظار انتصار أتباعه. ولا شك أيضاً أن أعوانه الذين أوفدهم إلى قرطبة بالذات، مثل خادمه الأمين أبي جعفر البغدادي[9]، كانوا يحيطونه علماً بالوضع المتردي السائد هناك. كما أن ابن حفصون لم يتردد في إبلاغه شواهد الإخلاص، حالما اعتلى العرش في رقادة، وحثه صراحة على القدوم لتسديد الضربة القاضية للنظام القائم في قرطبة.

ولئن لم تسمح لنا إلى حد الآن أية وثيقة صحيحة بتأكيد اعتزام المهدي غزو الأندلس، إلا أن كل المؤشرات تدعونا إلى اعتقاد ذلك، بالنظر إلى الوضع الذي رسمنا ملامحه البارزة آنفاً. ألم نذكر أن المهدي، بعد بضعة أشهر من توليه الخلافة، قد كلف الداعي بالذهاب إلى ما وراء تاهرت وتنس على رأس قوات كتامية عظيمة، لا فقط لإخضاع زناتة وغيرها من القبائل المتمردة، بل أيضاً لبث الرعب في أرجاء المغرب الأقصى، على حدود الأندلس ذاتها؟ فما هي الدواعي التي حملت المهدي على العدول عن القيام بعملية كانت تبدو رابحة، في وقت كان يسمح له ببسط سلطانه على غرب إفريقية دون مشاق جمة؟ أم هل كان اهتمامه متوجهاً بالأحرى إلى المشرق، حيث كان مدعواً إلى

(9) البيان، ص 163.

الاضطلاع بالمهمة القصوى الملقاة على عاتقه والمتمثلة في إرجاع الخلافة التي اغتصبها بنو العباس إلى ذرية فاطمة؟ والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن بعض المؤرخين الأكثر اطلاعاً على حقيقة الأمر قد أشاروا من قبل إلى ما كان يحدو الخليفة الفاطمي من ميل خاص إلى المشرق، واعتباره فتح المغرب الأدنى مجرد مرحلة على الدرب الطويل الذي سيقوده حتماً عبر ليبيا إلى مصر والشام في قلب المملكة العباسية(10). وسننظر فيما بعد في القيمة التي يمكن أن نوليها إلى مثل هذه التأكيدات، عندما سنتناول بالدرس الحملتين اللتين قامت بهما القوات الفاطمية على مصر في فترتين متقاربتين في الزمن. إلا أننا نستطيع أن نؤكد منذ الآن أن المهدي لم تمنعه من غزو الأندلس سوى بعض العراقيل ذات الصبة الداخلية. ذلك أن أمور بالغة الخطورة كانت تشغل باله عندما كان الداعي يزحف برجاله الكتاميين إلى ما وراء تاهرت وتنس خلال سنة 910. ففي تنس بالذات وضع الداعي وأصحابه مشروعهم الجريء الرامي إلى اغتيال المهدي، وتشاوروا فيما بينهم حول تدبير المؤامرة التي كان أبو العباس محركها الرئيسي، وقد كنا عرضنا أطوارها في فصل سابق(11)، ورأينا كيف تغلب الخليفة في آخر الأمر على المتآمرين في ظروف محفوفة بالمخاطر، وكيف اضطر إلى التخلص من أجلّ أتباعه الذين استولوا قبل ذلك بقليل على الممتلكات الأغلبية لحسابه. كما رأينا مدى الصعوبات التي أثارها مقتل الداعي، وبالخصوص الثورات التي اندلعت في القصر القديم والقيروان وصقلية ثم تسربت إلى بلاد كتامة حيث تسبب ظهور مهدي مزعوم داخل مركز الدعوة بالذات في زعزعة سلطة الإمام الفاطمي. ومما لا شك فيه أن تعفّن الوضع في إفريقية ولا سيما في الزاب والقبائل الصغرى هو الذي عرقل مشاريع المهدي في المغرب الأقصى والأندلس.

(10) Gautier، 37، بلاد البربر الإسلامية، ص 135، إسبانيا الإسلامية، 2/86 - 87 جوليان، ص 300، دائرة المعارف الإسلامية 2 (الفاطميون) ص 873.

(11) انظر الفصل السابق: «مؤامرة الداعي وأخيه أبي العباس ونهايتهما المفجعة».

3 ـ الحملة الأولى على مصر (301 - 914/302 - 915) :

بعد تذليل الصعوبات الداخلية وإعادة الأمن إلى نصابه في نواحي تاهرت والقبائل الصغرى، لم تستأنف القوات الفاطمية زحفها في اتجاه الغرب، بل بالعكس من ذلك انطلقت نحو الشرق في اتجاه مصر في جمادى الثانية 301/ يناير 914[12]. وعندما نلاحظ أن المهدي قد أطلق رجاله لغزو مصر، بالضبط بعد أربع سنوات فقط من تاريخ تأسيس الدولة الفاطمية، وأنه سيعيد الكرة بعد ذلك بأقل من أربع سنوات أي في سنة 919/307، بالرغم من فشل الحملة الأولى، وأن مصر سوف تسقط في آخر الأمر في قبضة الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله في سنة 969/358، وأن المعز قد أسرع إلى الاستقرار في تلك البلاد، نميل بلا شك على غرار بعض المؤرخين، إلى الاعتقاد بأن الفاطميين منذ انبعاث دولتهم قد ولوا وجوههم دوماً وأبداً قبل المشرق، معتبرين إفريقية مجرد محطة في طريقهم إلى الشرق. ولكننا إذا فحصنا لا فحسب المصادر السنية، بل أيضاً الوثائق الإسماعيلية التي بين أيدينا، وإذا نظرنا إلى سياسة الخلفاء الفاطميين في ضوء بعض المعطيات المذهبية، تبين لنا أنهم قد سعوا إلى القيام بعمل مثمر في تلك الربوع، محاولين بنفس الاصرار التوسع تارة في اتجاه الشرق وطوراً في اتجاه الغرب.

وقد توفرت لدينا حول الحملتين على مصر رواية أساسية ومتماسكة بفضل المعلومات الغزيرة المستقاة من بعض المصار المعروفة والمدروسة مراراً وتكراراً[13]. ولكن وثائقنا قد تم إثراؤها بنصين اثنين، يسلطان أضواء جديدة على بعض جوانب من هذه القضية، أولهما النص الذي وضعه محمد بن يوسف

(12) اتفق ابن عذاري(البيان ص 170) مع الداعي إدريس على الإشارة إلى الحملة الاستطلاعية التي سبقت حملة القائم ببضعة أشهر بقيادة حباسة.

(13) انظر الروايات الثلاث التي تكاد تكون متشابهة، وهي الكامل، ص 147، 149 - 150، 161 واتعاظ، ص 98 - 100 والبربر، 524/2 - 525ـ وهناك روايتان تختلفان عن تلك الروايات وهما، البيان، ص 171 - 172، وابن حمـاد، ص 11 - 12.

الكندي المتوفى سنة 961/350 والمعاصر حينئذٍ للوقائع التي رواها[14]، وثانيهما[15] نص لم يسبق نشره من قبل[16]، وقد ورد في الكتاب الضخم والمتأخر الذي ألفه الداعي إدريس المتوفى سنة 1268/872 بعنوان «**عيون الأخبار**». ولكن النص الثاني يمتاز بكونه يعتمد على معطيات إسماعيلية قديمة مستقاة من مصادر موثوق بها، ويوفر لنا معلومات لم يسبق نشرها حول سير العمليات الحربية. وقد نقل الداعي إدريس في هذا الكتاب على وجه الخصوص قصيدة نظمها قائد الحملة ذاته، أبو القاسم ـ الذي سيلقب فيما بعد بالقائم بأمر الله ـ ووجهها إلى المهدي، وكذلك خطبة عيد الفطر التي ألقاها هو أيضاً بالإسكندرية. وهذان النصان يوضحان لنا الدوافع الحقيقية لهذه الحملة وخصائصها.

وبفضل الكندي أصبحنا نعرف متى وكيف انطلقت العمليات العسكرية في اتجاه الإسكندرية. فقد بدأت قبل سنة 914/301، بمدة طويلة، أي في حدود سنة 910/297، بعيد تعيين أبي منصور تكين عاملاً على الفسطاط من قبل الخليفة العباسي المقتدر بالله. فبادر تكين بتوجيه قوات عسكرية ضخمة بقيادة نائبه أبي النمر أحمد بن صالح، إلى منطقة برقة للسيطرة عليها. وقد دعم هذا القائد مواقعه في سرت، استعداداً للقاء القائد الفاطمي حباسة بن يوسف الذي

---

(14) لقد لاحظنا وجه شبه بين رواية الكندي في «كتاب ولاة مصر» (تحقيق النصار بيروت 1959) ورواية عريب بن سعد في صلة تاريخ الطبري، وفضلنا رواية الكندي على الرواية الثانية، لأنه كان شاهداً على الأحداث التي رواها.

(15) لا نعرف بالضبط المصدر الذي استقى منه الداعي إدريس معلوماته، فقد اقتصر على الإشارة إلى «أهل السِّيَر».

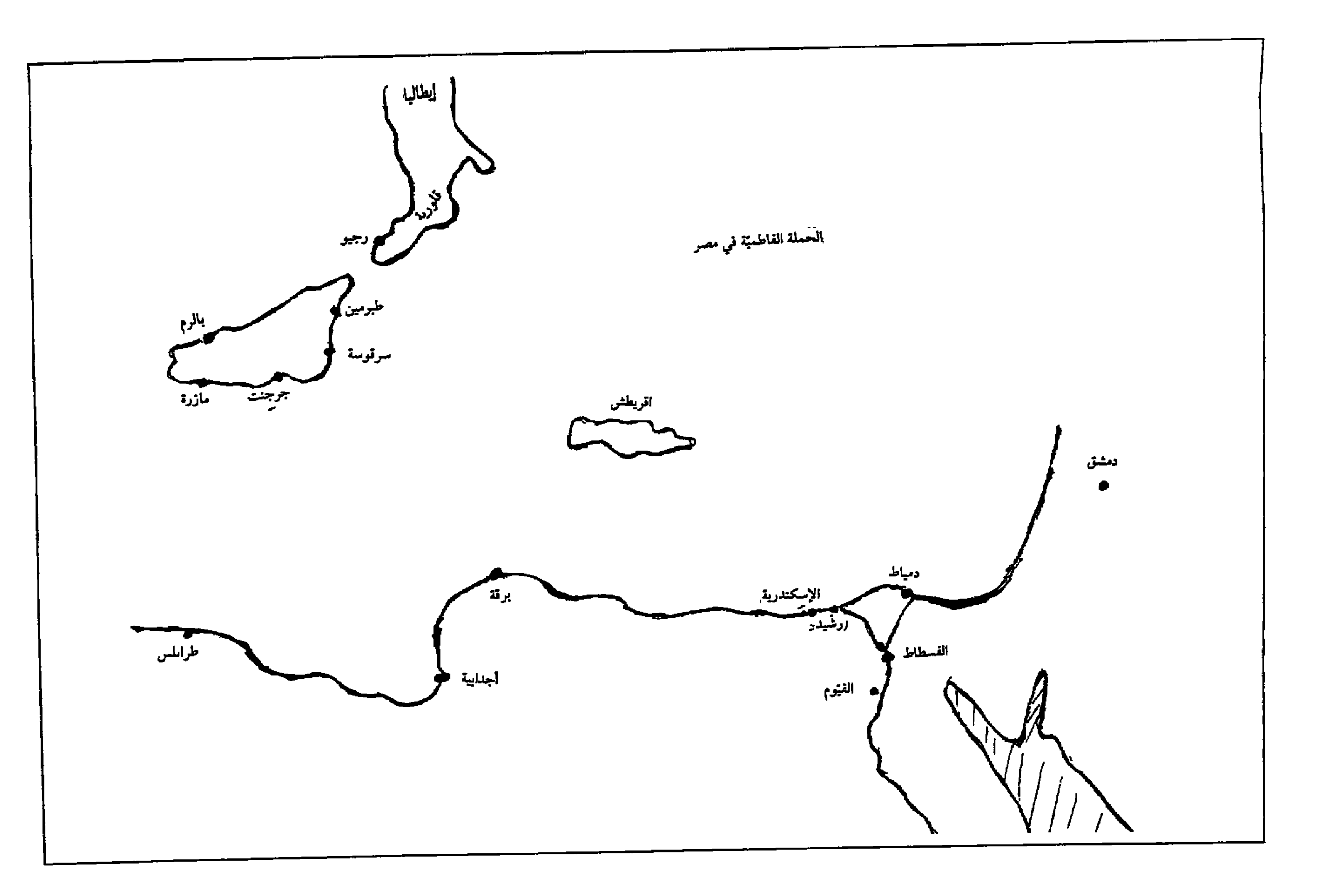
(16) [في الأثناء ظهر كتاب الداعي إدريس عيون الأخبار في عدة نشرات:

ـ السبع الخامس، تحقيق مصطفى غالب، بيروت 1975.

ـ مقتطفات من السبع الخامس بعنوان: «تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب»، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1981.

ـ السبع السادس، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، 1984.

«تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب»، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، 1985].



الحملة الفاطمية في مصر
إيطاليا
قلورية
رجيو
طبرمين
بالرم
سرقوسة
مازرة
جرجنت
اقريطش
دمشق
دمياط
الإسكندرية
رشيد
الفسطاط
الفيوم
برقة
أجدابية
طرابلس

خرج من قاعدته بتوزر للزحف على برقة، ولكنه أجبر على التقدم في اتجاه سرت. وفي الأثناء اتخذ تكين لسوء حظه قراراً يقضي بعزل أبي النمر الذي انسحب إلى برقة في اتجاه الفسطاط فاقتفى حباسة أثره إلى أن وصل إلى برقة، وأقام بها معسكره. وإثر ذلك زحف القائد الجديد خير المنصوري الذي عوض أبا النمر، على برقة لإزاحة حباسة. وعندئذٍ حصلت منافسة في غير محلها بين المنصوري ومساعده عبد العزيز بن كليب الجراشي، مما سمح لحباسة بالانتصار عليهما وإجبارهما على التقهقر في اتجاه الفسطاط. وقد روى لنا الكندي هذه الواقعة في سياق حديثه عن أحداث سنة 300/912-913، دون أن يذكر بالضبط تاريخ استيلاء حباسة على برقة. في حين اتفقت جميع المصادر على تحديد ذلك التاريخ بسنة 301/914. وقد ناقض الداعي إدريس رواية الكندي في عدة نقاط. فأشار إلى أن المهدي قد أخرج حباسة بن يوسف الملوسي وموسى بن عبد الرحمان الوادني يوم الاثنين 24 جمادي الثانية 301/23 يناير 914. وبعدما احتل القائدان سرت واجدابية بلا قتال دخلا برقة يوم 8 رجب بلا قتال أيضاً. كما تحدث الداعي إدريس عن رجوع أبي النمر إلى برقة وتوجيه المهدي لجيش آخر بقيادة سليمان بن كافي الجيملي وعفيقان بن كردوس، لنجدة حباسة. وأشار أخيراً إلى انتصار الجيش الفاطمي على عساكر أهل مصر[17].

ورغم تواريخها غير المضبوطة بدقة، تبدو الوقائع التي رواها الكندي أكثر قرباً من الواقع. فمن المحتمل جداً أن يكون حباسه قد وجه جنوده إلى مصر إثر تسلمه قيادة الجيش في ساحة الوغى الشرقية منذ سنة 297/910، وشن المعركة ضد قوات العدو المتمركزة في سرت. على أنه من الممكن، بالتوفيق بين المعطيات الواردة في رواية الكندي والإيضاحات التي قدمها الداعي إدريس، الاعتقاد أن العمليات الحربية التي تواصلت مدة طويلة بين الجانبين دون جدوى، قد بلغت منتهاها عندما تلقى حباسة الإمدادات اللازمة للاستيلاء على

(17) عيون الأخبار [تحقيق اليعلاوي ص 193 - 194].

برقة في منتصف سنة 301. وإثر فتح هذه المدينة أصبحت الطريق المفضية إلى الإسكندرية منذ ذلك الحين مفتوحة. وعندئذٍ يكون الوقت قد حان ليبادر المهدي إلى فتح مصر. وفعلاً فقد جهز الخليفة الفاطمي جيشاً عظيماً وعهد بقيادته إلى ابنه وولي عهده أبي القاسم (القائم) الذي خرج من رقادة متوجهاً إلى مصر يوم الخميس الخامس عشر من ذي الحجة سنة 13/301 يوليو 914. وكانت طريقه إلى قابس، فوصل إلى طرابلس يوم 7 محرم 2/302 أغسطس 914. وبعدما توقف ستة أيام في طرابلس استأنف رحلته إلى أن وصل إلى سرت. «وكتب إلى حباسة بن يوسف أن لا يبرح برقة حتى يأتيه. فلم يصبر حباسة، بل رأى أن يتقدم ورجا أن يكون فتح مصر له وباسمه، فسار يريد مصر»[18]. وبعدما استولى على الحنية التي خرج منها القائد العباسي أبو الدلفاء، رحل هو وأصحابه سليمان بن كافي وعفيقان بن كردوس وعامر بن يوسف ومن معهم من العساكر، فدخلوا الإسكندرية يوم 3 صفر 28/302 أغسطس 914.

أما القائم فقد رحل من سرت ودخل أجدابية يوم أول صفر/ 6 سبتمبر، ثم برقة يوم 7 ربيع الأول/ 30 سبتمبر[19]، واستخلف عليها عاملاً كتامياً من قبيلة ملوسة يعرف باسم أبي داود. وأخيراً التحق بحباسة في الإسكندرية يوم 15 ربيع الثاني/ 7 نوفمبر[20].

وبعد ذلك بشهر خرج القائم من الإسكندرية متوجهاً إلى الفسطاط، بعدما ولى عليها عاملاً وقاضياً شيعياً. وفي الأثناء وردت إلى الإسكندرية إمدادات عباسية بقيادة القاسم بن سما وأحمد بن كيغلغ وأبي قابوس محمد بن حمك.

---

(18) نفس المصدر، ص 194.

(19) [هكذا في الأصل، . وجاء في عيون الأخبار (المصدر المذكور ص 194 - 195): «وسار القائم من سرت ثالث صفر، فنزل أجدابية لاثنتي عشرة من صفر. . . ودخل برقة لست خلون من ربيع الأول»].

(20) [في عيون الأخبار، ص 195: «ودخل القائم الإسكندرية يوم الجمعة لأربع عشرة من شهر ربيع الآخر].

ونصب أبو منصور تكين عامل مصر معسكره بالجيزة في ذات الساحل(21)، وهو على أهبة الحرب.

«ثم قدم القائم بين يديه حباسة بن يوسف وعفيقان بن كردوس وسليمان بن كافي وعامر بن يوسف، وخرج من الإسكندرية بعدهم للنصف من جمادى الأولى، فنزل حسا ونزلت مقدمته جوف البلور، وانتهى القائم إلى النحرية(22) في جميع عساكره. . . ونزل في ضفة النيل يوم الأربعاء الثاني عشر من جمادى الأولى، وبينه وبين عساكر مصر ستة أميال».

«ولما كان يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الأولى عبأ القائم عساكره، فجعل الميمنة ملوسة الفحص والميسرة جيملة. وجرى قتال غير منقطع بينه وبين أهل مصر إلى يوم الأربعاء ليلة بقيت من الشهر فاستأمن إليه جماعة من عساكر أهل مصر فأحسن إليهم. ورحل فنزل على ثلاثة أميال من عسكرهم. ثم انقطعت الميرة عن عسكر القائم. فارتحل إلى الفيوم لليلتين بقيتا من جمادى الأخرى. فسبقه قوم من عسكره إلى الفيوم فانتهبوها، فأمر بقتلهم وسكن الناس فأمنهم. ورحل القائم الخميس لثلاث عشرة خلت من جمادى الأخرى إلى الأربس. ورحل السبت فنزل لصفة، ورحل الأحد فنزل الحرمَيْن، والتقى بأهل مصر. . . ثم رحل الثلاثاء لثماني عشرة ليلة خلت من جمادى الأخرى، فنزل بأرض الخمسين. والتقى بأهل مصر، فكان في القلب جيملة وفي الميسرة أجانة وأهل إفريقية، وفي الميمنة ملوسة وبقية المغاربة. فانهزم حباسة بعد مواقعة ومنازلة كانت بينه وبين أهل مصر. فأرسل إليه القائم بأمر الله بالتوقف، فلم يمكنه الرجوع وهو مجد في هزيمته، وقد اتبعه الناس وخرج من أهل مصر خلق عظيم لا يحصى، والقائم واقف في بقية العسكر ممن صبر معه من الكتاميين والعبيد والجند والبربر، ولم يزل يمسك القتال ورجا أن يأتي الليل وجاء العصر وألح عليه الناس وعظم البأس. فهز اللواء ثلاث مرات وحمل، فحمل الناس معه ولم يتخلف عنه أحد، فوقعت الهزيمة في أهل مصر. . ورحل القائم

(21) [في الأصل «دار الساحل» والتصحيح من عيون الأخبار، ص 195].

(22) «النحرية» حسب قراءة الدشراوي، وفي نشرة اليعلاوي، ص 195 «البربرية»].

بأمر الله لثلاث بقين من جمادى الأخرى، فانتهى إلى الإسكندرية لأربع خلت من شهر رجب، فأقام بها»[22م].

وبينما كان القائم يستريح من أتعابه، توجهت إلى مصر قوات عباسية عظيمة بقيادة مؤنس الخادم مولى الخليفة المقتدر. ومما لا شك فيه أن القائم لم يكن قادراً على مواجهة القائد العباسي الذي وصل إلى الفسطاط يوم 15 رمضان/ 3 أبريل[23]. فاضطر إلى الرجوع إلى إفريقية ووصل إلى رقادة يوم الأحد الحادي عشر من ذي القعدة سنة 28/302 مايو 915[24].

وهكذا تنتهي الحملة الأولى على مصر دون جدوى، والحال أنها بدأت في ظروف طيبة. فقد كان القائم على رأس جيش له من القوة ما يكفي للانتصار على العساكر التي كانت تحت تصرف عامل مصر أبي منصور تكين. كما استطاعت الدعاية الإسماعيلية التي كان يقوم بها بحماس فائق الداعية المكلف بتلك «الجزيرة» (الدائرة)، استمالة عدد كبير من الأنصار، لا سيما من بين السكان الأقباط[25]. ولذلك فقد أدرك القائد الفاطمي المطلع كما ينبغي على الوضع السائد بالفسطاط، أنه يستطيع التعويل على مساندة أولئك الأنصار. أضف إلى ذلك أن هذه الحملة كانت متزامنة مع هجوم القرامطة بقيادة أبي سعيد الجنابي، وقد كان هدفهم يرمي بلا شك إلى شل حركة القوات العباسية في العراق حتى تسقط مصر في قبضة الفاطميين[26]. فلما استولى حباسة على الإسكندرية، كان أبو القاسم ينتظر بالتأكيد سحق قوات تكين بلا صعوبة

(22 م) **عيون الأخبار** [المصدر المذكور ص 196 - 197].

(23) حسب الكندي، ص 273.

(24) **عيون الأخبار** [المصدر المذكور ص 207].

(25) انظر حول الدعوة في مصر، **الافتتاح** الفقرات 17، 26، 151. والداعي المكلف بمصر اسمه أبو علي، وهو من الدعاة السابقين بالكوفة وصهر داعي الدعاة فيروز. وقد عُيّن أبو علي داعياً في مصر في الوقت الذي خرج فيه أبو عبد الله من اليمين قاصداً المغرب. وحول انضمام الأقباط إلى الدعوة الإسلامية، انظر **كتاب ولاة مصر**، ص 289 - 290.

(26) انظر دائرة المعارف الإسلامية 2 (الفاطميون) ص 873.

والدخول إلى الفسطاط ظافراً. ومع ذلك فقد فشل في آخر الأمر فشلاً ذريعاً. وأُحبِطت حملات الفرسان البربر أمام سهام الرماة الأتراك الفتاكة، بقيادة تكين[27]. فكان الجنود المصريون يقاتلون باندفاع، وقد باغتوا الكتاميين الذين لم يتعودوا على القتال بالسهام، لا سيما وقد نفد زادهم. فاضطر القائم إلى إرخاء العنان والتحول إلى الفيوم في الصعيد المصري لتموين رجاله، على أن قسماً كبيراً من جيشه لم يقاتل تحت إمرته، حسبما يبدو، بل كان يقاتل منذ انطلاق الحملة بقيادة حباسة. ولا شك أن المنافسَة غير المناسبة التي حصلت بين المقاتلين قد أحبطت جهودهم وعرقلت حركاتهم. كما أن حباسة الذي روى الكندي هجوماته دون ذكر أي شيء حول القائم، قد كان يتصرف من تلقاء نفسه، فاستولى على الإسكندرية بمفرده، ورفض اتباع ولي العهد الفاطمي إلى الفيوم، وبالخصوص انهزم وتركه أمام العدو في الجيزة في موقف حرج. وقد ألقى المهدي عليه القبض عند رجوعه إلى المغرب في منطقة نفزاوة وأمر بقتله[28]. وفي الجملة كانت الحملة الفاطمية على مصر ذات نتائج هزيلة. إلا أن تلك الغارة التي جرت على أرض تابعة للخلافة العباسية قد أتاحت الفرصة للمهدي لإرباك خصمه في بغداد بصورة جدية. وإذا صدقنا القاضي النعمان الذي نقل ما قاله المعز لدين الله الفاطمي في هذا الشأن، فإن المهدي كان يعلم أن مصر لا تفتح على يديه، «ولكنه أراد تأكيد حجة الله على العباسيين بدعوته، وألا يدع شيئاً من المجهود إلا بلغ منه ما في نفسه»[29]. فيبدو حينئذٍ أن تلك الحملة كانت تتمثل، حسب رأي الخليفة الفاطمي، في مجرد استعراض للقوة قصد إرباك العدو وإظهار حق العلويين في الخلافة والتعبير عن مطامعهم في الدولة الإسلامية.

---

(27) انظر حول استعمال الرماة الأتراك في عهد صلاح الدين الأيوبي:

(A. Bondot - Lamotte Contribution à l'étude de l'archerie musulmane) دمشق، 1968، ص XI - X، 34.

(28) البيان، ص 172.

(29) عيون الأخبار، ص 208.

على أن القائم قد حدد أهداف الحملة على مصر بصراحة في القصيدة التي نظمها في الإسكندرية وأرسلها إلى المهدي[30]، وفي الخطبة التي ألقاها في تلك المدينة ذاتها إثر صلاة عيد الفطر، أول شوال 19/302 أبريل 915[31].

وقد استعمل القائم في تلك القصيدة لهجة التفاخر المفضلة لدى الشعراء العرب، للإشادة بإمامة المهدي، والإعلان عن مطامعه التوسعية، قائلاً بالخصوص:

[خفيف]:

يا إمام الهدى ومن طيّب اللـ	ـه له فرعه وطيّب أصله
تفخر الأرض حين تعلو ثراها	ثم تغدو حزونها وهي سهله
يا ابن من أسدلت عليه ستور الـ	ـوحي أثوابها ولم تكس مثله
بك ظَلَّ الفخارُ يفخر والحـ	ـقُّ، وألبستني من الفخر حُلَّه
ثم أنهضتني لمِصْرَ وشام	وخراسانَ والعراقَيْن جُمْلَه
فأنا سَيْفُكَ الذي يفلِقُ الهاَ	مَ فلا نُبُوَّةَ له إنْ تسلّه

وأضاف قائلاً:

فانتظر يا خليفة الله ما قد	وعَدَ اللّهُ فيك من قَبْلُ رُسْلَه
من فتوح تلقاك بالعزّ والنّصـ	ـرِ لدى النّيل والفرات ودِجْلَه

وفي خطبة العيد التي توجه بها إلى أهل الإسكندرية، أشار القائم، لتبرير حملته، إلى بعض الدوافع الشائعة في خطب الدعاة الإسماعيليين، فقال بالخصوص: «معاشر الناس! إني أصبت أمتكم هذه كما أصاب رسول الله ﷺ اليهود والنصارى، معهم التوراة والإنجيل، ومعهم كنائس وبيع، فدعاهم إلى كمال العلم بما في التوراة والإنجيل، فما آمنوا به، فحكم عليهم بالسيف والجزية والسبي والنهب والجلاء. وكذا أَصَبْتُ أمتكم هذه قد اتخذت قرآنكم عضين، ونبذتموه وراء ظهوركم واشتريتم به ثمناً قليلاً. . . . ».

(30) تحتوي هذه القصيدة على 18 بيتاً ـ نفس المصدر، ص 197 - 198.

(31) نفس المصدر، ص 198 - 202.

«قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأولِي الأمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: 59). فجعل الطاعة فريضة وصل بها طاعة ولاة أمره، فهم القائمون لله بحقه، والداعون إليه من رغب إلى طاعته، واستخصهم بالإمامة التي هي أعظم الدرجات بعد النبوة، وفرض على العباد حقوقها وأمرهم بأدائها... وليس للإمام أن ينقص الرعية حقها، ولا الرعية أن تنقص حق إمامها. فمن حق الرعية على إمامها: إقامة كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، والأخذ لمظلومها من ظالمها ولضعيفها من قويها، ولوضيعها من شريفها، والتفقد لمعاشها واختلاف حالاتها... فإذا فعل ذلك كان على الرعية إجلاله وإكرامه ومكانفته، والاستعداد والاستقامة، ما استقام على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ»[32].

ورغم إخفاق هذه الحملة عسكرياً، فإنها لم تمنع المهدي من إحراز المزايا التي وعد نفسه بها في مجال الدعاية. إذ لا شك أن الدعوة الفاطمية قد فازت فوزاً مبيناً في بلاد الكنانة كما في غيرها من الممالك العباسية المرغوب فيها أيضاً.

4 ـ الحملة الثانية على مصر (307 - 919/309 - 921)[33]:

ما إن رجع القائم إلى رقادة حتى ثار أهل برقة وقتلوا الكتاميين المكلفين بالسيطرة على المدينة لحساب الفاطميين. وقد كان من الضروري بالنسبة إلى المهدي أن يحافظ على تلك القاعدة الواقعة على التخوم المصرية ذاتها. ولذلك أسرع منذ أوائل سنة 915/303 إلى توجيه القائد اللهيصي أبي مديني إلى برقة على رأس جيش عظيم لإعادة الأمن إلى نصابه. وقد أبدت المدينة مقاومة

---

(32) لا شك أن القائم قد ألغى لأسباب دعائية العبارة التي كان الإسماعيليون يضيفونها إلى أية إشارة إلى السنّة النبوية، حسب تعاليم مذهبهم وتعلن العبارة الإسماعيلية الشائعة عن الامتثال إلى كتاب الله وسنّة نبيه وسيرة أهل البيت، وفقاً لحديث الثقلَيْن. انظر في هذا الصدد الافتتاح، الفقرة 245 ودائرة المعارف الإسلامية 1 (أهل البيت) ص 265 - 66 و (أهل الكساء) ص 272.

(33) لقد روى الداعي إدريس أخبار الحملتَيْن في نص واحد بينما يفرق الأخباريون السنيّون بين الحملتَيْن.

مستميتة، حتى أنه لم يستطع فتحها إلا بعد حصار مشدد للغاية دام 18 شهراً. وأجبر سقوطها في شوال 304/ أبريل - مايو 916، أهل لوبية ومراقية على اللجوء إلى الإسكندرية التي وجه إليها عامل مصر الجديد ذكاء الأعور إمدادات عسكرية[34].

ولما أعيد فتح برقة لم يبق هناك ما يمنع المهدي من القيام بحملة ثانية على مصر، لا سيما بعد فشل الثورة التي اندلعت في صقلية، وانتصارات القائد المكناسي مصالة بن حبوس في المغرب الأقصى. فعين من جديد ابنه أبا القاسم (القائم) الذي خرج من رقادة يوم الاثنين أول ذي القعدة 5/306 أبريل 919، وتوجه إلى الإسكندرية على رأس جيش كثير العدة والعدد، ولما وصلت مقدمة الجيش بقيادة سليمان بن كافي إلى لوبية ومراقية، لاذ أهل الإسكندرية بالفرار، وقد تملكهم الخوف، فدخل سليمان الإسكندرية بلا قتال يوم 9 صفر 11/307 يوليو 919، في حين استولى الفزع على مدينة الفسطاط التي خرج منها عدد كبير من الجنود. وقد سعى ذكاء عامل مصر والحسين بن أحمد الماذرائي صاحب الخراج إلى انتداب جنود أقوياء للدفاع عن الجيزة، حيث تم دعم قلعة الجسر الغربي وحفر الخنادق. وبعد ذلك بقليل توفي ذكاء في معسكره بالجيزة إثر وصول الإمادادت بقيادة أبي قابوس محمد بن حمك وإبراهيم بن كيغلغ. ولكن العامل الجديد لم يلتحق بمنصبه إلا في منتصف شعبان/ يناير 920.

وفي الأثناء توقف القائم في الإسكندرية قبل الزحف على الفسطاط، وذلك لتجميع كافة قواته وانتظار الأسطول الفاطمي القادم للنجدة بقيادة سليمان الخادم ويعقوب بن إسحاق بن الورد[35]. واكتفى بتوجيه طليعة من الجيش بقيادة سليمان بن كافي، فاستولت على الفيوم والأشمونين ونهبتهما. ولا شك أن القائم كان ينوي الحصول على منفعة مزدوجة من هذه العملية التي يبدو أنه

---

(34) ولاة، ، ص 292 وحول إعادة فتح برقة من طرف أبي مديني، انظر، البيان، ص 173 - 175 والافتتاح، الفقرة 295.

(35) اتعاظ، ص 103 البربر 526/2، ولاة، ص 294.

قد قادها هو نفسه، حسب رواية بعض الأخباريين[36] : أولاً توفير حاجات جيشه على حساب العدو، وثانياً وعلى وجه الخصوص، حرمان الفسطاط من الإمدادات الواردة من الجنوب عن طريق النيل، وضرب الحصار على المدينة. ولكن الأحداث ستجري بصورة مغايرة لما توقعه القائم. حيث كان رد الفعل العباسي سريعاً وقوياً. فقد قدمت لنجدة أهل مصر مراكب طرسوس بقيادة ثمل الخادم[37]، والتقت بالأسطول في عرض سواحل رشيد. وأحرز ثمل انتصاراً باهراً يوم الأحد 18 شوال/ 12 مارس، وقد ساعدتهم على ذلك ريح مؤاتية أغرقت عدداً كبيراً من سفن العدو. وبعد ذلك ببضعة أيام دخل ثمل ظافراً إلى الفسطاط. فأمر بجر سليمان بن كافي و 117 رباناً من رجاله في شوارع المدينة على نحوٍ مهين، ثم أوقعهم في الأسر. وقد اضطر القائم إثر هذه الكارثة إلى مواصلة إقامته بالإسكندرية، دون القيام بأي عمل، في انتظار هجوم القرامطة على مصر بقيادة أبي طاهر الجنابي، حسب رواية ابن خلدون[38]. ولكن جنود العدو هم الذين توجهوا إليه مرة أخرى بقيادة مؤنس الخادم الذي وصل إلى الفسطاط يوم الخميس 3 محرم 25/308 مايو 920. فنزل بالجيزة وأوفد إبراهيم بن كيغلغ إلى الأشمونين. وحصل اشتباك في المخايض[39] بين كتيبة فاطمية بقيادة فتح بن ثعلبة وبين فرقة عسكرية عباسية تحت إمرة محمد بن طغج وانتهت المعركة بانتصار العباسيين. فقرر القائم «الرحيل عن الإسكندرية لما قل فيها الطعام»، وتوجه نحو الصعيد المصري يوم 10 ربيع الأول/ 30 يوليو. فاستولى على الفيوم والأشمونين واطرد جنود ابن كيغلغ. واجتنب مؤنس الخادم مواجهة خصمه في معركة حاسمة، مقتصراً على القيام ببعض المناوشات، وتاركاً الوباء والركود يقضي شيئاً فشيئاً على قوات العدو. ولما حل شهر محرم

(36) البربر، نفس المصدر، اتعاظ، نفس المصدر، ولاة، نفس المصدر ـ وفي البيان، ص 181 - 182 : سليمان بن كافي هو الذي سبق القائم إلى الفيوم والأشمونين.

(37) [في عيون الأخبار، ص 206 «ثمال»].

(38) العبر، 89/4 ـ وهذه المعلومة غير موجودة في المقتطفات التي ترجمها دي سلان، البربر ج 2.

(39) [في النص الفرنسي «المخايص» (بالصاد) والتصحيح من عيون الأخبار، 206].

309/ مايو 921 عهد إلى ثمل بمهمة تقتيل رجال الحامية الفاطمية المقيمة في الإسكندرية بقيادة ابن ثعلبة. وأخذ يتأهب للقتال. فاستولى على الفيوم وأجبر القائم على الرحيل إلى تهنامت ثم الانسحاب إلى برقة والرجوع إلى إفريقية، وكان وصوله للمهدية في أوائل شهر رجب 309/ نوفمبر 921[40].

فللمرة الثانية حينئذٍ يفر ولي العهد الفاطمي أمام نفس القائد العباسي مؤنس الخادم الذي نال فخراً بتلك الإهانة التي ألحقها بخصمه واستحق لقب «المظفر». وقبل مغادرة الديار المصرية اغتنم القائم الفرصة مرة أخرى لتأكيد حق أسرته في الخلافة، فأجاب مؤنس الذي وعده بالأمان وإقطاع إفريقية، إن هو أطاع بني العباس، قائلاً بالخصوص:

«فأما الخلافة، فما جعل الله للعباس بن عبد المطلب فيها حظاً، وما هو منها في شيء، لأنه ليس من المهاجرين ولا من العشرة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، ولا أدخل في الشورى، ولا التمسها في وقت من الأوقات»[41].

كما نظم القائم عدة قصائد دعا فيها المشارقة إلى الثورة على «الكفار» ومساندة القضية العادلة لذرية فاطمة. وكان يظن أنه يستطيع الحصول بوساطة الدعاية على النتائج التي يئس من إحرازها بقوة السلاح[42].

---

(40) ولاة، ص 295 - 295 - عيون الأخبار، 207 - البيان، ص *185

(41) عيون، ص 206.

(42) يوجد نص جواب القائم على رسالة مؤنس في عيون الأخبار، ص 206 وجاء في اتعاظ، ص 99 أن القائم وجه إلى بغداد قصيدة يفخر فيها ببيته وما فتح من البلاد، فأجابله الصولي بقصيدة على وزنها ورويها ومنها:

فلو كانت الدنيا مثالاً لطائر ... لكان لكم منها بما حزتم الذَّنَبُ

وحول أنصار الفاطميين في مصر أثناء الحملتين، انظر المعلومات النفيسة الواردة في «كتاب ولاة مصر»، ص 291 - 292 - 296.

5 ـ التوسع الفاطمي في المغرب الأقصى[43]:

كانت خطة المهدي تتمثل ـ كما أسلفنا ـ في دفع قواته تارة نحو شرق مملكته، وطوراً نحو غربها، كي يضع تحت رحمته خصميه الإثنين: العباسي والأموي. إلا أن سياسته التوسعية في المغرب الأقصى، بعدما أحرزته من انتصارات خاطفة على حساب بني صالح أصحاب نكور[44] والأدارسة أصحاب فاس[45]، سرعان ما عارضتها السياسة الحازمة والبارعة المتبعة من قبل أمير الأندلس عبد الرحمان الثالث الذي اعتلى عرش قرطبة بعد حوالي سنتين من تولي المهدي الخلافة.

وقد استعرض ليفي بروفنسال[46] في بضع صفحات غزيرة المادة نزاع النفوذ الطويل المدى والمتأني الذي نشب في المغرب بين الإمارة الأندلسية والخلافة الفاطمية بعد فشل حملة القائم على مصر، بحيث لا نرى فائدة في عرض هذه القضية من جديد. وسنكتفي حينئذٍ بالإشارة إلى أهم الوقائع التي درسها المؤرخ الجليل دراسة مستفيضة، مع التشديد على بعض أطوار العمل الحازم الذي قام به ولي العهد الفاطمي في المغرب الأوسط لإخضاع القائد الزناتي محمد بن خزر، وذلك بالاعتماد على رواية الداعي إدريس.

فقد حرص المهدي بعيد اعتلائه العرش ـ كما أسلفنا ـ على إخضاع منطقة تاهرت لسلطته مهما كلف الأمر، ليتمكن من التصرف على هواه في قاعدة ملائمة تسمح له ببسط سلطانه على النواحي الغربية من بلاد المغرب. وخلال صائفة سنة 914/304، في حين بدأت تتبدد ذكرى الفشل الأول الذي منيت به جيوشه في مصر، وأخفقت منذ عهد قريب الثورة المناهضة لسلطته في صقلية، قرر تكليف عامله على تاهرت القائد المكناسي مصالة بالقيام بحملة عسكرية في

(43) افتتاح، الفقرتان 295 - 297.
(44) إسبانيا الإسلامية، 247/1 - 248و 91/2 - 92. البيان، ص 176 - 178، البكري، ص 90 - 99.
(45) دائرة المعارف الإسلامية 2 (الأدارسة) ص 480 بلاد البربر الإسلامية ص 121 - 218 ـ إسبانيا الإسلامية، 81/2 - 82.
(46) إسبانيا الإسلامية، 78/2 - 110

المغرب الأقصى. وقد ذهب ضحيتها صاحب نكور سعيد بن صالح الذي قُتِل وفُتِحت قاعدة بلاده يوم الخميس 3 محرم 26/305 يونيو 971. ولكن ابن الراحل المدعو صالح الذي احتمى بأمير الأندلس عبد الرحمان الثالث، تمكن من الرجوع إلى نكور وقتل عاملها الشيعي(47). فكان رد الفعل الفاطمي سريعاً. وقد كان المهدي يقوم وقتئذٍ بحملته الثانية على مصر، تلك الحملة التي رأينا كيف كانت نتائجها وخيمة بالنسبة إلى جيوشه. وبينما كانت الدائرة تدور في مصر لفائدة العدو العباسي، رأى المهدي أن من مصلحة نفوذه المتدهور أن يستأنف عملياته الحربية في الغرب. فانطلق مصالة من جديد من تاهرت في صائفة سنة 921/308 واتجه في أول الأمر إلى نكور التي خرج منها ابن صالح وتمكن من استرجاعها، ثم استولى على فاس وأخرج منها يحيى الرابع الإدريسي واستعمل عليها ابن عمه موسى بن أبي العافية. ثم اقتحم سجلماسة وقتل صاحبها أحمد بن مدرار وعوضه بأمير مخلص له من نفس العائلة اسمه المعتز بن محمد بن مدرار. وبعدما أنهى مهمته على أحسن ما يرام رجع إلى تاهرت، ثم ارتحل إلى المهدية في شعبان 310/ ديسمبر 922، وأقام بها مدة قليلة(48).

إلا أن هذا التفوق في المغرب الأقصى قد كان قصير المدى، حيث سيتدهور الوضع في السنوات الموالية، وسيتيح الفرصة لتدخل الأمير الأندلسي الذي سيعرف كيف يستغل لفائدته مناهضة الزناتيين لسلطة الفاطميين، وما يضمرونه لأتباعهم الكتاميين من حقد دفين. ففي أوائل سنة 924/312 تلقى مصالة الإذن بالقيام بحملة على المغراويين الذين يمثلون أقوى بطن من بطون زناتة. حيث رفع قائدهم محمد بن خزر رأسه واستجاب للعروض الأموية المغرية. ولكن الغلبة كانت للمغراويين، ولقي مصالة مصرعه في ساحة الوغى. وقد دفعتهم انتصاراتهم إلى الهجوم على تاهرت في السنة الموالية. فاضطر المهدي إلى توجيه قوات عظيمة ليوقفهم عند حدهم. وتواصلت العمليات

(47) نفس المرجع، 91/2 - 92 ـ البيان، ص 179 - 180.

(48) إسبانيا الإسلامية، 93/2 - 94 ـ البربر، 526 - 527 ـ البيان، 179 - 183 البكري، ص 95 - 96.

الحربية مدة طويلة دون أن تسفر عن نتائج حاسمة.، وحرصاً على إخضاع المغراويين قرر الخليفة الفاطمي في سنة 927/315 القيام ضدهم بحملة عسكرية سنتطرق إليها فيما يلي بأكثر إسهاب(49).

فقد خرج القائم من المهدية على رأس الجيش يوم الخميس 6 صفر 12/315 أبريل 927. ونزل بسبخة بني معروف بالقرب من القيروان، حيث أقام أربعة أيام. ووفد عليه أهل القيروان للسلام عليه وتقديم شواهد الطاعة إليه. ثم سار يوم الثلاثاء الموالي حتى انتهى إلى الأربس، فوافاه بها خليل بن إسحاق بعساكر إفريقية. وأتاه كتاب عامل تاهرت يخبره بانهزام ابن خزر وتوجهه نحو الأراضي الصحراوية. فلم يستعجل القائم الزحف عليه، وتوقف في الأربس ثم في باغاية حيث وفدت عليه قبائل مزاتة وهوارة وصدينة وعجيسة وزناتة وأهل تيجس وقصر الإفريقي، وقدموا إليه شواهد الإخلاص. ولم يصل إلى سطيف إلا يوم 20 جمادي الأولى/ 23 يوليو، بعدما توقف في مسيلة بني عيسى. وانطلاقاً من مدينة سطيف المحصنة اهتم بإخضاع منطقة القبائل الصغرى والحضنة. ثم أنفذ جعفر بن عبيد الخادم المعروف بالصعلوك(50) إلى قلعة عقار، على رأس جيش من الكتاميين لمعاقبة مزاتة وكيانة وبني كملان المتحالفين مع زناتة. وأمر علي بن حمدون ببناء مدينة المسيلة في بلاد بني كملان والإقامة بها مع جنوده. ثم وجه بني كملان إلى تاهرت للالتحاق بعساكره.

وفي 26 جمادي الثانية استأنف القائم رحلته في اتجاه الغرب، فقضى شهر رجب في بلاد هوارة ثم اجتاز بلاد صنهاجة وواصل السير حتى نزل بموضع يقال له حائط حمزة في حدود منتصف شعبان/ أكتوبر «وهنالك وافاه مصعب بن

---

(49) البيان، ص 191 - 193 البربر 527/2 - 528 ـ اتعاظ، ص 104 - 105ابن حمادو، ص25 - 26 ـ عيون، ص 214

(50) انظر في الفصل السابق: رحلة المهدي الخبر الخاص بجعفر بن عبيد المعروف بالصعلوك، وهو خادم المهدي المخلص الذي كلفه بمرافقة الحريم انظر حول هذا الخادم Chambellau، ص 286، الإحالة 3.

ماتا الزناتي وجماعة كثيرة من زناتة، فعفا عنهم وأوسع عليهم العطاء». وفي أواخر رمضان/ نوفمبر انطلق الجيش الفاطمي في اتجاه حمة[51] الواقعة في منطقة تاهرت، وقد تحصن بها بعض الزناتيين مع قائدهم عبد الله بن تباذلت (وهو ابن خزر). ولكن القائم لم يتمكن من الالتقاء بالعدو الذي أسرع إلى الخروج من القلعة ولاذ بالفرار. ورغم رداءة الطقس، قرر مواصلة زحفه متجهاً نحو بلاد مطماطة وزبرقة. فنزل بوادي السواني (سوق إبراهيم)[52] وأقام هناك بضعة أيام من شهر شوال/ ديسمبر وكامل شهر ذي القعدة/ يناير 928، «ولما تمادى أهل مطماطة على الإصرار ولم يفيئوا للإعذار والإنذار»، قرر الهجوم عليهم في عز الشتاء، وذلك يوم الثلاثاء الثالث من ذي الحجة/ 29 يناير، وعهد إلى عضده خليل بن إسحاق بمراقبة رجال ابن تباذلت المتحصنين بقلعة القربوس ومنعهم من مدِّ يد المساعدة إلى حلفائهم. فانتصر القائم على أهل مطماطة بعد معارك طاحنة، في حين تمكن خليل من الانتصار على ابن تباذلت ورجاله، «فولوا هاربين وانهزموا مدبرين». وبعد إخضاع مطماطة توجه القائم إلى قلعة زبرقة (أغيت بالبربرية) يوم الجمعة السادس من ذي الحجة/ أول نوفمبر 928. «فنزل بموضع يعرف باسم هود بن ميداس[53] وأقام به باقي شهر ذي الحجة». ثم ارتحل إلى العرقوب ووصل أخيراً إلى تاغشمت القريبة من زبرقة يوم السبت 13 محرم/ 8 مارس 928. وهناك استعد الجيش الفاطمي للقتال. وفي يوم الثلاثاء الموالي زحف على تلك القلعة المنيعة المحاطة بالخنادق. ووقفت كتيبة من الجيش بقيادة خليل بن يعقوب على جبل مشرف على المدينة لتحويل أنظار العدو والحيلولة دون وصول الإمدادات. وملأ الجنود الخنادق بالحطب وألقوا بالمنجنيق والأحجار، ورمى الرماة بالسهام[54]. «ثم اقتحم الجنود الخندق

---

(51) [في عيون الأخبار (ص 218) «قلعة حمة» (بالجيم)].

(52) البيان، ص 191.

(53) [في عيون الأخبار (ص 221) «الهوى من ميداس»].

(54) كانت فرقة الرماة المساهمة في هذه الحملة تابعة للعناصر النظامية من جند إفريقية بقيادة خليل بن إسحاق، عيون، ص 222.

ووصلوا إلى السور فوضعوا فيه الفؤوس. فتضعضع السور وتداعى وانهار منه وجه كثير... وتكالب أهل زبرقة وأيقنوا بالهلاك، واشتد القتال واستماتوا واستبسلوا». واستمرت المعارك طوال الليل ولم تسقط القلعة إلا عند طلوع الشمس، فاستولى عليها المغيرون عنوة. وأجبر سقوط زبرقة قبائل لماية ومطماطة ومكناسة وقصيرة وهوارة على الإذعان للقائد الفاطمي الذي أقام بتاغشمت حتى أوائل صفر/ مارس، ثم ارتحل قاصداً الشلف وطاف في أرجاء تلك المنطقة لاقتفاء أثر الزناتيين من بني خزر، وهدم حصون الحمير وحضروح التي أخلاها أهلها. وطارد القائم دون جدوى القائد البربري الذي انسحب في اتجاه التخوم الصحراوية المحاذية لمنطقة تاهرت، وذلك طوال شهري رجب وشعبان/ أغسطس سبتمبر ـ أكتوبر. وتوقف في أومنت وشرف الراعب ودار ابن جلالة[55]. ثم توغل في الصحراء دون التوصل إلى ملاقاة العدو، وقد نفذ زاده، فاضطر إلى العودة على عقبيه في اتجاه الزاب، وقضى شهر شعبان/ أكتوبر في طبنة ثم قفل راجعاً إلى المهدية تلبية لنداء ابنه أبي القاسم الذي يبدو ـ حسب رواية ابن عذاري[56] ـ أنه دعاه إلى العودة خشية تعيين أخيه أبي علي ولياً للعهد عوضاً عنه. ولما توقف في الموضع المعروف بأبي مفرط وافاه كتاب من المهدي يخبره بفتوحات سالم بن راشد في صقلية وقلورية، وبالغارة التي قامت بها حامية برقة بنجاح على ذات الحمام[57]، وتعفن الوضع في بغداد إثر الانتصارات التي أحرزها القرامطة في الأنبار بقيادة سليمان الجنابي، وأخيراً وصل القائم إلى المهدية في أواخر رمضان/ نوفمبر، فاستقبله المهدي بحفاوة بالغة. ولئن سمحت هذه الحملة للخليفة الفاطمي بتعزيز نفوذه في منطقة تاهرت وفرض سلطته على بعض الزناتيين وحلفائهم من أهل مطماطة وقبائل مزاتة وبني كملان وغيرها من القبائل الأخرى، فإن الوضع قد تدهور على حسابه في المغرب الأقصى. ذلك أن أحد الأمراء الأدارسة الحسن بن محمد بن قاسم

---

(55) [في عيون الأخبار (ص 229) «سوق ابن جلالة»].

(56) البيان، ص 193.

(57) [في النص الفرنسي «ذات الهُمَام»، والتصحيح من عيون، ص 230].

المعروف بالحجام قد استرجع فاس سنة 926/313 وهزم مرات متتالية القائد المكناسي موسى بن أبي العافية الذي عهد إليه مصالة بن حبوس بقيادة الجيش إثر حملته الناجحة التي قام بها سنة 922. وفي السنة الموالية تدخل عبد الرحمان الثالث بصورة مباشرة في المغرب الأقصى وضمن لنفسه امتلاك حصن منيع على الساحل المغربي بعد استيلائه على مليلة الواقعة في الطرف الشرقي من الساحل الريفي وتعزيز جهاز الدفاع على ذلك الثغر. وفي سنة - 315 928/927 بادر موسى بن أبي العافية إلى استئناف العمليات الحربية، فأمر بقتل الحجام ومطاردة إخوته وأقربائه من الأدارسة الذين كانوا في حماية قبيلة غمارة، وشرع في تهدئة شمال المغرب الأقصى ومنطقة وهران. ولكن الوضع تطور فجأة خلال السنوات الموالية لفائدة الأمير الأندلسي الذي ازداد هيبة بتلقبه بلقب الخليفة الأموي وتكنيه بالناصر لدين الله. فأمر قائده فرج بن عفير باحتلال قاعدة سبتة يوم 2 ربيع الأول 25/319 مارس 931. وبذلك أصبح يتصرف في نقطة ارتكاز متينة على السواحل الغربية، توجد في موقع أحسن من موقع مليلة المقابل لها، وعلى بعد بضعة أميال من المرفأ الحربي الأندلسي، الجزيرة. وقد تسبب هذا الانتصار في خروج موسى بن أبي العافية عن طاعة المهدي ودخوله في طاعة الخليفة الأموي، اعتباراً من ذلك التاريخ[58]، وكان من المفروض أن يرد المهدي الفعل بقوة على تخلي عامله في المغرب الأقصى، لا سيما وقد أصبح مشغول البال بالسياسة العدوانية التي توخاها خصمه الأندلسي المكلل بهالة الخلافة فأمر عامل تاهرت حميد بن يصل الذي كان قد خلف عمه مصالة في ذلك المنصب، بالزحف على ابن أبي العافية، وتكللت هذه الحملة بالنجاح في صائفة سنة 932/320. وإثر انتصاره على خصمه، اقتصر القائد الفاطمي على استرجاع فاس وقفل راجعاً إلى إفريقية من غير أي داع ولم يغتنم الفرصة لإعادة الوضع إلى نصابه في المغرب الأقصى لصالح الخليفة الفاطمي. وهكذا بالرغم من الجهود المبذولة بلا كلل ولا ملل أسفرت السياسة التوسعية في المغرب

---

(58) إسبانيا الإسلامية، 95/2 - 97- البيان، ص 199 - 200، 201 - 202، 204 - البربر، 258/2، وقد ورد فيه اسم أحمد بن أيسلتن عوض حميد بن يصل، عيون، ص 232.

الأقصى عن نتائج هزيلة، على غرار النتائج التافهة التي أحرزتها الحملتان السابقتان على مصر. فقد اعترضتها عقبتان كبيرتان، وهما سياسة عبد الرحمان الثالث المتسمة باليقظة والجرأة وتمرد الزناتيين. واضطر المهدي قبل وفاته إلى قبول تمركز الخليفة الأموي «الملعون» في المغرب الأقصى، وبقاء ابن خزر في المغرب الأوسط، يجوب أطراف البلاد بلا رادع. إلا أن تلك السياسة التوسعية لم يكن لها في نظر الخليفة الفاطمي سوى هدف محدود. ذلك أنها لم تكن ترمي لا إلى إلحاق المغرب الأقصى بالمملكة الفاطمية، ولا إلى فتح الأندلس، إنما كانت، من خلال الغارات المتتالية المنطلقة من تاهرت، تتخذ شكل حرب نفوذ وتهدف من جهة إلى تخويف زناتة وغيرها من القبائل البربرية الأخرى، ومن جهة ثانية إلى مقاومة نفوذ العاهل الأندلسي. وسيواصل خلفاء المهدي هذه السياسة بنفس الصرامة ونفس الإصرار.

6 ـ المهدي وبيزنطة: الغارات الفاطمية على قلورية:

لقد انجرّ عن عودة صقلية إلى الحظيرة الفاطمية بعد فشل ثورة ابن قرهب، إلغاء الاتفاقيات التي عقدها هذا الأخير مع بيزنطة حول قلورية. وقد كان من واجب صاحب إفريقية أن يتبنى السياسة العدوانية التي انتهجها أسلافه الأغالبة إزاء قلورية، والمطالبة بدفع الغرامة المفروضة على هذه المقاطعة البيزنطية، والتي توقف تسديدها في الأثناء. ذلك أن إرجاع النظام إلى نصابه في صقلية قد وضع حداً للهدنة المعمول بها في إيطاليا الجنوبية التي أصبح أهلها عرضة من جديد للغارات الإسلامية، بعدما قاسوا منها الأمرين في السابق.

وقد جرت الغارة الأولى على قلورية انطلاقاً من إفريقية، إثر تهدئة صقلية من قبل أبي سعيد الضيف في صائفة سنة 918/306. حيث استولى الجنود الفاطميون على رجيو دون أن يلقوا أية مقاومة، ثم غادروا المدينة مع الغنائم والأسرى[59].

وانطلقت الغارة الثانية من المهدية في صائفة سنة 922/310. فقد أنزل

(59) فاسيلاف، ص 103، أماري، 200/2.

القائد مسعود بن غالب الوسولي[59م] رجاله من أسطوله المتركب من عشرين قادساً بالقرب من رجيو، واستولى على قلعة سانت أغات وأوقع سكانها في الأسر وقفل راجعاً إلى المهدية[60]. وبعد ذلك بسنتين قرر الخليفة الفاطمي القيام بحملة واسعة النطاق على قلورية. فجهز عدة سفن في ميناء المهدية ووضعها تحت إمرة حاجبه جعفر بن عبيد المعروف بالصعلوك، الذي تحول إلى بلرم، فقضى بها شتاء سنة 324/312 - 325، ثم «جاوز العدوة الأخرى» (مضيق مسينة)، وهجم على قلورية يوم أول محرم 23/313 مارس 925. فاستولى على برزانة وعدة مدن أخرى، ثم دفع سفنه الشراعية في خليج تارنتا وأنزل جيوشه في منطقة أورنت،ومن هناك اقتحم مدينة أوريا في أوائل يوليو، وقتل بضعة آلاف من السكان، وسبا نحو العشرة آلاف شخص، من بينهم بطرق المدينة الذي دفع مبلغاً قدرة 5000 مثقال لافتدائه هو ومدينته. ثم أبرم جعفر هدنة بكفالة من أسقف صقلية المسمى ليون وحاكم قلورية، وقفل راجعاً إلى بلرم يوم 25 ربيع الثاني/ 20 يوليو. ومن هناك وجه مكتوباً إلى المهدي لإحاطته علماً بهذا الانتصار. وبعد ذلك بشهر ونصف الشهر وصل إلى المهدية يوم 11 جمادي الثانية/ 3 سبتمبر، محملاً بغنائم كثيرة[61].

وقد دفع هذا الانتصار الباهر الذي أحرزه الحاجب الفاطمي، الحكومة البيزنطية إلى عقد معاهدة مع حكومة المهدية ترمي ـ حسب رأي أماري ـ إلى تأكيد اتفاقيات قلورية والاتفاقيات التي أبرمها ابن قرهب، وقد أحبط رومانوس لاسيبان مشروع التحالف الذي كان من المقرر إبرامه بين ملك بلغاريا سيميون الأول والمهـدي. ولتهدئة خاطر الخليفة الفاطمي، أرسل إليه مجموعة من الهدايا، مع الوعد بدفع الغرامة السنوية المفروضة على قلورية[61م].

(59 م) [في النص الفرنسي «الوسولي» وفي عيون (ص 231) «الرسولي»].

(60) البيان، ص 187 - 188 ـ فاسيلاف نفس المرجع، أماري، 201/2.

(61) البيان، ص 190 Chambellan، ص 286 - 287، فاسيلاف، ص 103 - 104 ـ أماري، 201/2 - 204 ـ عيون الأخبار، ص 214.

(61 م) أماري، 204/2 - 206 ـ دائرة المعارف الإسلامية 2 (الفاطميون) ص 873.

إلا أن تأخير دفع تلك الغرامة قد أثار بعد ذلك بقليل رد فعل المهدي الذي نقض الهدنة ووجه جيشه للهجوم على قلورية وقد أبحر من المهدية في صائفة سنة 925/315 أسطول يتركب من 44 سفينة، قاصداً صقلية بقيادة صابر الخادم. وبعدما عزّز أسطوله بوحدات صقلية، غادر صابر الجزيرة في اتجاه أبولي، حيث زحف على تارنتا يوم 15 جمادي الثانية/ 7 أغسطس، فقتل أهلها وعاد إلى بلرم بعدد كبير من الأسرى[62].

وفي شهر ربيع الثاني من السنة الموالية/ مايو ـ يونيو 28 أعـاد صابر الخادم الكرة بمساعدة قائد آخر اسمه أحمد بن سامة، فانطلق من بلرم في اتجاه جنوب إيطاليا من ناحية البحر التيريني، حيث استولى على عدة قواعد حربية من بينها الغيران وقلعة الخشب ثم حاصر على التوالي سالرنو ونابولي، بعدما تحصل على الغرامة الموظفة على قلورية[63].

وفي الصائفة الموالية التقى صابر الذي كان يجول في البحر الإيوني مع أربع سفن، بحاكم قلورية الذي كان يقود سبع سفن فانتصر أمير البحر الفاطمي على خصمه، وشجعه انتصاره على النزول في مدينة ترمولي التي تمكن من اقتحامها. ولم يرجع في أعقاب هذه الحملة الطويلة والناجحة إلا في شعبان سنة 318/ سبتمبر 930[64].

وتأخر تسديد غرامة سنة 319، فأمر المهدي بتجهيز الأساطيل لغزو جنوب إيطاليا. «فلما أيقن الروم (البيزنطيون) بذلك بعثوا رسلهم بالهدايا وسألوا الهدنة وكف الحرب. فأقامت الأساطيل ولم تَغْزُ»[65] وستتواصل هذه الهدنة حتى وفاة المهدي حيث استمر دفع الغرامة بلا انقطاع.

والجدير بالذكر أن هذه الانتصارات المتتالية التي أحرزها الأسطول

---

(62) عيون الأخبار، 231، البيان، 192 ـ فاسيلاف، ص 223 ـ أماري 207/2.

(63) البيان، ص 193 فاسيلاف، ص 104. أماري، 207/2 - 210.

(64) البيان، ص 194 ـ فاسيلاف، ص 104 ـ أماري 210/2.

(65) عيون الأخبار، ص 232.

الفاطمي، من شأنها أن تقيم الدليل على مدى قوته، وأن تبين أن خلفاء ملوك بني الأغلب كانوا حريصين مثلهم على ضمان سيطرة الإسلام على صقلية وإرغام مقاطعة قلورية البيزنطية على دفع الجزية. وقد اضطرت بيزنطة المشغولة البال بالسياسة البلغارية التوسعية إلى إطلاق أيدي الفاطميين لإخضاع قلورية والبوية، حيث كانت سلطة البيزنطيين على تلك الربوع واهية. وبناءً على ذلك لم يحدث أي اشتباك ذي بال بين الأسطولين البيزنطي والفاطمي في عهد المهدي الطويل المدى. واستغلّ الخليفة الفاطمي هذا الوضع ليعزّز في ميناء المهدية أسطوله الذي سيزداد قوة على قوة حتى عهد المعزّ لدين الله الفاطمي. وسيسمح ذلك الأسطول للخليفة الرابع بأن يتنافس بنجاح مع خصمه قيصر الروم نقفور فقاس العظيم.

7 ـ المهدي وحركة القرامطة:

لقد تعهد المهدي منذ انتصابه في رقادة بوصفه الإمام الفاطمي، بالإشراف على الدعوة الإسماعيلية وتعيين الدعاة والسهر على اعتراف كافة أتباعه في مختلف «جزر» العالم الإسلامي بإمامته. وقد أفضى قطع علاقاته مع حمدان قرمط وانصرافه من سلمية إثر اندلاع ثورة زكرويه في الشام، إلى النيل من سلطته باعتباره زعيم الطائفة الإسماعيلية. ولكن انتصارات الدعوة في المغرب والإعلان عن قيام الخلافة الفاطمية قد رفعت من شأنه وسمحت له ببسط سلطانه من جديد على الحركة القرمطية التي لم يمنعها فشل الثورة في الشام ولا الخلافات بين الأتباع من الحفاظ على كامل حيويتها في البحرين بقيادة أبي سعيد الجنابي[66].

إلا أن العلاقات بين المهدي وبين الجنابي لم تكن على أحسن ما يرام. فلئن كان الزعيم القرمطي معترفاً بسلطة المهدي بوصفه الرئيس الأعلى للطائفة الإسماعيلية، إلا أنه لم يمنح القضية الفاطمية ومقاومة العباسيين ما كان ينتظره منه رئيسه من دعم. فلم يكن يبدي أي نفور من العروض المغرية التي كان يقدمها إليه وزير المقتدر علي بن عيسى. بل إنه أظهر شيئاً من الفتور في مساندة

---

(66) انظر، المهدي، ص 211 - 212 ـ كشف، 200 - 201، لاووست، 142.

الهجوم الفاطمي على مصر بحد السلاح، واكتفى في سنة 913/300 بإصدار الأمر بشن غارة على البصرة في نطاق محدود. ولذلك لم يتأخر بعض المؤرخين بحق عن تحميل المهدي مسؤولية قتل الجنابي في السنة الموالية بقلعة الأحساء[67].

وقد خلف أبا سعيد الجنابي ابنه سعيد، دون الحصول على موافقة الخليفة الفاطمي. فلم تتحسن العلاقات بين الزعيم القرمطي الجديد وبين المهدي، بل بالعكس من ذلك فقد حرص سعيد الجنابي على تعزيز سياسة التقارب مع بغداد، تلك السياسة التي أقرها والده ووجدت نصيراً لها متحمساً في شخص علي بن عيسى وزير المقتدر. ولكن ما لبث سعيد أن خُلِع وعُوِّض بأخيه سليمان المعروف أكثر بكنية «أبي طاهر». ومنذ سنة 917/305 استعاد المهدي، باعتباره إمام الإسماعيليين، سلطته على الفرع القرمطي الذي أصبح على رأسه زعيم مخلص للإمام[68].

ولقد تمت الإطاحة بسعيد الجنابي في الوقت المناسب. حيث كان المهدي يتأهب وقتئذٍ لتوجيه ولي عهده على رأس جيشه إلى بلاد الكنانة، وكان يعول ـ حسب رواية ابن خلدون[69] ـ على مساندة القرامطة لإنجاح حملته الثانية على مصر. وحتى لو لم تزحف جيوش أبي طاهر الجنابي على الفسطاط، فإن تفاقم الاضطرابات القرمطية داخل المملكة العباسية، في الوقت الذي كان فيه الجيش الفاطمي يجتاح الإقليم المصري، يعتبر في حد ذاته أمراً لا يستهان به، إذ من شأنه إبطال مفعول قوات العدو. والواقع أن أبا طاهر لم يكن قادراً على مد يد المساعدة إلى ولي العهد الفاطمي الذي اضطر إلى التقهقر ـ كما أسلفنا ـ أمام القائد العباسي مؤنس الخادم.

وبالعكس من ذلك فقد أسفرت عودة القرامطة إلى الحظيرة الإسماعيلية

---

(67) أكمل رواية حول ترجمة أبي سعيد الجنابي توجد في الاتعاظ، ص 214 - 221 والعبر، 88/4 - 90.

(68) المهدي، ص 215 - 218 ـ لاووست، 142.

(69) انظر الفصل الخاص برحلة المهدي.

والدعم الذي لم يعد زعيمهم أبو طاهر يبخل به على القضية الفاطمية، عن استئناف حركة التمرد التي ما فتئت منذ عهد بعيد تنخر جسم المملكة العباسية. وأصبح أبو طاهر اعتباراً من ذلك التاريخ يكرر الهجومات ذات الصدى البعيد على قوافل الحجيج، ويتحدى بلا رادع المقتدر بالله الذي اقتصرت ردود فعله على توجيه الإنذارات والتهديدات إلى الزعيم القرمطي، لعجزه عن محاربته. أضف إلى ذلك أن الغارات المتتابعة التي كان يقوم بها القرامطة في سواد الكوفة[70] خلال الفترة 315 - 927/316 - 928، وما أظهره من فتور القائد العباسي يوسف بن أبي الساج الذي اتهمه بعض المؤرخين بالتعاطف مع العلويين، واستيلاء القرامطة على مكة سنة 929/317 وما ارتكبوه فيها من أعمال عنف، ونقل الحجر الأسود إلى عاصمتهم هجر، قلت إن كل ذلك قد ساعد على إقامة الدليل - إن كنا في حاجة إلى دليل - على انحطاط الخلافة العباسية في الوقت الذي تعاظم فيه نفوذ الخلافة الفاطمية في العالم الإسلامي.

8 - المهدي وتطور الدعوة الإسماعيلية في اليمن:

لما أعلنت الخلافة الفاطمية في رقادة كان تأثير الإمام الإسماعيلي على أتباعه في اليمن ضعيفاً كتأثيره على القرامطة. فقد تقهرت الدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد وأصبحت تجتاز أزمة حادة منذ فرار المهدي من سلمية. والحال أنه قد فكر - كما أسلفنا - عند خروجه من الشام قبل ذلك بثمانية أعوام في التحول إلى البلاد اليمنية للإقامة بها. وقد أشرنا في فصل سابق إلى الأسباب التي صرفته عن تلك الفكرة وحملته على الذهاب إلى المغرب، لما خانه داعي الدعاة فيروز وغادر اليمن. ذلك أن النتائج التي أحرزتها الدعوة الإسماعيلية في هذه البلاد لم تكن تبعث على الاطمئنان.

ثم تفاقم الوضع فيما بعد. فلئن ظل مخلصاً للإمام، الداعي ابن حوشب

---

(70) انظر حول حوادث 315 و 316 المتعلقة بحملة القرامطة في ناحية الكوفة وهجومهم على قوافل الحجيج، اتعاظ، ص 239 - 247 وانظر نص رسالة التهديد التي وجهها أبو طاهر إلى الخليفة العباسي في كشف، ص 212 - 213.

الذي كان يقوم بالدعوة في بلد لاعة شمال شرقي صنعاء، وقد أضفت عليه انتصاراته لقب «المنصور» فإن الداعي اليمني الثاني ابن الفضل الذي كان يقوم بمهمته في بلد يافع شمالي العاصمة، لم يكن يخفي منهاضته للمهدي. وما لبث ـ بعدما استقبل فيروز وأصبح يعمل لحسابه الخاص دون أية صلة بابن حوشب ـ أن استولى على قلعة المذيخرة في سنة 305;292 وعلى صنعاء في السنة الموالية، وأخذ في ارتكاب شتى الفظائع والمحرمات. وبعدما خسر صنعاء ثم استرجعها ثم خسرها من جديد، استولى عليها مرة أخرى وأنكر سلطة الإمام ودخل في حرب مع ابن حوشب[71].

فما كان من المهدي إلا أن عهد إلى ابن حوشب بقتل المارق. فتواصلت العمليات الحربية مدة طويلة دون أن تسفر عن نتائج حاسمة. وتوفي ابن حوشب سنة 910/302 قبل أن يتمكن من إخضاع رفيقه السابق الذي التحق بجوار ربه بعد ذلك ببضعة أشهر، وقد سممه طبيب علوي ربما بإيعاز من المهدي ذاته[72].

وقبل وفاته عين ابن حوشب ابنه الحسن والداعي عبد الله العباس الشاوري ليخلفاه، في انتظار قرار الإمام. فرأى المهدي من الصالح أن يعهد بمهمة الإشراف على الطائفة الإسماعيلية في اليمن إلى الشاوري دون سواه، وأن يقصي ذرية ابن حوشب. وقد تبين أن هذا القرار كان في غير محله إن لم يكن ذا عواقب وخيمة. ذلك أن الحسن الذي استاء من تصرفات المهدي قد ارتد عن المذهب الإسماعيلي بالرغم من أخيه جعفر[73]، وانضم إليه عدد كبير من الأنصار. فتأثرت الدعوة الإسماعيلية بهذا الانشقاق، وأوهنتها المنافسة بين أتباع الحسن ابن حوشب وأتباع الشاوري. واغتنمت العناصر السنية والزيدية في

---

(71) افتتاح، الفقرة 150 ـ كشف، ص 207 - 211، 213 - 216.

(72) كشف، ص 215 - 215.

(73) يتعلق الأمر بالفقيه الشهير والشاعر جعفر بن منصور اليمن، انظر حول هذا الشخص بالخصوص، سيرة جعفر، 193 -194 والمعز، ص 268 - 272.

اليمن تلك الفرصة لتقاوم بنجاح، لا فحسب الإسماعيليين الذين ظلوا أوفياء للإمام، بل أيضاً أتباع الحسن الذين تم القضاء عليهم في آخر الأمر(74).

وبقي الوضع غامضاً إلى أن توفي المهدي. فضعفت الطائفة الإسماعيلية أكثر فأكثر في اليمن، وانحصرت في مجموعات قليلة العدد تعيش في كنف السرية في شمال غربي صنعاء وجنوبها، ولم تتمكن من استرجاع قواها إلا خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، عند قيام الدولة الصليحية التي سيؤسسها علي بن محمد الصليحي في عهد المستنصر بالله(75).

مآثـــر المهـــدي

لقد توفي الخليفة الفاطمي الأول بالمهدية ليلة الثلاثاء 15 ربيع الأول سنة 3/322 مارس 934، إثر مرض قصير، وكان عمره يوم وفاته ثلاث وستين سنة. وتلقى ولي عهده البيعة من الدعاة وكبار رجل الدولة من الخاصة. وقد رأى القائم من الصالح إخفاء خبر وفاة والده حتى يتمكن من تركيز سلطته، ولم يظهر نعيه للعموم إلا بعد ذلك بمائة يوم(76). وكان من حقّ المهدي أن يبتهج قبل وفاته بنجاح مهمته المزدوجة، بوصفه إماماً وخليفة في نفس الوقت. فقد عرف لما تقلد الإمامة قبل ذلك بسبع وثلاثين سنة وهو لايزال شاباً، كيف يواجه بشجاعة وثبات العدو العباسي والقرامطة المتمردين الذين رفضوا الاعتراف برئاسته للطائفة الإسماعيلية ثم كان عليه أن يتحمل بجلد صروف هجرة طويلة وشاقة. وقد شهدت في كنفه الدعوة الإسماعيلية التي خرجت وقتئذٍ من فترة «الستر»، تقدماً في اليمن وفي المغرب على وجه الخصوص.

---

(74) كشف، ص 216 - 219.

(75) نفس المصدر، ص 219 - 221. ولدينا حول الأسرة الصليحية كتاب باللغة العربية موثق وجدير بالثقة، تأليف حُسَيْن الهمداني وحسن سليمان محمود، عنوانه: «**الصُلَيحِيون والحركة الفاطمية في اليمن**» القاهرة، وقد اعتمدناه في الأطروحة التكميلية.

(76) انظر عيون الأخبار، ص 239 - وافتتاح، الفقرة 297.

ثم عرف منذ إعلان الخلافة، بوصفه عاهلاً حازماً وماهراً، كيف يقيم دولة عتيدة على دعائم المملكة الأغلبية السابقة، وكيف يواصل طوال عهده الذي دام 24 سنة تطبيق سياسة منتظمة. فقد أعاد السلام إلى ممتلكاته الخاصة، وأخضع لسلطته رعاياه من العرب والبربر والنصارى. ووضع حداً لخطر الخوارج، وأخضع زناتة وغيرها من القبائل المناهضة لنظامه. كما أمر جيوشه بخوض غمار الحرب خارج حدود بلاده بلا كلل ولا ملل، لتخويف عدوه النصراني قيصر الروم وفي آنٍ واحد منافسيه المسلمين، العباسي والأموي.

أضف إلى ذلك أن تأسيس المهدية كقاعدة حربية قد وفر للدولة الفاطمية الفتية عاصمتها السياسية ومعقلها[77] القادر على صيانتها، والكفيل بتمكينها من استعماله كأداة لخدمة سياستها المقامة على الهيبة والهيمنة. واعتباراً من ذلك الحين ستدخل الدولة الفاطمية المرحلة الأولى من تاريخها الطويل.

---

(77) **افتتاح**، الفقرة 296. وانظر أيضاً في الباب الموالي: التنظيم العسكري والبحرية الفاطمية.

الباب الثالث

الخليفة الفاطمي الثاني :
القائم بأمر الله واندلاع ثورة الخوارج

المقدمــة

لقد كانت شخصية الخليفة الفاطمي الثاني قليلة التألق في سلسلة الخلفاء الفاطميين بإفريقية. فلئن بقي اسم المهدي ملتصقاً بتأسيس المملكة العلوية، واسم المنصور مقروناً بسحق ثورة الخوارج، واسم المعز غير منفصل عن فتح مصر، فإن ذكر القائم بأمر الله لم يكن مرتبطاً بأي عمل باهر. بل قل إن اسمه يشير ذكره هزائم فادحة، وتحجبه شهرة أبي يزيد مخلد بن كيداد «صاحب الحمار»[1].

ذلك أن مصادرنا، سواء منها السنية أو الإسماعيلية قد مرت مر الكرام على عهده الذي دام اثني عشر عاماً. ولم تتعرض بإسهاب إلا للأحداث التي شهدتها ثورة الخوارج، والحال أن القائم لم يكن، بوصفه خليفة، دون مستوى المهام الملقاة على عاتقه، ولم ينقصه الحزم في مباشرته للحكم، حسبما يبدو. فقبل اعتلائه العرش، كان قد اكتسب منذ عهد بعيد خبرة طويلة في إدارة شؤون البلاد، واشترك مع المهدي منذ عهد الشباب في السهر على حظوظ الطائفة الإسماعيلية وممارسة الحكم في إفريقية. وقد رأينا كيف تعرض إلى

---

(1) لقد كُتِب الكثير حول ترجمة حياة أبي يزيد. ولذلك سنقتصر على الإشارة إلى الفصل الذي نشره لوتورنو في «الكراسات التونسية» عدد 2 سنة 1953، بعنوان «ثورة أبي يزيد في القرن العاشر»، وقد اعتمد بصورة مستفيضة كتب الأخبار السنّية والمصادر الإباضية. واستعمل السيد شتارن المصادر الإسماعيلية في دائرة المعارف الإسماعيلية 1 (أبو يزيد) ص 167 - 168. ولكننا نشير بالنسبة إلى التفاصيل إلى كتاب الداعي إدريس «عيون الأخبار».

جانب الإمام، وهو لم يزل صغيراً، لمحنة هجرة طويلة ومحفوفة بالمخاطرة. ثم شهد قيام الدولة الفاطمية في سجلماسة ورقادة. ورأيناه بعد ذلك إثر تعيينه ولياً للعهد سنة 319/299، وعمره عشرون سنة، وهو يقود الجيوش الفاطمية في منطقة القبائل الصغرى، ثم في طرابلس ومصر والمغرب الأوسط. فاعتلى العرش حينئذٍ بعدما أظهر ما هو قادر عليه كولي عهد وقائد جيش وأصبحت المملكة التي يتولى تسيير شؤونها بلاداً هادئة ومزدهرة ودولة قوية. وكان البناء الذي شيده المهدي بعناية فائقة مؤهلاً للدوام. فلم يكن يهدد وجوده أي خطر داخل البلاد أو خارج حدودها. وبناءً على ذلك فقد اقتصر القائم، لما تسلم مقاليد الخلافة، على حكم البلاد وفقاً للقواعد التي أرساها المهدي ومواصلة سياسة الهيمنة ذاتها، سواء تجاه العباسيين، أو إزاء الأمويين في الأندلس. وستعيش إفريقية خلال أطول فترة من عهده في كنف الهدوء الذي يدل عليه سكوت الأخباريين المتعودين بالخصوص على تسجيل الحوادث الدامية والاضطرابات[2].

وقد انعزل القائم في قصره بالمهدية متأثراً بوفاة أبيه حتى قيل إنه لم يركب الخيل إلا في مناسبتين، وسيعيش عيشة تقشف وهدوء. وبما أنه كان مطلعاً بما فيه الكفاية على علم الحدثان والجفر[3]، فقد كان في شبه عزلة، منتظراً، حسب رواية بعض الأخباريين الإسماعيليين، ظهور الدجال الذي سينغص حياته في آخر أيام دولته، وسينتهي إلى مصلى المهدية. وعندئذٍ سيعكر الانفجار المفاجىء لثورة الخوارج، صفو الأمن العام الذي تمتعت به إفريقية طوال ما يقارب العشر سنوات وسيتخذ الدجال الذي تنبأت الأخبار بظهوره شكلاً إنسانياً

---

(2) من ذلك مثلاً أن تاريخ القائم لا يحتل في البيان سوى ثلاث أو أربع صفحات، وفي الاتعاظ لا يتجاوز الصفحتين. ولم يهتم الأخباريون إلا بأبي يزيد على حساب القائم.

(3) انظر مزيداً من التفاصيل حول حزن القائم في البيان، ص 208. وفيما يتعلق بعلم الحدثان والجفر، والتنبؤات الواردة في الأدب الشيعي، انظر الافتتاح، الفقرتان 56 و 6 ودائرة المعارف الإسلامية 3، (ملاحم) ص 200 - 201، ونفس المرجع 1 (الجفر)، ص 1022، ونفس المرجع 3 (المهدي)، ص 118.

متمثلاً في شخص «صاحب الحمار»، المتمرد النكاري الخارجي. وستصبح الدولة الفاطمية في ظرف بضعة شهور على قـاب قوسين أو أدنى من الاندثار. أما إفريقية التي ستعيث فيها الحشود البربرية القادمة من الأوراس، فساداً، فإنها ستتعرض للتخريب وستعاني من ويلات الحرب.

(4) افتتاح، الفقرة، 298 وفاسيلاف، ص 231 - والبيان، ص 209 واتعاظ، ص 108 وأماري، 211 - 213.

الفصل الأول

سياسة القائم بأمر الله الخارجية

1 ـ الحملة على النصارى:

خرج الأسطول الفاطمي من المهدية يوم السبت 7 رجب 23/322 يونيو 934 ظهراً[1]، في عشرين مركباً، بقيادة أمير البحر يعقوب بن إسحاق أخي خليل بن إسحاق، في اتجاه الشمال الغربي. وفي طريقه أوقف يعقوب مراكب بعض التجار النصارى القادمين من جهة الأندلس، فأخذ وأسر من فيها، وتمادى في السير إلى أن نزل على مدينة جنوة. فاستولى عليها رجاله إثر حصار طويل وقتال شديد، وقتلوا من كان فيها من المحاربين وسبوا النساء والأطفال. وبعد ما نهب يعقوب المدينة وغنم ما فيها من البزّ والحرير والكتان وغير ذلك، أضرم النار فيها ثم قفل راجعاً. وفي طريقه شن على النصارى عدة معارك بحرية انتهت بانتصاره، «وعاد يعقوب ظافراً منصوراً، غانماً محبوراً. فوافى ساحل المهدية بجميع من كان معه، ووقف في مرساها يوم الأربعاء لأربع ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة 28/328 أغسطس 935»[2]. واستقبله الخليفة بحفاوة بالغة[3].

2 ـ الحملة على المغرب الأقصى:

لما توفي المهدي، ترك الوضع متردياً في المغرب الأقصى. ذلك أن

(1) [في عيون الأخبار (ص 262) خرج يعقوب من المهدية يوم الأحد ظهراً لست ليالٍ خلون من شهر رجب من سنة 322].

(2) نفس المصدر، ص 262.

(3) انظر أيضاً، افتتاح، الفقرة 298 ـ الكامل، 238/6 ـ البربر، 529/2 فاسيلاف، ص 231، البيان، ص 209 ـ اتعاظ، ص 108، أماري 211/2 - 213.

ارتداد موسى بن أبي العافية الذي انضم إلى الفاطميين قد أفضى إلى تقلص سلطة الفاطميين في تلك البلاد إلى حد كبير. فما إن اعتلى القائم العرش حتى أسرع إلى إعداد حملة عسكرية لاسترجاع سلطته في المغرب الأقصى، ووضع حد للنفوذ المتزايد الذي كان يحظى به الخليفة الأموي الناصر في تلك الربوع. فاجتاز الجيش الفاطمي بلاد المغرب دفعة واحدة بقيادة ميسور الخادم، وانتهى إلى فاس فتخلى القائد المكناسي عن تلك المدينة وانهزم في اتجاه منطقة تازة الجبلية، تاركاً ابنه بين أيدي العدو الذي سار به إلى المهدية أسيراً.

وفي الأثناء قصد قائد آخر من قواد القائم، وهو صندل الخادم، مدينة نكور، فاسترجعها وقتل صاحبها إسماعيل بن عبد الملك الصالحي في شوال 323/ سبتمبر 935. ثم التحق بميسور أمام أبواب فاس المحاصرة. واستسلمت المدينة في آخر الأمر، وتمكن القائد الفاطمي من إرجاع سلطة بني محمد الأدارسة الموالين للفاطميين وبعدما طارد موسى ابن أبي العافية الذي التجأ إلى سباسب بلاد ملوية، قفل راجعاً إلى إفريقية منتصراً[4].

3 ـ الحملة على مصر:

يبدو أن هذه الحملة على مصر، كما رواها بعض الأخباريين في سياق حديثهم عن أحداث سنة 935/323، قد نظمها المهدي قبيل وفاته بعد الخيبات المتكررة التي مني بها جيشه[5]. والواقع أن أبا القاسم منذ أن اعتلى العرش

---

(4) البيان، ص 209 - 210 ـ اتعاظ، ص 108، البربر، 529/2. إسبانيا الإسلامية، ص 102.

(5) البيان، 209. اتعاظ، ص 108 ـ البربر، 530/2. وليس هذا رأي حسن إبراهيم حسن وطه شرف اللذين أكدا في كتابهما المهدي، ص 181 - 186 أن الحملة الثالثة على مصر قد وجهها المهدي قبل وفاته بمدة قليلة، ويعتمدان في ذلك خطأ على رواية الكندي في كتاب ولاة مصر، ص 302 - 300. ذلك أنهما لم يصيبا في قراءة نص الكندي وارتكبا خطأ فادحاً حين خلطا بين قائد فرقة من الجند المصري وبين قائد مفترض من قواد المهدي، يحمل اسم حبشي بن أحمد. والواقع أنهما فهما كلمة «مغاربة» فهما معكوساً، وكذلك تأويل الجملة التالية: «ثم نزغ الشيطان بين الجند فتفرقوا فرقتين: فكان على أهل الشرق منهم حبكويه وعلى المغاربة حبشي بن أحمد واجتمعت كل فرقة على قتال الأخرى...». ويتضح من ذلك أن الأمر يتعلق بنزاع داخل الجند المصري.

وتلقب بالقائم بأمر الله، كان حريصاً على أن يوجه إلى تلك البلاد التي أخفق فيها عدة مرات، القوات المتمركزة في قاعدة برقة، والمعززةبعناصر قادمة من إفريقية. ففي عهده ـ كما أكد ذلك الكندي دون أي لبس[6] ـ جرت الحملة الثالثة على مصر بلا نجاح مرة أخرى. والحال أن هذه المحاولة قد تمت في ظروف مؤاتية. فقد ثار على عامل مصر محمد بن طغج قائدا الأسطول، علي بن بدر وبجكم وقائد حامية الإسكندرية حبشي بن أحمد، وانسحبوا إلى برقة حيث انضموا إلى القائم ودخلوا في طاعته. فوجه إليهم القائم، لتعزيز صفوفهم، خادمه زيدان وضابطه عامر المعروف بالمجنون. ولما علم ابن طغج بذلك أسرع إلى رد الفعل وتمكن أخوه حسن والضابط صالح بن نافع، المكلفان بقيادة الجيش المصري، من تخليص الإسكندرية التي كان قد احتلها قبل ذلك القائدان الكتاميان يعيش وأبو تزنيت يوم 6 جمادي الأولى 324/ أول أبريل 936. فقُتِل يعيش ووقع المجنون في الأسر. ورجع حسن بن طغج إلى الجيزة منتصراً، في حين انسحب بجكم والجيش الفاطمي إلى برقة[7].

(6) كتاب ولاة مصر، ص 305.

(7) نفس المصدر، ص 305 - 307.

الفصل الثاني

سياسة القائم بأمر الله الداخلية

سياسة الدولة الفاطمية في عهد القائم:

لقد حرص الخليفة الفاطمي الثاني منذ اعتلائه العرش على تدعيم قوته العسكرية وتعزيز سلطته في إفريقية على وجه الخصوص. فأصدر التعليمات إلى عمال كافة الأقاليم لصنع الأسلحة وجميع أنواع العتاد، وأبقى عونه المخلص أبا جعفر البغدادي على رأس عدة دواوين مثل البريد وديوان الإنشاء، وذلك لا محالة لإجراء مراقبة مشددة على جميع المصالح[1].

على أن سياسة الدولة الفاطمية الداخلية قد اتسمت بالتصلب، لما تسلم القائم بأمر الله مقاليد الحكم. وسيتعرض أهل إفريقية ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ لمزيد الإفراط في الجباية والاضطهاد الديني. وقد تم بالخصوص إخضاع أهل صقلية لنظام رهيب من قبل عامل الجزيرة خليل بن إسحاق الذي كان من أخلص كبار رجال الدولة للخليفة. إذ تميز حكم هذا العامل بالتعسف طوال أربع سنوات (من 325 إلى 937/329 - 941)، حتى أجبر العناصر العربية المقيمة في صقلية منذ العهد الأغلبي على التخلي عن أراضيها والفرار إلى بلاد النصارى، واضطر عدد من تلك العناصر إلى اعتناق الديانة المسيحية. كما انتزعت أراضي بعض السكان من ذوي الأصل الصقلي وأرغموا على التجمع في الحصون الواقعة على حدود الأقاليم المسيحية. وأحرق السجل العقاري،

(1) البيان، ص 209.

مما جعل من الصعب التعرف على نظام الملكية العقارية في بعض النواحي من الجزيرة، مثل جرجنت[2].

ولمزيد السيطرة على القبائل البربرية المناهضة للدولة على حدود المملكة الفاطمية عزز الخليفة في ناحية الزاب سلطة صاحب المسيلة علي بن حمدون على بني كملان. وكان قبل ذلك قد حرص على تحويل أبناء تلك القبيلة إلى المنطقة الريفية الواقعة جنوب شرقي القيروان، لما كان ولياً للعهد. وتحالف مع قبيلة تلكاتة الصنهاجية ضد أعدائه المغراوة الزناتيين، وساعد رئيس تلكاتة زيري بن مناد على تأسيس مدينة أشير في قلب جبال الأطلس الجزائرية سنة 936/324[3]، وأسرع إلى قمع الثورة التي أعلنها الهواريون في ناحية طرابلس بإيعاز من رجل ينتمي إلى قريش ويعرف بابن طالوت وكان قد زعم أنه ابن المهدي ووريثه الشرعي، «ثم تبين للبربر بعد ذلك إفكه وبهتانه الذي افتراه وتحقق بطلان ما ادعاه، فقتلوه»[4]. وتمكن القائم من بسط سلطانه على طرابلس من جديد.

حركة الخوارج:

لقد انجر عن فتح إفريقية من قبل الداعي أبي عبد الله، سقوط الدولة الخارجية في تاهرت، كما أسلفنا. فاضطر أتباع المذهب الإباضي الخارجي الذي رسخت مبادئه لدى القبائل الزناتية، إلى اللجوء إلى جبل أوراس وقسطيلية وصحراء ورقلة وسدراتة. وفي عهد المهدي تمكنت السلطة الفاطمية في الزاب وقسطيلية من مراقبة النواحي التي يقيم بها الإباضيون. إلا أن وفاة الخليفة الفاطمي الأول قد أتاحت الفرصة للعناصر المناهضة للدولة، للثورة على الفاطميين. فلم تمض سوى بضعة أشهر على تسلم القائم مقاليد الحكم حتى ثار الخوارج في ناحية قسطيلية سنة 935/323. ذلك أن رجلاً بربرياً من قبيلة بني

---

(2) نفس المصدر، ص 215 ـ أموال، 436 - 441. أماري، تاريخ مسلمي صقلية، ص 221 - 230.

(3) حول تأسيس مدينة أشير انظر بالخصوص، الهادي روجي إدريس، 487/2 - 490.

(4) عيون الأخبار (تحقيق اليعلاوي)، ص 264. انظر أيضاً، افتتاح، الفقرة 298.

يفرن الزناتية، يعرف بكنيــة أبي يزيد ويعتنق المذهب الخارجي قد شرع هناك في بث دعايته جهراً ضد النظام الشيعي وعاضده شيخ نكاري أعمى من الإباضيّين بتوزر يقال له أبو عمار. وقد ظهر أبو يزيد في مظهر الناقد لأخلاق الناس، وتبنى الدعوة الخارجية مشهراً بالإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، رامياً أتباعه بالكفر، داعياً القبائل إلى الجهاد. فلما علم الخليفة بقيام هذه الحركة أمر عامله على قسطيلية بالقبض على المتمرد. فاعتقل أبو يزيد وزج به في السجن. إلا أن الإمام النكاري أبا عمار قد أسرع إلى نجدة صاحبه ومعه أربعون رجلاً من أتباعه، وتمكن من إخراجه بالقوة من السجن ليلاً، وهرب معه إلى صحراء سماطة دون التعرض لأي مكروه. فأقاما بها سنة ثم توجها إلى جبل أوراس، حيث نزلا عند بني كملان من قبيلة هوارة[5].

ثورة أبي يزيد:

لقد أفضى هروب أبي يزيد والشيخ النكاري أبي عمار إلى وضع حد للاضطرابات في قسطيلية وتهدئة روع القائم. والواقع أن نواحي سماطة وأوراس لم تكن خاضعة للسلطة المركزية، وأن الحاميات الفاطمية المتمركزة في حصون طبنة والمسيلة كانت مكلفة بمراقبة القبائل الأوراسية ومنعها مـن أيّ تقدم. وكان القادة الخوارج المقيمون في معقلهم بجبل أوراس حريصين على الإفلات من السلطة الفاطمية. وقد تمكنوا طوال مدة تناهز العشر سنوات من حشد عدد أكبر فأكبر من الأتباع والتأهب لشن ثورتهم العظيمة.

ولقد توفرت لدينا حول هذه الثورة، علاوة على المعطيات الغزيرة الواردة في المصادر السنة والإباضية، بعض الدراسات الجزئية الحديثة المرتكزة على مراجعة شاملة للوثائق. فسنقتصر حينئذٍ على الاستعانة بالمادة الغزيرة التي تحتوي عليها تلك الدراسات. وقد انضاف إلى تلك الوثائق المعروفة مصدر شيعي لم يسبق نشره من قبل[6]، وهو يتمثل في رواية الداعي إدريس التي نقلها

(5) لوتورنو، ثورة أبي زيد، ص 105 - 108 ـ المجالس والمسايرات [منشورات الجامعة التونسية ـ ص ـ 214 - 215 - 216].

(6) [سبق أن لاحظنا أن كتاب الداعي إدريس قد نشر في عدة طبعات بعد ظهور أطروحة الدشراوي].

في السبع الخامس من كتابه «**عيون الأخبار**»، عن تصنيف فاطمي معاصر للأحداث، ربما كان من تأليف القاضي النعمان[7]. وقد اقتبس منه الرقيق مؤرخ الدولة الصنهاجية الرسمي، ومن خلاله بعض الأخباريين اللاحقين، كابن الأثير وابن خلدون. وبفضل هذا المصدر توفرت لدينا مجموعة كبيرة من التفاصيل وجملة من الملاحظات الدقيقة التي تسمح لنا بضبط تاريخ الأحداث بدقة وتوضيح النقاط الغامضة وتفسير بعض التقلبات وتتبع تسلسل الوقائع وفق المراد ضمن رواية مستقيمة ومتماسكة.

وقد ظهر لنا من خلال الوصف الوارد في المصدر المذكور، أن المتمرد كان رجلاً ذا شخصية فذة. فلما شن ثورته وأطلق العنان لرجاله البربر لغزو مدن إفريقية كان عمره لا يقل عن الستين السنة. وكان يبدو وهو على عتبة الشيخوخة أنه ما زال يحتفظ بحزمه وصلابة جأشه. والحال أنه لم يوجد أي شيء يؤهله لمثل تلك الحياة العجيبة، لا في نسبه ولا في شبابه، فقد ولد حوالي سنة 270 ـ 884/883 في السودان الذي كان يتردد عليه أبوه التاجر البربري كيداد أصيل مدينة توزر قاعدة منطقة قسطيلية. ونشأ الطفل الذي أطلق عليه اسم مخلد في قيطون زناتة بالقرب من تقيوس وتوزر، في حضن أمه، وهي جارية بربرية تدعى سبيكة. وخالط الفتى مخلد الذي سيعرف فيما بعد بكنية أبي يزيد، جماعة من النكارية، وأخذ تعاليم مذهبهم عن إمامهم أبي عمار الأعمى. ويقال إنه أقام في سجلماسة وتاهرت قبل أن يعود إلى قسطيلية إثر انبعاث الدولة الفاطمية. فأقام بها يعلم الصبيان، واستغل تلك المهنة لبث أفكاره المناوئة للنظام القائم. ولما التجأ إلى جبل أوراس إثر خصومته مع السلط المحلية بتوزر أخذ في نشر دعوته علانية، معتمداً في الاضطلاع بهمته على الشيخ أبي عمار الأعمى[8]. وقد

---

(7) انظر افتتاح الفقرة 299، وقد أشار النعمان إلى ثورة صاحب الحمار قائلاً: «وقد ذكرت أخباره واستقصيت ذكرها في كتاب ضخم جمعت ذلك فيه».

(8) لوتورنو، المرجع المذكور، ص 106 - 108 ـ دائرة المعارف الإسلامية 1 (أبو يزيد) ص 167. وحول مؤدب الصبيان أبي يزيد، انظر بالخصوص ابن حمادو، ص 18 - 34/19 وجورج مارسي، بلاد البربر الإسلامية، ص 148.

كانت تلك المهمة ـ والحق يقال ـ يسيرة للغاية في تلك الربوع، إذ لا شك أنه لم يجد أية صعوبة لإثارة قبائل أوراس ضد نظام مركزي ليس له عليها أي تأثير. فاستطاع بسهولة تحريض أولئك السكان الجبليين المتعودين على حياة التقشّف، على نهب مدن إفريقية وبواديها الثرية. وقد أقنعهم بأنهم مدعوون إلى قتال شرذمة من الكفار، وأنهم سيستحوذون على أملاكهم بصورة شرعية، وسيفوزون بنصيب وافر من الغنائم. أضف إلى ذلك أنهم سيقومون بمهمة عادلة، حيث أنها ترمي إلى الإطاحة بالمغتصبين العلويين أعداء الدين الإسلامي الحنيف، وتعويض نظامهم غير المشروع بحكم قوامه الاختيار الحر على أساس إجماع «الجماعة البربرية» وطبقاً لتعاليم المذهب الخارجي[9]. وهكذا فإن الحركة التي يقودها أبو يزيد، بعدما تسلحت بمثل عليا دينية وسياسية، وأنعشتها عصبية الكتلة الزناتية المعارضة تقليدياً لكتلة الكتاميين من أبناء جبال القبائل، ما لبثت أن جمعت عدداً كبيراً من الأتباع لذين يحدوهم ميلهم الطبيعي إلى العنف والشغب والنهب، أكثر من حماسهم الديني. وكانت السنوات الست أو السبع التي قضاها أبو يزيد في الاستعداد للحرب، كافية لتنظيم جيشه، فانطلقت الثورة في أواخر جمادى الأولى 322/ أواخر يناير 944 بتنظيم غارات على باغاية التي تمثل أقرب مدينة محصنة[10]. واكتفى أبو يزيد في أول الأمر بالهجوم على الممتلكات الواقعة في ضواحي باغاية للحصول على الغنائم فنهب بعض القصور من بينها قصر العامل صولات بن ملول. وسرعان ما أفضت جاذبية النهب إلى ارتفاع عدد أتباع المتمرد، مما شجعه على الزحف على باغاية ذاتها. وقد أوشك على الاستيلاء عليها، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب ما أبدته الحامية من مقاومة مستميتة. إلا أن العمليات المحلية الأخرى الناجحة قد زادت في نفوذ أبي يزيد وآلت في آخر الأمر إلى انشغال بال السلطة المركزية. فتلقى عامل طبنة كبون بن تصولا الإذن بالتوجه إلى باغاية لنجدتها، وحاول تخويف بعض

(9) انظر حول حركة الخوارج البربر بالخصوص، جورج مارسي، المرجع السابق، ص 43 - 51، والشيخ بكري في حوليات معهد الدراسات الشرقية، 15، 1957، ص 55 - 108.

(10) عيون الأخبار، ص 264 ولوتورنو، ص 108.

رؤساء القبائل الأوراسية. وحثهم دون جدوى على تسليم المتمرد المتمتع برعايتهم، وأوشك القائد الكتامي أن يسقط في كمين نصبه له الثائرون في قلب الجبل، ولم يجد وسيلة أخرى للخلاص غير التحصن في باغاية، وفي الأثناء كرر أبو يزيد هجوماته على تلك المدينة.

ولما تفاقم خطر المتمردين على باغاية، قدمت القوات الكتامية المجندة في ميلة وسطيف وبلزمة، تعززها عناصر من تيجس وهوارة وورفجومة، وزحفت على أوراس مع رجال كبون. وجرت عدة معارك في شهر شوال 332 / مايو - يونيو 944، فاستطاع أبو يزيد التصدي لعسكر كتامة بقيادة الحسين بن مكسن[11] الأجاني وأبي دقل الملوسي، وأجبر المغيرون على الانسحاب إلى باغاية. كما انتصر على جماعات كتامية أخرى بقيادة بدين بن محمدالجيملي، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة[12].

وهكذا كانت المعارك الدائرة رحاها في سفح جبل أوراس في صالح المتمردين. إلا أن مقاومة باغاية كانت كفيلة بشل حركتهم وتأخير زحفهم على إفريقية. فقرر أبو يزيد حينئذٍ التخلي عن تلك القلعة وتجاوزها في الناحية الشرقية والجنوبية الشرقية. واستجابة لأوامره ثار في قسنطينة بنو واسين وغيرهم من قبائل بني يفرن، وحاصروا قاعدة تلك الناحية، في حين هجم أبو يزيد على بني كيداس المقيمين في ناحية تبسة. فدخل في طاعته أهل تلك المدينة الذين تملكهم الرعب وسلموا إليه رجال الحامية من الكتاميين مع عائلاتهم وأموالهم، فقتل المحاربين وسبى نساءهم وأطفالهم، ووزع الغنائم على رجاله توزيعاً شرعياً، واحتفظ لنفسه بالخمس، كأنه يريد بذلك تأكيد طموحه للإمامة[13]. وبعد احتلال تبسة تمكن من الاستيلاء على مرماجنّة والوصول إلى حدود إفريقية.. وفي هذه المدينة أهدى إليه رجل من أهلها حماراً أشهب، فسمي «صاحب الحمار».

(11) [هكذا في النص الفرنسي وفي عيون «ابن ناكسين» ص 270].

(12) عيون الأخبار، ص 270.

(13) نفس المصدر، ولوتورنو، ص 111 - 112.

ووصلت جحافل القبائل الأوراسية إلى وادي ملاق، فنزلت بقرية بني سعيد من نواحي مرماجنّة، وأثارت الهلع في مدينة الأربس القريبة منها فأسرع الكتاميون المقيمون بها إلى الاعتصام بموضع في ضواحي تلك المدينة يقال له «دُقّة»[14]، في حين لاذ العامل إسحاق بن خليفة بالفرار. وانضم إلى أبي يزيد إبراهيم بن ثوبان بن أبي سلاس، وكان من وجوه الجند، «فسأله أن يعطي أهل الأربس الأمان في أنفسهم وأموالهم، فأعطاه العهود والأيمان على الحياطة لهم والأمان»[15]. ولما رأى زعيم المتمردين تطور الوضع لصالحه، أقر العزم على اقتحام إفريقية في الحال.

وفي حين استولت فرقة من الجيش على سبيبة، زحف أبو يزيد على دقة يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة ستة 332/ أغسطس 944، وأمر قائد مزاتة أبا سليمان بن خيران الزويلي «أن يقتل من وافاه على الطريق ويسبي ويحرق كل منزل يمر به»[16]. ومن الغد وصل إلى الأربس. «فأخرج إليه خطيب الجامع ومتولي الصلاة فقتلهما... ودخل البربر الأربس وتغلبوا عليها وقتلوا المشارقة [الشيعة] وأتباع السلطان وكثيراً من أهل الأربس ونهبوها وأحرقوا كثيراً منها بالنار»[17].

ولكن رد فعل القائم على اندلاع الثورة لم يكن سريعاً. ذلك أن الخليفة الذي أشارت المصادر إلى موقفه المتخاذل بسبب بعض التكهنات القاتمة[18] كان يعتمد في أول الأمر على الكتاميين للتصدي للمتمردين والوقوف في وجههم حول باغاية، ومما لا شك فيه أنه فوجىء بجرأة حركة زعيم التمرّد وسرعتها. ولكن سقوط الأربس قد أيقظه من غفلته وحثه على اتخاذ إجراءات عسكرية مستعجلة. ومن الجدير بالملاحظة أن عدد الجنود المجهزين

(14) يتعلق الأمر «بتقّة تيربنتينا» في العصور القديمة وهنشير دقة في الوقت الحاضر بين سبيبة والأربس.

(15) عيون الأخبار، ص 273.

(16) نفس المصدر ص 273.

(17) نفس المصدر، ص 274.

(18) [كان الخليفة يعتقد أن أبا يزيد لا بدّ أن يبلغ مصلى المهدية].

والمنظمين الموجودين تحت تصرفه، كان كافياً لوضع حد لحركة المتمردين وإخماد ثورتهم. ومع ذلك فقد كان رد فعله يفتقر إلى الحزم والنظر البعيد. ذلك أن القائم قد اتخذ موقفاً دفاعياً ومحتشماً، عوض شن هجوم معاكس خاطف وتوجيه جيشه الجرّار إلى مقابلة العدو، وجهاً لوجه. وفي الوقت الذي كانت فيه الحشود الأوراسية تكتسح البلاد، فكر الخليفة في تطبيق خطة وخيمة العواقب تتمثل في توزيع جنوده في مختلف المراكز الاستراتيجية، وحملهم على التمركز في مواقعهم في انتظار قدوم العدو. وقد أفضت تلك الخطة إلى تجزئة جهوده وترك الفرصة لعدوه للمبادرة بشن العمليات الحربية. ففي حين كان أبو يزيد يزحف على الأربس، اكتفى القائم بتوجيه فرقة من الخيالة للتمركز في رقادة في 12 ذي الحجة. وبعد ذلك بعشرة أيام تحول عضده ورفيقه المفضل خليل بن إسحاق في ألف فارس إلى القيروان للدفاع عنها. وفي أول محرم 24/333 أغسطس 944 توجه بشرى الخادم على رأس كتيبة من الجيش إلى باجة «ليضبطها ويعسكر بها». وقد كانت هذه العملية ترمي إلى تضليل المتمردين ومحاولة الاستيلاء على مواقعهم من الجناح. وبعد ذلك بأسبوعين خرجت كتيبة ثانية من المهدية بقيادة ميسور الخادم، فعسكرت في مرتفع يعرف باسم الكدية الحمراء، على بعد بعض مراحل من العاصمة (أي المهدية)[19]. ومن ناحية أخرى تمكنت الحامية الكتامية في باغاية من الخروج من تلك القلعة والقدوم إلى المهدية بعدما استولت على الغنائم التي تركها المتمردون في مجانة[20].

ولما اطلع أبو يزيد الذي كان يتأهب للزحف على القيروان، على ما اتخذه القائم من استعدادات حربية، أدرك الخطر المحدق به، لو ترك بشرى يتجاوز جنوده من خلف. فرأى حينئذٍ من الواجب عليه، قبل مواصلة الزّحف، إحباط مناورة القائد الفاطمي والتوجه إلى باجة. وبعدما خلف أثقاله في قصر إبراهيم بن أبي سلاس في الأربس، أسرع إلى دفع كتائبه الخفيفة في اتجاه

(19) عيون الأخبار، ص 276.

(20) نفس المصدر، ص 275.

العدو. وألقى بشرى من جانبه بجميع قواته في المعركة التي كان ينتظرها، وهو مقر العزم على الصمودوالمقاومة، وبعد قتال شديد انهزم رجال أبي يزيد هزيمة فاحشة ولاذوا بالفرار، وجنود بشرى يلاحقونهم فلما رأى أبو يزيد هزيمة أصحابه ركب حماره وأخذ عصاه وهجم على رأس مقدمة جيشه على معسكر بشرى فحازه، وتفرق الجيش الفاطمي الذي تملكه الرعب وانسحب قائده في اتجاه تونس متخلياً عن باجة التي استولى عليها البربر يوم 12 محرم 4/339 سبتمبر 944. ودخل أبو يزيد ورجاله باجة عنوة،َ فعاثوا فيها فساداً، «وأقاموا القتل في أهلها ثلاثة أيام بلياليها»[21].

وكان زعيم المتمردين العجوز قد شعر بخوف كبير، فصب جام غضبه على باجة. خصوصاً وأنه أوشك أن يصاب فيها بهزيمة نكراء، كان من الممكن أن تعود على حركته بعواقب وخيمة. ذلك أن هذا الاشتباك الأول مع جيش العدو، رغم نجاحه، قد حثه على توخي الحذر وأظهر له مدى قوة الجيش الفاطمي. فأدرك حينئذٍ ضرورة تعزيز صفوفه وإثارة الرعب واليأس لدى الخصم. فدعا إلى الانضمام إليه كافة قبائل البربر، «فأتته عساكرهم من كل ناحية إلى باجة»[22]. وأرخى العنان لرجاله، فتركهم يقتلون وينهبون ويحرقون ويثيرون الرعب في المدينة[23].

وقد تأثرت القيروان بالغ التأثر بهزيمة بشرى وأصبحت الطريق مفتوحة في وجه البربر، حيث لم يبق لهم سوى اجتياز الظهرية للانقضاض على المدينة، وقد أخذت تتوافد عليها أفواج اللاجئين الذين استولى عليهم الرعب من قسوة العسكر. وكانت وسائل الدفاع عن القيروان ضعيفة، ذلك أن خليل بن إسحاق الذي اكتسب خبرة كبيرة في فنون الحرب قد اتخذ مع ذلك بعض الإجراءات الغريبة. فلم يعسكر في طريق باجة لمحاولة صد العدو، بل فرق عساكره داخل المدينة في الفنادق والدور، ولم يتخذ الاستعدادات اللازمة للحرب، مركزاً

(21) نفس المصدر، ص 277.

(22) نفس المصدر، ص (278 .

(23) انظر حول المصائب الذي تعرضت لها باجة في أيام أبي يزيد، البكري، ص 57.

اهتمامه على إجراء اتصالات سرية مع بعض الزويليين لحثهم على اغتيال أبي يزيد[24].

أما صاحب الحمار، فبعد أن واصل إقامته في باجة، خرج منها، متوجهاً رويداً رويداً نحو القيروان، وكان قد عهد قبل ذلك إلى منصور بن منصور الهواري بمهمة ملاحقة فلول جيش بشرى والهجوم على مدينة تونس التي التجأ إليها أولئك الجنود ووجدوا فيها المساعدة. وقد تمكن عاملها الحسن بن علي[25] بسهولة في أول الأمر من الانتصار على البربر وصدهم ولكن ما لبث أن فقد القدرة على التحكم في الوضع واضطر إلى إخلاء المدينة التي ثار أهلها وخرجوا عن طاعة الفاطميين. وفي 24 محرم 16/333 سبتمبر 944 ارتحل الحسن بن علي مع أخيه عمار وبشرى إلى سوسة وعسكر فيها استجابة لأوامر القائم[26]. وفي الأثناء اقترب أبو يزيد من القيروان، وبعد ما اجتاز وادي مجردة نزل في فحص أبي صالح المعروف اليوم بسهل الفحص، الواقع غربي زغوان. ولما علم بخروج بشرى والحسن بن علي في اتجاه جزيرة شريك للقيام بمهمة استطلاعية، أمر عضده أيّوب بن خيران الزويلي بالزحف عليهما في مرصد شريك قرب بلدة النفيضة الحالية[27]. فتوجه أيوب إلى ذلك المكان، «واتصل بحسن وبشرى خبره، فمالا عن طريقه وانتهيا إلى ناحية هرقلية[28] بالقرب من مدينة سوسة. فتمادى أيوب وعسكر على موضع بينه وبين سوسة نصف نهار واتصل بحسن وبشرى خبره ومعسكره، فرجعا من مكانهما وقاتلاه قتالاً شديداً، فانهزم أيوب والعسكر الذين معه وقتل منهم أربعة آلاف رجل وأسر خمسمائة آخرين»[29].

(24) عيون الأخبار، ص 279.

(25) وهو الحسن بن علي الكلبي الذي سيذيع صيت أسرته في صقلية فيما بعد.

(26) عيون الأخبار، ص 278.

(27) [مرصد شريك عين الدشراوي موقعه قرب النفيضة الحالية وحدده اليعلاوي في جهة بئر بورقبة الحالية، انظر عيون الأخبار، ص 280، الهامش 77].

(28) [وهي قرية هرقلة الحالية].

(29) عيون الأخبار، ص 281.

وقد أحدثت هذه الهزيمة بالغ الأثر في نفس أبي يزيد، حتى أنه قرر الزحف على القيروان في الحال، وبعدما مر من طنباس[30] والبرحماس أصبح على مسافة عشرة أميال من القيروان. «وارتحل أبو يزيد من البرحماس يوم 26 صفر سنة 33 (أكتوبر 944)، فأخذ على نخيل بهلول يريد رقادة لقتال الكتاميين، وأخرج هؤلاء طلائع، فوافت طلائع أبي يزيد في خلق عظيم، فانهزمت طلائع الكتاميين وتمادى الطرد عليهم إلى رقادة»[31] وقاوم منهم ثلاثة فقط في قصر البحر الذي أحرقه البربر. «ونزل أبو يزيد بعسكره بالقرب من قصر خلف على أربعة أميال من القيروان، فبات به وانتقل من غده فنزل شرقي رقادة في خلق عظيم يزيدون على مائة ألف فارس وراجل»[33].

وفي القيروان تدهور الوضع بسرعة. ورغم إلحاح قاضي الجماعة أحمد بن بحر[33]. وبعض كبار رجال الدولة، أصر خليل على البقاء في المدينة ورفض الخروج على رأس جيشه لقتال العدو. وقد أدرك لا محالة أنه لا قدرة له على التباري مع خصمه القوي. وتسلى عن ذلك بإظهار احتقاره له وانتظار النجدة من زميله ميسور الذي كان معسكراً على بعد بعض مراحل في الأخوين بين القيروان والمهدية. وما لبث أن استولى الفزع على المدينة، وفقد خليل المتخاذل سلطته على جنوده الذين تخلوا عنه. فاقتحم البربر القيروان من باب أبي الربيع، وخرج إليهم القائد الفاطمي جعفر الباغائي من غير جدوى، ووصلوا إلى المصلى. وعندئذٍ اضطر خليل، نزولاً عند رغبة حاشيته إلى لقاء أبي يزيد، فركب هو ومن بقي معه من الجنود حتى صاروا إلى باب تونس عند القنطرة. ولكنه عاد على عقبيه قبل الالتقاء بعدوه، وانحصر في قصره مع ضباطه وكبار رجال الدولة. وقامت كتيبة بربرية بقيادة أيوب بن خيران بمحاصرة خليل

(30) [في النص الفرنسي «طبناس» والتصحيح في عيون الأخبار، ص 282].

(31) عيون الأخبار، ص 283.

(32) نفس المصدر.

(33) سيقتله أبو يزيد في القيروان هو والقائد الفاطمي خليل بن إسحاق، انظر حول هذا القاضي، طبقات، ص 195، 235، 240.

في قصره، في حين رجع معظم الجنود إلى معسكرهم عند هبوط الليل خوفاً من قدوم ميسور. واضطر خليل في تلك الليلة إلى الاستسلام مع أصحابه، بعدما أعطاه قائد بربري الأمان. وساربه أيوب إلى معسكر أبي يزيد الذي وضعه تحت حراسة مشددة. ولكن اعتقال ذلك القائد الفاطمي المنكود الحظ لم يدم سوى يوم وليلة. فمن الغد الأربعاء أمر أبو يزيد بقتله بعد استشارة أبي عمار الأعمى، ولا شك أنه أراد أن يقيم الدليل على سطوته وانتصاره من خلال قتل خصمه[34]. وباستسلام خليل وإعدامه وأصحابه على نحو مشهود داخل المعسكر، أصبح القائد المتمرد منذ ذلك الحين الحاكم بأمره في القيروان. وقد استولى الرعب على أهل المدينة خوفاً من قسوة البربر الذين أخذوا فوراً في النهب والسبي والقتل. فأسرع كبار القوم إلى المثول بين يدي القائد المظفر طالبين الأمان. ولم يستجب أبو يزيد لطلبهم إلا بعد إلحاح كبير والتحقق من ولائهم واستعدادهم للقتال في صفوفه وتأييد قضيته، فأصدر عندئذٍ الأمر إلى أتباعه بالكف عن النهب، وبإشارة من أبي عمار، عامل أهل القيروان معاملة حسنة قصد استمالتهم، بالرغم من مناهضتهم لمذهبه[35].

وقد كان سقوط القيروان مقابل ثمن بخس يمثل انتصاراً باهراً بالنسبة إلى القائدالخارجي. ولكن هذا الانتصار، رغم أهميته لم يكن حاسماً. ذلك أن القوة الفاطمية التي تزعزعت بصورة جدية ما زالت رهيبة بما فيه الكفاية، بفضل معقل المهدية العتيد وجيش ميسور العظيم. وبناءً على ذلك فقد حرص أبو يزيد قبل شن المعركة النهائية، على استغلال انتصاراته العسكرية في الداخل والخارج. فوجه إلى قرطبة وفداً برئاسة أحد فقهاء المالكية المتحمسين[36] لإعلام الخليفة الأندلسي بأنه قد قرر الدخول في طاعته والاعتراف بإمامته. ذلك

---

(34) عيون الأخبار، ص 288.

(35) نفس المصدر، ص 294 - 295.

(36) لقد ترأس السفارة الأولى في سنة 945 تميم بن أبي العرب صاحب «الطبقات» الشهير. وترأس السفارة الثانية في السنة الموالية أيوب ابن أبي يزيد. انظر، لوترونو، ص 114، الهامش، 54، وليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية، 103/2 - 104.

أنه أدرك الفائدة التي يمكن أن يجنيها من دعم عبد الرحمان الثالث عدو الفاطميين الألد وزعيم أهل السنة في الغرب الإسلامي. إذ يمكنه بفضل ذلك الدعم بسط سلطانه على بلاد متمسكة بالمذهب المالكي وضمان تحالف أهل السنة معه، ولو بصورة وقتية، ضد العدو المشترك. ولا شك أن نجاح هذه المساعي لدى الخليفة الأموي من شأنه أن يحدث أطيب الأثر في نفوس القيروانيين ويحثهم على مباركة الحرب ضد الشيعة، ولو أن القائم بها ينتمي إلى مذهب خارج عن السنّة. على أن فقهاء القيروان لم يجدوا أية صعوبة على المستوى المذهبي لتبرير مساندة المتمرد، ولو كان خارجياً وملعوناً، بما أنه قد أشهر الحرب على نظام لا يقل عنه مروقاً ولا منكراً.

ومما لا شك فيه أن أهل القيروان كانوا يعتقدون أن النظام الممقوت الذي يقاومونه بحد السيف قد أصبح في حالة احتضار. أما أبو يزيد الذي لم ينتقص بالعكس من ذلك من قوة خصمه، فقد مكث في معسكره بالقيروان، ولن يتأخر عن السير إلى ميسور للتصدي له. وقد جاء تخلي بني كملان عن الفاطميين في الوقت المناسب لتشجيعه على استئناف القتال. ذلك أن العناصر الهوارية التي نقلت من الزاب إلى ناحية المهدية، ثم انضمت إلى جيش ميسور، قد كانت تنتظر اقتراب الثائرين من بني جنسها للانقلاب على الفاطميين. وبالفعل فقد التحقت تلك العناصر بعسكر أبي يزيد، وأحاطته علماً بقوات العدو ومواقعها، وحرضته بالخصوص على عدم الانتظار والإسراع إلى شن هجوم كبير وخاطف لمفاجأة الخصم والانتصار عليه تحت مفعول المباغتة.

فاستخلف أبو يزيد ابنه فضلاً على رقادة بمساعدة أبي عمار، واستعمل على القيروان عضده يدرس المزاتي، وسار يريد ميسوراً يوم الثلاثاء 8 ربيع الأول/ 28 أكتوبر 944[37]. فاتجه أولاً نحو قصر المغيرة، «وبات بالماجل على طريق المهدية على ستة عشر ميلاً من القيروان». ومن الغد عطف على

---

(37) في عيون الأخبار (ص 296): «صبيحة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول». وفي البكري، ص 31، اليوم العاشر من نفس الشهر.

بقلوط، «فوافت طلائعه طلائع ميسور وناشبوهم القتال. وسبق الخبر إلى ميسور، فأخذته دهشة وحيرة. وأتاه جماعة من وجوه رجاله يسألونه تفريق السلاح على العسكر، فأبى عليهم، وهجم عليهم عسكر أبي يزيد وهم في الكلام في أمر السلاح، وركب ميسور على جسر كان بالقرب من موضع القتال، وفي ذلك المكان جسور أولية [قديمة العهد] لا يستطيع الراجل أن يعلوها، فضلاً عن الفارس.. وانهزمت ميسرة أبي يزيد حتى بلغوا في هزيمتهم القيروان. ولما رأى أبو يزيد هزيمة ميسرته، قصد فيمن معه من غزاته ووجوه رجاله إلى موضع ميسور، وقد حفت بأبي يزيد رجاله وفرسانه، فانقطع أصحاب ميسور من بين يديه واستوت الهزيمة فيهم وقصدوا إلى المهدية. فلما رأى ميسور فساد الأمر، حول دابته ليزول عن الجسر، ووافاه سهم فغلغل في دماغه ووقع في الجسر فكسر فخذه.. وقصده بنو كملان فقتلوه(38)، ثم شرح جسده وعلق على شجرة زيتون، وأمر أبو يزيد بتوجيه رأسه إلى القيروان والمغرب والزاب. «فلم يشك الناس بعد قتل ميسور أن أبا يزيد يظفر بالمهدية وأنه قد غلب»(39).

وبالفعل فقد أحرز أبو يزيد في هذه المعركة انتصاراً باهراً. ألم يهزم هزيمة نكراء آخر جيش نظامي يستطيع العدو توجيهه إليه؟ وقد أصبحت الطريق المفضية إلى العاصمة مفتوحة، وأوشكت على النهاية تلك المسيرة المظفرة التي قادت الزعيم الخارجي في ظرف بضعة أشهر من معقلة بجبل أوراس إلى ضواحي المهدية. فيحق حينئذ للقائد المتمرد أن يفتخر وينتشي بهذا النصر المبين الذي سمح له بالانتقال فجأة من منزلة مؤدب الصبيان المتواضعة إلى قاب قوسين أو أدنى من العرش الفاطمي. «وقد لبس الديباج والحرير، وترك ما كان يلبس من الصوف، وعاذله من أصحابه في ذلك من عاذله، فلم يلتفت إلى قولهم»(40).

---

(38) عيون الأخبار، ص 297.

(39) نفس الصدر، ص 298.

(40) نفس المصدر، ص 301. وحول التقشف والصرامة الأخلاقية في المذهب الخارجي، انظر دائرة =

وعلى بعد حوالي عشرين ميلاً من الأخوين، حيث نصب أبو يزيد معسكره، بعدما هزم ميسوراً، أخذت المهدية تتأهب للتصدي لجحافل البربر. فأمر القائم بحفر خندق حول أرباض المهدية وتعزيز التحصينات، ووجه رسائل إلى الكتاميين يأمرهم فيها بالقدوم إلى المهدية ويحثهم على الجهاد. وفي الأثناء ترك أبو يزيد رجاله يعيثون فساداً في سوسة التي فتحوها عنوة، ويغيرون على القرى المجاورة بلا شفقة ولا رحمة، ولم يستعجل في الهجوم على العاصمة. فلما احتجز رسالة موجهة من الخليفة إلى الكتاميين، أقر العزم على استئناف القتال قبل أن تتعرض ساقة جيشه لخطر وصول الإمدادات الفاطمية. «فارتحل نحو المهدية بجميع عساكره، وكان ارتحاله من معسكر ميسور (ليلة الثلاثاء 19 جمادي الأولى سنة 333 - 7 يناير 945) وحط رحاله بموضع يقال له خربة جميلة(40م) على خمسة عشر ميلاً من المهدية»(41).

وخرج الجيش الفاطمي من العاصمة يوم الخميس الموالي. فوجه أبو يزيد عسكراً بقيادة ابنه فضل، ودارت المعركة لصالح الفاطميين في موضع يقال له أشراف على بعد ثمانية أميال من المهدية قرب سوق الأحد وقدم أبو يزيد بنفسه لنجدة ابنه، فوصل إلى خندق المهدية عند صلاة المغرب واضطر إلى الرجوع إلى معسكره(42).

وبعد ذلك ببضعة أيام حاول أبو يزيد اقتحام المدينة يوم 3 جمادي الثانية سنة 21/333 يناير 945. فوجه عدداً كبيراً من البربر إلى باب الفتح حيث كان القائم يتولى القيادة بنفسه. وفي حين كان عضده أيوب الزويلي يقوم بهجوم من باب بكة [أو بقة] الذي كان يدافع عنه العبيد بقيادة صندل الخادم، توجه أبو يزيد بنفسه مع معظم جنوده إلى أرباض المهدية التي تمثل نقطة الضعف في الجهاز الدفاعي، حيث كان رشيق الريحاني الخادم يحرس السوروالخندق

= المعارف الإسلامية /957 - 961.

(40 م) [في رحلة التجاني، ص 325، خربة جميل].

(41) عيون الأخبار، ص 304.

(42) نفس المصدر، ص 305 - 306.

المَحْدَث(43). ولم يستطع القائد الفاطمي صد جموع البربر، واضطر إثر معارك حامية الوطيس إلى التحصن بقصر الرباط الواقع في شاطىء البحر واستولى أبو يزيد حينئذٍ على الأرباض ووصل إلى قرب باب المهدية عند مصلى العيد، في حين احتدم القتال لصالح الفاطميين عند باب الفتح. ولما علم أبو يزيد بانهزام رجاله غادر المصلى متوجهاً إلى باب الفتح حيث تواصلت المعارك إلى آخر النهار، ولكن عوض استغلال انتصاره في الارباض والتمركز في المصلى للضغط على المدينة، عاد إلى معسكره في خربة جميل [أو جميلة]. وقد مُني هجومه الأول حينئذٍ بالفشل.

وإثر وقف القتال مدة أسبوع، اقترب أبو يزيد من المهدية وحول معسكره يوم 12 جمادي الثانية 30/333 يناير 945 إلى ترنوط حيث حفر خندقاً وضرب الحصار على المدينة. وبعد ذلك ببضعة أيام قام بهجوم آخر يوم الجمعة 22 جمادى الثانية. ولكنه تعرض لمقاومة مستميتة من قبل الجنود الفاطميين واضطر، إثر معارك طاحنة قرب باب الفتح، إلى التوجه نحو ترنوط(44).

ولم يقم أبو يزيد بحملته الثالثة بمشاركة أهل القيروان إلا بعد ذلك بشهر، وعلى وجه التحديد يوم الاثنين 22 رجب. وقبل هذا التاريخ بثلاثة أيام، أي يوم التاسع عشر من ذلك الشهر انعقد بجامع القيروان الاجتماع الشهير الذي حضره الفقهاء إثر صلاة الجمعة وأعلنوا الجهاد ضد الفاطميين، والاستجابة لدعوة أبي يزيد. وتسمح لنا المعطيات الدقيقة الواردة في **عيون الأخبار وافتتاح الدعوة وسيرة جوذر**(45) بأن نحدد بالتأكيد مكان هذه الواقعة التي لا يمكن إثبات تاريخها بالاعتماد على المعلومات المستقاة من المصادر السنية. وبالعكس من ذلك، فإن المصادر الأخيرة مثل **البيان ورياض النفوس**(46) قد قدمت إلينا وصفاً

(43) نفس المصدر، ص 307.

(44) حول سهل ترنوط الواقع على بعد 6 أميال من المهدية والذي عسكر فيه أبو يزيد، وحول التكهنات المتعلقة بهذا الموقع، انظر البكري، ص 31، والبيان، ص 219.

(45) افتتاح، الفقرة 293 وسيرة جوذر، ص 78 - 80 وعيون الأخبار، ص 312.

(46) البيان، ص 217 - 218 ورياض النفوس [طبعة بيروت، 341/2 - 342].

طريفاً لخروج أهل القيروان بالسلاح والطبول والبنود المتعددة الألوان، والتي كتبت عليها بعض الشعارات الدينية والآيات القرآنية. إلا أن هؤلاء القوم المسالمين الذين أثارتهم خطب الفقهاء، وهم مع ذلك لا يجهلون أمور الحرب، سيدفعون غالياً ثمن حماسهم المفرط. ذلك أن جنود أبي يزيد قد انكشفوا عنهم في ساحة الوغى، حتى تمكن الفاطميون من قتلهم قتلاً ذريعاً. وقد لقي عدة فقهاء مصرعهم في هذه المعركة الطاحنة التي دارت رحاها في دار قوام قرب قرية للبانة[47]. وكان القائم قد حرض رجاله على الاستماتة في القتال في خطبه المؤثرة التي قرأها عليهم قاضي المهدية المروزي[48]، فأبلى الجنود الفاطميون في تلك المعركة البلاء الحسن وهزموا العدو شر هزيمة. وأخفق أبو يزيد مرة أخرى أمام المهدية[49]. ومنذ ذلك الحين أصبح الحصار شاقاً أكثر فأكثر بالنسبة إلى أهل المدينة، ولكنه أضجر في نفس الوقت الجنود البربر المتعودين على القتال للفوز بالغنائم لا أكثر ولا أقل. وبالفعل فقد تفرقت القبائل في البلاد وأقبلت على السلب والنهب، وبدأ نفوذ أبي يزيد يضعف وحاول السكان الذين أنهكتهم تجاوزات العسكر أن يثوروا عليه. من ذلك أن أهل وزداجة المقيمين في ناحية باجة قد خرجوا عن طاعته، ولكن ابنه أيوب لم يجد صعوبة في إخضاعهم من جديد[50]. كما استطاعت جموع من أهل ورفجومة ومزاتة تبديد شمل الكتاميين الذين قدموا لنصرة الخليفة الفاطمي في موضع من بلادهم يقال له الشرف الأحمر قرب قسنطينة[51]. واشتد الحصار على المهدية وازداد غلاء المعيشة ونقص الطعام. وكثيراً ما كانت العواصف تمنع المراكب القادمة من صقلية وطرابلس من تموين المدينة. «وعظم البلاء

---

(47) افتتاح، الفقرة 293 ورحلة التجاني، ص 371 والبيان، ص 218.

(48) [في النص الفرنسي «المروروذي» والتصحيح من عيون الأخبار (تحقيق اليعلاوي)، ص 311، الهامش 151: أبو جعفر أحمد بن محمد المروزي].

(49) انظر نص خطبة القائم في عيون الأخبار، ص 311 - 312.

(50) نفس المصدر، ص 313 - 314.

(51) نفس المصدر، ص 317.

على الناس واشتد بهم الجوع والجهد حتى احتاجوا إلى أكل الميتة والدواب وغيرها»[52]. ولكن الجنود لم يفتقروا إلى الماء ولا إلى الطعام. «فقد فتح القائم بأمر الله الأهراء التي كان المهدي قد شحن فيها الطعام حين عمّر المهدية... وفرقه على رجاله وعبيده»[53]. وقد مكنت هذه المدخرات المقاتلين الفاطميين من مواصلة الحرب والقيام بهجومات مضادة ناجحة.

وقد جرى الهجوم الأول يوم الجمعة السابع من ذي القعدة/ يونيو 945، حين نقص عدد رجال أبي يزيد إلى حد كبير. ذلك أن عدة قبائل بربرية لم تجد ما تنهبه في إفريقية فتفرقت ولم يبق منها مع القائد الخارجي غير أهل أوراس وبني كملان. ثم دارت الدائرة لفائدة الفاطميين الذين أخذوا بزمام المبادرة وانتصروا في المعارك التي جرت أيام السبت 8 والثلاثاء 11 (في المكان المعروف بالماء المالح)[54] والخميس 13. ولكن أبا يزيد قد صمد وتفوق من جديد على خصومه يوم الاثنين 17 المعروف بـ «يوم الريح»، بسبب هبوب ريح عاصفة «أظلم لها الجو».

«وأرسل أبو يزيد في طلب الجنود والحشود. فوافته بنو كملان وبنو إيليان ولواتة في ألف فارس، وأتاه مثلها من نحو باجه من ابنه أيوب»[55]. فحاول اقتحام المدينة يوم الخميس السابع والعشرين من ذي القعدة/ 10 يوليو 945. ولكن الفرسان الكتاميين قد حملوا عليه حملة شديدة وأجبروه على الانسحاب. وانتهت سنة 333 من غير أن يحصل أي تغيير في مواقع المتحاربين. وانقضى الشهر الأول من سنة 334 دون أن يطرأ أيّ تطور في الوضع، حيث تواصل حصار المهدية. ولئن فقد أبو يزيد كل أمل في الاستيلاء على المدينة بالسلاح، فإن الجيوش الفاطمية من جانبها لم يكن لها من القوة ما يكفي لإبعاده عن

---

(52) نفس المصدر، ص 315.

(53) نفس المصدر ص 315.

(54) نفس المصدر، ص 318 والبيان، ص 218: وقعة الوادي المالح.

(55) عيون الأخبار، ص 319.

المهدية التي «هرب كثير من أهلها في المراكب إلى بلاد الروم ومصر وطرابلس وصقلية»[56].

إلا أن الملل قد بدأ يدب في صفوف أبي يزيد، فقد انفصل عنه بنو وشير في ناحية باغاية والتحقوا بالفاطميين. واقتدى بهم جنود الأربس الذين كانوا انضموا إلى المتمردين مع قائدهم ابن أبي سلاس في بداية الحملة فتخلوا عن أبي يزيد في خضم المعركة يوم الأحد 4 صفر سنة 14/334 سبتمبر 945. وإثر ذلك تفرق البربر عن القائد الخارجي وفروا منه ولم يبق معه غير بني كملان وهوارة وأوراس. ولما أصبح عاجزاً عن كسب معركة المهدية اضطر إلى مغادرة معسكره في ترنوط والرجوع إلى القيروان ليستجمع قواه ويحاول مواصلة الكفاح[57].

وما لبث فك الحصار على المهدية أن شجع سوسة وتونس على الخروج عن طاعة أبي يزيد. كما أن أهل القيروان الذين كانوا يخشون انتقام الفاطميين لم يخفوا عنه منهاضتهم له وقد أسرع وجهاؤهم إلى مكاتبة القائم لتقديم شواهد الطاعة والتماس عفوه. فلما وصل أبو يزيد إلى القيروان لم يستقبله هذه المرة سوى بعض الأطفال الضاحكين الهازئين. فنصب أخبيته في المصلى على نحو يرثى له. ورغم اطلاعه على الرسائل التي وجهها أهل القيروان إلى العدو، أظهر تسامحه نحوهم واجتنب تأجيج مشاعرهم المناوئة له. وخرج إليه أبو عمار الأعمى، فعنفه ووبخه على انحلال أخلاقه. واستجابة لنصائح مستشاره العجوز أظهر التوبة وأشهد أصحابه على نفسه ورجع إلى لبس الصوف وركوب الحمار وحياة التقشف التي عرف بها في بداية دعوته[58]. وشيئاً فشيئاً عاد عدد كبير من أتباعه إلى القيروان واستعادت حركة التمرد سالف نشاطها[59].

وسرعان ما أضرم صاحب الحمار نار الثورة. فكان عليه أن يعزل مدينة

---

(56) نفس المصدر، ص 319.

(57) نفس المصدر، ص 322.

(58) نفس المصدر، ص 324.

(59) لوتورنو، المرجع السابق ص 119.

المهدية التي لا تقهر ويقطع الطريقين الرابطين بينها وبين جزيرة شريك (الوطن القبلي الآن) من جهة، وبينها وبين منطقة القبائل الصغرى من جهة أخرى. ووجب عليه حينئذٍ السيطرة على المدن المحصنة الأربع، سوسة وتونس من جهة، وباجة والأربس من جهة أخرى، ليتمكن من خنق المهدية.

وسعى القائم من جانبه إلى الاستفادة من تقهقر العدو. وبما أنه لم يكن يملك القوة الكافية لملاحقته، فقد كان من واجبه على الأقل أن يحاول الدفاع عن المدن التي دخلت في طاعته منذ عهد قريب وتأمين الطريق المفضي إلى بلاد أتباعه الكتاميين. وبعد مدة قليلة من فك الحصار على المهدية، ابتدأ الصراع بين الفريقين للاستيلاء على المراكز الاستراتيجية. فوجه أبو يزيد إلى تونس فرقة عسكرية بقيادة عياض بن أحمد الهواري ومسنويه بن بكر الكملاني اللذين سبقا القائد الفاطمي عمار بن علي واحتلا المدينة يوم 10 صفر سنة 21/334 سبتمبر 945. وأقبل عمار بن علي والكتاميون، فاجتمع الفريقان بموضع يقال له صلتان، ولا شك أن هذه البلدة كانت تحمل منذ العصور القديمة اسم قوم من البربر يقال لهم بنو صلتان (ولعلها قرية الزريبة الحالية الواقعة قرب مدينة زغوان)[60]. وانهزم عمار بن علي واضطر إلى اللجوء إلى جبل الرصاص بصورة وقتية ثم توجه إلى نواحي باجة وصطفورة لحشد الجنود[61]. وبعد ذلك عاد إلى تونس «ومعه خلق عظيم من أهل تلك النواحي»، فأخرج منها، البربر، بعدما هزمهم شر هزيمة بوادي بجردة[62] يوم الأربعاء 5 ربيع الأول سنة 15/334 أكتوبر 945. ولكنه اضطر إلى الخروج من تونس التي هجرها أهلها والتوجه إلى

(60) وهي منطقة زراعية في ناحية زغوان. وقد طرد سكان جزيرة شريك العرب من كان في بلادهم من البربر المقيمين فيها منذ عهد بعيد والذين انضموا إلى أبي يزيد، انظر **عيون الأخبار**، ص 330. وأشارت بعض المصادر الأخرى إلى وجود بني صلتان في تلك المنطقة، انظر **رياض النفوس** [طبعة بيروت، 382/2].

(61) **عيون الأخبار**، ص 326.

(62) [وادي بجردة: كذا في **عيون الأخبار** (ص 326)، وهو وادٍ مجردة الحالي الذي يشق البلاد التونسية من الشمال الغربي إلى الشمال الشرقي].

سوسة ومعه ثلاثة آلاف جمل محجوزة، محملة بالطعام»[63].

إلا أن هذه الهزائم لم توهن عزيمة أبي يزيد. فقد وجه في الحال جنوداً لاسترداد تونس، ثم باجة، وقد قُضِي فيها على الحامية الفاطمية وقتل قائدها عقبان الجيملي. ونهب البربر نواحي باجة وتونس وسبوا النساء ورجعوا إلى القيروان محملين بالغنائم. وقد أثارت تجاوزاتهم حقد أهل القيروان، فتجاسروا على تدبير مؤامرة ضد أبي يزيد. فاتفق على قتله رجلان من وجوه المدينة مع جماعة من البربر يسمون بني بياضة، واستمالا قائداً بربرياً يقال له علي بن بدر الحصري[64]. فلما علم أبو يزيد بخبر المؤامرة نجح في إحباطها. ثم حاول بمساعدة ابنه فضل وبواسطة بعض الإجراءات العدلية تهدئة خواطر أهل القيروان الغاضبين من تكاثر السبي وتجاوزات العسكر[65].

وفي نفس الوقت الذي ثارت فيه باجة وتونس، حاولت الأربس التي كان يحكمها بنو أبي سلاس الخروج عن طاعة أبي يزيد والدخول في طاعة القائم. فوجه إليها أبو يزيد فرقة عسكرية بقيادة فليح بن محمد الهواري، وبعدما عزز هذا القائد صفوف جيشه في مرماجنة بعناصر من هوارة وبني كملان انتصر على القائد الفاطمي وأبعده إلى شقبنارية[66]. ثم أضرم النار في الأربس وعاث في ناحيتها فساداً وتوجه إلى أيوب المتمركز في باجة[67].

ولما وصلت الثورة الخارجية إلى هذا الحد من تطورها توقفت عن التقدم. ولكن صاحب الحمار، بالرغم من عجزه عن الاستيلاء على المهدية، قد أخضع بقية البلاد لسلطته، وعاث فيها رجاله فساداً. أما خصمه الذي تملكه الفزع فهو لا يزال مصراً على خطته الدفاعية، مقتصراً على القيام ببعض

(63) عيون الأخبار ص 326.
(64) [في عيون الأخبار (ص 328): المصري].
(65) عيون الأخبار، ص 329.
(66) [هي مدينة الكاف الحالية].
(67) عيون الأخبار، ص 331.

العمليات العسكرية في اتجاه سوسة وتونس انطلاقاً من المهدية، قصد مراقبة طرق المواصلات المفضية إلى جزيرة شريك وحماية قوافل التموين التي تمر منها. ذلك أن أهل الجزيرة قد أظهروا منذ اندلاع الثورة مناهضتهم الشديدة للنهابين من البربر، بل أنهم «طردوا من كان عندهم من قديم الأيام من البربر. فانتقلوا من تونس إلى القصر القديم ونزلوا مستندين إلى أبي يزيد»[68] وأصبحت الجزيرة عهدئذٍ رهاناً للمعركة الضارية القائمة بين المتحاربين في ضواحي سوسة وتونس. وكان جنود أبي يزيد حريصين كل الحرص على القتال في جزيرة شريك، لا سيما ولم يبق لهم في النواحي الأخرى من البلاد ما يشبع حاجتهم إلى الغنائم. وقد حمى وطيس المعركة من الجانبين في أواخر خريف سنة 945. من ذلك أن فرقة بربرية بقيادة سليمان الأعجمي الأسود قد نهبت الجزيرة. ولم يحصل أهل بعض الحصون، مثل بني زلال، على الأمان إلا مقابل مال كثير. وخرج قائد بربري آخر نازل في تونس، وهو أيوب بن خيران الزويلي، فتوجه هو أيضاً إلى جزيرة شريك، ونهب وسلب كل ما وجده في طريقه قبل أن يتحول إلى القيروان[69].

«وكتب أهل إفريقية إلى القائم يشكون إليه ما حل بهم من القتل والنهب والسلب ويضرعون إليه أن يخرج واحداً من رجاله إلى جبل شعب[70]، فأخرج إليه الحسن بن علي في مائة فارس من ملوسة إجابة إليهم، وأمره على العسكر الذين مع أخيه عمار بن علي بسوسة، فانضموا إليه. وأعطى الناس الأرزاق وخرجوا إلى تونس. فلقي جماعة من أصحاب أبي يزيد بوادي الرمل[71]، فقتلهم وأخذ ما كان معهم من الأموال والمواشي».

«وسار في اليوم الثاني، فحين انتهى إلى القرب من فندق شكل لقي خيلاً لأبي يزيد مع جمال وبغال، فأسلموها إلى الأولياء (يعني الجنود الفاطميين)

(68) نفس المصدر، ص 330.

(69) نفس المصدر، ص 330.

(70) [جبل زغوان في الوقت الحاضر].

(71) [واسمه اليوم وادي حمام الواقع بين زغوان وبوفيشة].

ونجوا بأنفسهم. وبات الأولياء بمنزل داود... وساروا إلى تونس. فحين قربوا منها وافَوْا ألف جمل ودواب وبغالاً كثيرة تحمل الطعام والأمتعة إلى مدينة تونس، ومعها خمسون فارساً من البربر وأربعمائة راجل. فقاتلهم الأولياء حتى غلبوهم... ودخل الحسن بن علي تونس من يومه»(72).

وكان ردّ فعل أبي يزيد فوريّاً. فقد خرجت من القيروان ثلاث فرق عسكرية على التوالي بقيادة يدرس المزاتي وموسى الصنهاجي وأيّوب الزويلي. وتجمع الجنود في ضفة وادي مليان حيث التحق بهم سليمان «الأسود» القادم من جزيرة شريك، وجميع الجيوش على تونس فتوجه إليها الحسن بن علي وهزمها هزيمة شنعاء في خندق ميمون(73).

إلا أنّ أبا يزيد الذي مُنِي بالفشل في ضواحي تونس ومدخل جزيرة شريك قد أحرز بعض الانتصارات في النواحي الشرقية على طريق منطقة القبائل الصغرى ومدينة المسيلة، وقد خرج منها صاحبها علي بن حمدون على رأس جيش عظيم في اتجاه المهدية، حال علم بفك الحصار عليها. فعهد أبو يزيد إلى ابنه أيوب المتمركز في باجة بقطع الطريق المفضية إلى المهدية على عامل الزاب الذي «أخذ على بلد وزداجة إلى سطيفة وقسنطينة ثم إلى لواتة، وسار معه منهم إلى بني هراش. ووافاه حسن بن منصور مقدم بني هراش وثوبان بن أبي سلاس في جماعة من الجند الذين كانوا معه بقلعة شقنبارية، ثم رحل إلى بلطة(74) وضرب مضاربه هنالك...».

«وكان أيوب بن أبي يزيد في باجة، فحين اتصل به وصول علي بن حمدون إلى حيث وصل، زحف بعساكره إليه. وبات بالقرب منه علي بن حمدون، ولا يشعر به ولا يعلم خبره. ثم صبّحه أيوب... وكان ذلك اليوم كثير الغمام مظلم الجو. فوصل إلى معسكر ابن حمدون فاستباح أخبيته

(72) عيون الأخبار، ص 332.

(73) نفس المصدر، ص 332 - 333.

(74) [بلطة: هي اليوم قرية تقع في ولاية جندوبة وتشرف على سهل بوسالم].

ومضاربه وأمواله. ونجا ابن حمدون على فرسه وقد أثخن جراحاً... فتردى عظامه ومات هنالك بعد أيام...»[75].

ثم صوب أيوب سلاحه نحو القائد الفاطمي الحسن بن علي الذي قدم من تونس للانضمام إلى ابن حمدون. ودام القتال سجالاً مدة طويلة ثم انقلب في آخر الأمر إلى صالح الفاطميين. فولى أيوب على عقبيه وقفل راجعاً إلى القيروان التي وصلها في أوائل ربيع الثاني 334/ نوفمبر 945[76].

إلا أن أبا يزيد لا يستطيع ترك ناحية باجة بين أيدي خصومه، دون أن يزيد في إضعاف مواقعه المتأثرة من قبل بالتخلي عن تونس. فوجه إلى باجة من جديد ابنه أيوب على رأس جيش عظيم. وتحصن الحسن بن علي مع أهل وزداجة ومن انضم إليهم ومن بقي معه من أصحابه، ونزل أيوب في موضع يقال له قافلة، وهجم بقوة في موضع وعر. فمُنِي في أول الأمر ببعض النكسات ثم تحول الوضع لصالحه، وأخيراً أجبر خصمه على الانسحاب في اتجاه منطقة القبائل الصغرى، بفضل تخاذل القائد أحمد الوزداجي المعروف بالكمين[77]. فاسترجع أيوب حينئذٍ ناحية باجة وقطع على خصمه الطريق المفضية إلى تونس والمهدية. إلا أن القائد الفاطمي قد عرف كيف يستغل تلك العزلة المفروضة عليه في بلد كتامة، وذلك بإعادة تنظيم جيشه، معتمداً بالخصوص على عناصر من كتامة ومزاتة. فذهب إلى قسنطينة وعسكر بها، ومن هناك وجه رجاله للقيام بغارات ناجحة على هوارة أوراس. ولا شك أن تلك الحملات التي كان يقوم بها أتباع الفاطميين في مهد الثورة الخارجية ذاته، قد أقضت مضجع أبي يزيد فأسرع إلى توجيه عساكر جمة لمحاربة الحسن بن علي، وجعل عليهم ابنه فضلاً وابنه يزيد، ولكن القائد الفاطمي استطاع الصمود في وجه ذلك الجيش العظيم، ثم استأنف حملته وتمكن من دحره والاستيلاء على تيجس وباغاية[78].

---

(75) عيون الأخبار، ص 333 - 334.

(76) نفس المصدر، ص 334 - 335.

(77) نفس المصدر، ص 335 - 336.

(78) نفس المصدر، ص 336 - 337.

وهكذا لم يتحسن وضع أبي يزيد منذ أن فقد الأمل في فتح المهدية عنوة. وفي القيروان التي جعل منها قاعدة مناسبة له، أصبح أهلها الذين استقبلوه في بداية مغامراته استقبال المنقذ، ينتظرون اليوم الذي سيتخلصون فيه من سلطته. ولم تكن العمليات التي كان يقوم بها من حين لآخر في نواحي تونس وباجة مكللة دوماً وأبداً بالنجاح، ولا كافية للاحتفاظ بسلطته على بلادٍ ما فتىء رجاله من البربر يعيثون فيها فساداً، لا سيما وقد بدأ خصمه يتفوق عليه تفوقاً محسوساً. فقد كانت جيوش العدو تعمل حسب هواها في أراضي أتباعه من أهل هوارة وبني كملان وفي ساقة جيشه. فمن الضروري بالنسبة إليه القيام بعمل باهر في مثل تلك الظروف. وقد وقع اختياره على سوسة لأن إخفاق أي عمل آخر ضد المهدية ستنجرّ عنه عواقب وخيمة. على أن سوسة لم تتأخر عن الخروج عن طاعته وعزل عامله أحمد الهواري الذي وجّهه إلى المهدية أسيراً «وكان في سوسة من قبل القائم بأمر الله الحسين بن ناكسين عاملها، وعباس بن مندورة في عسكر كثير»(79). وقد أعربت هذه المدينة حينئذٍ للفاطميّين عن مشاعر ولائها الذي لا تشوبه شائبة.

فزحف أبو يزيد بنفسه على سوسة في عز فصل الشتاء على رأس جيش عظيم يوم 6 جمادى الثانية سنة 13/334 يناير 946. وضرب على المدينة حصاراً شديداً، مستعملاً دبابات مصنوعة في القيروان لتمكين رجاله من اقتحام السور. ثم نصب عليها المنجنيقات والعرادات، واستمات رجال الحامية في الصمود، مستعملين سلاسل فيها كلاليب، كل سلسلة طولها ثمانون ذراعاً. فكانت تربط في حوائط السور ثم ترمى الكلاليب على الدبابات، حتى يتمكن الرجال منها وهم على السور. ولكن الأمر قد اشتد بأهل المدينة وطال عليهم الحصار «وكثر الجهد والضر»(80). ولم تصل أية إعانة، لا عن طريق البر ولا عن طريق البحر، إلى المهدية، حيث مرض الخليفة وأخذ يفكر فيمن سيخلفه بعد موته،

---

(79) نفس المصدر، ص 337.

(80) نفس المصدر، ص 338.

وستنقضي عدة شهور ومدينة سوسة في مثل تلك الحالة. وعندما ستدق ساعة خلاصها إثر اعتلاء المنصور العرش، ستكون قد بلغت منتهى الشدة[81].

إلا أن الجولة الثانية من ثورة الخوارج ستنتهي أمام أسوار سوسة، كما انتهت الجولة الأولى أمام أسوار المهدية، قبل ذلك بسنة ونصف السنة. فبينما كان أبو يزيد يواصل الحصار على سوسة، إذ جد في العاصمة (المهدية) حادث حاسم لم يكن له علم به. إذ توفي الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله، تاركاً العرش لابنه إسماعيل الذي سيعمل فوراً على إخماد تلك الثورة[82].

---

(81) انظر حول المصائب التي تعرضت لها سوسة أثناء الحصار، البكري، ص 35. وانظر أيضاً، John Hopkins، سوسة وشرق البلاد التونسية في العصر الوسيط، الكراسات التونسية، عدد 31، 1960، ص 89 - 94.

(82) توفي القائم يوم 13 شوال 17/334 مايو 946. انظر، افتتاح، الفقرة 300، والبيان، ص 218 واتعاظ، ص 126، والكامل، ص 317.

الباب الرابع

خلافة اسماعيل المنصور واخفاق ثورة الخوارج

الفصـل الأول

ولاية الخليفة الفاطمي الثالث

إسماعيـل المنصـور:

كان المنصور قد تجاوز الثلاثين من عمره بقليل لما آلت إليه الخلافة. فقد وُلِد بالقيروان حسب الاحتمال في العشر الأوائل من شهر رمضان سنة 301/ أبريل 914[1]. وهو أمير عربي إفريقي، يجري في عروقه الدم الإفريقي والدم الشرقي على حد سواء. ذلك أن أم الولد الذي أنجبته، واسمها كريمة، قد كانت مع الجارية الشرقية أم حبيب من بين النساء الإفريقيات الست اللائي التحقن ببلاط المهدي ثم أصبحن من حرم القائم. ولا شك أن هذه المرأة التي بقيت على قيد الحياة بعد وفاة الخليفة، قد كانت من بين جواري الأسرة الأغلبية اللائي تخلى عنهن زيادة الله الثالث، فاصطفى المهدي بعضهن عند دخوله لرقادة سنة 910 هـ ووهب بعضهن لابنه القائم[2].

(1) إن الكتاب الإسماعيلي الذي يبحث في علم «الباطن»، وهو «كتاب الأزهار» للداعي حسن البهروجي، نشر عادل عواف، في منتخبات إسماعيلية، ص 334، هو الذي سمح لنا بضبط ذلك التاريخ التقريبي. ذلك أن المنصور قد توفي في أواخر شوال 341، وعمره 40 سنة وشهر و 21 يوماً. ونجد في البيـان تاريخَيْن: 299 ص 167 و 302 ص 218. وأورد ابن حمـاد، ص 39 هذين التاريخين. ونجد في اتعاظ ثلاثة تواريخ (ص 129): 301 - 302 - 303.

(2) [افتتاح، الفقرة 274].

وحسب الأخباريين السنيين والإسماعيليين على حد سواء، لم يتسم الخليفة الجديد إلا بالخصال الحميدة، فقد كان حليماً، رؤوفاً، رزيناً، ثاقب الفكر، وكان يمتاز بالخصوص بفصاحة نادرة وشجاعة لا مثيل لها. هذا بالإضافة إلى ما كان يتميز به من حزم بالغ، كان يمثل الجانب الأوفر من صلابته التي زادت في قوتها صروف الدهر في وقت مبكر.

فقد تعرض المنصور للمحنة الأولى إثر وفاة المهدي، وكان عمره وقتئذٍ لا يتجاوز العشرين سنة. فتحملها برباطة جأش طوال عدة سنوات، حتى قبيل وفاة أبيه القائم. إذ بمقضتى مبدإ مطابق للمذهب الإسماعيلي، سنتناوله بالدرس بالتفصيل عند حديثنا عن مؤسسات الخلافة الفاطمية، يجب على من يعتلي العرش بعد الخليفة المتوفى، أن يعين «حجته» أي ولي عهده في كنف السرية قبل دفن الراحل، وأن يختار في نفس الوقت من سيحتفظ بذلك السر، وهو «المستودع». وبناءً على ذلك عين القائم إثر وفاة المهدي ابنه إسماعيل ولياً للعهد، واختار للاضطلاع بمسؤولية «المستودع» حاجبه جوذر. وكان على كل واحد منهما أن يكتم السر إلى أن يحين الوقت الذي يراه الإمام مناسباً لإفشائه وتعيين ولي العهد رسمياً. إلا أن إسماعيل قد انتظر حوالي اثنتي عشرة سنة ليتم الإعلان عن ذلك التعيين. فقد انتظم موكب التعيين الرسمي يوم 7 رمضان سنة 12/334 أبريل 945، أي قبل وفاة القائم بخمسة أسابيع فقط.

المنصور قبل تعيينه ولياً للعهد:

لقد كانت المحنة التي تعرض لها المنصور قبل تعيينه ولياً للعهد، شاقة، بالنظر إلى الخلافات التي كانت سائدة داخل العائلة العبيدية، بين أعمامه أبناء المهدي وأخوته أبناء القائم. وسنرى مدى أهميتها عند درس نظام الوراثة على العرش الفاطمي. ولا شك أن الخلافات والخصومات بين الأمراء، والدسائس بل حتى المؤامرات التي يثيرها الطمع في السلطة، قد كانت من الأشياء المألوفة في تاريخ الأسر المالكة الإسلامية، وهي حينئذٍ لا تثير الاستغراب. إلا أن حصر معرفة اختيار ولي العهد في المستفيد والمستودع، دون سواهما، وإبقاء هذا

الاختيار سراً مكتوماً، فهذا مما يثير طموح الطامعين في العرش ويبعث في نفس الأمير المعين الحيرة والكآبة. ولذلك فقد عاش الشاب إسماعيل في قصر الخلافة بالمهدية حياة التقشف والعزلة، واضطر، لسد حاجات عائلته، إلى تعاطي التجارة كأي فرد من الخاصة[3].

فيبدو حينئذٍ أن ولي عهد القائم قد كرس حياته منذ شبابه الباكر للعبادة والدراسة والعمل بجد وحماس. ورغم أنه كان مؤهلاً للاضطلاع بالمهام الكبرى الملقاة على عاتق ولي العهد، فقد ظل بمنأى عن شؤون الدولة. وفي حين كان القائم قد شارك المهدي في وقت مبكر في ممارسة السلطة، وعُهِد إليه عدة مرات بقيادة الجيش، فإن ابنه إسماعيل لم يضطلع بأي مهمة مدنية أو عسكرية، ولم تُتَح له الفرصة للتدرب على مسؤوليات الحكم، ولم يكتسب أدنى خبرة في شؤون المملكة.

ألا يخشى أن تكون هذه العزلة عائقاً بالنسبة إليه عندما يحين الوقت ليمسك بزمام الحكم؟ وهذا الموقف الذي اتخذه القائم، ألا يعرض مستقبل الإمامة للخطر بترك الابن الذي وقع عليه اختياره محروماً من القيام بأي تجربة سياسية، وبعدم تمكينه من إظهار ما هو قادر عليه، واكتشاف شخصيته وفرض نفسه على الأمراء المبعدين من العرش؟ على أن ما أظهره إسماعيل منذ سن المراهقة من خصال عاطفية وذهنية، وبالخصوص ذلك التفاني، وذلك الترفع عن متاع الدنيا، وذلك الإدراك للواجب، الذي اتفق جميع الأخباريين على الإقرار به، كل ذلك كان يؤهله بلا شك في نظر والده ليتحمل في الإبان أكبر المسؤوليات على أحسن وجه ممكن، وكان كافياً لتهيئته للاضطلاع بأسمى المهام التي كانت تنتظره. ومهما يكن من أمر فقد أصاب القائم في اختيار ابنه إسماعيل ولياً للعهد، في الوقت الذي كان يدفن فيه الخليفة الفاطمي الأول. وسيعرف من استحق بفضل بسالته لقب المنصور كيف يكون أهلاً للثقة التي

---

(3) سيرة جوذر، ص 89 - 90.

وضعها فيه سلفه وكيف يبرهن أن هذا الأخير لا يستطيع إحالة إرث المهدي الموعود به إلى شخص آخر أولى منه.

الوضع في إفريقية عند اعتلاء المنصور العرش:

لئن قاسى إسماعيل من تعيينه ولياً للعهد، فإن اعتلاءه العرش كان محنة أقسى بالنسبة إليه. فقد كان ذلك العرش عهدئذٍ متزعزعاً، وكانت أسس البناء المقام بأناة على أنقاض الدولة الأغلبية، متخلخلة من أثر الضربات المتكررة المسددة من قبل الحشود البربرية الخارجية التي تدفقت من جبال أوراس وانقضت على إفريقية كالجراد المنتشر. وفي أقل من سنتين انحصرت المملكة في دائرة عاصمتها المهدية. ولم تتمكن سوى مدينة واحدة، وهي سوسة، من التصدي للمغيرين أمام أسوارها المنيعة، مقابل مآس جسيمة. وحسب الأخباريين، لم يبق في إفريقية الخصبة التي عاث فيها فساداً أولئك الجبليون الجائعون المتلهفون على الغنائم، أي حقل مزروع أو سقف مرفوع. فقد انتشروا في كل مكان يقتلون الرجال ويسبون النساء ويحرقون القرى. وأصبحت البلاد ترزح تحت نير أبي يزيد وأصحابه[4] وتبعاً لذلك فإن أشد المتمسكين بالمذهب السنّي، أولئك الذين تحالفوا في القيروان مع الخوارج بوصفهم من أهل «القبلة» لمقاومة الفاطميين باعتبارهم بمثابة «المجوس» الخارجين عن الملّة، قد صاروا يتمنون سقوط صاحب الحمار، ذلك الأعرج الملعون، مولّين وجوهم قِبَل المهدية التي لا تُقْهر[5].

فاستولى المتمردون البربر على بلاد في حالة خراب، وقد أصبح مصيرها بين يديْ خليفة القائم. كما أن الدولة التي طالما حلم يبعثها جدوده من ذرية فاطمة، ثم ظهرت للوجود في آخر الأمر، بعد عدة تقلبات، صارت معرضة للخطر، وعلى قاب قوسين أو أدنى من الانقراض. وقد نصب الخوارج الملاعين أخبيتهم

---

(4) انظر عدة شهادات حول عصر أبي يزيد المظلم في «المجالس والمسايرات» ص 402، 424، ومناقب، ص 60.

(5) عيون الأخبار (تحقيق اليعلاوي)، ص 328.

على بعد بضعة أميال من المهدية وشددوا الخناق على سوسة، وأصبح الوضع حرجاً، وكاد يكون ميؤوساً منه.

ولاية إسماعيل المنصور:

لقد بدأت ولاية المنصور بالفعل في نفس اليوم الذي أحس فيه أبوه بقرب أجله، فعينه رسمياً ولياً للعهد. وانتظم موكب التولية يوم 7رمضان 12/334 أبريل 945. وأمر القائم حاجبه جوذر بإحضار العهد الذي أخذه عليه عند دفن المهدي، وسلمه إلى الشيوخ، فتلاه عليهم شيخ الشيوخ صولات مرتين، وفقاً لتعليمات الخليفة. وبعدما أقر الشيوخ الحقوق التي فوضها الإمام إلى جوذر باعتباره «المستودع» استمعوا مرة أخيرة إلى صولات وهو يتلو نص العهد، ثم بايعوا إسماعيل وقبلوا الأرض بين يديه، ووافقوا على قرار التولية. «وكتب بذلك إلى الأمصار والبلدان والجزائر، وعرف به كل بادٍ وحاضر»[6]. ويعتبر هذا التعيين تتويجاً بأتم معنى الكلمة، وابتداء من ذلك التاريخ سيتولى إسماعيل شؤون الدولة باسم والده الذي لا يزال جالساً على العرش. وخلافاً لما كان متوقعاً لم يظهر أي رد فعل مناهض لولي العهد من قبل أعمامه وإخوته. «ولما كان يوم الفطر خرج المنصور من قصره وقد حف به بنوه وإخوته وشيعته وأولياؤه وأهل دولته وعبيده، والناس يرفعون أصواتهم بالدعاء له. . . والأعلام تنشر والطبول تضرب، والمسرة قد ملأت القلوب وأثلجت الصدور. . . فحين انتهى إلى المصلى، صلى صلاة العيد وقام خطيباً»[7].

ولم ينتظر المنصور حينئذٍ وفاة أبيه ليشرع بكل حزم في الاضطلاع بمهام الخلافة. «فوجه مراكب كثيرة مشحونة بالطعام إلى فقراء سوسة والمحتاجين منهم، وفرقت فيهم لما هم فيه من الحصار والجوع. . . وشحن المراكب بالعدة والسلاح ووجه بعضها إلى مدينة سوسة، وقود عليها رشيق الكاتب، فوصل إلى سوسة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال (16 مايو 946)»[7م] أي قبل وفاة

(6) نفس المصدر، ص 338.

(7) نفس المصدر ص 339.

(7م) نفس المصدر ص 343.

القائم بيومين. ولكن إسماعيل قد كتم خبر وفاته كما كتم أبوه خبر وفاة المهدي، وذلك خوفاً من الاضطرابات، وبالخصوص خشية أن يستفيد أبو يزيد من ذلك. على أنه سيمسك عن التلقب بلقب الخليفة، وسوف لا يغير النقوش والنقود والبنود، وستقام الصلوات كالعادة باسم القائم، وستحمل جميع الرسائل والكتابات الرسمية عنوانه، إلى أن يأتي اليوم الذي سيتمكن فيه الخليفة الشاب الملقب بالمنصور من إخماد الثورة[8].

وكما سنرى فيما بعد فإن خليفة القائم سيقود رجاله بنفسه إلى الحرب، وسيعرض حياته للخطر مرات عديدة في ساحة الوغى، مبدياً شجاعة نادرة. وسيكافح خصمه، وسيلاحقه في الجبال والوديان، وسيطارده حتى في مخابئه بجبال سالات وكيانة. وسوف يستدعي ذلك ما لا يقل عن خمسة عشر شهراً للتغلب عليه. ولكن بعد إخماد الثورة سيتحول المنصور بنفسه إلى النواحي الغربية من مملكته لإعادة السلام في كامل أرجائها، من بلد صنهاجة إلى تاهرت، ومن أوراس إلى تخوم الزاب الصحراوية وسيرجع الأمور إلى نصابها في صقلية وسيستأنف القتال ضد النصارى في قلورية وضد الأمويين الأندلسيين في المغرب الأقصى، لاستعادة نفوذه. وهكذا سيكون المنصور دائم النشاط خلال عهد قصير المدى لم يدم سوى سبع سنين، خارج وداخل مملكته التي سيفتحها من جديد ويرجع إليها السلام ويعيد بناءها بعد خرابها وسيكرس أوقات فراغه القليلة قبل وفاته للدراسة وتأليف الكتب المذهبية[9] في عاصمته الجديدة صبرة التي أقامها وسط البادية في موقع المعركة ذاته بالقرب من القيروان لتخليد ذكرى صلابته وبسالته. وقد أطلق عليها اسم «المنصورية» المجيد. ومن فرط اشتغاله بمهام الدولة، أهمل شؤون أسرته وأبنائه الذين سيتعرضون للفاقة ـ حسب اعترافه هو ذاته ـ وسيحرمون مما عودهم به قبل اعتلائه العرش من كرم ورعاية[10]. وقد كان حازماً وعطوفاً في آنٍ واحد، فعاقب مثيري الشغب عقاباً

---

(8) سيرة جوذر، ص 90.

(9) نفس المصدر، ص 77. وحسب «كتاب الأزهار»، المصدر المذكور، ص 189، ألف المنصور (وليس القاضي النعمان) كتاباً يحمل العنوان التالي «إثبات إمامة مولانا علي بن أبي طالب».

(10) سيرة جوذر. ص 90.

شديداً وفي نفس الوقت أفرج عن الأسرى وعفا عن القيروانيين الذين ساندوا المتمردين. ولم يتأخر لإرضاء نزوات جارية مفضلة، عن البقاء عرضة للريح والمطر، مجازفاً بصحته وسيظل إلى آخر رمق من حياته رحيماً ودوداً.

الفصـل الثانـي

هجوم المنصور المعاكس
وموت أبي يزيد[1]

حملة بحرية وبرية على سوسة:

لم تمض سوى سبعة أيام على دفن القائم بأمر الله، حتى أخذ ابنه إسماعيل الاستعدادات اللازمة ليقود بنفسه العمليات الحربية ضد أبي يزيد. فتحول يوم 19 شوال سنة 24/334 مايو 946 إلى دار الصناعة بالمهدية[2] «وأمر يعقوب بن إسحاق[3] أن يشحن ستة مراكب بالرجال، وأن يسير بهم سراً إلى سوسة «وقال له: إذا كان بعد غد يوم الثلاثاء فأنزل بمن معك من الرجال على شاطىء البحر بالقرب من باب سوسة الشمالي، واجتمع مع رشيق الكاتب ولا تقاتلوا أحداً حتى يأتيكم من أوجهه من رجـالي»[4]. ثم أمر الكتاميين بأن يوافوه من الغد عند الفجر بالسلاح والعدة بقرية بكة التي تبعد ميلين عن المهدية، دون أن يبوح لهم بحقيقة نواياه.

وفي يوم الاثنين قبل الصبح توجه إسماعيل إلى سوسة محفوفاً «بشرذمة من عبيده وخدمه»، وبمجموعة من الأولياء الكتاميين الذين لا يتجاوز عددهم ستمائة فارس. ولما وصلت القافلة إلى لمطة الواقعة في منتصف الطريق، عرف قواد الجيش جهتهم، فحثوا إسماعيل على عدم المخاطرة بحياته وأقنعوه

---

(1) عيون الأخبار (تحقيق محمد اليعلاوي) من ص 349 إلى ص 462.

(2) دار الصناعة ـ أي ترسخانة الأسطول.

(3) يعقوب بن إسحاق: هو أخو خليل الذي أسره أبو يزيد في القيروان وأعدمه.

(4) عيون الأخبار، ص 351.

بالعدول عن الزحف بنفسه على خصمه. فعهد إلى كبون بن تصولا بقيادة كتيبة تضم أربعمائة فارس، «وعرفه أنه أرسل يعقوب ومن معه من الرجال الذين في البحر إلى مدينة سوسة». ثم رجع بمن معه من خدمه وعبيده إلى المهدية[5].

«وبات كبون بن تصولا بموضع يعرف ببني سليم وبينهم وبين العدو عشرة أميال. وبات يعقوب بن إسحاق بمراكبه في تلك الليلة في البحر عند مدينة سوسة بإزاء العدو وعند باب سوسة الشمالي. فلما كان يوم الثلاثاء ألصق مراكبه بالبر وأنزل رجاله بالقرب من الباب الشمالي في هدوء وسكون، وقام في وسطهم وخرج إليه رشيق الكاتب في من معه من الرجال والرماة يحمونهم من أعلى السور فحين رآهم (أبو يزيد) وما هم عليه من السكون، وامتناعهم من القتال، قال: هؤلاء ينتظرون غيرهم وتحول كبون في من معه من المكان الذي كانوا فيه بائتين، فأصبحوا بقرب معسكر أبي يزيد، وكان ذلك اليوم كثير الغمام مظلم الجو. فلما ظهرت الشمس من الغمام، تراءت خيول الأولياء مع شاطىء البحر، وصاح البربر: هذه الخيل أتت من المهدية! فركب أبو يزيد بنفسه ونِصبت أعلامه وضُرِبت طبوله. وخرج أهل سوسة ببنودهم وطبولهم مع كبون، وصاروا عسكراً واحداً قبالة أبي يزيد، وصار بإزاء يعقوب بن إسحاق ورشيق، أبو سليمان الزويلي، فالتحم القتال واشتد الصراع، فانهزم الأولياء حتى دخل أوائلهم باب سوسة الجنوبي، ثم عطف الأولياء وأطلق رشيق ويعقوب النار في الدبابات التي كان أبو يزيد صنعها بقرب باب سوسة الشمالي، وأشعلا حطباً كان أعده ليحرق به سوسة، فاشتعلت النيران وأظلم الجو بالدخان. فلما رأى أبو يزيد ذلك ومن معه، ضعفت قلوبهم وظنوا أن أبا سليمان ومن معه من أصحابه قد انهزموا، وكانوا لا يرون بعضهم بعضاً، لكون مدينة سوسة حائلة بينهم. ثم هزم يعقوب ورشيق من كان بإزائهما، وألقوا النار في الخصوص أولاً فأولاً إلى أن صارت النار بقرب الموضع الذي كان فيه أبو يزيد في قتال الأولياء. فانكسر أبو يزيد ونكص على عقبيه، وحف به غزاته، وتوجه هارباً منهزماً إلى مدينة

(5) نفس المصدر، ص 352 - 353.

القيروان لا يلوي على أحد. وهرب البربر على وجوههم وافترقوا في كل جبهة، وقُتِل منهم خلق كثير، وقُتِل عليّ بن بدر الحصري، عدة أبي يزيد للمهم من أمره، وصاحب جيشه ومقدم عسكره. وغنم الأولياء ما كان في عسكرهم، مما سلم من الحريق بالنار بعد أن احترق أكثره. ووصل أبو يزيد إلى القيروان مهزوماً مغلوباً»[6].

ولم يعد أهل القيروان الذين أرهقتهم مساوي البربر يخشون التعبير عن غضبهم أمام دار أبي عمار الأعمى والهتاف باسم الفاطميين، بل ذهب بهم الأمر إلى تهديد أبي عمار وأصحابه وازداد هيجان الشعب لما انتشر خبر هزيمة أبي يزيد ووصوله إلى باب أبي الربيع عند صلاة المغرب. فلما وجد الباب مغلقاً بات خارج المدينة إلى الصبح. واضطر من الغد إلى استعمال الحيلة لتخليص أبي عمار، ثم انسحب من القيروان ونصب أخبيته في الموضع المعروف بكدية الشعير، «وبينه وبين القيروان مسافة يومَيْن»[7].

معركـة القيـروان:

وما إن علم إسماعيل بهذا الانتصار الذي أحرزه جيشه حتى قررالخروج من المهدية لمطاردة قائد التمرد. فسلم إلى جوذر الحاجب مفاتيح الخزينة وفوض إليه جميع السلطات، وجعله على رأس قصر الخلافة وسائر أنحاء المملكة[7]. ثم ارتحل فوراً إلى سوسة. فالتحق به زيادة الله بن عبد الله بن القديم وجماعة من الأتباع الذين كانوا بالقيروان، ملتمسين العفو على أهل هذه المدينة ومشيرين عليه بالتحول إليها لتعزيز جانب أنصاره. وأمر كبون بأن يسبقه إلى القيروان مع خمسين فارساً ليعلم أهلها أنه قد صفح عنهم وأمنهم. فخرج أعيان المدينة للقائه يوم الخميس 23 شوال سنة 28/334 مايو 946 في الموضع الذي سيبني فيه المنصورية. «فلما لقيه أهل القيروان قربهم وآنسهم وأمنهم في

(6) نفس المصدر ص 353 - 354.
(7) نفس المصدر، ص 356 - 357.
(8) سيرة جوذر، ص 62.

أموالهم وأنفسهم». ووجد إسماعيل جماعة من نساء أبي يزيد وأولادهم، «فأمر بصيانتهم وحفظهم والإحسان إليهم، وأمر بحملهم إلى المهدية»[9].

أما أبو يزيد، فإنه رغم هزيمته في سوسة وطرده من القيروان، لم يعتبر نفسه مهزوماً. ولئن فقد لا محالة شيئاً من بهجته، فإنه قد احتفظ رغم تقدمه في السن بحزم نادر الوجود علاوة على كثرة عدد رجاله، ولكنه أدرك أنه أصبح يواجه خصماً قوياً. ذلك أنه كان يقاتل قبل ذلك جيوشاً بلا روح، بقيادة ضباط وجلين مثل ميسور أو خليل، وكان خصمه الأول الذي سبق له أن حارب في مصر والمغرب، مقتصراً على مقاومته بواسطة مساعديه دون أن يخرج قط من قصره بالمهدية. فلولا تحصينات العاصمة وعدم انضباط البربر المتهافتين على النهب، لتمكن أبو يزيد منذ عهد بعيد من القضاء على الفاطميين المكروهين. أما الآن فإنه سيواجه أميراً مندفعاً، تحدوه روح قتالية عالية، وهو على أتم استعداد للمخاطرة بحياته تحت مظلته التي أصبحت هدفاً للمعركة. ولئن كان العدو لا يزال يتصرف في عدد قليل من الجنود، فإن أبا يزيد قد أصبح من واجبه أن يقرأ حساباً لذلك الخصم الباسل والمتصلب، ولسطوته المتزايدة. ولذلك فقد شرع قبل استئناف الحرب في القيام بغارات استطلاعية في فحص القيروان. وهجم ابنه فضل على جماعة من الفاطميين في قرية الجزيرة، «وقتل منهم رجلين وأسر خادماً»[10].

«وأصبح البربر ثاني يومهم، وهو يوم الاثنين لليلة بقيت من شوال[11]، وقد خرج كبون بن تصولا ذلك اليوم في ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل يستخبرون خبر العدو. فتوافى الفريقان وكان بينهم قتال عظيم، وتوغل الأولياء في الدخول عليهم. وقد جعل البربر كميناً خلفهم، فخرج الكمين على الأولياء وعطف البربر عليهم، فقُتِل كبون بن تصولا وكثير من أصحابه، ولم ينج منهم

(9) عيون الأخبار، ص 358.

(10) نفس المصدر، ص 359.

(11) [في الأصل الفرنسي، يوم الاثنين 27 شوال/ 1 يونيو 946].

إلا قليل. فدخل على الناس أعظم غم ويئسوا من الظفر، وأرجف أهل جبال إفريقية وتوقفوا عن نصرة الإمام»[12].

وتوافد البربر من جديد على القيروان تلبية لنداء قائد التمرد. فبنى إسماعيل خندقاً وأخذ ينتظر قدوم العدو، وهو مقر العزم على الصمود والمقاومة. وبعدما اقترب أبو يزيد من القيروان ونصب أخبيته في قرية ممس، زحف على خصمه ليلة الجمعة ثاني ذي القعدة/ 5 يونيو 946. وعند الفجر شرع في الهجوم على معسكر الخليفة، في حين انتشر رجاله حول مواقع العدو. ففوجىء الجنود الفاطميون في أول الأمر بالهجوم ثم استعدوا للقتال من جديد وتمكنوا من صد الغارات الأولى. ولكن عند طلوع النهار أعاد البربر الكرة، معتقدين أنهم سيغلبون بسهولة عدوهم الأقل منهم عدداً. وما لبث رجال إسماعيل أن تراجعوا، وقد أحاط بهم العدو من كل جانب، ففر بعضهم إلى القيروان، وحاول الآخرون الالتجاء إلى أخبيتهم وراء الخندق. إلا أن إسماعيل الذي كان يقود عبيده الصقالبة ويحتمي بمظلة يمسكها على رأسه خادم صقلبي، قد استمر في القتال كالأسد. وتمكن بفضل حملاته العنيفة من شق طريقه في المعترك وأقبل على أبي يزيد لا يلوي على شيء دونه، وحمل عليه بسيفه. «فألقى الله الرعب في قلب أبي يزيد. وقد كاد الإمام أن يضع السيف على رأسه، وولى ناصكاً على عقبَيْه»[13]. وتشجع الكتاميون بما أبداه قائدهم من شجاعة، فتجمعواواستماتوا في القتال حول ماجل باب تونس الشهير، المعروف اليوم بفسقية الأغالبة، ومنعوا خصومهم من الاقتراب منهم. فتحير البربر من تلك المقاومة غير المنتظرة واشتد بهم العطش وتراخوا في القتال من أثر القيظ ثم تفرقوا وانصرفوا إلى معسكرهم في قرية ممس[14].

وفي المعسكر الفاطمي كان الوضع حرجاً للغاية، ولكن إسماعيل الذي كان مقداماً ومخططاً ماهراً رغم جهله بفنون الحرب، قد حرص منذ ذلك الحين

(12) عيون الأخبار، ص 359.

(13) نفس المصدر، ص 362.

(14) نفس المصدر، ص 363.

على التصدي لهجومات البربر المتكررة. فتحصن وراء الخندق مستنداً إلى أسوار القيروان ومتزوداً بسهولة بالمؤونة الواردة عليه من المهدية وسوسة وجزيرة شريك، وتمكن بفضل ذلك من تثبيط همة خصمه العجوز في نهاية فترة من المقاومة دامت ما لا يقل عن شهرين ونصف الشهر، وشهدت تداول الخيبات والانتصارات التي لا نتردد في وصفها بالملحمية.

ويوم الاثنين الموالي الموافق للخامس من ذي القعدة/ 8 يونيو 946 هجم أبو يزيد من جديد على العدو، بعدما اقترب من القيروان ونصب أخبيته على الشرف الأحمر بين الجزيرة (جزيرة أبي حمامة)[15] والقيروان. فأمسك إسماعيل عن الخروج من وراء خندقه وامتنع عن القتال كأنه في حالة حصار. وعندئذٍ انصرف البربر إلى باب أصرم، وكان إسماعيل قد جعل فيه المركوشيين[16] الذين أبدوا شيئاً من المقاومة بقيادة قدام الصقلبي[17]. ومن الغد أعاد المغيرون الكرة وأشعلوا النار «في بيادر الزرع بباب سلم وباب تونس، وكان بها سنبل عظيم وطعام»[18]، فاضطر إسماعيل إلى خوض غمار معركة شاقة حتى آخر النهار. وتواصلت الاشتباكات في الأيام الموالية ولم تسفر عن نتائج حاسمة. فعزز إسماعيل حامية باب أصرم بعناصر من جنود الأربس الذين قدموا برئاسة قائدهم ابن سلاس وبنوا خندقاً يحوطهم. وجاء جنود آخرون من جزيرة شريك بقيادة عبد الله بن زلال، فتمركزوا أمام باب تونس وخندقوا هم أيضاً على مواضع عسكرهم. وجرت معركة ضارية يوم الأربعاء الموافق للرابع عشر من ذي القعدة/ 17 يونيو 946 أمام باب تونس الذي حاول البربر اقتحامه. وأمر إسماعيل الحسين بن ناكسين[19] أن يأخذ مائة فارس ويشق القيروان

(15) البكري، ص 54.

(16) هم عبيد لاتينيون يُنسَبون إلى ماركوس.

(17) في عيون الأخبار، ص 366 «قدام» وحسب قراءة ابن حماد، 43/25 «مدام».

(18) عيون الأخبار، ص 366.

(19) [حسب عيون الأخبار، ص 367، وفي النص الفرنسي: ابن ماكسين].

ويخرج من باب تونس على حين غفلة، «ففعل الحسين ما أمره به الإمام، فانهزم القوم مدبرين، وولوا على أعقابهم ناكصين».

ومن الغد الخميس «قدم إلى المنصور مفرج[20] الكتامي في عسكر من أهل طرابلس عدتهم ألفان ومائتان وأربعون فارساً، فأنزلهم في الخندق وأسبغ عليهم العطاء»، كما وصل مطيع الخادم بسلاح وعدة من سوسة. فاصطدم أبو يزيد بمقاومة أشد لما شن هجوماً جديداً يوم الاثنين التاسع من ذي القعدة/ 22 يونيو 946، أمام باب تونس، حيث أبلى الصقالبة بقيادة بشرى الخادم البلاء الحسن. وشن إسماعيل من جهته هجوماً مضللاً على أبي يزيد لمحاولة الاستيلاء على أخبيته وأجبره على التقهقر[21].

ولما أدرك قائد التمرد عدم جدوى هجوماته على القيروان، غيّر خطته الحربية وتخلى عن محاولة اقتحام معسكر العدو، وأخذ يشن الغارات على ضواحي سوسة والمهدية لاعتراض سبيل قوافل الميرة وإثارة خوف الجنود الكتاميين على مصير عائلاتهم، إثر الغارات التي كانت تتعرض لها ناحية المهدية. ولكن جوذر قد تمكن من تهدئة روع العائلات الكتامية. كما وجه إسماعيل إلى جزيرة جمة[22] «جيشاً كثيراً كثيفاً، فضبطوا نواحيها وحموها»[23].

وحوالي منتصف ذي الحجة/ يوليو 946 أخذ أبو يزيد يناوش من جديد مدينة القيروان ومعسكر الخليفة. وقد جرت اشتباكات متكررة في ضواحي بلدة قصر علي دون أن يحرز البربر أي نجاح يذكر. ثم حاول قائد التمرد إخماد يقظة خصمه، فاقترح عليه الإفراج عن النساء والعائلات البربرية المعتقلة في المهدية، مبدياً استعداده لوقف القتال والرجوع إلى قسطيلية ليقيم فيها بسلام.

(20) [هكذا في النص الفرنسي، وفي عيون، ص 367: «مفرح»].

(21) عيون الأخبار، ص 368 - 369.

(22) [وهو الاسم القديم لجهة المهدية].

(23) عيون الأخبار، ص 370.

ولكن رجاله قد نصبوا كمينين ضد الجنود الفاطميين، لما رُدَّت إليهم عائلاتهم التي عوملت معاملة حسنة. واستؤنف القتال في أواخر ذي الحجة[24].

ودخلت سنة 946/335 - 947 دون أن ترجح الكفة لفائدة هذا الطرف أو ذاك. ذلك أن أبا يزيد الذي لم يحالفه النجاح في حرب الحصار، قد أُحْبِطت محاولاته أمام أسوار القيروان كما أحبطت من قبل أمام المهدية ثم سوسة. أما إسماعيل فقد كان مستعداً للمجازفة بالهجوم على المعسكر البربري، لولا حيطة قواده الذين أقنعوه بضرورة البقاء في حالة دفاع ومع ذلك فقد اضطر إلى الخروج من خلوته يوم الأربعاء 4 محرم/ 5 أغسطس 944 لصد هجوم عنيف.

وبعد انقضاء هذين الشهرين من التردد، حان الوقت بالنسبة إلى كلا الطرفين لشن المعركة الحاسمة. وقد أقر إسماعيل العزم على المجازفة بكل شيء، فأخذ زمام المبادرة وشن «معركة الجمعة» الشهيرة التي وصفها الداعي إدريس وصفاً شاملاً ومتماسكاً، متمماً بذلك المعطيات الواردة في سيرة جوذر، مما يسمح لنا بتحديد تاريخها بكل دقة. وبالفعل فقد اندلعت تلك المعركة يوم الجمعة 6 محرم/ 7 أغسطس 946 وانتهت يوم الخميس الموالي بانتصار الجيش الفاطمي انتصاراً ساحقاً[25].

واحتدم القتال في آخر عشية اليوم الأول، وتواصل طوال ليلة السبت على ضوء المشاعل. ولهذا سُمِّيت تلك المعركة بوقعة المشاعل. وفي الأيام الموالية ترك البربر جنود العدو يناوشونهم وأمسكوا عن دفع جميع قواهم في المعركة. ولكن منذ فجر يوم الخميس شن إسماعيل هجوماً قوياً، بعدما أخذ الاستعدادات اللازمة للقتال: «فجعل في الميمنة أهل إفريقية، وفي الميسرة لهيصة وجيملة وفي القلب بني وطاس[25م]، وهو معهم وعبيدة بين يديه». وفي أول الأمر حمل البربر الذين كانوا متفوقين بعددهم على ميمنة الجيش الفاطمي فهزموها، ثم قصدوا القلب إلى الأمام، فاحتدم القتال بين الفريقين. وعندئذٍ حمل إسماعيل

(24) نفس المصدر، ص 371.

(25) نفس المصدر ص 377.

(25م) في النص الفرنسي «بني بنتاش» والتصحيح من عيون الأخبار.

مع عبيده على مركز قيادة أبي يزيد، فشق صفوف البربر وساعد رجاله على تعزيز مواقعهم، مبدياً شجاعة فائقة. وبعد قليل اقترب من خصمه الذي أدبر ناكصاً على عقبيه. وحاول بنو كملان التشبث بمواقعهم على شمال معسكرهم، ولكنهم اضطروافي آخر الأمر إلى التقهقر. فانهزم جيش أبي يزيد شر انهزام، ولاذ المتمردون بالفرار نحو الغرب، متخلين عن معسكرهم. فدخل المنتصرون الأخبية «وقتلوا من وجدوا بها من الرجال، وحازوا ما فيها من الغنائم العظيمة والأموال، وولى بنو كملان عند ذلك منهزمين والسيوف تأخذهم ضرباً للأعناق». وقد كان الموقف حرجاً فعلاً بالنسبة إلى الجنود الفاطميين، فلولا صمودهم وجرأة قائدهم لسحقهم بنو كملان وهوارة وغيرهم من حشود البربر. وأخيراً تنفس إسماعيل الصعداء، ونجت الدولة الفاطمية من الهلاك. وأكبر دليل على ذلك ما رواه الأخباريون عن ردود فعل الخليفة الشاب إثر هذا الفوز المبين: «فقد سجد وهو راكب على فرسه، ورجع إلى خندقه وهو يكثر من حمد الله وشكره على ما أولاه من فتحه ونصره ونادى مناديه: «من أتى برأس فله ربع دينار»، يحرض الصبيان على جز رؤوسهم. وأمر بعَدِّ ما حصل من الرؤوس، فزادت على عشرة آلاف رأس. . . »[26].

وما إن رجع إسماعيل إلى معسكره، وقد أضفى عليه هذا الانتصار الباهر لقب «المنصور بالله»، حتى وجه إلى المهدية ثلاثة من عبيده الذين شهدوا المعركة ليحملوا إلى جوذر رسالة النصر. ومن الغد أمر قاضيه محمد بن أبي المنظور[27] بتوزيع أموال كثيرة على فقراء القيروان، وكلف جعفر الحاجب[28]

---

(26) نفس المصدر، ص 378.

(27) [محمد بن أبي المنظور، ولاه المنصور القضاء سنة 334 وتوفي على هذه الخطة سنة 331 انظر رياض النفوس، 257/2].

(28) انظر حول جعفر الحاجب المعروف باسم جعفر بن علي، الباب الأول من القسم الثاني: النظام السياسي: خطة الحجابة وتجدر الإشارة إلى تفوق رتبة جعفر على رتبة قاضي القضاة في الرتب الرسمية. ذلك أن جعفر صاحب السيرة التي تحمل اسمه وخادم المهدي الأمين كان يقوم لدى الأيمة بدور الخادم الممتاز ويحتل بلا شك رتبة سامية في سلم الوظائف الإسماعيلية. انظر ملاحظات كنار الصائبة في كتابه «الحاجب» ص 323.

بإقامة صلاة الجمعة بجامع القيروان وإلقاء الخطبة التي أعلن فيها رسمياً للشعب عن النصر المبين الذي أحرزه الخليفة، وإسقاط الجباية بالنسبة إلى سنة 335، حيث أعفى المنصور «جميع الناس مسلمهم وذميهم» من جميع الضرائب الشرعية والخاصة، وتعهدت الدولة بأن لا تأخذ منهم في السنوات الموالية إلا العشر والصدقة، وذلك وفقاً لأحكام الشرع والسنة النبوية.

وقد تركت هذه الإجراءات المعدة لتيسير انتعاش الأنشطة الزراعية والتجارية التي عطلتها الحرب، أطيب الأثر في نفوس أهل القيروان، وطمأنت الأهالي الذين جعلتهم سياسة الإفراط في الجباية مناهضين للفاطميين[29].

وبعد ذلك ببضعة أيام قدمت جيوش عظيمة من بلاد كتامة بقيادة الحسن بن علي. وكان قد انطلق من قسنطينة مع جماعة من الكتاميين الذين حرضتهم على التحرك رسالة توبيخ وجهها إليهم إسماعيل في أواخر ذي القعدة/ أوائل يوليو 946. وفي طريقه استولى الحسن بن علي على قصر الإفريقي ثم على باجة. وبعد ذلك أتى إلى تونس ومنها توجه إلى القيروان للانضمام إلى الجيش المنتصر[30].

وفي نفس الفترة قدم أسطول أموي من المرية لمد يد المساعدة إلى المتمردين واضطر إلى التوقف في ميناء بونة (عنابة). ولما علم قائد الأسطول محمد بن رماحس بهزيمة أبي يزيد، عدل عن التدخل وقفل راجعاً إلى الأندلس. وهكذا فشلت جميع المساعي التي قام بها أبو يزيد للحصول على مساعدة عسكرية من قِبَل عبد الرحمان الناصر. وكانت آخر محاولة من هذا القبيل، تلك التي قام به ابنه أيوب[31].

إلا أن هذه الهزيمة التي مُنِي بها صاحب الحمار، رغم فداحتها وإشارتها

(29) عيون الأخبار، ص 380.

(30) نفس المصدر، ص 384 - 385.

(31) نفس المصدر، ص 385 - 386. انظر أيضاً، تاريخ إسبانيا الإسلامية 104/2، حيث لم يشر ليفي بروفنسال إلا إلى السفارة التي قام بها أيوب ولم يذكر أي شيء عن محاولة تدخل الأسطول الأموي بقيادة ابن رماحس، تلك المحاولة التي لم يشر إليها إلا المصدر الإسماعيلي المذكور.

إلى قرب نهايته، لم تكن كافية لوضع حد لمغامرته العجيبة. وكان من حق الخليفة الفاطمي بلا شك، بعد أن كسب معركة القيروان، أن يبتهج بتوفقه إلى تخليص مملكته من الخطر. ولكنه لم يكن يجهل أنه ما زال في حاجة إلى قتل قائد الثورة، لاستئصال جذورها وإخمادها، وبالتالي القضاء على الخطر الخارجي الذي لولا ذلك لاستمر في تهديد عرشه. فتعين عليه حينئذٍ أن يلاحق بنفسه المتمرد عبر المناطق الجبلية في أوراس أو الزاب، وأن يطىء هو ذاته أراضي مراكز حركة الخوارج، تلك الأراضي التي لم تنتهك منذ مدة طويلة، وأن يخضع بحد السيف أتباع المتمرد من بني كملان وهوارة وغيرهم من البربر الزناتيين. ولكي ينهي المنصور بنجاح هذه المهمة الشاقة، والتغلب على خصمه الخطر، سوف يقضي ما لا يقل عن سنة في حرب ضارية، بلا كلل ولا ملل.

انتهاء ثورة الخوارج:

لقد تم تنظيم الحملة على الخوراج بكل عناية، وسهر المنصور بدقة على اتخاذ الاستعدادات اللازمة للخروج في طلب العدو، وتجهيز الجيوش العظيمة تجهيزاً كافياً بالعدة والسلاح. وبعدما استعادت الدولة قوتها، «وصل رسول ملك الروم مستخبراً عن أمر المملكة، حيث بلغه أنها قد ذهبت، واستولت البربر عليها وتغلبت»[32]. على أن الخليفة الفاطمي الثالث قد أراد، قبل التوجه نحو الغرب بعد شهرين من توقف الحرب، تخليد ذكرى انتصاره الباهر. فأذن ببناء مدينة في موقع معسكره المحاط بخندق، وسماها المنصورية، «وأمر بإحكام سورها ورفع بنيانها، واستخلف على المنصورية والقيروان غلامه قدام الصقلبي، وأمر أن يأخذ في عمارة المنصورية وأن لايني»[33].

---

(32) **عيون الأخبار**، ص 387. انظر أيضاً **سيرة جوذر**، ص 88، وفيها إشارة بدون تاريخ محدد إلى سفارة بيزنطية لدى المنصور وهي حسب الاحتمال نفس السفارة التي أشار إليها الداعي إدريس. والجدير بالملاحظة أن صاحب **السيرة** قد أدرج الرسالة التي تشير إلى تلك السفارة في موضع مقابل لنهاية عهد المنصور. أما كنار فقد أشار إلى السفارة المذكورة في سنة 946/335، دائرة المعارف الإسلامية 2 (الفاطميون)، ص 873.

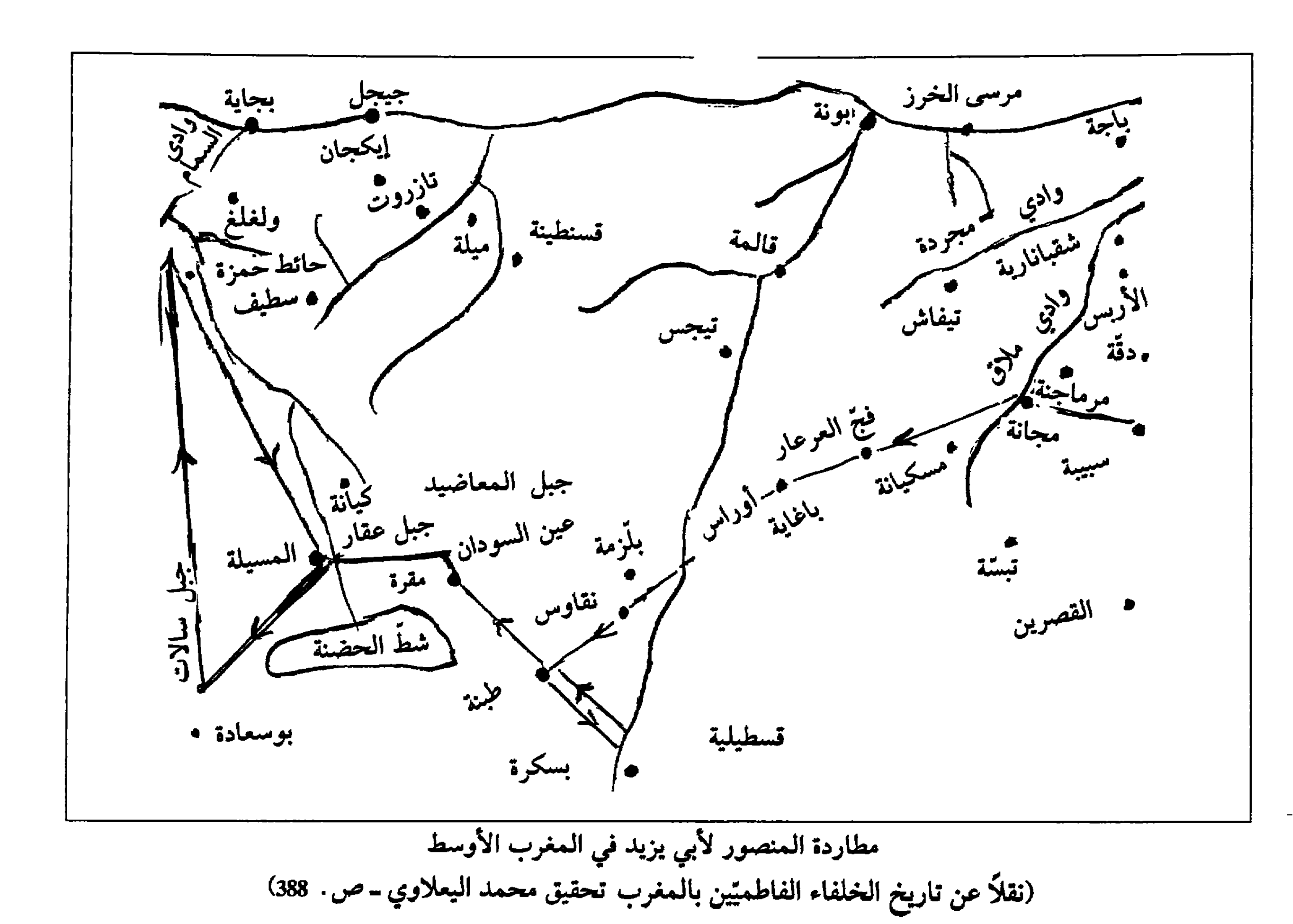
(33) **عيون الأخبار**، ص 387.

وفي 20 ربيع الأول 10/335 أكتوبر 946، خرج المنصور لاقتفاء أثر أبي يزيد. وابتداءً من هذا التاريخ يبدو أن الداعي إدريس قد اقتصر أكثر من ذي قبل على نقل ما كتبه أبو نصر في **سيرة المنصور**. ومن فضل هذا الكاتب أنه ترك لنا، من خلال روايته التي وصلتنا تقريراً شاملاً حول هذه الحملة التي أثبت أدنى وقائعها الحربية من مرحلة إلى أخرى. وإن مثل هذه الرواية لتحثنا على تقديم عرض شامل ومدقق لنهاية صاحب الحمار.

فبعدما توقف الجيش الفاطمي في سبيبة ثم في موضع يعرف ببني سعيد في حدود مرماجنة، وصل إلى مجانة في الأسبوع الأول من ربيع الثاني/ آخر أكتوبر. وهناك علم المنصور أن أبا يزيد كان يحاول بعد هزيمته تجميع أتباعه من أهل أوراس حول باغاية التي كان يعتزم الاستيلاء عليها للتحصن فيها. وكان على الخليفة أن يحبط مساعيه ويسبقه إليها. فأسرع إلى الخروج من مجانة ووصل أمام سفح جبل أوراس يوم السبت 16 ربيع الثاني/ 14 نوفمبر 946. فاستقبله أهل باغاية أحسن استقبال. «ونزل في غربي المدينة وأقام بها ثلاثة أيام. وأمر لأهل باغاية بأموال جمة، ففرقت على ضعفائهم وذوي الحاجة منهم». وأتاه مبعوثان من قبل محمد بن خزر أمير مغراوة، يعلمانه بدخول هذا البطن الزناتي العتيد في طاعته. فأجاب رئيسهما أنه سيخصه بحظوة فائقة وسيعطيه عشرين حملاً ذهباً إن هو قبض على المتمرد وسلمه إليه حياً أو ميتاً. ثم استأنف المنصور طريقه في اتجاه طبنة التي سار إليها أبو يزيد لمحاصرتها، حسب معلومات المخبرين(34).

وبعدما توقف الجيش الفاطمي في نقاوس سار في اتجاه مدينة الزاب الكبرى يوم الثلاثاء 26 ربيع الثاني/ 24 نوفمبر 946. ولكن المتمردين لاذوا مرة أخرى بالفرار، واختفوا في الصحراء من الناحية الجنوبية في اتجاه بلاد البربر الأباضيين سدراته وورجلان. وقبل أن يستأنف الخليفة مسيرته عبر الطريق

(34) نفس المصدر، ص 389 - 390.



مطاردة المنصور لأبي يزيد في المغرب الأوسط

(نقلاً عن تاريخ الخلفاء الفاطميّين بالمغرب تحقيق محمد اليعلاوي - ص. 388)

المؤدية إلى بسكرة، استقبل يوم السبت غرة جمادي الأولى/ 28 نوفمبر 946 في طبنة جماعة من وجوه كتامة، «فأمرهم بإحضار 7000 فارس و 30,000 راجل، على ما ذكره أبو نصر صاحب السيرة»، وذلك لتعزيز صفوف الجيش الفاطمي ثم توقف في مدينة قسطيلية[35] التي تقع على بعد مسافة يوم من طبنة. ووافاه بها عامل المسيلة علي بن حمدون، وكان قد خلف والده الذي لقي مصرعه ـ كما أسلفنا ـ بالقرب من باجة حيث كان يقاتل أيوب بن أبي يزيد. وأتى معه بثائر ثار في جبل أوراس وتسمى بالناصر لدين الله، ادعى النبوة واستمال العامة. . . فأمر المنصور أن يُشهَّر ويطاف به على جمل، ثم أمر بضرب عنـقه وصلبه»[36].

ولما وصل الخليفة إلى بسكرة علم أن أبا يزيد قد غير وجهته وسار في اتجاه الغرب ليتحصن عند بني برزال في جبل سالات. وقد أصبحت تفصله عنه مسافات شاسعة من الفيافي والقفار والرمال التي لم يسلكها أحد قط من العسكر. وأراد الخليفة في أوّل الأمر أن يقتفي أثر أبي يزيد، ثم قفل راجعاً إلى طبنة استجابة لنصائح أتباعه، وقتل في طريقه جماعة من البربر يقال لهم سدراتة كانوا معاضدين للخارجي. ولم يطل مقامه في طبنة هذه المرة. فقد عدل عن الذهاب إلى سالات عبر الفيافي القاحلة وجبال الزاب، وقرر التوجه إليها من شمال الحضنة سالكاً الطريق الرومانية القديمة[37]. وخرج من طبنة يوم الثلاثاء 11 جمادي الأولى / 8 ديسمبر 946، وفي مقرة وجد نفسه فجأة بالقرب من العدو. ذلك أن أبا يزيد الذي كان بلا شك على علم من تحركات الجيش الفاطمي منذ خروجه من بسكرة، قد غادر جبل سالات متجهاً إلى شمال الحضنة، حيث كان يعتزم مفاجأة خصمه والتغلب عليه. فتمركز في أعالي الجبال والأوعار الواقعة غربي المسيلة، وأخذ ينتظر العدو في موضع يقال له «عين السودان».

وأسرع المنصور إلى نصب معسكره في المنخفض الذي نزل فيه يوم الأربعاء عند طلوع الشمس، مستعداً للقتال. «فجعل في الميمنة جيملة ولهيصة

(35) نفس المصدر، ص 391.

(36) نفس المصدر، ص 392.

(37) انظر حول منطقة الحضنة، الهادي، روجي إدريس، 2/482 - 486.

من قبائل كتامة وجعفر بن علي صاحب المسيلة، وألحق بهم بشرى الخادم بعد ذلك. وجعل في الميسرة ملوسة وأجانة من قبائل كتامة أيضاً، وجعل معه في القلب خاصة الأولياء من كتامة والعبيد وعسكر البرقيين (أهل برقة). وجعل طائفة من رجال الجزيرة وجندها في ظهر الميمنة وطائفة أخرى منهم بالميسرة، وأمرهم بالقيام بمركزهم حتى يردهم أمره عليهم»(38). أما أبو يزيد فقد بادر بشن المعركة ووقف على تل مشرف على الفريقين وأخذ يتابع الحملات الفتاكة التي كان يقوم بها فرسانه من بني برزال وبني كملان على ميمنة الجيش الفاطمي. وبعد قليل شاهد المنصور تقهقر ميمنته وهزيمة عدد كبير من جنودها، فوجه إليها كتيبة من قلب الجيش لتقوية أمرها، ثم استجمع قواه وأخذ في تطبيق الخطة العسكرية التي نجح فيها من قبل، فزحف مع فرسانه على خصمه، واتضح مرة أخرى أن جرأته كانت مربحة. إذ تمكن في نهاية معركة حامية الوطيس من استدراك الوضع لصالحه، وأجبر أبا يزيد على الاعتصام بأعالي جبل عقار. وفي حين تراجع المتمردون في اتجاه سالات تحت جنح الظلام، رجع المنصور إلى معسكره على ضوء المشاعل، بعدما كبد العدو خسائر فادحة(39).

إلا أن الموقف كان حرجاً، حيث لقي عدد كبير من الجنودالكتاميين مصرعهم. وقد أشار المنصور إلى استشهاد نخبة من أولئك الجنود في الرسالة التي وجهها إلى عامله بالقيروان قدام لإحاطته علماً بذلك النصر. ولكن بعض الأراجيف قد راجت في القيروان مدعية أن جيش الخليفة قد مُنِي بهزيمة نكراء في تلك المعركة. ولم يتأخر قدام في رده عن الإشارة إلى تلك الأراجيف. فأجابه المنصور لطمأنته، مؤكداً ما تكتسيه مهمته من صبغة مقدسة، رغم الأخطار التي يعرض نفسه لها.

---

(38) عيون الأخبار، ص 393.

(39) نفس المصدر، ص 394. وانظر أيضاً، سيرة جوذر، ص 71 - 74.

وغداة المعركة رحل الخليفة إلى المسيلة، فنزل عند ابن حمدون واغتنم أمير مغراوة [محمد بن خزر] تلك الفرصة لتهنئته بالنصر والإعراب له عن ولائه. وقد وجه إليه لهذا الغرض ابنه يعقوب الذي أحسن معاملته[40].

وبعد ما قضى المنصور أسبوعين في الاستراحة، خرج من المسيلة يوم الخميس 27 جمادي الأولى/ 24 ديسمبر 946، متوجهاً إلى جبل سالات فتوقف في وادي أوبة (وادي شلال اليوم) للاستعداد للحرب، ثم دخل إلى الجبل من منحدره الشرقي، ونصب أخبيته بالقرب من عين عذبة في وسط الجبل. «فلما علم به أبو يزيد توغل هارباً على وجهه في الرمال، واتصل ذلك بالمنصور فعمل على طلبه حيث كان، وقصده حيث قصد من الأوطان»[41]. وبعد مدة قليلة بلغ الضر من الجنود الفاطميين مبلغاً عظيماً في تلك القفار المهجورة ونفد زادهم من الماء والطعام، وأفضى انعدام العلف إلى هلاك الخيل والجمال. وبقي عدد كبير من الجنود في الطريق وسط الرمال، وقد صرعهم الجوع والعطش، واختفى المتمردون مرة أخرى في تلك الربوع التي لم يسلكها جيش قط فاستجاب المنصور في آخر الأمر لنصائح أدلائه، «وقصد أقرب المواضع التي فيها العمارة، وهي بلد صنهاجة»[42]. وقد قاسى الجيش الفاطمي هناك من شدّة البرد[43]، فكان يسير تحت الثلوج ويقتحم المسالك الوعرة إلى أن وصل إلى بلدة حائط حمزة الواقعة في حدود هضاب صنهاجة جنوبي تيتري، وتوقف المنصور ستة أيام في قرية ربما تقع في الموضع الذي يقال له اليوم عين حجل. وفي تلك القرية وفد عليه الفرسان الصنهاجيون بقيادة رئيسهم زيري بن مناد، فقدموا إليه شواهد الطاعة وأعربوا له عن ولائهم للدولة الفاطمية. فأجزل لهم الخليفة العطايا ثم سار في اتجاه الشمال، «ونزل

---

(40) عيون الأخبار، ص 396 وابن حماد، ص 28 - 47.

(41) عيون الأخبار، ص 403.

(42) نفس المصدر، ص 404.

(43) [يصادف شهر جمادى الأولى سنة 335 فصل الشتاء/ ديسمبر 946 ويناير 947]

موضعاً من بلاد صنهاجة يقال له ولغلغ[44] على وادٍ فيه ماء جارٍ» (ربما في موقع قرية سيدي عيسى الحالية)، لتزويد رجاله بالطعام. وهناك أصيب بمرض، لما عاناه من رداءة الأحوال الجوية وأتعاب تلك الحملة الشاقة. «وأقام ثلاثة عشر يوماً مغمى عليه في أشد الألم، حتى أتاه طبيب ففصد له، فوجد في جسده الخفة وأحس العافية»[45].

وفي الأثناء نشب نزاع مسلح بين أبي يزيد ومحمد بن خزر[46] الذي كان قد دخل في طاعة المنصور ووجه إليه رسالة يعلمه بها بالمكان الذي التجأ إليه صاحب الحمار. فقد نهب جماعة من بني كملان سوقاً تابعة للمغراويين يقال لها «تمزرت»[47]. وجرت معارك بين الفريقين انتصر فيها أبو يزيد في أول الأمر، ثم دارت عليه الدائرة، فأجبر على العودة إلى بني برزال في جبل سالات[48].

وقد أثر انضمام مغراوة إلى الخليفة الفاطمي، والتفاف صنهاجة حوله، تأثيراً بالغاً في سير الأحداث على حساب أبي يزيد الذي أصبح مضطراً إلى الاختباء في جبل سالات أو التوغل في الصحراء والالتجاء إلى سدراتة وغيرها من القبائل الإباضية المقيمة في ورجلان، ولكن القائد المتمرد لم يكن مستعداً أبداً للاعتراف بهزيمته. فلما علم بمرض خصمه في بلاد صنهاجة استعاد عزيمته وحزمه، «وأظهر أن المنصور قد صار بتاهرت وأنه يريد سجلماسة... وأن

---

(44) [هكذا في عيون الأخبار، ص 405، وعند ابن حماد، ص 29، وادي لعلع].

(45) عيون الأخبار، ص 405.

(46) يرجع سبب مناهضة أمير مغراوة لأبي يزيد الزعيم اليفرني إلى المعارضة القديمة بين شقين متنافسيْن في صلب المجموعة الزناتية. ولا شك أن أمير مغراوة التي تمثل الكتلة الماسكة بزمام السلطة أو الرئاسة أو السيادة داخل قبيلة زناتة، قد استاء من الزعامة التي تقلدها أبو يزيد، ومن المجد الذي انعكس على الفرع اليفرني المنافس.

(47) [في عيون الأخبار، ص 406 «تامرست»، انظر تعليق اليعلاوي على هذه التسمية، نفس المصدر، هامش 109].

(48) نفس المصدر، ص 406. انظر أيضاً، البربر، 236/3 وفيه إشارة موجزة إلى النزاع بين أبي يزيد وابن خزر.

إفريقية قد خلت وأن الفرصة فيها قد أمكنت». فاستأنف دعايته وتمادى فيها حتى انضم إليه أتباعه من بني كملان وبني برزال وهوارة الحضنة (هوارة الغدير). ونصب أخبيته في جبل أكة (من جبال الحضنة) بالقرب من المسيلة واستعد لحصارها، ولم يكن يتصور قط أنه، باتجاهه نحو الشمال الشرقي استجابة لنصائح أتباعه من بني كملان سيسعى إلى حتفه بظلفه[49]. فما إن علم الخليفة الذي شُفي من مرضه منذ عهد قريب بظهور صاحب الحمار من جديد أمام المسيلة، حتى زحف عليه. فارتحل من ولغلغ يوم الأربعاء 2 رجب 27/335 يناير 947 وانتهى إلى المسيلة يوم السبت الموالي، وقد أسرع المتمردون الذين فوجئوا بقدومه المباغت إلى التراجع نحو الشمال والانحصار في جبل عقار (جبال المعاضيد)[50]. وقد شعر المنصور بلا شك أن خصمه أصبح في متناوله، ولكن لا بدّ للقبض عليه من الاستيلاء على جبال وعرة محفوفة بحصون طبيعية منيعة. ولم تعد هناك حاجة إلى الإسراع باقتفاء أثر خصم ما فتىء يركن إلى الهروب والفرار. فينبغي حينئذٍ انتظار نهاية فصل الشتاء واغتنام حلول الربيع لشن الهجوم انطلاقاً من المسيلة.

وبناءً على ذلك فقد قضى الجيش الفاطمي نهاية فصل الشتاء من يوم السبت 5 رجب/ 30 يناير إلى يوم السبت 10 شعبان/ 6 مارس، دون القيام بأي تحرك. في حين كان المتمردون «ينزلون من تلك الجبال إلى أدنة، وهي مدينة أولية (عتيقة) قد خربت، وبينها وبين المسيلة إثنا عشر ميلاً، فيتكمنون بها وينتهبون من العساكر المنصورة رعاتها ومن يخرج لحطبها»[51]، وهناك ستجري المعركة الأولى. فقد خرج المنصور على رأس جيش يضم 4000 فارس وخرج معه 500 صنهاجي بقيادة رئيسهم زيري بن مناد ذاته. ووثب المنصور

(49) عيون الأخبار، ص 406.

(50) نفس المصدر، ص 407.

(51) نفس المصدر، ص 407. [وبخصوص أدنة، يؤكد البكري، ص 144 أنها تقع على بعد مرحلتين من طبنة. أما ابن حماد، ص 31، فيسميها أذنة ويشير إلى أنها تبعد عن المسيلة باثني عشر ميلاً].

على أبي يزيد الذي كان يحاول نصب كمين. وبعد قليل احتدم القتال ولم يتمكن لا هذا ولا ذاك من تهيئة رجاله للقتال. فمُنِي المتمردون بهزيمة نكراء، وأوشك صاحب الحمار أن يسقط في المعركة. «وفر معتصماً بالوعر ومعه أحد عشر فارساً، فأدركه خمسة فرسان من الأولياء، فيهم زيري بن مناد الصنهاجي. فعقر الصنهاجي جواد أبي يزيد، وأركبه أصحابه على برذون آخر، وقُتِل ابن له اسمه يونس، وطُعِن طعنتين، إحداهما بين كتفيه والأخرى في وركه، ومال في سرجه فاحتضنه رجاله ونجاه الوعر وخلصه أهل البلد.. وجُز في ذلك اليوم ألف وسبعون رأساً وُجِّه بها إلى المهدية»[52].

وأشاد بهذا الانتصار جعفر بن حوشب الذي كان قد هاجر من اليمن وحضر هذه المعركة. فنظم على شرف المنصور قصيدته البائية الشهيرة التي قال في مطلعها [بسيط]:

يهنأْ لك النصر فيما رُمْتَ من سبب	يا سيد الخلق من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
في كل يوم يرينا الله معجزة	من نصره لك، تجلو غمة الكرب
وأنت في كل حال تبتني رُتَباً	في المجد فَازْدَدْ عُلاً في المجد والرّتب[53]

وقد حثت هذه الهزيمة أبا يزيد على الاعتصام أكثر فأكثر بحصون جبل عقار الطبيعية. وأوقف المنصور القتال أسبوعين ثم استأنف الهجوم. «فسار من المسيلة يوم الجمعة غرة شهر رمضان (26 مارس 947) بينه وبين محط أبي يزيد مسافة ستة أميال. وأصبح من غد، يوم السبت، فركب في زي الحرب وسارت القبائل حوله طوائف طوائف وقبائل قبائل، وترك المضارب في مواضعها وقصد أبا يزيد، فسلك سبلا صعبة وطرقاً متضايقة بين جبال عالية في مواضع وعرة لا يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولا تسلكها الخيل. فنزل عن دابته في بعض تلك الأوعار وسار راجلاً في أكثرها حتى أشرف على أخبية أبي يزيد ومضاربه.

---

(52) عيون الأخبار، ص 409.

(53) انظر نص القصيدة في نفس المصدر، ص 409 - 410 - 411.

ورتب الناس للقتال في ذلك الوعر بما وجد السبيل إليه. . . »[54].

ودارت رحى المعركة في أول الأمر لصالح المنصور، واضطر العدو إلى ترك مضاربه والالتجاء إلى قمم الجبال حول قلعتي شاكر وكيانة، واشتغل الجنود الفاطميون بالنهب، فانزعج المنصور من سلوكهم وأمر بإحراق أخبية العدو المهجورة. ولكن المتمردين قد تمكنوا من استرجاع قواهم وإعادة الكرة، مستفيدين من تمركزهم في أعالي الجبال الشاهقة. فتفوقوا على خصومهم قبل غروب الشمس وأجبروهم على الانسحاب إلى قواعدهم تحت وابل من الحجارة[55]. وشهد المنصور حينئذٍ فشل محاولته الأولى الموجهة ضد مواقع العدو المعلقة في ذلك الجبل المنيع، واضطر إلى إيقاف جميع العمليات الحربية طوال شهر رمضان، دون أن يتخلّى عن تصميمه على التخلص من خصمه الرهيب. وفي انتظار القبض عليه «أمر بعمل قفص من خشب محمول على بكرتين وقال: سوف أُدخِل مخلداً المارق في هذا القفص وأجعل معه قردَيْن (ذكر وأنثى)»[56].

ومع ذلك فقد قام في تلك الفترة زيري بن مناد وقيصر الخادم بغارة ناجحة على هوارة غدير وان [أو وارو][57]، (شمالي منطقة الشطوط في موقع بلدة برج غدير الحالية التي تقع على بعد حولي 15 كم من أطلال قلعة بني حماد). وسُلِّطت عقوبات قاسية على تلك القبيلة التي آوت أبا عمار الأعمى.

وقبل الزحف على كيانة وفد على المنصور جفنة الخادم بحشد كتامة يوم الخميس 7 رمضان (غرة أبريل 947). وبعد ذلك ببضعة أيام أمر الخليفة ببناء مصلى بقلعة الحجارة ليقيم فيه صلاة عيد الفطر. ثم سار على رأس عشرة آلاف

(54) نفس المصدر، ص 412.

(55) نفس المصدر، ص 414.

(56) نفس المصدر ص 416.

(57) نفس المصدر، ص 416. ونجد نفس الإشارة إلى حملة زيري وقيصر علي هوارة غدير وان عند ابن حماد، ص 52/32. وهناك تطابق بين رواية ابن حماد والرواية التي نقلها الداعي. إدريس حول وقعة كيانة.

فارس حتى وقف أمام قلعة كيانة ليشاهد الطرق المؤدية إليها ويدرس الموقع الذي ستجري فيه المعركة الحاسمة. وأخيراً صلى بالناس صلاة العيد وأشار في خطبته الثانية إلى تولّيه الخلافة والإمامة بعد وفاة أبيه. وكان قد أعلن قبل ذلك بقليل عن وفاة القائم بأمر الله في رسالة وجهها إلى جوذر بالمهدية(58). ومن الغد ثاني شوال سنة 26/335 أبريل 947 ارتحل مع كافة رجاله ونزل في سفح قلعة كيانة. وبذلك تبلغ عملية مطاردة أبي يزيدمرحلتها النهائية.

واكتفى الخليفة في أول الأمر بنشر رجاله بمرأى من المتمردين لتخويفهم، وظل مدة ثلاث ليالٍ متتالية على أهبة الحرب للتصدي لأي هجوم مباغت. وبعدما قطع جميع الطرق المفضية إلى القلعة، أمر بحفر خندق على معسكره «وقطع الأشجار التي بسفح الجبل من الزيتون والثمار». وتمثلت ردود فعل المتمردين في بعض الغارات القصيرة المدى والمناوشات التي دامت أسبوعين. وفي يوم الثلاثاء 17 شوال/ 11 مايو شن المنصور هجوماً قوياً على القلعة من الجانب الجنوبي. وفي حين قامت كتيبة من الجيش بعملية تضليلية بقيادة الخادمين قيصر وشفيع وزعيم صنهاجة زيري بن مناد، توالت الحملات الضارية أحياناً أثناء الليل، لا سيما يوم الجمعة 20 ويوم السبت 21 شوال/ 14 و15 مايو، ودامت حتى يوم الخميس الحادي عشر من ذي القعدة/ 3 يونيو. ففي ذلك اليوم قامت فرقة فاطمية بقيادة الخادمين الصقلبيين طارق ووصيف بحملة أخرى ناجحة على قلعة شاكر المجاورة. فاستسلم سكانها، وأغلبهم من هوارة، بعد أن أخذوا الأمان(59).

وقد اصطدم المتمـردون باستسلام هذه القلعة، فقاموا برد الفعل في نفس اليوم بعد المغرب، وشنوا هجوماً عنيفاً على خندق المنصور، «وافترقوا على ثلاث فرق، وكان في الميمنة فضل ابن أبي يزيد، فقصد ناحية ملوسة

(58) انظر نص الخطبتين في، عيون الأخبار من ص 417 إلى ص 421. وانظر رسالة المنصور إلى جوذر في السيرة، ص 66.

(59) عيون الأخبار، ص 425.

وصنهاجة، فوجد فيهم غرة فكبسهم. . . وكان أبو سليمان الزويلي في الميسرة، فقصد جيملة ولهيصة، فوجدهم حذرين وقاموا في وجهه فهزموه. وقصد أبو يزيد إلى باب الخندق وفيه الأولياء والعبيد، فثاروا في وجوههم وقتلوا جماعة منهم»(60). ولما باءت محاولة رجال أبي يزيد بالفشل تخلوا عن القتال وقفلوا راجعين إلى قلعتهم.

وبادر المنصور إلى شن المعركة يوم الثلاثاء الموالي الموافق للسادس عشر من ذي القعدة/ 8 يونيو، بعدما استسلم أهل قلعة أخرى من جبل عقار، وهم مسراته، على يد وصيف الخادم. ثم تعددت الحملات بقية هذا الشهر وطوال شهر ذي الحجة دول أن تسفر عن نتيجة حاسمة. إلا أن المنصور قد شدد الخناق على أبي يزيد ورجاله الذين استولى عليهم الملل. وفي الأثناء «أصدر صاحب الحمار ابنه فضلاً إلى معبد بن محمد بن خزر، وكاتبه في نصرته، ولاطفه في معاضدته، وأن يفك خنادقه. فأجابه معبد بحشد الحشود وجمع الجنود. وأنكر عليه ذلك أبوه محمد بن خزر وكذلك أخوه الخير، فأبى قولهما وخرج لنصر مخلد بن كيداد. . وزحف معبد مع فضل إلى يشكر (الخادم) والي طبنة، في أيام حصار أبي يزيد وإحاطة المنصور على قلعة كيانة، بالخيل والرجال. فرجع فضل ومعبد بالهزيمة والخسار، وغلبهما من هنالك من جنود الإمام وروابطه الذين أيدهم الله بالانتصار»(61).

ومنذ أوائل شهر محرم اشتدت الحرارة أكثر فأكثر، فقرر المنصور أن يلعب ورقته الأخيرة وشن يوم الخميس 21 محرم 12/336 أغسطس 947 هجوماً عاماً على الواجهتين، بالاتفاق مع قيصر وزيري. فاحتدم القتال وتكبد الطرفان خسائر فادحة، واستمرت المعارك الضارية كامل يوم الجمعة. وطلع حوالي ثلاثمائة رجل من العبيد والزويليين من أصحاب حسن بن رشيق إلى القلعة فهدموا ما فيها من بيوت ثم نزلوا. واستؤنفت المعركة يوم السبت بنفس

---

(60) نفس المصدر ص 426.

(61) نفس المصدر، ص 432.

الضرواة، وتعرض المغيرون لوابل من الحجارة وأرهقتهم الحرارة ووهنت عزيمتهم وكادوا يتخلون عن القتال لولا صلابة قائدهم. فقد طغت الأحداث على المنصور وبقي وحيداً في تلك الوعور ومعرضاً لضربات المتمردين، «وثار عجاج مظلم ولم يظن أصحابه إلا أنه قد قُتِل». ولكنه تمالك نفسه وأعاد رجاله إلى ساحة الوغى لاقتحام القلعة والاستيلاء عليها جزءاً جزءاً. وأخيراً استطاعوا فتح تلك القعلة الواقعة في أعلى جبل كيانة وأرغموا أبا يزيد ورجاله على التحصن في قصر منيع من القصور الأثرية القديمة. «وأحاطت العساكر بالقصر رَمْياً بالحجارة إلى أعلاه ورشقاً بالسهام وطعناً بالرماح». وحين أظلم الليل أمر المنصور بإشعال النار من حول القصر والإحاطة به كي لا يخرج منه أي أحد في جنح الظلام. وقد استمات المتمردون في المقاومة ولم يستجيبوا لعروض الأمان، رافضين الاستسلام وتسليم زعيمهم إلى خصومه. فلما كان آخر الليل حملوا حملة واحدة من ذلك القصر، وقد حملوا أبا يزيد وصاحبه أبا عمار الأعمى بين أيديهم. فاختلط الناس وقُتِل في تلك الحملة أبو عمار الأعمى ويدرس المزاتي وجماعة من وجوه القوم، في حين تمكن أبو يزيد من الإفلات مع الهاربين عبر الأوعار والوهاد. وقد عُثِر عليه عند طلوع الشمس ملقى في وهدة ومُصَاباً بجراح مخطرة. فجيء به وهو في حالة يرثى لها إلى المنصور الذي أمر بوضعه تحت حراسة مشددة ومعالجة جروحه. ذلك أن الخليفة كان ينوي الإحسان إليه والاقتصار على سجنه في دار واسعة، حسبما أخبره بذلك لما استفسره عن الغاية من تمرده. وقد كان المنصور يريد إشعاره بفداحة خطيئته وما يكنّه له من احتقار عظيم. والواقع أن المنصور كان يعتزم إنقاذ حياة خصمه والاحتفاظ به كرمز لانتصاره الباهر ثم تقديمه إلى الشعب وهو على قيد الحياة عند رجوع الخليفة إلى إفريقية مظفراً. إلا أن الأسير قد توفي ليلة الخميس 28 محرم / 19 أغسطس 947، متأثراً بجراحه، ولكن ذلك لا يهم! فسيحتفظ المنصور بصورته كأنه حي يرزق. «وقد أمر به فسلخ جلده وحشي بالتبن بعد أن أخرجت أحشاؤه وملح وعولج حتى ظهرت صورته كأنها ناطقة. وجُعِل في صندوقين طويلين. وأمر المنصور بحمل الصندوقين. فكان إذا ورد مدينة أمر

بإخراج ذلك الجلد ويحمل على جمل ويلبس شيئاً على رأسه، ورجل يمسكه من خلفه وينادي عليه وعلى كتفه وصلبه قردان يصفعانه ويلعبان عليه»[62].

وغداة المعركة النهائية وجه المنصور يوم الأحد 24 محرم/ 15 أغسطس رسالة إلى قدام الصقلبي عامله على القيروان، يعلمه فيها بخبر الانتصار ثم اختار نفس اليوم الذي توفي فيه أبو يزيد ليعلن عند صلاة الظهر عن تولّيه الخلافة رسمياً وتلقبه بأمير المؤمنين. وأمر كاتبه جوذر الصقلبي بتوجيه وثائق رسمية بهذا المعنى إلى كافة عمال أقاليم المملكة، ولا سيما «عامل إفريقية» جوذر الذي أمره بإثبات ذلك في الطراز، كما ضرب «الدنانير المنصورية» باسمه[63].

وبعدما استراح الخليفة بضعة أيام في نفس الأماكن التي أحرز فيها هذا النصر قفل راجعاً إلى المسيلة يوم السبت 2 صفر/ 23 أغسطس[64]. وفي طريقه تمكن قيصر وشفيع وبشرى بسهولة، بمساعدة زيري ومن معه من الصنهاجيين من تفريق جماعات كثيرة من البربر الذين انضموا إلى فضل بن يزيد وأخذوا يناوشون ساقة الجيش. وأقام المنصور سبعة عشر يوماً في المسيلة لإعداد رجوعه المظفر إلى إفريقية. وفي هذه المدينة «وافاه بنو كملان يتضرعون ويسألون العفو والأمان، فأمنهم وعفا عنهم ووسعهم بعظيم حلمه»[65].

---

(62) نفس المصدر، ص 451 - 452. انظر أيضاً ابن حماد، ص 34 -35، والبربر، 211/3، وسيرة جوذر، ص 68 - 74.

(63) انظر في عيون الأخبار، ص 438 - 433 رسالة النصر التي تتضمن رواية المعركة الأخيرة. وفي نفس المصدر، ص 460، يعلن المنصور رسمياً عن توليه الخلافة. وفي نفس المصدر ص 461 إشارة إلى إثبات اللقب الخليفي في الطرز. انظر أيضاً حول المعلومة الأخيرة والوثائق الرسمية التي تشيد بالانتصار، سيرة جوذر، ص 74 - 75 - 88.

(64) عيون الأخبار، ص 467.

(65) نفس المصدر، ص 462.

الخاتمـــة:

وها قد حان الوقت لختم هذه الرواية المطولة لمغامرة أبي يزيد ببعض الكلمات المختصرة.

فمما لا شك فيه أن أسطورة أهل الجبال البربر ومآثرهم الملحمية قد ساعدت على رسم ملامح هذا الشخص العجيب. فهو رجل أسطوري وملحمي، يشبه الرجال الذين ظهروا عبر التاريخ في جبال بلاد البربر. وهو أيضاً الرجل الذائع الصيت الذي أوشك ـ كما أسلفنا ـ أن يطيح بدولة قائمة الذات ويقيم مكانها دولة أخرى، مثلما تنبعث الدول وتنقرض في تلك الربوع.

وينبغي أن نلاحظ بادىء ذي بدء ـ دون الحاجة إلى تأكيد ذلك أكثر من اللزوم ـ أن أسباب اندلاع تلك الثورة ترجع إلى انفجار قوى العصبية الزناتية الوراثية التي ينتمي إليها ذلك القائد اليفرني، والمناوئة دوماً وأبداً لعصبية الكتلة الكتامية التي تمثل الدعامة الأساسية للدولة الفاطمية. ولا ينبغي انتقاص العامل الديني كما عمدت إلى ذلك بعض الدراسات الحديثة(66). ذلك أن الأمر يتعلق بصحوة المذهب الخارجي واستفاقة تلك البدعة المتأصلة في قبائل البربر بقسطيلية وسماتة والزاب وأوراس. أي في تلك الربوع التي وجدت فيها دعوة مؤدب الصبيان ومرشده الروحي أبي عمار آذاناً صاغية، وقد ظهرت تلك الاستفاقة الأخيرة على كل حال على نطاق واسع، وكانت ترمي، لا إلى مقاومة عامل أو التصدي لجيوش غازية، بل إلى تقويض نظام «كفار» وتعويضه بنظام آخر مطابق لتعاليم المذهب «العادل»، ألم يسدد إخفاق الثورة الضربة القاضية إلى المذهب الخارجي الذي لن تقوم له قائمة حتى بعد رحيل الفاطميين؟ ومما يؤكد أن أبا يزيد هو الذي نشر الدعوة الخارجية في صفوف البربر من أهل هوارة وبني كملان وبني برزال وغيرهم من المزاتيين، ما صرح به هو ذاته بين يدي

(66) انظر بالخصوص، لوترنو، ثورة أبي يزيد، ص 124. وفي «بلاد البربر الإسلامية» ص 150-151. يؤكد جورج مارسي على الأسباب السياسية والاجتماعية للثورة: «كان الدين أو الدفاع عن البلاد تعلة لتلك الانتفاضات».

المنصور إثر إلقاء القبض عليه، فحسب نص المحادثة التي نقلها الداعي إدريس ـ ولا داعي لإنكار صحته مسبقاً ـ أفصح أبو يزيد بصراحة عن مقاصده، لما أجاب المنصور الذي لامه على شتم علي بن أبي طالب، قائلاً: «معاذ الله! وكيف أشتم علياً، ونحن حزبه الذي نصرناه على أهل الشام؟»(67).

على أن القائد المتمرد لم يخف أبداً أنه ثار على نظام جائر، بوصفه مصلحاً تحدوه حمية عقيدته الصافية والصحيحة. إذ اعترف بأنه «إنما قام للإسلام محتسباً». فرد عليه الخليفة بقوله: «فهل غيّر الإسلام، ونقض شريعة محمد ﷺ، وبدّل وأهلك أمته غيرك؟»(68).

فالأمر يتعلق حينئذٍ باختلاف مذهبي وحركة إصلاحية دينية. وهذه الحركة تنطوي دوماً وأبداً لدى الثائرين الإصلاحيين على غرض سياسي واضح، ألا وهو الاستحواذ على السلطة. ولئن لم ينضَوِ تحت لواء أبي يزيد عدد كبير من الأتباع إلا بوازع النهب والسلب، فإن زعيم الثورة وأبناءه وشيخه أبا عمار الأعمى وأعضاده يدرس المزاتي وأبا سليمان والقائد الزويلي أيوب وغيرهم من المحرضين على الثورة من بني كملان لم يكونوا يطمعون فقط في خيرات إفريقية، بل كانوا يطمحون أكثر إلى عرش المهدية وتولى الوظائف السامية الموكولة إلى رؤساء كتامة. ألم يضرب أبو يزيد النقود عند استيلائه على القيروان بوصفه صاحب مملكة؟(69). ولكنه ـ والحق يقال ـ أعلم خليفة قرطبة في الوقت ذاته أنه قد دخل في طاعته واعترف بإمامته(70). ولكن ذلك لم يكن يمثل سوى مناورة ماهرة للحصول في آنٍ واحد على محالفة العاهل الأندلسي ومساندة المذهب السني المتفوق. على أن أبا يزيد قد عرف ـ كما أسلفنا ـ كيف يظهر مهارته السياسية وكفاءته بوصفه قائداً عسكرياً ومدبراً داهية ورجلاً مؤهلاً

---

(67) عيون الأخبار، ص 445.

(68) نفس المصدر، ص 447.

(69) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، 440/1 - 441.

(70) إسبانيا الإسلامية، ص 104، هامش 1.

لقيادة قومه والسير بهم إلى إنجاز مشاريعه الطموحة. وقد أعرب المنصور عن ذلك بصورة غير مباشرة حين خاطبه قائلاً: «وأيضاً تصف نفسك بالعقل والدهاء، وترى نفسك لتدبير الحروب وقود الجيوش وسياسة الأمور»[71].

وبالفعل فقد كان أبو يزيد يرى نفسه أهلاً للاضطلاع برسالة «الاحتساب» السياسية والدينية. ألم يبدأ ثورته في قسطيلية بتقويم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وقد أكد ذلك أمام المنصور لتبرير ثورته على نظام الخليفة الفاطمي السابق القائم بأمر الله: «هذه القبالات التي فيها الجور على المسلمين، فقمت منكراً لذلك، أريد إصلاح أمور الناس»[72].

وعلى غرار كثير من الدعاة الذين يقومون في بلاد الإسلام لتقويم عيوب الناس، ثم لم يلبثوا أن يشنوا ثورة شاملة، انطلق مؤدب قسطيلية النكاري العجوز، المرتدي لباس الصوف والممتطي صهوة حماره الأشهب، شاهراً الحرب على السلطة الجائرة. ولئن كان أبو يزيد أقل حظوة من فقيه تنملال [ابن تومرت] الذي سيظهر في منطقة السوس في الطرف الآخر من الغرب الإسلامي بعد ذلك بقرن ونصف القرن، إلا أنه قد ترك في تاريخ المغرب ذكرى مغامرة عجيبة.

(71) عيون الأخبار، ص 449.

(72) نفس المصدر، ص 447.

الفصـل الثالـث

إخماد الثورة وتهدئة البلاد

1 ـ الحملة على تاهرت[1]:

بينما كان المنصور في المسيلة يتأهب للرجوع إلى القيروان، إذ بلغه كتاب من تاهرت يتضمن أخباراً مزعجة حول الاضطرابات التي اندلعت حول تلك المدينة. فقرر اغتنام فرصة وجوده بالقرب منها والذهاب في الحين لإعادة النظام إلى نصابه في ذلك الإقليم البعيد عن المركز. ومن الجدير بالتذكير أن المهدي قد أوكل في آخر عهده إلى القائد المكناسي حميد بن يصل بولاية المغرب الأوسط بما في ذلك تاهرت. وكان حميد قد خلف عمه مصالة بن حبوس ليتولى في المغرب الأقصى محاربة موسى بن أبي العافية، الذي انضم إلى الأمويين بالأندلس. فتمكن من الاستيلاء على فاس وإرغام خصمه على الالتجاء إلى بلاد تسول، ثم قفل راجعاً في وقت غير مناسب، مفوّتاً الفرصة لإعادة الوضع إلى نصابه في تلك الربوع لفائدة الفاطميين. فاستدعاه المهدي إلى المهدية وسجنه سنة 933/321 لتقصيره في تتبع أعداء الفاطميين. ففر من السجن في عهد القائم بأمر الله سنة 939/328 والتجأ إلى الأندلس[2]. وبينما كان أبو يزيد يزعزع أركان الدولة الفاطمية، عاد حميد بن يصل إلى ممتلكاته السابقة، محاولاً استرجاع تاهرت لحساب الخليفة الأندلسي الناصر لدين الله. فكان من واجب المنصور حينئذٍ أن يعمل على قمع القائد المارق، ويحبط في

(1) البربر، 231/3 - 232و 539/2 ـ انظر أيضاً، إسبانيا الإسلامية، 102/2.
(2) [المجالس والمسايرات، منشورات الجامعة التونسية، ص 252، هامش 4].

نفس الوقت مطامع خصمه الأندلسي الذي أتاحت له ثورة الخوارج الفرصة مدة طويلة من الزمن لبسط هيمنته على المغربَيْن الأقصى والأوسط دون أي إزعاج.

فخرج المنصور من المسيلة ليلة الثلاثاء 17 صفر 6/336 سبتمبر 947، «ووصل إلى تاهرت يوم الاثنين غرة شهر ربيع الأول (20 سبتمبر) بعد العصر»[3]. ولما علم القائد المكناسي بتحرك الخليفة في اتجاه الغرب، أسرع إلى فك الحصار على المدينة، ثم ركب البحر قاصداً الأندلس، وبناءً على ذلك لم يتدخل المنصور عسكرياً.

«واتصل بأهل تنس وصول الخليفة إلى تاهرت، فأقبلوا إليه مسرعين، وعرفوه أنهم على طاعته. فأحسن إليهم وبرهم وكتب لهم سجلاً شريفاً قررهم فيه وأمنهم»[4].

ولئن لم يفكر صاحب إفريقية بعد وصوله إلى تاهرت في دفع جيوشه إلى أبعد من ذلك في اتجاه الغرب، فهذا أمر ليس بالغريب. ولا شك أنه لم تكن تنقصه الرغبة في التوجه إلى المغرب الأقصى لإظهار القوة التي استرجعها الفاطميون، وإرغام خصمه الأموي على أن يقرأ له حساباً من جديد. إلا أنه لم يتمكن من تخليص مملكته من الكارثة إلا منذ عهد قريب. أضف إلى ذلك أنه أصيب في الأثناء بمرض عضال، هو بلا شك نفس المرض الذي شل حركته قبل ذلك بقليل في بلاد صنهاجة. فاضطر من جديد إلى المكوث في تاهرت وملازمة الفراش مدة عشرين يوماً. ولما شُفِي من مرضه اكتفى بالتوجه نحو الجنوب يوم الأحد 8 ربيع الثاني/ 27 أكتوبر 947 لقمع لواتة الذين خرجوا عن طاعته. «فوجدهم قد هربوا بين يديه إلى الرمال والبراري المتصلة بأرض السودان»[5].

وأقام الجيش الفاطمي زهاء الإثني عشر يوماً في بلاد لواتة «وقد وجد المنصور بها آثاراً عجيبة للروم، وبقية قصور مبنية بحجارة عظيمة على ثلاثة

---

(3) عيون الأخبار، ص 463.

(4) نفس المصدر، ص 464

(5) نفس المصدر، ص 466.

أجبال وفيها حجر قد كُتِب بالرومية فأمر من قرأ ذلك الزبر فإذا تفسيره: أنـا سليمان السردغوس. هذا بلد يعرف بموريطانيا. خالف أهل البلد على الملك جستنيانوس وعلى والدته توذرة. فأخرجني إليهم، فبنيت هذا البناء لأُذكر به وفتح الله لي»[6].

وقفل المنصور راجعاً إلى إفريقية يوم السبت 18 ربيع الثاني 6/336 نوفمبر 947. فوصل إلى بلاد كتامة بعدما قضى أسبوعين في الطريق وتوقف يوماً واحداً في المسيلة. وبالعكس من ذلك أقام شهراً كاملاً في سطيف. وقد قدم إليه هنالك أحد أبناء أبي يزيد، يدعى أحمد، مستأمناً، فأمنه وأكرمه. وأمر الكتاميين بتعيين 14000 أسرة للإقامة في المنصورية، حرصاً منه على تعمير تلك المدينة الجديدة. وقضى أوقات فراغه في زيارة المعالم الأثرية القديمة، ولا سيما منها قلعة سطيف. ثم زار ميلـة المدينة الثانية الهامة في تلك الجهة، «وأقام بها تسعة أيام، وفيها وافته حشود كتامة وعيالهم، فأنفذهم إلى إفريقية مع عبيده وأوليائه»[7].

وارتحل المنصور من ميلة ليلة الاثنين 17 جمادي الثانية/ 3 يناير 948. فوصل إلى سبيبة حيث استقبله أهل المنصورية وأهل القيروان الذين هرعوا للقائد. «وخلع على جماعة من أوليائه خُلَعاً نفيسة ليلبسوها حين دخولهم المنصورية»[8].

---

(6) نفس المصدر. ص 466. انظر أيضاً البربر، 540/2 و 234/1، حيث ورد ذكر النقيشة اللاتينية. ويتعلق الأمر بزوجة جستنيانوس لا بأمه تيودورا. وقد دفع شولومون (سليمان) جنوده بعيداً في تخوم المغرب الأوسط جنوبي تاهرت. انظر بالخصوص حول تهدئة المغرب الأوسط من قبل شولومون، ديل، Diehl، الباب الأول، الفصل الثالث، ص 51 - 93.

[والسردغوس هو لقب عسكري بيزنطي، والكلمة مقتبسة من لفظ Strategos اليوناني. أما سليمان السردغوس، فهو شولومون Solomon الذي حكم شمال إفريقيا باسم الروم (البيزنطيين) بعد حملة القائد بيليزير Belisaire. وقد دارت المعارك المشار إليها في النص في عهد الأمبراطور جستنيانوس، (527 - 567 م). انظر، عيون الأخبار (تحقيق اليعلاوي). ص 466 هامش 217].

(7) عيون الأخبار، ص 467.

(8) نفس المصدر، ص 468.

وأخيراً وصل المنصور يوم الخميس 27 جمادي الثانية/ 13 يناير 948 إلى مدينته الجديدة «المنصورية» التي شيدها له خادمه قدام، بعدما قضى الخليفة سنة وشهرين وسبعة وعشرين يوماً في حملة عسكرية طويلة الأمد ومشهودة. فانتظمت في المنصورية بمناسبة هذه العودة الميمونة احتفالات بهيجة. وفي ثاني يوم من وصوله إلى المنصورية، استقبل المنصور أثناء موكب رسمي رعاياه الذين وفدوا عليه برئاسة القاضي ابن أبي منظور وكبار رجال الدولة، لتقديم شواهد الطاعة إليه.

«وأمر بإخراج جلد (صاحب الحمار)، فطيف به ثلاثة أيام متوالية وعليه الطرطور والقِرْدَان، وهو على جمل كالراكب، ورجل يمسكه من ورائه لكي لا يميل»[9].

2 ـ الحملة على قسطيلية وجنوب أوراس:

رغم قمع الثورة الخارجية إثر وفاة محركها الرئيسي، فإنها لم تخمد تماماً. ذلك أن فضل ابن أبي يزيد الذي كان قد حاول ـ كما أسلفنا ـ الاستيلاء على طبنة بمساعدة رجال معبد بن خزر، ثم مناوشة الجيش الفاطمي في ناحية المسيلة، تمكن من حشد عدد كبير من الأنصار في جبل أوراس واستأنف القتال عوضاً عن أبيه. وسرعان ما امتد نشاطه إلى سائر بلاد قسطيلية ثم إلى النواحي القاحلة في جنوب أوراس والزاب. واجتمع حوله خلق كثير في موضع يعرف بفج الحمار ثم في ضواحي قفصة (قصور قفصة)، وأصبح المتمردون يهددون هذه المدينة بالخطر. وهكذا اشتعلت من جديد الثورة التي تغلبت عليها الدولة الفاطمية بشق الأنفس، في المكان ذاته الذي اندلعت فيه في أول مرة. فأحس الخليفة بالحاجة الماسة إلى إخمادها بسرعة، وفرض سلطته في نفس الأماكن التي وجدت فيها انتفاضة الخوارج «محيطها الطبيعي»، إن صحّ التعبير[10].

فلم يمضِ حينئذٍ سوى أقل من شهر على عودة المنصور إلى إفريقية، حتى

---

(9) نفس المصدر، ص 469.

(10) نفس المصدر، ص 471. انظر أيضاً البربر، 541/2.

خرج إلى القتال ومعه ابنه وولي عهده معدّ الذي سيلقب فيما بعد بالمعز لدين الله. وقد ارتحل من المنصورية يوم الاثنين مستهل شعبان سنة 336/ منتصف فبراير 948، متوجهاً إلى الجنوب الشرقي من مملكته عبر قمّوده. ، وتوقف في جمونس الصابون لقمع مثيري الشغب الذين لم يلحقهم أي أذى طوال الثورة. ثم ترك طريق قفصة يساراً، واتجه نحو سبيطلة، مروراً بقرية بير حمامة[11] التي تعرضت لنفس مصير جمونس. وأخيراً، بعدما توقف في عاصمة إفريقية القديمة (سبيطلة)، «وطاف في بنيانها ومشى في آثارها»، انتهى إلى مدينة قفصة يوم السبت 19 شعبان/ 4مارس 948. إلا أن المتمردين قد تمكنوا قبل ذلك من الفرار إلى ملاجئهم الجبلية في أوراس والزاب[12].

وهكذا اتبع فضل نفس الخطة التي سارعليها أبوه من قبل، معتقداً أنه يستطيع بذلك إرباك الخليفة. ولكن المنصور لم يكن من أولئك الذين تصدهم صعوبات مثل هذه الحرب الصغيرة التي تفرض عليه مطاردة عدوٍ، تارة يتعذر إمساكه في تلك الأراضي القاحلة، وطوراً يبدو صلباً ومندفعاً. وبناءً على ذلك فقد اقتفى من جديد أثر المتمردين ولم يتردد في دفع رجاله في اتجاه جنوب غربي سبخة تكمرت الكبرى. واشتبك جيش الخليفة مع عناصر من بني يفرن وكلالة وبراوية وشداد وبني وريمت وبني واسين[13]، وهزمهم في جبل ترشوان من عمل قسطيلية وجبل أياش من عمل الزاب. وهدم الجنود الفاطميون حصن تامقرا وقصر القائد المكناسي بشر بن منصور، وعاثوا فساداً في ديار بني مناوة وبني مغراوة. وأخيراً نصب المنصور يوم الاثنين 28 شعبان/ 13 مارس 948 الحصار على حصن ماواس الرهيب الواقع في تخوم الزاب الصحراوية، وقد تجمع فيه أنصار فضل الأشاوس. وأتيحت الفرصة لولي العهد للتمرن على الحرب، «وهو يومئذٍ ابن سبع عشرة سنة لم يشهد حرباً ولا حضر قتالاً». فقد عهد إليه أبوه بقيادة جنود الاقتحام، وأبلى الأمير الشاب معد البلاء الحسن رغم

(11) [بيرحمامة: حسب قراءة الدشراوي، وفي عيون الأخبار، ص 471: برجمانة].

(12) عيون الأخبار، ص 471 - 472.

(13) [في الأصل الفرنسي «وسيم» والتصحيح من «عيون الأخبار»، ص 476.

قلة خبرته بفنون الحرب، واقتحم رجاله حصن ماواس وفتحوه عنوة. وقد سدد سقوط ذلك الحصن ضربة قاضية إلى فضل الذي لاذ بالفرار في الفيافي والقفار. واكتفى المنصور بهذا الانتصار الذي أبلغ خبره إلى عامله على المنصورية، وأعلمه في نفس الوقت باعتزامه العودة إلى تلك المدينة، وقد وصل إليها يوم الثلاثاء 14 رمضان 28/336 مارس 948 [14].

ورحل الخليفة من المنصورية يوم الجمعة الموالي في اتجاه عاصمة مملكته المهدية التي دخلها مظفراً من الغد السبت، بعد غيبة دامت زهاء السنتين، واغتنم فرصة عيد الفطر ليظهر إلى العموم لأول مرة في مظهر الملك. وقد حرص على إضفاء رونق خاص على صلاة العيد التي أقامها خارج المدينة بالمصلى في الهواء الطلق. «فخرج المنصور إلى المصلى، وولي عهده المعز لدين الله أبو تميم خلفه، وسار أعمامه أولاد المهدي بالله، وإخوته أولاد القائم بأمر الله، وأولاده، خلف المعز لدين الله. وسار في عساكره بالوقار والاستغفار والتسبيح، حتى انتهى إلى المصلى، فقضى صلاة العيد»[15]. وإثر الصلاة ارتقى المنبر وألقى خطبتَيْ العيد، معلناً بصريح العبارة عن وفاة أبيه القائم بأمر الله، وتوليه الخلافة من بعده.

«ثم نزل، فانصرف إلى قصره، وأمر بإطعام الناس، وفرق صدقات على الفقراء والمساكين»[16].

وإثر ذلك ببضعة أسابيع تكللت عملية التهدئة بانتصار باهر. فبعدما ابتهج أهل المهدية بمشاهدة أحد مثيري الشغب المسمى بأبي بردعة، «وقد سُلِخ على باب المهدية»[17]، بلغهم نبأ مقتل فضل ابن أبي يزيد الذي طيف برأسه في المدينة يوم 20 من ذي القعدة/ أول يونيو 948، كإشارة إلى الانتصار، وللتغلب

(14) نفس المصدر، ص 209.

(15) نفس المصدر، ص 480.

(16) انظر نص الخطبتين في نفس المصدر، ص 482 - 482 وفي سيرة جوذر، ص 80 - 87.

(17) عيون الأخبار، ص 486.

على هذا المتمرد، كان المنصور قد التجأ إلى خدمات أحد رؤساء زناتة، وهو باطيط بن يعلى بن باطيط الذي استعمله على بلد أوراس. فاحتال باطيط على فضل الذي كان يعتزم الاستيلاء على باغاية بلا عناء، وتمكن من قطع رأس المتمرد بنفسه، ثم سار بالرأس إلى المهدية، فأحسن إليه المنصور وخلع عليه[18].

(18) نفس المصدر، ص 487 - 488.

الفصل الرابع
سياسة المنصور الخارجية

1 ـ المقدمة:

لقد انتهى عهد المنصور الذي كُرِّست سنتاه الأوليان بأكملهما لقمع ثورة الخوارج ـ كما أسلفنا ـ دون أن يتمكن من إرجاع الهيبة التي اكتسبتها الدولة الفاطمية في عهد المهدي، وقد كادت أن تقضي عليها ضربات صاحب الحمار المتكررة. وتوفي المنصور في وقت مبكر يوم 28 شوال 18/341 مارس 953، بعد عودته المظفرة إلى عاصمته الجديدة المنصورية بأقل من خمس سنوات[1]. على أنه منذ انتصاره على خصمه الخَطِر، قد حرص على إعادة تنظيم شؤون مملكته في الداخل والنهوض بها من كبوتها. ومع ذلك فقد استأنف قبل وفاته السياسة الخارجية التوسعية التي سنها المهدي وطبقها بحزم وثبات حتى اندلاع الثورة، من جهة ضد منافسَيْه الاثنين في العالم الإسلامي: الخليفة العباسي والأمير الأموي، ومن جهة أخرى ضد العدو المسيحي صاحب بيزنطة. والواقع أن المنصور قد أوكل إلى ابنه وخليفته المعز لدين الله مهمة مواصلة تلك السياسة التوسعية بنجاح، سواء في الحوض الشرقي والحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، أي في مصر وصقلية وقلورية، أو في المغرب الأقصى.

---

(1) افتتاح الدعوة، الفقرة 299، ابن حماد، ص 39 - 60/40 - 61 ـ اتعاظ، ص 129: «وتوفي يوم الأحد الثالث وعشرين من شوال، وقيل يوم الجمعة مع الظهر سلخ شوال»، ويوافق آخر شوال يوم 29 مارس 953.

2 ـ التنافس الأندلسي الفاطمي في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى:

لقد أتاحت ثورة الخوارج الفرصة للخليفة الأندلسي الناصر ـ كما أسلفنا ـ ليستأنف بأكثر حرية تطبيق سياسته التوسعية، والتدخل حتى في شؤون إفريقية الداخلية، بمد يد المساعدة إلى أبي يزيد، ومنحه «رعايته المعنوية». إلا أن ردود فعل المنصور الحازمة وانتصاراته الأولى أمام سوسة والقيروان قد منعت صاحب قرطبة من التدخل عسكرياً، وأحبطت مساعي قائد أسطوله ابن رماحس. كما باءت بالفشل حملة القائد المكناسي الموالي له حميد بن يصل على تاهرت، إثر وصول المنصور إلى تلك المدينة بعد انتصاره في شمال الحضنة[2].

وبناءً على ذلك فإن إصلاح الوضع في المملكة الفاطمية قد حث الناصر على إعادة النظر في مقاصده المتعلقة بإفريقية، وعلى كل حال التخلي عن المطامع التي أثارها دخول أبي يزيد في طاعته. ولذلك فقد اقتصر على ترسيخ سياسته التوسعية في المغرب الأقصى، حيث سعى إلى فرض سلطته على بني محمد الأدارسة وحماية أتباعه الزناتيين والمكناسيين. وقد تعاظم نفوذه في تلك البلاد حتى انتهى به الأمر إلى احتلال طنجة سنة 951/339، وتمكن بذلك من الاستيلاء على قاعدة بحرية ثانية في السواحل المغربية بعدما ملك قبل ذلك سبتة[3]. إلا أن رد الفعل الفاطمي الذي كان ينتظره، وقد تأخر عن الظهور، سيكون عنيفاً ومشهوداً في بداية عهد المعز، حيث أن المنصور قد أدركته المنية بعد تلك الأحداث بأقل من سنتين. وسيبلغ التنافس بين الأندلسيين والفاطميين ذروته ـ كما سنرى ـ في عهد الخليفة الفاطمي الرابع.

3 ـ تطور العلاقات مع الشرق الإسلامي:

لقد رأى الخليفة الفاطمي الأول القائم بأمر الله من الأجدى، بعد فشل حملته الثالثة على مصر سنة 935/324 - 36، اتباع سياسة ودية تجاه الأمير

(2) عيون الأخبار، ص 463.

(3) إسبانيا الإسلامية، 106/2 - 107.

محمد بن طغج الذي أصبح يسهر بكل حزم على حظوظ تلك البلاد، وتحقيق أغراضه التوسعية تجاه ذلك الأقليم العباسي النائي بواسطة الدعاية. ذلك أن تدهور السلطة بسرعة في بغداد منذ مقتل الخليفة المقتدر، قد ساعد على التقارب بين المهدية والفسطاط، لا سيما وأن صاحب مصر الذي أضفى على نفسه لقب الأخشيد اعتباراً من سنة 938/327 - 39 لم يكن يخفي عزمه على الاستقلال بالحكم في بلاد الكنانة والشام[4].

ويتضح من الرسالة الموجهة من القائم إلى أمير مصر، والتي نقل نصها ابن سعيد[5]، أن الحجج المقامة على التعاطف والإقناع أنجع من السلاح، مما جعل ابن طغج يفكر في الدخول في طاعة الخليفة الفاطمي. على أن مقاومة الأخشيد في الشام لمساعي ابن الرائق الذي كان يحاول الاستيلاء على ممتلكاته بموافقة الخليفة العباسي الراضي، قد دفعت الأمير المصري إلى الخروج عن طاعة بغداد والخضوع لسلطة صاحب إفريقية من خلال الاعتراف بإمامته والدعوة له في الخطبة. بل إن كلا الطرفين قد فكرا، حسب نفس الرواية، في دعم هذا التقارب بتزويج ابنت الأخشيد لابن القائم إسماعيل المنصور. إلا أن وفاة الراضي يوم 7 شعبان 7/329 مايو 941 قد وضعت حداً للتوتر بين الفسطاط وبغداد، بعدما أقر الخليفة العباسي الجديد المتقي الأخشيد على رأس الإمارة. وبناءً على ذلك فإن تطبيع العلاقات بين الخليفة العباسي والأمير المصري التابع له، قد دعت هذا الأخير إلى الترقب، مما يفسر الموقف المحترز الذي اتخذه حتى وفاته في سنة 946/344 إزاء الخليفة الفاطمي الذي توفي بدوره بعد ذلك ببضعة أسابيع.

وفي آخر الأمر لم يحدث ما من شأنه تغيير هذا الوضع لما تسلم المنصور مقاليد الحكم، باذلاً كل ما في وسعه لقمع ثورة الخوارج. وبعد قمع تلك الثورة لم يقم خليفة القائم بأي عمل عسكري ضد مصر الذي انتقل حكمها إلى

---

(4) ولاة، ص 306 ـ انظر أيضاً دائرة المعارف الإسلامية (الأخشيديون) ص 486 - 487.
(5) انظر، المعز، ص 70 - 71.

أبي القاسم أنجور أحد أبناء الأخشيد[6] إلا أن المنصور لم يهمل أمر انتشار الدعوة في المشرق، بالرغم مما كانت تشهده مملكته من أزمة حادة ولكنها عابرة. ففي نفس الوقت الذي أرغم فيه المتمردين على الاعتصام بأوكارهم في الزاب، استقبل مبعوثاً قادماً من بغداد لإعلامه بأنشطة عونين إسماعيليين اثنين هما: محمد بن علي الجناح وفضل بن العباس. ولا شك أن الخليفة الفاطمي كان يتابع بكل اهتمام من مملكته النائية الوضع السائد في ممتلكات خصمه العباسي، وقد كان يتصوره على نحوٍ ملائم لرغباته[7].

فمن ناحية أولى بدأت سلطة الخليفة العباسي تضعف أكثر فأكثر منذ عهد المعتضد (279 - 892/289 - 902)، ثم تدهورت تدهوراً كبيراً في عهـد كل من الراضي والمتقي والمستكفي، وأصبحت صورية في عهد المطيع الذي تولى الحكم منذ سنة 334 - 945. وفي تلك السنة انتقلت السلطة الفعلية التي كان يمسك بزمامها أمير الأمراء ابتداء من خلافة الراضي، إلى معزّ الدولة بن بُوَيْه[8] الذي أصبح الحاكم بأمره في بغداد. فهل سيقدم بنو بويه الذين هم ن الشيعة العلويين، ولكنهم ينتمون إلى النزعة الزيدية، على خلع المغتصبين العباسيين؟ وكيف ستكون علاقاتهم مع الخلافة الشيعية الثانية التي على رأسها الفاطميون؟ يبدو أنه لم تَجْرِ اتصالات بين معزّ الدولة والمنصور، حسب الوثائق المتوفرة لدينا. والواقع أن بني بويه سرعان ما انسجموا مع وجود الخلافة العباسية، مكتفين بالاستحواذ على السلطة وتحويل الدولة العباسية إلى دولة فارسية وعلى وجه التحديد بُوَيْهية، مثلما أوشك البرامكة على تحقيق ذلك الهدف قبلهم[9].

وسوف يدخل الفاطميون عما قريب في نزاع سياسي مع أولئك الشيعة الذين كانـوا يرون بلا شك أنه ليس من مصلحتهم تعويض خلافة ضعيفة

---

(6) انظر حول النزاع بين ابن رائق والأخشيد، وُلاة، ص 307 - 312.

(7) إن ابن حماد (ص 51/31) هو الذي ذكر اسم هذين الداعيين الإسماعيليين.

(8) انظر حول بني بويه بوجه عام واستيلاء معز الدولة على الدولة العباسية بوجه خاص: دائرة المعارف الإسلامية (بنو بويه)، ص 1390 - 1397.

(9) نفس المرجع ـ انظر أيضاً Laoust، ص 150 - 164.

وخاضعة لهم بخلافة قوية ستفلت لا محالة من قبضتهم. وهنا أيضاً سيستعمل خليفة المنصور وابنه المعز لدين الله جميع الوسائل الدعائية ثم العسكرية اللازمة لينتزع من «المغتصبين» جزءاً كبيراً من ممتلكاتهم، من خلال الاستيلاء على مصر والشام والبقاع المقدسة.

وفي المقابل استطاع المنصور قبل وفاته أن يعيد إلى الإمامة الموروثة عن آبائه شيئاً من الأهمية التي فقدتها لدى أتباعها القرامطة وفي اليمن. وفي هذه البلاد على وجه الخصوص تراجعت حركة الدعوة الإسماعيلية بسرعة منذ وفاة المهدي. ذلك أن الخليفة الفاطمي الأول قد أوكل لسوء الحظ مهمة الدعوة بعد وفاة منصور اليمن ابن حوشب الذائع الصيت، لا إلى ابن هذا الأخير، بل إلى أحد أتباعه عبد الله بن عباس. وسرعان ما عارض سلطة هذا الداعي أشد أبناء ابن حوشب طموحاً، وهو الحسن الذي انتهى به الأمر إلى قتل منافسه، والخروج عن المذهب الإسماعيلي، ومطاردة أنصاره الذين قُتِل منهم عدد كبير، وهاجر الآخرون - ومن بينهم أخوه جعفر - إلى إفريقية التي كان يحكمها القائم بأمر بالله. ولكن الحسن قد قُتِل بدوره من طرف ابن العرجي أمير عين محرم[10]، واحتل نائبه إبراهيم بن عبد الحميد السباعي منطقة نفوذه في مسور. ودخل هذا الأخير في طاعة العباسيين وسعى إلى إخماد الدعوة الإسلامية التي كان أبوه أحد أنصارها المتحمسين إلى جانب ابن حوشب. فاضطرت الحركة الإسماعيلية إلى التستر ونجت من القمع المسلط عليها في جبل مسور، وظل رئيساها ابن الطفيل ثم ابن رحيم على اتصال مستمر بمركز الدعوة في إفريقية في عهد كل من المنصور والمعز.

أما القرامطة فقد استمروا بعد وفاة المهدي في الاعتراف بالإمامة الفاطمية. ولكن رئيسهم أبا طاهر الجنابي قد تجرأ، بعدما عاث فساداً في العراق وقطع طرق الحج، على احتلال مكة المكرمة في الثالث من ذي الحجة سنة 12/319 يناير 930، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى عاصمته الأحساء.

---

(10) [هكذا في الأصل الفرنسي وفي عيون الأخبار، ص 70، «عبر محرم»].

ويبدو أنه لم يرتبط قبل وفاته سنة 332/ إلا بعلاقات واهية مع رئيس الطائفة الإسماعيلية القائم بأمر الله الذي اضطر إلى تزكية قرار تعويضه بأخيه أحمد على رأس حركة القرامطة، في انتظار بلوغ ابنه صابور السن القانونية لخلافته. وقد بذل أحمد كل ما في وسعه لإزاحة ابن أخيه، ولو كلفه ذلك قطع الصلة مع رئيس الدعوة الإسماعيلية. وبينما كانت الدولة الفاطمية تواجه خطر ثورة الخوارج، انقسم القرامطة إلى شقَّيْن: شق يضم أنصار الإمامة الفاطمية الملتفين حول صابور، وشق مناهض للفاطميين يتزعمه أحمد وينادي بالتقارب مع العباسيين، وعلى وجه التحديد مع أصحاب الحل والعقد في بغداد، بني بُوَيْه.

وقد حرص المنصور بدهاء على تجنب تشتت الحركة، والسهر على فرض سلطته الروحية على أحمد ذاته، وعلى ممثلي نزعته الماسكين بزمام الحكم في الأحساء. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن أحمد قد قرر إرجاع الحجر الأسود إلى مكة سنة 951/340، بإيعاز من الخليفة الفاطمي، إلا أن النزعة المناهضة للفاطميين سرعان ما أصبحت هي السائدة، ودخلت في نزاع صريح معهم منذ أن خلف الحسن الأعصم أباه أحمد[11].

4 - بداية عهد بني الكلبي في صقلية واحتدام الصراع مع النصارى:

لما تولى المنصور الخلافة كانت صقلية في حالة فوضى عامة. فمنذ دعوة خليل بن إسحاق إلى المهدية سنة 940/329، اتضح عجز خليفته عطاف عن حفظ الأمن في الجزيرة، وأصبح المسلمون في وضع حرج، إلى درجة أن النصارى قد رفضوا دفع الجزية التي حُدِّدت أثناء الهدنة، دون التعرض لأي ردع. ثم ساعدت ثورة أبي يزيد على تفاقم الوضع في الجزيرة، حتى أصبح أهلها «يأخذون كل سفينة غصباً، ويكثرون إظهار السلاح في المساجد، ولا يتناهون عن منكر فعلوه»[12]. وقد انتشرت الفوضى إلى حد أن أكبر

(11) اتعاظ، ص 245 - 246. عبر، 89/4 - Laoust 90، ص 142 - 143 - وعند حديثه عن أحداث سنة 339 نسب ابن عذاري (البيان، ص 220) إلى الخليفة الفاطمي المنصور إرجاع الحجر الأسود إلى مكة أثناء الرحلة التي قام بها في المشرق.

(12) سيرة جوذر، ص 70.

العائلات التابعة «للجماعة»، أمثال بني الطبري وبني ماضوض وبني رجاء بن أخي جانة وبني عبدون، لم تعد تخشى شق عصا الطاعة علانية. بل أقدم بنو الطبري يوم عيد الفطر ذاته سنة 24/335 أبريل 945 على الهجوم على العامل عطاف وقتل عدد من جنوده والاستحواذ على البنود والطبول(13).

فكان رد فعل المنصور سريعاً، إذ عوض العامل العاجز بالقائد الحسن بن أبي الحسين الكلبي الذي أبلى منذ عهد قريب ـ كما أسلفنا ـ البلاء الحسن في الحملة على أبي يزيد. ولكن بداية الحسن كانت صعبة بسبب عدم انضباط تلك العائلات العربية المقيمة في الجزيرة منذ أمد طويل. فما إن نزل في مازرة حتى اصطدم بمعارضة بني الطبري وجماعته وتوجه وفد منهم إلى إفريقية يضم بالخصوص علي بن الطبري المعروف بالأشتر ومحمد بن عبدون وخباب ورجاء بن أخي جانة الذين التمسوا من الخليفة تعويض الحسن بعامل آخر. فماذا كانوا يعيبون على عاملهم الذي لم يقدم إلى صقلية إلا منذ عهد قريب؟ لا شيء سوى نسبه الكلبي، حيث أن أغلب الأسر العربية المقيمة في الجزيرة منذ العهد الأغلبي تنتسب إلى أصل مضري. ولكن المنصور ـ كما تشهد على ذلك الرسالة المنشورة في سيرة جوذر ـ(14) قد زج بأفراد الوفد في السجن وعاملهم بقسوة، رغم تشفع الحسن فيهم. وأمر جوذر بأن يبلغ توصياته إلى ابن الكلبي «ويحضه حضاً شديداً على الصرامة، وأن يكون مراً مريراً شرساً، فإنه في بلد قد أسكت أهله النعمة، وأبطرهم الإحسان». وتمكن ابن الكلبي في آخر الأمر من توطيد سلطته، واستأنف غاراته على نصارى الجزيرة الذين اضطروا إلى الخضوع له ودفع الجزية التي لم يسددوها منذ ثلاث سنين(15).

وقد استدعت سياسة العامل الجديد الحازمة والعدوانية ردود فعل البيزنطيين. وكان قيصر الروم قسطنطين السابع الذي انفرد بالحكم منذ سنة 944

---

(13) نفس المرجع انظر الترجمة ص 103 هامش 184 ـ فاسيلاف، ص 158 ـ أماري، 240/2 - 243.

(14) سيرة جوذر، ص 71 ـ أماري، 243/2 - 247.

(15) فاسيلاف، المرجع المذكور ـ أماري، 279/2 - 280.

بعد هجرة رومانوس، قد تبادل السفراء مع الخليفة الأندلسي الناصر في سنة 949/338، قصد استئناف العلاقات الودية بين البلدين وترسيخ التقارب الأندلسي البيزنطي على حساب صاحب إفريقية. ذلك أن من صالح العاهلَيْن التفاهم فيما بينهما ضد عدوهما المشترك الخليفة الفاطمي، والتصرف بحزم في صقلية بالنسبة إلى قيصر الروم، وفي المغرب الأوسط والمغرب الأقصى بالنسبة إلى صاحب قرطبة. وفي حين استولى الناصر على طنجة سنة 951/339، عهد قسطنطين إلى أحد بطارقته بمهمة القيام بحملة على الممتلكات الفاطمية في صقلية، بمساعدة حاكم قلورية فتجمعت الجيوش البيزنطية في أوترنت، وأعلم ابن الكلبي المنصور بالوضع، ملتمساً منه إسعافه بالإمدادات اللازمة(16).

وحسبما جاء في «كتاب العيون» المجهول المؤلف، سهر الخليفة بنفسه على إعداد العدة في المهدية، لتجهيز الأسطول وتوجيه فيلق يضم 7000 فارس و 3500 راجل، بقيادة فرج الخادم الذي وصل إلى بلرم يوم 24 محرم 2/340 يوليو 951. وأضاف ابن الكلبي إلى هذا الجيش قواته الخاصة، وبعدما أوصل رجاله إلى ميناء مسينة، نزل في رجيو التي أسرع أهلها إلى إخلائها، وأجبر هذه المدينة على دفع غرامة باهظة وتسليم عدد من الرهائن إلى المسلمين الذين فكوا عندئذٍ الحصار وتوجهوا نحو الجيش اليوناني. ولكن البطريق قد تخلى عن القتال وانسحب إلى باري فتحول الحسن حينئذٍ إلى محاصرة كسانو التي استسلمت بعد شهر من المقاومة مقابل دفع الجزية، ثم قفل راجعاً إلى مسينة ليشتي بها(17).

وعند حلول الربيع استأنف الحسن حملته. فاجتاز المضيق من جديد

---

(16) حول تبادل السفراء بين قرطبة وبيزنطة سنة 949/338 انظر، إسبانيا الإسلامية، 146/2 - 147 - وحول الحملة البيزنطية في صقلية سنة 339، انظر فاسيلاف المرجع المذكور، وأماري، 280/2.

(17) جاء في **كتاب العيون والحدائق** (فاسيلاف ص 224) أن المنصور قد سهر بنفسه على توجيه وحدات الأسطول إلى ابن الكلبي. وحول أحداث سنة 951/340، انظر فاسيلاف، ص 158 وأماري، 280/2 - 281 [وانظر أيضاً، عيون، ص 498].

وزحف على الجيش البيزنطي الذي تقدم حتى اقترب من جيراس. وحصل الاشتباك بين الفريقين يوم عيد الأضحى (10 ذو الحجة 8/340 مارس 952). فهُزِم جيش الروم شر هزيمة، ورجع المسلمون لحصار مدينة جيراس التي التزم أهلها بدفع الجزية مقابل السلم. ثم استولى الحسن على بتريكوشيا عنوةً، وبعدما قبل الهدنة التي طلبها الروم قفل راجعاً إلى رجيو، حيث بني جامعاً وفرض على النصارى احترام ما يكتسيه ذلك المعبد والملجأ من صبغة مقدسة[18].

وبعد ذلك بقليل قدم مبعوثو قيصر الروم قسطنطين السابع إلى المنصورية في شهر مرحم 341/ يونيو 952 لإبرام الصلح وتقديم هدايا ثمينة إلى الخليفة الفاطمي الذي استقبل المبعوث البيزنطي في موكب بهيج وكلفه بأن يحمل إلى قيصر الروم هدايا أحسن مما جاء به «وكتب المنصور (قبل ذلك) إلى الأستاذ جوذر عامله على المهدية بأن يحمل إليه من الخزائن التي تحت يديه أشياء وصفها له، مما يصلح أن يُبعَث إلى الملوك»[19].

5 ـ مآثر إسماعيل المنصور:

بعدما أعاد المنصور الأمن إلى نصابه في مملكته، لم يمكث في المهدية سوى مدة قليلة. وكان قد أحس في غرة صفر سنة 337/ سبتمبر 940 بالحاجة إلى الإقامة في مدينته الجديدة المنصورية التي بناها ـ كما أسلفنا ـ في نفس الموقع الذي انتصر فيه على صاحب الحمار، وحولها إلى عاصمة. وبعدما استعمل على المهدية خادمه جوذر انتقل إلى المنصورية مع ولي عهده وأفراد عائلته وأغلب دعاته وأوليائه[20].

واستمر المنصور في توسعة مدينته الجديدة وتحسينها، ونقل إليها شيئاً فشيئاً مختلف المصالح الإدارية، وتوافد عليها عدد كبير من التجار والحضريين

---

(18) فاسيلاف، ص 159 - 160 - 161. البربر، 351/2، أماري، 281/2 - 286.

(19) سيرة جوذر، ص 88 ـ فاسيلاف، ص 224 ـ عيون الأخبار، ص 501.

(20) عيون الأخبار، ص 501.

من أهل القيروان للإقامة بها. ولم تلبث المنصورية أن شهدت تطور كبيراً، لا فقط بوصفها عاصمة سياسية ومدينة ترفيهية، بل أيضاً باعتبارها مركزاً إدارياً ومدينة تجارية، وقد أصبحت منذ عهد مؤسسها رمزاً حياً لانبعاث الدولة الفاطمية من جديد.

فكان من حق إسماعيل المنصور قبيل وفاته أن يبتهج بتوفقه إلى إعادة الدولة الفاطمية إلى سالف نشاطها. وقد عرف كيف يضطلع بمسؤولياته بلا كلل ولا ملل، وبالتالي كيف يتحمل أتعاب حرب شرسة. وقد رأينا على امتداد الرواية النفيسة التي احتفظ لنا بها الداعي إدريس، ما كان يحدوه من إيمان راسخ بانتصار قضيته. واستمر بعد قمع ثورة أبي يزيد وأصحابه في إظهار نفس الإخلاص العميق للشعب الذي عهد الله به إليه، ونفس الحب للرعية التي كان واثقاً من أنه قد أنقذها من خطر محقق يتمثل في حركة الخوارج. وما انفك إسماعيل المنصور المقتنع برسالته الدينية بقدراقتناعه بدوره الدنيوي، سواء في زمن الحرب أو بعد الانتصار، يعطي المثل بوصفه خليفة يستمد سلطته من العناية الإلاهية، وإماماً معصوماً يهتم بتسيير شؤون الدولة، ويسهر في آنٍ واحد على إنجاح قضية آبائه وأجداده الفاطميين.

هذا وإن ابنه وخليفته من بعده المعز لدين الله الذي ما فتىء يثني عليه كلما ذكره في مجالسه مع القاضي النعمان، لم يتردد في تشبيهه بداود عليه السلام الذي واصل سليمان عمله الجبار، كما واصل المعز عمل المنصور[21]. ولئن اعتبرنا «صاحب الحمار» رجلاً عظيماً وشخصاً في مستوى صاحب «أساطير العصور الغابرة»[22]، فإن ذلك مما يزيد في الرفع من شأن المنصور الذي نجح في القضاء على خصمه، معرضاً حياته للخطر. وبالتأكيد فإن ملوك المسلمين الذين أبدوا في العصر الوسيط نفس ما أظهره الخليفة الفاطمي الثالث من بطولة، قد كانوا قلة قليلة.

---

(21) المجالس والمسايرات، ص 441.

(22) المقصود الشاعر الفرنسي: Victor Hugo . صاحب ملحمة، «La Légende des Siècles».

الباب الخامس

آخر الخلفاء الفاطميين في إفريقية

المعز لدين الله

الفصـل الأول

خلافة المعز لدين الله

1 ـ تولي المعزّ الخلافة:

لما اعتلى خليفة المنصور العرش يوم 29 شوال سنة 19/341 مارس 953 كان صغير السن، حيث لم يتجاوز البلوغ إلا منذ عهد قريب. فقد وُلِد في 11 رمضان سنة 26/319 سبتمبر 931، أي قبل وفاة المهدي بثلاث سنوات،ومع ذلك فقد احتفظ من جد أبيه ببعض الذكريات الحية. وامتاز منذ نعومة أظفاره بالذكاء، وحظي في قصر القائم برعاية خاصة من قِبَل جده الذي أحاطه بعطفه وسهر على تربيته[1].

وحسب رواية القاضي النعمان، تم تعيين الشاب معدّ ولياً للعهد في حياة جده القائم وفقاً للتقاليد الإسماعيلية (أي بمقتضى النص). وكأن القائم أراد بالإعلان عن ذلك التعيين صراحةً، أن يعرب عن خشيته من تقديم المنصور أحد أبنائه على معد في يوم من الأيام. إلا أننا لم نجد في المصادر التي بين أيدينا ـ رغم هذا الخبر الغريب الذي رواه القاضي النعمان[2] ـ ما يثبت تردد المنصور

---

(1) **المجالس والمسايرات**، ص 468 - 469. انظر حول محبة المهدي لحفيده المنصور، نفس المصدر، ص 541 - 542.

(2) نفس المصدر، ص 468 - 469.

في اختيار خليفته من بين أبنائه الخمسة[3]. ولا شيء يوحي أيضاً بأن تعيين المعز قد أحيط بالسرية المألوفة خلال فترة الستر. بل بالعكس من ذلك يمكننا التأكيد أن المنصور قد أقلع عن تلك العادة وبادر إلى تعيين خليفته حالما انتصر على أبي يزيد ورأى الوقت مناسباً لإظهار وفاة أبيه القائم. وحسب القاضي النعمان أعلم المنصور جماعة من أوليائه بهذا التعيين أثناء إقامته في تاهرت حيث توعكت صحته إثر حملته على صاحب الحمار.[4] ولكنه لم يعلن رسمياً عن ذلك الخبر إلا بعد ذلك بمدة طويلة في أوائل سنة 952/341[5].

وإذا اعتدمنا رواية صاحب سيرته المخلص القاضي النعمان، فإن المعز كان يتحلى بجميع المواهب. فقد أبرزت النوادر العديدة الواردة في «المجالس والمسايرات»[6] رأفته وعطفه ولطفه وتواضعه المفرط. كما استرعت انتباه القاضي الذائع الصيت بعض خصاله مثل التقوى ورحابة الفكر واتساع المعارف لا سيما في مجال المذهب الإسماعيلي. أضف إلى ذلك حسه الفطري بمقامه الرفيع الذي سيكسبه حلة فاخرة كلما تقدم في السنّ إلى درجة أن اسمه سيوحي بعظمة نادرة من بين أسماء ملوك عصره.

(3) وهم: معد (المعز لدين الله) وحيدرة وهاشم وطاهر وأبو عبد الله الحسين، انظر، اتعاظ، ص 133.

(4) نُقِل نص القاضي النعمان في عيون الأخبار، ص 464 - 465.

(5) لقد وضع النعمان في الافتتاح، الفقرة 299، تعيين المعز ولياً للعهد مباشرة إثر وفاة المنصور. وحسب البيان، ص 221 واتعاظ، ص 131، تم التعيين في أواخر سنة 340. ومن الجدير بالذكر أن المنصور، بعد رجوعه إلى إفريقية سنة 336، ارتحل للقيام بحملة على فضل ابن أبي يزيد في قسطيلية وكان مصحوباً بالمعز بوصفه ولي عهده. والغالب على الظن حينئذٍ أن التعيين التقليدي حسب النص قد تم أثناء الحملة على أبي يزيد، وأن التعيين الرسمي قد تم قبيل وفاة المنصور.

(6) انظر بالخصوص المجالس، 429 وما بعدها حول ولوع المعز بالمطالعة وأهمية مكتبته، وص 263 حيث ينتقد الخليفة الجاحظ بخصوص تفسير آيات قرآنية، وص 334 حول رأي المنصور في الكيمياء، وص 432 وما بعد حول اتسام الخليفة بالأناة والصبر والحلم، والترفع عن الظلم والتعدي، وص 148 حول تبحر المعز في شتى أصناف العلوم، وص 308 حول رأيه في النحو، وص 377 وما بعدها حول الرد على بعض المتكلمين.

ومع ذلك فإن المعز، لما أفضت إليه الخلافة، كان يبدو حائراً وخائفاً من المصاعب التي تنتظره. فقد حرص على إخفاء وفاة أبيه في المنصورية، وكتب إلى جوذر خادم الأيمة الأمين في المهدية لإعلامه بالخبر، وأمره بكتمان ذلك(7).

وقد كشف الألم الذي لم يستطع التغلب عليه في كتابه عما كان يساوره من قلق. ذلك أن الخليفة الشاب كان يخشى ردود فعل حادة من قِبَل إخوته وأعمامه وأعمام أبيه، وكان المنصور قد عانى قبله ـ كما أسلفنا ـ من مناهضة أعمامه وإخوانه ولم يتردد في لعنهم علانية. ولا شك أن الخلافات بين ولي العهد وبين الأمراء العبيديين قد بلغت من الحدة ما جعلت المعز يتوقع حصول انقلاب حقيقي عند توليه الخلافة. فقد كتب إلى جوذر يقول:

«وعليك فيما قِبَلك بالاحتراس ما أمكنك والضبط ما استطعت ومنع هؤلاء القردة من الوصول إلينا والخروج من أبواب بيوتهم، فضلاً عما سوى ذلك»(8).

على أن مما زاد في خشية المعز من مؤامرة الأمراء الذين أُبعِدوا عن العرش، أن الوضع السياسي الذي ورثه كان متداعياً. ومما لا شك فيه أن أباه قد أعاد سلطة الدولة إلى سالف وضعها، بقضائه على ثورة الخوارج. ولكنه لم يتمكن من الوقت الكافي لإخماد ثورة البربر نهائياً في جبل أوراس، ولا لإرجاع هيبة الفاطميين سواء داخل المملكة أو خارها. فقد بقي عليه حينئذٍ أن يسعى إلى إعادة جو الثقة والأمن في البلاد، رغم سياسة اللين والحلم المتبعة تجاه أهلها الذين عُرِفوا بمناهضتهم للنظام، ولكنهم قاسوا من مآسي الحرب مقاساة شديدة.

وقد كشف المعز في رسالته الأولى الموجهة إلى جوذر عن القلق الذي أثارته في نفسه الظروف المضطربة التي تولى فيه الخلافة، قائلاً بالخصوص:

«وكان من قضاء الله السابق وأمره النافذ أن أجرى على سيدنا ومولانا أمير

(7) سيرة جوذر، ص 73 - 74.

(8) نفس المصدر، ص 74.

المؤمنين [المنصور] من حكمه وقضائه ما أجراه على اباته المهديين وجده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله، فامتحنني بفقده، والانفراد بعده في الديار الموحشة والقصور الخالية، والبلد الشاقق، بين كل عدو وفاسق، وقد جمعوا من أقطار الأرض من شرق وغرب، وبر بحر. فأنا فيهم الفريد، الغريب الوحيد، المتوكل على ذي القوة المجيد. . . »(8م).

ومع ذلك فإن الأحداث الموالية لم تؤيد تخوفات الخليفة الشاب. فقد ساد الأمن داخل حدود البلاد وخارجها. وبناءً على ذلك لم ينتظر المنصور مدة طويلة للإعلان عن خبر وفاة والده وإتمام مراسم التتويج. فقد أذاع هذا الخبر بعد ذلك ببضعة أسابيع في الخطبة التي ألقاها يوم عيد الأضحى بجامع المنصورية، وأعلن رسمياً عن بداية عهده(9). فمن خلال هذه الخطبة التي ألقاها المنصور للمرة الأولى بوصفه خليفة وإماماً في نفس الوقت، وقد ورد نصها الكامل في سيرة جوذر(9م)، يتضح أن صاحب إفريقية قد تمكن من تبديد القلق الذي ساوره غداة وفاة والده. وأصبحت لهجته لهجة الخليفة الشاب الطموح والحازم، المقر العزم على مواصلة المهمة التي سيقوم بها بشجاعة وثبات حتى النهاية، وسيقتدي بمثال أبيه الرائع. وقد عبر عن ذلك لجوذر قائلاً: «وبالله لقد ألهمني من فضله حسب ما لم أزل أتعرفه منه قديماً وحديثاً بأن استمتعت من عمل سيدنا المنصور بالله ما يكفي ويشفي، وجشمت عمله بقوة الطلبة وكثرة الرغبة. . . »(10).

كما اغتنم المنصور خطبة العيد لإعلام العموم بمقاصده التي سيعسى بدوره إلى تحقيقها. فهو يحمل فكرة واضحة تمام الوضوح عن العمل الجبار

(8 م) نفس المصدر، ص 73.

(9) نفس المصدر، ص 76.

(9 م) نفس المصدر، ص 76 - 84 [كما أثبت الداعي إدريس نص الخطبتين في عيون الأخبار، ص 541 - 548].

(10) سيرة جوذر، ص 76.

الذي سيدعى إلى القيام به داخل المملكة وخارجها. وهذا العمل لا يقتصر على إرجاع الأمن إلى نصابه في البلاد التي يحكمها، بل يرمي أيضاً إلى بسط سلطانه خارج حدود المملكة شرقاً وغرباً، ورفع الألوية الفاطمية في البقاع المقدسة، أي في قلب دار الإسلام المغتصبة. فقد حان الوقت حينئذٍ لتحقيق أغراض أسلافه التوسعية المرتكزة على العقيدة الشيعية التي تؤمن بحتمية عودة عرش الإسلام إلـى آل الرسول ﷺ، أي إلى ذرية فاطمة رضي الله عنها. ألم يَعِدْ الله العلويين بأن يصبحوا يوماً من الأيام سادة العالم بأسره؟.

على أن الطريق الواجب سلوكه قد رُسِم منذ عهد المهدي. ذلك أن الأمر يتعلق باستئناف مجهود التوسع الذي عاقته بالخصوص ثورة الخوارج، سواء في اتجاه الغرب داخل المغرب ذاته أو في اتجاه مصر. وهذا يعني توجيه النظر نحو قرطبة وعرش الأعداء الألداء الأمويين بالأندلس، وتكثيف مقاومة نفوذهم في المغرب الأقصى، مع عدم إهمال أمر بغداد وعرش العباسيين المغتصبين. إلاّ أن المقصود في الواقع هو استئناف سياسة الهيمنة الفاطمية المقامة على شرعية عودة الخلافة إلى الفاطميين دون سواهم، وأداء فريضة الجهاد ضد الكافر المتمثل آنذاك في قيصر الروم ودار الجهاد في صقلية وقلورية.

وهكذا فقد ضبط الخليفة الشاب برنامج عمله، في نفس الوقت الذي أعلن فيه عن اعتلائه عـرش آبائه وأجداده، . كما حدد الأهداف المستقبلية لذلك البرنامج- في هذا الدعاء الذي توجه به إلى الله عزّ وجلّ من أعلى منبر جامع المنصورية:

«اللهم أيدني بنصرك، وافتح لي على أعدائك فتحاً تحيـي به الدين وتعز به ملة محمد سيد المرسلين، وارزقنا زيارة قبره والارتقاء على منبره، وحلول داره، وقضاء الحج إلى بيتك الحرام، والوقوف بتلك المشاهد العظام براياتنا، وقد جددت لنا العز ولأوليائنا، وقد أيدتنا وإياهم بالنصر، وأكرمتنا بالظفر، وأظهرتنا على القوم الظالمين، وأخضعت لنا رقاب المعاندين العاصين. وقد تقدم منك الميعاد للآباء والأجداد ولا خلف لوعدك، ولا راد لأمرك، والرضا

والتسليم بما قضيت، عجلت أو أجلت»[11].

2 ـ إرجاع الأمن إلى نصابه في جبل أوراس:

لقد كان أول ما حرص المنصور على تحقيقه، إرجاع سلطة الخليفة إلى جبل أوراس، معقل الهواريين الذين كانوا أشد المساندين لثورة الخوارج. وقد كانت بضعة أسابيع كافية لإتمام الاستعدادات للحملة. وفي أوائل سنة 953/342 خرجت جموع كتامة من المنصورية بقيادة المعز لدين الله ذاته[12].

وبدأت الحملة عند وصول الجيش الفاطمي إلى الأربس. فزحفت فرقة عسكرية بقيادة بلكين بن زيري الصنهاجي على جنود بني كملان ومليلة المعتصمين بجبل غزالة جنوب باغاية، وفرقتهم، ثم نصب المعز مركز قيادته في ذلك الحصن، وانطلاقاً منه أخذ جنوده يجوبون أطراف الأوراس، وتمكنوا من إخضاع القبائل المتمردة. وفي آخر الأمر استسلم الهواريون، وقرر رئيس مغراوة الدخول بدوره في طاعة الخليفة الفاطمي، وكان قد خلف على رأس ذلك البطن الزناتي الكبير ابنه معبد[13] الذي قُتِل كما أسلفنا إثر إخفاق أبي يزيد.

فابتهج المنصور بهذا الفوز الأول، وتحول إلى المنصورية بعدما استعمل على باغاية خادمه قيصر وعهد إليه بمهمة مواصلة إعادة الأمن إلى نصابه في جبل أوراس. وقد قام هذا القائد بتلك المهمة على أحسن وجه ممكن. وما لبث رؤساء هوارة وزناتة أن استسلموا إليه، فنُقِلوا إلى المنصورية حيث استُقْبِلوا استقبالاً لائقاً، لا سيما منهم محمد بن خزر، وأُغدِقَتْ عليهم العطايا.

وأسفرت الحملة على أوراس التي جرت بثبات في الوقت المناسب، عن نتائج طيبة. واعتباراً من ذلك التاريخ لم يَعُدْ يهدد إفريقية أي خطر من الناحية

(11) نفس المصدر، ص 83، [وعيون الأخبار، ص 548].

(12) ورد ذكر هذه الحملة في سيرة جوذر، ص 75 وص 84. [انظر أيضاً عيون الأخبار، ص 549].

(13) [في النص الفرنسي «أخاه معبد»، والتصحيح من عيون الأخبار، ص 549، «وأتاه محمد بن خزر أبو معبد»]

الغربية. وعلاوة على ذلك، رفعت تلك الحملة من شأن الخليفة الشاب، سواء في أعين أهل إفريقية أو في أعين بربر الغرب[14].

(14) افتتاح الدعوة، الفقرة 301، وحول استسلام القائد الزناتي وقطع علاقاته مع عبد الرحمان الثالث، انظر، إسبانيا الإسلامية، 107/2.

الفصـل الثانـي

احتدام الصراع مع الأمويين بالأندلس
وبسط السلطة الفاطمية بالمغرب

النزاع الأندلسي الفاطمي في عهد المعز:

لقد كانت الحملة على أوراس الرامية أساساً إلى إخضاع المنطقة الواقعة تحت نفوذ الخوارج، تمثل لا محالة، في نظر المعز، المرحلة التمهيدية للقيام بعمليات عسكرية واسعة النطاق لبسط سلطانه على نواحي المغرب الأقصى. ذلك أن إعادة الأمن إلى نصابه في أوراس قد عزز سلطته في الأقاليم الغربية، لا فحسب في الزاب الذي يحكمه بنو حمدون، بل أيضاً في تاهرت وفي الربوع المجاورة الواقعة تحت تأثير النفوذ الأموي الأندلسي، وأعمال الشغب الذي كان يقوم بها الزناتيون. ومع ذلك فقدكان يعلى بن محمد بن يفرن يمسك هناك بمقاليد الحكم لحساب الفاطميين ولكن المعز، حرصاً منه على إحكام السيطرة على المغرب الأوسط، وفرض الاحترام على الزناتيين الهائجين، قد عمل على توثيق علاقات الولاء القائم بين أسرته وبين الصنهاجيين المقيمين في ناحية تيتري حول عاصمتهم أشير. ولهذا الغرض فقد بادر إلى استقبال رئيسهم زيري بن مناد بكل حفاوة في المنصورية وإغداق النعم عليه، قبل إرجاعه إلى ممتلكاته مكلفاً بمهمة ممارسة السلطة باسمه على المناطق الشاسعة الممتدة من تخوم الزاب إلى حدود تاهرت[1].

وفي نفس الوقت الذي ضمن فيه المعز لنفسه دعم الصنهاجيين في المغرب الأوسط، وجه تعليماته إلى عامله على صقلية الحسن بن علي بن

(1) البربر، 542/2.

الكلبي لوضع الأسطول في حالة تأهب للحرب في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. ذلك أن الخليفة الفاطمي سيبادر إلى شن الحرب من جديد ضد خصمه الأندلسي الناصر، بعدما توقفت في عهد أبيه المنصور الذي لم يقم ـ كما أسلفنا ـ بأي رد فعل على تقدم التوسع الأموي المتمثل في الاستيلاء على طنجة سنة 951/349.

وهكذا فإن إخضاع القبائل الأوراسية وانضمام رئيس مغراوة ابن خزر إلى الخلافة الفاطمية، قد دفعا المعز إلى أخذ المبادرة. وسيتيح له الفرصة المنتظرة الحادث البسيط الذي جد في المياه الصقلية[2].

ومن حسن الحظ فإن لدينا الآن، حول تطور النزاع الأندلسي الفاطمي في عهد المعز، رواية مفصلة أوردها القاضي النعمان في تأليفه الذي لم يُنشَر بعدُ، وهو **«كتاب المجالس والمسايرات»**[3].

هذا وإن المعلومات الغزيرة الواردة في خمسين ورقة من المخطوط الذي أطنب فيه القاضي الشهير في الحديث عن تفاصيل الصراع بين الخليفة الفاطمي وخصمه الأموي، تُكمِل وفق المراد المعطيات الزهيدة التي تتضمنها كتب الأخبار المعروفة. ورغم مَيْل النعمان إلى تمجيد مخدومه والحط من شأن العاهل الأندلسي، فلا يمكننا التشكيك في صحة روايته الأصلية التي لم تُنْقِضْها الروايات السنية لتلك الأحداث ذاتها[4].

ولكن المزية الأساسية التي يتميز بها المصدر الفاطمي، تتمثل في كون المؤلف لم يقتصر على مجرد سرد الأحداث، بل توقف عند تفاصيل الدواعي السياسية والمذهبية التي كانت تحرك النزاع الحاد القائم بين المعز وعدوه

---

(2) **إسبانيا الإسلامية**، 108/2.

(3) [في الأثناء صدر «كتاب المجالس والمسايرات» في تونس سنة 1978 (انظر المصادر والمراجع)، منشورات الجامعة التونسية).

(4) وردت رواية القاضي النعمان المطولة حول النزاع الأندلسي ـ الفاطمي في الجزء الأول من **المجالس**، ووردت فقرات من تلك الرواية في **كتاب المعز**، الملحق، ص 322 وما بعدها.

اللدود. وهذا من شأنه أن يسمح لنا بإدراك مدى أغراض الخليفة الفاطمي التوسعية غربي مملكته، ويكشف لنا عن مطامعه الواضحة في عرش قرطبة، تلك المطامع التي لم يتورّع عن الإصداع بها علانية. وبذلك يتسنى لنا إدراك حدة النزاع الذي نشب بين إفريقية الشيعية والأندلس المالكية في منتصف القرن العاشر من الميلاد.

وبناءً على ذلك، فإن الصراع الأندلسي الفاطمي يكتسي ـ حسب رواية النعمان ـ صبغتيْن متكاملتَيْن: الأولى عسكرية والثانية دعائية سياسية ومذهبية يتعين علينا دراستهما في آنٍ واحد لنكشف على الوجه الأفضل حقيقة معنى الأحداث التي ستجري في الغرب الإسلامي وأبعادها.

وقد اشتملت العمليات الحربية التي جرت في سنة 954/344 على مرحلتَيْن: الأولى بحرية والثانية برية. وسيبادر الخليفة الفاطمي إلى شن المعركة مستعملاً أسطوله العتيد الراسي في المهدية وصقلية وقد وفر له ذريعة التدخل هجوم مركب أموي قادم من المشرق على قارب فيه كتاب من عامل صقلية إلى المعز[5].

وكان الخليفة الفاطمي يطمح، بدعوى الثأر للإهانة التي لحقت بجيوشه، إلى التحول إلى الأندلس لمعاقبة خصمه الأموي في عقر داره. ومما لا شك فيه أن أنظاره كانت متجهة وقتئذٍ نحو عرش قرطبة، حسب رواية القاضي النعمان التي تتضمن عدة شهادات على ذلك. فقد كان المعز يرى من واجبه المقدس أن يزيح عن ذلك العرش العدو «اللعين» و«المغتصب الكافر»، ويرجعه إلى أصحابه الشرعيين أبناء فاطمة. وقد شد الله تعالى ساعده وألهمه في كفاحه العادل الرامي إلى قطع دابر الكافر. ولذلك فقد أنكر على خصمه ادعاء الخلافة والتلقب بأمير المؤمنين، لأن الخلافة الأموية غير شرعية. ذلك أن معاوية لما اغتصبها «قد أقر الأمر في ولده، . فما أدخل مروان وآل مروان فيها»[6]. ولكن

(5) [المجالس، ص 164].

(6) انظر حول الأزمة الحادة التي شهدتها الدولة الأموية في عهد معاوية الثاني وساعدت على تولي =

هؤلاء قد انتزعوا الخلافة من المغتصبين الأوائل. وتبعاً لذلك فإن ادعاءهم الخلافة غير شرعي من الوجهتين، ولا يبرر ذلك أي سند مذهبي. إذ أن الفتوى التي تجعل من الشخص الذي رضي به المسلمون أميراً لهم، وعلى أساسها ركز آل مروان حقهم في الخلافة، هي فتوى باطلة، لأنه لا يحق للناس أن يختاروا إماماً لهم، «فلو كان للناس أن يقيموا لأنفسهم إماماً فتجب طاعته بإقامتهم إياه، لوجب كذلك أن يقيموا نبياً وإلاهاً»(7). ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الخلافة في آل الرسول دون سواهم، بواسطة ابنته فاطمة»(7م).

وقد وجدت هذه النظريات الخاصة بالمذهب الفاطمي أتباعاً في الأندلس ذاتها حيث كان «الدعاة» مكلفين ببثها في كنف السرية والقيام بدعاية حثيثة لفائدة أصحاب إفريقية في المناطق الجبلية المعرضة للشغب أو في صفوف السكان المختلفي الأجناس المقيمين في المدن الكبرى(8). ورغم حرص المعز على عرض مطامعه في الأندلس طوال الجلسات التي عقدها بمحضر المبعوث شبه الرسمي الذي وجهه العاهل الأندلسي إلى أحد كبار رجال الدولة في المنصورية، فإنه لم يكن يتوهم كثيراً في إمكانية تحقيق تلك المطامع في العاجل. ومما لا شك فيه أن أعوانه الموجودين في الأندلس آنذاك كانوا يحرضونه على توخي الحذر أو يخبرونه بأهمية القوات العسكرية التي كانت تحت تصرف خصمه لمواجهة أي اعتداء وارد من إفريقية. كما أنه لم يكن يجهل الجهود التي كان يبذلها الأمير الأموي للمحافظة على نفوذه في المغرب الأقصى

= مروان مقاليد الخلافة وإرجاع الوحدة حول رئيس الفرع المرواني: Lammens، ودراسات العصر الأموي، بيروت، 1930، ص 163 - 210. انظر أيضاً دائرة المعارف الإسلامية 3 (مروان) ص 354 - 355 و (معاوية)، ص. 659 - 663 ونفس المرجع ـ 4 (بنو أمية)، ص 1052 - 1058.

(7) [**المجالس**، ص 183].

(7 م) انظر حول النظرية الإسماعيلية المتعلقة بالإمامة بمناسبة تعيين عليّ كرم الله وجهه وصياً، **دعائم الإسلام**، ص 21 - 26 و**عيون الأخبار** ص 68 - 69و95 - 96 ـ و**سيرة جوذر**، ص 57 - 58 و 79 - 80.

(8) انظر حول بعض مظاهر الدعاية الفاطمية بالأندلس، **فرحات الدشراوي**، مجلة الأندلس، الكراس الأول، 1958، ص 100 - 101.

والتصدي لأي عدوان فاطمي، ولا الاستعدادات المتخذة في الموانىء الشرقية للدفاع عن السواحل الأندلسية[9].

وتبعاً لذلك فإنه لم تتوفر وقتئذٍ الوسائل اللازمة لشن الحرب والشروع في فتح الأندلس انطلاقاً من المغرب الأقصى. ذلك أن هذه العملية تبدو محفوفة بالمخاطر، بل يُخشى أن تبوء بفشل ذريع. ومع ذلك فقد كان المعز يعلم أنه يستطيع ـ دون أن تلحقه أضرار جسيمة ـ القيام بحملة بحرية من شأنها إرهاب خصمه وإلقاء الرعب في قلوب رعاياه وإقامة الدليل على قدرته على تحدي الخصم في عقر داره ووضعه تحت رحمة أسطوله الرهيب.

وقد أراد الخليفة الفاطمي بإعطاء الإذن إلى عامله على صقلية الحسن بن علي بالقيام بحملة بحرية قوية على الأراضي الأندلسية ذاتها، بُعَيْد الاعتداء على مركبه، أن يظهر قوته في الحال ويؤكد أن مملكة قرطبة قد أصبحت مهددة بخطر الاجتياح في كل آنٍ وحين.

فلما وصل الأسطول الفاطمي إلى الأراضي الأندلسية، استولى ابن الكلبي على ميناء المرية، وقد أرد باختياره الهجوم على أهم مركز بحري في السواحل الشرقية، أولاً وقبل كل شيء تدمير المراكب التابعة للأسطول الأندلسي، والتي يعلم أنها كانت راسية هناك. «فنزل مَنْ بالأسطول [الفاطمي] من رجال البحر واستولوا على المرية وانهزم عنها جمع الأموي. فأحرقوا ما بها من المراكب والخزائن والعود والعدد، وانتهبوا جميع ذخائرها، وهرب من استطاع الهرب من أهلها»[10]. وأخيراً رجع الأسطول الفاطمي إلى قواعده في إفريقية وصقلية محملاً بغنائم كثيرة ومصحوباً بعدد كبير من الأسرى.

وأما العاهل الأندلسي فقد خشي أن تثير هذه الغارة المشهودة التي قام بها الأسطول الفاطمي على سواحل بلاده، الهلع في نفوس رعاياه وتؤثر تأثيراً

---

(9) إسبانيا الإسلامية، ص 96 - 97 و 104 - 107.

(10) المجالس، ص 165، نظر أيضاً، افتتاح الدعوة، الفقرة 302.

بالغاً في هيبته لو تأخر عن أخذ الثأر لهذه الإهانة. فعهد في الحين إلى خادمه غالب بمهمة التحول على رأس أسطول أموي للهجوم على سواحل إفريقية. إلا أن المعز قد سهر على تعزيز وسائل الدفاع عن القواعد البحرية الواقعة في طريق الأندلس، مما جعل غالباً يتعرض لمقاومة مستميتة في الموانىء التي كان يعتزم الهجوم عليها، ويقرر العدول عن انتهاك حرمة الأراضي الفاطمية. ولكنه أعاد الكرة في السنة الموالية وهجم على نفس المواقع على رأس أسطول يتركب من سبعين سفينة. وقد أهمل القاضي النعمان ذكر هذه الحملة وخلط بينها وبين الحملة السابقة مقتصراً على الإشارة إلى الهزائم التي مُنِي بها الأندلسيون. والحال أن غالباً قد تمكن هذه المرة ـ حسب رواية ابن خلدون ـ من إضرام النار في مرسى الخرز وتخريب ضواحي سوسة، وعاث فساداً في ناحية طبرقة(11).

وسواء كان رد فعل عبد الرحمان حازماً أم لا، فإن مثل تلك العمليات لا يمكن أن يكون لها تأثير كبير من هذا الجانب أو ذاك. إلا أن الناصر قد سعى في الوقت الذي كان يتأهب فيه لتوجيه أسطوله إلى موانىء إفريقية، إلى التحالف ضد خصمه الفاطمي مع الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي سبق أن ربط علاقات ودية معه، وقد تمكن من نيل مبتغاه. ولكن التدخل البيزنطي الذي سنتوقف عنده بعد حين قد فشل هو أيضاً، وكان يرمي إلى فتح جبهة ثانية في صقلية وتشتيت القوات البحرية الفاطمية في نفس الوقت الذي سيهجم فيه غالب على مراسي إفريقية.

على أن المعز قد حرص بالخصوص ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ على شن الحرب على البيزنطيين، دون انتقاص قيمة رد الفعل الأندلسي. وقد استشهد أمام مبعوث الناصر الذي جاء في طلب الصلح لاجتناب «سفك دماء المسلمين»، برعايته لمصالح المسلمين، فأكد من جهة سعيه الحثيث إلى جهاد المشركين، ومن جهة أخرى حرصه على مراعاة أهل الأندلس الذين ينتمون إلى الأمة الإسلامية، وأسعفه الحظ بإفحام مبعوث العاهل الأندلسي والتشهير

(11) البربر، 542/2.

بموالاة خصمه «لأعداء الله» بصورة مخزية[12].

إلا أن ما كان يهم الخليفة الفاطمي بوجه خاص، أثناء المجالس التي عقدها لنقض رسالة الناصر على رؤوس الملأ فقرة فقرة ـ وقد روى لنا النعمان وقائعها بكل أمانة ـ هو إظهار نفسه على حساب خصمه الأموي بمظهر أمير المؤمنين الحقيقي ونصير دين الله الذي يدعو إلى جهاد المشركين، فشهّر بشدة بالتحالف الأندلسي البيزنطي وأدان مرات متتالية موقف الأمير الأندلسي الذي لم يتورع من الانضمام إلى صف المشركين. ألم يكن انتصار جيوشه على القوات الأندلسية والبيزنطية المتحالفة دليلاً على نصرة الله لقضيته وتسليط عقابه عزّ وجلّ على الخصم الأندلسي في الحياة الدنيا؟.

كما انتهز المعز هذه المناسبة للإشادة بتفوق إفريقية في الميدان العسكري،، وبدورها في صيانة العلوم الشرعية، ووفرة خيراتها وازدهار ثقافتها، وإقامة الدليل على أن الأندلس مدينة لها في هذه الميادين، على أن ما قاله الخليفة الفاطمي في هذا المضمار للثناء على العراقيين والإفريقيين وبالتالي للحط من شأن الأندلسيين ليذكرنا بما أبداه الجغرافي الشهير ابن حوقل في نفس تلك الفترة من آراء غير مشرفة حول أهل الأندلس[13].

وإذا تأملنا في الحجج التي استعملها المعز لنقض رسائل خصمه فقرةً فقرةً أمكننا استعادة نظريات هذا الأخير واكتشاف نواياه الحقيقية. فهو لم يتردد قطعاً في توجيه أخطر التهم إلى النظام الفاطمي، مثل قتل الداعي أبي عبد الله ومنع الحجيج الأندلسيين من عبور إفريقية وانعدام التسامح الديني وانتهاك حرمة اللقب الخليفي، حيث وضع الخليفة الفاطمي نفسه في مقام الأنبياء، ولم يتوان أيضاً في الدفاع عن قضيته والثناء على أسرته[14]. ولكننا نشعر أنه كان يسعى مع ذلك إلى الحصول على هدنة وإبرام الصلح مع خصمه، حتى يتمكن من

---

(12) المجالس، ص 167 - 169.

(13) إسبانيا الإسلامية، ص 70، الهامش 1.

(14) المجالس، ص 177 وما بعدها.

التفرغ لخوض غمار الحرب في شمال إسبانيا، لا سيما ضد مملكة ليون. ولا غرو أن مساعي عبد الرحمان الثالث غير المعلنة كانت تتمثل في ربح الوقت وإرجاع النزاع مع الخليفة الفاطمي إلى مستوى الجدل الديبلوماسي، وتحويل وجهته العدوانية نحو البيزنطايين.

ولكن المعز لم ينخدع. فقد أدرك أن خصمه يسعى إلى تضليله، وأصر على موقفه. ذلك أنه كان مطلعاً بما فيه الكفاية بواسطة جواسيسه في الأندلس على ما كان يتعرض له الخليفة الأموي من صعوبات للتغلب على خلفاء رميـرو الثاني في مملكتي ليون وبمبلونة النصرانيتَيْن. ولا شك أنه كان يرى الوقت مناسباً لتكثيف العمليات الحربية. فأعلن بمحضر المبعوث الأندلسي عن عزمه على عدم التوقف عن القتال[15].

وفي انتظار استئناف الحرب، تواصلت الاستعدادات على قدم وساق في كل من الأندلس وإفريقية على حد سواء. واستمر اللعن من الجانبين على منابر جامعَيْ قرطبة والمنصورية. ومع ذلك فقد انقضت حوالي سنتين قبل أن يشن المعز الحرب، وقد قرر هذه المرة القيام بعملية حربية على نطاق واسع في المغرب الأقصى والأندلس.

ولقد أمدنا الأخباريـون الحريصون على نقل أخبار المآثر الحربية بمعلومات غزيرة حول هذه الحملة الشهيرة[16]. وأضاف القاضي النعمان في **مجالسه**[17]. بعض التفاصيل التي توضح أهدافها. فقد أخذ المعز بعين الاعتبار بُعْد المغرب الأقصى وارتفاع جباله ووعرة مسالكه، ولذلك دعا المتوطعين للجهاد إلى الانضمام إلى جيشه. فقدم شبان كتامة زرافات ووحدانا مسرعين إلى الالتحاق بصفوف الجيش ومظهرين حماساً بالغاً. وقد ابتهج المعز بإقبالهم

(15) نفس المصدر، وحول مقاومة مملكتي ليون وبمبلونة لمحاولات التوسع الأموي، انظر، **إسبانيا الإسلامية**، ص 65 - 77.

(16) **البيان**، ص 222 و**البربر** 543/2 - 54 و 214/3 - 215.

(17) **المجالس**، ص 254 وما بعدها.

على خدمته وحسن سلوكهم «فأوسع لهم العطاء وأجزل لهم الحباء». وقبل انطلاقهم دخلوا عليه فوجاً فوجاً، فألقى فيهم كلمة تدل على مدى تصميمه على بسط سلطانه على الأراضي الواقعة غربي مملكته. وقد أشاد بادىء ذي بدء بما أبداه الجنود الشبان من حماس لنصرة الأسرة الفاطمية، ثم أوضح لهم المهمة التي تنتظرهم. ذلك أن الأمر لا يتعلق بالنسبة إليهم برد اعتداء أو دفع مكروه، ولا يتعلق من باب أولى وأحرى باكتساب الغنائم والأسرى. فالدولة الفاطمية قد بلغت من الثروة والقوة ما يجعلها في مأمن من الاجتياح ومن مطامع الأعداء. إنما الغاية من مساهمتهم في هذه الحملة هو أداء واجب الجهاد المقدس في سبيل الله. فيجب عليهم حينئذٍ جهاد من ادعى الخلافة وتلقب بلقبها وعارض سلطة إمامهم. ذلك أن الله عزّ وجلّ قد خص بالخلافة ذرية الرسول ﷺ (من سلالة ابنته فاطمة). وأمر المعز أولياءه حينئذٍ بقتال من اغتصب تلك الخلافة. وأخيراً أوصى الكتاميين بمؤاخاة الصقالبة في ساحة الوغى، ثم أثنى على هوارة وبني كملان الذين قدموا شواهد الطاعة بعد خضوعهم له[18].

وحسب القاضي النعمان فإن مدعي الخلافة الذي أراد المعز زجره هو الأمير ابن واسول صاحب سجلماسة من بني مدرار، بيد أن الخليفة الفاطمي لم يذكره باسمه. ولا شك أنه فكر في الخطبة التي ألقاها أمام الكتاميين في هذا الأمير الذي «خوطب بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله» إلا أن خطابه يشير أيضاً إلى الجالس على عرش الأندلس الذي نسب إلى نفسه الحق في الخلافة واغتصب بذلك مكسباً خص الله به الأسرة الفاطمية دون سواها[19].

ذلك أن المعز، بإعداده لتلك الحملة الهائلة الرامية إلى إعادة سلطة دولته وهيبتها إلى المغرب الأقصى وتخليص تلك البلاد من النفوذ الأموي، قد فكر لا محالة، إن لم يكن في غزو الأندلس في الحال، فعلى الأقل جعل عرش قرطبة عرضة لخطر جسيم ماثل على أبواب الأندلس، في انتظار توجيه الجنود

(18) نفس المصدر، ص 257.

(19) نفس المصدر ص 414 وبالخصوص ص 483.

الكتاميين المخيفين في الوقت المناسب لافتكاكه، وقد أشار نص من تأليف ابن سهل[20] إلى وجود دعاية فاطمية واسعة النطاق بالأندلس في نفس تلك الفترة. حيث كان أعوان المعز يعملون على نشر خبر يفيد بقرب غزو تلك البلاد من طرف الجنود الإفريقيين المنتصرين في المغرب الأقصى.

ومهما يكن من أمر فإن المعز كان ينوي الاستفادة إلى أقصى حد من تلك الحملة بالسعي إلى انتهاج سياسة توسعية غربي مملكته على حساب خصمه الأموي، تلك السياسة التي كان متعلقاً بها وما فتىء يوصي باتباعها منذ اعتلائه العرش في المنصورية. ويكفي أن نشير إلى ما أولاه من عناية لتنظيم تلك الحملة، لنذكر أهمية الأغراض التي كان يسعى إلى تحقيقها. وقد وقع اختياره لقيادتها على رجل من كبار رجال الدولة، ألا وهوجوهر الكاتب، ذلك المولى اليوناني الأصل الذي تألق في خدمة الدولة أثناء الحملة على أبي يزيد، «ثم عظم أمره وعلا محله إلى أن صار في رتبة الوزارة»[21]. وسيشارك معه في الحملة أشهر القواد وفي مقدمتهم أمير صنهاجة زيري بن مناد وصاحب المسيلة جعفر بن علي بن حمدون.

وفي حدود سنة 959/347 انطلق الجيش الفاطمي في اتجاه تاهرت، حيث أصبح صاحبها يعلى بن محمد اليفرني لا يخفي عزمه على خلع طاعة الخليفة الفاطمي. ذلك أن هذا الأمير كان يضمر حقداً دفيناً ولا يتورع من الدعوة للأمويين، منذ أن خلفه في الحظوة لدى الفاطميين محمد بن خزر المنتمي إلى فرع مغراوة. ومن المحتمل أن يكون الأمير اليفرني قد خشي وصول جوهر إلى المنطقة التي يشرف على حظوظها، فرأى من الفائدة الإعلان عن ولائه للفاطميين واستقبال قائدهم بما يستحق من حفاوة وتبجيل ولعل هذا ما جعل

(20) انظر حول هذا الفقيه والقاضي الأندلسي الذي كان كاتب قاضي قرطبة أبي بكر بن منظور قبل أن يتولى هو نفسه القضاء عدة مرات، لا سيما في غرناطة التي توفي بها سنة 1093، إسبانيا الإسلامية، 80/3.

(21) [اتعاظ، ص 134 - 135]، انظر أيضاً البيان، ص 221.

ابن خلدون ينسب إليه الموقف الموالي للفطاميين والذي اتخذه لما كان جوهر موجوداً في بلاده[22].

إلا أن القائد الفاطمي الذي كان تلقى تعليمات دقيقة من المعز تدعوه إلى التخلص من ذلك الخادم السابق، ما لبث أن تعلل بالاشتباك الذي حصل بين بعض جنود ساقته وبين عدد من بني يفرن المتهافتين على النهب، ليأمر بالقبض على يعلى بن محمد وقتله. كما تم نهب مدينة أيفكان التي كان قد بناها الأمير اليفرني غربي تاهرت، وأسر ابنه يدّو[23]. وهكذا فقد كانت نهاية يعلى بن محمد المفجعة وإرجاع السلطة الفاطمية إلى نصابها في المغرب الأوسط، بمثابة الضربة القاضية المسددة إلى النفوذ الذي كان الخليفة الأموي يسعى منذ عهد بعيد إلى إقراره في النواحي الغربية من بلاد المغرب.

ثم سار جوهر إلى فاس التي كان صاحبها أحمد بن بكر بن سهل الجذامي[23م] قد اعترف «بالحماية» الأموية. ولكنه واجه مقاومة مستميتة أمام أسوار المدينة، ففضل الرحيل فجأة متوجهاً إلى تافللت. وفي سجلماسة عاصمة تلك المنطقة كأن الأمير المدراري محمد بن الفتح بن واسول قد ارتد عن المذهب الخارجي واعتنق المذهب المالكي وتلقب بأمير المؤمنين[24]. وحسب رواية القاضي النعمان، لما اقترب الجيش الفاطمي من سجلماسة، استولى الخوف على ابن واسول فحاول الفرار، ولكن أهل المدينة الذين كانوا تلقوا الأمر بالطاعة من مبعوثي جوهر، قد منعوه من الخروج، ثم قبضوا عليه وسلموه إلى القائد الفاطمي الذي استولى على سجلماسة بلا قتال[25].

وهكذا فإن فتح هذه المدينة الذي وضع مرة أخرى حداً لوجود دُوَيْلة بني

---

(22) البربر، 214/3.

(23) حول مصير يعلى وأخيه، انظر المجالس، ص 217 و 275.

(23 م) [في النص الفرنسي «ابن أبي بكر» والتصحيح من المجالس، ص 385].

(24) إسبانيا الإسلامية، 109/2، وانظر أيضاً حول أسر ابن واسول متمرد سجلماسة، فرحات الدشراوي، الكراسات التونسية، 1956 عدد 15 ص 295 - 299.

(25) المجالس، ص 389.

مدرار قد كان يمثل نجاحاً باهراً بالنسبة إلى الخليفة الفاطمي. ذلك أن فشل محاولة بعث خلافة سنية ثانية غير بعيدة عن الخلافة السنّية الأولى، أي الخلافة الأموية التي كان يسعى إلى تقويضها، قد أقام الدليل - إن كانت هناك حاجة إلى دليل - على تفوق الخلافة الشرعية الوحيدة، في نظره، ألا وهي الخلافة التي يشرف على حظوظها. وهذا يعني أنه قد أصبح «أمير المؤمنين» الوحيد في بلاد المغرب، من الشرق إلى الغرب، في انتظار امتداد مملكته إلى سائر بلاد الإسلام. وبناءً على ذلك فقد أسرع المعز إلى ضربْ السكة باسمه في سجلماسة لتعويض سكة ابن واسول، ونقش عليها هذه العبارة الملائمة للمقام «تقدّست عزة الله»[26]. وقد روى القاضي النعمان أن المعز «دعا بمال أتاه مما ضُرِب بمدينة سجلماسة باسمه، ففرقه على من حضر، وقال تبركوا! فهذا من أول ما ضُرِب لنا بالموضع الذي افتتحه الله»[27]. على أن فتح سجلماسة التي كانت ممر القوافل ومركز تجارة العبيد والذهب السوداني سيضمن للخليفة الفاطمي السيطرة على سوق الذهب الثانية في المغرب بعد قسطيلية التي تقع في مملكته ذاتها، وسيضيف إلى خيرات بلاده مصدر ازدهار جديد سيُحرَم منه خصمه الأموي.

وحسب رواية بعض الأخباريين فقد تابع جوهر مسيرته المظفرة إلى أن وصل «إلى البحر المحيط [المحيط الأطلسي] فأمر أن يُصاد من سمكه وبعثه في قِلال الماء إلى المعز»[27م].

ثم توجه القائد الفاطمي إلى مدينة فاس، فحاصرها وتمكن من افتتاحها عنوة يوم 20 رمضان 24/348 نوفمبر 959 بفضل بسالة الجنود الصنهاجيين وأُسِر

---

(26) البربر، 543/2 و 264/1 - 265 حيث استشهد المؤلف بنص من ابن حزم يختلف عن النص الذي أورده هذا الأخير في نقط العروس ص 76 طبعة القاهرة 1951، وقد سمي فيه النقود التي ضربها ابن واسول باسم «مثاقل شاكرية».

(27) المجالس، ص 224.

(27 م) اتعاظ، ص 135.

أحمد بن بكر وعدد كبير من الأمراء الأدارسة وعُهِد بولاية عاصمتهم السابقة إلى قائد فاطمي[28].

وبعد فتح فاس، ما لبثت بقية المدن الكبرى في شمال المغرب الأقصى أن سقطت الواحدة تلو الأخرى بين يدي قائد المعز، باستثناء طنجة وسبتة. ولم يبق له سوى فتح هذين الثغرين الأمويّيْن ليستولي على المغرب الأقصى بأسره ويهدد الأندلس تهديداً مباشراً. وبالفعل فإن الأخبار الواردة من المغرب منذ نهاية يعلى بن محمد المفجعة قد أثارت الفزع أكثر فأكثر في الأندلس. واضطر الخليفة الأموي إلى التسليم بخضوع المغرب الأقصى للسلطة الأموية، ولكنه بادر إلى تكثيف الاستعدادات الدفاعية في السواحل الأندلسية الجنوبية، لا سيما في ناحية المرية التي وجه إليها إمدادات هامة من العسكر[29].

ولكن قبل نهاية سنة 348/ أوائل 960 قفل القائد الفاطمي راجعاً إلى إفريقية. وكان قد حاول قبل ذلك عبثاً ـ حسب رواية ابن عذاري دون سواه ـ الاستيلاء على تطوان والتوغل في اتجاه مضيق سبتة. ومهما يكن من أمر فإن جوهر لم يفكر في الحين في فتح القاعدتين البحريتين في المغرب الأقصى، طنجة وسبتة، الواقعتين في قبضة القوات الأندلسية، وبالتالي دفع جيشه المنتصر في اتجاه الأندلس. ذلك أن مثل هذه الحملة تتطلب لا محالة استعدادت دقيقة وحشد جيش عرمرم، وبالخصوص تدخل الأسطول الفاطمي في نفس الوقت. والحال أنه قد كان من الواجب عهدئذٍ إبقاء ذلك الأسطول في الواجهة الشرقية بصقلية وقلورية، للتصدي للأسطول البيزنطي، رغم الهدنة المبرمة في سنة 957/346 - 958 بين المعز وقسطنطين السابع لمدة خمس سنوت. ولكن الأمبراطور البيزنطي قد لقي حتفه بالضبط في سنة 959، في الوقت الذي كان فيه

---

(28) البربر، 543/2 - 544. وحسب المجالس، ص 385 - 386 بدأت ثورة أحمد بن بكر في عهد القائم الذي غلبه واعتقله. ثم عفا عنه المنصور وأطلق سبيله. وفي عهد المعز خلع ابن بكر طاعة الفاطميين من جديد ودخل في طاعة الأمويين. وقد أقضّ مضجع الخليفة ثم انتهى به الأمر إلى المثول بين يدي المعز في المنصورية والتماس عفوه.

(29) المجالس، ص 217.

جوهر يواصل حملته المظفرة في المغرب الأقصى. وخلفه ابنه رومانوس الثاني الذي أوصى في الحين بإجراء إصلاحات عسكرية بفضل جهود الوزير الحازم برنغاس وحماس الدمستق الجديد نقفور فقاس. وهكذا فإن العمليات الحربية التي توقفت شرقاً، قد تستأنف ضد البيزنطيين الذين استعادوا كامل حيويتهم في الجبهة الآسيوية لمواجهة الحمدانيين وفي البحر الأبيض المتوسط لمواجهة الفاطميين[30].

على أنه يحق للخليفة الفاطمي أن يعرب عن كامل رضاه عن الحملة الناجحة التي قام بها قائده. أفلم يتحقق هدفه الأسمى المتمثل في الاستيلاء على أراضي المغرب الأقصى وتخليصها من الوصاية الأندلسية والمس بهيبة خصمه الأموي بشكل جدي؟ فلم يعد هناك أي عائق كبير يمكن أن يعترض سبيله الطويل والشاق للوصول إلى الأندلس، وهذا لعمري شيء عظيم. ولم يبق حينئذٍ للجنود الكتاميين البواسل سوى انتظار الوقت المناسب لإعادة الكرة.

وقد خُص جوهر باستقبال حار في المنصورية التي قدم إليها مصحوباً بمجموعة من الأسرى، في مقدمتهم عدد كبير من الأمراء الأدارسة وصاحبا فاس وسجلماسة المتمردان ابن بكر وابن واسول. وقد عامل الفاطميون الأمراء الأدارسة معاملة حسنة لانتسابهم إلى آل البيت. وأما ابن بكر وابن واسول، فقد اعتُقِلا في سقيفة قصر الخليفة، بعدما وُضِع كل واحد منهما على عربة صُنِعَت من أجله «التُجَرّبه في حين النداء عليه»[31].

وقد خصص القاضي النعمان في **مجالسة**[32] بعض صفحات مفيدة لقضية سجلماسة واعتقال ابن واسول. فذكر أن الأسير قد مثل عدة مرات بين يدي الخليفة الفاطمي الذي كان يريد باستجوابه معرفة الأسباب االتي دعته إلى إنكار

---

(30) انظر، تاريخ الحمدانيين في الجزيرة والشام، تأليف M. Canard الجزء الأول، الباب الثالث، الجزائر، 1950.

(31) المجالس، ص 418 و 458 وما بعدها.

(32) نفس المصدر، ص 414 وما بعدها.

إمامته واغتصاب السلطة بتسمية نفسه بأمير المؤمنين. ويبدو حسب المعلومات التي أدلى بها ابن واسول أن سبب مناهضة البربر في تافيللت للفاطميين يرجع إلى اعتبارات ذات صبغة مذهبية لا سياسية. فقد اتهموا المعز بتحريف الدين وإنكار نبوة محمد ﷺ وادعاء النبوة بعده. وأكد القاضي النعمان في هذا السياق أن بني مدرار لم يثوروا على الفاطميين إلاَّ لأنهم كانوا يجهلون حقيقة مذهبهم، وكانت لهم فكرة خاطئة عن إمامة المعز[33]. على أن الفقيه الشهير قد سعى ـ حسبما يبدو ـ خلال محادثته مع الأسير إلى حمله على اعتناق المذهب الفاطمي والرجوع إلى الحق، فقال عنه للخليفة ما يلي:

«هو رجل قد قرأ كتب العامة (يعني المالكية)، إلا أنه بربري الطبع، وكأنه ظن أنه ليس الحق إلى ما انتهى إليه، فرأيته إذا سمع الحق أصغى إليه. وإذا بُيّن وشُرِح وفُسِّر مجمله رجع إليه وانقاد»[34]. وأخيراً ألح القاضي النعمان طويلاً على توبة ابن واسول، ولكنه لم يذكر شيئاً عن مصيره. وأما أنصاره في سجلماسة فما لبثوا ـ بعد عودة جوهر إلى إفريقية ـ أن قتلوا الوالي الذي ولاه عليهم وأقاموا مقامه والياً آخر يقال له منتصر بن محمد بن المعتز. ولكن الوالي الجديد، خوفاً من غضب المعز، قد تحول إلى المنصورية مرفوقاً بعدد من وجوه أهل سجلماسة، حيث قدموا شواهد الطاعة والتمسوا العفو من الخليفة الذي عفا عنهم بعدما أنبهم تأنيباً شديداً، ثم أغدق عليهم العطايا وأرجعهم إلى بلادهم[35].

وبعد بضعة أشهر من رجوع جوهر إلى إفريقية مظفراً، انتشر خبر وفاة خليفة الأندلس عبد الرحمان الثالث يوم 2 رمضان 15/350 أكتوبر 961 واعتلاء ابنه الحَكَم عرش قرطبة[36]. وقد ظهر أن ذلك الحدث سيساعد على تدخل

---

(33) نفس المصدر، ص 415.

(34) نفس المصدر، ص 434 - 435.

(35) نفس المصدر، ص 389 وما بعدها.

(36) إسبانيا الإسلامية، 110/2.

الفاطميين في الأندلس، ذلك التدخل الذي فكر فيه المعز منذ عشر سنين. ولكن أنظار الخليفة الفاطمي كانت متجهة وقتئذٍ صوب الجبهة الشرقية حيث استؤنفت العمليات الحربية مع البيزنطيين منذ أن احتل نقفور فقاس جزيرة قريطش يوم 15 محرم 6/350 مارس 961. وابتداء من ذلك التاريخ ستشغل الحرب مع البيزنطيين المعز طوال عدة سنوات سيقتصر فيها على إبقاء الأراضي التي احتلها قبل ذلك قائده جوهر في المغرب الأقصى تحت سلطته[37]. وبناءً على ذلك فقد اكتفى بمتابعة تطور الوضع في تلك الربوع بواسطة أعوانه الموجودين في المغرب الأقصى والأندلس ذاتها. واغتنم الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر بالله هذه الهدنة ليستعيد شيئاً فشيئاً الروح الهجومية التي تميز بها والده قبل ذلك بعشر سنين. وستتواصل بنجاح حتى رحيل المعز نهائياً إلى مصر، سياسته المغربية التي خصص لها ليفي بروفنسال صفحات غزيرة المادة، سننقل فيما يلي أهم ما جاء فيها من المعلومات بالإضافة إلى بعض المعطيات الهامة التي استقيناها من مصدر لم يسبق نشره من قبل وهو كتاب «أحكام» ابن سهل[38].

فقد ورث الحَكَم الثاني عند اعتلائه العرش القاعدتين البحريتين الواقعتين في الضفة المغربية، وهما طنجة وسبتة اللتان لم تتعرضا لهجومات القائد الفاطمي المظفر. وحرص بادىء ذي بدء على تعزيز القاعدة الثانية بإتمام بناء سورها في سنة 962/351. ثم أصدر مرسوماً يقضي بإعفاء أهلها من دفع جميع الضرائب والرسوم التي وظفتها عليهم الجباية القرطبية. وحرصاً على ضمان ولاء بربر «العدوة» سهر أيضاً على توثيق علاقات الولاء مع القبائل المتأثرة بالنفوذ الأموي، وإغداق العطايا على رؤسائها. كما سعى في داخل مملكته ذاتها منذ اعتلائه العرش إلى تعزيز سلطة أهل السنّة ومطاردة أنصار المذهب

---

(37) انظر قضية قريتش في الفصل الثالث من هذا الباب.

(38) إسبانيا الإسلامية، 184/2 - 196، انظر المعلومات التي قدمها ابن سهل حول النزاع الأندلسي الفاطمي في عهد الحكم الثاني، في مجلة الأندلس، الكراس الأول، 1958، ص 97 - 106.

الشيعي وأعوان خصمه في إفريقية لمقاومة الدعاية الفاطمية[39]. وعلى هذا الأساس فإن محاكمة أحد دعاة المعز المدعو أبو الخير الذي حوكم وأُعْدِم في قرطبة في أوائل عهد الحكم الثاني، تلك المحاكمة التي لم يشر إليها سوى ابن سهل، تقيم الدليل على إصرار العاهل الأندلسي على التصدي بكل قوة لأي محاولة تسرب شيعي إلى مملكته، . وقد اتهمت السلطة العون الفاطمي بجريمة الزندقة التي ارتكبها ضد أمن الدولة، كما اتهمته في نفس الوقت بالخروج عن «مذهب الأندلس» (أي المذهب المالكي)، وإظهار ميوله إلى المذهب «الملعون» الذي يعتنقه أصحاب إفريقية، والقيام بحركة دعائية نشيطة داخل البلاد لفائدة الفاطميين، عن طريق نشر مذهبهم وإنكار شرعية الخلافة الأموية وإعداد الثورة في قرطبة لحساب الخليفة الفاطمي. ومن بين الشهادات التي أدلى بها بعض الشهود ضد المتهم، تتعلق أهم شهادة بوقائع ذات صبغة سياسية. حيث اتُهِم أبو الخير بالقيام بدعاية واسعة النطاق في عدة مدن، لا سيما منها سبتة، والرغبة في حشد جيش عظيم يضم 5000 فارس لاقتحام الزهراء والاستحواذ على الحكم لحساب مخدومه. كما اتُهِم بابتهاجه بانتصار جوهر في المغرب الأقصى واستيلائه على فاس. ووُجِّهَت إليه أخيراً تهمة الإعلان على رؤوس الملأ عن قرب اجتياح جنود القائد الفاطمي للأراضي الأندلسية.

وقد أصبحت المحاكمة وأطوارها موضوع أحاديث الناس في قرطبة، لا سيما تدخل الخليفة الأموي للمصادقة على الحكم بالإعدام الذي صدر ضد العون الفاطمي والإذن بتنفيذه دون استئناف. وتعتبر الضجة التي أثيرت حول هذه القضية مؤشراً للفزع الذي استولى على أهل قرطبة غداة وفاة عبد الرحمان الثالث، في حين كانت جيوش جوهر تمثل منذ استيلائه على فاس خطراً جسيماً يهدد كيان الأندلس. ويدل رد الفعل الحازم من قِبَل المذهب السنّي الرسمي،

(39) إسبانيا الإسلامية، 185/2. وقد وردت المعلومات المتعلقة بسبتة في البيان ص 227 بعنوان سنة 353.

على مدى انشغال بال الأمويين وخوفهم من إقدام جوهر على اقتحام قاعدتَيْ سبتة وطنجة وتوجيه الحشود الكتامية إلى بلادهم.

على أن اليقظة التي أبداها الحَكَم الثاني منذ اعتلائه العرش، بالإضافة إلى براعة سياسته المغربية، سوف تؤتي أكلها، وسيتلاشى الخطر الفاطمي على ممر السنين. وقد تمكن الحكم الثاني في آخر الأمر، بواسطة الدسائس وتوزيع المال على الأنصار، من إعادة الزناتيين إلى الحظيرة الأموية وفي مقدمتهم أميرهم الجديد محمد بن الخير، حفيد أمير مغراوة محمد بن خزر الذي كان قد انضم إلى الفاطميين، كما أسلفنا. ذلك أن القبائل الزناتية العتيدة المتعذر إخضاعها، والمتأثرة شديد التأثر بالمذهب الخارجي قد كان من الصعب عليها قبول الوصاية الفاطمية بطيبة خاطر، بل كانت تنتظر الوقت المناسب للثورة على صاحب إفريقية والدخول في طاعة الخليفة الأموي. أضف إلى ذلك أن هذا الأخير يستطيع بسهولة الاستفادة من التطور الحاسم الذي شهدته عهدئذٍ سياسة خصمه الفاطمي على الصعيد الخارجي، ذلك التطور الذي سيترك المجال مفتوحاً أكثر من ذي قبل للتوسع الأندلسي في المغرب الأقصى[40].

ذلك إن المعز الذي كان مشغول البال، منذ انتهاء الحرب مع البيزنطيين في سنة 965/355 - 966، بالانتصارات العسكرية التي أحرزها القرامطة في الشام، وهجوماتهم الموجهة ضد مصر، وميلهم إلى إنكار إمامته جهرةً، قد أصبح يولي كامل عنايته إلى المملكة المصرية الإخشيدية التي كان يفكر في فتحها[41]. وسيكرس جهوده ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ منذ استيلاء كافور على الحكم في الفسطاط، وبالخصوص اعتباراً من وفاة هذا الأخير، لإعداد حملة سنة 969/358 الشهيرة التي سيشرف عليها قائده المفضل جوهر، وستفتح في وجهه طريق المشرق وسيختار الزناتيون هذه الفترة بالذات لرفع رؤوسهم من جديد ومد يد المساعدة إلى التوسع الأموي في المغرب الأقصى. وسيبلغ

---

(40) البربر، 233/3.

(41) إسبانيا الإسلامية 185/2 - 186.

الصراع القائم في تلك البلاد منذ بضعة عقود بين المملكتين الأموية والفاطمية ذروته قبيل رحيل المعز نهائياً إلى مصر.

وفي غضون سنة 969/358 ثار بعض الزناتيين الخوارج بقيادة رئيسهم أبي خزر وقاموا ببعض الغارات الناجحة في ناحية باغاية، في حين كانت الحملة على مصر متواصلة بنجاح. فأسرع المعز إلى الزحف بنفسه على المتمردين الذين تفرقوا واعتصموا بجبال أوراس منذ وصوله إلى باغاية. ولذلك فقد قفل راجعاً إلى عاصمته بعدما أوكل مهمة مطاردتهم إلى مساعده القائد الصنهاجي بلكين بن زيري. اضطر أبو خزر الذي استمرت ملاحقته بضعة أشهر إلى التحول إلى المنصورية لالتماس العفو من الخليفة الفاطمي لنفسه ولرفيقه الإباضي أبي نوح، وذلك في شهر ربيع الثاني 359« فبراير مارس 968[42].

وفي تلك الفترة بالذات كان أمير زناتة محمد بن الخير يواصل غاراته في ناحية تاهرت. وأصبحت الاضطرابات التي كان يثيرها بلا ردع تشغل بال المعز الذي كان يتأهب لنقل مقر الخلافة الفاطمية إلى مصر، ويؤجج الخلافات التقليدية القائمة بين الزناتيين والصنهاجيين المكلفين بإدارة إقليم تاهرت. وقد عهد الأمير الصنهاجي زيري بن مناد إلى ابنه بلكين بمهمة الهجوم على الزناتيين في أراضيهم ذاتها الواقعة غربي تاهرت بالقرب من تلمسان، ودارت المعركة بين الفريقين يوم 15 ربيع الثاني 16/360 فبراير 971 وانتهت بانتصار الصنهاجيين. وتكبد الزناتيون خسائر فادحة ولقي سبعة عشر أميراً من أمرائهم مصرعهم، وفضل رئيسهم محمد بن الخير الانتحار. وقد أشاد المعز رسمياً بهذا الانتصار الباهر وزف البشرى إلى جوهر في مصر ووجه إليه في نفس الوقت رؤوس 3000 مقاتل زناتي مع رأس أميرهم محمد بن الخير[43].

وقد مكنت المساعدة الصنهاجية الخليفة الفاطمي في الوقت الذي كان

---

(42) [الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية** (الترجمة العربية) 62/1 - 63] انظر أيضاً سيرة جوذر، ص 109.

(43) إدريس، المرجع المذكور 63/1 - 64. انظر أيضاً إسبانيا الإسلامية، 186/2 - 187.

يتأهب فيه لمغادرة إفريقية من إقامة سد منيع للوقاية من أعمال الزناتيين التخريبية وإحباط المساعي التي ما انفكوا يقومون بها لدعم القضية الأموية. وهكذا فقد كان باستطاعة المعز تثبيت هيمنته في المغرب، رغم ما شهدته من تراجع عابر، لولا ذلك الحدث الجسيم الذي سيسدد إليه ضربة قاسية بعد ذلك بقليل، والمتمثل في خروج عامل المسيلة جعفر بن علي عن طاعته ووفاة زيري بن مناد إثر ذلك.

ومن الجدير بالتذكير أن أسرة بني حمدون التي ينتمي إليها جعفر بن علي قد تقلدت أسمى المناصب في الدولة الفاطمية منذ انبعاثها في القرن العاشر من الميلاد، وكان والده وجده قد تألقا في خدمة الأئمة، وما انفك نفوذ هذه الأسرة يتعاظم في عاصمة الزاب، المسيلة التي كان القائم بأمر الله قد كلف علي بن حمدون ببنائها سنة 925/325. وكان جعفر بن علي، أخو المعز من الرضاع، قد تربى مع شقيقه يحيى في بلاط الخليفة الفاطمي بالمهدية برعاية الحاجب جوذر، ثم خلف أباه في ولاية المسيلة مع احتفاظه برعاية الحاجب جوذر، ثم خلف أباه في ولاية المسيلة مع احتفاظه بكامل السلطة. وكان يحظى بتقدير الخليفة ورعايته، ومع ذلك فإنه لم يلبث أن شعر أكثر فأكثر بغيظ شديد كلما ازداد جاره صاحب أشير الأمير الصنهاجي زيري بن مناد، نفوذاً ومجداً ثم احتدت المنافسة بينهما لما أضيفت إلى ممتلكات زيري ولاية تاهرت وإقطاعات يعلى بن محمد اليفرني الذي قتله جوهر أثناء حملته المظفرة سنة 559 - 958/347. واعتباراً من ذلك التاريخ نشبت خلافات بين جعفر وبلكين بن زيري الذي زادته انتصاراته العسكرية على الزناتيين حظوة لدى المعز. وقد روى الأستاذ جوذر في سيرته[44] أن الخليفة قد عقد جلسة خاصة بمحضر الخصمين لحسم خلافاتهما وإصلاح ذات البين بينهما.

بل أكثر من ذلك، فإن جوذر ذاته قد لمح إلى أن جعفر لم يكن يخفي فتور مشاعره، بل ربما شيئاً من الحقد، تجاه المعز، وذلك بلا شك حوالي

(44) سيرة جوذر، ص 100.

سنتَيْ 357و 967/358 - 68 - 69. ومما يؤيد هذا الاحتمال ما جاء في الرسالة التي وجهها الخليفة إلى حاجبه حول هذا الموضوع، وقد قال فيها بالخصوص: «يجب أن تؤكد على جعفر موافاة نفسه وأخذها بما يجب لنا عليه من امتثال أمرنا»[45].

على أن والي المسيلة قد كان يتجاوز سلطاته ولا يدفع لخزينة الدولة إلا قسطاً زهيداً من المداخيل التي يتحصل عليها. وقد نصح جوذر الخليفة الذي اشتكى من سوء تصرف خادمه، بعزله. ولكن المعز قد فضل التحلي بالصبر وعدم سحب ثقته منه بسبب ما اكتسبته أسرته من حظوة. فقد كتب إلى حاجبه حول هذا الموضوع بالذات ما يلي:

«اكتب إليه جميل نظرنا إليه وحفظنا له. إن الواجب على من كان في مثل حاله أن يقابل النعم بالشكر ويجتهد فيما يعلم أنه يرتهنها به من سعي محمود أو آثار مرضية.. فلا يدع عليه حجة نسائله عنها ونطلبه بها من تقصير وتفريط ولا يجعل سلم والده الذي ارتقى به إلى رضانا وأبقاه له بعده سلمه هو إلى الانحطاط»[46].

والواقع أن الموقف الملتبس الذي اتخذه جعفر إزاء بني أمية كان أخطر من سوء تصرفه المالي. فمن المحتمل أن يكون الحكم الثاني قد مهد لعقد صداقة معه سواء بصورة مباشرة أو بواسطة حلفائه الزناتيين وقد أكد كل من الشاعر ابن هانيء الذي أقام مدة من الزمن في بلاط المسيلة والحاجب جوذر وجود بعض الأعوان الأمويين بعاصمة الزاب. إذ كان بها رجل يقال له عثمان بن أمين، كان يكاتب الخليفة الأموي، وكان جعفر على علم بذلك. كما كان هذا الأخير يرعى أحد أفراد حاشيته المدعو ابن رماحة، «فلا يقف له في حاجة ويُعْنَى بأسبابه ورباعه وأملاكه العناية الوكيدة»[47].

---

(45) نفس المصدر، ص 101.

(46) نفس المصدر، ص 141.

(47) نفس المصدر ـ ص 123 - 124.

ومن ناحية أخرى كان والي المسيلة يبدي تعاطفه مع الزناتيين، وعوض مساندته للصنهاجيين، كما يفرض عليه الواجب ذلك، كان يحافظ على علاقات حسن الجوار مع محمد بن الخير أمير زناتة. وبناءً على ذلك فقد أمسك عن مد يد المساعدة إلى بلكين بن زيري أثناء حملته الناجحة على الإقطاعات الزناتية سنة 971/360، الأمر الذي ساعد على زوال حظوته لدى المعز الذي قيل إنه فكر في استخلافه بإفريقية لما عزم على الرحيل إلى مصر، ولكنه عدل عن ذلك[48].

وقبل مدة قليلة من رحيله إلى مصر، استدعى المعز إلى المنصورية جعفر الذي لم يبادر إلى تلبية الدعوة، فكلف الخليفة فرج الخادم بأن يستقدمه من المسيلة. ولما علم جعفر بذلك ـ وكانت هناك أسباب كثيرة تدعوه إلى الخوف من غضب المعز ـ لم يتردد في اتخاذ قرار لا شك أنه قد خامر ذهنه منذ مدة طويلة، ألا وهو خلع طاعة الفاطميين والانضمام في أقرب وقت ممكن إلى بني أموية بالأندلس وحلفائهم الزناتيين، وقد نفذ جعفر هذا القرار في الوقت الذي كان فيه فرج يقترب من المسيلة (جمادى الثانية 360/ أبريل 971). فتظاهر بالتوجه إليه، ولكنه سار مع عائلته وجنوده في اتجاه الغرب، ملتحقاً بالزناتيين الذين خصوه بأحسن استقبال[49].

فأسرع المعز برد الفعل وأمر زيري بملاحقة الخائن ومعاقبته فزحف القائد الصنهاجي على الزناتيين وحليفهم في رمضان 360/ يوليو 971، أي بعد أقل من شهرين من ارتداده. ولكن الزناتيين ورئيسهم الخير بن محمد بن الخير الذي كان يرغب في الأخذ بثأر أبيه قد كانوا في انتظاره بثبات. فمُنِيَ الصنهاجيون بهزيمة نكراء وسقط قائدهم زيري بن مناد من فوق جواده الذي كبا به، ووقع في قبضة أعدائه، فقتلوه وكُلِّف يحيى بن علي أخو جعفر وجماعة من وجوه زناتة بحمل رأسه إلى الخليفة الأموي الحكم الثاني. ثم تحول جعفر بدوره إلى الأندلس

(48) انظر الفصل السادس من هذا الباب.

(49) انظر بالخصوص الهادي روجي إدريس، المرجع المذكور.

حيث خُصّ هو وأخوه وأتباعهما باستقبال حارّ واجتمع بهم الخليفة في حفل بهيج يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة 19/360 سبتمبر 971[50].

ويمكننا أن نتصور ما شعر به المعز من ألم لما بلغه، وهو في قصره بالمنصورية، على التوالي خبر ارتداد ابن حمدون ثم فقدان أمير صنهاجة المخلص الأمين. أفلا يخشى، وهو يتأهب لمغادرة المغرب نهائياً، ضياع ثمرة المجهودات المتواصلة التي بذلها منذ اعتلائه العرش لفرض سلطته على الزناتيين والقضاء على نفوذ أعدائه الألداء الأمويين في المغرب؟ فيتعين عليه حينئذٍ الإسراع برد الفعل فوراً، لا سيما وأن أمير صنهاجة الجديد بلكين بن زيري قد كان لا محالة حريصاً على الأخذ بثأر أبيه. ولذلك فقد بادر الخليفة الفاطمي بتوجيه الإمدادات إلى أشير، لتمكين بلكين من القيام بحملة على زناتة في الحين[51].

فزحف بلكين منذ أواخر سنة 360/ خريف سنة 971 م. على الحضنة والزاب، وقتل خلقاً كثيراً من قبائل مزاتة وهوارة ونفزة وزناتة في نواحي طبنة والمسيلة وباغاية وبسكرة. ثم سار نحو الغرب في اتجاه تاهرت، فقتل الزناتيين بلا شفقة ولا رحمة، واقتفى أثر أميرهم الخير بن محمد إلى أن وصل إلى تافيللت، فتمكن من القبض عليه وقتله، ولكنه اضطر في آخر الأمر إلى توقيف هذه الحملة الخاطفة للعودة إلى إفريقية، حيث سيكرمه المعز قبل رحيله إلى مصر، وسيعينه نائباً عنه في المغرب بأسره[52].

وهكذا لم ينفك المعز لدين الله الفاطمي طوال عشرين سنة، أي منذ تتويجه إلى خروجه من المغرب، يواصل بثبات الكفاح الذي بدأ منذ قيام الدولة الفاطمية، ضد بني أمية في المغرب الأقصى. ذلك أن الصراع الحاد الذي اندلع منذ أوائل القرن العاشر من الميلاد في الغرب الإسلامي بين المذهب الشيعي

---

(50) إسبانيا الإسلامية، 188/2.

(51) إدريس، المرجع المذكور.

(52) انظر الفصل السادس من هذا الباب.

المنتصر، والمذهب السنّي المالكي الذي ينتمي إليه الأميران الأمويان بالأندلس، قد شهد في عهد المعز أشد العمليات الحربية ضراوة، مثل الغارة المشهودة على المرية سنة 955 وجولة جوهر المظفرة سنة 958 هـ. كما بلغ هذا النزاع السياسي والديني ذروته في منتصف هذا القرن. ويرجع سبب ذلك إلى مطامع الخليفة الفاطمي التوسعية أكثر مما يرجع إلى صلابة خصمَيْه الأمويَّيْن الناصر والمستنصر. فقد أدرك المعز من أول وهلة ما يمكن أن يجنيه من فائدة من انضمام الصنهاجيين إلى قضيته. فحرص على توطيد أواصر الولاء التي تربط بينهم وبين أسرته، واستغلال المنافسة القبلية القديمة القائمة بين هؤلاء القوم المستقرين في المغرب الأوسط وبين الزناتيين الرُّحَّل، وذلك لإخضاع زناتة وإذلال بين أميّة، وبسط سلطانه في المناطق الواقعة غربي مملكته على حدود الأندلس. ولم يلبث الصنهاجيون أن أصبحوا بعد الكتاميين أداة السطوة الفاطمية في المغرب. وبطبيعة الحال فإن المعز لدين الله الفاطمي، بعدما استغل وفق المراد قوتهم الهائلة لرفع سلطته إلى أعلى عليين على حساب قرطبة، قد سلم إليهم الأمر قبيل رحيله إلى مصر، ليمسكوا نيابةً عنه بمقاليد الحكم في بلاد المغرب التي سيغادرها نهائياً.

الفصل الثالث

تعاظم قوة بني الكلبي في صقلية ومواصلة الحرب ضد الروم

1 ـ النزاع البيزنطي ـ الفاطمي في صقلية وجنوب إيطاليا:

لقد تمكن الحسن بن علي بن الكلبي ـ كما أسلفنا ـ قبيل وفاة الخليفة الفاطمي المنصور، إثر قيامه بحملة عسكرية ناجحة، من فرض الهدنة على القسطنطينية التي أوفدت مبعوثاً إلى المنصورية لإبرام معاهدة لهذا الغرض. وكنا أشرنا من ناحية أخرى إلى التقارب البيزنطي الأندلسي والتحالف المعقود بين إمبراطور الروم قسطنطين السابع والخليفة الأموي عبد الرحمان الثالث، في الوقت الذي اندلعت فيه الحرب بين الخليفة الفاطمي وخصمه الأندلسي. ومنذ أن انطلقت الحملات البحرية من إفريقية والأندلس في سنة 955/344، اضطرت القسطنطينية إلى مد يد المساعدة إلى حلفائها الأندلسيين، معتبرة أن الوقت قد أصبح مناسباً لأخذ الثأر من العدو الفاطمي. فبادر الروم إلى إلغاء معاهدة الهدنة المبرمة معه، وقد شجعتهم على ذلك بلا شك الانتصارات التي أحرزتها جيوشهم في المواجهة الشرقية ضد الحمدانيين في الشام، واستأنفوا العمليات الحربية في صقلية وقلورية[1].

---

(1) بالنسبة إلى الحملة البيزنطية في الواجهة الشرقية في منتصف القرن العاشر، يكفي الاطلاع على الباب الثالث من كتاب M. Canard «تاريخ الدولة الحمدانية في الجزيرة والشام» وكذلك الباب الثاني من كتاب Schlumberger «امبراطور بيزنطي من القرن العاشر»، باريس 1923. ويمكن أيضاً الرجوع إلى المصادر العربية التي حققها Vassilev، 97/2 - 98 (يحيى بن سعيد)، 116/2 - 117 (ابن الأزرق الفارقي)، 182/2 - 184 (كمال الدين).

وفي غضون سنة 955/344 - 56، بينما كان الأسطول الفاطمي يقوم بعملياته الحربية ضد الأندلس في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، بقيادة الحسن بن علي الذي خلفه ابنه أحمد في صقلية منذ سنتين، إذ أرسى في ميناء رجيو أسطول بيزنطي بقيادة بازيل قائد البارجة بروتوكارابوس. ومن هناك شن الجنود البيزنطيون غارات ناجحة على المواقع الإسلامية في صقلية، لا سيما في ترميني ومازرة، وهدموا المساجد وقتلوا خلقاً كثيراً. فقدمت عمارة فاطمية من إفريقية لنجدة المسلمين في صقلية، بقيادة شقيق الحسن بن علي، عمار الذي شتى في بلرم، ثم شرع في الأيام الأولى من فصل الربيع في الهجوم على الروم. وفي أوائل سنة 345 هـ (15 أبريل 956 - 3 أبريل 957 هـ) التحق به أخوه الحسن الذي قام قبل ذلك بقليل بغارة ناجحة على قلورية[2].

فلاذ الروم الذين كانوا تحت إمرة القائد مريانوس بالفرار، بعدما تغلب عليهم الأخوان عمار والحسن بن علي، حسبما جاء في أخبار كمبريدج[3]. ولم يستحوذوا إلا على مركب فاطمي وحيد أرجعوه فيما بعد، حسب رواية القاضي النعمان[4]. وقد تعرض أسطول الحسن بن علي في البحر لعاصفة هوجاء أتت عليه، وضل عدد كبير من المراكب الطريق، ولقي كثير من المقاتلين الذين كانوا على متنها مصرعهم. فشجعت هذه الكارثة الروم الذين استولوا على اثني عشر مركباً من مراكب المسلمين، بالقرب من جزيرة الرحيب، وكبدوهم خسائر فادحة، واحتلوا مدينة محصنة تقع على سواحل صقلية وأوقعوا أهلها في الأسر. وحاول الحسن بن علي إنقاذ الموقف، فجهز أسطولاً بقيادة أخيه عمار للقيام بحملة على قلورية. ولكن هذا الأسطول قد غرق بدوره في الليل ومعه القائد عمار الذي عُثِر على جثته في الصباح وسط حطام السفن، فنُقِل إلى بلرم ودُفِن بها.

(2) Vassilev 106/2 (أخبار كمبريدج)، أماري، **تاريخ المسلمين في صقلية**، 288 - 290.

(3) نفس المرجع.

(4) انظر **المجالس والمسايرات** ص 180. وحول العمليات التي أسفرت عن مقتل عمار بن علي، ومصائب الأسطول الفاطمي، انظر، أماري، المرجع السابق، 290/2 - 291 و Vassilev، 224/2 - 226 (كتاب العيون) و 257/2 (ابن الخطيب).

ورغم هذه الخسائر الجسيمة التي تكبدتها جيوشه، استطاع الحسن بن علي التصدي للروم ومنعهم من اجتياز صقلية والتوجه إلى السواحل إفريقية. وقد باء هجومهم بالفشل في آخر الأمر، وأخفقت في نفس الوقت الحملة التي قام بها أسطول حلفائهم الأندلسيين. وقد أكد المعز، حسب رواية النعمان، أن هدفها لم يكن سوى «البلوغ إلى المهدية»[5]. وعندئذٍ قرر الامبراطور قسطنطين السابع التصالح مع الخليفة الفاطمي، حرصاً منه لا محالة على تجميع قواه للقيام بحملة عسكرية واسعة النطاق على سيف الدولة، ورضي بدفع الجزية «عن أرض قلورية»[6]. فجرت مفاوضات بين الحسن بن علي وحاكم قلورية في أوائل سنة 957/346 - 58 بلا شك، للاتفاق على وقف القتال. وتعهد الروم بالإفراج عن أسرى أهل المشرق إلى جانب أسرى أهل إفريقية وصقلية. وقد أثارت هذه البادرة الفريدة من نوعها حمية المعز الذي اعتبرها دليلاً على أن بيزنطة قد اعترفت به لا بوصفه خليفة على المغرب فحسب، بل أيضاً على الشام والشرق الإسلامي بأسره، وإثر ذلك غادرت الأراضي البيزنطية في اتجاه إفريقية خمس عشرة سفينة محملة بالأسرى ومشحونة بالهدايا الثمينة، «من آنية الذهب والفضة المرصعة بالجواهر وديباج وحرير وبرذون وغير ذلك من نفيس ما عندهم». كما أبحر في اتجاه المنصورية في نفس الوقت «بطريق من بطارقة الروم» محملاً برسالة إلى صاحب إفريقية، ومكلفاً بإبرام الصلح معه[7].

«وكانت أخبار صقلية أبطأت على المعز ولم يرد منها كتاب ولا رسول»[7م]. وبينما كان مشغول البال بذلك إذ بلغه خبر قدوم رباح، غلام الحسن بن علي عما قريب، وسيعقبه قدوم مبعوث إمبراطور الروم. وبعد ذلك

(5) [المجالس، ص 176].

(6) [نفس المصدر، ص 367]. انظر، أيضاً، Vassilev، 79/2 - 89 (يحيى بن سعيد) و 418/2. أماري، المرجع المذكور، 204/2 وما بعدها وانظر أيضاً، دائرة المعارف الإسلامية (2) (الفاطميون)، ص 873.

(7) المجالس، ص٧٦٣ وافتتاح الدعوة، الفقرة 303.

(7 م) [سيرة جوذر، ص 125].

بقليل استقبل الخليفة الفاطمي البطريق البيزنطي أثناء موكب فخم. وقد وصف لنا القاضي النعمان الذي كان شاهد عيان المقابلة التي جرت بينهما، وصفاً مفصلاً في مجالسه[8].

وحسب شهادة ذلك الفقيه الشهير، التمس مبعوث قسطنطين السابع من المعز إبرام «هدنة مؤبّدة» وتوجيه «رسول من قِبَله» إلى القسطنطينية لإقامة علاقات ممتازة ودائمة بين البلدَيْن. «فأجاب المعز الرسول عن ذلك بأن الدين والشريعة يمنعان الهدنة المؤبدة... فإن الموادعة إنما تجوَز لمدة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صلاحاً لهم وللدين، ولو كانت مؤبدة لبطل الجهاد المفروض على العباد».

أما بخصوص توجيه رسول إلى القسطنطينية، فقد أجاب الخليفة الفاطمي بقوله: «إن أحداً من الناس لا يرسل رسولاً إلى أحد إلا لحاجة له إليه ولأمر يجب له عليه، ونحن بحمد الله لا نعلم أن لنا إلى صاحبك من حاجة ولا له علينا أمر واجب. فلماذا نرسل إليه رسولاً؟»[9]. اللهم إلا إذا كانت هذه البادرة ترمي إلى حمل الأمبراطور على اعتناق الدين الإسلامي.

ثم أخذ المعز يسأل الرسول «في حديث أطاله» عن حال العلاقات بين الروم وبين الحمدانيين وأهل طرسوس[10]، محاولاً بسؤاله عن الوضع في الشام أن يستقي بصورة غير مباشرة بعض المعلومات التي من شأنها أن تفيد سياسته الشرقية. وقد تأثر البطريق بفخامة الاستقبال وأُعجِب بعظمة موقف الخليفة وما اتسمت به أقواله من وقار. وبعدما أقام مدة قصيرة بالمنصورية قفل راجعاً إلى القسطنطينية محملاً بجواب المعز على الرسالة التي سلمها إليه.

---

(8) أورد القاضي النعمان في المجالس أخبار هذه السفارة التي أشار إليها إشارة خاطفة في افتتاح الدعوة الذي انتهى من تأليفه في سنة 346 وهي بالضبط السنة التي استُقبِل فيها المبعوث البيزنطي في المنصورية.

(9) المجالس، ص 367 - 369.

(10) نفس المصدر.

وبمقتضى معاهدة الهدنة المبرمة بين البلدَيْن لمدة خمس سنوات، اعترفت بيزنطة بالوصاية الفاطمية على مقاطعة قلورية التابعة لها. ولكن القاضي النعمان قد لمح عند حديثه عن تلك المعاهدة إلى أنها تتجاوز حدود مجرد الهدنة. ذلك أن الأحداث التي جرت في سنة 958/347 هـ تبعث على الاعتقاد أن الاتفاق المبرم بين المعز وقسطنطين السابع قد سمح لكل واحد منهما بأن يمنح الآخر حرية التصرف في ناحيته: الأمبراطور البيزنطي ضد الحمدانيين في حلب، والخليفة الفاطمي ضد الأمويين بالأندلس(12).

وقد حرص قسطنطين السابع قبل وفاته في سنة 347/959 - 348 هـ على إعادة النظر في الاستراتيجية الحربية المعمول بها في الواجهة الشرقية، في حين وجه المعز من جانبه في سنة 958/347 هـ حملته الباهرة على المغرب بقيادة جوهر.

2 - قضية جزيرة قريطش(13):

لقد ألغيت معاهدة الهدنة المبرمة بين الروم والفاطميين في سنة 960/349 هـ قبل انقضاء مدتها، في ظروف استعرضها القاضي النعمان بكل دقة ووضوح. وقد تم نقضها بمبادرة من الخليفة الفاطمي رداً على إقدام الروم على غزو جزيرة قريطش في عهد الامبراطور رومانوس الثاني خليفة قسطنطين السابع(14).

---

(11) نفس المصدر، ص 368.

(12) [لقد أبدى الأستاذ المنجي الكعبي رأياً مخالفاً تماماً لهذا التأويل، حيث استبعد تحالف المعز مع امبراطور الروم ضد إخوانه المسلمين. وبالعكس من ذلك فهو يرى أن الخليفة الفاطمي «قد ندد بخرق البيزنطيين للعهود والمواثيق الدولية، وربط ذلك بحروبهم مع سيف الدولة». انظر: بيان فاطمي حول الحرب البيزنطية الحمدانية، **الصباح الأدبي**، تونس 11 و 1992/8/25].

(13) انظر فصل عام حول هذه المسألة في مجلة «كراسات تونسية» عدد 2627، 1959 تحت عنوان «قريطش في النزاع بين بيزنطة والمعز»، ص 305 - 308.

(14) **المجالس**، ص 442 وما بعدها: لم تقع الإشارة إلى الأمبراطور رومانوس الثاني بصريح العبارة =

والجدير بالذكر أن هذه الجزيرة قد فتحها في مطلع القرن التاسع من الميلاد بعض المغامرين القادمين من الأندلس إثر ثورة ربض قرطبة في عهد الحَكَم الثاني، وأصبحت مقر دُوَيْلَة أقامها رئيس المهاجرين الأندلسيين أبو حفص عمر البلوطي الذي حاول قبل ذلك عبثاً الاستقرار مع رفقائه القليل الحظ في الإسكندرية. وقد حاول الروم منذ ذلك التاريخ بلا جدوى طوال أكثر من قرن ونصف القرن استرجاع الجزيرة. وأخيراً تمكن الدمستق وامبراطور الروم المقبل، نقفور فقاس، ذلك المقاتل المتحمس وباعث النهضة العسكرية البيزنطية، من اجتياح قريطش وإجلاء المسلمين عنها[15].

فنزل حينئذٍ عدد كبير من جنود الروم في الجزيرة يوم 15 جمادي الثانية 13/349 هـ يوليو 960 هـ، وما لبثوا أن ضربوا الحصار على عاصمتها شنداكس التي استماتت في المقاومة ولم تستسلم إلا بعد ذلك بثمانية أشهر، أي يوم 15 محرم 6/350 هـ مارس 961 هـ. وفي الأثناء استغاث أهل قريطش المسلمون بالاخشيديين والفاطميين[16].

ورغم انتماء أهل تلك الجزيرة إلى العباسيين واعترافهم بسلطة بغداد فقد كانوا عملياً تابعين للدولة الاخشيدية في مصر، ويحق لهم حينئذٍ مطالبتها بحمايتهم ومحاربة الروم. ذلك أن أمراء قريطش قد كانت تربطهم دوماً وأبداً بالمصريين علاقات طيبة. فكانوا يوجهون إليهم الهدايا النفيسة، «وكانت مراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتها تمير أهل مصر»[17]. إلا أن أبا الحسن الاخشيدي صاحب مصر لم يكن قادراً على تقديم مساعدة ناجحة إلى أهل

= بل أطلق عليه اسم «الطاغية» وهو الاسم الذي يستعمله الكتاب المسلمون للإشارة إلى امبراطور الروم.

(15) انظر تفاصيل غزو جزيرة قريطش من طرف العرب في عهد الامبراطور ميشال الثاني في Vassilev، 49/1 - 61، وإسبانيا الإسلامية، 172/1 - 173.

(16) انظر تفاصيل استرجاع قريطش من طرف نقفور فقاس في، Schlumberger، المرجع المذكور، الباب الثاني

(17) المجالس، ص 444.

قريطش. ذلك أنه كان حريصاً على ادخار قواه لمواجهة الخطر القرمطي في الشام. فاقتصر على إطلاق بعض السفن في البحر في اتجاه قريطش. ثم كلف أحد كبار رجال الدولة كان على اتصال بالمعز ـ لعله الوزير ابن كلس ـ بمكاتبته لإغاثة أهل قريطش. وأمر الوفد الذي أرسله هؤلاء إلى الفسطاط بالتوجه إلى المنصورية[18].

فاستغل المعز بمهارة هذه الوساطة المصرية لفائدة سياسته الشرقية، وبالأحرى لفائدة أطماعه في مصر ذاتها،. وأردف الكتاب الذي أجاب به مراسله بدعوة الأخشيدي إلى التحالف معه ضد الروم بشروط ملائمة للمصريين، وقد كان حريصاً على استمالتهم ولكنه أوضح أنه يعتبر تدخله العسكري لفائدة أهل قريطش قياماً بالمهمة المقدسة التي أوكلها الله سبحانه إليه. وأضاف قوله، مخاطباً صاحب مصر:

«وقد انتهى إلينا أنك أظهرت الحركة إلى الجهاد وإمداد هؤلاء القوم بمراكب من قِبَلك، وأنت لعمري بذلك أجدر لقربهم منك واتصالهم بك وميرهم بلدك وكونهم وإياك في دعوة واحدة. ولو أسلمناهم إليك وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم علينا حجة في ذلك».

إلا أن المعز الذي حث الاخشيدي بشيء من السخرية على أداء واجب الجهاد في سبيل الله، قد حرص مع ذلك على التعبير له عن نواياه الطيبة وتبديد مخاوفه بشأن الرجال الذين سيبعثهم للجهاد على مراكبه، قائلاً له بالخصوص:

«فلك علينا عهد الله وميثاقه أن لا نكون معهم إلا بسبيل خير، وإنا نحلهم محل رجالنا، ونجعل أيديهم مع أيدينا ونشركهم فيما أفاء الله علينا، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا، ومراكبك مقام أساطيلنا حتى يفتح لنا إن شاء الله.

فإن وثقت بذلك ورأيت إيثار الجهاد فاعمل على أن تنفذ مراكبك إلى مرسى طنبة من أرض برقة... ويكون اجتماعهم مع أساطيلنا بهذا المرسى

(18) نفس المصدر.

مستهل ربيع الآخر (سنة 350/ يونيو 961). . .»[19].

أما رسول أهل قريطش الذي استقبله المعز بكل حفاوة، فقد تحدث عما يقاسيه أبناء بلده من محن، وأعرب للخليفة عن رغبتهم في الاستغاثة به والتوسل إليه لحمايتهم. «وجعل يذكر له قدر البلد وموضعه من بلد الروم ومن مصر، وأنه فرضة لهما، وأن الله ـ إن أقدره على دفع المشركين عنه وملكه ـ كان سبب فتح القسطنطينية والمشرق عليه إن شاء الله. وعدد ما فيه من الآلات والمعادن، وما يتهيأ من إنشاء الأساطيل، وقربه من القسطنطينية ومن مصر. . .».

فقال المعز: «نحن بحول الله وقوته نبلغ من تحقيق آمالكم وتصديق ظنكم فينا حسب ما أملتموه ورجوتموه. وقد أمرنا بتجهيز الأساطيل منذ بلغنا مصيرك إلينا، ولو كان أهل بلدك عجلوا ببعثك لرجونا أنه لم تكن أساطيلنا هذا الوقت إلا عندهم. ونحن نرجو من الله إذ وفقهم إلى التطارح إلينا أن يؤيدهم ويثبتهم إلى أن تصل أساطيلنا إليهم ويستنقذهم الله بذلك بمنه وفضله وبما عودنا من تأييده ونصره.

وأما أعراض الدنيا فقد ملكنا الله تعالى منها وأعطانا وخولنا ما يجاوز الآمال والغايات ويفوق الأماني والنهايات. ونحن على ثقة من وعده إيانا إيراثنا الأرض، كما قال الله في كتابه، وإظهارنا بحوله وقوته على جميع أعدائه. فطِبْ نفساً وأَقسِمْ إلى أن تنصرف مع أصحابك في أساطيلنا.

وأمر برد رجلَيْن من أصحابه من رجال من قِبَله إلى أهل قريطش بجوابهم وبما عزم عليه من إغاثتهم ونصرتهم في أول وقت إلا مكان من الزمان، إن شاء الله تعالى»[20].

وفي انتظار انطلاق هذه الحملة البحرية، بادر المعز بوضع حد للهدنة مع

---

(19) المجالس، ص 445 - 446.

(20) نفس المصدر، ص 446 - 447.

الروم. وأملى بمحضر كبار رجال الدولة رسالة موجهة إلى رومانوس الثاني لإعلامه بإلغاء المعاهدة المبرمة مع والده قسطنطين السابع قبل ذلك بأربع سنوات. وفي هذه الرسالة التي نقل القاضي نعمان نصها في **مجالسه**، اقترح الخليفة الفاطمي على امبراطور الروم رفع الحصار على عاصمة قريطش وإجلاء جنوده عن الجزيرة، أو تحمل مسؤولية نقض معاهدة الصلح واستئناف الحرب، إن رفض ذلك الاقتراح ولتبرير هذا الموقف لم يفتقر المعز إلى الحجج اللازمة، مستشهداً تارة بالقرآن الكريم وطوراً بالتاريخ البيزنطي. ومما جاء في رسالته قوله مخاطباً رومانوس الثاني:

«ولا ترى إن دعوا أهل قريطش قبل اليوم إلى غيرنا، وقد أنابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة بتركهم إليك وترك اعتراضك فيهم. إن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمُزيلٍ حقهم وإن تغلبوا عليه دونهم، بل هو لهم بتصيير الله إياه إليهم، فقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا، بما خولنا الله منها وأقامنا له فيها، أطاعنا منها من أطاع وعصانا من عصى، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ولا بعصيانهم يحقّ لنا أن نترك.

فهذه سبيل أهل الحق عندنا. فإن اعترفت لها فقد أنصفت، وإن جهلتها لم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها. وعهدك إن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ إليك، فانظر لنفسك ولأهل ملتك، فإننا مناجزوك وإياهم الحرب بعون الله وتأييده...»(21).

وقد اقتصرت رواية القاضي النعمان المشار إليها أعلاه على استعراض المرحلة الديبلوماسية من النزاع حول قريطش. فهل تم التدخل العسكري الفاطمي أم لا؟ إن صاحب **المجالس** قد سكت عن ذلك. أما المعلومات الهزيلة التي أوردها الأخباريون في هذا الشأن فهي مريبة وغير دقيقة.

ومن المعلوم أن الأسطول الفاطمي قد انضم إلى السفن المصرية في برقة

---

(21) نفس المصدر، ص 444.

خلال شهر يونيو 961 هـ. والحال أن غزو قريطش قد انتهى قبل ذلك بثلاثة أشهر إثر سقوط مدينة شنداكس يوم 6 مارس 961 هـ. ومن ناحية أخرى فقد قدم رسول أهل قريطش إلى المنصورية أثناء مدة حصار عاصمة بلدهم. مما يدل على أن الحصار قد تواصل بعد مدة طويلة من نهاية شتاء 960 - 961 هـ القاسي، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن المعز قد فاجأته الأحداث، وأنه قد عدل عن توجيه أسطوله إلى قريطش لما علم في أوائل الربيع بسقوط عاصمتها في الوقت الذي كان يعد فيه حملته البحرية. فلو ذهب الأسطول الفاطمي الذي كان عتيداً عهدئذٍ إلى قريطش لنجدة أهلها، لكانت لذلك الحدث ـ مهما تكن نتيجته ـ أصداء بعيدة لا يمكن أن لا نجد لها أثراً في أي مصدر عربي أو مسيحي.

ولكن يبدو أن المعز لم يكن مستعجلاً في شن معركة قريطش. فقد كانت له من المهارة ما يمنعه من انتقاص أهمية القوات العسكرية البيزنطية، ولذلك فقد أبى بلا شك توجيه أساطيله إلى مكان يبعد كثيراً عن مواقعها في إفريقية وصقلية. وبالنسبة إلى الوضع السائد آنذاك، كان ذلك الحدث يخدم إلى أبعد حد دعايته في مصر التي كان يفكر في فتحها ويسعى إلى التقرب من خاصة أهلها وأمرائها. وبناءً على ذلك فقد كان همه الأول ـ في انتظار تطور الوضع ـ أن يجني منه أكبر فائدة من خلال مخاطبة الأخشيدي ورومانوس الثاني لتأكيد ما يقوم به من دور بوصفه حامي حمى الإسلام.

ومن ناحية أخرى ما فتيء الخليفة الفاطمي يولي عنايته إلى المغرب حيث قام قائده المفضل جوهر بحملة عسكرية ناجحة، وإلى الأندلس التي ما زال على رأسها خصمه الأندلسي العنيد عبد الرحمان الثالث فلم يَحِنْ الوقت في سنة 961/350 لتوجيه فيالقه الكتامية إلى مصر لفتحها، ولا شيء يدعوه أيضاً إلى التعجيل بالتمركز في قريطش ليجعل منها قاعدة صالحة لرغائبه البعيدة المدى. أما الروم، فليس من الضروري الذهاب حتى إلى قريطش لمحاربتهم، إذ أن «دار الجهاد» الأقرب من إفريقية توجد في صقلية وقلورية. وبناءً على ذلك فقد كانت قريطش تكتسي بالنسبة إلى رومانوس الثاني أهمية أكبر مما تكتسيه بالنسبة

إلى المعز. ولكن لئن أقام غزوها الدليل على أن بيزنطة قد استرجعت مكانتها في البحر الأبيض المتوسط في منتصف القرن العاشر من الميلاد باعتبارها دولة بحرية عظمى، ولئن فتح ذلك الغزو طريق الحكم في وجه نقفور فقاس المكلل بهالة المجد، فإن كل ذلك لا ينقص أبدا من هيبة الخليفة الفاطمي ولا من عزمه على مواصلة سياسة الهيمنة إزاء النصارى في صقلية وجنوب إيطاليا. ذلك أن المعركة التي لم تَدُرْ رحاها في قريطش بين الروم والفاطميين، ستندلع عما قريب في مكانها المعهود منذ اعتلاء نقفور فقاس العرش البيزنطي في سنة 963/352.

3 ـ اندلاع الحرب بين الفاطميين والروم في صقلية:

لقد تلقى والي صقلية أحمد بن الحسن بن علي، قبل نهاية سنة 961/350 هـ، الإذن بالزحف على المدن المحصنة التي تحتلها الحاميات البيزنطية في المنطقة الشرقية من الجزيرة، وتوجه على رأس جيش عظيم إلى طبرمين لمحاصرتها، وانتظر أهلها بلا جدوى نجدة النصارى. ولما استولى عليهم الفقر بعد ما عانوا مدة طويلة من قسوة الحصار، التجأ عدد كبير منهم إلى المناطق المسيحية، واستسلمت المدينة في آخر الأمر بعدما أبدت مقاومة ميؤوس منها مدة تسعة أشهر، وذلك خلال صائفة سنة 962/351 هـ، وغادرها من تبقى من أهلها. فأعاد أحمد بن الحسن تعميرها بعدد من المسلمين القادمين من النواحي الأخرى من الجزيرة، وببعض المهاجرين، كما كان الشأن من قبل بالنسبة إلى جرجنت وغيرها من المدن الأخرى المحصنة. وقد أطلق على المدينة المفتوحة اسم «المعزية» نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي[22].

وقام فيلق آخر بقيادة الحسن بن عمار، ابن عم أحمد في شهر رجب 352

(22) البربر، 544/2 - 545، الكامل، 5/7. أماري، المرجع المذكور، 296/2 - 298. انظر أيضاً، سيرة جوذر، ص 116 - 117.

/ يوليو ـ أغسطس 963 هـ بنصب الحصار على مدينة رمطة المنيعة التي استنجد أهلها بالروم[23].

وقد كانت الهجومات الفاطمية متزامنة مع احتداد الحرب في الواجهة الشرقية بين الروم والحمدانيّين. حيث قاد نقفور فقاس المكلل بالنصر في قريطش حملة عسكرية على حلب عاصمة الحمدانيين، فاستولى عليها عنوة باستثناء قلعتها. وبعد ذلك انسحب الدمستق، وقفل راجعاً إلى القسطنطينية مصحوباً بعدد كبيراً من الأسرى والغنائم[24]. وقد زادت مآثره الحربية في الشام من مجده وأهلته لخلافة رومانوس الثاني في سنة 963/352 هـ. ومنذ تتويجه استأنف الامبراطور الجديد هجوماته المتعذر صدها في اتجاه الشام. وفي نفس الوقت بادر إلى مد يد المساعدة إلى رعاياه الموجودين في صقلية. فجهز أسطولاً ضخماً ووجهه إلى الجزيرة تحت إمرة القائد مانويل وأمير البحر نيكيتاس، يحيط بهما عدد كبير من البطارقة. ونزل الجيش البيزنطي الذي قدر الأخباريون عدد رجاله بحوالي 50,000 رجل، في صقلية بالقرب من مدينة رمطة، واستولى بسهولة على مسينة وترميني في شهر شوال 353/ أكتوبر ـ نوفمبر 964[25].

ووجه المعز من جانبه إمدادات عسكرية إلى صقلية تحت إمرة أحسن قواده، الحسن بن علي والي الجزيرة السابق، الذي انضمت جنوده إلى جنود ابنه أحمد وحاول نجدة ابن أخيه الحسن بن عمار، خَشْيَة أن يأخذه العدو من الخلف ويهزمه شر هزيمة أمام رمطة. ولكنه أبطأ في شن المعركة قرب ترميني، فاضطر الحسن بن عمار إلى مواجهة جيش مانويل فقاس العتيد بجيش أقل منه عدداً وعدة، ووزع القائد الفاطمي رجاله على أربع فرق، فكلف الفرقة الأولى

---

(23) البربر، المرجع المذكور، الكامل، 11/7.

(24) انظر، M. Canard، المرجع المذكور، الباب الثالث، ص 809 - 817.

(25) البربر، المرجع المذكور، 545/2. انظر بالخصوص تفاصيل العمليات الحربية في الكامل، 12 - 12/7.

بمواصلة حصار رمطة لمنع حاميتها من الخروج، وأوكل إلى الفرقتين الثانية والثالثة مهمة الحيلولة دون وصول جيش العدو إلى الطريق المفضية إلى رمطة، في حين عهد إلى الفرقة الرابعة التي كانت تحت قيادته بالاشتباك مع الروم. ولما طلع الصباح استغل الحسن فرصة رداءة الأحوال الجوية للهجوم على خصمه الذي شن المعركة دون الاستعداد لها. وفوجىء الروم باندفاع الجنود المسلمين، وقد كانوا يتوقعون التغلب عليهم بسهولة، فانهزموا لا يلوون على شيء، ومالوا في انهزامهم إلى جهة وعرة المسالك أدت بهم إلى جرف حفير عميق فسقط الكثير منهم فيه، وأسفرت تلك الواقعة المعروفة «بالحفرة» عن مقتل آلاف البيزنطيين من بينهم عدد كبير من البطارقة وفي مقدمتهم قائدهم مانويل. وبعدما استولى الحسن على معسكر العدو، ضيق الخناق على رمطة واستولى عليها عنوة. وكان مصيرها نفس المصير الذي شهدته طبرمين من قبل. فقد غادرها أهلها وأعيد تعميرها بالمسلمين القادمين من بقية نواحي الجزيرة وسوف تُدَكّ هاتان المدينتان دكاً في سنة 969/358 هـ، لما رفض أهلهما قطع الخشب المعد لدور الصناعة (مصانع السفن)[26].

وقد أبحرت فلول الجيش البيزنطي من مسينة في اتجاه قلورية فبادر أحمد بن الحسن الذي كان يحاول قطع خط الرجعة على الروم، بتوجيه قطع من أسطوله لمطاردة الفارين، ولحقت مراكبه بسفن العدو ودمرتها خلال المعركة التي جرت في مضيق مسينة، ولقي قائد الأسطول البيزنطي نيكيتاس مصرعه. وبعد هذا الانتصار الباهر أخضع أحمد عدة مدن في قلورية وفرض الجزية على سكانها النصارى وقفل راجعاً إلى بلرم. ومن شدة الفرح توفي أبوه أمير البحر العجوز الحسن بن علي في 18 ذي القعدة 5/354 نوفمبر 965[27].

---

(26) البربر، نفس المرجع. أماري، المرجع المذكور، 302/2 - 305، سيرة جوذر، ص 88 و 117. الكامل، 11/7 - 12.

(27) أماري، المرجع المذكور، 311/2 - 313. الكامل، 12/7، انظر أيضاً، دائرة المعارف الإسلامية (1) (المعز لدين الله)، ص 754.

وهكذا فإن معركة صقلية التي تلت إلغاء المعاهدة المبرمة بين الفاطميين والروم إثر غزو جزيرة قريطش قد انتهت بانتصار الجيش الفاطمي.

وقد حثت النكبة التي أسفرت عنها الحملة العسكرية البيزنطية، نقفور فقاس على التفاوض مع المعز، إذ أن ذلك المقاتل الصنديد قد قدر بعد تلك الهزيمة قوة صاحب إفريقية حق قدرها. فسعى إلى ربط علاقات ودية ودائمة معه، وأوفد إلى المنصورية مبعوثاً يقال له نوقولاس. واغتنم الامبراطور البيزنطي عودة السلم إلى نصابه في صقلية ليواصل انتصاراته في الشام ويهتم بمقاومة البلغاريين، وذلك في الوقت الذي كان فيه الخليفة الفاطمي يوجه أنظاره نحو البلاد المصرية[28].

---

(28) انظر Schlumberger، المرجع المذكور، الباب التاسع حول العلاقات بين نقفور فقاس والمعز والباب الثاني عشر حول مواصلة الحرب في الشام ضد البلغاريين. أشار الكامل، 7/66 - 69 إلى قدوم الامبراطور البيزنطي إلى المنصورية. انظر أيضاً، أماري، المرجع المذكور، 321 - 2/319.

الفصــل الرابـع
سياسة المعزّ الشرقيّة وفتح مصر

1 ـ المقدمــة:

لقد التزمنا لحد الآن بالرجوع إلى مؤلفات القاضي النعمان بصفة تكاد تكون مطلقة، لتتبع أطوار تاريخ الدولة الفاطمية عن كثب. فلولا كتابه افتتاح الدعوة الذي نقل عنه لا الداعي إدريس فحسب، بل أيضاً كـثيرٌ من الأخباريين السنّيين[1]، ولولا مجالسه، لما أمكن ظهور دراستنا هذه. ويتمثل الفضل الأكبر الذي يعود إلى القاضي الإسماعيلي الذائع الصيت في تسليط الأضواء بوجه خاص على الفترة المغربية التي لا نعرف عنها سوى معلومات قليلة من خلال بعض المصادر الهزيلة والمحدودة العدد. ذلك أن مؤلفات القاضي النعمان الذي توفي مباشرة إثر رحيل المعز إلى مصر[2]، لا تهم بالذات سوى تلك الفترة الغامضة التي كانت تثبط عزيمة أي باحث يريد دراستها. وبناءً على ذلك فإن تاريخ الدولة الفاطمية، قبل اكتشاف تلك المؤلفات، لم يكن يتضح إلا اعتباراً من الفترة التي تبدأ مع فتح مصر وانتقال الأسرة الفاطمية إلى تلك البلاد. ومنذ ذلك التاريخ لم يعُدْ الفاطميون تابعين لذلك المغرب النائي والخامل الذكر. وبظهورهم في ذلك المشرق المجيد، بدأت تتكاثر الوثائق وتشرق الأنوار،

---

(1) انظر افتتاح الدعوة، تحقيق الدشراوي، المقدمة. انظر أيضاً دائرة المعارف الإسلامية 1، ص 107، أبو عبد الله الشيعي، وص 168، أبو يزيد.

(2) الافتتاح، المقدمة: القاضي النعمان. انظر أيضاً، المعز، ص 258 - 268. وقد توفي النعمان يوم أول رجب 28/363 مارس 974 وصلى عليه المعز، انظر اتعاظ، ص 202.

لا سيما منذ أن صار الاخباريون اعتباراً من تلك الفترة يخصصون لهم فصولاً مطولة وغزيرة المادة[3].

وهكذا لم يكن التاريخ الفاطمي معروفاً بما فيه الكفاية إلا في مرحلته المصرية. فقد توفر للمؤرخين، بالنسبة إلى السنوات القليلة التي تهم هذا البحث، أي من 969/358 هـ إلى 973/362 هـ، ما يكفي من الأخبار لإبراز فتح مصر واستقرار الفاطميين في ذلك القطر التابع للدولة العباسية. وعلى هذا الأساس فإن هذا الفتح قد مثل، بالنسبة إلى هذه الفترة من عهد المعز التي دامت أكثر بقليل من أربع سنوات، الحدث الرئيسي، واسترعى انتباه الأخباريين الشرقيين من ابن زولاق إلى المقريزي[4].

ولكن إذا تأملنا في مختلف الروايات لاحظنا أن مصدرها الأساسي هو الحسن بن زولاق الذي نقل عنه ابن سعيد في «**المُغْرِب في حلى المغرب**» والمقريزي في «**الخطط** و«**اتعاظ الحنفاء**»، والداعي إدريس في «**عيون الأخبار**».

ومن مزايا ابن زولاق الذي توفي سنة 995/387 هـ أنه كان معاصراً للأحداث التي يروي أخبارها، كما هو الشأن بالنسبة إلى القاضي النعمان. وقد تبين أن هذا العلامة المصري الذي يتميز بولعه الملحوظ بالتاريخ كالمؤرخ الأندلسي ابن حيان أو ابن بلده المقريزي، قد كان شاهد عيان غير متحيز، وترك لنا معلومات ثمينة حول السنوات الأربع التي احتل خلالها جوهر بلاده وحكمها في انتظار وصول المعز. وبفضله توفرت لدينا منذ عهد بعيد رؤية على غاية من الوضوح للانقلاب السياسي والاجتماعي الذي أحدثه اقتحام الفاطميين للساحة الشرقية. وسنعتمد على بعض الفقرات التي اقتبسها المقريزي والداعي إدريس من

---

(3) انظر المصادر والمراجع بالنسبة إلى الفترة المصرية في، دائرة المعارف الإسلامية 2، الفاطميون، لا سيما ص 880 - 882 ونفس المرجع 3، ص 755، المعز لدين الله.

(4) انظر حول ابن زولاق، Vassiliev 2، ص 199 - 200. وحول المقريزي، انظر دائرة المعارف الإسلامية، ص 186 - 187، المقريزي.

مؤلفاته الهامة المتمثلة في **سيرة جوهر وسيرة المعز وكتاب فضائل مصر**، لبيان مختلف أطوار سياسة المعز الشرقية حتى تاريخ استقراره في عاصمته الجديدة المقامة على ضفاف النيل.

2 ـ سياسة المعزّ الشرقية:

لم يغب عن أذهاننا كيف حاول الخليفة الفاطمي الأول المهدي غزو البلاد المصرية مرتَيْن متتاليتَيْن خلال السنوات الأولى من عهده، ولكن دون جدوى، وكيف فوت الفرصة السانحة لاحتلال الأندلس التي أصبحت لقمة سائغة بسبب الوضع المتردي السائد فيها عند اعتلاء الأمير الشاب عبد الرحمان الثالث العرش. ولما شعر المهدي قبل وفاته بإمكانية بسط سلطانه على المغرب الأقصى والأندلس، كان الخليفة الأموي قد دعم سلطته وجعل بلاده في مأمن من الخطر الشيعي[5]. وبعد القائم والمنصور اللذين كانا مشغولَيْن بثورة الخوارج، حوّل الخليفة الرابع المعز في الحين سياسته الخارجية في اتجاه معاكس. حيث كان هدفه الأول، خلافاً لأسلافه مقصورا على المغربَيْن الأوسط والأقصى والأندلس، ولم تتجه أنظاره نحو مصر والمشرق إلا في السنوات الأخيرة من عهده في إفريقية.

إذ يبدو أن المعز لم يكن كالمهدي مهتماً دوماً وأبداً بالمشرق الذي هاجر منه مؤسس الدولة الفاطمية وظل يستعجل في العودة إليه غازياً. ذلك أن هذا الأمير الذي وُلِد في إفريقية وشبّ في المغرب، قد كان متعلقاً شديد التعلق، مثل أبيه المنصور، بتلك البلاد التي أَلِف مشاكلها السياسية والاجتماعية. ولئن كان المهدي والقائم غريبَيْن عن تلك الربوع ويتصرفان على هذا النحو، تحت تأثير جاذبية ذلك المشرق الذي كانا يحنان إليه، فإن المنصور وابنه المعز كانا بالعكس من ذلك مغربيَّيْن كالأمراء الأغالبة وسائر السلاطين من ذوي الأصل

---

(5) تاريخ إسبانيا الإسلامية 2، وبالخصوص ص 94 - 100.

البربري الذين حكموا الغرب الإسلامي من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر من الميلاد[6].

ولما أولى الخليفة الفاطمي الرابع عنايته إلى المشرق كان قد بلغ ذروة قوته. فهو صاحب بلاد المغرب قاطبة وصقلية بلا منازع. وقد أصبح نفوذه يضاهي نفوذ خليفة الأندلس وقيصر الروم. وتجاوزت سمعته الحدود الشرقية لمملكته، حيث تفوّق بسهولة على ملوك الطوائف الذين كانوا يسيطرون على الأقطار المتمردة في مصر والشام وخراسان وكذلك على خصمه الخليفة العباسي في بغداد. على أنه قد انقضى ما يزيد على نصف قرن على الحملتَيْن اللتين نظمهما القائم بأمر الله ضد مصر دون جدوى. أضف إلى ذلك أن قوة العباسيين لم يتم القضاء عليها عهدئذٍ قضاءً مبرماً بالرغم من ضعف الخليفة المقتدر، وقد استطاع القائد مؤنس بفضل استفاقته التغلب على خصمه الفاطمي. ولكن قوتهم قد تراجعت تراجعاً محسوساً منذ ذلك التاريخ، من خلال تفكك سلطتهم. وانتهى الأمر بالخلفاء العباسيين إلى فقدان أي نفوذ فعلي لفائدة أمراء بني بُوَيْه الذين أصبحوا منذ سنة 945/334 أولي الأمر والنهي في بغداد[7]. فقد صار الخليفة المطيع، معاصر المعز، ألعوبة بين يدي معز الدولة بن بُوَيْه. وما لبثت سلطة أتباعه في القطرَيْن المستقلَّيْن، مصر والشام، أن تفككت هي الأخرى. وإثر النجاح الباهر الذي أحرزه الحمدانيون في أول الأمر، ضعفت قوتهم وأصبحوا عاجزين عن التصدي لهجومات الروم المتكررة على ممتلكاتهم[8]. أما الإخشيديون فإنهم قد وهنوا بعد وفاة محمد بن طغج الحازم سنة

---

(6) من المعلوم أن المنصور قد وُلِد في المهدية من «أم وَلد» اسمها كريمة، حسب ابن حماد ص، 21 - 37. وأن المعز وُلِد بالتأكيد في المهدية، وأمه هي أيضاً إحدى أمهات أولاد المنصور الثلاث، انظر اتعاظ، ص 133. فهذان الأميران هما إفريقيان ولادة.

(7) انظر دائرة المعارف الإسلامية 1، ص 1390 وما بعدها، البُوَيْهيون أو بنو بُوَيْه. وحول موقف المعز المناهض لبني حمدان، انظر، اتعاظ، ص 141 - 142.

(8) انظر، Canard، المرجع المذكور، الباب الثالث.

496/335 هـ. ولم يمارس خلفاؤه في الواقع سوى سلطة صورية، تاركين عرش الفسطاط لخصي حبشي، هو كافور الذي كانت مدة حكمه مليئة بالثورات والمؤامرات على حساب وَرَثة ابن طغج الشرعيين. وفي الوقت الذي أصبح فيه كافور الحاكم بأمره بلامنازع في مصر إثر وفاة أبي الحسن علي الإخشيدي، بدأ الخليفة الفاطمي يُظهِر أطماعه في هذه البلاد. إلا أن كافوراً لم يبق في الحكم إلا مدة تفوق السنتين بقليل وتوفي في 21 جمادى الأولى 29/357 مايو 968[9].

ثم تفاقم الوضع المتردي السائد في مصر، فهجم القرامطة بنجاح على المواقع الإخشيدية في الشام سنة 963/353 - 964 وسنة 965/355 - 966 هـ. وكانت البلاد المصرية قد تعرضت قبل ذلك للجفاف والطاعون إثر تواصل انخفاض مياه النيل. وزادت وفاة كافور في الاضطرابات والفوضى، ولم يكن المصريون المساكين يأملون أي شيء من جانب العباسيين، ذلك أن بغداد كانت مشغولة بالحرب التي اندلعت منذ عهد قريب بين بختيار بن معز الدولة بن بُوَيْه وبين جاره عضد الدولة، ولم تكن تفكر أبداً في إغاثة مصر السيئة الحظ. واعتباراً من ذلك التاريخ أصبح هذا القطر التابع للخلافة العباسية لقمة سائغة. ومنذ الفترة التي هُزِم فيها القائم على ضفاف النيل نضجت حينئذٍ الثمرة التي سيتولى قطفها المعز بسهولة تامة.

إلا أن الخليفة الفاطمي قد حرص قبل مدة طويلة من توجيه جيوشه إلى مصر على تكثيف اتصالاته مع كبار القوم من الإخشيديين وكان دُعاته منذ عهد بعيد يجوبون البلاد حيث كانت الدعوة الإسماعيلية كما أسلفنا نشيطة جداً في عهد كلٍ من المهدي والقائم. ولم يمنع الإخشيدي من الخروج عن العباسيين والدخول في طاعة المعز سوى الخوف من فقدان عرشه، وكان قد استقبل رسول الخليفة الفاطمي بحفاوة بالغة. ولم يكن كبار رجال الدولة من جهتهم

(9) دائرة المعارفة الإسلامية، ص 486 - 487، الأخشيديون ونفس المرجع 2، ص 663 - 664، كافور الأخشيدي.

يخفون مشاعر ولائهم للفاطميين، بل كانوا على اتصال بالمعز لحثه على فتح بلادهم[10].

ولكن الخليفة لم يقر العزم في آخر الأمر على القيام بحملته العسكرية على مصر إلا عندما تأزمت علاقته مع فرع القرامطة، بوصفه إمام الطائفة الإسماعيلية، وقد كنا أشرنا آنفاً إلى المصاعب التي تعرض لها الخلفاء الفاطميون الثلاثة الأوائل لفرض سلطتهم الدينية والسياسية على أولئك التابعين للمذهب الإسماعيلي الذين أصبحوا على غاية من القوة في البحرين. ومنذ أن تولى المعز الإمامة ازداد أكثر فأكثر تفوق النزعة المناهضة لأصحاب إفريقية، والتي كان يمثلها أحمد بن سعيد الجنابي وابنه الحسن المعروف أكثر بالأعصم أو الأغنم. وقد سعى أحمد الذي كان يمسك بزمام الحكم في الاحساء إلى توثيق علاقاته مع بني بُوَيْه وبني حمدان، مظهراً بذلك انحراف الحركة القرمطية انحرافاً كلياً، والحال أنه كان من واجبها أن تبقى قوة هدامة داخل الدولة العباسية لفائدة القضية الفاطمية. ذلك أن الغارات الفاشلة التي قام بها الأعصم سنة 964 - 963/353 هـ ثم سنة 965/355 - 966 هـ على الإقطاعات الأخشيدية في الشام قد أقامت الدليل في آخر الأمر على أن القرامطة لا يريدون العمل منذ ذلك الحين إلا لحسابهم الخاص وضد مصالح الفاطميين. واعتباراً من ذلك التاريخ لم يَرَ المعز في القرامطة سوى عقبة كأداء في طريق توسعه في اتجاه الشرق، وخطر يهدد انتشار الدعوة الإسماعيلية في المشرق. أفلا يخشى أن يراهم يتمركزون في جنوب الشام ثم يتحولون بلا مقاومة إلى مصر قبل جنوده؟ فلما تكرر هجوم الأعصم في جنوب الشام سنة 967/357 هـ، أسرع الخليفة الفاطمي إلى تدبير مؤامرة في الاحساء. ومما لا شك فيه أن صابور ابن القائد القرمطي أبي طاهر الجنابي قد حاول بإيعاز من المعز الإطاحة بأحمد بن سعيد والاستحواذ على

---

(10) دائرة المعارف الإسلامية 2، ص 873، الفاطميون. انظر أيضاً وفيات، 326/2 - 327 والكامل، 31/7 و 66 - 68.

الحكم، ولكن المحاولة قد فشلت ولقي صابور حتفه في أوائل سنة 968/358[11].

ولا شك أن هذا التصلب في موقف القرامطة، ثم تسربهم في اتجاه مصر عن طريق جنوب الشام، قد دفعا الخليفة الفاطمي إلى الإسراع بالاستعداد للحرب ليسبقهم إلى الأراضي المصرية. وقد كانت وفاة كافور إشارة إلى أن مملكته ستسقط بين أيدي القرامطة، وأن الساعة قد دقت بالنسبة إلى الفاطميين لغزو مصر والزحف من جديد على المشرق.

3 ـ استعدادات الحرب:

لقد تم تنظيم الحملة العكسرية على مصر بكل عناية، وسهر الخليفة بدقة على استعدادات الحرب. فمنذ سنة 965/355 - 966 هـ اتصل جوهر بالكتاميين في مناطق القبائل الصغرى والمناطق الأخرى في المغرب لحشد الجنود وجبي الضرائب الموظفة على البربر. ولم يرجع إلا في شهر محرم 358/ أواخر ديسمبر 968 مصحوباً بالرجال والأموال[12].

وأمر المعز عامل برقة أفلح الناشب «بحفر الآبار في طريق مصر، وأن يُبْنَى له في كل منزلة (مرحلة) قصر، ففُعِلَ ذلك»[13]. وفي ناحية أخرى شهد ميناء المهدية نشاطاً حثيثاً، من ذلك أن «متولي البحر» حسين بن يعقوب الذي كان أبوه يعقوب بن إسحاق بن الورد، أحد إخوة خليل بن إسحاق أمير البحر في مدة المهدي والقائم، قد تسلم المعدات اللازمة لصنع السفن وتجهيزها، فأسرع إلى صنع سفن حربية في دار الصناعة التي يمكن أن تسع أكثر من مائتي سفينة وكميات كبيرة من المعدات والتموينات. وصنع بإذن من الخليفة «عشرة

---

(11) العبر، 89/4 - 90. انظر أيضاً، المعز، ص 103 - 106.

(12) الهادي روجي إدريسي الدولة الصنهاجية (الترجمة العربية، 61/1) انظر أيضاً سيرة جوذر، ص 119.

(13) اتعاظ، ص 138.

صنادل من القارب الكبير»[14]، وأجبر أهل بعض المدن الصقلية المحصنة مثل جرجنت وطبرمين ورمطة على تزويد دار الصناعة «بالعود» (الخشب)[15].

والتجأ المعز لتمويل الحملة العسكرية إلى استعمال وسائل استثنائية. من ذلك أنه ذهب بنفسه إلى المهدية سنة 967/357 هـ وجلب من قصر آبائه 500 حمل من الذهب[16] وعين نصير الصقلبي الخازن بالمنصورية عاملاً على طرابلس، فوفر له مبلغاً كبيراً من المال من مداخيل الجباية للإنفاق على «الأسطول ورجاله»[17]. وساهم الحاجب جوذر من جانبه مساهمة فعالة في هذا المجهود، فدفع لخزينة الحرب «كل ما توفر عنده من حسن نظره في شيء باعه من الخزائن، واستخرج بقايا الأموال (الجباية) على ما أضاف إلى ذلك من مال نفسه عملاً وتقرباً، وكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار واثنين وعشرين ألف درهم»[18]. أما جوهر، فإنه ما إن رجع من المغرب حتى أصبح المتصرف في أموال الدولة لمراقبتها وتوفير المبالغ اللازمة للحملة، «فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف (مليون) دينار»[19]. ثم جمع المعز في قصره بالمنصورية صناديق المال التي تولّى ترتيبها جماعة من خدام بيت المال. «وأمر برفعها في الخزائن على ترتيبها، وأن يُغلَق عليها وتُختَم بخاتمه»[20].

وفي عز فصل شتاء سنة 969/358 هـ نصب جوهر معسكره في رقادة وسط جيش عظيم يضم أكثر من 100,000 فارس، «وبين يديه أكثر من ألف صندوق

---

(14) سيرة جوذر، ص 98.

(15) نفس المصدر، ص 121، انظر أيضاً، الداودي، كتاب الأموال، ص 436 - 437.

(16) سيرة جوذر، ص 139.

(17) نفس المصدر، ص 118.

(18) نفس المصدر، ص 92.

(19) نفس المصدر، ص 119.

(20) اتعاظ، ص 138 - 139، 158. انظر أيضاً، المعز، ص 277.

من المال»[21]. ولما مرض زاره الخليفة عدة مرات للاطمئنان على صحته. وبعدما شُفي وهم بالرحيل أمر المعز أولاده بتوديعه مترجلين، «فنزلوا ونزل أهل الدولة لنزولهم فودعوه»[22] كما أمر عمال الأقاليم باستقباله مترجلين. وسيعطي عامل برقة المتكبر أفلح الناشب[23] 100,000 دينار لإعفائه من هذه المشقة، وسيرفض القائد الفاطمي هذه الهبة ويجبر العامل على المشي في مستوى ركابه[24].

ثم زار الخليفة معسكر جوهر وقضى فيه بضعة أيام لتوديع قائده. وأخيراً انطلق الجيش يوم السبت 14 ربيع الأول 6/358 فبراير 969، فكان ذلك اليوم يوماً عظيماً. وقد حرص المعز الذي كان محاطاً بأولاده وكبار رجال دولته على توديع القائد بنفسه. «فلما فرغ الوداع قبل جوهر يد المعزّ ورجله وحافر فرسه. ثم وقف الخليفة وقال له: سر فحوّل جوهر وجهه يريد العسكر»[25].

وقد وصف الشاعر ابن هانىء هذا المشهد في قصيدة طويلة جاء في مطلعها [طويل]:

رأيت بعيني فوق ما كنتُ أسمع وقد راعني يومٌ، من الحشر أَرْوَعُ
غداةَ كأن الأفق سُدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلعُ[26]

«ورجع الخليفة إلى قصره ونزع الخلعة التي كانت عليه وأنفذها إلى جوهر»[27].

---

(21) حسب شهادة ابن عبد الظاهر، اتعاظ، ص 161 - 162. انظر أيضاً، وفيات 327/1، والكامل 31/7 و 65 - 66.

(22) عيون الأخبار، ص 667.

(23) [في النص الفرنسي «أفلح بن ناشب» والتصحيح من عيون الأخبار، ص 671 وسيرة جوذر، ص 95].

(24) وفيات، 327/1، انظر أيضاً سيرة جوذر ص 95.

(25) عيون الأخبار، ص 667.

(26) نفس المصدر، ص 668.

(27) المصدر المذكور، ص 668.

ثم تقدم القائد الفاطمي على رأس جيشه العرمرم رويداً رويداً في اتجاه الإسكندرية، ولم يصل إلى تخوم المملكة الإخشيدية إلا في نهاية مسيرة طويلة دامت حوالي ثلاثة أشهر.

4 ـ الحملة على مصر:

ولما انتشر في الفسطاط خبر قدوم الجيش الفاطمي إلى مصر ووصوله الوشيك، حدث تململ كبير في صفوف أهل البلاد واستعد أنصار الدعوة الإسماعيلية الكثيرون لاستقبال القائد جوهر بنشر البنود التي وزعها عليهم الدعاة ليقيموا له الدليل على خضوع المصريين الذين يقاسون الفوضى والجوع منذ عهد بعيد. ولما قرب الجيش من الإسكندرية جمع الوزير جعفر بن الفرات[28] كبار رجال الدولة ووجوه القوم لاستشارتهم في الأمر، «وكانت رُسُل جوهر تَرِد سراً إلى ابن الفرات». فاتفق الجميع على تجنب اتخاذ أي موقف عدائي تجاه الخصم والميل إلى التفاوض معه. ووقع الاختيار على وفد للقيام بهذه المهمة، وعين على رأسه أحد العلويين من الفرع الحسيني، وهو أبو جعفر مسلم، لقرابته من الأسرة الفاطمية. وكُلِّف الوفد بالتوجه إلى جوهر ليقدم إليه شواهد الطاعة ويبرم معه معاهدة تضمن لأهل مصر «الأمان في أنفسهم وأموالهم». فذهب أعضاء الوفد وعلى رأسهم أبو جعفر إلى الجيزة يوم الاثنين 18 رجب 6 يونيو، «ولم يتأخر عن تشييعهم قائد ولا كاتب ولا عالم ولا شاهد ولا تاجر. وساروا فلقوا جوهر بتروجة ووافقوه، واشترطوا عليه، فأجابهم إلى ما التمسوه»[29].

وحرر جوهر بعناية فائقة نص معاهدة الاستسلام التي كانت في صالح أهل مصر، ومن الجدير بالتذكير أنه كان قد تولّى خطة الكتابة في عهد الخليفة المنصور. وتكتسي هذه المعاهدة التي نقل الحسن بن زولاق نصها بحذافيره، أهمية مزدوجة: فهي تمثل من جهة شهادة بليغة على براعة الدعاية التي أراد

(28) [في النص الفرنسي «أبو جعفر» والتصحيح من اتعاظ، ص 147].

(29) اتعاظ، ص 148.

جوهر أن يستميل بها أهل مصر المتمسكين بالمذهب السني إلى القضية الفاطمية، وهي تعرف من جهة ثانية بالسياسة التي يعتزم القائد الفاطمي انتهاجها في مرحلة انتقالية، ريثما يتدعم النظام الجديد.

وقد كان همه الأساسي لما خاطب أهل مصر العمل على تهدئة خواطرهم، فاستجاب في الحين لمطالب الوفد، وسمّى أعضاءه فرداً فرداً وهم: أبو جعفر مسلم الشريف[31] (رئيس الوفد) وأبو إسماعيل الرسي وأبو الطيب الهاشمي وأبو جعفر أحمد بن نصر وقاضي القضاة أبو الطاهر. ثم أوضح أن الأمان الذي وافق على منحه إياهم سيشمل «أنفسهم وأموالهم وبلادهم وجميع أحوالهم»، وذلك لإقامة الدليل على مدى عطف الخليفة الفاطمي عليهم. على أن الطاعة التي رأى من واجبه أن يطالبهم بها لا ترمي في الواقع إلا إلى ضمان سلامتهم وسعادتهم. وهكذا فقد تجنب جوهر الكشف عن مطامع مخدومه التوسعية ونمق بمهارة فائقة أغراض الحملة على مصر. وقد أشار إلى أن هدفه ليس إخضاع البلاد بل حماية المسلمين من الهيمنة والذل، بوضعهم في مأمن من تهديدات القرامطة وأخطار الروم. ذلك أن المسلمين في بلدان المشرق قد أصبحوا منذ عهد بعيد عرضة لمساوي القرامطة والروم بسبب تقاعس العباسيين. وتبعاً لذلك فإن مهمة الجيش الفاطمي تتمثل في محاربة العدو لتخليص أهل المشرق من الرعب وتمكينهم من أداء مناسك الحج آمنين مطمئنين، وإرجاع الأمن إلى نصابه في البلاد[32].

وللمزيد من تطمين المصريين، أشار جوهر إلى ما أوعز به المعز إليه، «من نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان». ثم أعلن عن الإصلاحات النافعة المزمع إجراؤها والتي من شأنها تحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد، «من صلاح الطرقات وقطع

---

(30) نفس المصدر، نقلاً عن ابن زولاق، ص 146 - 153.

(31) [في النص الفرنسي «مسلم بن شريف» والتصحيح من اتعاظ، ص 148].

(32) اتعاظ، ص 149.

عيث العائثين فيها، ليتطرق الناس آمنين ويسيرون مطمئنين، ويُتْحَفوا بالأطعمة والأقوات»[33].

«ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليها السكة الميمونة المنصورية. . . وإسقاط الرسوم الجائرة»[34].

ولكن من بين الإجراءات التي يعتزم جوهر اتخاذها، تُعتبر الحرية الدينية التي تعهد بها كفيلة بأن يكون لها أحسن الأثر في نفوس الناس. ذلك أنه قد وعد أهل مصر بتطبيق سياسة التسامح الديني على أتم وجه قائلاً لهم:

«إن الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذهبكم (أي المذهب السنّي)، وأن تُترَكوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يُجرى الآذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه ﷺ في سنّته»[35].

ومن الجدير بالملاحظة أن جوهراً بالتزامه العمل على احترام مبدأ التسامح، لم يُزِل مخاوف المتمسكين بالمذهب السنّي فحسب، بل فند أيضاً بصورة غير مباشرة التهم الموجهة ضد الفاطميين بدعوى أنهم قد حرفوا الدين وأدخلوا عدة بِدَع مكروهة في الشعائر الدينية. أضف إلى ذلك أنه لم يفصح بصريح العبارة عن أي جانب من جوانب المذهب الإسماعيلي. ولا شك أنه قد أخفى نواياه الحقيقية، لأن الظروف لم تكن تسمح بالدعوة إلى العقائد الإسماعيلية ولا بفرض الشعائر الدينية على النحو المعمول به في إفريقية منذ

(33) نفس المصدر.

(34) المصدر المذكور ص 150.

(35) نفس المصدر، ص 151.

حوالي ستين سنة وقد كان همه الأساسي عدم إزعاج أناس متعلقين بالمذهب السنّي. فاقتصر حينئذٍ، مع تجديد الأمان وتأكيد ما يتّسم به هذا الإجراء من عطف، على تمجيد الأيمة السالفين ومولاه أمير المؤمنين المعز لدين الله. على أنه لم يطالب أهل مصر إلا بالطاعة والتسليم عليه عندما يعبر الجسر وينزل في «المناخ المبارك». وفي المقابل سيوفي بالتزاماته التي تعهد بها منذ حين، وأشهد عليها أعضاء الوفد، باستثناء أبي جعفر أحمد بن نصر وبإضافة ثلاثة آخرين من وجوه البلاد، وهم محمد بن مهلب بن محمد وعمرو بن الحارث بن محمد وأبو يعلى محمد ابن القاضي أبي الطاهر(36).

وما إن ودّع أعضاء الوفد القائد الفاطمي الذي عاملهم أحسن معاملة وأغدق عليهم النعم، حتى علموا بانتقاض بعض عناصر من الجيش الأخشيدي في الفسطاط. كما أحيط جوهر علماً بذلك، فأراد نقض عهوده ثم تراجع بإلحاح من أبي جعفر إلا أنه تحصل من قاضي القضاة على فتوى مفادها أن قتال المتمردين حلال، لو اضطر إلى ذلك.

ورجع الوفد إلى الفسطاط يوم 8 شعبان/ 28 يونيو، فاستقبله الوزير ابن الفرات في موكب عظيم، وسلم إليه رئيس الوفد أبو جعفر كتاب جوهر بالأمان. فقرأه الوزير بمحضر كبار رجال الدولة وجماعة الوجوه. ولكن الأخشيدية والكافورية قد امتنعوا من قبوله واستعدوا في الحين للحرب، بعدما عهدوا بالإمارة إلى نحرير شُوَيْزان(37). ثم نزلوا الجزيرة بالرجال والسلاح مستعدين لمقاومة الجيش الفاطمي ومنعه من دخول الفسطاط.

ولما وصل جوهر إلى الجيزة يوم 11 شعبان/ أول يوليو، أبصر الجنود الأخشيديين في حالة تأهب للقتال في الضفة الأخرى من نهر النيل. فأمر مساعده جعفر بن فلاح بن أبي مرزوق الكتامي بعبور النهر على رأس كتيبة من الجيش. ثم انسحب إلى قرية شلقان، وكان يعتزم العبور بدوره من هناك، بعد

---

(36) نفس المصدر، ص 153.

(37) [في النص الفرنسي، «جويزان»، والتصحيح من اتعاظ، ص 155].

الاستيلاء على المراكب الواردة من تنيس ودمياط بمنطقة الدلتا. فهزم ابن فلاح الأخشيديين الذين تقهقروا ليلة الاثنين 16 شعبان/ 6 يوليو وانسحبوا في اتجاه الشام[38].

ومنذ طلوع النهار وجه أبو جعفر كتاباً إلى جوهر باسم أهل مصر الذين لم يشاركوا في محاولة المقاومة، «يهنئه بالفتح ويسأله إعادة الأمان». فاستجاب لطلبهم وكلف رسولاً برفع بند عليه اسم المعز، كإشارة إلى السلام، وكان مرفوقاً بصاحب الشرطة علي بن الحسن بن لؤلؤ. ومن الغد الثلاثاء 17 شعبان/ 7 يوليو سار جوهر في اتجاه الفسطاط، فاستقبله في الجيزة في موكب عظيم «أبو جعفر مسلم، وجعفر بن الفضل بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والشهود ووجوه التجاروالرعية. فلما تكامل الناس أقبل القائد جوهر في عساكره (ونادى مُنادٍ: ينزل الناس كلهم إلا الشريف والوزير). وتقدم الناس واحداً واحداً، فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى الفسطاط»[39]. ثم عبر الجنود الجسر الرابط بين الجيزة والفسطاط أفواجاً وأقاموا معسكرهم في شمال المدينة. وهناك أراد جوهر أن يحتذي بالخليفة الفاطمي المنصور الذي كان قد رآه كيف أسس مدينة صبرة ـ المنصورية غداة انتصاره على أبي يزيد. فرسم موضع مدينة سماها وقتئذٍ المنصورية أيضاً، وسيطلق عليها فيما بعد اسم القاهرة. ثم قام في الحين بحفر أساس المدينة لبناء قصر الخلافة وإقامة السور[40].

«ولما أصبح أنفذ علي بن الوليد القاضي لعسكره وبين يديه أحمال مال ومنادٍ ينادي: «من أراد الصدقة فليصر إلى دار أبي جعفر»، فاجتمع خلق من المستورين والفقراء، فصاروا بهم إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) ففُرِّق فيهم. ولما كان يوم الجمعة لعشرٍ بقين من شعبان (20 شعبان/ 10 يوليو)

(38) اتعاظ، ص 154 - 156.

(39) المصدر المذكور، ص 157.

(40) نفس المصدر، ص 157 - 158.

نزل جوهر في عسكر إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة، وخطب بهم هبة الله بن أحمد، خليفة عبد السميع بن عمر العباسي، ببياض، فلما بلغ إلى الدعاء قرأه من رقعة»[41]. ومما لا شك فيه أن جوهراً هو محرر هذا الدعاء الذي أبرز فيه اسم المعز لدين الله وتلقبه بأمير المؤمنين، مقتصراً على ذكر «أسلافه الأيمة الراشدين»، في انتظار زيادة أسماء علي وفاطمة والحسن والحسين بعد ذلك ببضعة أسابيع[42]. وتضمن الدعاء أيضاً التوسل إلى الله بأن يورث الخليفة «مشارق الأرض ومغاربها»، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ولقد كَتَبْنا في الزبور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أن الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِيَ الصَّالِحِين﴾[43]. كما تضمن الدعاء تنويهاً بالجهود المبذولة للجهاد في سبيل الله[44].

5 ـ سياسة جوهر في مصر:

انطلاقاً من المعسكر الذي أقام فيه مع رجاله، أسرع جوهر إلى الاضطلاع بالمهام التي كانت تنتظره. فأقر كبار رجال الدولة في مناصبهم السابقة، ولكنه «لم يَدَع عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه»[45]. فقد بقي الوزير ابن الفرات على رأس دواوين الدولة، واحتفظ القاضي أبو الطاهر هو أيضاً بخطته. «وكان عامل الخراج عليّ بن يحيى بن العرمرم. فأقره جوهر شهراً ثم أشرك معه رجاء بن صولات»[46]. وولى الحسبة رجلاً يُعرَف بأبي جعفر الخراساني. ورفع البراطيل[47]، وأرجع الأملاك المحجوزة بصور غير شرعية في العهد السابق إلى أصحابها، وأعاد فتح دار الضرب الطولونية، وضرب السكة الحمراء

---

(41) نفس المصدر، ص 162 - 163، نقلاً عن ابن زولاق.

(42) نفس المصدر، ص 166.

(43) سورة الأنبياء، الآية 105.

(44) اتعاظ، ص 163.

(45) المصدر المذكور، ص 168.

(46) نفس المصدر.

(47) [عرف المقريزي البراطيل بأنها الأموال التي تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها. انظر، اتعاظ، ص 166، الهامش 2].

المصنوعة من الذهب الأحمر الجيد العيار، لتعويض السكة القديمة التي فقدت قيمتها منذ عهد بعيد. وقد تسبب هذا الإجراء في ازدياد المصاعب الاقتصادية التي تفاقمت من جراء المجاعة واستمرار الجفاف. فارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً حتى اضطر المحتسب إلى قمع باعة الحبوب والطحانين(48).

ولكن ما لبث أن رجع الأمن إلى نصابه. فقد كان جوهر منذ البداية يجلس بنفسه للمظالم في كل يوم سبت بمحضر الوزير وقاضي القضاة أبي الطاهر وكبار الفقهاء. ثم رد المظالم إلى أبي عيسى مرشد،(49). واحترم النظام الجديد في أول الأمر احتراماً كاملاً مبدأ التسامح الديني الذي نصت عليه معاهدة الاستسلام.فقد أفطر جوهر ورجاله يوم عيد الفطر بغير رؤية، حسب تعاليم المذهب الإسماعيلي الذي يعتمد الحساب في الصوم والإفطار. وأقيمت صلاة العيد في المعسكر ذاته بإمامة قاضي العسكر علي بن الوليد. «ولم يُصَلِّ أهل مصر، وصلّوا من الغد في الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) وخطب لهم رجل هاشمي. وكان أبو الطاهر القاضي قد التمس الهلال على رسمه في سطح الجامع فلم يَرَه»(50).

واستنكر جوهر هذا الموقف الذي اتخذه القاضي، إذ كان يريد باسم الخليفة الفاطمي فرض سلطته الدينية والدنيوية على كافة المسلمين. ورغم خطر مخالفة مبدأ التسامح الديني الذي تعهد باحترامه، لم يتردد القائد الفاطمي في منع قراءة «سبّح اسم ربّك» في صلاة الجمعة وإزالة التكبير بعد تلك الصلاة(51).

وبعد ذلك ببضعة أشهر، أي يوم 8 جمادي الأولى سنة 19/359 مارس 970 صلى جوهر صلاة الجمعة في جامع ابن طولون، وأذّن المؤذنون بحي على

(48) اتعاظ، ص 165 - 166.

(49) المصدر المذكور، ص 165.

(50) نفس المصدر، ص 165.

(51) نفس المصدر، ص 168.

خير العمل، وقَنَت الإمام عبد السميع في الركعة الثانية. «وأنكر جوهر عليه أنه لم يقرأ «بسم الله الرحمٰن الرحيم» في كل سورة ولا قرأها في الخطبة، فصلى به الجمعة الأخرى وفعل ذلك».

«ولأربع بقين منه (26 جمادي الأولى) أُذِّن في الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) بحي على خير العمل، وجُهِر فيه بالبسملة في الصلاة»[52].

---

(52) نفس المصدر، ص 170. انظر حول طريقة الصلاة حسب المذهب الإسماعيلي، دعائم الإسلام، ص 189 وما بعدها، وبالخصوص صلاة الجمعة، ص 216 - 221. وحول الآذان حسب تعاليم المذهب الإسماعيلي، انظر دعائم الإسلام ص 172 - 178. وبالنسبة لإفريقية انظر افتتاح الدعوة، الفقرة 225 والهادي روجي إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية، (144/9 - 145.

الفصـل الخامـس

فتح الشام ومحاربة القرامطة

1 ـ الاستعداد لغزو الشام:

لما أطلق الخليفة الفاطمي جيوشه في اتجاه الشرق الإسلامي كان يرغب في غزو مصر والشام الواحدة تلو الأخرى قبل أن يصل إلى العراق مركز الخلافة العباسية. فيتعين حينئذٍ على قائده جوهر، بعدما وطئت قدماه أرض الكنانة أن يواصل هجومه في اتجاه الشام.

وقد كانت بلاد الشام، باستثناء إمارة حلب، تابعة عهدئذٍ للملكة الأخشيدية المنهارة. فبعد سقوط الفسطاط التجأ الأخشيدية والكافورية إلى تلك البلاد وتجمعوا حول الأمير الحسن بن عبيد الله بن طغج. وقد كانت القبائل العربية العتيدة من بني عقيل ومرة وفزارة[1] تتولى الدفاع عن مدخل العاصمة دمشق. ولكن البلاد كانت مهددة في آنٍ واحد بخطر الروم في الشمال، حيث أصبح بنو حمدان عاجزين عن التصدي لهم، وبخطر القرامطة في الجنوب، حيث تمكن جنود الأعشم (أو الأعصم)، بفضل تواطؤ القبائل العربية، من احتلال دمشق وإجبار الأخشديين على دفع غرامة مالية باهظة كل سنة[2].

وهكذا صفا الجو للفاطميين في الشام، لأن تدخلهم في تلك البلاد من

---

(1) انظر دائرة المعارف الإسلامية 893/2 - 984 (فزارة). وحول بني مرة وبني عقيل التابعين لمجموعة عامر بن صعصعة، انظر، ابن حزم، وجمهرة أنساب العرب، ص 260 - 264 و 273 - 275، وكذلك دائرة المعارف الإسلامية، 562/2 (جزيرة العرب).

(2) العبرة، 94/4 واتعاظ، ص 173 و 247 - 248.

شأنه لا محالة أن يريح أهلها ويكون له أطيب الأثر في نفوس المسلمين بالمشرق. أفلم يظهر الفاطميون آنذاك في مظهر المدافعين عن حمى الإسلام ضد العدو النصراني والنهابين القرامطة المريعين الذين أصبحوا يثيرون الذعر في صفوف الحجيج؟.

وقبل أن يشرع جوهر في غزو الشام، حرص على كف أذى الإخشيدية والكافورية الذين عادوا إلى مصر بعد ما تحصّلوا على الأمان ونزلوا قرب مصلى العيد بالقاهرة في ذي الحجة سنة 358، وكان عددهم يناهز الستة آلاف رجل يحيط بهم أربعة عشر رئيساً. وأصبحوا يمثلون خطراً يهدد بانبعاث مركز شغب في تلك الناحية. فبادر جوهر بإلقاء القبض على ثلاثة عشر من وجوههم، «واعتقلهم ستة أشهر حتى سيرهم مع الهدية إلى المعز»[3].

2 ـ الحملة العسكرية على الشام:

منذ مطلع سنة 970/359 جهز جوهر جيشاً عظيماً وعين على رأسه مساعده الكتامي جعفر بن فلاح، وبعثه إلى الشام، حيث عقد الحسن بن طغج منذ مدة قريبة معاهدة مع القرامطة. فسار جعفر يوم 18 محرم 359/ ديسمبر 969 إلى الرملة التي كانت في قبضة الأمير الأخشيدي بمساعدة القائد القرمطي ابن غزوان[4] واغتنم الفوضى السائدة آنذاك في البلاد والخلافات القائمة بين القواد الأخشديين لعزل قوات ابن طغج الذي استنجد عبثاً بأتباعه في دمشق وطبرية وبيت المقدس. «وقد انتشرت كُتُب جعفر إلى ولاة الأعمال يعدهم بالإحسان ويدعوهم إلى طاعة المعز». وعندئذٍ أصبحت القوات المتحدة الأخشيدية والقرمطية المقيمة في الرملة عاجزة عن مقاومة الجيش الفاطمي، فهزمهم جعفر بسهولة، «وأسر الحسن بن طغج وابن غزوان وجماعة، وبعثهم في القيود إلى جوهر بالفسطاط ثم سير بهم إلى إفريقية». وبعد سقوط الرملة سار جعفر في رجب سنة 359/ مايو. يونيو 970 إلى طبرية، «ليحارب فاتك غلام مُلْهَم ـ وكان عليها من قِبَل كافور الأخشيدي ـ فلم يعرض له ملهم وملك جعفر

(3) المصدر المذكور، ص 166 - 167.

(4) نفس المصدر ص 168.

طبرية»[5]. وقد زاد سقوط هذه المدينة مباشرة عقب سقوط الرملة في الفوضى السائدة في دمشق. فتخلى واليها شمول الأخشيدي عن منصبه وسار إلى طبرية للاستسلام إلى جعفر، في حين اندلعت الخلافات بين القبائل العربية. ذلك أن بني عقيل الذين ما زال زعيمهم الغيور على سلطاته يناصب العداء للفاطميين، قد عارضوا عرب مرة وفزارة الذين استمالهم جعفر إليه. أما أهل دمشق الذين كانوا يخشون البربر ويكنون لهم حقداً شديداً، فقد استعدوا للقتال بكل حزم، لا سيما بعد رجوع الوفد الذي ذهب إلى طبرية للتفاوض مع جعفر، وكان يضم وجوه القوم. فأساء الجنود الفطاميون معاملتهم، «وعادوا إلى دمشق وهم غير شاكرين ولا راضين، فبسطوا ألسنتهم بذم المغاربة، حتى استوحش أهل دمشق منهم»[6].

وما إن نزل الجيش الفاطمي بظاهر دمشق في مستهل ذي الحجة حتى واجه مقاومة مستميتة. فقد كان أهل المدينة المحاطين ببعض الجنود الذين رفضوا الفرار مع قائدهم شمول، متحمسين للقتال تحت تأثير بعض رؤسائهم مثل أبي القاسم بن أبي يعلى العباسي، وحاولوا شن المعركة في عدة بقاع من أبواب المدينة وبالخصوص في الشماسية. ولكنهم هُزِموا شر هزيمة يوم عيد الأضحى، السبت العاشر من ذي الحجة سنة 14/359 أكتوبر 970، ورضخوا للاستسلام. ولكن جعفر لم يظهر ما كان أبداه رئيسه جوهر من حلم يوم استيلائه على الفسطاط، فقد ترك رجاله يعاملون المهزومين معاملة قاسية. «ولما خرج قوم من مشايخ البلد لمخاطبة جعفر، وهو بالشماسية، لطلب العفو، أخذهم قوم من المغاربة وسلبوا ثيابهم وقتلوا منهم رجلَيْن...». وأخيراً دخل القائد الفاطمي دمشق يوم الجمعة السادس عشر من ذي الحجة 20/359 أكتوبر 970، وصلى صلاة الجمعة بجامع عمر ثم عاد إلى معسكره خارج السور. «فوضع أصحابه أيديهم ينهبون الناس، فثاروا عليهم وقتلوا منهم كثيراً.

---

(5) نفس المصدر، ص 173.

(6) نفس المصدر ص 174.

وخرج إليه المشايخ فأنكر عليهم. . وأومَأ إلى مال يأخذه من البلد دية مَنْ قُتِل من رجال أمير المؤمنين. فانصرفوا من عنده وفرضوا له المال، فعم الناس البلاءُ في جبايته».

ويبدو أن جعفر الذي أخذته النشوة بفتح دمشق قد أراد الاقتداء بما فعله رئيسه جوهر غداة استيلائه على الفسطاط، فبنى لنفسه قصراً في موضع معسكره وأمر أصحابه ببناء المساكن وإقامة الأسواق. ولعله كان ينوي بذلك بعث مدينة مماثلة لمدينة القاهرة خارج أبواب دمشق. ولا شك أن هذه المنافسة بين الرجلين تبدو طبيعيّة. بل أنها تنم عما كان يشعر به جعفر من غيرة تجاه قائد المعز المفضل. من ذلك أنه لم يتأخر منذ فتح دمشق عن توجيه رسائله مباشرة إلى الخليفة الفاطمي في المنصورية، محاولاً بذلك إظهار استقلاليته. وقد غضب المعز غضباً شديداً وأرجع إليه كتابه مختوماً وأمره بأن لا يكتب إلا باسم جوهر وعن طريقه، حتى لا ينسى أنه ليس سوى نائبه وأن جوهر هو القائد الأعلى للجيش الفاطمي أثناء تلك الحملة[8].

3 ـ ردود فعل القرامطة:

كان لا بدّ أن يثير نجاح الجيش الفاطمي في الشام ردود فعلٍ من قِبَل القرامطة، وقد حُرِموا من الأموال الطائلة التي كانت تدرها عليهم وصايتهم على تلك البلاد، وهي لا تقل عن 300,000 دينار. على أنه في الوقت الذي استولى فيه جعفر على دمشق، كان محمد بن عصوداً أحد منظمي حركة المقاومة في تلك المدينة، وظالم بن موهوب رئيس بني عقيل، قد تمكنا من الهروب والتوجه إلى الأحساء لحث الحسن الأعصم رئيس القرامطة على المسير إلى الشام[9].

---

(7) نفس المصدر، ص 167 - 177.

(8) الخطط، 378/1.

(9) اتعاظ، ص 177.

فبدأ الأعصم بالإعلان رسمياً عن دخوله في طاعة الخليفة العباسي المطيع، ثم ذهب إلى الكوفة ووجه منها كتاباً إلى بغداد يعرض فيه التحالف ضد الفاطميين. فاستجاب عز الدولة بن بختيار بن بُوَيْه لطلبه ولم يتأخر عن إمداده بالمال والسلاح، وأمر أمير الموصل ابن حمدان بإمداده بالمال أيضاً، «وبمن كان عنده من الإخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين وصاروا إليه لما انهزموا من المغاربة»[10].

وبعد تدخل جنود البربر في الشام تحت راية الفاطميين وانتصارهم العسكري، أصبح صاحب إفريقية يهدد العاصمة العباسية أكثر فأكثر، الأمر الذي من شأنه أن يحث القوات المتناحرة داخل دار الخلافة العباسية من بويهيين وحمدانيين وقرامطة على التحالف ضد العدو المشترك. ولا شك أن بني بُوَيْه وبني حمدان قد وجدوا في التحالف مع القرامطة فائدة لهم. كما أن من مزايا هذا التحالف بث بذور الشقاق بين هؤلاء المتمردين الألداء، وبين أولئك الإسماعيليين المارقين وأنصارهم من البربر القادمين من بلاد المغرب النائية.

ويبدو أن القائد الكتامي جعفر بن فلاح الذي فوجيء في دمشق بهجوم القرامطة قد انتقص لا محالة قوتهم. أضف إلى ذلك أنه ارتكب هفوة فادحة بتشتيت جهوده وتوجيه عساكره لمحاربة الروم في النواحي الشمالية من الشام في انطاكية وطبرية واسنكدرونة حيث مُنِيَ رجاله بقيادة غلامه فتوح بهزيمة نكراء وأُجبِروا على التقهقر في اتجاه دمشق[11].

ومن قاعدته الجديدة القاهرة أسرع جوهر الذي لا بدّ أنه قدر قوة القرامطة حق قدرها، إلى توجيه الجنود الذين بعثهم إليه مولاه المعز من المغرب، إلى الشام بقيادة سعادة بن حيان، وقد أوكل إليه مهمة مسك مدينة الرملة المحصنة لسد الطريق الرئيسي المؤدي إلى مصر[12].

---

(10) المصدر المذكور، ص 178 و 248 - 250.

(11) نفس المصدر، ص 178.

(12) نفس المصدر، ص 182.

أما جعفر بن فلاح فقد استهان بالقرامطة وسار في اتجاههم دون أن يتخذ الاستعدادات اللازمة لذلك، فدارت الدائرة عليه وعلى رجاله وقُتِل، «وملك القرامطة دمشق وأمنوا أهلها».

فاستولى الفزع على الجنود الفاطميين التابعين لحامية الرملة، وانسحبوا منها متجهين إلى ميناء يافا بفلسطين، حيث كانت توجد وحدات من الأسطول الفاطمي تحت تصرف القائد سعادة بن حيان، مستعدة للإبحار في الوقت المناسب في اتجاه السواحل المصرية(13).

وهكذا فقد فشلت مساعي الفاطميين للتسرب إلى صلب ممالك خصومهم العباسيين. وكان من نتائج هزيمة ابن فلاح عودة دمشق إلى حظيرة القرامطة ومنع الكتاميين من التمركز في الشام. ومما هو أدهى وأمر أن الطريق المفضي إلى مصر قد أصبح مفتوحاً في وجه الأعصم دون أي عائق. ومنذ ذلك الحين سيتحول الصراع الذي من المفروض أن يكون قائماً بين القوات الفاطمية والعباسية، إلى مواجهة بين جوهر المتحصن بحذر في قاعدته الجديدة بمصر، وبين زعيم القرامطة الذي أصبح بفضل انتصاره في دمشق أشد مراساً.

4 ـ موقف المعز من انتصار القرامطة في الشام:

كان الخليفة الفاطمي المعز يتابع من عاصمته الإفريقية المنصورية أطوار الحملة العسكرية على الشام وهو في حيرة من أمره. وأخشى ما كان يخشاه أن تؤول الإهانة التي ألحقها القرامطة «المرتدون» بجيشه، إلى المس من كرامته بوصفه خليفة الطائفة الإسماعيلية وإمامها المعصوم، لا سيما وقد أصبحوا يمثلون عقبة في طريقه إلى بغداد. والأسوأ من ذلك أنهم صاروا منذ ذلك الحين يهددون ممتلكاته الجديدة في مصر بخطر جسيم.

ومما لا شك فيه أن جوهراً كان قادراً على التصدي للأعصم وأصحابه، إذ أن له من الرجال والعتاد ما يسمح له بإحباط خُطَط القرامطة. إلا أن الهزيمة التي

---

(13) نفس المصدر، ص 178 - 179 و 249.

مُنِي بها جيشه في الشام من شأنها أن تلحق ضرراً فادحاً بالدعوة الفاطمية في المشرق وتعرض للخطر سياسته التوسعية تجاه الخصم العباسي.

ولئن فكر المعز ـ كما فكر والد جده المهدي قبل ذلك بنصف قرن ـ في الخروج من إفريقية حالما يتمكن أنصاره من فتح مصر، فإن كثيراً من المؤشرات تدعو إلى اعتقاد ذلك، ولم يتأخر المؤرخون ـ كما أسلفنا ـ إلى الإشارة إليها. إلا أنه من الضروري تفسير تلك النوايا تفسيراً مخالفاً لذلك، في ضوء الموقف السياسي والمذهبي الذي اتخذته الدعوة الفاطمية إزاء بني العباس، باعتبارهم مثل بني أمية مغتصبين ومتقلدين للسلطة المفروضة على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بصورة غير شرعية. فلا بدّ بالخصوص من ربط رحيل المعز نهائياً إلى مصر، لا بفتح ذلك القطر التابع للخلافة العباسية المطموع فيها، بل بالأحرى بالهزيمة التي مُنِيَت بها الجيوش الفاطمية أمام القرامطة.

فينبغي حينئذٍ أن نَعْزُوَ إلى تغير اتجاه القرامطة المتمثل في ارتدادهم عن المذهب الإسماعيلي، ودخول رئيسهم الأعصم في طاعة العباسيين، ذلك القرار الذي اتخذه المعز مباشرة إثر مقتل قائده الكتامي جعفر بن فلاح، حالماً أدرك خطورة المد القرمطي في اتجاه مصر، والرامي إلى الالتحاق بخادمه الأمين جوهر في أرض الكنانة، ونقل مقر خلافة آبائه وأجداده إلى عاصمته الجديدة القاهرة المعزية.

5 ـ محاولة التصدي للقرامطة في مصر:

في حين كان المعز، قبل رحيله النهائي من إفريقية، يسهر بنفسه على سير الاستعدادات ويسعى إلى فض المشكل الدقيق المتعلق بتعيين خليفة له في المغرب، كان جوهر يتأهب لمواجهة القرامطة في مصر. وبما أنه كان أشد حذراً من مساعده ابن فلاح، وأكثر اطلاعاً على أمور الحرب، بفضل ما اكتسبه من خبرة في الميدان العسكري، فقد حرص على تطبيق نفس الخطة التي اتبعها الخليفة المنصور في حربه مع أبي يزيد.

وهكذا عوض المجازفة بالسير إلى العدو في صحراء سيناء الممتدة

الأطراف أو في سهول الدلتا، حيث يتوقع أن يكون الكتاميون من أبناء الجبال في وضع لا يُحسَدُون عليه، أمام جنود متعودين أكثر على التحرك والقتال في الصحراء، فضل جوهر التحصن في قاعدته الجديدة وشن الحرب داخل الخندق الذي حفره حول السور المبني منذ عهد قريب[14]، كما فعل المنصور من قبل في صبرة، حين تحصن في الخندق المحيط بسور القيروان لرد هجومات أبي يزيد المتكررة.

وقد نبذت المدينتان المحصنتان تنيس والقلزم[14م] طاعة الخليفة الفاطمي منذ أن تأكد زحف القرامطة على منطقة الدلتا إثر استيلائهم على الرملة التي كان قد غادرها بسرعة سعادة بن حيان متوجهاً إلى قاعدة يافا البحرية[15].

ومنذ مستهل سنة 361 وصل جيش الأعصم إلى الفرما معزّزاً بعناصر من القبائل العربية التابعة بالخصوص لبني طي وبني عقيل، واجتاح منطقة وادي النيل السفلى. وفي ظرف بضعة أسابيع انحصرت السلطة الفاطمية في العاصمة المصرية وفي المدينة الجديدة التي أقيمت في الجانب الشرقي من المدينة العتيقة. ووصل القرامطة إلى القاهرة يوم الجمعة غرة ربيع الأول« 22 ديسمبر 931، فلقيهم جوهر المحصن في الخندق الحائل دون دخول المدينة من الجهة الشرقية. والتحم قتال متكافىء بين الفريقين طوال يوم السبت. وبدأت المعركة الحاسمة صباح يوم الأحد أمام الخندق وانتهت بهزيمة القرامطة، فتقهقر قائدهم الأعصم ونهب بنو عقيل وبنو طي أثقاله[16]. ومما زاد في ثقل الهزيمة التي مُنِي بها القائد القرمطي، أن «الفتنة» كانت على أشدها في الأحساء. ذلك أن قسماً كبيراً من القبائل القرمطية التي ظلت وفية للدعوة الفاطمية قد تألبت على الأعصم إثر ارتداده عن المذهب الإسماعيلي ودخوله في طاعة العباسيين.

---

(14) اتعاظ، ص 80، [انظر أيضاً، الخطط، 2/179 - 180].

(14 م) [القلزم مدينة قديمة خُرِّبت في القرن الخامس الهجري وبُنِيَتْ على أنقاضها مدينة السويس الحالية، اتّعاظ، ص 181 الهامش 1].

(15) المصدر المذكور، ص 181 - 182 و 250.

(16) نفس المصدر، ص 181 - 182 و 249.

ولا شك أن أنصار الإمامة الفاطمية الذين ساندوا شق الجّنابي وقاتلوا في سبيل انتصار قضية أيمة إفريقية داخل دار الخلافة العباسية، قد رأوا الفرصة سانحة لمقاومة سياسة الأعصم المحفوفة بالمخاطر. فاستجابوا بسهولة لنداءات الدعاة الفاطميين الذين كانوا يقومون بنشاط حثيث في البحرين بإيعاز من الإمام ذاته بلا شك. وتبعاً لذلك فقد أسرع القائد القرمطي إلى العودة إلى قاعدته لاستدراك الحالة التي كان يخشى أن تتفاقم إثر هزيمته أمام القاهرة(17).

وهذا من شأنه أن يوفر للقائد الفاطمي مهلة لتدعيم سلطته الحديثة العهد في البلاد المصرية، وقد زعزعتها الهجمة القرمطية. فوجه فرقة من العسكر لقتال أهل تنيس، وأردفها بفرقة أخرى انطلقت في المراكب من النيل إلى أن وصلت إلى الصعيد والتحقت بالجنود القادمين من البر لقمع الثورة التي أعلنها متمرد من بني كلاب اسمه عبد العزيز بن أَهْيَج، بعدما نبذ الدعوة الفاطمية ودعا لبني العباس. كما عهد جوهر إلى مساعده سعادة بن حيان بمهمة استرجاع الرملة وتركيز حامية جديدة فيها واتّخذ إجراءات قمعية ضد بعض الجنود الذين فروا من الجيش النظامي أثناء هجوم القرامطة على القاهرة. أما وحدات الأسطول التي قدمت من إفريقية بقيادة أمير البحر الحسن بن عمار لنجدة الجيش الفاطمي في مصر، فقد سارت إلى الشام(18).

وبفضل ذلك استطاع جوهر إعادة بسط سلطته على البلاد المصرية قبل نهاية سنة 972/361، تلك السلطة التي زعزعها الخطر القرمطي قبل ذلك التاريخ بقليل. أجل! لقد أفلتت بلاد الشام من قبضة جيشه وأصبحت تحت رحمة رؤساء القبائل العربية من بني عقيل وبني طي، ولكن في المقابل صمد النظام القائم في أرض الكنانة منذ عهد قريب تحت راية الفاطميين. كما أن تلك البلاد

---

(17) العبر، 90/4. والمعزّ، ص 103 - 106 و 114 - 115.

(18) اتعاظ، ص 183 - 194 ـ والواقع أن الأسطول الفاطمي قد وُضِع تحت قيادة والي صقلية أحمد بن الحسن ولكن هذا الأخير قد توفّي في طرابلس فعوّضه ابن عمه الحسن بن عمار، انظر، سيرة جوذر، ص 92، الفقرة 6.

التي انتشر فيها خبر قرب قدوم الخليفة الفاطمي المعز، مثيراً اهتماماً كبيراً وعواطف شتى، قد دخلت عهدئذٍ في مرحلة زاهرة من تاريخها. كيف لا وهي ستصبح عما قريب مقر خلافة ذات اعتبار، أي خلافة ذرية الرسول، ومركز حضارة باهرة[19].

---

(19) انظر الوضع في مصر قبيل قدوم المعز، اتعاظ، ص 184 - 185.

الفصل السادس

تعيين بلكين بن زيري رئيس صنهاجة نائباً للخليفة الفاطمي في إفريقية ورحيل المعز إلى مصر

1 ـ البحث عن نائب للخليفة في إفريقية:

لقد حث الخطر الذي أصبح يمثله غدر الزعيم القرمطي الأعصم، والحرص على الحفاظ على هيبة الدولة الفاطمية، المعز على تحويل مقر الإمامة بلا تأخير إلى البلاد المصرية ذاتها، ومغادرة إفريقية نهائياً. ولا شك أن الرحيل النهائي قد تقرر منذ أن فتح جوهر مصر في شعبان 358/ يوليو 969. وقبل الخروج للقيام بحملة عسكرية على زناتة في ناحية أوراس في أواخر الخريف من السنة ذاتها، عهد المعز إلى خادمه الأمين جوذر بمهمة التوجه إلى المهدية «لإحكام ما بالخزائن التي بها وشد الأمتعة إلى المشرق»(1).

على أن اختيار نائب قادر على حكم إفريقية قد كان شغل الخليفة الفاطمي الشاغل، كما تدل على ذلك بعض التصريحات التي باح بها لجوذر، «لما خاض الناس وأكثروا القول بأنه هو المستخلف على إفريقية. فكتب إلى الخليفة لإعلامه بما اتصل به ذلك ويرغب في أن لا يفارقه». فأجابه المعز كاشفاً عن نواياه الحقيقية ليطمئنه ويبدد مخاوفه. ولم يُخْفِ عنه انشغال باله بموضوع تعيين «خليفة» له في إفريقية يكون قادراً على حكم البلاد ومؤهلاً لعدم الإخلال بواجب الوفاء للأسرة الفاطمية(2).

---

(1) سيرة جوذر، ص 109.

(2) نفس المصدر، ص 109 - 110.

والحال أن ما كان يتميز به الخادم المسن من خبرة طويلة بشؤون الدولة، وتفانٍ في خدمة قضية أسياده، وما كان يحظى به من ثقة ومحبة لدى المعز، قد كان كافياً لتأهيله «للخلافة» مخدومه وتقلد ذلك المنصب الذي كان باستطاعة المعز أن يعهد به إليه دون أن يُوجِس أدنى خيفة على مصير إفريقية. ومع ذلك فقد استبعد بحق اختيار عون صقلبي ولو كان يحتل أعلى منصب في الدولة ويُعتبَر أوثق وأجدر خادم. ذلك أن جوذر وسائر بني جنسه من الصقالبة العبيد أو الموالي كانوا لا محالة موظفين مخلصين يشغلون أسمى الخطط المدنية والعسكرية. ولكن علاقات الولاء التي تربطهم بالخلفاء الفاطميين كانت تجبرهم على العيش داخل البلاط بعيدين عن أهل البلاد الذين كانوا حتماً غرباء عنهم[3].

ففي تلك البلاد التي يصعب حكمها، حيث ما فتىء أهلها من العرب والبربر، باستثناء الكتاميين والصنهاجيين الذين يرتكز عليهم النظام القائم وبعض الأُسَر العربية المخلصة للفاطميين، يكنون لهؤلاء العداوة الشديدة التي كانت مصادرنا حريصة على إبرازها، كان من المتوقع حينئذٍ «أن لا يجد جوذر معيناً ولا عضداً»، ولا يجد «مَنْ يصفو له على ما يريد، من فساد أطماع الناس وطباعهم»، على حد تعبير المعز[4].

ومن ناحية أخرى، كان من مزايا شهادة جوذر أنها تسمح جزئياً بتوضيح وتصحيح الأخبار الغامضة التي رواها المؤرخون حول الظروف التي حفت بتعيين بلكين على رأس المملكة. ذلك أن صيغة الرواية التي مفادها أن المعز استدعى على التوالي جعفر بن علي الأندلسي عامل الزاب وبلكين بن زيري أمير صنهاجة - أو والده زيري - ليعرض على كل واحد منهما خلافته في المغرب ويستمع إلى شروطه، كفيلة بإثبات صبغتها المريبة. فلعل أحد المؤرخين الصنهاجيين الرسميين قد نمق تلك الرواية لإبراز جدارة بلكين، وبالتالي الحط

(3) سيرة جوذر (الترجمة الفرنسية)، ص 15 - 16.

(4) سيرة جوذر، ص 109.

من قيمة خصمه الذي أظهره في مظهر الأمير المتعجرف والطموح. فهذه الرواية ترمي بلا شك إلى تفسير خيانة جعفر ودخوله في طاعة الأمويين بالأندلس، بما ناله أمير صنهاجة من حظوة وأفضلية[5].

ولئن فكر الخليفة الفاطمي في اختيار أمير المسيلة القوي النفوذ لخلافته في إفريقية، فإن الهيبة العالقة باسم بني حمدون وجدارة جعفر ذاتها تدعوانا إلى تصديق المصادر التي تؤكد ذلك. إلا أنه لا شيء يثبت مثل هذه النوايا المنسوبة إلى المعز، إذا تأملناها في ضوء الشهادة الأصلية الواردة في سيرة جوذر حول تدهور العلاقات بين الخليفة الفاطمي وعامل الزاب. وحتى لو خامرت تلك الفكرة عقل المعز في وقتٍ ما، بالنظر إلى المرتبة المرموقة التي يحتلها هذا الرجل، علاوة على كونه أخاه من الرضاع ورفيق صباه في قصر الخلافة بالمهدية، فإن موقف الخليفة سيتغير حتماً إثر الانتصار الذي أحرزه بلكين على زناتة في ربيع الثاني 360/ فبراير 971[6].

2 ـ النزاع بين أمير صنهاجة وصاحب المسيلة:

وقبل ذلك غضب المعز على الخلافات القائمة بينه وبين جعفر بن علي حول تصرفه المالي في المقاطعة التي كان يحكمها حكماً مطلقاً. ثم اشتد غضبه لما علم بوجود أعوان أمويين في بلاط أمير المسيلة، حتى اضطر جوذر إلى اقتراح عزله، رغم أنه كان يرعاه. فلو وُجّهَت مثل هذه التهم البالغة الخطورة، أي التعاون مع العدو، إلى موظف آخر من كبار موظفي الدولة، لكانت سبباً في نكبته إن لم يكن في هلاكه. والأدهى من ذلك أن جعفر كان مرتبطاً مع أجواره الزناتيين، أولئك المتمردين الألداء على الدولة الفاطمية، بعلاقات ودية كفيلة بإثارة غضب الخليفة[7].

---

(5) الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية (الترجمة العربية)، 77/1 - 78.

(6) نفس المرجع، 69/1.

(7) سيرة جوذر، ص 12 - 124، 129 - 130.

وقد أشار بكل وضوح إلى خطورة هذا التواطؤ بين جعفر وبني خزر رؤساء مغراوة الزناتيين، مصدران إفريقيان معاصران للحوادث، نقل عنهما المؤرخ الأندلسي ابن حيان في كتابه النفيس **المقتبس**: وهما تاريخ يوسف الوراق ـ وهو كتاب مفقود ـ وتاريخ الطبيب القيرواني الشهير ابن الجزار. ولا شك أن النفوذ الكبير الذي أحرزه على حساب زناتة أمير صنهاجة زيري بن مناد وابنه بلكين اللذان امتدت إقطاعاتهما منذ تولية المعز إلى إقليم تاهرت ومناطق شاسعة من الحضنة، بالإضافة إلى ممتلكاتهم الخاصة في ناحية تيتري، قلت إن ذلك النفوذ قد أقلق في العاجل جارهما صاحب المسيلة. وبالفعل فإن جعفر بن علي الذي استاء من ازدياد نفوذ صاحب أشير وابنه على حدود ممتلكاته، قد حقد عليهما حقداً شديداً، لا سيما وقد كان أصحابهما يشنون الغارة تلو الأخرى في أراضيه ذاتها على المغراويين وغيرهم من بربر الزاب، أمثال مزاتة وهوارة ونفزة، فيلحقون ضرراً جسيماً بسلطته، بدعوى ردع القبائل المناهضة للدولة الفاطمية[8].

وقد تفاقمت العداوة بين صاحب المسيلة وأمير صنهاجة حتى شغلت بال المعز. وكان جعفر يضمر أكبر عداوة لابن زيري الأكبر بلكين الذي كان على رأس الجيش الصنهاجي. وتعددت الخلافات بين الخصمَيْن حتى اضطر الخليفة إلى دعوتهما إلى القصر، «وتكلف مؤونة الجلوس لهما، واستماع كلامهما وأن يفصل بينهما بالحق وبالعدل. . . »[9].

إلا أن هذه المصالحة التي تمت على الأرجح في الوقت الذي استولى فيه جوهر على مصر، ولكن بلا شك قبل الانتصار الساحق الذي أحرزه بلكين على مغراوة وأسفر عن مقتل رئيسهم محمد بن الخير، قد كانت بلا جدوى. ذلك أن جعفر قد انضم منذ عهد بعيد إلى حلفائه الزناتيين ضد صنهاجة، ولم يعد

(8) المقتبس، ص 30 - 31.

(9) سيرة جوذر، ص 100.

يتردد في الجهر بتحدي سلطة الخليفة الذي تعبر أجوبته على رسائل جوذر عن مدى غضبه على مثل هذا التصرف[10].

وحسب رواية الوراق، فإن انتصار بلكين على مغراوة قد أثبت نهائياً خيانة صاحب المسيلة، ذلك أن بلكين، لما قتل محمد بن الخير، عثر عنده على المراسلة المثيرة للشبهة التي كان جعفر يتبادلها معه لإعلامه بعدد الجنود الصنهاجيين ومواقعهم، وحثه على قتالهم. كما وجد البرذون الذي أهداه المعز إلى جعفر، ولكن هذا الأخير قد أهداه بدوره إلى رئيس مغراوة. فأحاط بلكين الخليفة علماً بذلك. ولم يبق حينئذٍ لجعفر سوى الهروب من غضب المعز والتحول فوراً إلى بلاد حلفائه الزناتيين، في انتظار الذهاب إلى قرطبة والدخول في طاعة الأمويين[11].

ويتضح من هذه الرواية أن العلاقات التي تدهورت شيئاً فشيئاً بين الخليفة الفاطمي وأمير المسيلة إلى أن أفضت إلى القطيعة التي لا مفر منها، بسبب تعاونه هذا الأخير مع الأمويين وتواطئه مع حلفائه الزناتيين، قد أفسحت المجال أمام زيري وابنه بلكين للطموح إلى خلافة المعز في إفريقية. على أن وفاة زيري في المعركة التي جرت بينه وبين مغراوة ـ كما أسلفنا ـ قد فرضت على المعز اختيار ابنه بلكين الذي عُيِّن في الأثناء على رأس إمارة صنهاجة، وهو ذلك الجندي الباسل المكلل بهالة المجد أثناء الحرب الضروس التي شنها على العدو الزناتي.

3 ـ تعيين بلكين بن زيري على رأس إفريقية:

إن هذا الاختيار الذي يبدو طبيعياً في بلادٍ لم تنتصر فيها القضية الفاطمية ولم تتركز إلا بفضل دعم البربر المقيمين من أبناء كتامة وصنهاجة، قد فُرِض فرضاً، لا سيما وقد ضعفت العصبية الكتامية في خدمة الدولة منذ نصف قرن

(10) نفس المصدر، 101 - 102، 131.

(11) عن المقتبس، ص 35 - 36.

وبالخصوص أثناء قتال القبائل الخارجية التي انضمت إلى أبي يزيد. فأتى حينئذٍ دور الصنهاجيين الذين ما زالت قوتهم سليمة وعصبيتهم شديدة، لبسط سلطانهم على إفريقية لحساب الفاطميين والتصدي للزناتيين الطائشين في المغرب الأوسط، في انتظار الفرصة السانحة لإقامة دولة مستقلة بذاتها في إفريقية. على أن الخليفة الفاطمي، ذلك الرجل السياسي المحنك، قد توقع لا محالة تلك النهاية الحتمية، حين أوكل مصير مملكته الإفريقية إلى ذلك الزعيم البربري. ألم يُجِبْ عم أبيه أبا طالب أحمد بن المهدي، لما لامه على تصديق أقوال بلكين ووعوده، قائلاً له: «اعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء من آخر ما يصير إليه أمر يوسف [بلكين]، فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر، ولكن هذا أولاً أحسن وأجود عند ذوي العقول، وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره»[12].

ومهما يكن من أمر فإن بلكين، ذلك المقاتل المحنك، وخليفة زيري بن مناد القوي النفوذ، على رأس الصنهاجيين النبلاء الأُباة، قد أحرز إعجاب، بل قل تقدير، المعز الذي وجد فيه الخصال التي تؤهله لخلافته في إفريقية. ألم يُقِم الدليل على جداراته حين أخذ بثأر أبيه، فقتل المغراويين ولاحق الفارين منهم إلى أن وصل إلى ناحية تافيللت النائية، قبل أن يرجع إلى قاعدة أشير في مطلع سنة 361/ أكتوبر 971؟ على أن المعز قد كان مضطراً إلى التعجيل بالاستعداد للرحيل النهائي والإسراع بتسوية قضية خلافته. ذلك أن الأخبار الواردة من مصر كانت سيئة. فقد دعا جوهر مولاه إلى الالتحاق به حالاً. لأن القرامطة قد استرجعوا دمشق وقتلوا جعفر بن فلاح وزحفوا على القاهرة، وذلك في نفس الوقت الذي انتصر فيه بلكين على زناتة وقفل راجعاً إلى أشير. وبناءً على ذلك فقد أسرع المعز إلى دعوة أمير صنهاجة إلى القدوم إلى المنصورية التي وصلها بلا شك في ربيع سنة 361/ أبريل 972، وقدم إلى الخليفة الفاطمي «بألفَيْ جمل من إبل زناتة لحمل ماله بالقصور من الذخائر»[13].

(12) الدولة الصنهاجية، 78/1.

(13) نفس المرجع، 70/1 - 71. [انظر أيضاً، اتعاظ، ص 144]. وحول استعمال الجمال لنقل الأثقال، انظر سيرة جوذر، ص 145.

وفي الحين أقام المعز معسكره خارج المنصورية، وقبل إعداد أمتعته ومختلف لوازم سفره وجميع المعدات الضخمة التي سيحملها معه في رحلة بلا رجعة، توجه إلى سردانية طلباً للراحة. وهذه البلدة هي محطة للتنزه مشهورة بـأشجار النارنج والفواكه والزهور، تبعد عن القيروان مسيرة يوم. وهناك سيفض المعز قبل رحيله إلى الشرق بعد ذلك بأربعة أشهر المشكل الدقيق المتمثل في اختيار خليفته في المغرب[14]. وقد كان شغله الشاغل آنذاك إعادة تنظيم الحكم في مملكته الإفريقية، حتى لا يكون نائبه فيها سوى «خليفة» متقلد لا محالة للسلطة السياسية اللازمة للحفاظ على النفوذ الفاطمي في تلك الربوع، ولكنه سيكون مرفوقاً بعدد من الموظفين السامين الذين عينهم المعز بنفسه على رأس أهم دواليب الدولة بوصفهم المشرفين الحقيقين على المصالح الإدارية. إذ أنه كان يأبى بلا شك تفويض كامل السلطة التي كان يتقمصها الخليفة، حتى لا تحدثه نفسه يوماً ما بفك الارتباط بوصاية مُرْبِكة، والاستقلال بالحكم. وبناءً على ذلك ينبغي أن نَعْزُوَ الأقوال التي نسبها الأخباريون إلى بلكين، لما قبل عرض الخليفة، لا إلى احتراز الزعيم البربري، بل إلى حرص المعز على الحد من سلطة خليفته الذي خاطبه قائلاً:

«يا مولانا (أقبل ولكن) بشريطة أن تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره، والخبر لمن تثق به، وتجعلني أنا قائماً بين أيديهم، فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب، ويكون الأمر لهم، وأنا خادم بين ذلك»[15].

وعلاوة على إقطاعات المغرب الأوسط التي أضيفت إليها إقطاعات ابن حمدون، عهد المعز إلى «خليفته» بحكومة المملكة الإفريقية، ولكنه استثنى منها صقلية وطرابلس وبرقة. حيث تبقى الجزيرة بطبيعة الحال تحت سلطة بني الكلبي الذين استمروا في التمتع بنظام متميز منذ اعتلاء المنصور العرش. أما

(14) الدولة الصنهاجية، 76/1 ـ و 243/2.

(15) نفس المرجع، 78/1.

فصل طرابلس وبرقة عن سلطة بلكين، فهو يمثل مؤشراً آخر يدل على حرص المعز على تحديد منطقة نفوذ خليفته. ذلك أن هاتين المقاطعتين اللتين أُلحِقَتا بمقر الخلافة بمصر ووُضِع على رأسها عاملان موثوق بهما تُعتَبَران «منطقة حاجزة» على حدود المملكة الإفريقية الشرقية، وتوفران كل الأسباب لمعارضة تعاظم قوة الأمير الصنهاجي إن اقتضى الحال[16].

على أن صلاحيات بلكين، رغم مزاعم بعض الأخباريين قد كانت تكتسي أولاً وبالذات صبغة سياسية ـ عسكرية. ذلك أن الموظفين السامين الذين عينهم المعز على رأس إدارة المال ـ وهم عبد الجبّار الخراساني وحسين بن خلف المرصدي في ديوان الخراج وأبو مضر زيادة الله بن القديم في ديوان الجباية ـ قد كانوا مطالبين بلا شك بالسمع والطاعة لنائب الخليفة الفاطمي بصورة نظرية. ذلك أن الدور الأساسي المناط بعهدتهم يتمثل في جمع الضرائب وتوجيه مداخيلها إلى مقر الخلافة في مصر[17].

4 ـ رحيل المعزّ إلى مصر:

لقد صحب بلكين المعز إلى أن وصل إلى قابس. وفي حدود هذه المرحلة الأخيرة الواقعة في جنوب إفريقية والمتاخمة للمناطق الصحراوية الممتدة الأطراف في طرابلس وفزان، ودع بلكين الخليفة الفاطمي يوم الخميس 11 ربيع الأول 20/361 ديسمبر 972، وقفل راجعاً إلى المنصورية[18].

أما المعز، آخر الخلفاء الفاطميين في إفريقية، فقد واصل رحلته في اتجاه مقر خلافته الجديد ونحو مصير جديد. حيث ستبدأ اعتباراً من ذلك الحين مرحلة أخرى من مراحل مغامرة الفاطميين، بعدما طُوِيَت أو تكاد الصفحة الإفريقية من تاريخهم.

---

(16) نفس المرجع، 78/1 - 79.

(17) المرجع المذكور، 80/1.

(18) نفس المرجع.

ذلك أن حلفاء الفاطميين من البربر ـ لا الكتاميين الذين وهنت قوتهم على مر السنين ابتداء من القرن العاشر من الميلاد، بل أبناء جنسهم من بني زيري الصنهاجيين الذين ما زالت عصبيتهم قوية ـ هم الذين سيقومون مقام أصحاب إفريقية السابقين، أولاً في ظل الراية الفاطمية البيضاء، ثم في إطار الإمارة المستقلة التي سيؤسسونها لحسابهم الخاص[19].

وهكذا بعد أن آوت إفريقية الخلافة الفاطمية في أيامها الأولى ستصبح مع «الملحمة الصنهاجية» مقر أول دولة بربرية صميمة سوف تدوم مثل الخلافة الفاطمية أقل من قرنَيْن.

(19) نفس المرجع، 71/1.

القسم الثاني

تنظيم الدولة

البَابُ الأوّل

النظَام السِّيَاسِي

تمهيـــد[1]

تمثل الحقبة الفاطمية في تاريخ إفريقية فترة من فترات الاضطراب في تلك البلاد. إذ يبدو أن العصر الأغلبي قد أقر فيها بعد هزات الفتح والقلاقل التي أثارها البربر الخـوارج تركيز المذهب السنّي، وشهد من خلال إقامة نظام عتيد، استقراراً سياسياً وازدهاراً اقتصادياً ثابتَيْن. ويتضح من ذلك أن النظام الإسلامي الذي أقامه الفاتحون العرب، ثم تطور وتعزز في القيروان تحت شعار التفوق المالكي، قد كان مؤهلاً للدوام. فأتى التدخل الشيعي العنيف فجأة ليفقد التوازن القائم الذات ويغير نمط العيش في البلاد ويوجهه وجهة جديدة موافقة لخصائص الدعوة الإسماعيلية.

وهكذا مع ظهور خلافة شيعية مضادة في مطلع القرن العاشر من الميلاد، كان من اللازم إقامة نظام ملائم، سواء بتعويض النظام السابق بهياكل جديدة من الأساس، أو بتحقيق الملاءمة بين التنظيم المستنبط في الفترة السابقة وبين مبادىء المذهب الإسماعيلي والمقتضيات السياسية التي يستوجبها.

وقد عرف الخليفة الفاطمي الأول المهدي بالله من خلال الإصلاح الذي أقره مباشرة إثر اعتلائه العرش في رقادة، كيف يتخذ موقفاً متسماً بالمهارة والمرونة. ذلك أنه، حرصاً منه على اجتناب حصول قطيعة باتة مع النظام

(1) دائرة المعارف الإسلامية 2 ـ ص 879 - 880 (الفاطميّون).

السابق الذي لم يزل أهل إفريقية متمسكين به، قد سهر على عدم إثارة مناهضة واضحة للإجراءات التي رفض عليه انتصار قضيته اتخاذها لحكم البلاد. وبفضل ذلك تعودت إفريقية شيئاً فشيئاً، رغم حصول بعض الانتفاضات، على مستحدثات حكامها الشيعيين، وتلاءمت معها كيفما كان الحال خلال فترة حكم المهدي الذي دام عهده ربع قرن.

ولما اعتلى القائم بأمر الله العرش من بعده ظهر شيء من التصلب في سياسته، إلى أن اندلعت ثورة الخوارج، فأتت على الصرح الذي صمد مع ذلك بالرغم من هشاشة قواعده، وأوشكت أن تقوّضه من الأساس. وبفضل التعاون العابر بين حركة الخوارج وبين المذهب السنّي المالكي، حاولت القيروان إرجاع النظام السابق.

ولكن مع انتصار الخليفة الثالث المنصور بالله، لم تلبث الدولة الفاطمية أن استأنفت مسيرتها. وقد تحاشى قاهر أبي يزيد المتسم بالحلم وبعد النظر اتخاذ إجراءات تعسفية وإرهاق البلاد التي أنهكتها الحرب. وقد كان لسياسته المعتدلة أطيب الأثر خلال عهد خليفته المعز لدين الله الذي كان يتمتع بحرية تصرّف مطلقة لإعادة بعث النظام الذي أقامه المهدي، ولكنه ابْتُلِيَ بلاءً شديداً بمحنة الخوارج. وبفضل استمالته للفقهاء الأحناف، عرف، من غير أن يواجه أهل البلاد الأوفياء للمذهب المالكي، كيف يشيد على قواعد متينة مؤسسات الدولة الفاطمية التي ستتمكن، قبل انتقالها إلى مصر، من اكتساب قوة عظيمة.

وإننا لندرك مدى صعوبة دراسة تنظيم الدولة الفاطمية في إطار زمني ضيق إلى مثل هذا الحد، حيث أن الفترة التي تهم موضوعنا لا تتجاوز قط النصف قرن، إذ استثنينا عهد المنصور وقسماً من عهد القائم. ذلك أن تركيز مؤسسات الخلافة الفاطمية، الذي كان من المفروض أن يرجع تاريخه إلى عهد مؤسس الدولة، لم يتم في الواقع بصورة منتظمة إلا بعد ذلك بنصف قرن، أي في عهد المعز.إلا أن تنظيم الدولة لم يَخْطُ في إفريقية إلا خطواته الأولى، وسوف يتخذ

بعد ذلك شكله الخصوصي والنهائي في مصر في مدة العزيز[2] (365 ـ 386 / 975-996)، وخلال عهد المستنصر المفرط في الطول (427 ـ 487 / 1036-1094). ولذلك فإننا كثيراً ما نميل إلى تجاوز الإطار الإفريقي الضيق أكثر من اللزوم، لنبحث أثناء الفترة المصرية عن صورة دولة منظمة تنظيماً محكماً، وتعتمد على شهادات مقنعة ومعطيات دقيقة، ولكنها متأخرة العهد ومرتبطة بلا شك بهياكل اجتماعية معينة.

ومما يزيد في شدة ميلنا أن لدينا معلومات دقيقة بما فيه الكفاية حول سير المؤسسات الفاطمية في مصر. ولكن علينا أن نجتنب اتباع أهوائنا والخروج عن الموضوع، رغم أنه لا تتوفّر لدينا حول الفترة التي تهمنا سوى بعض الوثائق المحدودة جداً. أما المعلومات المستقاة من مصادر التاريخ الإفريقية السنّية فهي زهيدة للغاية، بحيث لا تسمح لنا بالاطلاع بما فيه الكفاية على طريقة سير مختلف مصالح الدولة، ولا نجد فيها ما يمكننا من التعرف كما ينبغي على طبيعة التغييرات التي أُدخِلت على نظام الحكم وطبقات المجتمع، اللهم إلا بعض الإرشادات المتعلقة بالحياة الدينية والواردة في كتب الطبقات التي يحرص أصحابها على التنديد بالبدع الثقافية والتشهير بالنظام الشيعي «اللعين».

وعلى هذا الأساس يكون من العبث محاولة دراسة مؤسسات الدولة الفاطمية ولو بصورة محدودة للغاية، لولا اكتشاف بعض الوثائق الإسماعيلية التي جاءت في الوقت المناسب لتعوض فقر المصادر التاريخية وكتب السير المعروفة. وممّا لا شك فيه أننا لن نجد في تلك الوثائق الخاصة معلومات مسترسلة حول تنظيم الدولة، إلا أن تلك الكتابات الإسماعيلية تمتاز بالإحاطة بتاريخ الدولة الفاطمية دون سواها في الفترة التي تهمنا، وتسليط الأضواء على بعض مظاهر الحياة السياسية التي لا نجد لها أي أثر في المعلومات الواردة في المصادر السنّية والمغرضة في أغلب الأحيان.

---

(2) نفس المرجع، ص 880، انظر أيضاً «مراسلات الإمام المستنصر»، القاهرة، 1954، وبالخصوص ص. 18 - 22.

وبناءً على ذلك سنسجل فيما يلي على وجه الخصوص نتائج فرز تلك الكتابات، مثل سيرة جوذر ومؤلفات القاضي النعمان[3]، مع الحرص على عدم الابتعاد عن الإطارالإفريقي. ولعل حصيلة هذا العمل ستبين لنا كيف اجتهد المهدي أولاً ثم المعز من بعده، ليضعا منذ ذلك التاريخ أسس نظام حكم في إفريقية يرتكز على الهياكل الإدارية الموروثة عن العصر الأغلبي، وسيستقر فيما بعد في مصر في شكله المُمَرْكَز بكل دقة.

(3) وبالخصوص، افتتاح الدعوة ودعائم الإسلام والمجالس والمسايرات والهمّة.

الفصل الأول
الحكومة المركزية

1 ـ الخليفة :

لا يستدعي المقام الرجوع إلى قضية الإمامة العويصة والمتنازع في شأنها، والتي تمثل ـ كما لاحظ ذلك ابن خلدون على وجه الخصوص[1] ـ أهم مصدر لاختلاف الأمة الإسلامية، وما أثارته عبر تاريخ الدولة الإسلامية من أحقاد ومجادلات وفتن. ويتفق الشيعة وأهل السنّة على حد سواء على ضرورة الإمامة، ولكنهم يختلفون اختلافاً حاداً كلما تعلق الأمر باختيار خليفة رسول الله، أي الرجل الذي تعود إليه شرعياً مهمة الإشراف على حظوظ الأمة.

والواقع أن جميع المسلمين، بالرغم من اختلافاتهم المذهبية، متفقون على ضرورة وجود شخص على رأس المجتمع، يتكفل بتنظيم شؤونه في الحياة الدنيا، بحسب مقتضيات الدار الآخرة والسهر على وحدة الأمة، وحفظ النظام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقرار شريعة الله، والحكم بين الناس في شؤون دينهم ودنياهم.

وبالفعل فإن أشد أهل السنّة تصلباً لا يختلفون مع الشيعة إلا حول شخص الإمام وطريقة تعيينه. وسنقتصر حينئذٍ، دون التوقف عند الاختلافات المذهبية والاعتبارات النظرية الصميمة، على تأكيد الخصائص الجوهرية للخلافة الإسلامية حسب النظرية الإسماعيلية، واعتباراً بالخصوص للظروف السياسية والاجتماعية التي حفت بقيام الخلافة الفاطمية.

(1) المقدمة، ص 190 - 202.

فيبدو الخليفة الفاطمي من خلال المصادر الإسماعيلية[2] متحلياً بجميع الفضائل والخصال الحميدة. وبوصفه ملكاً مطلق السلطة، يستمد نفوذه من الله، فإنه يتمتع أكثر من خلفاء السنة بصلاحيات غير محدودة، باعتباره «أمير المؤمنين». وهو يحظى بنفس ما يحظى به خصمه في بغداد أو في قرطبة من احترام وإجلال. إلا أنه يرى نفسه، باعتباره خليفة الرسول، الوريث الوحيد للرسالة المحمدية والمكلف دون سواه بالإشراف الفعلي على حظوظ الأمة وتلقين تعاليم الدين الحق. وهو الإمام الطاهر والمعصوم، وبوصفه الإمام المعصوم، يتمثل فيه تجسيد المقدسات ورموز «الباطن» وهالة صفات الله. وباعتباره المسؤول الأول عن السرائر، فإن دوره يكتسي مدلولاً خاصاً: «فهو سماء الطارقين، وشمس الناظرين، وقمر المستضيئين... ونور التمام»[3]. «وهو ينظر بنور الله، وله فراسات صادقة واختبارات حقيقية»[4]. كما أن ما يكتسيه شخصه من صبغة قدسية يضفي عليه في نظر المؤمنين معنى خفياً وغامضاً إلى حد ما. وقد كان مادحوه من الشعراء يرفعونه إلى مرتبة تفوق مرتبة البشر وينسبون إليه كرامات يختص بها عادة الأنبياء[5].

---

(2) انظر بالخصوص، دعائم الإسلام، ص 57 - 70 - وسيرة جوذر، مقدمة الترجمة الفرنسية - ص 17 - 18 و Chambellan، سيرة جعفر، ص 322 - وحول نظرية الإمامة حسب إخوان الصفاء، انظر Marquet، ص 53 - 49.

(3) افتتاح، الفقرة 12.

(4) سيرة جوذر، ص 34 - و Marquet، ص 63، انظر حول «النبوة والإمامة»، Laoust، ص 417 - 419.

(5) لا فحسب ابن هانيء، بل أيضاً كتاب آخرون منهم الفقيه الإسماعيلي الشهير جعفر بن منصور اليمن الذي نقل الداعي إدريس مدائحه في عيون الأخبار، ومحمد البديل الذي استشهد به ابن عذاري، البيان 160/1 وعثمان بن سعيد الصيقل الذي رثى المهدي بقصيدة منشورة في عيون الأخبار، ص 239 - 240، ومحمد بن أبي القاسم التونسي، نفس المصدر، ص 342. وعبد الله بن أصبغ، نفس المصدر، ص 363 - ومحمد بن الحرث الأبروطي، نفس المصدر ص 364 ومحمد بن ناسك التونسي، ص 452 وعلي بن محمد الإيادي الأشهر من الآخرين، نفس المصدر ص 453. والفزاري الذي لا يقل عنه شهرة، نفس المصدر ص 456، وسعدون الورجيني، اتعاظ ص 106 وبالخصوص افتتاح، الفقرة 273.

ويتمتع الخليفة الفاطمي كغيره من الخلفاء العباسيين والأمويين في عصره بجميع الصلاحيات المنصوص عليها في كتب القانون العام[6]. فهو يتصرف تصرفاً مطلقاً في الإدارة المدنية والعسكرية بحكم اختصاصاته، ويمارس بنفسه السلطة التي لا يفوضها إلا إلى موظفين مختارين من بين أشد الأعوان إخلاصاً لشخصه. ولا يُعتبَر الموظفون مسؤولين إلا لديه، ولا يضطلعون بالمهام الملقاة على عاتقهم إلا بصورة مؤقتة، وهم خاضعون لمراقبة مشددة ومعرضون إن اقتضى الحال لأقسى العقوبات.

وبوصفه الخليفة والإمام في نفس الوقت، فإن سلطته الدينية والدنيوية تتجاوز الإطار الضيق لمملكته لتشمل كافة المؤمنين المنتمين إلى الطائفة الإسماعيلية في العالم الإسلامي وهو من الناحية النظرية صاحب الخلافة الشرعي، لأن الخليفة العباسي في بغداد والخليفة الأموي في قرطبة ما هما سوى شخصَيْن مغتصَبَيْن للحكم. ومن أجل ذلك تمتد سلطته الكلية إلى جميع أصقاع الأرض التي سيورثها الله الأيمة الفاطميين كما وعدهم بذلك في كتابه المبين[7].

فالإمام الفاطمي المنحدر روحياً من الرسول هو خليفة الله في الأرض على غرار رسول الله ذاته، بل هو نبي في زمانه[8]. قد اختاره المولى جل جلاله ليقيم شريعته ويربط الصلة بينه وبين عباده.

ومن فرط ما يفرضه شخصه المقدس من إجلال على أتباع المذهب الإسماعيلي، فإن ذلك الإجلال يتخذ شكل عبادة لذاته ولكافة الأيمة السابقين، بعد عباده الله ورسوله. ولذلك فإن الأدعية الإسماعيلية تجمع بينهم في كنف الخشوع الديني. وقد عبر الخليفة الثالث المنصور عن ذلك أبلغ تعبير في

---

(6) وبالخصوص كتاب الأحكام السلطانية للماوردي المتوفى سنة 1058/450.

(7) المجالس، ص 477.

(8) انظر Marquet، ص 63 وسيرة جوذر، مقدمة الترجمة الفرنسية ص 18 و 20 - 21 - ودائرة المعارف الإسلامية (2) ص 879 (الفاطميون) و Laoust، المرجع المذكور، ص 417 - 419.

الخطبة التي ألقاها غداة انتصاره على أبي يزيد، قائلاً بالخصوص:

«الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلوات الغاديات الرائحات الزاكيات الناميات الباقيات على محمد وعلى آله الطيبين، الأئمة المهديين، السادة الأكرمين، الأطهار الأبرين»[9].

ويترتب على الحب الجم الذي يوحي به الإمام إلى أتباعه وجوب الطاعة العمياء والإخلاص اللامشروط لشخصه. فهو الحائز الأوحد للحقيقة والمؤهل الوحيد لإبلاغها إلى المطلعين على الأسرار وإلى عامة المؤمنين. وباعتباره «مستودع» العلم، فهو على وجه الخصوص المؤتمن على مذهب أهل البيت الذي صاغه الأيمة السالفون منذ جعفر الصادق ودونوه في الكتب المحفوظة بكل عناية[10]. وهو المحرز للعلم الإلاهي، أعني «الحكمة» التي تنتقل من إمام إلى إمام بفضل الله، والمؤهل لتأويل الذكر الحكيم تأويلاً صحيحاً[11] فلا مجال حينئذٍ للاختلاف في الرأي، إذ أن الحقيقة واحدة لا تتجزّأ، وأقواله في هذا الشأن تمثل أساس الشرع الذي يضبطه الفقهاء بعد استشارته. فهو الذي يراجع ويصحح الكتب التي يؤلفونها ويجادل العامة عند الاقتضاء ويحرص بنفسه على إثبات أخطاء بعض آراء المعتزلة والمالكية[12]. والإمام متحصل على ثقافة واسعة وعارف أيضاً بأصناف العلوم كلها، كالطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة[13]. إلا أن همه الأساسي يتمثل في نشر الفقه الإسماعيلي المؤتمن عليه والضامن له في جميع أرجاء مملكته. كما يتمثل في السّهر على مطابقة سلوك الطائفة التي يرأسها لقواعد العقيدة والشعائر الدينية الإسماعيلية.

ورغم تشبع الإمام بما يتسم به دوره الروحي من صبغة خاصة، فهو يعتبر

(9) سيرة جوذر، ص 56.

(10) سيرة جوهر، المصدر المذكور، ص 295 الهامش 2. وافتتاح، الفقرة 151.

(11) المجالس، ص 104 - 147.

(12) نفس المصدر، ص 377 - 378، و 380 وما بعدها و 358 وما بعدها و 430 وما بعدها.

(13) نفس المصدر، المعز عالم بأصناف العلوم كلها، ص 148 ـ انظر أيضاً ص 309 وما بعدها وص 420 وما بعدها وص 440 وما بعدها.

نفسه إنساناً كسائر الناس. ولذلك فهو يتبرأ مما نُسِب إليه من ادعاء النبوة، ويدحض أكاذيب المغتابين من «العامة» المالكية الذين شوهوا باتهاماتهم المفرطة والخيالية المعنى الحقيقي لرسالته. وقد اتسع نطاق مثل هذه الدعاوي عبر بلاد المغرب حتى اضطر المعز إلى التنديد بسذاجتها والتكثيف من الدعاية الرامية إلى «تبسيط» المذهب الإسماعيلي[14].

وكان الخليفة الفاطمي المتشبع أيضاً بكامل سلطته الدنيوية يأبى أن يملك دون أن يحكم، بل كان حريصاً على أن يمارس بنفسه بلا شريك السلطة التي يتقلدها. فلما نصح الداعي أبو عبد الله الخليفة الأول المهدي بأن يقتصر على دور الرئاسة الذي منحته إياه رتبة الإمامة، وأن يترك له حكم البلاد باسمه[15]، رد عليه باتخاذ إجراء معبر عن سلطته المطلقة، إذ أمر بقتله واعتنى هو نفسه بتسيير شؤون الدولة. وقد أظهر لنا جوذر والقاضي النعمان المعز في مظهر الخليفة المثالي والجدي، بل المرهق الذي أثقلت كاهله أعباء الخلافة[16]. كما يعتبر المنصور مثال الخليفة النشيط والحازم، المقر العزم دوماً وأبداً على أن

---

(14) نفس المصدر 415 : المعز يدحض سذاجة العقائد المنتشرة لدى بني مدرار في المغرب الأقصى ـ وحول تبسيط المذهب الشيعي، انظر ص 344 وما بعدها وص 386 وما بعدها وص 487 وما بعدها.

(15) افتتاح، الفقرة 279.

(16) سيرة جوذر، ص 107 - 108 ـ والمجالس في مواضع مختلفة وبالخصوص صفحة 449 وفيها وصف لنشاط المعز اليومي:

«إنه إذا أصبح خرج من منزله وجلس في مجلسه ودخل إليه خاصة أوليائه وخدمه، فلا يزال جالساً إلى أن ينتصف النهار ويحضر وقت الغداء، وهو طول ذلك في جوه ما يأمر به ويحكمه من أمر المملكة، والحديث في مثل هذا من العلم والحكمة. وإذا حضر وقت قيامه دخل فطعم وصلى ونام نومة، ثم قام فصلى العصر وخرج إلى مثل ما كان عليه، ولا يزال كذلك إلى الليل، ثم يدخل ويحضر خاصته وينظر في الكتب والعلوم ويؤلف الكتب أكثر ليله. فهذا دأبه إلا أن يخرج في بعض الأيام لما يخرج إليه من الاطلاع على أحوال الناس والتفرج، فيركب في صدر النهار ثم يعود فيجلس في آخره».

وانظر اتعاظ، ص 136 - 138 وفيه وصف لنشاطه مع شيوخ كتامة الذين استقبلهم في بيته في يوم شديد البرد.

يكون في مستوى المهمة العظمى الملقاة على عاتقه، أعني مهمة «أمير المؤمنين». فكان لا يتردد في قيادة جنوده بنفسه لأداء واجب الجهاد المقدس، ولا يتأخر عن التضحية بحياته، فيحارب في ساحة الوغى والسيف في يده، مبدياً شجاعة لا مثيل لها.

وهو يستمد من هذه البسالة فخراً مشروعاً، ويمجد نفسه قائلاً:

أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد   بسيفي أقدّ الهام تحت المغافر

ويقول في قصيدة أخرى:

أجوب القفار وأطوي الرمال   وأحمل نفسي على كل هول
أريد بذاك رضاء الإله   وإعزاز دولة آل الرسول[17]

2 ـ لقب الخلافة وشارات السيادة:

إن إفريقية التي ظلت طوال قرن مقر إمارة مستقلة لا محالة ولكنها تابعة للخلافة العباسية، قد أصبحت بعد قيام الدولة الفاطمية دار خلافة. إلا أن الخلافة التي أقامها الإمام الإسماعيلي المهدي سنة 910/297 هي خلافة شيعية تدعي الشرعية على حساب الخلافة السنّية، وبالتالي تعلن عن سقوط الخلافتَيْن العباسية والأموية في قرطبة.

ويتأكد هذا الحق المطلق في السيادة في العالم الإسلامي من خلال اللقب الذي تلقب به الخلفاء الفاطميون. وقد حرص الداعي أبو عبد الله طوال مدة دعوته على إعلام أتباعه الكتاميين وكذلك أمراء بني الأغلب بأنه لا يعمل إلا لحساب مولاه «المهدي المنتظر». ففي الجواب الذي أبلغه إلى الأمير إبراهيم الثاني حثه على نبذ طاعة العباسيين والدخول في طاعة «الإمام المهدي»[18]. كما بث دعوته في صفوف الكتاميين باسم «المهدي المنتظر»، والإمام المنحدر

(17) سيرة جوذر، ص 50.

(18) افتتاح، الفقرة 55.

من نسل الرسول ﷺ، معلناً عن قرب ظهوره في إفريقية. ولما رأى الداعي لأول مرة المهدي في سجلماسة، قدم إليه ابن المطلبي الإمام بقوله:

«هذا مولاي ومولاك ومولى الناس جميعاً». وقدم أبو عبد الله بدوره الإمام إلى الكتاميين قائلاً: «هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون»[19]. وفي إيكجان كما في رقادة تسمى الداعي خلال مدة وصايته القصيرة المدى «بالسيد»، مبدياً ما كان يتسم به من بساطة وتواضع، وممسكاً عن إظهار أدنى علامة من علامات السيادة[20]. وأثناء تلك الفترة التي سبقت وصول المهدي إلى رقادة، حرص أبو عبد الله على تأكيد ما يكتسيه النظام الذي أقامه من صبغة وقتية في انتظار قدوم صاحب البلاد الجديد، مقتصراً على الإشارة إلى تغيير النظام والتأكيد على انتصار القضية العلوية. وأمر في خطبة الجمعة «بالصلاة على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين علي وعلى الحسن والحسين وعلى فاطمة الزهراء»، دون ذكر اسم المهدي[21]، «وأمر بضرب السكة ولم ينقش فيها اسماً لأحد ولكنه جعل مكان الأسماء من وجهٍ «بلغت حجة الله» ومن وجهٍ آخر «تفرق أعداء الله». ونقش سكة أخرى جعل فيها مكان ذلك» الحمد لله رب العالمين»[22]، وهي السكة المعروفة «بالسيدية» نسبة إلى لقب «السيد» الذي تسمى به أبو عبد الله، وذلك للتمييز بينها وبين السكة التي سيأمر المهدي بضربها فيما بعد.

كما لم تتضمن العبارات الأخرى المماثلة التي أقرها الداعي أي شعار من شعارات السيادة. «فقد نقش على السلاح» عُدّة في سبيل الله»، ووسم الخيل «الملك لله»، ونقش في فص خاتمه «فتوكل على الله إنك على الحق المبين»، وفي الخاتم الذي يطبع به كتبه. «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم»[23].

---

(19) نفس المصدر، الفقرة 251.

(20) نفس المصدر، الفقرات 32، 116 - 212 - 227.

(21) نفس المصدر، الفقرة 225.

(22) المصدر المذكور.

(23) المصدر المذكور.

ومع قدوم المهدي انتهى هذا العهد الانتقالي وبدأ عهد الخلافة الفاطمية بأتم معنى الكلمة. فقد استقبل صاحب البلاد الجديد فقهاء وشيوخ أهل القيروان بوصفه خليفة وإماماً[24]. وكان أول مرسوم صادر من قصر الخلافة غداة دخوله الرسمي إلى رقادة يتعلق بأهم اختصاص من اختصاصات السيادة. فهو يعلم المؤمنين سواء في إفريقية أو في العالم الإسلامي بأسره برجوع السلطة إلى أصحابها الشرعيين أبناء فاطمة ابنت الرسول ﷺ. ويأمر بأن يُدعَى للأيمة الفاطميين من أعلى منابر الجوامع في إفريقية، وفي فترة لاحقة في بلاد المغرب قاطبة ثم في مصر ودمشق وفي الحرمين الشريفين. وسيرد في هذا الدعاء اعتباراً من ذلك التاريخ اسم الخليفة المالك الملقب «بأمير المؤمنين»[25]. ويتضمن الدعاء الذي أمر المهدي بأن يدعي به على المنابر، بعد الصلاة على محمد وعلى عليّ وفاطمة والحسن والحسين، وعلى الأيمة من ذرية علي، العبارات التالية:

«اللهم صل على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك، عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون. اللهم وكما اصطفيته لولايتك واخترته لخلافتك وجعلته لدينك عصمة وعماداً ولبريتك موئلاً وملاذاً، فانصره على أعدائك المارقين واشف به صدور المؤمنين، وافتح به مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين إله الخلق رب العالمين»[26].

وسوف يبقى هذا الدعاء كما هو في أيام الخلفاء الإفريقيين الثلاثة الآخرين، مع تغيير اسم الإمام، وإدخال بعض التعديلات الطفيفة ذات الصبغة الشكلية التي تمليها بعض الأحداث الهامة مثل انتصار المنصور على المتمرد

(24) نفس المصدر، الفقرة 264.

(25) نفس المصدر، الفقرة 265.

(26) المصدر المذكور ص 27 اتعاظ، ص 163 وسيرة جوذر، ص 56 - 57.

الخارجي أبي يزيد، أو فتح مصر على يدي القائد جوهر. وسيستمر الدعاء في إبراز حقوق أعقاب فاطمة في الخلافة دون سواهم، ووجوب الطاعة التي تفرضها شرعية إمامتهم على كافة المسلمين[27].

وقد أراد الخليفة الفاطمي بتلقبه بلقب «أمير المؤمنين» الذي يحمله أيضاً الخليفة العباسي في بغداد والخليفة الأموي في قرطبة اعتباراً من سنة 929/316[28]، أن يستأثر بصفة الرئيس الأعلى الروحي والزمني لكافة المسلمين، كما يتجلى نفس هذا الحرص على التميز بلقب خاص ومعبر عن شرعية الخلافة الفاطمية مقابل عدم شرعية الخلافة السنّية، والانفراد بالإشراف على حظوظ المسلمين، من خلال تقيد الخليفة الفاطمي بمراسم ستتخذ مع تعاظم الدولة شكل طقوس معقدة ومفخمة.

وقد خصص القاضي النعمان في كتابه «**الهمة**» فقرات مطولة لما يجب أن يحظى به الإمام من مظاهر الاحترام والإجلال[29]. وضبط نظاماً حقيقياً لآداب السلوك مستشهداً بمجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. كما أشار إلى بعض القواعد الصارمة التي تحدد في شكل مثل أعلى أخلاقي طريقة الجلوس بين يدي الإمام، وآداب الأكل، وضرورة التأنق في اللباس، بل حتى التزين والتطيب بكل عناية.

إلا أن طريقة السلام على الإمام هي التي تبين بوجه أدق الموقف شبه الكهنوتي الذي ينبغي أن يتخذه في الحياة العامة، وذلك بأن يكون متحفظاً ومتعالياً، وأن يظهر في مظهر الملك الذي يتعذر الاقتراب منه. كما ينبغي أن تكون شواهد الإكبار والإجلال التي يتعين على الناس تقديمها إليه شبيهة بما يجب لله سبحانه وتعالى من التعظيم، كالسجود وتقبيل الأرض بين يديه. وقد أنكر أهل السنّة هذا التصرف المنافي لتعاليم الدين الإسلامي، لأنه لا يجب السجود

---

(27) **اتعاظ**، ص 163 وسيرة جوذر، ص 56 - 57.

(28) **إسبانيا الإسلامية**، 110/2 - 117.

(29) **الهمة**، ص 38 - 41.

لأحد من دون الله. وقد أدرك القاضي النعمان مناهضة فقهاء المالكية للبدع التي أدخلها الإسماعيليون على الشعائر الدينية، ومدى ما يمكن أن يثيره مثل هذا التصرف من غضب في نفوسهم، فحاول التمييز بين السجود الذي هو علامة من علامات التعبد لله، وبالتالي فهو واجب ديني، وبين تقبيل الأرض، «تعظيماً لأولياء الله»[30].

فيجب حينئذٍ على مَنْ يمثل بين يدي الإمام ـ حسبما يراه النعمان ـ أن يسلم عليه ثم يقبل الأرض بين يديه. وقبل أن ينحني لتقبيل الأرض، يجب عليه أن ينطق بالعبارة التالية: «السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»، وأن يقف أمام الإمام ليمكنه من مشاهدته. فإن كان على مسافة تسمح له بأن يسمع جواب الإمام على سلامه، يجب عليه عندئذٍ أن لا يسجد إلا بعد أن ينتهي الإمام من السلام. وحالما يقبل الأرض، يجب عليه أن ينهض لتقديم طلبه عند الاقتضاء.

ويبدو أن مراسم البلاط التي ضُبِطت منذ قيام الدولة الفاطمية لا تختلف قط عن العادات المعمول بها في بغداد وقرطبة بمناسبة الاستقبالات العادية والاستثنائية التي يتضمنها نشاط الخليفة الرسمي. فقد خرج المهدي في موكب فخم ومنظم بدقة لاستقبال أنصاره الذين قدموا إلى سجلماسة بقيادة الداعي أبي عبد الله لتخليصه من السجن، وقد جرى الاحتفال في «فازة» (أي الخيمة الملكية) حسب الوصف الذي قدمه إلينا شاهد عيان، وهو جعفر الحاجب[31]، والقاضي النعمان[32] الذي اعتمد بلا شك على قواعد المراسم الملكية المحددة منذ قيام الدولة الفاطمية. قال جعفر: «فلما أصبحنا جلس أمير المؤمنين على سرير (أي عرش) قدجعل له في المضرب... ووقف القائم بالله عند يمينه متقلداً سيفاً ملتصقاً بالسرير كالبدر عند تمامه، ووقف أصحاب الإمام دونه،

---

(30) نفس المصدر، ص 104 - 106 [انظر أيضاً المجالس، ص 58].

(31) سيرة جعفر الحاجب، المصدر المذكور، ص 317 - 318.

(32) افتتاح، الفقرة 251.

وبشرى وصندل عن يمين السرير بيديهما مذّبتان، وهما يذبان على رأس المهدي بالله، وأنا على باب المضرب قائم على سيفي، وأبو عبد الله بينه وبين المضرب قدر مائتي خطوة وهو يدعو بأسماء الدعاة والقواد ويقدمهم، إذا اجتمعت له منهم عشرة قدمهم إليّ عشرةً عشرةً، ويقول لهم: امشوا برفق حتى تصلوا إلى ذلك الحاجب القائم بباب المضرب.. فكنت أقدمهم عشرة عشرة يسلمون ويدعون فيبارك عليهم، ويشكر لهم سعيهم ويعرفهم ما أعد الله لهم من جزيل الثواب في عاجل الدنيا وآجل الآخرة. فما زلنا هذا يومنا أجمع. ثم أقام بعد ذلك يجلس لهم والعساكر تمر بين يديه قبائل وأفخاذ إلى أن فرغت العساكر ثلاثة أيام»[32م].

وكانت تقام في بعض المناسبات الاستثنائية احتفالات بهيجة في القاعات العظيمة التابعة لقصور الخليفة في المهدية والمنصورية، لا سيما لاستقبال سفراء قيصر الروم[33]. إلا أن أعظم حفل قد أقيم بمناسبة ختان أبناء الخليفة المعز الثلاثة: عبد الله ونزار وعقيل، وذلك يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول سنة 9/351 أبريل 962، وتواصل الاحتفال بقية هذا الشهر في العاصمة وفي مختلف مدن المملكة من سجلماسة إلى بلرم، وفي المنصورية جرى الحفل بمحضر الخليفة في قصر البحر حول الماء والأشجار. وتسلم كافة المختونين مهما كانت وضعيتهم الاجتماعية خلعاً وهدايا. وقد خُصِّصت لهذه العملية أموال طائلة، واتُخِذت الاستعدادات اللازمة لختان ما بين 500 و 1000 طفل في اليوم على نفقة الدولة في كامل أنحاء البلاد[34].

ولكن الخلفاء الفاطميين قد أمسكوا عن الاحتفال بالأعياد الشيعية كما سيفعلون ذلك فيما بعد في مصر بأبهة فائقة. وقد منع المعز إقامة الأفراح بمناسبة حلول يوم عاشوراء الذي أمر بالاحتفال به في كنف الخشوع التام[35]. إلا أن

(32 م) [عيون الأخبار، ص 161، نقلاً عن سيرة جعفر الحاجب].

(33) المجالس، ص 366 - 370.

(34) نفس المصدر، ص 566 - 588 واتعاظ، ص 135 - 136.

(35) المجالس، ص 397 - 398.

الخليفة الفاطمي كان يحرص على الإشراف بنفسه على صلاة العيدَيْن (عيد الفطر وعيد الأضحى). وكان يقيم صلاة العيد في المصلى الموجود خارج العاصمة، طبقاً لأحكام الله وسنّة رسوله. وقد أصر في عيد من أعياد الفطر على إقامة صلاة العيد في المصلى «رغم الماء والوحل والطين»، إثر نزول المطر بغزارة، ورفض الصلاة بصورة استثنائية في الجامع(36).

ومن أهم شارات الملك عند الفاطميين «التاج» الذي يرجع تاريخ استعماله في إفريقية إلى عهد المعز. وهو عبارة عن إكليل مرصّع بالحجارة الكريمة ومتركب من شريط دائري تعلوه ثلاث ورقات في شكل مثلث. ويبدو أن هذا النموذج الذي تدل على وجوده رخامة منحوتة اكتشفت في المهدية، يختلف عن تيجان ملوك النصارى. ويُعتبَر التاج في نظر الرعايا ـ حسب شهادة الشاعرين ابن هانىء والإيادي ـ شعاراً خارقاً للعادة لما يحظى به الخليفة من مجد عظيم(37).

أما العلامة الأخرى التي يختص بها الخليفة الفاطمي فهي «المظلة»(38) المعدة لوقايته من وهج الشمس. لذلك ينبغي أن يرفعها على رأسه أحد الخدَم المكلفين بخدمته، ويطلق عليه اسم «صاحب المظلة». وهي شبه درقة في رأس رمح، محكمة الصنعة، رائقة المنظر، مرصعة كلها بالجواهر والأحجار الكريمة، إلى حد أنها تبهر الناظرين، ويرجع تاريخ استعمالها إلى أيام المهدي الذي عهد بخطة «صاحب المظلة» في مدته إلى شخصَيْن اثنين هما على التوالي: الفتى مسعود، والفتى غَيْس. وكان الخليفة الثاني القائم بأمر الله كثيراً ما يستعمل المظلة التي كانت تُرفَع على رأسه كلما امتطى صهوة جواده، منذ أن كان ولياً للعهد. كما استعملها ابنه وخليفته المنصور كإشارة لاضطلاعه بمهام

(36) نفس المصدر، ص 357 - 458.

(37) المجالس، ص 397 - 398.

(36) نفس المصدر، ص 457 - 458.

(37) ابن حماد، ص 69/45.

(38) نفس المصدر، ص 14 - 27/15 - 28، 17 - 32 و 71/74. وإسبانيا الإسلامية، 13/3 - 14.

القائد الأعلى للجيش خلال حملته على أبي يزيد. وكان ينشرها في ساحة الوغى لإشعار جنوده بوجوده بينهم وتشجيعهم على القتال. فكان يقاتل والسيف في يده والمظلة على رأسه يمسكها صقلبي من عبيده، فيدخل منظرها الرعب في قلوب العدو. وفي عهد المعز كانت المظلة التي يمسكها الخادم شفيع، أحد موالي والده المنصور، علامة من علامات السيادة تضاهي التاج روعةً. وكان تحظى بتقدير كبير لارتفاعها فوق رأس الخليفة، كما يظهر من وصف ابن هانىء لها [كامل][39]:

وعلـى أميـر المـؤمنيـن غمـامـةٌ   نشـأت تظلـل تـاجـه تظليـلاً
نهضت بثقل الدرّ ضوعف نسجها   فجرت عليه عسجداً محلولا[40]

وكان الخلفاء الفاطميون يظهرون في الاحتفالات الرسمية جالسين على «سرير» (أي عرش) يرجع تاريخ استعماله أيضاً إلى عهد المهدي. فقد ظهر هذا الخليفة أثناء اتصاله الأول بأنصاره في سجلماسة، وهو جالس على سرير أمام الفازة[41] كما استقبل المعز مبعوث قيصر الروم نقفور فقاس في موكب فخم بقصر البحر وهو جالس على سرير[42]. إلا أن الخليفة يستقبل أنصاره أحياناً في مظهر متسم بأكثر تواضع، فقد استدعى المعز ذات يوم عدة شيوخ من شيوخ كتامة، «وأمر بإدخالهم من غير الباب الذي جرى الرسم به، فإذا هو في مجلس مربع كبير مفروش باللبود على مطارح، وحوله كساء، وعليه جبة، وحواليه أبواب مفتحة تفضي إلى خزائن كتب، وبين يديه مرفع ودواة، وكتب حواليه. . . »[43].

---

(39) ابن حماد، ص 28.

(40) [انظر، محمد اليعلاوي، «ابن هانىء المغربي الأندلسي» ص 149].

(41) سيرة جعفر، المصدر السابق، ص 314.

(42) الكامل، 69/7 وبالنسبة إلى مصر، انظر، اتعاظ، ص 188.

(43) اتعاظ، ص 136 - 137.

ويُعتبر الخاتم عند الخلفاء الفاطميين شعاراً خصوصياً من خصائص سلطتهم، رغم استعماله في العادة كشارة أساسية من شارات الملك. وحرصاً على التميز بلقب ملائم لمذهبهم، كانوا ينقشون على خاتمهم المُذَهَّب عبارات في شكل شعار يشير إلى انتصار قضيتهم. فقد نقش المهدي خاتمه «بنصر الإله الممجد، ينتصر الإمام أبو محمد»[44]. ونقش القائم خاتمه «بنصر الدائم ينتصر الإمام أبو القاسم». أما الصيغة التي اختارها المنصور، فهي تحمل بصورة أوضح علامة المذهب الإسماعيلي «بنصر الباطن الظاهر، ينتصر الإمام أبو الطاهر». وأخيراً كان شعار المعز: «في سبيل الله الواحد الأوحد، يدعو الإمام معد»[45].

وكان يُثبَت اسم الخليفة ولقبه في الألوية المقدمة إلى قواد الجيش عند توجههم إلى القتال، «وفي الطراز من أعمال العبيد الرقامين بالذهب فيما يلبسه الأئمة... وكذلك أيضاً في البُسُط مما يعمله العبيد من عجيب أعمالهم ومعجز صنعتهم»[46]. وكانت هذه النقائش المستوحاة من المذهب الإسماعيلي المطابقة لتوجيهات الخليفة، تحتل مساحة كبيرة من الأقشمة والبُسُط مطروزة»[47].

وأخيراً هناك شعاران آخران من شعارات السيادة يُعتبران من العلامات الخصوصية للخلفاء الفاطميين، وهما الطبل والمذبة، وترجع عادة المذبة المعروفة لدى الأشوريين والفرس إلى عهد المهدي الذي استعملها منذ وصوله إلى المغرب، وهي ناشئة بلا شك عن تأثير أهل الشام[48].

---

(44) نفس المصدر، ص 106.

(45) نفس المصدر، ص 127 بالنسبة إلى القائم وص 133 بالنسبة إلى المنصور وابن حماد، ص 47-71 بالنسبة إلى المعز.

(46) سيرة جوذر، ص 52.

(47) نفس المصدر، ص 88.

(48) نفس المصدر، ص 52، انظر أيضاً روجي الهادي إدريس، الدولة الصنهاجية، 88/2.

3 ـ البيعـة:

يخضع موكب البيعة عند أهل السنّة إثر اعتلاء الخليفة العرش لتقاليد عريقة نشأت مع ظهور نظام الخلافة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وترتكز البيعة على تعيين الخليفة حسب طريقة الشورى، كما كان الشأن بالنسبة إلى الخليفة الأول أبي بكر، أو بتزكية قرار التعيين الذي اتخذه الخليفة الراحل، كما كان الشأن بالنسبة إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب. إلا أن مثل هذا التعيين الذي يرتكز على مبدإ الانتخاب أو شبه الانتخاب المُلزِم للأمة الإسلامية بأسرها، لا يمكن تصوره بالنسبة إلى الدولة الفاطمية في إفريقية، حيث أقيم نظام خلافة الأيمة الفاطميين منذ ظهور هذه الدولة على أساس القواعد التي ضبطها المذهب الإسماعيلي(49). ذلك أن النظرية المنصوص عليها في الكتب الإسماعيلية تنسب إلى الله تعالى وحده، لا إلى خلقه، تعيين المرشدين الأكابر والأيمة المعصومين الذين ليسوا فحسب خلفاء الرسول، بل هم أيضاً وعلى وجه الخصوص ورثة رسالته الإلاهية، ولذلك فإن أيمة المؤمنين وخلفاء الرسول الشرعيين ـ وكذلك خلفاء الله في الأرض ـ يجب أن يكونوا من ذرية فاطمة ابنت رسول الله، وخلفاء وصيّه عليّ، حسبما نصت عليه الشريعة الإلاهية. فالإمامة تنتقل حينئذٍ أباً عن جد في أسرة الوريث الشرعي للرسول، أي في عائلة عليّ الذي عهد الله إليه بالولاية، بمقتضى تأويل الشيعة للسيرة النبوية(51)، في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة 10 هجرية/ 16 مارس 632 عند غدير خم. ففي ذلك المكان الذي توقف فيه الرسول ﷺ عند عودته من حجة الوداع، أنزل الله عليه الآية الكريمة: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلام دِيناً﴾(52). وعندئذٍ قال رسول الله: «مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»،

---

(49) انظر Chambellan، سيرة جعفر، ص 318.

(50) انظر دائرة المعارف الإسلامية (1) ص 1146: البيعة. وانظر حول الولاية، Laoust، ص 434 - 435.

(51) انظر دعائم الإسلام، ص 17 - 25 و 26 - 36 والهمة، 38 - 39 والمجالس في مواضع مختلفة.

(52) سورة المائدة، الآية 3.

وهي المقولة التي رآها أشياع عليّ بمثابة البيعة التي تقر حقه في «خلافة الرسول»، واعتبروها تكملة لآخر الفرائض: أي الولاية(53).

فالإمام يختاره حينئذٍ سلفه دون سواه بمقتضى «النص» الذي يعبرعن إرادة الله. والإمام الحاكم بوصفه المستودع الوحيد لعلم الله هو المؤهل دون غيره لتعيين خلفه، أي الخليفة الذي اختاره الله ليحكم البشر في الحياة الدنيا. فلا يستطيع أي مخلوق سواه المساهمة في هذا التعيين المنبثق عن قرار إلاهيْ ويكفي لإقامة الدليل على ذلك الاستشهاد بخطبة عيد الأضحى التي ألقاها المعز سنة 953/341 وأظهر فيها وفاة والده المنصور(54). فقد توجه إلى الله بالصلاة على محمد وآله، «وعلى الأئمة المهديين من عترته الكرام الأبرين الذين اختارهم للخلافة وارتضاهم للإمامة وأكد بوصية الرُّسُل حجتهم وأوجب في التنزيل طاعتهم، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين، وعلى أفضل الوصيين، وعلى أمة سيدة النساء، خامسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم...».

ثم أكد المعز ما يكتسيه قرار تعيينه من صبغة إلاهية، فهو يستثني حينئذٍ أي ضرب من ضروب الانتخاب أو التزكية من قِبَل البشر، وأضاف قائلاً:

«وما من ولي سالف إلا وبعده وصي خالف، قائم لله بحقه، مُتَحَرٍّ ثوابه، عامل بما يرضيه حسب طاقته ومنتهى استطاعته... وقد قرن الله طاعة أئمة الهدى بطاعة الرسل وطاعة الرسل بطاعته، فقال: ﴿أطيعُوا اللَّهَ وأطيعوا الرسُولَ وأُولي الأمر منكم﴾، بذلك جرت عادته في الأنبياء والمرسلين، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً»(55).

---

(53) [المجالس، ص 327 ـ الهامش 1].

(54) سيرة جوذرة، ص 76 - 84 وبالخصوص، ص 79.

(55) نفس المصدر، ص 82.

وبعدما يعين الإمام خلفه و «حجته» لا ينبغي أن يبوح باسمه إلا «لمستودعه» وأمين سره، ولا يظهره إلا في الوقت المناسب. على أن هذه العادة الموروثة عن فترة «الستر» السابقة لإقامة الدولة الفاطمية في إفريقية، قد طرأت عليها بعض التعديلات التي فرضها تطور أوضاع الخلافة. فقد ورث الخليفة الفاطمي الأول المهدي الإمامة طبق السنّة التي جرت عليها التقاليد الإسماعيلية. إذ صرّح الإمام المكتوم الأخير الحسين بن أحمد في سلمية باسم المهدي وقلده ولاية العهد قبل وفاته بمدة قليلة. وأعلم أتباعه بذلك القرار في كتاب، وأخذ له البيعة من جميع الدعاة في سائر «الجزائر». فتولى المهدي الإمامة سنة 884 - 883/270، وشرع الدعاة إثر ذلك في الدعوة له جهراً في شرق البلاد الإسلامية وغربها. واعترف أنصاره بالمغرب بإمامته في سجلماسة بعدما أطلق الداعي أبو عبد الله سراحه، وقدمه في موكب رسمي إلى أتباعه المتشوقين إلى رؤية «المهدي المنتظر». وأشرف بنفسه على تنظيم ذلك الحفل الذي كان بمثابة المبايعة ثم توجه إلى الإمام بقوله: «ليأمر مولانا من يراه من عبيده هؤلاء يقف على باب المضرب، وأقف أنا للناس وأقدمهم عشرةً عشرةً، فإذا فرغت من الدعاة منهم والقواد، قدمت من دونهم خمسين خمسين، ثم مائة مائة، ثم خمسمائة خمسمائة، ثم أجزت باقي العسكر بين يدي مولانا مواكب حتى أعمهم بالنظر إلى وجه مولانا وأستكمل سلامهم عليه»[56]. [فتمت مراسم المبايعة كما اقترحها أبو عبد الله].

وأُعلِن عن قيام الخلافة الفاطمية في إيكجان، حيث توقف المهدي الذي أصبح يتلقب منذ ذلك الحين «بأمير المؤمنين». «وأقبل [الأولياء] من كل حدب ينسلون إليه، ومن كل أفق يسعون نحوه يتبركون بالنظر إليه»، ووجه أبو عبد الله باسمه كتاباً إلى أبي زاكي نائبه بالقيروان ليُقرَأ على منبر الجامع. وقد أعلمه فيه بتسليم السلطة إلى صاحبها الشرعي، وبقدومه الوشيك إلى إفريقية[57].

(56) نفس المصدر، ص 317 وافتتاح، الفقرة 259 [انظر أيضاً عيون الأخبار، ص 161].

(57) افتتاح، الفقرة 262.

ولم ينتظم أي موكب بيعة عند دخول المهدي إلى رقادة. حيث كان الاستقبال الذي خصه به شيوخ القيروان بمثابة البيعة العامة. وصدر من القصر الأغلبي المعروف بالصحن كتابان لإعلام أهل إفريقية من أعلى منابر الجوامع بتقلد المهدي مهام الإمامة والخلافة فأكد الكتاب الأول الذي يتضمن الدعاء للإمام، ما يكتسيه تعيينه من صبغة إلاهية، إذجاء فيه بالخصوص ما يلي:

«اللهم وكما اصطفيته لولايتك واخترته لخلافتك وجعلته لدينك عصمة وعماداً ولبريتك موئلاً وملاذاً، فانصره على أعدائك المارقين وآشْفِ به صدور المؤمنين، وافتح به مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيِّدْه على العصاة الظالمين إله الخلق رب العالمين»(58).

أما الكتاب الثاني فقد أوضح اللقب الذي أصبح يتلقب به المهدي، وهو «أمير المؤمنين»، والرئيس الأعلى «لأشياعه من المؤمنين وجميع المسلمين»، ثم حمد الله الذي أنجز وعده لرسوله «برد إرث النبوة ومقاليد الإمامة إلى عترة نبيه وأعز الدين والمؤمنين بعبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، وأظهر بهجة الإسلام وجماله بقيامه وأخذ تراث جده النبي وأبيه الوصيّ...»(59).

وقد سبقت ولاية الخليفة الفاطمي الأول بيعة صريحة، استثنت اتخاذ أي قرار من قِبَل جماعة المؤمنين، واستوجبت الخضوع التام لإرادة الله والطاعة العمياء للإمام الذي دُعِي له رسمياً بالخلافة أثناء صلاة الجمعة التي أقيمت في غيابه. وقد أعلن خطباء الجوامع برقادة والقيروان وبالقصر القديم عن تولي المهدي مقاليد الخلافة ودعوا له. ووُجِّهت كتب رسمية إلى الأمصار مع الدعاة، «فدُعِي له في مستقبل ذلك. وجاءت وفود البلدان من كل جهة ومكان» لمبايعة الخليفة الذي «قال الشعراء فيه ومدحوه»(60).

---

(58) نفس المصدر، الفقرة 265.

(59) نفس المصدر، الفقرتان، 272 - 273.

(60) نفس المصدر، الفقرتان، 272 - 273.

ويبدو أن تعيين الخليفة الثاني القائم لم يشذ أيضاً عن قاعدة «النص» الإسماعيلية. فحسب شهادة جوذر كان أبو القاسم منذ اعتلاء المهدي العرش «ولي عهد المسلمين» ومن جهة أخرى ظهر القائم من خلال الصورة التي رسمها له جعفر الحاجب في سيرته[61] في مظهر ولي العهد المعين، و «الحجة» في حين كان طيّب الخادم «مستودعه»[62].

ونحن نعلم مدى الغموض الذي اكتنف قضية القائم في تاريخ الفاطميين بإفريقية، وما أثاره تضارب بعض المصادر الإسماعيلية من تأويلات متباينة، الأمر الذي لم يسمح - كما أسلفنا - بتبديد الغيوم التي أحاطت بتولي القائم مهام الإمام. على أن تعيينه ولياً للعهد كان يمثل - والحق يقال - استثناء للقاعدة المعمول بها في السابق طبقاً للتقاليد الإسماعيلية. حيث تم تعيينه في وقت مبكر، أي قبل قيام الخلافة الفاطمية بحوالي سنتين[63].

ولم يعلن المهدي عن قرار التعيين إلا بعد مقتل أبي عبد الله وأخيه أبي العباس، وفشل المؤامرة المدبرة ضده. ولا داعي هنا إلى التطرق من جديد إلى الأسباب السياسية والمذهبية التي كانت موضوع بحث علمي مدقق حول الإصلاحات المذهبية التي أقرها المهدي والمعز[64]. بل يكفي أن نعيد إلى الأذهان مساهمة ولي عهد المهدي في ممارسة السلطة والإشراف على تنظيم الدعوة الإسماعيلية، تلك المساهمة الفعالة التي يرجع سببها أساساً إلى الشكوك التي حامت حول شرعية إمامة المهدي. ذلك إن حرص الخليفة الفاطمي الأول على تدارك الشعور بالخيبة التي لا شك أن «ظهوره» سيثيرها في نفوس أتباعه، وإجراء إصلاح مذهبي لتحقيق الملاءمة بين أهداف الرسالة الإسماعيلية وبين المقتضيات السياسية وداعي المصلحة العليا، قلت إن ذلك

---

(61) سيرة جوذر، ص 35 - 39.

(62) سيرة جعفر، المصدر المذكور ص 286 و 303 - 304.

(63) افتتاح، الفقرة 294.

(64) Madelung، Das Imamat، بالخصوص ص 67 - 68، 80 - 81 و 90 وما بعدها.

الحرص قد حث المهدي على تشريك ولي عهده في تسيير شؤون الدولة.

وبالعكس من ذلك تم تعيين المنصور ولياً للعهد بصورة عادية إلى أبعد حد[65]. ففي نفس الوقت الذي دفن فيه القائم بأمر الله والده المهدي، بعد أن أصبح إماماً، بادر إلى تعيين «حجته»، «لأنه لا يحل للحجة بعد الإمام أن يدفن الإمام حتى يقيم حجة لنفسه». وقد وقع اختيار القائم على ابنه إسماعيل وأعلم بذلك جوذر الذي أصبح «مستودع» الإمام المقبل دون سواه، قائلاً له:

«ولدي إسماعيل هو حجتي وولّي عهدي فاعرف له حقه، واكتم أمره حتى أظهره بنفسي في الوقت الذي يشاء الله ذلك ويختار»[66].

وقد بقي هذا الخبر الذي احتفظ به جوذر دون غيره ـ واطلع عليه أيضاً ولي العهد حسب رواية القاضي النعمان المختلفة شيئاً ما عن رواية جوذر ـ سراً مكتوماً مدة سبع سنين ـ أو ثلاث عشرة سناً حسب رواية النعمان[67] ـ إلى أن أتى اليوم المناسب للتصريح به[68]. وقد دُوِّن قرار التعيين في وصية احتُفِظ بها حتى يوم إفشاء السر. والجدير بالملاحظة أن تنصيب ولي عهد الخليفة الفاطمي يتم في فترتَيْن متتاليتَيْن قبل وبعد وفاة الإمام، أثناء موكبَيْن اثنين يذكّران بمرحلتيْ البيعة عند أهل السنّة، أي البيعة الخاصة والبيعة العامة.

وبالنسبة إلى المنصور، انتظم الحفل الأول في قصر الخليفة بحضور «شيوخ الدعوة»[69]، أي كبار الشيوخ الإسماعيليين، وافتتح الاجتماع «شيخ المشايخ» أو «شيخ الخطبة» صولات رئيس لهيصة، أحد بطون كتامة. فقرأ الوصية مرتَيْن متتاليتَيْن، وكان يرجعها كل مرة إلى جوذر الذي يسلمها بدوره

(65) سيرة جوذر، ص 39 - 40.

(66) نفس الصدر، ص 40.

(67) [في النص الفرنسي 12 عوض 13 والتصحيح من المجالس].

(68) المجالس، ص 448 و 466 - 468.

(69) Jvanov، Rise، (عن زهر المعاني للداعي إدريس) ص 79 - 80.

إلى الخليفة. ثم قرأها مرة ثالثة، وإثر ذلك صرح جوذر بتعيين إسماعيل ولياً للعهد وأمر الحاضرين بمبايعته. فسجد «شيوخ الدعوة» تعبيراً عن موافقتهم على قرار إمامهم[70].

ولم ينتظم الحفل الثاني الذي يقابل «البيعة العامة» إلا بعد اندلاع ثورة الخوارج، أي بعد وفاة القائم التي ظلت مكتومة طوال المرحلة الثانية من الثورة. وقد كان ذلك الحفل بسيطاً، بل مؤثراً، وجرى في ساحة الوغى التي شهدت انتصار إسماعيل، يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة (19 أوت 947). «فنادى المؤذنون قبل الأذان لصلاة الظهر: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته». وتلقب الخليفة الجديد في الحين بالمنصور بالله. «فسُرَّ الناس وجاؤوا يهنئونه بالخلافة»[71]. ثم «أمر المنصور بإنشاء الكتب إلى الأمصار والأعمال بأنه أمير المؤمنين وإثبات ذلك في الطراز وفي دار الضرب»[72]. وعند عودته إلى إفريقية مكث مدة قليلة في عاصمته الجديدة المنصورية ثم توجه إلى المهدية حيث أعلن في خطبة عيد الفطر عن تولّيه الإمامة وأظهر وفاة أبيه. واقتصر عند تطرقه إلى حركة التمرد وفشلها على حث أتباعه على الطاعة والاعتراف بسلطته، كإشارة إلى مبايعتهم له.

أما التصريح بتعيين المعز ولياً لعهد أبيه المنصور فقد تم في أيام جده القائم بأمر الله، حسب الرواية الغريبة التي أوردها القاضي النعمان في «**مجالسه**»[74]، ومفادها أن القائم، اتقاءً للخلافات التي قد تحصل داخل الأسرة الفاطمية حول الوراثة على العرش، أوصى ابنه وولي عهده المنصور باختيار ابنه معد ليخلفه بعد وفاته. وقد امتثل المنصور كل الامتثال لقاعدة

---

(70) نفس المصدر.

(71) **عيون الأخبار**، ص 459.

(72) نفس المصدر، ص 461.

(73) نفس المصدر، ص 482 - 486 و**سيرة جوذر**، ص 55 - 60.

(74) **المجالس**، ص 469.

«النص» الإسماعيلية حين عين ابنه المعز ولياً للعهد قائلاً له: «إن ما خولني الله من الكرامة واصطفاني به من الإمامة، فإنما هو متاع عندي وعارية في يدي لانقضاء المدة وتمام العدة، ثم هولك بحكم الله وأمره»(75).

وقد أدركت المنية المنصور يوم 29 شوال سنة 19/341 مارس 953، «من بعد ما نصب للإمامة وأبان للخلافة ابنه المعز لدين الله. فقام بالإمامة من بعده يقفو أثره وآثار من مضى من آبائه»(76). وكتم المعز خبر الوفاة جرياً على العادة التي سنها جده القائم، ولكن لمدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر. وبعد ذلك أظهر وفاة أبيه ونعاه إلى الناس، بالضبط مثل ما فعل المنصور إثر انتصاره على أبي يزيد. فصرح حينئذٍ في خطبة عيد الأضحى بتوليه مهام الإمامة والخلافة(77)، معتبراً تلك المناسبة التي أظهر فيها سلطته بمثابة حفل المبايعة الرسمي.

4 ـ أفراد الحاشية السياسية:

إن تصور السلطة في بيت الملك الفاطمي، المنبثق من عقيدة الإمامة ذاتها، يفرض قيام نظام حكم يشرف عليه ويراقبه الخليفة دون سواه. وتبعاً لذلك فإن النظام الإداري الذي أقيم في مستهل عهد المهدي، يبدو مُمَـرْكَزاً إلى أبعد حد، يمثل فيه الخليفة الجهاز المنظم للدولة، ويمثل فيه قصر الخلافة محور النشاط السياسي بأسره.

وفي إطار مثل هذا النظام يكون أصحاب مختلف المناصب الإدارية تابعين مباشرة لرئيس الدولة في اضطلاعهم بمهامهم، ومطالبين بالامتثال إلى أوامره بكل دقة. وينتمي هؤلاء الموظفون الذين يمثلون «رجال المملكة» إلى الفئات العرقية الثلاث التي يتكون منها المجتمع الفاطمي في إفريقية، أي العرب والبربر والصقالبة الذين يؤلفون ضمن الحاشية الملكية ثلاث كُتَل تتقاسم المهام المدنية

(75) نفس المصدر، ص 124.

(76) افتتاح، الفقرتان، 300 - 301.

(77) سيرة جوذر، ص 76 - 84.

والعسكرية وتتعارض بالضرورة فيما بينها بسبب التنافس والخصومات التي لا مفر منها.

ويبين استعراض المهام المناطة بعهدة الموظفين من ذوي الأصل العربي، بالإضافة إلى قلة عددهم، نفور الفاطميين من استخدام علية القوم الذين ظلوا في معظمهم أوفياء للنظام السابق. فإذا استثنينا بعض العائلات التي انضمت إلى الشيعة منذ بداية الدعوة الفاطمية، أمثال بني حمدون وبني الكلبي وبني أبي خنزير، وبعض المشارقة الذين ربطوا مصيرهم بمصير المهدي خلال فترة هجرته إلى المغرب، مثل أبي جعفر البغدادي، لا نجد سوى عدد قليل من الموظفين العرب الذين كانوا مباشرين لمهامهم في العهد السابق، وأقرهم الداعي ثم المهدي في مناصبهم لمواصلة سير النشاط الإداري[78].

وبالعكس من ذلك عُيِّن الصقالبة على رأس أهم الدواوين المدنية والعسكرية. ومما يزيد في أهمية المكانة التي يحتلونها في الدولة أنهم لم يقوموا بأي دور يستحق الذكر في العهد السابق[79]. وقد كان إخلاص الصقالبة من العبيد والموالي للأيمة، لا تشوبه شائبة. فكان هؤلاء يعهدون إليهم بمهام خاصة في بلاطهم، ويلحقونهم بحاشيتهم، ويعينونهم في أسمى المناصب. وقد رأينا الصقالبة، حتى قبل قيام الدولة الفاطمية يعيشون حول الإمام المهدي طوال أيام هجرته، ويتفانون في خدمته دون سواه، ولم تكن مهمتهم مقتصرة على القيام بالمهام العادية، بل كانوا يضطلعون بأدق المهمات ويسهرون على سلامة مخدومهم بإخلاص لا نظير له[80]. ولدينا عدة شهادات على فضائلهم وصدق مشاعرهم إزاء الأيمة الذين كانوا بدورهم يعاملونهم برفق وحنان،

---

(78) افتتاح، الفقرة 277.

(79) ما عدا بالنسبة إلى خدم البلاط، انظر البيان، 147/1 - 149 وبالخصوص افتتاح، الفقرة 213، وقد أشار فيها القاضي النعمان إلى أن زيادة الله قد أخرج معه عند هروبه من إفريقية الف خادم من الصقالبة وجعل على وسط كل واحد منهم منطقة فيها ألف دينار.

(80) سيرة جعفر، في مواضع مختلفة وبالخصوص ص 291 - 292 و 308.

ويخصونهم بتقديرهم ورعايتهم، كما تدل على ذلك أقوال المعز التي نقلها النعمان في **مجالسه**[81].

ومع ذلك فإنهم لا يحتلون في سلم الوظيفة العمومية سوى المرتبة الثانية، أما المرتبة الأولى فهي من نصيب كتامة، تلك القبائل البربرية التابعة لمنطقة القبائل الصغرى، والتي حققت انتصار القضية الفاطمية. فقد أقر الأيمة بما أداه الكتاميّون من خدمات جليلة، وأشادوا بفضائلهم، ومجدوا خصالهم الحربية وإخلاصهم الدائم للخلافة الفاطمية، رغم جميع التقلبات. فهم في نظر القائم «كحواري عيسى وأنصار محمد ﷺ»[82]. وهم في نظر المنصور «أهل دعوتنا وأنصار دولتنا»[83]. أما المعز الذي انتهج سياسة موالية للبربر بصراحة، فقد غمرهم بالثناء وأغدق عليهم النِّعَم[84].

إلا أن أية كتلة من هذه الكتل الثلاث لا تمثل قوة سياسية من شأنها أن تقوم بدور متفوق في الدولة. ذلك أن المهدي قد حرص منذ قيام الدولة الفاطمية على إخماد أي حركة مقاومة، حتى يتمكن من ممارسة السلطة بلا شريك. فقد رأيناه كيف أخضع الشق البربري بالقضاء على زعيمَيْ المؤامرة، الداعي أبي عبد الله وأخيه أبي العباس، ثم هزم الأرستقرطية الأغلبية بالقيروان وبالقصر القديم شر هزيمة. فلا يستطيع حينئذٍ أي فرد من أفراد حاشية الخليفة، ولا أي مجموعة معارضة سلطته. ولا يتمتع سوى أهل البيت الفاطمي بحرية التصرف لدس الدسائس دون أن يخشوا رد فعل الإمام الحاكم، كلما رأوا أنفسهم قد حُرِموا من وراثة الإمام وانتُزِع منهم الملك. وقد اشتكى المنصور بحسرة فائقة مما عاناه على وجه الخصوص من العداوة التي كان يكنها له بنو عمومته وإخوته طوال السنوات العديدة التي ظل فيها خبر تعيينه ولياً لعهد أبيه

(81) المجالس، ص 250، 274 - 463. انظر أيضاً سيرة جوذر، مقدمة الترجمة الفرنسية، ص 15 - 16.

(82) سيرة جوذر، ص 54.

(83) نفس المصدر، ص 59.

(84) المجالس، ص 91، 96 - 119 - 203.

سراً مكتوماً، يثير في البلاط المطامع والدسائس، فضلاً عن الشكوك[85]. وواجه المعز من جانبه عداوة «أهل القصر» دون أن يكون مضطراً إلى اللجوء إلى القوة لردهم إلى الصواب[86].

وفي مثل هذا النظام الذي يشرف عليه الخليفة بنفسه، لا يقوم كبار الموظفين إلا بدور المنفذين. إلا أن الدعوة الفاطمية المرتكزة على الإصلاحات السياسية والدينية التي أجراها الداعي أبو عبد الله في المجتمع الكتامي البربري، قد تركت لأتباعها منذ البداية نصيباً لا بأس به من حرية التصرف في شؤون الطائفة الشيعية البربرية الفتية. ذلك أن تقسيم كتامة إلى «أسباع» على رأسها مقدمون ودعاة يُسمَّون «المشايخ»، قد أسفر ـ كما أسلفنا ـ عن إنشاء «مجلس مشايخ» بأتمّ معنى الكلمة، يشارك الداعي في ممارسة السلطة[87].

وازداد نفوذ المجلس بعد هزيمة الأغالبة، وساعدت الصبغة البربرية التي اكتستها الثورة الفاطمية على وضع هؤلاء المشائخ من أول وهلة في صدارة الساحة السياسية منذ انبعاث الدولة الفاطمية التي ساهم أبناء قبيلتهم في قيامها. وبناءً على ذلك لم تلبث سلطة المهدي أن اصطدمت بتلك القوة السياسية الناشئة، لما استرجع «الأموال التي كانت على أيدي الدعاة والمشايخ، فكان ذلك من أول ما أحال القلوب الفاسدة»[88].

وتدل المؤامرة التي دبروها إثر ذلك عن رد فعلهم العنيف بسبب حرمانهم من صلاحياتهم وغضبهم على الحصة الزهيدة التي كانت من نصيبهم عند توزيع مهام الدولة. وهذا ما يفسر إلى حدٍ ما الشكوك التي تجاسر «شيخ المشايخ» على إبدائها حول شرعية إمامة المهدي[89]. وبعد فشل المؤامرة وقتل زعمائها،

---

(85) سيرة جوذر، ص 61 - 69.

(86) نفس المصدر، ص 73 - 74.

(87) افتتاح، الفقرة 123.

(88) نفس المصدر، الفقرة 261.

(89) نفس المصدر، الفقرة 282.

فَقَد المشايخ التابعون لحاشية الخليفة تلك القوة الهائلة التي كانت تمسك بزمام الحكم إلى جانب الداعي وتطمح بطبيعة الحال إلى الاحتفاظ بها في صلب دولة يطغى عليها الطابع البربري.

ومنذ ذلك الحين انحصر دور المشايخ في الإحاطة «بالأولياء» الذين يمثلون سند الإمام القوي، وبالدعاة المكلفين بنشر الدعوة الإسماعيلية داخل حدود المملكة وخارجها في «جزائر» العالم الإسلامي. ونظراً إلى تضلعهم في علم الباطن والظاهر سيواصلون في صلب جهاز الدعوة الإسماعيلية الاضطلاع بمهمة دينية وروحية دائمة وسيؤلفون حول الإمام جماعة من رجال الدين المكلفين بإرشاد المؤمنين إلى طريق الدين الحق، ومنافسة فقهاء المالكية. وبهذه الصفة سينضمون إلى «مجلس شيوخ الدعوة». وسيتمكنون من الاطلاع على قرار تعيين وليّ عهد الإمام. ولئن كانت المرتبة العالية التي يحتلونها في سلم المناصب الدينية (حدود الدين) تؤهلهم ليكونوا في صحبة الإمام، لا سيما أثناء الاستقبالات الرسمية، وتفرض عليهم مواصلة الجهاد في أحلك الظروف لنصرة القضية الفاطمية، إلا أنها لا تخول لهم أبداً منذ احتجاب الداعي أبي عبد الله، لا احتلال موقع سياسي بارز إلى جانب الإمام، ولا اكتساب أهمية بالغة في هياكل الدولة[90].

5 ـ مهمة الحجابة:

لقد ساعد هذا التقلص في نفوذ شيوخ كتامة منذ قيام الدولة الفاطمية على ترقية الصقالبة المكلفين بخدمة الخليفة والذين ارتقوا إلى مصاف أصحاب الرتب العالية في الدولة. ذلك أن أهم فرد من أفراد الحاشية كان ينتمي إلى سلك الخدم ويشغل خطة الحجابة بعنوان «حاجب». ولدينا حول الحجابة

---

(90) بالنسبة إلى معنى ودور «الأولياء»، انظر سيرة جوذر، الترجمة. الفرنسية، ص 52، الهامش 34. فقد تكونت طبقة اجتماعية بأتم معنى الكلمة داخل الطائفة الإسماعيلية تحتل المرتبة الثالثة بعد الإمام وحجته ومستودعه، وحول فضل هذه الطبقة انظر المجالس، ص 55 - 56 و 254 - 255.

مصدر نفيس يتمثل في السيرة الذاتية لصاحب هذه الخطة، أي «سيرة جعفر». وتوفر لنا المعطيات الواردة في هذا الكتاب، بالإضافة إلى المعلومات التي قدمها المؤرخ المغربي ابن عذاري حول هذا الموضوع، إرشادات مضبوطة حول ماهية هذه الخطة وتطورها خلال الفترة الفاطمية الإفريقية. .

وقد نسب ابن عذاري إلى المهدي أربعة حجّاب[91] هم: أبو الفضل جعفر بن علي، وأبو أحمد جعفر بن عُبَيْد، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف أكثر بالخادن، وأبو سعد عثمان بن سعيد المعروف أكثر باسم مسلم السجلمائي. وبفضل سيرة جعفر تعرفنا بالضبط على المكانة التي كان يحتلها هؤلاء الأحظياء لدى الخليفة الفاطمي الأول. أما جعفر بن علي صاحب هذه السيرة، فهو خادم من أصل نصراني لا شك فيه، انضم إلى خدم المهدي لما آلت إليه الخلافة في سلمية بالشام، وصاحبه أثناء هجرته إلى المغرب، وقام بحماس وتفانٍ بدوره كعون مكلف بالقيام بأبسط الأعمال وأدقها. وقد تم تعيينه حاجباً في سلجماسة، واحتفظ بهذه الخطة طوال مدة أربعة خلفاء متتالين إلى أن أدركته المنية في عهد المعز[92].

وأما جعفر الثاني المعروف «بالصعلوك»، فهو ابن عم جعفر السالف الذكر. وقد عهد إليه المهدي عند خروجه من سلمية بالسهر على الحرم مع خادم آخر اسمه أبو جعفر الخَزَري[93].

ويبدو أن الحاجب الثالث كان هو أيضاً من أصل نصراني، إذ كان يحمل قبل دخوله في خدمة المهدي اسماً يوحي بذلك الأصل وهو «بركان» وقد كان مكلفاً ضمن حاشية الإمام في سلمية، بتربية ابنه القائم وبقي في خدمة وليّ العهد طوال مدّة إقامته في سجلماسة[94].

(91) البيان، 159/1.

(92) Ghambellan، سيرة جعفر، ص 281، الهامش 3 و 323 - 324 و Gateau، ص 377 وما بعدها.

(93) سيرة جعفر، المصدر السابق، ص 286، الهامش 1، وص 277، الهامش 1، ولكننا فضلنا قراءة «الخزري» عوض «الجزري».

(94) نفس المصدر، ص 286، الهامش 2.

أما الحاجب الرابع، فهو عبد من أصل يوناني كان يحترف الصياغة واشتراه المهدي من امرأة في سجلماسة وسخره لخدمة القائم[95].

وباستثناء الصعلوك الذي اختبأ في طرابلس مع الحرم، كان هؤلاء الخدم يؤلفون الحرس الشرفي أثناء الحفل الرسمي الذي أقامه المهدي غداة إطلاق سراحه «ليظهر» أمام أوليائه. فكانوا يقفون على يمين ويسار العرش ويقومون بدور الحجابة أثناء المواكب الرسمية التي يحضرها الخليفة. ويطلق اسم الحاجب على الخادم الذي «يبسط حجاباً بين الخليفة ورعاياه»[96]. ولكن شرف الحجابة قد استأثر به بالفعل جعفر بن علي الذي تمثل دوره (أثناء الحفل السالف الذكر) في الوقوف على باب المضرب «وهو قائم بسيفه»، وتقديم الأولياء حسب النظام الذي رتبه الداعي أبو عبد الله للسلام على الإمام. قال جعفر: ومن ذلك اليوم كنت الحاجب، فكنت أقدّمهم عشرة عشرة، وكنت أول من بايع المهدي لما آلت إليه الخلافة[97].

وتدل هذه الشهادة التي أدلى بها أول من عُيِّن حاجباً عند قيام الدولة الفاطمية، على أن الحجابة قد بدت في الأصل في شكل خدمة «منزلية» بحت لا تفوض إلى صاحبها أي سلطة من قِبَل الخليفة. فهي حينئذٍ مهمة تشريفاتية، تمثل خدمة ذات مرتبة رفيعة لا محالة، أكثر مما تمثل وظيفة هامة من وظائف الدولة، ولذلك فقد أُسْنِدَت إلى أربعة خدم في نفس الوقت، كما أشار إلى ذلك ابن عذاري.

ولكننا إذا تابعنا المدة الطويلة التي قضاها جعفر بن علي في خدمة الخلفاء، لاحظنا أن لقب حاجب الذي لم تكن له في العادة أي صلاحية

---

(95) نفس المصدر، ص 307

(96) إسبانيا الإسلامية، 18/3 وما بعدها، وانظر بالخصوص دائرة المعارف الإسلامية (2) ص 47 - 51 (الحاجب).

(97) سيرة جعفر، المصدر المذكور، ص 317 - 318 [انظر أيضاً، عيون الأخبار، ص 161].

مضبوطة، يمكن أن يخول صاحبه دوراً استثنائياً يكتسي بالضبط صبغة عسكرية. فقد ظهر جعفر الحاجب أثناء الحملة على أبي يزيد من جملة كبار قواد المنصور. فهو الذي أمره الخليفة بعد استرجاع القيروان بإمامة صلاة الجمعة والإعلان عن إسقاط الجباية على أهل إفريقية(98). وهو أيضاً الذي عهد إليه المنصور بحراسة أبي يزيد لما جُرِح ووقع في الأسر(99).

ويُعَدّ جعفر الصعلوك الذي يحمل هو أيضاً لقب حاجب من بين كبار قواد الجيش في عهد المهدي. فهو الذي قاد في سنة 925 الحملة العسكرية الناجحة على قلورية واستولى فيها على مدينة واري(100).

ويبدو هكذا أن الحاجب الفاطمي الذي كان يشغل أهم خطة موكولة إلى أفراد حاشية الخليفة قد اقتصر ـ خلافاً لما تكتسيه الحجابة من صبغة خاصة في الدولة الأموية بالأندلس في نفس تلك الفترة ـ على القيام بدور ثانوي ومنزلي عادي، أي دور «القهرمان»(101). ذلك أن اللقب الذي يحمله قد بقي لقباً شرفياً لا يتطابق مع أي عمل محدد، ولا يقابل من باب أولى وأحرى أي وظيفة إدارية مضبوطة في دولةٍ يمارس فيها الخليفة جميع السلطات بنفسه.

6 ـ نشأة الوزارة:

لم تبرز حينئذٍ أي هيئة ولا أي شخص من ذوي الاعتبار من بين أفراد حاشية الخليفة، للتخفيف من سلطته المطلقة والتدخل بصورة فعالة في شؤون الدولة، حين أمسك الخليفة الفاطمي الأول بزمام الحكم في رقادة. إلا أن طريقة سير المصالح الإدارية الموروثة عن العهد الأغلبي قد ظلت ـ والحق يقال ـ في شكل بسيط للغاية وبالتالي لم تكن تستدعي سوى مد يد المساعدة من

(98) **عيون الأخبار**، ص 378 - 379.

(99) ابن حماد، ص 36 - 36.

(100) انظر الباب الثاني من القسم الأول: المهدي وبيزنطة، الغارات الفاطمية في قلورية.

(101) **إسبانيا الإسلامية**، 18/3 - 19 صلاحيات الحاجب

قبل أعوان تنفيذ بسطاء وموظفين مأمورين لا يملك أي واحد منهم من النفوذ ما يمكنه من تجاوز سلطة الخليفة ومشاركته في اتخاذ القرارات.

وقد حاول الداعي أبو عبد الله أن يقوم إلى جانب المهدي بالدور المتمثل في تجاوز سلطة الخليفة إلى حد يسمح له باتخاذ القرارات باسمه والإشراف على دواليب الدولة. وفي الجملة كان هذا الدور يتمثل في خطة «وزير التفويض»[102] تلك الخطة التي طالب الداعي بتوليها، . مع التمتع بجميع السلطات حين اقترح على الإمام أن يملك ولا يحكم. إلا أن فشل المؤامرة التي دبرها الداعي وأنصاره قد أفضت إلى تدعيم سلطة المهدي المطلقة. فأصبح هذا الأخير منذ ذلك الحين الخليفة الماسك وحده بزمام السلطة بإرادة الله، دون أن يكون مضطراً إلى تفويض سلطاته، لا كلياً ولا جزئياً - إلى واحد من أصحاب الرتب العالية التابعين لشخصية، أي إلى شخصية تكون بمثابة الوزير المدعو إلى ممارسة السلطة التنفيذية الحقيقية بعد الخليفة، وتسيير شؤون المملكة بصورة مباشرة.

وهكذا فقد كان الانقلاب الفاشل الذي قامت به الكتلة الكتامية في مستهل عهد المهدي يمثل العنصر الأساسي الذي سيحول بلا شك دون ظهور خطة الوزارة في الفترة الإفريقية من العهد الفاطمي. على أن إفريقية لم يتوفر لديها لا الجهاز الإداري ولا البشري الذي يمكن أن يبرر إنشاء وزارة في شكل مؤسسة ذات هياكل منظمة على غرار المؤسسة التي ستُبعَث فيما بعد في مصر[103]. فلم تكن مختلف المصالح العمومية لا متطوّرة ولا متخصصة بشكل واضح، حيث لم تتجاوز المملكة الفاطمية في أول عهدها حدود إقليم من أقاليم الخلافة

---

(102) «وزير التفويض» حسب تسمية الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» مقابل «وزير التنفيذ».

(103) حول تطور خطة الوزارة الفاطمية في مصر، انظر دائرة المعارف الإسلامية (2) ص 877 - 878 (الفاطميون). وحول تطور نفس المؤسسة في الدولة العباسية، انظر: D. Sourdel، الوزارة العباسية من سنة 749 إلى 836، الجزء الأول، وبالخصوص الجزء الثاني، ص 615 - 648: صلاحيات الوزير.

العباسية.ويبدو أن الوزارة قد ظهرت قبل ذلك في العصر الأغلبي، ولكن بصورة متقطعة ومرتبطة ببروز أشخاص من ذوي النفوذ، استحوذوا على دواليب الإدارة في فترات الاضطراب وادعوا الوزارة. إلا أن هذه الخطة ذاتها قد كانت موزعة عملياً بين أصحاب مختلف الدواوين. وبناءً على ذلك اقتصر دور الداعي لما استقر في رقادة بعد فتحها على إقرار المسؤولين السابقين في مناصبهم ليتمكن من السيطرة على الإدارة[104]. ولم يَرَ المهدي الذي أشرك ولي عهده ـ كما أسلفنا ـ في ممارسة السلطة أي داعٍ طوال مدة حكمه لانتداب أعوان مبجلين ومُكَافَئين، أو بالخصوص مستشارينَ رسميين ليقوموا مقام الخليفة في اضطلاعه بمهامه. كما اجتنب خلفاؤه الذين حرصوا على القيام بأنفسهم بجميع الأعمال المناطة بعهدتهم، تفويض سلطاتهم الملكية كلياً أو جزئياً إلى أحد كبار الموظفين من ذوي النفوذ، ومنحه صلاحيات ورتبة وزير. إلا أن تطور الدولة الفاطمية السريع وازدياد قوتها بالرغم من تعرضها لثورة الخوارج، بالإضافة إلى تعقد المهام الإدارية أكثر فأكثر، كل ذلك سيفرض على الخليفة الرابع ضرورة الاستعانة بفنيين محنكين للاضطلاع ببعض المهام الإدارية، وعلى وجه الخصوص السهر على تنظيم المالية. وسيعتمد المعز على كفاءة ابن كلس الذائع الصيت الذي سيكون أول وزير فاطمي في مصر بعدما أدى خدمات في إفريقية دون أن يتمتع لا بصلاحيات ولا بلقب وزير[105].

وهكذا فقد توفرت جميع الشروط، لا سيما في عصر المعز، لإحداث خطة الوزارة التي وُزِّعت مهامها بين مختلف المصالح العمومية. وستنتهي الفترة الإفريقية دون أن تظهر هذه المؤسسة للوجود، وسيفضل آخر الخلفاء الفاطميين في إفريقية مواصلة حكم البلاد بنفسه والاستغناء عن خدمات وزير، رغم ثقل الأعباء الملقاة على عاتقه. وسوف يقتصر على غرار والده وجده على

---

(104) انظر الباب الثاني من القسم الأول: الإجراءات الحكومية التي اتخذها الداعي.

(105) وفيات، 332/2، دائرة المعارف الإسلامية (1)، ص 422 ـ 423 (ابن كلس) و (2) ص 877 - 878 و 879 - 880 (الفاطميون).

الاعتماد بوجه خاص على أحد عبيده الصقالبة الخصي جوذر، لتمكينه من الاطلاع على مقاصده، ومساعدته على إدارة المملكة، وربط الصلة بين القصر ومختلف المصالح الإدارية، كما كان الشأن من قبل، والإسهام، في تسيير شؤون الدولة.

وستتفوق شيئاً فشيئاً مهام هذا الخادم الرسمية التي ستكتسي أهمية أكبر فأكبر منذ عهد القائم، على مهام سائر الموظفين، وسينتهي به الأمر إلى القيام بدور بارز يساوي دور الوزير(106). وسنتناول بالدرس فيما يلي هذا الدور، حتى يتسنى لنا توضيح ظروف نشأة الوزارة في إفريقية.

على أن جوذر قد سبق له أن برز خلال مدة المهدي في خدمة ولي العهد القائم الذي «استخلفه على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله»، لما خرج من المهدية سنة 910/218 للقيام بحملة عسكرية في المغرب. ولما آلت إليه الخلافة بعد وفاة المهدي، «صرف إليه النظر في بيت المال وخزائن البز والكساء»(107).

فبدأ جوذر حينئذٍ حياته الإدارية في بيت المال حيث خولته المهام السامية التي اضطلع بها بوصفه «ناظر بيت المال» احتلال مكانة مرموقة في البلاط. ذلك أن المهام المالية التي تحتل أعلى درجة في دواليب الدولة المنظمة والعتيدة التي ورثها القائم، من شأنها أن تسمح لصاحبها، إذا كان خادماً مخلصاً وعلى غاية من الكفاءة، بأن يتبوّأ المرتبة الأولى في الجهاز الإداري(108).

وستبرز هذه الترقية التي نالها ناظر القصر السابق المتمرن بلا شك على التصرف في الشؤون الإدارية والمالية من خلال المهمة الخاصة التي سيضطلع

---

(106) سيرة جوذر، مقدمة الترجمة الفرنسية، ص 10 - 11.

(107) نفس المصدر، ص 39.

(108) نفس المصدر، مقدمة الترجمة الفرنسية ص 11.

بها منذ ذلك الحين في قصر الخليفة الذي «جعله سفيراً بينه وبين أوليائه وسائر عبيده»[109].

وتذكرنا طبيعة هذه المهمة بتعريف المصنفات النظرية لخطة الوزير. ذلك أن مفهوم «السفارة» أو «الوزارة» مترتّب على مفهوم لفظ «المعاونة» أو «النيابة» الكامن في لفظ «الوزير» ذاته. وتتمثل مهمة «وزير التنفيذ» الأساسية، بوصفه عضد الخليفة الأيمن في ربط الصلة بينه وبين المسؤولين عن مختلف دواوين الإدارة المدنية والعسكرية[110].

وبحكم خصوصية وظيفته التي تجعله على اتصال دائم بالخليفة وتمنحه حق التقدم على سائر رجال الدولة، ظهر جوذر في مظهر الوزير. إلا أن دور الوساطة الذي كان يقوم به بين بقية كبار رجال الدولة يشبه إلى حد كبير دور «الحاجب». ذلك أن أصحاب مختلف المراتب الوزارية في المملكة الأموية بالأندلس كانوا في نفس تلك الفترة يتصلون أثناء قيامهم بمهامهم بواسطة ذلك الموظف السامي[111].

ولكن يبدو أن خطة «السفارة» التي أنشأها الخليفة الفاطمي الثاني لم تكن مطابقة وقتئذٍ لخطة إدارية بعينها. بل يبدو أنها تعني امتيازاً خاصاً في البلاط يسمح لصاحبه بأن يتبوأ أسمى رتبة من الرتب التي يتقلدها خدم الخليفة. لكنها ما لبثت أن تطورت بسرعة لتصبح، بفضل بعض الظروف الاستثنائية، أعلى خطة في الدولة، حتى أصبح صاحبها فجأة على رأس البلاد إثر وفاة القائم ورحيل ابنه وخليفته المنصور الذي كتم خبر وفاة أبيه، للقيام بحملة عسكرية على أبي

---

(109) نفس المصدر، ص 39.

(110) انظر حول معنى «السفير» حسب المفهوم الشيعي، وحول «السفارة» بمعنى «الوزارة» أو «الوساطة»، نفس المصدر، الترجمة الفرنسية، ص 52، الهامش 33. وانظر حول «المعاونة» و «النيابة» مقدمة ابن خلدون، ص 236 - 237. وحول مفهوم «الوساطة» ووزارة «التنفيذ»، انظر الأحكام السلطانية للماوردي، ص 23، 25 - 26.

(111) المقدمة، ص 23، إسبانيا الإسلامية، 19/3 - 20.

يزيد. «وقد استخلف جوذر على دار الملك وسائر البلاد وأعطاه مفاتيح خزائن بيت المال. وجعل إليه الحل والربط في جميع الأمور»(112).

ويتعلق الأمر إذن بتفويض السلطة، طبقاً للأصول الواجبة، إلى الأستاذ جوذر الذي ارتقى إلى أعلى رتبة إلى جانب وليّ العهد ـ حيث كتم المنصور كما أسلفنا خبر وفاة أبيه ـ وأصبح يقوم عملياً بدور «وزير التفويض». ويدل التكريم الذي حظي به عند رجوع المنصور على ما أصبح يحتله منذ ذلك الحين من مكانة مرموقة في البلاط. فقد عتقه الخليفة وسماه «بمولى أمير المؤمنين»، وأمره بتصدير الوثائق الرسمية بهذه العبارات: «من جوذر مولى أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان». وأنفذ إليه بعد ذلك بأن يثبت في الطراز «من أعمال العبيد الرقامين بالذهب»، وكذلك في البُسُط والحُصُر: «مما عُمِل على يدي جوذر مولى أمير المؤمنين بالمهدية المرضية». كما أمره بأن لا يقدم في الكتابات على اسمه اسماً إلا اسم ولي العهد المعز.

ولما رجع المنصور إلى المهدية أكرم جوذر «وكساه في الوقت خُلَعاً كان أعدها له وحمله على فرس أبلق... وقوده بين يديه مراكب أخرى بسروج ثقيلة. فلما وصل إلى قصره وحضر الطعام، أمره بالجلوس معه على المائدة»(113).

فهل يتطابق مثل هذا التكريم وهذه المكانة المرموقة التي لا تختلف كثيراً عن مكانة الوزير، مع تحمل مسؤوليات حقيقية ومحددة؟ إنه لمن الصعب أن نرسم، حسب المعطيات المتوفرة لدينا، ملامح هذه الخطة السامية التي يبدو أن صاحبها لا يزال يتمتع بسلطات واسعة بما فيه الكفاية: فهو مكلف بمراقبة «أهل القصر»، ولا سيما أقارب الخليفة من «بني عمومته وإخوته، وذلك «لمنعه إياهم

---

(112) عيون الأخبار، ص 350 حيث يعتبر «الحل والعقد والربط» بمثابته «التنفيذ» حسب التعريف الذي حدده الماوردي، انظر أيضاً سيرة جوذر، ص 44.

(113) سيرة جوذر، ص 52 - 53.

الانتهاك وحرصه على سلامتهم ونفي العار عنهم. . . ومنع التجار المخالطة بهم»[114]، ومكلف أيضاً بالسهر على حفظ الأمن والنظام في البلاد ومراقبة المصالح الإدارية العمومية ونشاط «العمال بالنواحي»[115].

ولكن هذه الصلاحيات لا تمثل مؤسسة منظمة ودائمة. ذلك أن جوذر قد جُرِّد من المهام التي عهد بها إليه مخدومه بصورة وقتية، إثر رجوع هذا الأخير إلى إفريقية بعد انتصاره على أبي يزيد وانتصابه في مقر إقامته الجديد بالمنصورية. وتبعاً لذلك فقد خفف جوذر من مراقبة «أهل القصر» وأمسك عن معاقبة مثيري الشغب، «فاضطرب البلد وكثر المفسدون وقُطِعت السُّبُل، لأن العمال بالنواحي لا يريدون مَنْ ينظر فيما تقلدوا أمره من الأعمال. . .».

وقد عاب عليه الخليفة تهاونه بعبارات تكشف عما كانت تكتسيه المهمة الملقاة على عاتقه من صبغة وقتية، إذ قال له: «أو ظننت إني جعلتك وكيلاً على باب القصر»؟[116] فما هي بالضبط المهام المناطة بعهدة جوذر أثناء إقامته بالمهدية التي لم تحل بعد المنصورية محلها بوصفها عاصمة المملكة؟ وهل كان متقلداً لسلطة فعلية عليه أن يمارسها بصورة دائمة؟ ورغم تفويض السلطة إليه لفترة معينة تنتهي برجوع الخليفة، فقد احتفظ جوذر بمهامه في المهدية التي كان يشرف عليها بحرية مطلقة، وكان المنصور قد حثه على حفظ الأمن فيها بحزم وصرامة، قائلاً له: «ما هكذا والله يكون الضبط! ولا شيء يكون في المهدية كلها وفي كافة ما حولك من الأعمال مثقال ذرة إلا وأنت تعرفه وتُعنى به وتحكم فيه»[117].

ويتضح من ذلك أن مهام جوذر كانت تتعلق بالأمن العام، حيث فوض إليها الخليفة جميع السلطات للإشراف على الشرطة في المهدية ونواحيها. ولكن

---

(114) نفس المصدر، ص 63 - 69.

(115) نفس المصدر، وبالخصوص، ص 70.

(116) المصدر المذكور.

(117) نفس المصدر، ص 70.

يبدو أن نفوذه في هذا الميدان لا يمتد إلى سائر الأقاليم، إذ أن مهام الأمن قد أنيطت بلا شك بعهدة العمال بالنواحي. فكان جوذر يضطلع حينئذٍ في المهدية بمهمة «مدير الأمن»، إن صح التعبير، ويظهر بمظهر «صاحب المدينة» الذي يمارس في آنٍ واحد السلطة القضائية الإدارية والسلطة الأمنية(118).

وإثر اعتلاء المعز العرش، تطورت سلطة جوذر تطوراً سريعاً واتخذت شكل مؤسسة منظمة ودائمة. فبعدما استخلف على المهدية نُصَير الصقلبي، بادر بالتحول إلى المنصورية للالتحاق بالخليفة الجديد الذي «أسكنه عنده في دار البحر داخل قصره المبارك حسب ما جرت عادته من السكنى مع مواليه»(119). ومنذ ذلك الحين اتضحت ملامح مهمته، حيث تم تثبيت دوره «كسفير» في شكل ديوان مركزي مكلف بالتنسيق والإشراف على سائر المصالح العمومية وربط الصلة بينها وبين القصر. وتتمثل تلك المهمة في «تجميع» التقارير والمطالب الصادرة عن كبار الموظفين وإبلاغها إلى الخليفة الذي كان يجيب عليها في شكل «توقيعات» تتضمن قراراته أو نصائحه أو أوامره. فيتكفل جوذر بإحالتها على أصحابها والسهر على تنفيذها. وقد وصف كاتبه ومؤلف سيرته أبو علي المنصور العزيزي الجوذري بصورة ملموسة المهمة المناطة بعهدة مخدومه، قائلاً بالخصوص: «كان الأستاذ يُخْرِج من كتب (المراسلين) فصولا فيها ما يحتاج الاستئمار عليه ويدع بين كل فصلَيْن بياضاً في الدرج، فيخرُج الجواب بخط الإمام المعز لدين الله تحت كل فصل بما يعمل عليه، وما زال العمل على ذلك إلى أن رحل إلى المشرق»(120).

ورغم أن هذه المهمة تذكرنا في مظهرها الفني بمهمة صاحب ديوان الرسائل، فإن المصلحة التي كان يشرف عليها جوذر تختلف عن مصلحة

---

(118) انظر حول تلك الصلاحيات بالأندلس في نفس تلك الفترة، إسبانيا الإسلامية، ص 158 - 159.

(119) سيرة جوذر، ص 86.

(120) نفس المصدر، ص 87.

«الكتابة» التي كانت تعمل ـ كما سنرى ـ بصورة موازية ومستقلة. فلم يكن كبار الموظفين مطالبين بمخاطبة الخليفة بواسطة جوذر، إذ يجوز لهم مراسلته بصورة مباشرة، وكثيراً ما كانوا يوجهون في نفس الوقت رسائل مماثلة إلى جوذر ليعرضوا عليه نفس القضية.

فقد كان جوذر في الأصل ناظر وقهرمان القصر، ثم أصبح شيئاً فشيئاً أكبر موظف في البلاط، يتمتع برتبة وزير بجميع امتيازاته واختصاصاته. وبوصفه الخادم المفضل، فقد كان يحظى برعاية الخليفة ومودته. وكان هذا الأخير يقدره حق قدره ويبوح له بأسراره ويعبر له عما يكنه له من رعاية وعطف[121]. وكان يغدق عليه نِعَمَه، وكثيراً ما يقيم الأدلة على ما يخصه به من تبجيل وتكريم.

إلا أن هذا الخادم المخلص الأمين الذي كان يساعد الخليفة على تصريف شؤون الدولة، لم يكن مؤهلاً لاتخاذ أي قرار. وإذا ما تجاسر على إبداء رأي وتقديم اقتراح أو نصيحة، فإنه يفعل ذلك بأقصى ما يمكن من الحذر، ولا يتصرف إلا بعد استشارة مولاه، مقتصراً على تنفيذ أوامره. ورغم قوة نفوذه، فقد استمر جوذر إلى آخر رمق من حياته يقوم بدور «عون التنفيذ». ذلك أن الخليفة، بالرغم من ثِقَل الحمل الذي تفرضه عليه مهامه المتعددة، وتشعب أعباء الدولة أكثر فأكثر، لم يتخل عن أي اختصاص من اختصاصات الحكم الفردي إلى أن انتهت الفترة الإفريقية من الخلافة الفاطمية.

7 ـ الإدارة المركزية:

أ ـ ديوان الرسائل والكتابة:

تكتسي الإدارة الفاطمية صبغة مُمَرْكزة إلى أبعد حد، ومُعقَّدة شيئاً ما، في ظل دولة يمارس فيها رئيسها السلطة السياسية بنفسه ـ كما أسلفنا ـ ويستعين

(121) نفس المصدر، وبالخصوص ص 99: «وكان الأستاذ جوذر متحرزاً جداً لا يحكم صغيرة ولا كبيرة إلا بعد مطالعة واستئمار».

بأعوانٍ يقتصر دورهم على التنفيذ لا غير، للسهر على حسن سير المصالح العمومية. وقد زود المهدي هذه الدولة منذ قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية بالدواليب اللازمة لممارسة السلطة المدنية والتصرف في الشؤون المالية. ولم تتطور الإدارة الفاطمية تطوراً كبيراً حتى آخر الفترة الإفريقية، رغم عظمة الدولة في عهد المعز. وبما أنها لم تتسم وقتئذٍ بما ستتميز به فيما بعد في مصر من ضخامة وتعقد مفرط، فقد بدت عليها مظاهر النشاط، وسارت سيراً طبيعياً بإشراف ثلة من الموظفين الأكفاء الذين انتُدِبوا من بين أشد الأعوان تحمساً وإخلاصاً لمخدومهم.

وكان مقر هذه الإدارة التي كانت تحمل اسماً معروفاً أيضاً في قرطبة في نفس ذلك العصر، وهو «الخدمة»[122]، وتشتمل على عدة مكاتب تسمى الدواوين»، في «دار الملك» أو «الحضرة العلية»[123]. وبعدما استعمل المهدي الدواوين الأغلبية التي كانت موجودة في رقادة والقيروان بالقرب من الجامع الأعظم، بنى محلات للإدارة المركزية في عاصمته الجديدة المهدية، قريباً من قصره، وعلى الأرجح داخل المبنى المعروف «بدار المحاسبات»[124]، كما بنى محلات أخرى في مدينة المنصورية التي ستصبح بدورها عاصمة المملكة في أيام المنصور ثم المعز[125].

وكان يعمل في تلك الدواوين عدد كبير من الكتاب الذين يتم انتدابهم بعد الحصول على موافقه الخليفة، ويتقاضون جرايات أو «أرزاقاً» بحسب نِسَب متغيرة «تعرف» بالرسوم»، على قدر مراتبهم في سلم الوظيفة. وكان الخليفة هو الذي يقدر كفاءتهم، ويرى لزاماً عليه، ترحماً على أرواح المتوفين منهم، أن

---

(122) نفس المصدر ص 86 و 117، انظر «خدمة الخليفة»، في إسبانيا الإسلامية، 22/3.

(123) دار الملك = المنصوريّة، سيرة جوذر، ص 84 و 139 و «الحضرة العلية» = المهدية، نفس المصدر، ص 50.

(124) جورج مارسي، الهندسة المعمارية، ص 78.

(125) وهي بلا شك مباني «ديوان المنصورية» المشار إليها في سيرة جوذر، ص 116 حول «دار الإمارة».

يوفر لهم الكفن ويعين أبناءهم في مناصبهم، إن اقتضى الحال[126].

ومن بين المصالح المركزية، يبدو أن «ديوان الرسائل» في إفريقية الفاطمية لم يشهد نفس ما اكتساه ذلك الديوان ذاته من أهمية وإشعاع في الأندلس مثلاً، في عهد الأمويين[127]. فلم يشتهر أي موظف من موظفي «ديوان الرسائل» بخطة الكتابة الباهرة ولم يُضْفِ أي واحد منهم على فن الترسل ذلك الرونق الذي سيكتسبه بعد ذلك بقرن مع كتاب ذائعي الصيت أمثال علي بن أبي الرجال وابن رشيق وابن شرف[128].

ومع ذلك يبدو أن أول من مارس خطة الكتابة في مستهل عهد المهدي وحمل اللقب المقابل لتلك الخطة، قد حظي في عصره بشهرة واسعة، وأنه يُعرَف أكثر بكنيته «أبو اليسر»، وبلقبه «الرياضي»، وهو إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي المسؤول عن «ديوان الرسائل» في العصر الأغلبي. وقد بادر إلى الالتحاق بخدمة أصحاب البلاد الجُدُد ورافق الداعي - كما أسلفنا - لما زحف على سجلماسة لتخليص المهدي. فما إن تسلم هذا الأخير مقاليد الحكم في رقادة حتى أقره في منصبه[129]. وكما يتجلى ذلك من التراجم التي خُصِّصَت لأبي اليسر، فإن شخصيته لم تكن تخلو من رونق. ذلك أن هذا الأديب البغدادي الأصل الذي غادر مسقط رأسه بالمشرق مثل الكثيرين من أبناء جلدته في اتجاه المغرب، طلباً للرزق، قد ارتحل في أول الأمر إلى الأندلس، ولما صرفه الأمير محمد الأول استقر به المقام في إفريقية حيث دخل في خدمة

---

(126) انظر حول توفير الكفن لمتوظف أدركته المنية، نفس المصدر ص 103 و 116. رسوم = جمع رسم أي رزق، رغم أن الرزق مخصص لجرايات الجنود، وقد ذكرت الرسوم مع الوظائف. وانظر على وجه العموم المعلومات المتعلقة بالكتاب ونشاط ديوان الرسائل، سيرة جوذر، ص 113: خلف الكاتب، ص 119: نظيف الريحاني ص 120: صالح بن بهرام. ص 5: الرقاع يحررها الخليفة والرسائل يضعها الكاتب.

(127) إسبانيا الإسلامية، 22/3 - 29.

(128) انظر الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، الجزء الثاني.

(129) انظر الباب الثاني من القسم الأول، الفصل الثالث الحملة على سجلماسة.

إبراهيم الثاني الذي كان قد أنشأ معهداً للثقافة والعلوم سماه «بيت الحكمة»، على غرار المؤسسة البغدادية الشهيرة التي بعثها الخليفة العباسي المأمون[130]. ولم يلبث أبو اليسر المذكور أن قام بدور بارز في ذلك المركز الثقافي الذي سرعان ما تألق. وقد ألف هذا الشاعر والناثر مصنفات أدبية ولغوية وكتباً في الحديث والتفسير. وهو الذي أدخل بلا شك إلى إفريقية دواوين الشعر وكتب الأدب الرائجة عهدئذٍ في العراق. «وأدخل وسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم»[131].

وإثر وفاة أبي اليسر، عهد المهدي بديوان الرسائل إلى كاتب آخر من أصل بغدادي، وهو أبو جعفر محمد بن أحمد الهارون البغدادي الذي هاجر إلى المغرب بعدما طارده الوزير العباسي ابن عيسى، فتحول إلى سجلماسة حيث كانت تقيم جالية بغدادية كثيرة العدد، لما كان المهدي مقيماً بتلك المدينة، فضمه هذا الأخير إلى حاشيته وقبل بيعته وأوفده إلى الأندلس لبث الدعوة بلا شك، وأوصاه بالالتحاق به في إفريقية عندما ينتهي الداعي أبو عبد الله من فتحها[132]. وفي رقادة كان البغدادي أكبر مناصر للمهدي أثناء المؤامرة التي دبرها الداعي وأخوه أبو العباس، وبعض شيوخ كتامة. فقدم إلى الخليفة مساعدة رجل متبصر وحازم وصاحب خبرة سياسية واسعة. وقد تم تعيين هذا الكاتب الذكي والفصيح والمثقف ثقافة واسعة على رأس «ديوان الرسائل»، فقام بمهمته على أكمل وجه ممكن. وقد أهلته فضائله وإخلاصه ليصبح في أقرب وقت أقوى الشخصيات نفوذاً في حاشية المهدي الذي أضاف إلى مهامه مهمة «صاحب البريد»، فاضطلع بها إلى أن أدركته المنية في عهد الخليفة الفاطمي الثالث إسماعيل المنصور[133].

(130) انظر حول بيت الحكمة، دائرة المعارف الإسلامية (1)، ص 1175.

(131) انظر، حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، 244/1 - 246 والبيان، 63/1.

(132) البيان، 163/1 وقد جاء فيه أن البغدادي دخل الأندلس في عهد الأمير عبد الله. وحول إقامته في سجلماسة بجوار المهدي والدخول في خدمته، انظر، سيرة جعفر، ص 320 - 321.

(133) البيان 169/1 وقد جاء فيه أن البغدادي احتفظ بوظيفته إلى أن أدركته المنية. وبما أن الذي تولى =

وعندئذٍ آل «ديوان الرسائل» إلى فاتح مصر المقبل القائد جوهر الذي سيبقى على رأسه في عهد المعز. وكان قد ساهم قبل ذلك في الحملة العسكرية على أبي يزيد، وكلفه المنصور بتحرير الوثائق الرسمية وإبلاغها إلى جميع «الآفاق»(134). وما إن رجع المنصور إلى إفريقية حتى عينه على رأس «ديوان الرسائل» الذي أنشىء مع دواوين أخرى في المنصورية عاصمة الخليفة الجديدة ومقر إقامته. ولكن ليست لدينا سوى بعض المعلومات الهزيلة حول سير هذه المصلحة. وعلى وجه العموم كان الخليفة يبلغ ديوان الرسائل تعليماته وأجوبته على التقارير والمطالب الصادرة عن موظفي الدولة في شكل «توقيعات» مكتوبة بخط يده. وانطلاقاً من تلك التوقيعات الموجزة يحرر رئيس ديوان الرسائل المكاتيب الرسمية ويوجهها إلى أصحابها في المصالح العمومية بالعاصمة وفي سائر مدن المملكة. وكانت مهمة جوهر الأساسية ـ كما أثبتت ذلك بعض المعطيات الواردة في **سيرة جوذر**(135) **والمجالس والمسايرات**(136) ـ تتمثل في تحرير أوامر «العهد» وقرارات التعيين و «مناشير» إقطاع الأراضي، وسائر «الكتب» و «السجلات» على اختلاف أنواعها.

والجدير بالملاحظة أن هذه الاختصاصات الفنية الخالصة تختلف عن اختصاصات جوذر الذي كان ـ كما أسلفنا ـ يقوم بدور «المُرسِل» على رأس ديوان آخر مماثل. ذلك أن جوهر المسؤول الرسمي عن «ديوان الرسائل» وعن

= هذه الوظيفة من بعده هو جوهر في عهد المنصور، يمكن أن نستنتج من ذلك أنه توفي في عهد هذا الخليفة.

(134) **سيرة جوذر**، ص 51 - 110.

(135) نفس المصدر، ص 99: استعمال لفظ «منشور» وص 95: استعمال لفظ «السجل» و «الكتاب»، وص 24: استعمال لفظ «التوقيع» بخط القائم. وص 72: استعمال لفظ «التوقيع» بخط المهدي.

انظر **افتتاح الدعوة**، الفقرة 265، وقد جاء فيها خروج أول «توقيع» من ديوان الرسائل في عهد المهدي.

(136) **المجالس**، ص 348 وقد ورد فيها ذكر ديوان الرسائل في عهد المنصور مع استعمال عبارة «عهد».

المراسلات العادية المتبادلة بين الخليفة وبين كبار موظفي الإدارة المركزية والإقليميـة، وعن تحرير الوثائق الرسمية المترتبة على ذلك، قد كان يتمتع بسلطة إدارية دائمة. وكان الدور البارز الذي يقوم به بوصفه «من كبار رجال الدولة» يؤهله للاضطلاع بمهام أخرى ذات طابع مدني أو عسكري، كثيراً ما يعوض بعضها البعض. من ذلك أنه دُعي أيضاً إلى تنظيم إدارة المالية ثم قيادة الجيش[137].

هذا وإن الرسائل القليلة التي وصلتنا تدعونا إلى الاعتقاد أن فن الترسل الذي سيزدهر في مصر، كما تشهد على ذلك **السجلات المستنصرية**[138]، لم يتطور بما فيه الكفاية في إفريقية، وإن قواعده لم تُضبَط ضبطاً مدققاً، كما تدل على ذلك أساليب بعض الكتاب المصريين مثل ابن خَيْران أو شيرازي[139] من ذلك أن استعمال «العلامة» في إفريقية» بخط اليد الشريفة النبوية» لم يكن ثابتاً[140]. كما أن الحمدلة (الحمد لله رب العالمين)[141] التي كانت

(137) انظر حول صلاحيات جوذر على رأس ديوان مماثل، هو «ديوان التوقيع»، سيرة جوذر، مقدمة الترجمة الفرنسية، ص 10 - 11. وقد تم تكليف جوهر بالإشراف على إدارة المال قبل تكليفه بقيادة الحملة على مصر، نفس المصدر ص 118. وحول ترجمة هذا القائد الفاطمي، انظر دائرة المعارف الإسلامية (2)، ص 507 - 508 (جوهر الصقلي).

(138) انظر مراسلات الإمام المستنصر، تحقيق ماجد، ص 23 - 24.

(139) حول ابن خيران، انظر بالخصوص كامل حسين، **في أدب مصر الفاطمية**، ص، 323 - 325. وحول شيرازي (المؤيد في الدين هبة الله)، نفس المرجع، ص 326 - 328، وانظر ترجمته التي نشرها كامل حسين بعنوان، سيرة المؤيد في الدين، داعي الدعاة، المعروفة أكثر «بالسيرة المؤيدية».

(140) لم يرد ذكر العلامة بالصيغة الواردة في مراسلات المستنصر في الوثائق الرسمية المشار إليها في **سيرة جوذر أو المجالس أو افتتاح الدعوة**. ويرجع تاريخ ظهورها بلا شك إلى الفترة المصرية مع انبعاث فن الترسل بعد عهد المعز الذي يمثل الفترة الانتقالية بين المرحلة الإفريقية والمرحلة المصرية من تطور مؤسسات الدولة.

(141) كان الفاطميون في إفريقية مولعين باستعمال الحمدلة في مراسلاتهم الرسمية، وكانوا يختمون بها دعاءهم كما أثبت ذلك ابن حماد، ص 11، «وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين». ونجد البسملة متبوعة بالحمدلة في افتتاح الدعوة، الفقرة 228، أو بعد «أما بعد» في نفس =

تتصدررسائل المستنصر بعد البسملة ـ وقد عرفها المقريزي بعلامة الخليفة ـ قد وردت أيضاً في بعض الوثائق الإفريقية. كما وردت صيغة أخرى للحمدلة في إحدى الرسائل التي وجهها القائم إلى الكتاميين «وإلى من يليهم»، أثناء حصار أبي يزيد لمدينة المهدية، لحثهم على الجهاد وإرسال الإمدادات، حيث أضاف إلى الحمدلة عبارة «والعاقبة للمتقين»[142] وفي المقابل كانت البسملة موجودة في جميع الوثائق التي نعرفها، ووردت أيضاً في أول وثيقة حُرِّرت بأمر من المهدي غداة دخوله إلى رقادة، وكانت متبوعة بالعبارة التالية: «وبه نستعين»[143]. كما استهل المنصور بنفس الطريقة رسالة الانتصار التي أملاها على جوهر ووجهها إلى عامله بالمنصورية قدام، من معسكره بجبل كيانة الذي انتصر فيه على أبي يزيد قبل ذلك بقليل[144].

وكانت جميع الوثائق الرسمية تُستَهَل بذكر اسم الخليفة ولقبه واتصاله بالنسب العلوي إن اقتضى الحال مع الإكثار من المديح والدعاء والعبارات ذات الصبغة العامة، والإشارة إلى النظريات المذهبية والاستشهاد بالآيات القرآنية والمبادىء العامة للعقيدة الإسماعيلية. وتدل الصيغة المُتقَنة وغير المزخرفة لذلك الأسلوب المفخم الذي يتمسك به الكتاب المحترفون، على ما يتسم به تحرير الرسائل من طرافة وعفوية تظهران في الخطب الرائعة التي كان يرتجلها الخليفة المنصور المشهور بفصاحته[145].

وكما تدل على ذلك التوقيعات والرسائلوالخطب العديدة الواردة في سيرة

= المصدر، الفقرات 253، 263، 267. كما نجد في سيرة جوذر، ص 45، «ولله الحمد، الحمد لله» في أول الخطبة، وفي نفس المصدر، ص 55 «الحمد لله حمدَ شاكرٍ لأَنْعُمِهِ»، وفي المصدر ذاته ص 56 «الحمد لله رب العالمين».

(142) عيون الأخبار، ص 303.

(143) افتتاح، الفقرة 166.

(144) عيون الأخبار، ص 397.

(145) لا سيما الخطبة التي ألقاها المنصور لإظهار وفاة القائم، سيرة جوذر، ص 55 - 60.

جوذر أو **مجالس القاضي النعمان** أو كتاب الداعي إدريس، **عيون الأخبار**[146]، والتي كان تحريرها يستوجب معرفة المذهب الإسماعيلي معرفة جيدة، بالإضافة إلـى ثقافة واسعة ومتينة، فإن المراسلات الفاطمية الرسمية ـ بالنسبة إلى بعضها على الأقل ـ كانت بخط الخلفاء ذاتهم. من ذلك أن المعز قد كان حريصاً على الإجابة بنفسه على الرسائل التي ترد عليه من المشرق والمغرب[147]. وقد كان هذا الخليفة المثقف والمُولَع بالكتب والمحب للعلوم والفنون، يقوم بنشاط مكثف ويميل إلى مساعدة قاضيه ومترجم حياته النعمان على تأليف كتبه[148]. وكان أبوه المنصور الكاتب والشاعر والخطيب المِصْقَع، مُولَعا بالكتب والعلم، فقد كانت كتبه وكتب آبائه الأيمة تُعَد من أنفس المصنفات[149]. ولم يكن ينقص لا القائم ولا المهدي الولوع بالثقافة. فلما غادر هذا الأخير سلمية على عَجَل في اتجاه المغرب، أخرج معه كتباً كثيرة تحتوي على شتى العلوم[150].

فلا غرابة حينئذٍ إذا ما أولى مثل هؤلاء الخلفاء المتعلقين بالثقافة والحريصين على الاضطلاع بمهامهم بأنفسهم، عناية شخصية إلى ديوان الرسائل. وستكون رسائلهم الرسمية وخطبهم مثالاً يحتذى خلال الفترة التي ستبلغ فيها الأسرة الحاكمة الفاطمية ذروة مجدها في مصر، وسيتم تنظيم الدولة على أسس ميتنة، مما سيسمح بتطوير وازدهار فن الترسل على أحسن ما يرام.

---

(146) **عيون الأخبار**، المصدر المذكور، أملى المنصور بنفسه نص رسالته. وفي **سيرة جوذر**، ص 24 «توقيع بخط القائم بأمر الله»، وص 51 «رقعة بخط المنصور بالله»، وص 72 «بخط يده». وكان المعز يرجع جميع الرقاع التي يوجهها إليه جوذر مع الجواب على ظهر كل رقعة بخط الخليفة ذاته، انظر مثلاً **سيرة جوذر**، ص 98، «الجواب على ظهر الرقعة بخطه». وفي **المجالس والمسايرات** أملى المعز على الكاتب الكتاب الموجّـه إلى امبراطور الروم.

(147) **سيرة جوذر**، مقدمة الترجمة الفرنسية، ص 17.

(148) **المجالس**، ص 117 - 118، 134، 357 وما بعدها، 360 وما بعدها.

(149) **سيرة جوذر**، ص 55.

(150) انظر، Chambellan، **سيرة جعفر**، ص 215.

ب ـ ديوان البريد وديوان الكشف:

يبدو أن ديوان البريد[151] المعد لتبليغ المراسلات المتبادلة بين العاصمة ومختلف نواحي المملكة، كان ملحقاً بديوان الرسائل باعتباره ديواناً إضافياً في صلب الإدارة المركزية.

وقد استأنف ديوان البريد الأغلبي نشاطه عند تولية المهدي الذي عهد به إلى موظف سابق من كبار موظفي زيادة الله الثالث، وهو عبد الله بن محمد بن القديم المكلف أيضاً بإدارة ديوان الخراج[152]. ولكنه قُتِل حوالي سنة 912/299 بعد ما بقي مختفياً برهة من الزمن، لمشاركته في المؤامرة التي دبرها أنصار الداعي. فانتقل البريد عندئذٍ إلى البغدادي الذي سيبقى على رأسه حتى وفاته[153].

فهذا الشخص الذي كان يحظى بثقة المهدي، وورث ـ حسب رواية جعفر الحاجب ـ جميع المصالح التي كانت في عهدة ابن القديم، وكلف بإدارة جميع الدواوين والشؤون المالية[154] ـ وقد سبق أن أشرنا إلى ما قام به من دور بارز في فشل المؤامرة المذكورة[155] ـ كان يشرف أيضاً منذ مستهل سنة 911/298 على ديوان جديد أنشأه المهدي لما علم بالمؤامرة التي كانت تُحاك ضده، وهو «ديوان الكشف» (عبارة عن مكتب مخابرات) المُعَدّ للقيام بدور «الشرطة السرية» والمطابق لبعض اختصاصات «صاحب البريد». ومما لا شك فيه أن دور البغدادي كان يتمثل في أول الأمر في مراقبة المتآمرين وجمع المعلومات حول أنشطتهم التخريبية، وضبط الإجراءات اللازمة لإحباط مؤامرتهم، مع الخليفة. وبعد قمع المؤامرة وكف أذى المتآمرين، اقتصر دوره منذ ذلك الحين على

---

(151) انظر حول هذه المؤسسة، دائرة المعارف الإسلامية (1)، ص 1077 - 1078 (البريد).

(152) افتتاح، الفقرات 239، 275، 285.

(153) البيان، 167/1 - 169.

(154) سيرة جوذر، ص 320.

(155) انظر الفصل الثالث من الباب الثالث (القسم الأول): مؤامرة الداعي وأخيه أبي العباس.

الاستخبار حول موقف أهل البلاد من النظام الجديد الذي من شأن مذهبه أن يثير لا محالة ردود فعل حادة، لا سيما من قِبَل الفقهاء والصالحين المتمسكين بالمذهب السنّي المالكي. وقد وُضِع تحت سلطته عدد كبير من «أصحاب الخبر» (أعوان المخابرات) المتمثل دورهم في التثبت في القيروان وفي سائر مراكز الأعمال من احترام الناس للشعائر الدينية المستحدثة منذ أن فتح الداعي أبو عبد الله إفريقية، والوشاية بالعصاة الذين كان القاضي أو العامل يتكفل بمعاقبتهم عقاباً شديداً. وقد أطنب أصحاب «الطبقات» في وصف ما تعرضوا له من عذاب[156].

إلا أن البغدادي، ذلك المستشار المطلع على حقيقة الأمور، قد كان يعمل ـ كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات ـ على التخفيف من حماس القاضي الشيعي المَرْوَرُوذي وعامل القيروان ابن أبي خنزير، واقتراح سياسة متسامحة أكثر تجاه المتمسكين بمذهب أهل السنّة[157].

فكان البغدادي المسؤول عن «ديوان الكشف»، يضطلع حينئذٍ بمهام «صاحب خبر السلطان»، تلك المهام التي كانت في الشرق الإسلامي حكراً على «صاحب البريد» القوي النفوذ[158]. ومما لا شك فيه أن مهمة «الخبر» كانت مماثلة لمهمة «الكشف» وأن ديوان الكشف كان مندمجاً في «ديوان البريد» اعتباراً من سنة 913/300، تحت سلطة نفس الموظف السامي، أي البغدادي.

فكيف تطورت هذه المؤسسة بعد وفاة هذا المسؤول الكبير؟ في الحقيقة ليست لدينا حول هذا السؤال سوى بعض المعلومات الهزيلة. إلا أن بعض المعطيات الواردة في سيرة جوذر، تكفي لإقامة الدليل على أن المراقبة السياسية

(156) رياض النفوس، في مواضع مختلفة، وطبقات أبي العرب ص 233 - 230، وبالخصوص ص 232 حيث ورد ذكر صاحب الخبر. انظر شهادة أخرى في مناقب أبي إسحاق الجبنياني، ص 230.

(157) طبقات، المصدر المذكور ص 239.

(158) دائرة المعارف الإسلامية (البريد)، الفصل المذكور.

لم تفتر في أيام المنصور والمعز، وأن مصلحة المخابرات السرية قد ظلت قائمة الذات في المملكة الفاطمية. ويبدو أن هذه الاختصاصات الهامة قد آلت إلى جوذر الذي كان باستطاعته مراقبة «الفرانق» (السُّعاة) الذين كانوا يتنقلون ذهاباً وإياباً بين المنصورية والمهدية وسائر مراكز الأعمال، وحجز أي مراسلة مشبوه فيها بين «أهل القصر» الذين كانوا يتآمرون ضد الخليفة. فكان يطلع على الشائعات المغرضة التي يروجها بعضهم في المهدية ويحيط الخليفة علماً بها[159]. وعلى الأرجح كان أعوان المخابرات التابعون للإدارة المركزية في جميع نواحي البلاد يعملون تحت سلطته. «فقد كان بالمسيلة رجل يُدعى عثمان بن أمين اتصل بالأستاذ (جوذر) عنه أنه يكاتب بني أمية وأنهم يرعون ذمامه ويقضون حوائجه وأنه يقدح في الدولة. ولم يكن جعفر بن علي (عامل الزاب) أخذ على يده ولا حجزه عن أمر يوجب الإشارة إليه بذلك، فرفع الأستاذ ما اتصل به من ذلك لأمير المؤمنين. . .». فأجابه المعز بقوله:

«إن هذا الرجل الذي ذُكِر يُوصَف لنا مثل ما بلغك، ويقال إنه له من جعفر أو كد حرمة، وإن ابن رماحة لا يقف له في حاجة ويُعنى بأسبابه ورباعه وأملاكه العناية الوكيدة. فاكتب أنت إلى جعفر كأنك تسأله عن أمره وخبره، وأن ذلك الذي يبلغك من الوقيعة فيه من غير أن تشرح له ما الذي بلغك ليذكر لك هو صورة أمره عنده، فتستدل بقوله على ما عنده»[160].

وحول سير «ديوان البريد» ذاته، ليست لدينا سوى بعض البيانات المبهمة تتمثل في مجرد شهادات حول هذه المؤسسة. ورغم أن هذا الديوان هو بلا شك أقل تعقداً من الدواوين المماثلة الموجودة في المشرق، فإن نظامه لم يكن يختلف كثيراً عن النظام الذي ورثه بنو أمية في دمشق عن فارس وبيزنطة، وإن هذا النظام القائم الذات في كثير من الأقطار الإسلامية يكتسي صبغة بدائية أو

(159) سيرة جوذر، ص 99 - 100، 105 - 106.

(160) نفس المصدر، ص 123 - 124.

متطورة بصورة تزيد أو تنقص[161]. ولعل الرُّسُل كانوا يركبون البغال والجمال، ولكن عندما يتعلق الأمر بأخبار مستعجلة كانوا يستعملون الحمام الزاجل. ولدينا حول طريقة الإبلاغ الأخيرة (الحمام الزاجل) التي كانت مستعملة من قبل في العصر الأغلبي، شهادتان معبرتان[162]. وحسب الشهادة الأولى، تلقى المهدي في بداية عهده وهو في رقادة، بواسطة الحمام الزاجل القادم من طرابلس، خبر مقتل القائد الكتامي أبي زاكي الذي كان يتآمر مع الداعي.

أما الشهادة الثانية فيرجع عهدها إلى الفترة التي حاصر فيها أبو يزيد في القيروان خليلاً قائد القائم بأمر الله. فحرر خليل الذي انحصر في داره بالقيروان كتاباً إلى القائم، «وعلق الكتاب على حمام وأطلقه إلى المهدية. فطار الحمام قليلاً ثم صار إلى نخلة الدار فنزل عليها. ثم كتب رقعة أخرى وأرسل بها حماماً آخر، فطار قليلاً ورجع فوقع على الدار»[163].

---

(161) ورد ذكر «الفرنق» أو «الفرانق» في سيرة جوذر، ثلاث مرات. ص. 99، 116 و 125.

(162) البيان، 164/1 وعيون الأخبار، ص 186 - 182، الهامش 62. وحول استعمال المهدي للحمام الزاجل في سلمية، انظر، سيرة جعفر، المصدر المذكور، ص 285.

(163)عيون الأخبار، ص 286.

الفصـل الثانـي

النظـام الإقليمـي

1 ـ التقسيـم الإداري:

إن الخليفة الفاطمي الأول الذي ورث مملكة تنعم بالهدوء منذ عهد بعيد، والنظام والاستقرار، يستطيع، لكي يشرف بدوره على حظوظها، أن يستبقي النظام السابق، ويقر إلى جانب المصالح المركزية النظام الإقليمي الذي اختبره أسلافه الأغالبة بما فيه الكفاية، منذ أن تمكنوا من فرض اتجاه الدولة نحو المركزية والوحدة، على الطوائف القبلية وفِرَق الجند.

على أننا لا نعلم شيئاً كثيراً عن هذا النظام الإقليمي، اللهم إلا بعض المعلومات القليلة المستقاة من كتب التراجم والرحلات، والتي تسمح لنا بتقديم لمحة عامة حول هذا الموضوع، وتسليط بعض الأضواء على التقسيم الإداري للبلاد، وعلى صلاحيات العمال ودور الإدارة الإقليمية داخل النظام العام.

ومن بين المصطلحات الفنية المستعملة لتعيين الأقسام الترابية للملكة نجد عبارتين فقط لهما قيمة إدارية ثابتة، وهما عبارتا «الكورة» و« العمل» المستعملتان للإشارة إلى الدائرة الإقليمية الخاضعة لسلطة العامل[1]. وهناك مصطلحان آخران «البلد» و «الطرف» (جمع أطراف) لهما مدلول جغرافي، يطلق الأول على منطقة ممتدة الأطراف مثل الزاب، ويطلق الثاني على المناطق

---

(1) ورد ذكر عبارة «عمل» في سيرة جوذر ص. 69 و افتتاح الدعوة الفقرة 274. وورد ذكر «الكورة» في المجالس، ص 533 وطبقات أبي العرب، ص 142.

الخارجة عن المركز والواقعة في تخوم البلاد[2]. أما المصطلح الأخير وهو «الناحية»، فقد ورد ذكره في **المجالس والمسايرات** بصُورة دقيقة عند الحديث عن إقليم الزاب[3]. ويبدو أنه يعني قسماً من مقاطعة كبيرة يديره أيضاً عامل، ولعله يقابل المصطلح الشرقي «الرستاق»[4].

2 ـ المقاطعات الإقليمية:

لقد وصف الرحالة السوري المقدسي الذي زار بعض نواحي المغرب في العصر الذي يهمنا[5]، «الأقليم» السادس من العالم الإسلامي وهو المغرب. فبدأ بتقسيم هذه البلاد إلى سبع كُوَر، وهي برقة وإفريقية وتاهرت وسجلماسة وفاس والسوس الأقصى وصقلية[6]. وقد استعمل في هذا المقام عبارة «كورة» بمفهوم عام، إذ أن هذا التقسيم يكتسي صبغة جغرافية خالصة وينطبق على الأقاليم الكبرى التابعة للدولة الفاطمية، ولو أن أقاليم السوس وفاس وسجلماسة لم تعترف بالسلطة الفاطمية إلا بصورة متقطعة. على أن العرض الذي قدمه بعد ذلك لسرد أسماء المدن الرئيسية وبعض مقاطعات إفريقية لا يتطابق تماماً مع التقسيم الإداري للبلاد. وحتى لو جمعنا المعلومات المقدمة مع المعطيات الإضافية التي أوردها جغرافيان آخران من ذوي المعلومات الثابتة، وهما ابن حوقل والبكري، بالإضافة إلى البيانات الواردة في كتب التراجم، لما كان ذلك كافياً لضبط قائمة كاملة بأسماء المقاطعات الإقليمية[7].

---

(2) وردت عبارة «بَلَد» في افتتاح، الفقرة 274 وسيرة جوذر ص 94، 130. ووردت عبارة «أطراف» مرادف «آفاق» في سيرة جوذر ص 51 و المجالس، ص 251.

(3) المجالس، ص 496 وافتتاح الدعوة، الفقرة 274.

(4) انظر Miquel، الفقرة 19، الهامش 51 وفي مواضع مختلفة.

(5) انظر المقدسي، تحقيق Pellat، المقدمة ص 8 - 9 والنص ص 4. إلا أن المؤلف قد اعترف بأنه لم يزر الأندلس، وبالعكس من ذلك تجوّل في بعض نواحي المغرب، ولكن لا يمكننا تعريفها بدقة.

(6) نفس المصدر، ص 5/4.

(7) المصدر المذكور، 4 - 5/10 - 11.

3 ـ بلاد إفريقية :

وعلى هذا الأساس فإننا لا نستطيع إلا بصورة تقريبية وضع خريطة إدارية لإفريقية المقسمة إلى كُوَر محددة بكل دقة. فينبغي أن نضع في وسط هذا الرسم البياني كورة رئيسية هي كورة **القيروان**، حيث انتقلت عاصمة المملكة على التوالي إلى **رقادة** ثم **المهدية** ثم **المنصورية**. وتحد القيروان من الجهة الغربية ثلاث كور تمتد من الشمال إلى الجنوب، وهي **الأربس** (لاراس أو لاريبوس في القديم)[8]، و**سبيبة** (سوفيس أو سوفوبيس في القديم)[9]. و**قمودة** (تاكامودا في القديم)[10] التي يبدو أن قاعدتها قد تحولت في حدود القرن العاشر ميلادي من مذكور إلى جمـونس الصابون. وقد كانت هذه الكورة الأخيرة ملاصقة لكورة **قفصة** (كبسة في القديم) التي تمتد من الجهة الجنوبية الغربية إلى كورة **قسطيلية**، وقاعدتها **توزر** (توزوروس في القديم)[11]. وتتطابق منطقة الساحل، أي الواجهة البحرية لإفريقية الوسطى، مع كورتين كبيرتين، هما كورة **سوسة** (حضرموت في القديم) وكورة **صفاقس** (تبرورة في القديم)[12]. وفي القسم الجنوبي من المملكة توجد على الشريط الساحلي كورة **قابس** (تاكاباس في القديم)[13]، ثم كورة **طرابلس** التي تحدها كورة **برقة** الواقعة في تخوم التراب الإفريقية على الطريق المفضية إلى مصـر[14]. أما القسم الشمالي من المملكة الواقع على جانبَيْ وادي مجردة والممتد إلى شاطىء البحر، فهو مقسم إلى أربع كُوَر ممتدة من الغرب إلى الشرق، وهي كُـوَر **باجة** (فاقة في القديم)، مَطْمَر

---

(8) **افتتاح**، الفقرة 28.

(9) نفس المصدر، الفقرة 219.

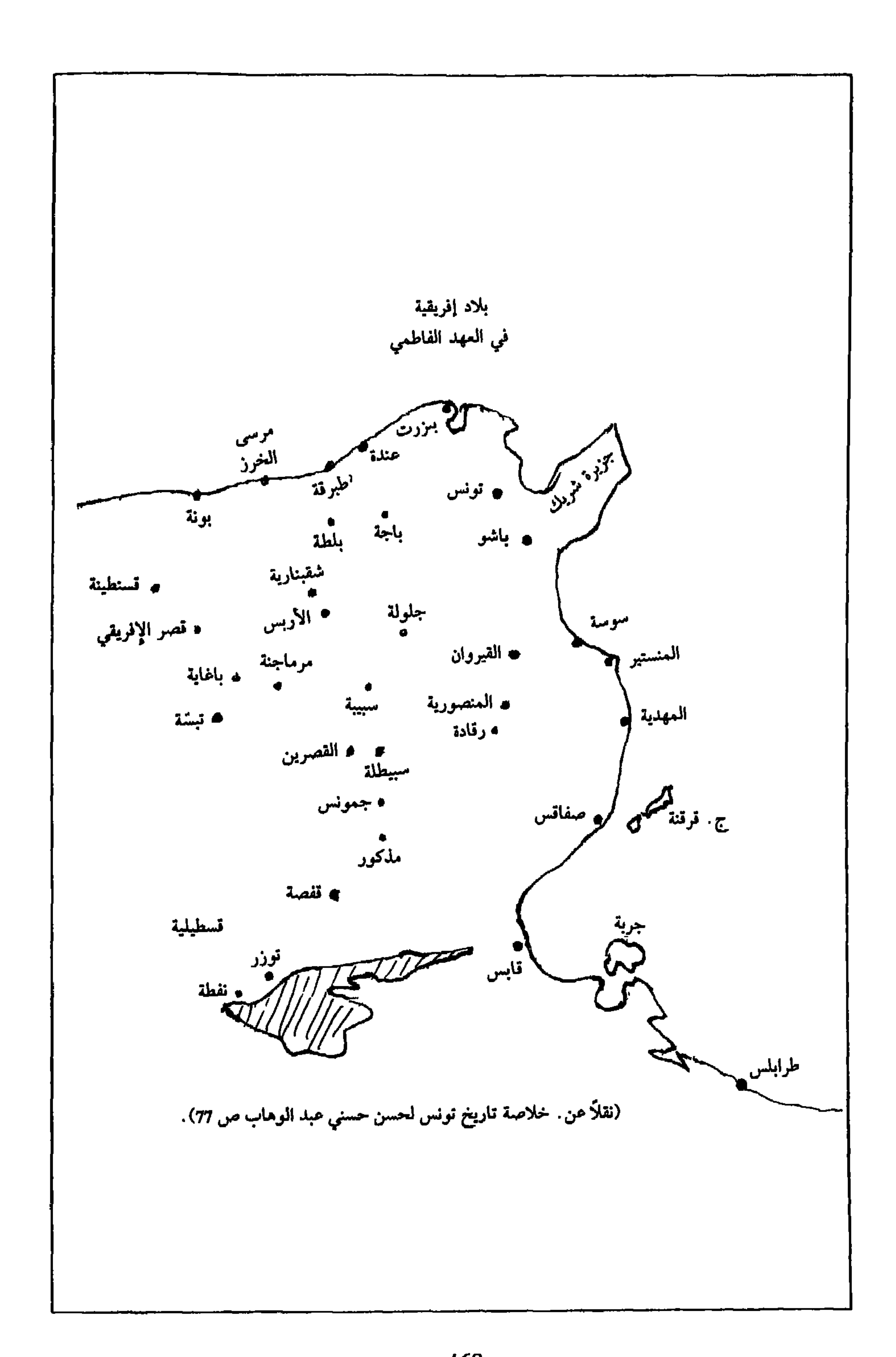
(10) المصدر المذكور، الفقرة 211.

(11) نفس المصدر، الفقرة 38.

(12) نفس المصدر، الفقرة 214، بالنسبة إلى سوسة. وانظر الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية** (الترجمة العربية)، 46/2 - 49 بالنسبة إلى سوسة، و 60/2 - 61 بالنسبة إلى صفاقس.

(13) **الدولة الصنهاجية**، 63/2 - 66.

(14) نفس المرجع، 67/2 - 70.



(نقلاً عن. خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ص 77).

البلاد[15]، وصطفورة (وقاعدتها بنزرت، هيبودياريتوس في القديم)[16]، وتونس وجزيرة شريك (الوطن القبلي في هذا الزمان)، وقاعدتها منزل باشو، وهي تشتمل حسب المقدسي على اثنتي عشرة دائرة[17].

4 ـ المغرب الأوسط:

تغطي الكور الخمس عشرة السالفة الذكر القسم الشرقي من المملكة الفاطمية، وهو القسم الذي يسميه القاضي النعمان «بلاد إفريقية»، ويطابق على سبيل التقريب المقاطعات الثلاث التي كانت موجودة في العصر اللاتيني القديم[18]. أما النصف الآخر المطابق للمناطق الجبلية الغربية والذي يسميه النعمان «بلاد القبائل»، فهو يغطي أراضي نوميديا القديمة وينقسم إلى كُوَر، أهمها كورة **الزاب** التي تحتوي على عدة نواحٍ (جمع ناحية)، وقاعدتها **المسيلة**. وأما الكُوَر الأخرى فيُطلَق على كل واحدة منها اسم قاعدتها أو أهم مركز من مراكزها الإقليمية المحصنة. فنجد أولاً في الجهة الغربية كورة **الأربس** الواقعة في منطقة التل الأعلى الجبلية حيث يجري نهر ملاق ونهر مسكيانة، ثم كورة مرماجنة وكورة **مسكيانة** (وقاعدتها مسكيانة)[19]. ونجد في الجهة الغربية كورة تبسة (تيفيست في القديم)[20] المتاخمة لكورتَيْ **قمودة وقفصة**، والملاصقة من الجهة الغربية في سفح جبل أوراس لكورة **باغاية** (باغاي في القديم)[21]. ونجد

(15) نفس المرجع، 40/2 [والمطمر هو مكان لخزن الحبوب].

(16) نفس المرجع، 39/2.

(17) المقدسي، تحقيق Pellat، ص 21/20. وحول باشو انظر، حسن حسني عبد الوهاب، مدن عربية انقرضت، ص 1 - 15. وحول جزيرة شريك انظر، **الدولة الصنهاجية**، 42/2 - 45. ودائرة المعارف الإسلامية 538/2 - 539.

(18) **افتتاح**، الفقرة 167، انظر الملاحظات الحصيفة حول فترة متقدمة شيئاً ما، أي القرن الثامن الميلاد، هشام جعيط، **ولاية إفريقية، في مجلة ستودي إسلاميكا عدد 28**، ص 93 - 98 وبالخصوص ص 97 - 98، قائمة الدوائر الإدارية في عصر الولاة.

(19) **افتتاح**، الفقرة 196.

(20) نفس المصدر، الفقرة 190.

(21) نفس المصدر، الفقرة 64.

بعد ذلك في الجهة الشمالية كورة **قصر الإفريقي** وكورة **تيفاش** (تيباسة في القديم)[22]. وتشتمل كل من منطقة الهضاب العليا في ناحية قسنطينة ومنطقة القبائل الصغرى غلى كورة واحدة على أقل تقدير. أما مناطق المغرب الأوسط الممتدة الأطراف، فهي تابعة، باستثناء إقطاعات بني زيري الصنهاجيين[23]. لعاصمة بني رستم السياسية تاهرت التي أصبحت قاعدة أبعد إقليم هام يقع غربي المملكة الفاطمية[24]. ونجد بعد تاهرت العاصمتين الكبيرتين فاس وسجلماسة، ويحكم كل واحدة منهما عامل باسم الفاطميين عندما تكون تابعة للسلطة الفاطمية[25].

وأخيراً تتكوّن جزيرة صقلية من مقاطعة كبيرة منفصلة يحكمها عامل فاطمي يقيم في قاعدتها الإقليمية بلرم[26].

5 ـ عمال النواحي:

لقد ولى الخليفة الفاطمي الأول على أعمال إفريقية «وجوه رجال كتامة»، حسب القاضي النعمان، إلا أن هناك أسباباً سياسية سبق أن أشرنا إليها قد دعته إلى وضع بعض كبار الموظفين العرب على رأس أعمال القيروان وصقلية والزاب[27]. وتتمثل القاعدة التي اتبعها الفاطميون في إدارة الأعمال في «الاستكفاء»[28]، أي تمكين العمال من التمتع بسلطات مطلقة. فباعتبارهم

---

(22) نفس المصدر، الفقرة 192.

(23) وحول إقطاعات بني زيري في العهد الفاطمي بالمغرب، انظر، **الدولة الصنهاجية**، 37/1 - 39.

(24) دائرة المعارف الإسلامية 640/2 - 641 (تاهرت).

(25) نفس المرجع، 419/4 - 421 (سجلماسة) و 76/4 - 85 (فاس).

(26) نفس المرجع، 414/4 وما بعدها (صقلية) وانظر بالخصوص أماري، **تاريخ المسلمين في صقلية**، ابتداء من الباب الرابع، ص 148وما بعدها.

(27) افتتاح، الفقرة 274، وحول ابن أبي خنزير في القيروان وبني حمدون في المسيلة وابن أبي خنزير في صقلية في عهد المهدي، وأخيراً بني الكلبي ابتداء من مستهل عهد المنصور، انظر الباب الثاني من القسم الأول حول ولاية المهدي: تنظيم الدولة الشيعية.

(28) سيرة جوذر، النص العربي، ص 129: «ولما تطاول العمل إلى الزيادة على جعفر بن علي في =

الممثلين الشخصيين للخليفة كانوا يمارسون باسمه السلطة المطلقة في الأقاليم الموكولة إليهم، ويتصرفون بكامل الحرية في القوات المسلحة المتمركزة في قاعدة منطقتهم. وقد كانت الصلاحيات العسكرية والقضائية والمالية والدينية الواسعة النطاق التي يتمتعون بها تلقي على عاتقهم مهمة أساسية مزدوجة تتمثل في حفظ النظام وجمع الضرائب. وكان بعض العمال يمارسون سلطات مطلقة إلى حد أنهم يظهرون في مظهر نواب الخليفة، أمثال بني حمدون في الزاب وبني الكلبي في صقلية.

وكانت المملكة الفاطمية لا تعرف نظام «لزمة» الضرائب (الضمان) باستثناء كورة برقة التي أُعطِيَت لزمة ضرائبها لبعض الجُباة على الأرجح في مستهل عهد المعز. وكان العمّال يديرون شؤون أقاليمهم «بالأمانة» على حد تعبير ابن حوقل[29]. وبما أنهم كانوا غير مُلزَمين بأن يدفعوا مسبقاً مبلغاً معلوماً لخزينة الدولة، فقد كانوا يقتطعون من مداخيل الكُوَر السنوية جميع المصاريف العمومية (كأجور الموظفين المحليين وجرايات الجنود المقيمين في المقاطعة وغير ذلك من النفقات الإدارية)، ولا يسددون حينئذٍ إلا الفارق الذي يمثل بالفعل إيرادات الجباية[30]. وهكذا فقد كان هذا النظام الإداري الاستقلالي يسمح للعمال بالتمتع بمزية كبرى تتمثل في عدم دفع الأموال الطائلة التي كان عليهم تسديدها لو كان نظام لزمة الجباية مطبقاً في أعمالهم، مما يشجع على تجاوز السلطات ويحث أعوان الجباية على المبالغة في الاندفاع للحصول على مبالغ باهظة من دافعي الضرائب لتغطية النفقات الإدارية وتسديد فارق لا يستهان به إلى الخزينة. ويبدو أن هذه الضرائب التي كثيراً ما نددت بها مصادرنا السنية

= عمله، وكان مستكفياً بلا عقد...»، والترجمة الفرنسية، ص 197 الهامش 435. وانظر نظرية الماوردي حول التمييز بين «إمامة الاستكفاء» و «إمامة الاستيلاء»، **الأحكام السلطانية**، ص 32 - 34.

(29) ابن حوقل، ص 94، وسيرة جوذر، المصدر المذكور.

(30) **الأحكام السلطانية**، ص 31.

قد أثقلت كواهل أهل البلاد في أيام المهدي والقائم وساعدت إلى حد كبير على تعزيز قضية المتمردين الخوارج[31]. وتبعاً لذلك أظهر المعز يقظة كبيرة تجاه العمال الذين كان يطالبهم بالإخلاص التام للدولة، ولا يقبل منهم ارتكاب أي ضرب من ضروب المظالم. فقد روى القاضي النعمان بأطناب أقواله ذات المغازي، وما كان يلذ له التعبير عنه من أفكار وملاحظات أخلاقية عند ما يخاطب العمال، مشيراً إلى أهمية خطتهم وما تفرضه عليهم من واجبات والى الخصال التي يجب عليهم التحلي بها[32]. كما ألح النعمان مراراً وتكراراً في «**مجالسه**» على نصائح العطف والرفق التي كان المعز حريصاً على تقديمها إلى العمال سواء مشافهة أو في قالب تعليمات مكتوبة. وعندما تتاح له الفرصة للتنويه بحماسهم وعزمهم وقدرتهم على الاقتصاد في النفقات، لا يفوته الإشادة بما يتسمون به من فضائل الرحمة والعدل، وحثهم على معاملة منظوريهم برفق ومجاملة[33].

وعندما يتعرض أهل البلاد الذين أرهقتهم الابتزازات، لتجاوزات السلطة، يوجهون شكاياتهم إلى الخليفة في شكل عرائض، أو بواسطة الوفود التي كان المعز يستقبلها بقصره في موكب رسمي. وبعدما يأمر بأجراء التحقيقات اللازمة لإثبات صحة اتهاماتهم، يندد بالمظالم المرتكبة ويدين التجاوزات التي يسرع إلى قمعها. وحالما تثبت التهمة الموجهة إلى عامل من عمال النواحي لاقترافه بعض المفاسد، لا يتردد، في إقالته من وظيفته[34]. إلا أن التجاوزات تتسبب أحياناً في حدوث اضطرابات، فتبدو إجراءات العطف والتهدئة غير ناجعة، وعندئذٍ يضطر الخليفة إلى توجيه الجنود إلى مناطق الاضطراب لإرجاع الأمن إلى نصابه[35].

(31) جورج مارسي، **بلاد البربر الإسلامية**، ص 142 - 147.

(32) **المجالس**، ص 334 وما بعدها، وص 496 وما بعدها، وص 526 وما بعدها.

(33) نفس المصدر، ص 275 وما بعدها، وص 494 وما بعدها وص 533 - 534.

(34) نفس المصدر، ص 251.

(35) سيرة جوذر، ص 89 - 91، وص 93 - 94.

6 ـ حرص المعز على ردّ المظالم:

لدينا عدة شهادات ـ وليس هناك أي داعٍ إلى الشك في صحتها ـ حول حرص المعز الدائم على بسط سلطته على مملكته بأسرها، مع استبعاد أي مظهر من مظاهر الجبروت. ويبدو أن آخر الخلفاء الفاطميين في إفريقية الذي كان يقوم بمراقبة مشددة على نشاط عماله، ويزور أحياناً الأقاليم لمعاينة الوضع على عين المكان، قد كان مدركاً أتم الإدارك للمهمة السامية التي اختاره الله للاضطلاع بها، أي مهمة الحكم بالعدل ونشر محاسنه بين رعاياه. فقد أجاب جوذر الذي أحاطه علماً بتجاوزات بعض العمال، قائلاً له بالخصوص:

«. . . وقد علم الله أنا لا نرضى بهذا الظلم والعدوان في أحدٍ من أهل طاعتنا. . . فإذا أطلقنا على أنفسنا القبيح وبغضنا أنفسنا إلى الناس وتعرضنا لمقت الله جل وعز، فقد بلغناهم آمالهم فينا، ومعاذ الله ألا يكون سرنا في أمة استرعاناها الله إلا كأفضل ما تكون عليه علانيتنا. . .»[36].

ولا غرو أن من شأن مثل هذه السياسة الرشيدة أن يكون لها أطيب الأثر لدى العمال، مما يضمن حسن سير الإدارة الإقليمية في ظل مملكةٍ بدأت تنهض من ويلات الحرب. ومما لا شك فيه أن الدولة الفاطمية مدينة بالاستقرار والثراء اللذين ساهما في تعزيزها في عهد المعز لدين الله، إلى حسن سير إدارتها الإقليمية.

---

(36) نفس المصدر، ص 114.

الباب الثاني

النظام المالي

الفصل الأول

بيت المال

1 ـ المصالح المالية في عهد المهدي:

في مطلع القرن العاشر من الميلاد، وفي الوقت الذي تسلم فيه الإمام الإسماعيلي المهدي مقاليد الحكم في رقادة، وأعلن عن قيام الخلافة الفاطمية، يبدو النظام المالي للدولة الجديدة من خلال البيانات التي يمكننا استيقاؤها من المصادر المتوفرة لدينا، في شكل نظام بسيط نسبياً.

ذلك أن الخليفة الفاطمي الأول قد اقتصر، كما أسلفنا، على إعادة تشغيل دواليب الإدارة الأغلبية، وإقرار بعض الموظفين السابقين الذين أظهروا مقدرتهم في خدمة الأمراء الأغالبة، في مناصبهم. من ذلك أنه «أمر باقتضاء واجب الأموال، وكان ديوان الخراج قد أُحْرِق لما هرب زيادة الله، فأمر به فأُحْيِيَ»[1]. وولى عليه أحق الموظفين بالاضطلاع بتلك المهمة، ألا وهو صاحب الخراج السابق أبو القاسم عبد الله بن القديم.

وفضلاً عن الدواوين الأربعة التي كانت تابعة لإدارة المال المركزية، يوجد ديوان آخر لا يقل أهمية عن ديوان الخراج، وهو ديوان السكة، وقد وليّ عليه نفس الموظف الذي كان على رأسه في عهد آخر أمراء بني الأغلب، وهو

(1) افتتاح الدعوة، الفقرة 275، والبيان، 159/1.

أبو بكر بن القمودي المعروف أكثر بلقب الفيلسوف[2].

أما الديوانان الأخيران فقد عهد بهما المهدي إلى موظفين جديدين، فولى على بيت المال الخادم الصقلبي أبا جعفر الخزري الذي كان في خدمته منذ عهد بعيدورافق حرمه من سلمية إلى طرابلس، وانتظر هناك، قبل التحول إلى القيروان، أن يفتح الداعي أبو عبد الله إفريقية وأن يُطلِق سراح الإمام في سجلماسة ويعتلي عرش الأمراء المخلوعين في رقادة[3]. وولى على ديوان العطاء الكتامي البربري عبدون بن حباسة، «وأمره بإثبات الموالي وأبناء العبيد فيه، ومن سارع إلى الرزق، واكتتب به، فاجتمع من ذلك عرائس كثيرة»[4].

وهناك ديوان خامس لم يرد ذكره إلا في افتتاح الدعوة، ويبدو أنه قد أُنشىء بصورة مستقلة عن ديوان الخراج. ذلك أن المهدي، حسب رواية النعمان، «قد نصب ديواناً للضياع (الأملاك العقارية) ولأموال الهاربين مع زيادة الله، واستصفى أموالهم[5].

2 ـ نظام بيت المال:

يبدو أن الخليفة الفاطمي الأول هو الذي أنشأ دواليب بيت المال من العدم، حسبما نستنتج ذلك من رواية القاضي النعمان الذي أكد أن المهدي «قد جعل بيتاً للمال وأقام له ديواناً»[6]. وذلك بلا شك بسبب اختلال «بيت المال» الأغلبي إثر هزيمة الأربس وفرار زيادة الله الثالث.

وقد تم نقل بيت المال إلى دار الملك الجديدة، المهدية وتركيزه بلا شك في «دار المحاسبات» مع بقية المصالح المالية «وعُيّن على رأسه جوذر، وعُهِد

---

(2) انظر الباب الثاني من القسم الأول: الإجراءات الحكومية التي اتخذها الداعي.

(3) افتتاح، الفقرة 275 و البيان، 159/1، وسيرة جعفر (Chambellan) مع قراءة «الخزري» عوض «الجزري».

(4) افتتاح، الفقرة 275.

(5) نفس المصدر.

(6) المصدر المذكور.

بإداراته إلى نُصَيْر الصقلبي الذي لُقِّب من أجل ذلك «بالخازن». فلما دُعِي هذا الأخير إلى الاضطلاع بمهام عامل على المهدية عوضاً عن جوذر الذي استدعاه المعز إلى المنصورية، عُيِّن مكانه صقلبي آخر، وهو نظيف المعروف بالريحاني، فتولى مهام الخازن في العاصمة القديمة التي أصبحت مصالحها الإدارية تكتسي صبغة محلية بعد تأسيس المنصورية(7). ذلك أن هذه المدينة الجديدة التي أنشأها الخليفة الفاطمي الثالث منذ عهد قريب، في الوقت الذي كانت تدور فيه أحداث المرحلة الثانية من ثورة أبيّ يزيد، قد ارتقت إلى مرتبة «دار الملك»، وأصبحت نتيجة لذلك مقراً للمصالح الإدارية المركزية على حساب المهدية. وبوصفها أيضاً مقر إقامة الخليفة، ولا تبعد كثيراً عن القيروان، على غرار رقادة في عهد آخر أمراء بني الأغلب، فإن المنصورية ما لبثت أن تطورت على حساب جارتها التي كانت تعرف «بمصر إفريقية» أو «قصبتها»(8)، وأصبحت هي أيضاً مدينة كبيرة مزدهرة أكثر فأكثر طوال عهد المعز(9).

3 ـ ديوان المنصورية:

ستشتمل إدارة المال المركزية بالمنصورية منذ ذلك التاريخ على عدة دواليب وستشهد تنظيماً متشعباً أكثر فأكثر، وسيطلق عليه اسم «ديوان المنصورية» الذي يبدو أنه يعني على وجه التحديد مصلحة مركزية تضم مختلف االدواوين المالية على غرار «دار المحاسبات» بالمهدية(10) فهل كان بيت المال الذي أشارت المصادر إلى وجوده في المنصورية، كما كان الشأن قبل ذلك في المهدية، منفصلاً عن ذلك الديوان الذي ربما كان عبارة عن إدارة عامة للجباية تشتمل على عدة مكاتب مختصة؟ إن بعض الوثائق الواردة في سيرة جوذر

(7 سيرة جوذر، ص 39 و 86.

(8) المقدسي، تحقيق Pellat، ص 5/4 و 13/12.

(9) سيرة جوذرد، ص 116.

(10) نفس المصدر.

تدعونا رغم غموضها إلى تصديق هذا الافتراض[11]. والدليل على ذلك أن جوذر كان يشرف على بيت المال بالمنصورية في عهد المعز. وكان قبل ذلك قد اضطلع بنفس المهمة في عهد القائم الذي «صرف إليه النظر في بيت المال»[12]. أما «ديوان المنصورية» فيبدو أنه كان معداً على وجه الخصوص لجمع الأموال المتأتية من إدارة ضياع الخليفة، وبالتالي فهو متطابق ـ على الأقل بالنسبة إلى أحد دواليبه الفرعية ـ مع «ديوان الضياع» الذي أقامه المهدي لما اعتلى العرش. وهكذا كانت إيرادات «الضياع» أو «المنازل» من بين الموارد التي تمول صندوق الخليفة الفاطمي الخاص، وعلى هذا الأساس فهي متطابقة مع أحد دواليب «ديوان المنصورية»، كما تثبت ذلك بعض الوثائق الواردة في سيرة جوذر، ولا سيما منها المتعلقة «بمنازل» المظفر. فقد كان هذا الخادم من أبرز القواد في عهد المعز، وسبق له أن أشرف على تربية هذا الأخير في عهد صباه، ثم اضطلع بمهام عامل على طرابلس، مع تمتعه بسلطة واسعة على سائر المناطق الشرقية من المملكة، من طرابلس إلى برقة. إلا أن المظفر قد أثار غضب الخليفة الذي أمر بقتله مع أحد أبناء جنسه المدعو قيصر. فأصبحت ضياعه بطبيعة الحال ملكاً من أملاك مولاه المعز.

«وقد كان دار النظر في منازل المظفر إلى الأستاذ (جوذر) وكان مالُها ينزل في ديوان المنصورية مفرداً دون الأموال التي كان يجري نظر الأستاذ فيها بالمهدية والنفقه منه على العبيد الذين تحت يده. فاحتاج أن يدخل هذا المال الذي يجري من هذه الضياع في الجملة التي ينفق منها على العبيد.. فكتب في ذلك رقعة (إلى المعز) ورجع إليه الجواب بهذا: اعمل في هذه الضياع بما رأيته واصرف غلاتها فيما احتجت إليه، فالنفس طيبة على كل ما يكون منك»[13].

---

(11) انظر المعطيات المتعلقة بتعريف ونظام بيت المال وأصل الديوان وتطوره في الأقطار الإسلامية وطريقة سيره ودوره في النظام المالي في فصلين هامين من فصول دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة): بيت المال، ص 1176 - 1183 والديوان ص 332 - 339.

(12) سيرة جوذر، ص 39.

(13) نفس المصدر، ص 116.

وفي الجملة يتضح من مختلف البيانات الواردة في مصادرنا لا سيما في سيرة جوذر، أن «الديوان» الذي أثبت تلك المصادر وجوده بالمنصورية دون سواها كان يعني المصلحة المالية التي تضم، تحت سلطة جوذر المضطلع ـ كما أسلفنا ـ بمهام مماثلة لمهام الوزير: «بيت المال» و «دواوين الجباية»، و «خاصية بيت مال» الأيمة، كما هو الشأن بالنسبة إلى خلفاء بني أمية بالأندلس[14].

4 ـ تطوّر المصالح المالية في عهد المعزّ:

قبل بضع سنوات من فتح مصر، أولى المعز عناية شخصية وخاصة إلى إدارة بيت المال، لتوفير الموارد اللازمة لتمويل الحملة[15]. وأخيراً قبل مدة قليلة من توجيه جنوده نحو الفسطاط، استقدم إلى المنصورية حوالي سنة 967 نصير الخادم المشرف على إدارة المهدية وولاه على «الديوان» مكان جوهر الذي أوفده إلى الأقاليم الغربية لجمع «المال والرجال»[16]. وإثر عودته من المغرب الأوسط استأنف القائد المقبل للحملة على مصر نشاطه على رأس المصالح المالية تحت سلطة جوذر. كما وجه الخليفة نصير الخادم إلى طرابلس للاضطلاع بمهام عامل مكلف بالخصوص باقتطاع أموال طائلة من إيرادات ذلك الإقليم لسد حاجات الحملة البحرية التي سيقودها أمير البحر الصقلي أحمد بن الحسن بن الكلبي[17].

ويبدو أن انصراف نصير ثم جوهر قد ادخل خللاً على حسن سير المصالح المالية. مما دعا الخليفة الذي حُرِم من خدمتهما في «ديوان المنصورية» إلى

---

(14) انظر حول دواوين الجباية، دائرة المعارف الإسلامية (عامل) 447/1 - 448 و (بيت المال)، 1176/1 - 1183، و 146/2 - 163 و 392/2 - 393. وانظر حول «خاصية بيت المال» في عهد الدولة الأموية بالأندلس، إسبانيا الإسلامية، 34/3 و 44 - 46.

(15) انظر الباب الخامس من القسم الأول: سياسة المعز الشرقية وفتح مصر.

(16) سيرة جوذر، ص 118 - 119.

(17) نفس المصدر.

الاشتكاء من سوء التصرف في الشؤون المالية إلى حاجبه جوذر، بهذه العبارات المفعمة بالمرارة:

«وإنا كنا استرحنا بعد خروج نصير إلى جوهر، فوجدنا فيه ومعه ما أردناه. فمذ خرج صارت الأشياء مهملة، وركب كل وحش هواه، فلا خزانة ولا حراس، ولا عبيد ولا حال يوقف منها على محبوب»[18].

فيكفي حينئذٍ أن يُدعى بعض الموظفين «المختصين» مثل جوهر أو نصير إلى القيام بمهام أخرى، لتتأثر إدارة المصالح المالية بذلك. وإذا فكرنا في الموارد الغزيرة التي كانت توفرها الضرائب والرسوم، وإيرادات الدكاكين التابعة لأملاك الدولة، والمعاليم الموظفة على التجارة الداخلية والخارجية، أدركنا بسهولة كيف التجأ المعز إلى خدمات الوزير اليهودي الشهير يعقوب بن كلس في إفريقية في أول الأمر، قبل أن يعينه بعد ذلك ببضع سنوات على رأس إدارة المال في مصر، ويردفه بالكتامي عسلوج بن الحسن لمساعدته على القيام بمهمته[19].

إلا أن اختصاصات وصلاحيات هؤلاء الموظفين السامين والكثير من «الخُزّان» لم تكن مُحدَّدة كما ينبغي. وفي المقابل يمكن أن نلاحظ أن هؤلاء جميعاً كانوا من العبيد والموالي ذوي الأصل النصراني، باستثناء بعض الموظفين العرب أو البربر الكتاميين المستخدمين، سواء من أجل خبرتهم بشؤون الدولة بالنسبة إلى الصنف الأول، أو لاعتبارات سياسية بالنسبة إلى الصنف الثاني. فالعبيد والموالي الصقالبة كانوا حينئذٍ يمسكون بمقاليد الجهاز الإداري، كما كان الشأن في نفس تلك الفترة بالأندلس، وكانوا يديرون المصالح المالية، لا سيما في إفريقية[20].

---

(18) المصدر المذكور، ص 119.

(19) دائرة المعارف الإسلامية (ابن كلس)، /422 - 423، ونفس المرجع (الفاطميون)، بالخصوص 877/2 - 879 - انظر حول عسلوج، سيرة جوذر، (مقدمة الترجمة الفرنسية ص 20، والنص العربي ص 139).

الفصـل الثانـي

إيـرادات الإمـام

1 ـ الأداءات الإسماعيلية:

إن النظام المالي الذي كان بسيطاً في عهد المهدي قد تعقد أكثر فأكثر إثر تعزيز الدولة الجديدة المرتكزة على القاعدة المتينة التي اجتهد أمراء بني الأغلب في إقامتها بإفريقية في مدة حكمهم، وذلك كلما ترسخت السياسة التوسعية التي انتهجها الخلفاء الفاطميون لا سيما في عهد المعز. وقد تطابق تعقد ذلك النظام المالي مع تطور الحياة الحضرية وما شهدته البلاد بعد فشل ثورة الخوارج من ازدهار قد وفر للدولة موارد غزيرة. إلا أن الثروة الفريدة من نوعها التي كان يتمتع بها الفاطميون ناشئة إلى حدٍّ ما عن الإيرادات الخارقة للعادة التي كان الأيمة يتحصلون عليها من الطائفة الإسماعيلية. ذلك أن كافة أفراد هذه الطائفة المنتشرين في سائر «الجزائر»[1] التي تشملها الدعوة الفاطمية في جميع أنحاء العالم الإسلامي كان مفروضاً عليهم أداء «أخماس ما يملكون وما يتكسبون» إلى الإمام. ومن هنا جاءت تسمية «الخُمُس» الواردة في كتب الفقه التي وضعها الفقيه الشهير وقاضي المعز لدين الله الفاطمي، أبو حنيفة النعمان[2].

والواقع أن النظرية التي بسطها النعمان في كتابه «دعائم الإسلام» وتأليفه

(1) [قسم الإسماعيلية العالم الإسلامي إلى اثني عشر قسماً، سموا كل واحد منها «جزيرة» (ج. جزائر) وجعلوا على رأس كل جزيرة داعياً. انظر، المجالس، ص 265، الهامش 3].

(2) انظر، دعائم الإسلام، ص 287 - 318: وبالخصوص كتاب الزكاة، ص 297 - 298 و 306 - 310، وكتاب الهمة، ص 66 - 73.

«كتاب الهمة» ترتكز على عادة جارية قبل مدة طويلة من قيام الدولة الفاطمية في إفريقية، وراسخة لدى أتباع المذهب الإسماعيلي طوال مدة الستر، ثم أصبحت منظمة منذ ولاية المهدي. وبطبيعة الحال فإن الدعاة هم الذين كانوا يضطلعون بمهمة جمع محاصيل هذه الضريبة باسم الإمام ثم إبلاغها إلى «دار الهجرة» التي هي بالنسبة إلى قضية الحال عاصمة المملكة الفاطمية المهدية ثم المنصورية(3).

ولكن لا ينبغي الخلط بين «الخُمُس» وبين ضريبة إسماعيلية أخرى هي ضريبة «دينار الهجرة» و «درهم الفطرة»، تلك الضريبة التي أحدثها حمدان زعيم القرامطة في البحرين، ثم فرضها الداعي أبو عبدالله «على كل امرىء دخل في أمره»، إذا صدقنا الشهادة الواردة في الكتاب الذي أمر زيادة الله الثالث بقراءته على منابر إفريقية للتنديد بما يتسم به المذهب الشيعي من صبغة مسيحية وما فرضه على الناس من ضرائب غير مشروعة(4).

وقد كان «دينار الهجرة» الذي يؤديه كل واحد من أتباع المذهب الإسماعيلي إلى الإمام مخصصاً أثناء مدة الستر لسد حاجات الأولياء الذين كانوا يهاجرون من مختلف «الجزائر» في اتجاه «دور الهجرة»، ومن بينها إيكجان الواقعة في منطقة القبائل الصغرى من بلاد كتامة(5).

أما «درهم الفطرة» الذي ينبغي التمييز بينه وبين زكاة الفطر التي يأمر

---

(3) انظر Chambellan، **سيرة جعفر الحاجب**، ص 282 - 283، وانظر حول الأموال الطائلة التي يأتي بها الدعاة من مختلف «الجزائر» إلى المنصورية، **المجالس**، ص 291، 371، 426، 467، 475، 481.

(4) **افتتاح الدعوة**، الفقرة 173.

(5) انظر حول النظام الجبائي الإسماعيلي، الضرائب المعمول بها لدى القرامطة والتي كانت مطبقة بلا شك في سائر «الجزائر» الإسماعيلية، **اتعاظ الحنفاء**، ص 210 - 211، وقد ورد فيه ذكر الضرائب التالية: دينار الهجرة ودرهم الفطرة، وضريبة «البُلغة» (وهي سبعة دنانير)، والخمُس، وضريبة «الألفة» (الاشتراك في الأملاك).

بأدائها الفقه الشيعي والفقه السنّي على حد سواء، فينبغي أن يدفعه كل معتنق جديد للمذهب الإسماعيلي[6].

إلا أن المصادر لم تشر إلى فرض ضريبة «دينار الهجرة» و «درهم الفطرة» على الأولياء في إيكجان التي كانت «دار هجرة» بالنسبة إلى «المؤمنين» الكتاميين طوال مدة الداعي أبي عبد الله، التي دامت خمس عشرة سنة. وبالعكس من ذلك أشار النعمان بصريح العبارة في **افتتاح الدعوة** إلى ضريبة «المغانم». ذلك أن الداعي، ما إن تأكد من فوز القضية التي جاء للإعلان عنها في المغرب لدى أهل جبال بربر القبائل الصغرى، حتى فرض على أتباعه أداء ضريبة بهذا الاسم لحساب الإمام، قدرها خُمُس ما يملكه ويكسبه كل فرد. «وأبقى ما أفاء الله به من «المغانم» على ولي المسلمين (أي الإمام) في أيدي المشايخ، لم يكن يقبض من ذلك شيئاً، ولا يصل إليه ولا يأتيه ولا يراه، وكان في أيديهم إلى أن قدم المهدي (من سجلماسة إلى إيكجان) فدفعه إليه»[7].

2 ـ نظرية النعمان فيما يجب للأيمة أخذه من أموال المؤمنين:

لقد حرص القاضي النعمان في كتابه «**دعائم الإسلام**» وتأليفه «**كتاب الهمة**» على بيان شرعية ضريبة «الخُمُس» التي تختلف عن الزكاة، ملاحظاً أن من واجب المؤمنين أداء خُمُس كل ما يملكونه من مكاسب في أي زمان كان إلى إمام العصر المنحدر من سلالة الرسول ﷺ طبقاً لحكم الله، بالإضافة إلى فريضة الزكاة[8]. كما حاول الفقيه الذائع الصيت أن يجد في الفقه الشيعي الأسس الشرعية الضريبة «الخُمُس». فبما أن الصدقات ممنوعة على النبي «وأهل البيت»، شرع الله لتعويضها ضريبة «الخُمُس»، لأن الصدقة أو الزكاة مجعولة لمحو ذنوب المؤمنين[9].

---

(6) نفس المصدر، ص 210.

(7) افتتاح، الفقرة 123 ودائرة المعارف الإسلامية 1028/2، 1030 (الغنيمة).

(8) الهمة، ص 69.

(9) دعائم، ص 308.

وقد كان القاضي النعمان يستقي الأحاديث النبوية التي يستشهد بها لدعم نظرياته من الأحاديث الشيعية التي رواها الإمام جعفر الصادق. وكما أن اللؤلؤ المستخرج من البحر والعنبر يخضعان لضريبة الخُمُس، فكذلك الشأن بالنسبة إلى المعادن النفيسة والحديد والرصاص والنحاس والكنوز المكتشفة تحت الأرض[10].

ولا غرو أن صاحب «دعائم لإسلام» قد استمد أوثق حججه من تأويل القرآن من قِبَل الأيمة الإسماعيليين منذ جعفر الصادق، وسائر الفقهاء الذين وضعوا الفقه الشيعي طبقاً للمذهب الذي يستأثر به الأيمة بواسع علمهم[11]. ألم تؤيد سورة الأنفال النظرية الشيعية المتعلقة بالمغانم؟ فقد قال الله تعالى في تلك السورة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ والرَّسُولِ...﴾[12]. ﴿واَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ولِذِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ....﴾[13]. وقد استشهد النعمان بالمقولة التالية المنسوبة إلى جعفر الصادق، الإمام والفقيه الشهير، ومنافس مالك وأبي حنيفة[14]. فحسب صاحب «كتاب الهمة» يرى الإمام جعفر الصادق أن الخُمُس يرجع وجوباً إلى أهل البيت دون سواهم، علاوة على أربعة أخماس الغنائم التي يأخذونها من العدو أثناء الجهاد ويوزعونها على من يتتمي إليهم من «اليتامى والمساكين وأبناء السبيل»[15].

وبناءً على ذلك فإن عبارة «الخُمُس لله» تعني ـ حسب رأي النعمان ـ أن المؤمن يجب عليه أن يبحث عن رضا الله وثوابه. والواقع أن الخُمس يرجع إلى الرسول ﷺ ما دام على قيد الحياة، ويرجع بعد وفاته إلى الإمام المنحدر من

(10) نفس المصدر، ص 297 - 298.

(11) الهمة، ص 68 - 69.

(12) الأنفال، الآية الأولى.

(13) الأنفال، الآية 41.

(14) دائرة المعارف الإسلامية، 384/2 - 385 (جعفر الصادق).

(15) الهمة، ص 69.

سلالته والذي يخص به أقاربه والمستحقين من أهل بيته، ويتصرف فيه كما يشاء(16).

ويعتمد القاضي النعمان، بعد القرآن والأحاديث الشيعية، على علم اللغة لتأييد نظريته. ألا يعني «الغُنْم» حسب رأيه «الكَسْب»، أي كل ما يكسبه المؤمن؟ فلفظ «الغنيمة» له حينئذٍ معنى أعم مما يأخذه المرء من العدو، ويشمل كل ما يكسبه المؤمن(17).

وبما أن الله تعالى قد أمر رسوله بأخذ الزكاة، فإن الرسول والأيمة مطالبون بإجبار عباده على إيتاء الزكاة. إلا أن الرسول والأيمة من بعده لا ينبغي أن يفرضوا على المؤمنين أداء ضريبة الخُمُس الراجعة إليهم وجوباً، فهم أحرار في أخذها أو عدم أخذها. إنما يجب على المؤمنين أن يطيعوا أمر الله ويؤدوا الخُمُس، دون أن يسلط عليهم الأيمة أي ضغط(18).

وحينئذٍ يكتسي الخُمُس، حسب تعاليم الفقه الإسماعيلي، صبغة الأداء الشرعي الواجب تسديده على غرار الزكاة التي يختلف عنها ولكنه ينضاف إليها في شكل ضريبة تدفع مرة واحدة، في حين تمثل الزكاة ضريبة سنوية. أفلا تُعتَبر هذه النظرية بدعة لا يمكن أن يقبلها المذهب السنّي الذي ما فتئت إفريقية متمسكة به؟.

3 ـ موقف أهل إفريقية من الأداءات الإسماعيلية:

لقد بدا القاضي النعمان من خلال هذه البيانات المستفيضة الواردة في «كتاب الهمة» المليء بالتكرار والتلميحات المستندة بكل براعة إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي رواها جعفر الصادق. حريصاً على الدفاع عن النظرية الشيعية المتعلقة بالخُمُس، وإقناع معاصريه بصحتها. فمما لا شك فيه

(16) نفس المصدر، ص 69.

(17) المصدر المذكور.

(18) نفس المصدر، ص 70.

أن أتباع المذهب الإسماعيلي المعبر عنهم «بالمؤمنين» كانوا يؤدون ضريبة الخُمُس بطيبة خاطر. وبالعكس من ذلك من المستبعد جداً أن تكون هذه الضريبة الباهظة الثمن قد شملت كافة أهل إفريقية المتمسكين شديد التمسك بالمذهب المالكي[19]. فلو فرضها الخلفاء الفاطميون على كافة رعاياهم لما ترددلا محالة فقهاء المالكية عن التنديد بهذه البدعة اللاشعبية، مثلما استنكروا بعض المظاهر الشاذة من الشعائر الدينية الإسماعيلية، ولأسرع أصحاب السِّيَر من أهل المذهب السنّي، أمثال أبي العرب والمالكي والقاضي عياض إلى إبراز مثل هذه التجاوزات وإدانتها[20].

على أن القاضي النعمان قد أقر ضمنياً ـ حسبما يبدو ـ أن أداء الخُمُس كان يثقل كواهل المؤمنين. أفلم يحرص على حثهم على أن يتحملوا بصبر وشجاعة كل المحن التي يمكن أن يفرضها عليهم وفاؤهم للأيمة؟ أفلا تكون المحنة التي قد تصيب أملاكهم أقل قساوة من جميع المحن التي يمكن أن يثيرها إخلاصهم للأيمة؟ وقد كان النعمان يتفنن في ذكر عدة أمثلة من المحن، مثل محنة علي وابنه الحسن، بل حتى محنة إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل[21].

(19) حسب التمييز النظري بين «المؤمن» و «المسلم» في المذهب الإسماعيلي، لا ينتمي «المسلمون» إلى الطائفة الإسماعيلية

(20) لئن أدينت الجباية الفاطمية في كثير من الأحيان، فإن المصادر السنّية لم تشر إلى تلك الإداءات الخاصة.

(21) الهمة، ص 69.

الفصل الثالث

موارد بيت المال

1 ـ النظام الجبائي الفاطمي :

بما أن محاصيل الأداءات الخاصة التي استعرضناها في الفصل السابق كانت معدة أساساً لتمويل خزائن الخلفاء الفاطميين، فإن «جباية الأموال» هي التي كانت توفر حينئذٍ لبيت المال أهم موارده[1]. ويبدو أن النظام الجبائي الفاطمي لم يكن يختلف كثيراً عن النظام الذي كان مطبقاً في إفريقية في العهد الأغلبي، وكذلك في الأندلس وفي سائر الأقطار التابعة للخلافة العباسية في نفس ذلك العصر. ذلك أن الجباية الفاطمية لا تتميز عن بقية الجبايات الإسلامية، لا من حيث طبيعتها ولا من حيث طريقة جمعها ولا من باب أولى وأحرى من حيث استعمالها لغايات نفعية وعسكرية. ومع ذلك فقد نددت المصادر السنّية بصبغتها التعسفية التي أبرزها جورج مارسي لكي يوضح بوجه أحسن «القطيعة» التي حصلت بين إفريقية وحكامها الفاطميين[2].

إلا أن من فضل الخمس أو ست صفحات الغزيرة المادة التي خصصها المؤلف المذكور لهذا الموضوع في كتابه «**بلاد البربر الإسلامية**»، أنها سلطت مزيد الأضواء على هذه المسألة بالاعتماد على معلومات هزيلة ومشتتة حول

(1) بالنسبة إلى التعريف العام للجباية انظر الفصول المخصصة لضريبة العامل وبيت المال في دائرة المعارف الإسلامية. وانظر تقديم كلود كاهين لدارسة Lokkegaard حول الرسوم الإسلامية، مجلة «أرابيكا» 1، 1954، ص 353 - 356.

(2) انظر جورج مارسي، بلاد البربر الإسلامية، ص 142 - 147.

نظام معقد وغامض لم تقدم إلينا بشأنه المصادر القديمة سوى بعض الإيضاحات الزهيدة، ولو أن جورج مارسي قد ألح على ما تكتسيه من صبغة تعسفية تلك «السياسة الجبائية» التي ندد بها مؤلفون مغرضون بطبيعة الحال، بسبب تعصبهم للمذهب المالكي السنّي.

2 ـ تقدير موارد الجباية:

لقد كانت الضرائب، سواء منها الشرعية أو غير الشرعية، توفر للدولة مبالغ طائلة قدرها ابن حوقل بمبلغ يتراوح بين 700و 800 ألف دينار بالنسبة إلى سنة 947/336 - 948، وهي السنّة التي تغلب فيها المنصور على المتمرد الخارجي أبي يزيد[3]. ورغم أن هذا الرقم قد استمده هذا الجغرافي الشهير المعروف بأفكاره الموالية للفاطميين، من أكثر الناس اطلاعاً على حقيقة الأمور، ألا وهو صاحب بيت المال ذاته أبو الحسن بن أبي علي، وأكده له في سنة 970/360 - 971 موظف آخر لا يقل اطلاعاً عن الموظف الأول وهو زيادة الله بن القديم صاحب الخراج، فإن المبلغ المذكور لا يطابق تماماً إيرادات الدولة العادية. فإذا تذكرنا أن البلاد قد خرجت في تلك السنة بالذات (أي 336 هـ) من حرب ضروس أتت على الأخضر واليابس طوال أربع سنوات، بدا لنا ذلك الرقم مرتفعاً جداً بالنسبة إلى دولة مضطربة ومفككة، انحصرت رقعتها في وقت من الأوقات في حدود عاصمة المملكة. ألم يكن المبلغ الحقيقي أرفع من المبلغ الذي قدره ابن حوقل، وذلك في المدة التي سبقت التاريخ المذكور والمدة التي تلته، لا سيما في عهد المعز، وبالخصوص خلال السنوات الأخيرة التي توجت فترة طويلة من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في الداخل، ومن الغزوات الخارجية في المغرب الأقصى وصقلية وقلورية؟.

وبناءً على ذلك ينبغي تأويل الحديث الذي أدلى به ابن القديم إلى ابن حوقل في سنة 360 باعتباره مجرد تأكيد للمعلومات التي قدمها صاحب بيت

---

(3) ابن حوقل، ص 94.

المال قبل ذلك التاريخ بأربع وعشرين سنة[4]، والتسليم بأن إيرادات الجباية قد ارتفعت ارتفاعاً محسوساً في فترة كان فيها الخليفة الفاطمي قد بدأ «الزحف» على المشرق وأخذ يتأهب لنقل مقر دولته إلى ضفاف النيل.

هذا وإن بعض البيانات الواردة في سيرة جوذر تدعونا إلى الاعتقاد بأن جمع الضرائب ومختلف الرسوم والمكوس كان يوفر لبيت المال موارد أهم بكثير من المبلغ الذي قدره ابن حوقل. من ذلك مثلاً أن إقليم الزاب الذي كان يتصرف في شؤونه جعفر بن حمدون تصرفاً مطلقاً يمكن أن يوفر وحده للدولة «سبعين ألف دينار في السنة وأقل وأكثر»[5]. أما إقليم طرابلس الذي عُيِّن على رأسه نُصَير الخادم، بعد ما شغل منصب خازن في المهدية ثم في المنصورية، فإنه استطاع أن يوفر من المال في سنة واحدة ما سمح بتمويل الحملة العسكرية على مصر وتسديد نفقات الحملة البحرية التي قادها في أول الأمر عامل صقلية أحمد بن الحسن في أواخر شوال 359/ أوائل سبتمبر 970، ثم قائد بحري آخر من أسرة ابن الكلبي، وهو ابن عم القائد الأول، الحسن بن عمار[6].

3 ـ تطور النظام الجبائي الفاطمي في إفريقية:

إن النظام الجبائي الفاطمي الذي كان متسماً بالبساطة في مدة وصاية الداعي أبي عبد الله، قد تعقد أكثر فأكثر إثر قيام الخلافة الفاطمية وتطور الدولة في فترتين اثنتين: أولاً طوال مدة المهدي ثم خلال عهد المعز الذي شهد، كما أسلفنا، استئناف سياسة التفوق والهيمنة غربي وشرقي حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد كان هم الداعي أبي عبد الله عند استيلائه على إفريقية يتمثل فقط في منع النهب والابتزازات التي كان أهلها يخشونها إلى أقصى حد لما شاهدوا زحف الكتاميين من أهل الجبال على بلادهم، بل أيضاً في تطبيق الأحكام

(4) [في النص الفرنسي 14 سنة].

(5) سيرة جوذر، ص 130.

(6) نفس المصدر، ص 119.

الواردة في الكتاب والسنّة حول جباية الأموال، وإرجاع محاصيل الضرائب المخالفة للشريعة إلى أصحابها، كما فعل في طبنة. من ذلك أنه رفض ضريبة «العُشُر» التي اعتبرها مخالفة للأحكام الشرعية لأنها كانت تُجبَى نقداً، في حين كان من المفروض جبايتها عيناً بمقتضى «النص»، ورفض أيضاً ولنفس الأسباب جباية «الخراج». وبالعكس من ذلك وافق على ضريبة «الجزية» الموظفة على الذميين، ومن بينهم جالية كبيرة تقيم في الزاب، وقَبِل تسديدها لا بواسطة الدراهم وفقاً للسنّة النبوية، بل بالنقود الذهبية، لأنها كانت تقدر على أساس النصاب الذي حدده عمر بن الخطاب. كما وافق على الضريبة الموظفة على البقر والغنم والإبل، وهي «الصدقة»، لأن «جباية» الأنعام قد تمت حسب قواعد الاقتطاع التي ضبطتها الشريعة قبل عرضها للبيع(7).

وما إن اعتلى المهدي العرش في رقادة حتى بادر إلى إرجاع النظام الجبائي الذي كان معمولاً به في الماضي. فأقر صاحب الخراج السابق ابن القديم في منصبه، كما أسلفنا، وأمره بإحياء ديوان الخراج الذي أُحرِق لما هرب زيادة الله، وبجباية الضرائب الموظفة على الضياع والتي ألغاها الداعي قبل ذلك في طبنة. ولما علم الخليفة بمشاركة ابن القديم في المؤامرة التي دبرها أبو العباس أخو الداعي، أمر بقتله وعوضه في سنة 915/303 - 916 بقاضٍ حنفي من أحفاد القاضي الأغلبي الشهير أبي محرز، وهو عمران بن أحمد. فضبط صاحب الخراج الجديد قائمة في الضياع القائمة الذات في البلاد، ووظف عليها ضريبة «التقسيط» وهي عبارة عن خراج مُقدَّر على أساس قاعدة اعتباطية. حيث قدر الدخل السنوي للعُشُر وجمع الحد الأدنى والحد الأقصى ثم وظف على كل ضيعة نصف الحاصل.

وما لبث أن أضاف صاحب الخراج إلى هذه الضرائب الثقيلة الوطأة في حد ذاتها ضريبة عقارية أخرى. فلم تمض سوى أقل من سنتين حتى فرض على

(7) البيان، 141/1 - 142.

أصحاب الضياع في مختلف الدوائر الترابية «مغرماً» جديداً سماه «التضييع» الذي يقابل حسب زعمه مؤخر «التقسيط»[8].

4 ـ النظام الجبائي المعمول به في صقلية:

يبدو أن نظاماً جبائياً لا يقل وطأة عن النظام المعمول به في إفريقية قد أقيم أو بالأحرى قد أُقِرّ من جديد في صقلية التي كان وضعها العقاري محل خلاف مماثل للخلاف القائم بين الفقهاء حول إفريقية والأندلس. ومن حسن الحظ فإن الفتاوي النفيسة التي أفتى بها الفقيه المالكي الإفريقي الداودي المتوفى سنة 1010/401 في شأن واقع أقره مرور العصور، قد قدم إلينا معلومات ثمينة حول النظام الجبائي المعمول به في صقلية خلال القرنين التاسع والعاشر من الميلاد[5]. فبما أن هذه الجزيرة لم تُفرَض عليها ضريبة العُشُر، ولم توزع أراضيها بين الجنود، كما لم توضع على ذمة المسلمين القادمين إليها للإقامة بها، طبقاً للطريقة التي سنها الخليفة عمر بن الخطاب بالنسبة إلى سواد العراق ومصر، يبدو أن نظام الملكية قد أقيم فيها منذ الفتح على أساس قانون الأقوى، كما يدل على ذلك مثال جرجنت الذي أصدر الداودي في شأنها فتوى بليغة المغزى[10].

وتبعاً لذلك فإن التمييز التقليدي بين الأراضي المفتوحة «عنوة» والأراضي المفتوحة «صُلحاً» لا وجود لها في الواقع وبالتالي فإن حائزي الأرض مطالبون بدفع «الخراج» بالإضافة إلى «الجزية على الجماجم» (ضريبة الرؤوس). وعلى هذا الأساس تم تسجيل جرجنت في ديوان الخراج، وفُرِض على أهلها من الذكور دفع ضريبة الرؤوس كل سنة، كما فُرِض الخراج على جميع الضياع التي أصبحت ملكاً من أملاك بيت مال المسلمين[11].

---

(8) نفس المصدر، 173/2 و 181.

(9) الداودي، كتاب الأموال، ص 428 - 444.

(10) نفس المصدر، ص 437 - 441.

(11) المصدر المذكور، ص 437.

على أن جزيرة صقلية قد فرض عليها عاملها خليل بن إسحاق بن الورد المشهور بتجاوزه لسلطاته، ضرائب باهظة فيما بين سنة 936/325 وسنة 940/329 خلال عهد القائم بأمر الله. كما أخضع بلا شفقة ولا حرمة عدة مدن محصنة في الجزيرة، من بينها جحرجنت وطبرمين ورمطة التي ثارت عليه وأحرقت دفاتر الجباية. ففرض عليها خليل ضرائب باهظة جداً، مما أجبر عدداً كبيراً من أهل الريف على التخلي عن ضياعهم واللجوء إلى بلاد النصارى[12].

5 - إيرادات الغرامات والأداءات غير العادية:

إن مثل هذه الضرائب التأديبية والغرامات الحربية المفروضة على الأقاليم البعيدة عن المركز التي كثيراً ما كانت تنبذ سلطة الدولة ولكن سرعان ما تعود إلى الحظيرة الفاطمية قهراً، وتسدد غرامات باهظة، كانت تمثل مساهمة لا يستهان بها بالنسبة إلى خزينة الدولة. من ذلك أن طرابلس التي شقت عصا الطاعة في سنة 912/300 - 913 في عصر المهدي قد اضطرت إثر حصار شديد الوطأة إلى الاستسلام للقوات الكتامية بقيادة ابن الخليفة أبي القاسم الملقب بعد بالقائم الذي أمر بقتل منظمي الانتفاضة من الوجهاء، وأغرم أهل المدينة أربعمائة ألف دينار. «وكان المتولي لتغريمهم وتعذيبهم خليل بن إسحاق (السالف الذكر) وهو من أبناء جندها وممن وُلِد بها»[13].

إلا أن الموارد التي تمثلها مثل هذه الضرائب بالرغم من أهميتها لم تكن تكتسي سوى طابع استثنائي، مثل سائر الإجراءات التعسفية الشائعة عهدئذٍ في الأقطار الإسلامية والنصرانية على حد سواء، كالمصادرات والغرامات وغنائم الحملات العسكرية البرية والبحرية إلى غير ذلك[14]. وهناك موارد أخرى أكثر انتظاماً رغم صبغتها غير الشرعية، كانت تعتبر من الموارد العادية التي كانت

---

(12) نفس المصدر، ص 437 - 438. البيان، 215/1. Vassiliev، 155/2 - 156. أماري، تاريخ المسلمين في صقلية، 219/2 - 230.

(13) رحلة التجاني، ص 241، انظر أيضاً، البيان، 168/1 - 169.

(14) ابن حوقل، ص 107 - 108 وإسبانيا الإسلامية، 33/2 - 34.

تمول خزينة الدولة، كما هو الشأن بالنسبة إلى سائر بلدان العالم. ولكن يبدو أنها كانت توفر للدولة الفاطمية جزءاً كبيراً من إيراداتها، ولو بصورة استثنائية، لا سيما في عهد القائم قبل اندلاع ثورة الخوارج.

وكانت هذه الموارد المتأتية من إيرادات «المغارم» (أي المكوس) و«القبالات»[15] المقبوضة قهراً تثير امتعاض الشعب واستنكار رجال الدين، لا سيما منهم فقهاء المالكية الذين يكنون للنظام الشيعي عداوة دفينة تعبر عنها مناقبهم المحفوظة بكل عناية في كتب التراجم والسِيَر[16].

وكان أتباع المذهب الخارجي يستنكرون هم أيضاً فرض تلك الضرائب على الناس. فقد حرص زعيمهم النكاري المعروف «بصاحب الحمار» في بداية ثورته على النظام الجائر القائم في البلاد على الظهور في مظهر المصلح و«المحتسب». ولما هُزِم أبو يزيد وقُدِّم إلى إسماعيل المنصور الذي انتصر عليه، وهو مكبل بالأغلال ومثخن بالجراح، أكد أنه إنما خرج عن الطاعة مستنكراً «هذه القبالات التي فيها الجور على المسلمين»[17]. فما إن رجع المنصور إلى القيروان إثر انهزام المتمرد الخارجي حتى أصدر عفواً جبائياً عاماً وأمر بإلغاء الجباية المشطة.

ولكن هذه الضرائب غير الشرعية، رغم تخفيضها أو إلغائها بصورة مؤقتة، كانت تُبعَث من جديد ضمن النظام المالي الجاري به العمل في الدول الإسلامية، باعتبارها مصدراً تكميلياً لموارد الخزينة. ولذلك فقد أثبتت بعض الشهادات وجودها في إفريقية في العهد الفاطمي وفي سائر الأقطار الإسلامية في العصر الوسيط، سواء منها التابعة لبني أمية في الأندلس أو لبني العباس: مثل المكوس المفروضة على التجارة والصناعة الحرفية في المراكز العمرانية

---

(15) الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية** (الترجمة العربية) 221/2، الهامش 31: القبالة أو الضمان أو اللزمة: تأجير إيرادات الجباية.

(16) **مناقب**، ص 224 - 231 و**طبقات**، ص 232 - 233، 239.

(17) **عيون الأخبار**، ص 447.

النشيطة والمزدهرة كالمهدية وسوسة والقيروان وبالخصوص المنصورية[18]. ومثل «المراصد» (رسوم المرور)[19] والأعشار الموظفة في الموانىء على البضائع الواردة من الأندلس وبلاد النصارى[20] والأداءات الموظفة على السلع لمصدرة إلى مصر والسودان[21] ومكوس أبواب المدن لا سيما في المهدية والمنصورية التي يوفر كل باب من أبوابها الخمسة 26000 دينار في اليوم[22] والقبالات على مواد البناء والمرجان والخضر والملح والسمك وغيرها من المواد الغذائية. وقد كانت جميع هذه الضرائب غير الشرعية، من مكوس ومغارم ولوازم وصِلاَت توفر للخزينة أموالاً طائلة[23].

ورغم ذلك كان دافعو الضرائب يتنصلون من تسديد المكوس المتعددة المفروضة على التجارة. وقد قدم إلينا أصحاب التراجم بعض الأمثلة عن التهرب من الضريبة وبعض الحيل الشرعية التي يلجأ إليها فقهاء المالكية للتخلص من «قبالات السلطان»[24]. أما التجاوزات التي يرتكبها الجُباة في المدن، مثل «ملتزم السوق» و «المكاس» و «الناظر» وغيرهم من «أصحاب القبالات» أو «العمال»، فقد وردت عنها عدة أمثلة في المصادر المتوفرة لدينا، سواء منها السنّية أو الشيعية[25].

6 ـ انبساط أيدي العمّال والجُبَاة على الناس:

فهل كان أهل إفريقية في العهد الفاطمي يرزحون تحت نير الإفراط في

(18) البكري، ص 25 وسيرة جوذر، ص 95.

(19) ابن حوقل، ص 94.

(20) نفس المصدر.

(21) نفس المصدر، انظر الذهب الإسلامي، ص 150 - 151 ورياض النفوس (مخطوط 21553) ص 68: التجارة بين البصرة والقيروان والسودان.

(22) البكري، المصدر المذكور.

(23) الدولة الصنهاجية، 227/2.

(24) نفس المرجع، 230/2.

(25) نفس المرجع، 231/2 - 232.

جباية الأموال؟ إن نظام «الضمان» أو «القبالة (أي تأجير الضرائب) لم يكن معمولاً به في جميع أنحاء المغرب خلال الفترة التي تهمنا، حسب شهادة ابن حوقل. بل إن النظام المطبق في إدارة الأعمال كان نظام «إمارة الكفاءة» أو بالأحرى «الاستكفاء» (أي السلطة المطلقة)، وهو النظام الذي كان يمنح العامل «شبه استقلال مالي»[26]، مما يسمح له باستعمال الضرائب التي يجمعها لتغطية النفقات العسكرية والإدارية، وتسديد الفارق إلى الخزينة. ويمكن لهذا النظام المعروف «بالأمانة من غير ضمان» أن يفضي إلى جميع التجاوزات إذا أراد العمال ارتكابها للزيادة من إيرادات أقاليمهم. ولا شك أن هؤلاء العمال الذين كانوا يستغلون أهل المدن والأرياف بواسطة الضرائب، قد كان عددهم كبيراً، مما يجبر منظوريهم على التشكي للخليفة ذاته بل حتى على الثورة. ومثال ذلك الاضطرابات التي اندلعت في نواحي تيفاش وقصر الإفريقي حيث تفاقم الوضع حتى اضطر المعز إلى توجيه الجيش إليها لإرجاع الأمن إلى نصابه[27]. وإذا صدقنا أقوال القاضي النعمان وصاحب «سيرة جوذر» اللذين أشارا إلى ما ارتكبه بعض العمال الصقالبة من أعمال شنيعة، أمثال زيدان في تيفاش وبلخ في فندق ريحان وصافي في قصر الإفريقي وغيرهم، فإن الخليفة الفاطمي كان يتبرأ دوماً وأبداً من مظالمهم[28]. فنراه تارة يوبخ عامله توبيخاً شديداً لأنه فرض على الناس ضرائب باهظة، وطوراً يعزل عاملاً آخر لارتكابه أعمالاً مماثلة، ويدين بصراحة اللجوء إلى التعسف في الجباية. بل أكثر من ذلك نرى المعز في أجوبته على رسائل جوذر الحريص دائماً على إعلام مولاه بكل التجاوزات التي تبلغ إلى علمه عن طريق البريد، يؤكد مراراً وتكراراً حرصه على تمويل خزائنه بالأداءات الشرعية دون سواها وعلى تشجيع الأنشطة الاقتصادية التي توفر لخزينة الدولة أموالاً طائلة ولكنها عادلة[29].

---

(26) سيرة جوذر، ص 129.

(27) نفس المصدر، ص 89، 94.

(27) نفس المصدر، ص 89، 94.

(28) المصدر المذكور.

(29) نفس المصدر، ص 114.

والواقع أن المعز، لئن بدا من خلال سيرة جوذر منشغل البال بضمان حسن التصرف المالي وتوفيرما يكفي من المال لتحقيق ما أعرب عنه أجداده دوماً وأبداً من رغائب سامية، إلا أنه لم يكن أقل حرصاً على أن لا يجمع إلا «المال الحلال». ذلك أن الخليفة الفاطمي كان يعتقد طبعاً دون أي وهم أن «ما يعبد الناس غير الجماد، والذي يلزمنا من الإخراج فهو والله لو كان من ماء البحر لكان عجباً»[30]. ثم يهتف بكل صدق وورع قائلاً لجوذر: «واسْأَلْ الله أن ترى في مخازننا من الأموال الحلال ما يكون لنا في جمعه الأجر عند لله، وخزي لأعدائنا في الدنيا»[31]. وبمثل ذلك الصـدق أوصى المعز أعوانه بانتهاج سياسة جبائية رشيدة ورحيمة، ونقم بوجه خاص على عبد الله بن رفيق الذي «استعقد ربع المهدية وشرطها... فلما تمكن بسط يده على الناس وقطع لعداوات بما لا يوجب الحق»، وسمح لنفسه بارتكاب المظالم تجاه أهل تلك المدينة التي هي «أحق الأمصار بنشر العدل وبث الإحسان». ثم أمر الخليفة جوذر بإرجاع هذا العامل إلى الجادة قائلاً له بالخصوص: «قد علم الله أنا لا نرضى بهذا الظلم والعدوان في أحدٍ من أهل طاعتنا.. وإذا لم يكن في المال وفر إلا من هذا الوجه فلا هجعه الله ولا وفره.. فعرِّفْ ابن رفيق هذا وأن هذا الفعل ما لا نطلقه له ولا نرضاه من عمله، وأن تحببه إلى الناس آثر عندنا من توفير ما يجمعه»[32].

ورغم أن جباية الأموال نقداً هي التي كانت سائدة في النظام الجبائي الفاطمي، حسبما يبدو، فإن الأداءات المدفوعة عيناً كانت تحتل مرتبة مرموقة في إيرادات الضرائب الريفية والأداءات الموظفة على التجارة والصناعة الحرفية. والجدير بالتذكير أن الداعي أبا عبد الله قد رفض إيرادات العُشُر في طبنة قائلاً: إن ضريبة العشر لا تُدفَع إلا عيناً[33].

(30) نفس المصدر، ص 93.

(31) المصدر المذكور.

(32) نفس المصدر، ص 114.

(33) البيان، 141/1.

هذا وإن مختلف البضائع المخزونة في «الأهراء» و «الخزائن» تحت إشراف جوذر ذاته الذي كنا أشرنا إلى مهامه المتعددة على رأس الجهاز الإداري، كانت تُستعمل لاستهلاك قصر الخليفة وتموين الجيش، وتباع إذا دعت الحاجة إلى ذلك لاستكمال تمويل الحملات العسكرية(34). وبفضل تلك الأهراء التي شُحِنَت بكميات كبيرة من المواد الغذائية توقعاً للمصائب المنتظرة إثر ظهور «الدجال» اللعين الذي عُرِف في التاريخ باسم «صاحب الحمار»، استطاعت المهدية إلى حدٍّ ما تحمّل قساوة الحصار أثناء ثورة الخوارج(35).

7 ـ خزائن الخلفاء الفاطميين:

لقد تعززت خزائن الخلفاء الفاطميين بالهدايا المقدمة إليهم عيناً ونقداً، كما جرت به العادة بالنسبة إلى بيوت الملك في المشرق والمغرب خلال العصر الوسيط. والأكثر من ذلك فإن العادة المتمثلة في تقبل الخلفاء للهدايا المتنوعة التي تعبر عما يكنه لهم أتباع المذهب الإسماعيلي بحكم ورعهم من مشاعر الود العميق بل حتى الإجلال، قد أصبحت بمثابة تقاليد حقيقية في المجتمع الإسماعيلي.

من ذلك أن الدعاة القادمين إلى إفريقية من شتى «جزائر» العالم الإسلامي لإحاطة الإمام علماً بنشاطهم، كانوا يأتون محملين بالهدايا الثمينة التي بعث بها إليه «أولياؤه» الأوفياء. وكان كبار رجال الدولة يرون من واجبهم هم أيضاً أن يقدموا إلى الخليفة هدايا تقليدية. من ذلك أننا نرى الخادم جوذر الذي يحتل كما هو معلوم مرتبة جليلة، لا سيما في عهد المعز، يقدم إلى المنصور مبلغاً يفوق العشرة آلاف دينار، للتقرب إليه. فلم يقبل الخليفة منه إلا ألف دينار، ولكنه طلب أن يُعمَل له من هذا المبلغ «سرجاً مذهباً خفيفة سفرية بأقل من ألف

(34) سيرة جوذرة ص 92.

(35) عيون الأخبار، ص 315.

(36) سيرة جوذر، ص 147. المجالس والمسايرات، ص 291.

درهم، وأن يُتخيَّر لها عوداً واسعاً جيداً، ويُعمَل بما بقي منها سيوفاً بحمائل على نصول يطبعها بالمهدية»[37].

أما المعز فقد قبل الهبة التي قدمها إليه جوذر «حين تصرف في إخراج العساكر إلى المشرق واحتاج إلى الإنفاق في ذلك»[38]. ومهما يكن من أمر فإن الأيمة كانوا يعتبرون الهدايا المقدمة إليهم تقرباً إلى الله تعالى، ويغتنمون تلك الفرصة ليسألوا الله أن يتقبل سعي أوليائهم المخلصين «ويجزل من رضاه أوفر حظهم»[39].

على أن الخلفاء الفاطميين يظهرون من خلال المعلومات القليلة المستقاة من مصادرنا الإسماعيلية المختلفة في مظهر الحريصين على الاقتصاد في النفقات. من ذلك أن القاضي النعمان قد لاحظ أن المهدي «لا يضيع أقل شيء من المال ولا يستهين به أن يذهب، ولا يترك منه واجباً أن يُصرَف في غير حق»[40]. أما المعز فقد كان يقدر حق قدره ما يتحلى به أعوان الدولة من حرص على الاقتصاد في النفقات. ففي إحدى أجوبته على رسائل جوذر أثنى على خادمه الأمين لحسن تصرفه قائلاً له: «ما عندنا في حسن نظرك شك، وأنك لو وجدت خزن الهواء فضلاً عن غيره لخزنته إلا عن مستحقه»[41]. وفي جواب آخر تأسف المعز على ما يتسم به أهل بيته وخاصته من تبذير قائلاً: «ولا مُوَفرِ لدينا، بل الكل أعوان التمزيق والإخراج»[42].

وبالعكس من ذلك كان أصحاب تراجم الأيمة يثنون على كرمهم ويطنبون في الحديث عن سخائهم. فقد روى القاضي النعمان أن الخليفة الأول المهدي بالله كان جواداً بالمال»، ثم أضاف قائلاً: «وذلك فيما يُؤثَر من صفة

(37) سيرة جوذر، ص 47.

(38) نفس المصدر، ص 92.

(39) المصدر المذكور، ص 93.

(40) افتتاح الدعوة، الفقرة 275.

(41) سيرة جوذر ص 116 وانظر ص 49: ثناء المعز على صافي «لقيامه وحزمه وتوفيره لما يتولاه».

(42) نفس المصدر، ص 93.

المهدي»[43]. وروى النعمان أيضاً أن صاحب بيت المال رفع إلى المهدي، بُعَيْد اعتلائه العرش في رقادة، «بتحصيل ما أخرجه من الصِّلات في شهر رمضان، فبلغ مائة ألف دينار، وكان صاحب بيت المال قد استكثر ذلك. فقال المهدي: لو بلغني الله إلى حقي ونلت أملي، ما رضيت هذا العطاء بأسره لرجل واحد من أوليائي»[44].

ذلك أن الخلفاء الفاطميين كغيرهم من ملوك المسلمين كانوا يتبعون العادة المتمثلة في إغداق النِّعَم على خدمهم المخلصين، ولا يترددون في أخذ الأموال من خزائنهم لتوزيع العطايا في شكل نقود وملابس مصنوعة من الأقمشة التي تنتجها دار الطراز الرسمية في المهدية، وحُصُر مطرزة وبُسُط وغير ذلك من الهدايا الثمينة[45]. ويزداد عطاؤهم في بعض المناسبات الخاصة، مثل الاحتفالات التي أقامها المنصور، ثم المعز من بعده، بمناسبة ختان أبنائه «ومَنْ وُجِد من أولاد سائر الخلق الذين حوتهم مملكته». وفي سنة 962 في أيام المعز «كان من جملة المُنفَق في ذلك مما حُمِل إلى جزيرة صقلية وحدها من المال خمسون حِمْلاً من الدنانير، كل حمل عشرة آلاف دينار»[46].

---

(43) افتتاح الدعوة، الفقرة 275.

(44) نفس المصدر.

(45) سيرة جوذر، ص 60، 108، 127 - 128، 137 - 138.

(46) اتعاظ الحنفاء، ص 136

الفصـل الرابـع
احتكـار ضـرب السكـة

1 ـ المسكوكات الفاطمية:

لدينا من حسن الحظ دراسات دقيقة وعلمية حول نقود الفاطميين، من بين البحوث العديدة المخصصة للمسكوكات الإسلامية. ولكن لم يتمكن لا فروجيا دي كنديا، ولا هازار، من استيفاء دراسة النقود الفاطمية المسبوكة في دور الضرب بإفريقية في الفترة التي تهمنا[1]. ويرجع الفضل إلى العلامة التونسي المرحوم حسن حسني عبد الوهاب الذي توفق إلى الإحاطة بهذه المسألة من جميع جوانبها في الدراسة القيمة التي أعدها حول «النقود العربية بتونس»[2]، بالاعتماد على النقود التابعة لمجموعته الخاصة النفيسة. وفي الجملة فقد اعتمدنا على أهم ما جاء في هذه الدراسة، بالإضافة إلى المعلومات التي استقيناها من مصادرنا الإسماعيلية، لعرض تاريخ المسكوكات الفاطمية من ناحية الإنتاج والتنظيم الإداري، في انتظار طرق هذا الموضوع في إطار الدراسة التي ننوي تخصيصها للهياكل الاقتصادية الفاطمية في جزء آخر من هذا الكتاب،

---

(1) ظهرت دراسات فروجيادي كنديا (J. Farrugia de Candia) في المجلة التونسية، 1936 ص 333 - 372 و 1937 ص 89 - 136 و 1948، ص 131 - 103. وانظر، هازار:
(Hazard) The mismatic history of late medieval North African.

(2) حسن حسني عبد الوهاب، «ورقات»، 436/1 - 444. انظر أيضاً دراسة P. Balog القيمة: نقود إسلامية نادرة فاطمية وأيوبية، ص 327 - 341.

ومحاولة تقدير أهمية النقود الفاطمية بالنسبة إلى تمويل خزينة الدولة، لا سيما في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله.

2-ضرب النقود الفاطمية الأولى:

ما إن انتصب الداعي أبو عبد الله في رقادة بعد هروب آخر أمراء بني الأغلب إلى المشرق، حتى عكف - كما أسلفنا -[3] على إعادة تنظيم الجهاز الإداري الموروث عن النظام السابق، والمعطل وقتياً إثر سقوط ذلك النظام، وإعادة تشغيل مختلف دواليبه، مع الحرص على طبعه بطابع النظام الجديد الذي حقق الداعي انتصاره منذ حين على رأس أتباعه من البربر الكتاميين. وكما هو معلوم، فقد تم إقرار صاحب دار السكة السابق أبي بكر بن القمودي المعروف بالفيلسوف في منصبه بالقيروان، مثل الكثيرين من كبار الموظفين الأغالبة. وأمر أبو عبد الله بضرب أول دنانير فاطمية للإعلان عن التغيير الذي طرأ على النظام القائم، «ولم ينقش فيها اسماً لأحد، ولكنه جعل مكان الأسماء من وجهٍ «بلغت حجة الله»، ومن وجهٍ آخر «تفرق أعداء الله»، ونُقِشَت في الدائرة سنة الضرب أي 997 هـ». ثم أمر بضرب سكة أخرى سُمِّيَت «السيدية» (نسبة إلى لقب «السيد» الذي أضفاه عليه أتباعه الكتاميون منذ بداية دعوته في إيكجان)، ونُقِش فيها «الحمد لله رب العالمين» مكان الكلمات السابقة[4].

3 - النقود الفاطمية في عهد المهدي:

ولما اعتلى المهدي عرش إفريقية، بعدما خلصه الداعي من أيدي بني مدرار الذين كانوا قد ألقوا عليه القبض في سجلماسة بطلب من زيادة الله الثالث، تولى بدوره إعادة تنظيم الإدارة، فأحيى بعض الدواوين السابقة، وأنشأ دواوين أخرى ملائمة للنظام الجديد الذي أقيم في البلاد إثر انتصار الدعوة الفاطمية. ومن بين الدواوين الأربعة التي كانت تمثل الهياكل المالية عند اعتلائه العرش، كان ديوان السكة على أحسن ما يرام تحت إشراف ابن القمودي الذي

---

(3) انظر الباب الثاني من القسم الأول: مدة وصاية الداعي أبي عبد الله.

(4) افتتاح الدعوة، الفقرة 225 والبيان، 151/1.

كان يسهر على حظوظه في عهد آخر أمراء بني الأغلب[5].

وقد نصت النقود التي ضُرِبت خلال السنوات الأولى من عهد المهدي على أن سبكها قد تم بالقيروان، ولم يُذكَر اسم رقادة التي جعل منها الخليفة الفاطمي الأول مقر إقامته ودار ملكه، وذلك بلا شك لأن صاحب إفريقية الجديد استنكف عن ذكر مدينة إبراهيم الثاني في نقوده، إعلاناً عن انقراض العهد الأغلبي بصورة أوضح. ولئن «حافظت نقوده على الهندام الأغلبي في الحجم والشكل والنمط»، إلا أنه غير نص الكتابة المنقوشة على جميع قطع الذهب والفضة والنحاس، ليرمز إلى بداية عهد جديد، ألا وهو عهد المذهب الشيعي المظفر[6].

وإثر تأسيس المهدية التي أصبحت مقر الإدارة المركزية الفاطمية، أنشئت بها داراً للسكة أقيمت حسب الاحتمال في أحد مباني دار المحاسبات التي كانت تضم مختلف المصالح المالية. إلا أن سبك النقود قد استمر في القيروان طوال عهد المهدي، لأن هذه المدينة الشهيرة قد احتفظت بدورها كأهم مركز عمراني وتجاري بالمملكة، إلى أن ظهرت المنصورية إلى جانبها وعلى حسابها فكان من اللازم عدم إلحاق الضرر بأنشطتها الاقتصادية التي تمثل مصدراً هاماً من مصادر تمويل خزينة الدولة بواسطة الأداءات المفروضة عليها، وإبقاء دار السكة القديمة في حالة اشتغال لسدّ حاجات العملاء والتجار الكبار والصغار والصرافين وغيرهم من الخواص الأثرياء المحتاجين إلى النقود، وبالتالي توفير مصدر إضافي لإيرادات الدولة.

ذلك أن صنع النقود لئن كان ـ كما هو الشأن في سائر البلدان الإسلامية ـ حكراً على الدولة التي كانت تنظم إصدارها وطريقة تداولها، «إلا أن ضرب السكة كان حراً، بمعنى أن دور الضرب المنتشرة في أهم المدن كانت تقوم،

(5) افتتاح، نفس الفقرة والبيان 159/1.

(6) ورقات، 437/1 - 438.

مقابل تعويض معين وبدون أي تحديد، بسبك المعادن التي يسلمها إليها الخواص»[7].

4 ـ النظام النقدي في عهد القائم:

لم يطرأ بلا شك تغيير كبير على النظام النقدي خلال عهد القائم بأمر الله الطويل المدى، ما عدا التغيير الطبيعي الذي أُدخِل على نص الكتابة والخط، إعلاناً عن تصلب النزعات السياسية والمذهبية لدى خليفة المهدي، من خلال استعمال حروف من الطراز الكوفي تُعرَف «بالقرمطي» في المسكوكات الفاطمية. وهي حروف ظهرت بالمشرق إثر الانتصارات التي أحرزتها القضية الإسماعيلية ثم انتشرت في جميع أنحائه مع تعاظم قوة القرامطة في البحرين التابعة للخلافة العباسية[8].

ولكن الحياة العامة في إفريقية قد تعطلت تماماً وانخرم الاقتصاد انخراماً عميقاً إثر الاضطرابات التي أثارتها حركة الخوارج قبيل وفاة القائم، بدفع من المتمرد النكاري و «صاحب الحمار» الشهير. ومما لا شك فيه أن أبا يزيد قد أمر بضرب النقود في دار السكة بالقيروان لتسديد نفقاته العسكرية والمدنية في الوقت الذي كان ينوي فيه إقامة دولته الخارجية بالقيروان المفتوحة، تلك الدولة التي كان يحلم بها منذ عهد بعيد أفراد حاشيته من قادة البربر، لا سيما شيخه ومستشاره أبو عمار الأعمى. ومما كان يرمي إليه أيضاً أبو يزيد ضرب النقود في القيروان، لإقامة الدليل على انتصار قضيته والظهور في مظهر رئيس دولة. ويدل دينار صاحب الحمار الذي يحمل تاريخ 945/333 واسم القيروان، من خلال النصوص المنقوشة عليه والملائمة لنظريات الخوارج السياسية والدينية، على اعتزام المتمرد الارتقاء إلى مرتبة رئيس دولة، وتركيز النظام الذي حاولت حركته عبثاً إقامته في البلاد منذ النصف الأول من القرن الثاني للهجرة[9].

---

(7) برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، [الترجمة العربية، 73/2].

(8) ورقات، 438/1.

(9) نفس المرجع، 439/1 - 441.

5 ـ دنانير المنصور:

لما وضع ابن القائم وخليفته إسماعيل المنصور حداً لأوهام صاحب الحمار، وكان قبل ذلك قد استمر في ضرب السكة باسم أبيه، أصدر، من الموقع الذي انتصر فيه على عدوه في أقليم الزاب النائي، تعليماته إلى عامله على القيروان قدام لتخليد ذكر هذا الحدث بإثبات اسمه على السكة والطراز. وقد سُمِّيت دنانير الذهب التي سُبِكت في دار الضرب الجديدة بالمنصورية، «بالرباعية المنصورية» إعلاناً عن انتصار الخليفة الجديد على المتمرد[10]. وصدرت كميات كبيرة من النقود، لأن المنصور قد ورث خزينة خاوية. حيث عاثت فساداً في البلاد حشود الخوارج من بني كملان وهوارة ومزاتة وغيرهم من المتمردين المتلهفين على النهب. واختل النظام الإداري، وتدهورت الحياة الاقتصادية، وتعطلت حركة جمع الضرائب، فانخفضت موارد الدولة. وأصبح من الضروري أن يتدارك الخليفة الجديد إفلاس دولته، ولذلك فقد اضطر إلى أخذ المال من المدخرات المخزونة في المهدية وإصدار كميات كبيرة من النقود لتسديد النفقات العادية. وقد توالى ضرب السكة بلا انقطاع في المهدية والمنصورية في نفس الوقت، وذلك طوال أشهر السنة، «من المحرم إلى ذي الحجة»، كما تدل على ذلك دنانير المنصور التي أصبحت تحمل لا فقط اسم السنة التي صدرت فيها كما كان الأمر من قبل، بل أيضاً اسم الشهر، «مما لم يسبق له نظير في الضرب الإفريقي»[11].

وبالإضافة إلى ذلك تميزت دنانير المنصور بخصائص فنية جديدة تدل على تغيير جوهري في طريقة الضرب المحلية، كما لو أن المنصور أراد بذلك استهلال عهد جديد من الانبعاث السياسي والانتعاش الاقتصادي بعد الخروج من تلك الفترة الحالكة. «فتغير الدينار الفاطمي في الشكل والكتابة، وصار أكبر

---

(10) عيون الأخبار، ص 461 وسيرة جوذر، ص 60.

(11) ورقات، 441/1.

حجماً مما كان مستعملاً قبل. إلا أنه حافظ على الوزن أي النصاب الشرعي، وهو المهم»[12].

«وسن المنصور لأعقابه الفاطميين طريقة الدنانير «على الأزواج» أي في دوائر تحيط بالنصوص المكتوبة. وبقي هذا الشكل مُتَّبَعاً إلى آخر الدولة الفاطمية في المشرق»[13].

6 ـ الدينار الفاطمي في عهد المعزّ:

وفي عهد المعزّ، ذلك الخليفة الفاطمي العظيم الذي امتد نفوذه إلى بلاد المغرب قاطبة ثم إلى مصر وجنوب الشام والحجاز واليمن، أصبح الدينار الفاطمي من حيث القيمة والشأن، منافساً للدينار العباسي، بل حتى الدينار البيزنطي، واجتازت سمعته حدود حوض البحر الأبيض المتوسط إلى «بلاد السودان» (إفريقيا السوداء) وإلى بلاد النرمان والصقالبة شمالاً. وضرب المعز السكة لا في المنصورية والمهدية وبلرم فحسب، بل أيضاً في سجلماسة قاعدة بلاد تافللت، وفي بلاد الكنانة بدار السكة التي أنشأها الخليفة الفاطمي في الفسطاط وفي عاصمته الجديدة القاهرة المعزية.

ولما بلغت عظمة الدولة الفاطمية أوجها في عهد المعز، بدأت النقود الصادرة في عهده تدل على تفوق الخلافة المضادة التي أقيمت في الغرب الإسلامي، شاهدة على انتصار القضية العلوية، ومؤكدة عزم أعقاب فاطمة على بسط سلطانهم في المشرق، ومطامعهم في العالم الإسلامي بأسره.

على أن المعز لدين الله الذي نعرف مدى عزمه على إقامة الدليل على ما يتحلى به من صفات الإمامة، وحرصه على أن يكون حينئذٍ في مستوى المسؤوليات الجسام التي تفرضها عليه مهمته السامية المتمثلة في ممارسة

---

(12) نفس المرجع، 441/1.

(13) نفس المرجع، 442/1.

(14) نفس المرجع، 442/1 - 443.

السلطة بنفسه، و «حسن تدبير» شؤون الدولة، دون أن يغفل عن أدنى قسط منها، قد أولى عناية خاصة للسكة التي كان يعرفها معرفة جيدة، سواء من الناحية الفنية أو من الناحية النظرية. فقد رفع إليه الأستاذ جوذر «كتاباً ورد من نظيف الكاتب متولي بيت المـال بالمهدية، يذكر ما وقع بينه وبين علوش السكاك من المشاجرة على الطبع بسكة المهدية، وما نسبوه إلى علوش في أمر العيار. وذكر نظيف أن علوش رغب في أن يختبر عليه العيار من الغلة (النقود غير المتداولة)....». فتدخل المعز بنفسه لإنارة جوذر حول الطريقة التي ينبغي اتباعها لفض هذه القضية، قائلاً له:

«يا جوذر: هذا الذي ذكره في الاختبار عليه من الغلة مُحَال (مستحيل). إذ هو يعرف ما يرفع في الغلة، فليس يجعل على نفسه شاهداً منها، ولكن إنما يُختبَر عليه ما بأيدي الناس (العملة المتداولة)، ففيها تقع المصانعة (الارتشاء)، لأن التاجر (الصرّاف) يرضى أن يأخذ من الغلة على الجودة ويسامح في غير ذلك، إذ الربح مشترك بينهما. فعرّفه ذلك، وحذره من السقطة (الخطأ)، وأحْضِرْ بَدْراً إلى نفسك واسمع كلامه على ذلك، ثم عرفنا بما تقف عليهما من قولهما إن شاء الله»[15].

أفلا يمثل قمع عمليات التزوير التي يمكن أن تفضي إليها حرية ضرب النقود، وتحويل ما يقدمه الخواص من ذهب وفضة إلى عملة اعتيادية، ضماناً لإصدار وتداول عملة ذات عيار جيد، الشرط الأساسي لسلامة مالية الدولة وتشجيع الأنشطة الاقتصادية المتواصلة والمجدية؟ ألا تعتبر تلك الإجراءات أفضل طريقة لتضخيم الأداءات الدولية على المعاملات التجارية، لا سيما الأداء على ضرب السكة الذي من المفروض أن يكون معدله مساوياً للمعدل الذي سيجري به العمل في فاس في القرن الرابع عشر من الميلاد، وقدكان يوفر بلا شك لبيت المال بالمنصورية إيرادات ضخمة مماثلة للإيرادات التي قدرها

---

(15) سيرة جوذر، ص 91.

ابن حوقل بالنسبة إلى بيت المال بقرطبة في تلك الفترة بالذات؟[16].

* * *

تلك هي خصائص النظام المالي القائم الذات ضمن مؤسسات الدولة الفاطمية. وهو نظام صارم ومُمَرْكَز تحت السلطة الفعلية التي يمارسها خليفة مطلع وناشط ومتمرن على مهام الحكم والإدارة. أفلا تُعتبَر صلابة النظام المالي داخل أجهزة الدولة شرطاً لا بدّ من توفيره لضمان مواصلة سياسة الهيمنة التي سنها المهدي، ولتحقيق الأغراض الكبرى التي كان يحلم بها المعز ولا يحاول إخفاءها منذ اعتلائه عرش المنصورية؟.

(16) انظر، المديوني، الدوحة المشتبكة، ص 77 - 78. وحول معدل الأداء على ضرب النقود في فاس في القرن الرابع عشرة الذي كان قدره: 1,75 بالمائة بالنسبة إلى الذهب وأقل بقليل من 3 بالمائة بالنسبة إلى الفضة، انظر، إسبانيا الإسلامية، 1,75، 42 وابن حوقل، ص 104.

الباب الثالث

النظام العسكري

الفصـل الأول

الجهاز الدفاعي وخط التغطية المضاد للخوارج

1 ـ السياسة الدفاعية المتبعة في إفريقية قبل قيام الخلافة الفاطمية:

لا يمكننا إعطاء فكرة صحيحة عن سياسة الفاطميين الدفاعية تجاه بربر الغرب الذين يسميهم القاضي النعمان بكل حصافة «أهل القبائل» بالمقابل مع سكان إفريقية المتحضرة «أهل إفريقية»، دون أن نذكر قبل ذلك كيف كان نظام ذلك الجزء الأقصى من شرق المغرب الذي تنتهي في تخومه سلسلة جبال الأطلس، للدفاع عن نفسه ضد البربر الجبليين والرُّحَّل، أولاً تحت سيطرة الجند العربي في عصر ولاة بني أمية وبني العباس، ثم تحت سلطة أمراء بني الأغلب طوال القرن الثالث الهجري/ التاسع من الميلاد[1].

كما لا يمكننا درس هذا الموضوع بوضوح دون أن نذكر بإيجاز كيف نظم البيزنطيون (الروم) خطتهم الدفاعية لانتزاع الممتلكات الإفريقية التابعة للأمبراطورية الرومانية وبلاد النصارى من أيدي الوندال، وكيف ركزوا من أجل

---

(1) انظر بالنسبة إلى القرن الثامن من الميلاد، دراسة هشام جعيط السالفة الذكر، ولاية إفريقية. ص 104 - 119، ويمكن بالنسبة إلى القرن التاسع الرجوع إلى كتاب M. Vonderheyden، بلاد البربر في عهد دولة بني الأغلب، ص 169 - 170، وكذلك كتاب جورج مارسي، بلاد البربر الإسلامية. . . ص 44 - 53 و 74 - 76.

ذلك جهازاً دفاعياً سيستفيد منه العرب. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن دراسة شارل ديل القيمة المتعلقة بهذا الموضوع تغنينا عن وصف الجهاز الدفاعي المذكور وصفاً مفصلاً[2].

ذلك أن السياسة التي طبقها الولاة ثم الأمراء الأغالبة في إفريقية قبل قيام الخلافة الفاطمية، لصد البربر الذين تم إجلاؤهم إلى المناطق الجبلية وإلى أبعد من ذلك بالتخوم الصحراوية في جبال نفوسة ودمر جنوباً، وجبال أوراس والحضنة غرباً، وجبال بابورس وجرجرة في الناحية الشمالية الغربية، قلت إن هذه السياسة الدفاعية لا تختلف كثيراً عن السياسة التي اتبعها البيزنطيون وقبلهم الرومانيون ذاتهم، لحماية الأراضي الخاضعة لسلطانهم في شرق المغرب، حيث لم يتمكن العرب بدورهم من السيطرة على الجموع البربرية المقيمة في الجبال والفيافي، والتي ما فتئت تطمح بلهفة إلى التمتع بخيرات إفريقية، إلا «بإحياء» خطوط الدفاع التي أقيمت أولاً خلال القرنين الأول والثالث من الميلاد في عهد الامبراطورية الرومانية، ثم تعززت وتطورت في عهد الامبراطورية البيزنطية. وبناءً على ذلك فقد اضطر البربر المقيمون والرحل الخاضعون لرقابة الحاميات المسيطرة على سلسلة القلاع والحصون القائمة في مناطقهم، إلى الاعتراف بالسلطة النظرية التي كان يمارسها أصحاب إفريقية، ولكنهم كانوا ينتظرون دوماً وأبداً الفرصة السانحة لاستئناف الإغارات المعهودة من قبل والانقضاض على المدن الشرقية المزدهرة ونواحيها الثرية، وباختصار شق عصا الطاعة أو «الخروج عن السلطان».

وبناءً على ذلك فقد اعتمد الحاكم العسكري في العهد البيزنطي[3] ثم الوالي والأمير في العهد الإسلامي على المنشآت المحصنة التابعة لخط الدفاع القديم لوضع إفريقية في مأمن من الجبليين والرحل النهابين. وهكذا قد احتفظت

(2) CH. DIEHL، تاريخ السيطرة البيزنطية في إفريقيا (533 - 709).

(3) لأخذ فكرة عامة ولكنها صحيحة حول ثورات البربر في عهود الرومان والوندال والبيزنطيين والمسلمين، انظر بالخصوص جوليان، تاريخ شمال إفريقيا، ص 143 - 165، 321 - 327، 328 - 340.

الخطوط البيزنطية المطابقة للتحصينات الرومانية التي أقيمت في القرن الأول من الميلاد، بقيمتها الدفاعية، على غرار «سور الصين»، ناصبة دواماً واستمرار على تخوم إفريقية، في شكل منحرف ممتد من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربي، مجموعة من القلاع الرهيبة، من بينها المراكز المحصنة المنيعة، تبسة وطبنة وسطيف. وترجع بالخصوص إلى خط الدفاع الثاني مهمة القيام غربي الأربس بدور الحاجز المقام على الطريق المفضية عبر وادي ملاق وسهول مرماجنة إلى «بلاد إفريقية» (المعروفة إلى اليوم باسم إفريقية) ومدينة الإسلام العظيمة، القيروان. والواقع أن خط الدفاع المذكور هو الأول الذي أقيم في نوميديا القديمة لحماية الطريق الرئيسية الرابطة بين قرطاجنة وقسنطينة ومنطقة التل، قبل أن يحتل القائد البيزنطي شولومون نواحي أوراس والحضنة وسطيف سنة 539 من الميلاد. وقد كان ذلك الخط المرتكز على قلعتي قالمة وقسنطينة، يضم عدداً من المراكز المحصنة الضخمة والشاهقة، من بينها تيفاش وتيجس وتبراشق وتاسدوق، الواقعة في عرض نوميديا بين شقبنارية (الكاف) ووادي الرمل[4].

وهكذا فقد كانت مقاطعة إفريقية الرومانية، ثم مقاطعة الأمبراطور جستنيانوس وقواده الذائعي الصيت بيليزير وشولومون وترغليتا، مغطاة بشبكة من القلاع الواقعة في السواحل وفي نواحي الحضنة القاحلة وسهول الهضاب العليا، وفي وسط سباسب قمودة وسفوح جبال أوراس وبابورس، وهي لم تزل محتفظة بها في حالة جيدة في مطلع القرن الذي يهمنا، أي عصر «التألق الفاطمي»[5].

2 ـ الجهاز الدفاعي الفاطمي:

لقد كانت البنية الأساسية الخارقة للعادة المتكونة من المنشآت العسكرية، ومن بينها القلاع المنيعة، تمثل بالنسبة إلى أصحاب إفريقية الجدد جهازاً دفاعياً

---

(4) CH. DIEHL، المرجع المذكور، ص 226 - 298 وبالخصوص، ص 232 - 237 و 237 - 253.

(5) Gautier، عصور المغرب المظلمة. . .، ص 353.

رائعاً يمكن استعماله ضد أهل الجبال والصحاري من البربر المتعذر قهرهم. وهذا من شأنه أن يغني الفاطميين ـ كما كان الأمر من قبل بالنسبة إلى الأغالبة ـ عن إقامة منشآت دفاعية وقلاع وحصون جديدة غربي البلاد المتحضرة. بل يكفيهم أن يقيموا في قلب بلاد الزاب، غير بعيد عن مدينة زابي العتيقة، في سفح جبل الحضنة وسط إقطاعات بني كملان وغيرهم من أهل هوارة، مدينة محصنة جديدة، هي المسيلة التي سيعهدون بها إلى أسرة عربية من أتباعهم المحظوظين، هي أسرة بني حمدون، وسيتمثل دورها في مراقبة تحركات زناتة والتصدي لهم. ويكفيهم أيضاً أن يشيدوا في جبال تيتري مدينة أشير العتيدة التي سيتخذها حلفاؤهم التلكاتة الصنهاجيون ورئيسهم زيري بن مناد، قاعدة لبلادهم، وأن يقيموا أخيراً في شبه جزيرة رأس أفريكا القلعة البحرية الرهيبة المهدية التي سيجعلون منها العاصمة الأولى لمملكتهم. قلت يكفي الفاطميين أن ينشئوا هذه المدن المحصنة ليعتبروا أنهم قد جعلوا مملكتهم في مأمن من تقلبات الدهر، وقواتهم في وضع يسمح لها بالتوجه نحو بلوغ أهدافهم الكبرى، وتحقيق حلمهم القديم: ألا وهو انتصار قضية أبناء فاطمة(6).

فبفضل المسيلة الواقعة على الحافة الجنوبية من الحضنة، وفي تخوم تلك المساحات الشاسعة التابعة لبلاد الزاب المنيعة الخاضعة لسلطان الزناتيين الرُّحَّل، ثم بفضل أشير الواقعة من الناحية الشمالية الغربية في أعلى وادي الشلف، الذي يشق مع نهر مجردة جبال الأطلس الشمالية، تمكن خط الدفاع الممتد من الشرق إلى الغرب والمتركب من القلاع التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن بلاد قسنطينة ووادي سيبوس وجميع مناطق وادي مجردة الأعلى، من استرجاع قيمته الاستراتيجية. وكذلك الشأن بالنسبة إلى الحاجز الآخر الذي أقامه القائد البيزنطي الشهير شولومون بعد احتلال نواحي الحضنة وأوراس وسطيف، وجعل منه جهازاً دفاعياً يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي في شكل قوس، انطلاقاً من باغاية على حافة جبل أوراس الشمالية عبر الحضنة

---

(6) انظر الفصل السابع من هذا الباب: البحرية ونظام الجهاد في البحر.

عن طريق طبنة والزاب، حتى ساحل البحر عن طريق سطيف وميلة.

وقد استغل الفاطميون في مستهل مغامرتهم الهائلة، لفائدتهم ولفائدة أنصارهم الكتاميين من بربر منطقة القبائل الصغرى، كل ما تكتسيه من أهمية عسكرية تلك المدن المحصنة المحاطة بالأسوار أو المحمية بالحصون، ولتك القلاع التي تحرس أهم النقط الاستراتيجية الواقعة في طرق المرور الرابطة بين إفريقية وبلاد القبائل الصغرى. وبالفعل لما تفرقع ذلك الحزام المعد للدفاع عن إفريقية والموكول إلى حاميات عسكرية لم تكن تسيطرة عليها السلطة المركزية الأغلبية إلا بصورة غير كافية وغامضة، استطاع صانع الانتصار الفاطمي الداعي أبو عبد الله ـ كما أسلفنا ـ أن يصل بدون صعوبة على رأس أتباعه الكتاميين إلى مدينة الأربس التي تمثل آخر معقل في حدود إفريقية، وأن يسدد الضربة القاضية إلى الدولة الأغلبية المحتضرة(7).

3 ـ تطوّر السياسة الدفاعية الفاطمية:

ما إن قامت الخلافة الفاطمية مقام الدولة الأغلبية حتى طرأت تعديلات بالغة الأهمية على الوظيفة العسكرية التي كان يقوم بها الجهاز الدفاعي، وذلك بدفع من أصحاب إفريقية الجُدد. فقد تم تعويض مفهوم التغطية المضادة للبربر بمفهوم الدفاع ضد زناتة، في ظل نظام عربي لا محالة ولكنه بربري أساساً، لأنه يستمد كامل قوته المادية منذ الانطلاق من قوة بربرية هائلة، ألا وهي قوة الكتاميين «من أهل القبائل»، وذلك ضمن نظام سياسي تيوقراطي قد أقيم من أجل انتصار الإمامة الشيعية ذات النزعة الإسماعيلية، في بلاد المغرب قاطبة، للدفاع عن القضية السياسية الدينية العلوية التي تبناها الكتاميون المقيمون لمقاومة حركة الخوارج التي ما زالت تثير حمية الزناتيين الرحل وأبناء قبائلهم الجبليين وشبه الرحل من أهل قسطيلية وأوراس والزاب وغيرهم من سكان المناطق القاحلة في وسط وغرب بلاد المغرب، أمثال هوارة ومزاتة وبرزال ولواتة.

---

(7) انظر الباب الأول من القسم الأول: معركة الأربس.

وفي خضم هذا الصراع الذي يكتسي لا فحسب صبغة دينية لا شك فيها، بل أيضاً صبغة سياسية واجتماعية، ويثير - كما لو كان الأمر يتعلق بظاهرة وراثية - فئة اجتماعية على فئة أخرى في إطار ضيق يتنازع في صلبه، حسب نسق محدد بمرور العصور، نمطان من أنماط العيش لم يتغيرا قط منذ فترة ما قبل التاريخ، هما نمط عيش البدو الرحل وشبه الرحل الهائمين في الفيافي والسباسب، ونمط عيش المقيمين في الجبال والهضاب الخصبة والعامرة، سيحتفظ خط الدفاع حينئذٍ بخصائصه الدفاعية المُوجَّهَة هذه المرة ضد مجموعة زناتة دون سواها، التابعة لنواحي قسطيلية وأوراس والزاب، أي مجموعة البدو الرحل وشبه الرحل، لفائدة المجموعة المنافسة الأخرى من أهل القبائل الصغرى وتيتري، أي مجموعة كتامة وصنهاجة.

وسيقوم هذا الخط الدفاعي على وجه الخصوص بدور يكاد يكون جديداً، في إطار خطة هجومية تقضي باستعمال المنشآت العسكرية القديمة التي ما زالت تؤوي بلا شك حاميات الثغور، كقواعد ارتكاز للحملات العسكرية الواسعة النطاق والملائمة للسياسة الفاطمية التوسعية في اتجاه المغرب الأقصى والأندلس[8].

(8) تمثل ثورة أبي يزيد التي تناولناها بالدرس في البابين الثالث والرابع من القسم الأول نموذجاً رائعاً للصراع بين مجموعة زناتة ومجموعة القبائل. ولنتذكر على الأقل من بين الحملات الواسعة النطاق على المغرب الأقصى، الحملة التي قادها ميسور الخادم في مستهل عهد القائم سنة 935/323 والحملة التي قادها جوهر الخادم في عهد المعز سنة 958/347 - 959.

الفصـل الثانـي

الجيـش الفاطمـي

1 - دور الجيش في سياسة الفاطميين التوسعية:

في هذه البلاد الممتدة الأطراف التي يعيش أهلها من جهة في الإطار الضيق للمجموعات القبلية والطوائف المتناحرة، ولا يخضعون من جهة أخرى خضوعاً تاماً لأي سلطة مركزية منظمة مهما كان نوعها، فتراهم يميلون دوماً وأبداً إلى الانتقاض على السلطة، ويجدون ملجأً طبيعياً في السباسب الشاسعة والفيافي والجبال المنتصبة في سلسلة الأطلس المزدوجة والممتدة بصورة موازية لساحل البحر من الشرق إلى الغرب، انطلاقاً من الجذع المشترك المتمثل في الأطلس المغربي، لا تستطيع أي دولة منظمة فرض سلطتها بصورة دائمة، ولا الحفاظ على نظام إداري متسلسل عتيد، دون الاعتماد على نظام هيكلي عسكري لا تشوبه شائبة، يرتكز على جيش قوي وجهاز دفاعي في الثغور لا تنال منه المحن. والجدير بالملاحظة أن هذا التصور للنظام العسكري لم يغب عن أذهان الخبراء بالخطط الحربية، سواء منهم الرومانيين أوالبيزنطيين. وقد كانت للفاتحين العرب هم أيضاً نفس النظرة، ما داموا قد أقروا العزم على بسط سلطانهم على تلك الربوع. ذلك أن جنود الفتح العربي قد اعتمدوا على الجهاز الدفاعي القديم القائم الذات، واستعملوه لإبقاء الحضور العربي الإسلامي في تلك البلاد البربرية المعاكسة. فكما كان الشأن من قبل بالنسبة إلى الرومانيين والبيزنطيين أولاً، ثم الولاة والأمراء من بعدهم، كان من الضروري أيضاً بالنسبة إلى الفاطميين بوجه أخص، لا سيما وقد اقتحموا بلاد المغرب من أول وهلة تحدوهم نية مبيتة وصريحة ترمي إلى إخضاع تلك البلاد بأسرها لسلطتهم، في

انتظار بسط سلطانهم على العالم الإسلامي بتمامه وكماله، أن يمنعوا القبائل البربرية المشاكسة من التعدي لما عجزوا عن إخضاعهم، وحملهم على الاعتراف دواماً واستمراراً بتلك السلطة التي كانوا مستعدين دائماً لمعارضتها[1].

فما إن تم فتح المملكة الأغلبية والقضاء على الدولة الإدريسية في فاس[2] والدولة الرستمية في تاهرت، وكذلك دولة بني مدرار في سجلماسة، وقد كانت دولة صغيرة ولكنها معتبرة، حتى فُرض على أصحاب إفريقية الجدد الاضطلاع بمهمة مزدوجة تتمثل أولاً في الدفاع بنجاعة عن الأراضي التي فتحوها وأصبحوا يتصرفون في شؤونها، ضد غارات البربر المعاكسين، وفي الوقت ذاته إتمام فتح بلاد المغرب بأسرها، حتى يتمكنوا من إبقاء المساحات الممتدة الأطراف في الناحية الغربية تحت سيطرتهم.

فمن الناحية النظرية وعلى نفس المستوى يجب أن تكون بلاد المغرب قاطبة تابعة لهذه الخلافة الأولى المقامة في شمال إفريقيا، أو بالأحرى الخلافة المضادة التي تدعى أن الحق الشرعي للحكم في العالم الإسلامي يجب أن يرجع إلى ذرية الرسول من سلالة فاطمة، وهي بالتالي خلافة عمومية وشمولية. ومجمل القول إن الخلافة التي أقيمت في المغرب في مطلع القرن العاشر من الميلاد على أنقاض الدول المنقرضة الثلاث ينبغي أن تشمل المقاطعة الإفريقية البيزنطية بتمامها وكمالها بأقسامها الأربعة: البلاد الطرابلسية والمغرب الأدنى والمغرب الأوسط (نوميديا في القديم) والمغرب الأقصى (موريتانيا في القديم).

والواقع أن النفوذ الفاطمي الفعلي الذي انطلق على وجه التحديد من برقة

(1) انظر هشام جعيط، المرجع المذكور، ص 115 - 116.

(2) انظر القسم الأول، الباب الأول: هروب زيادة الله وسقوط الدولة الأغلبية، ثم الباب الثاني: الحملة على سجلماسة.

يقف عند إقليم تاهرت في حدود المغرب الأقصى، بصورة تكاد تكون دائمة. وفيما وراء تلك الربوع في اتجاه الغرب، ستكون السلطة الفاطمية دوماً وأبداً محل نزاع من قبل الزناتيين التابعين لقبيلة مغراوة العتيدة والمتعذر إخضاعهم[3].

2 ـ الدوائر العسكرية:

هل كانت المملكة الفاطمية مقسمة إلى سبع دوائر عسكرية، كما يدعونا إلى اعتقاد ذلك النظام الذي أقره الداعي أبو عبد الله ـ كما أسلفنا ـ لما «قسم كتامة أسباعاً وجعل لكل سُبُع منها عسكراً وقدم عليه مقدماً»[4]، منذ أن حقق وحدة الطائفة البربرية الشيعية الجديدة حول شخصه ولحساب الإمام؟ إن المصادر التي بين أيدينا لا توفر لنا معطيات دقيقة للإجابة على هذا السؤال، وذلك إثر وفاة الداعي بعد أقل من سنتين من تاريخ الإعلان عن الخلافة، وتبعاً لذلك فإن أي تأكيد في هذا الشأن لا يمكن أن يكون إلا ظنياً. إلا أنه من المحتمل أن يكون هذا التقسيم العسكري الذي أحدثه الداعي قد بقي ساري المفعول بعد وفاة صانعه. فقد ظلت خمسة أقاليم على أقل تقدير في أيام الخلفاء الفاطميين الأربعة منظمة في شكل «أعمال» يمارس فيه العمال السلطات المدنية والعسكرية: وهي برقة وطرابلس وقسطيلية والزاب وتاهرت[5]. وقد سبق أن أشرنا عند دراسة الإدارة المدنية إلى الأهمية التي اكتستها إحدى تلك المقاطعات في إطار النظام الإقليمي للمملكة، وهي مقاطعة الزاب. ولكننا لاحظنا أن الوضع المتميز الذي كانت تحظى به أسرة بني حمدون الساهرة على حظوظ الزاب، يرجع سببه إلى دور «الثغر» الذي عُهِد به منذ قيام الخلافة الفاطمية إلى ذلك الإقليم البعيد عن المركز، وإلى قاعدته المسيلة[6]. وقد قام

(3) انظر بالخصوص الباب الخامس من القسم الأول، الصراع الحاد الذي نشب بين الزناتيين والصنهاجيين الموالين للخلافة الفاطمية.

(4) افتتاح الدعوة، الفقرة 123.

(5) انظر هشام جعيط، المرجع السابق، ص 115 - 119.

(6) انظر الباب الأول من القسم الثاني: النظام الإقليمي.

الزاب بنفس الدور في أيام الولاة والأمراء الأغالبة. وكان جورج مارسي أول من أشار بكل حصافة إلى ذلك الدور حين قسم بلاد المغرب التي وصفها اليعقوبي إلى قسمين إداريين اثنين، هما القسم الشرقي الذي يغطي إفريقية وهو منظم إدارياً و «متحضر» والقسم الغربي المطابق لنواحي الحضنة والزاب الممتدة الأطراف والواقعة غربي المملكة على التخوم الصحراوية[7].

ذلك أن المهمة الأساسية التي يضطلع بها الخلفاء الفاطميون، للدفاع عن مملكتهم كانت ـ كما هو معلوم ولكن لا بأس من تأكيد ذلك من جديد ـ تتمثل في إقامة سد منيع على الطريق الصحراوية الممتدة غربي القيروان. فكان من اللازم حينئذٍ غلق طريق التسرب الطبيعية الواقعة على حدود نوميديا القديمة الجنوبية، والتي تتبع مضيق القنطرة المعروف «بفم الصحراء»، ثم تصعد في اتجاه الشرق والشمال لتصل إلى وادي مسكيانة ووادي ملاق. وقد كانت توفر للقبائل الصحراوية ثغرة مفتوحة على مناطق إفريقية الخصبة[8].

فبالإضافة حينئذٍ إلى القلاع التي كانت في إفريقيا الرومانية ثم البيزنطية تسد باب الصحراء أمام القنطرة، ومن بينها بالخصوص قاعدة لامبيز العتيدة التي فقدت لا محالة في الفترة التي تهمنا قيمتها العسكرية الناشئة عن حضور الفيالق الرومانية في الماضي بصورة دائمة، ومنها على سبيل المثال فيلق أوغستينوس الثالث الشهير «الذي كان يقوم بحراسة مدخل الصحراء طوال قرنين»[9]، قلت بالإضافة إلى هذه القلاع، حرص الفاطميون، كما هو معلوم، على تشييد مدينة المسيلة المحصنة، بعدما أجبر أبو القاسم، الملقب فيما بعد بالقائم، بني كملان الطائشين وغيرهم من أهل هوارة على التوجه إلى مناطق بعيدة عن المهدية بما فيه الكفاية على الطريق المؤدية إلى القيروان للإقامة بها.

---

(7) جورج مارسي، بلاد البربر في القرن الحادي عشر حسب اليعقوبي، ص 53 - 54.

(8) انظر: Cagnat، ص 683 وما بعدها، و Schulten، إفريقيا الرومانية، المجلة التونسية، ص 65 - 67، و Diehl، ص 244 - 245.

(9) انظر Schulten، المرجع المذكور، ص 65.

وهكذا خلفت المسيلة التي أقيمت بالقرب من مدينة زابي العتيقة غربي لامبيز، هذه القاعدة الأخيرة في القيام بدور الدفاع عن المملكة ضد القبائل الصحراوية التي كانت غاراتها التخريبية تهدد إفريقية، لا سيما وقد أصبحت هذه البلاد في قبضة أولئك الأعداء الشرقيين العلويين الملاعين، الذين هم على شاكلة الأمراء المخلوعين ورعاياهم من أهل السنّة الذين كان يكرههم أيضاً البربر الخوارج من هوارة وبرزال ومزاتة وغيرهم من الزناتيين.

3 ـ صلاحيات العمال الفاطميين:

وفي المسيلة كما في غيرها لا محالة من مراكز الأقاليم البعيدة عن المركز، كان العامل المدني، مثل ابن حمدون المتمتع بسلطات مطلقة، كما أسلفنا، يمارس أيضاً السلطة العسكرية التي كان يمسك بزمامها في العهد البيزنطي في التخوم العسكرية على طول خط الدفاع قواد الفرق العسكرية المتمركزة في القصور والمدن المحصنة التابعة لخط الدفاع[10]. فقد كانت حينئذٍ السلطة التي يمارسها عاملٌ مثل جعفر بن حمدون في نطاق النظام السياسي والعسكري الإقليمي، تضاهي السلطة التي كانت تفوضها بيزنطة قبل ذلك بخمسة قرون، مع صلاحيات واختصاصات مماثلة، إلى حاكم المقاطعات (الدوق)، مثل ترغليتا في طرابلس أو غنتريت في نوميديا[11].

ورغم أن أوجه الشبه تبدو واضحة ضمن تسلسل البراهين الحدسية، فإننا لا نتجاسر على القيام بمثل هذه المقارنات، حتى لو كانت البلاد هي ذاتها، ولم تتغير كثيراً كما هو معلوم، وحتى لو كانت الأوضاع الاجتماعية والأسباب الاستراتيجية مماثلة. ذلك أن الوثائق المتوفرة لدينا لا تكفي للسماح لنا بالانتقال، دون ارتكاب أي خطإ، من طور البداهة الحدسية إلى طور الحقيقة التاريخية الثابتة. فلئن أسعف الحظ مؤرخي شمال إفريقيا في العصور القديمة بالاطلاع على وثائق «استراتيجيكا» المنسوبة إلى الامبراطور موريس وكتاب

(10) انظر Cagnat، المرجع المذكور، ص 713 - 714.

(11) انظر Diehl، ص 126 - 137.

«المجهول» المتعلق بالخطط الحربية (التكتيك)، وغير ذلك من الوثائق البالغة الدقة والروايات المفصلة، مثل كتاب بروكوبيوس» «De Bello Vandalico» أو بعض النصوص الشعرية الجذابة والنابضة بالحياة مثل «اليوحنّاوية» للشاعر كوريبوس، فإن مؤرخي المغرب في العصر الوسيط مرغمون من سوء الحظ على الاستقراء لانعدام النصوص الفنية، إن لم يكونـوا مضطرين إلى تجميع بعض شذرات من المعلومات المتنافرة والإرشادات المفككة، وبالتالي بذل الجهود للتوفيق بين مثل هذه المواد الزهيدة، في سياق رواية متجانسة ومستقيمة، قريبة أكثر ما يمكن من حقيقة الوقائع والأشياء[12]. وحسب المعلومات الهزيلة التي استقيناها من مصادرنا، يبدو أن دور العامل الفاطمي والسلطات التي يمارسها في الثغور (أو الأعمال). كانت تكتسي صبغة سياسية وعسكرية. وحيث أنهم كانوا يضطلعون في أعمالهم بمهام مدنية وعسكرية، كان عليهم لا فحسب تسيير شؤون المناطق الخاضعة لسلطتهم، بل أيضاً السهر على الدفاع عنها، وبالتالي احتلال المراكز المحصنة الموجودة فيها، وإقامة حاميات كافية بها، ومراقبة تحركات القبائل المقيمة في مناطق نفوذهم والقبائل المنتجعة، واتقاء مطامعها، وإخضاعها باستمرار لسلطتهم. أما في زمن الحرب فيتمثل دور العمال في تعزيز جيوش التدخل العسكري عند مرورهم من الثغور، أو توجيه الإمدادات إلى النواحي المهددة أو المدن المحاصرة في فترات الاضطراب[13].

ويتضح من ذلك أن العمال كانوا يقومون أولاً وبالذات بدور عسكري،

---

(12) استراتيجيكا، منشورات Scheffer، أوبسالا، 1864، و Anonyme منشورات Kochly، الجزء الثاني، ليزيغ، 1885. وبروكوبيوس De Bella Vandalico - بون، والحرب الوندالية، منشورات هوري، 1905 وانظر، الجزائر: تاريخ حروب الرومان والبيزنطيين والوندال، 1852، وكوريبوس ويوحنيس، في العالم الجرماني الجزء الثالث، بقلم Partsch، 1879.

(13) انظر حول الزاب والسلطات المطلقة التي يتمتع بها عمالها من بني حمدون، سيرة جوذر، ص 129 - 130.

فضلاً عن مهامهم المدنية والجبائية في المناطق الراجعة إليهم بالنظر، لا سيما الثغور الواقعة في جنوب المملكة. فيبدو حينئذٍ أن المهمة العسكرية كانت متفوقة ضمن نظام الدولة على المهام الأخرى. وقد كان القادة الكتاميون من رجال الحرب، يتقاسمون بينهم إدارة الأعمال بالمغرب، في الوقت الذي بدأ فيه تنظيم الخلافة الفاطمية منذ انتصاب المهدي برقادة[14]. وكان الداعي أبو عبد الله قد عودهم داخل الطائفة البربرية الصغيرة بإيكجان على الاضطلاع بالمهام الإدارية والجبائية وتسيير الشؤون العامة. وقد ارتقى جميع أولئك الرؤساء القبليين الذين أصبحوا «مشايخ» في ظرف خمس عشرة سنة، إلى مصاف «الدعاة» و«المقدمين» المتحملين لمسؤوليات جسام تشمل جميع جوانب حياة تلك المجموعة الفتية. فلما دعتهم السلطة إلى الاضطلاع بمهام العمال، صاروا يتوقون إلى القيام بدور عسكري قبل كل شيء. وهكذا فقد تم الخلط بالنسبة إلى ما يكتسيه النظام الإقليمي من صبغة عسكرية، بين صلاحيات العامل المدنية البحت، وبين ما تخوله إياه صفته كقائد للمنطقة الترابية التي يشرف على حظوظها[15].

4 ـ نظام القيادة:

يتمثل دوماً وأبداً شغل السلطة الشاغل في الدول الإسلامية خلال العصر الوسيط في الدفاع عن البلاد، وأداء واجب الجهاد المقدس. وقد ظل تنظيم الجيش وقيادته في إفريقية كما في غيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى، مطابقاً للتصور التقليدي للنظام العسكري الإسلامي الذي ضُبِطت خطوطه الكبرى في عصر فتوحات الخليفة عمر، ثم نُظِّم في شكل مؤسساتي في عهد الخلفاء الأمويين بدمشق، وبالخصوص اعتباراً من عهد عبد الملك بن مروان. وبناءً على ذلك لم يكن الخلفاء الفاطميون في حاجة من حيث المبدأ إلى تغيير

(14) افتتاح الدعوة، الفقرة 274.

(15) نفس المصدر، الفقرة 123.

مؤسسة ديوان الجند القائمة الذات من قبل[16]. ولا إلى تعديل نظام العطاء[17] المعمول به في العهد الأغلبي والشائع على أوسع نطاق ضمن النظام العسكري المطبق في الدولة العباسية أو الدولة الأموية بالأندلس. فليس من الضروري حينئذٍ التذكير في هذا المقام بخصائص تلك الأنظمة التي أصبحت معروفة[18].

إلا أنه قد كان من اللازم بالنسبة إلى أصحاب إفريقية الجدد أن يأخذوا بعين الاعتبار أهدافهم التوسعية والتركيبة العرقية الخاصة بجيشهم المتألف من فصائل بربرية كتامية، وأن يلائموا بين نظامهم العسكري وبين أوضاعهم الخاصة. وتبعاً لذلك فقد خضع نظام الجيش منذ قيام الخلافة الفاطمية لقواعد جديدة. ومن المعلوم أن الداعي أبا عبد الله هو أول من استنبط وطبق نظاماً سياسياً وعسكرياً مبتكراً، يسمح للكتاميين بإظهار كل ما يتميزون به من تفوق عددي وعصبية قبلية. ذلك أن هذا الداعي الإسماعيلي المتمرن على مهام الدعوة الثورية، والمتدرب على أحسن وجه لدى ابن حوشب باليمن[19]، قد عرف كيف ينظم الكتاميين، فقسمهم إلى سبع فرق عسكرية (أسباع) وعين على رأس كل فرقة مقدماً، ليتسنى له إخضاعهم لضروريات الثورة في منطقة القبائل الصغرى ومقتضيات حرب الاستنزاف التي سيشنها على أمراء بني الأغلب. وقد كان هؤلاء المقدمون يمارسون السلطة السياسية والعسكرية داخل المجموعة البربرية الشيعية الفتية، تحت إشراف الداعي والإمام.

وبالفعل فقد شهدت مدينة القيروان ـ حسب خبر غير ثابت أورده ابن

(16) انظر حول هذه المؤسسة، دائرة المعارف الإسلامية، 616/1. وبالنسبة إلى القرنين الثامن والتاسع والمقارنة مع العصور القديمة، انظر جعيط المرجع المذكور، عدد 27، ص 108 - 110 وعدد 28، ص 91 - 92.

(17) انظر حول مؤسسة العطاء، دائرة المعارف الإسلامية، 751/1 - 752، وجعيط، عدد 27، ص 110 - 115. وحول إنشاء المهدي لديوان العطاء، انظر **افتتاح الدعوة**، الفقرة 275، وابن عذاري الذي أشار إلى صاحب هذا الديوان، وهو كتامي اسمه عبدون بن حباسة، **البيان**، 159/1.

(18) **إسبانيا الإسلامية**، 48/1 - 49 و 5/3، 67 - 68.

(19) **افتتاح الدعوة**، الفقرة 30.

عذاري في بيانه ـ قدوم سبعة فيالق تضم 300,000 رجل من مقر إقامة الأمراء الأغالبة القريبة منها، رقادة التي فر منها زيادة الله الثالث[20]. ومما لا شك فيه أن تقسيم كتامة إلى أسباع ثم إلى سبعة فيالق، قد ظل مطبقاً على امتداد نصف قرن من الفترة الإفريقية، في صلب الجيش المتنقل أو جيش الغزو، والجيش الإقليمي أو الجيش المستقر والمتمركز في التخوم العسكرية.

وينبغي بالنسبة إلى تكوين الجيش الفاطمي التمييز بين جيش الغزو والجيش الإقليمي. إذ يبدو أن الجيش الفاطمي قد كان يتألف منذ مطلع القرن العاشر الميلادي من عنصرين اثنين، تميز بين كل عنصر المهمة الملقاة على عاتقه، وهما من جهة جنود الاحتلال المقيمون داخل الحاميات المتمركزة في المقاطعات العسكرية ومن جهة أخرى الجنود المتنقلون، أو جنود الغزو الذين يتدخلون في أماكن الاضطراب، أو يجتازون أثناء مرورهم في اتجاه المغرب الأقصى المناطق الجبلية أو الصحراوية التابعة لبربر زناتة المناهضين للفاطميين والمتعذر إخضاعهم.

وبعد ارتحال جنود التدخل المتنقلون إلى العاصمة، أو توجه جنود الغزو نحو مقاصدهم، يتعين حينئذٍ على وحدات القوات المسلحة المتمركزة في المدن المحصنة، منع البربر الخوارج من التعدي[21].

أما قيادة التشكيلات الكتامية فيجب أن ترجع بحكم القانون ـ بعد ما تولاها أبو عبد الله ـ إلى الإمام الذي قام الداعي الإسماعيلي بالدعوة لحسابه. ذلك أن ممارسة السلطة بعد ظهور المهدي والإعلان عن قيام الخلافة، قد أصبحت منذ ذلك الحين من مشمولات الخليفة. إذ تمثل قيادة الجيش إحدى

---

(20) البيان، 149/1.

(21) وهو الدور الذي ستقوم به حاميات المسيلة وتاهرت وطرابلس بالنسبة إلى جنوب شرقي المملكة. ويمكن أن نقارنه بالدور الذي كانت تقوم به المدن المحصنة للدفاع عن إفريقية الأغلبية ضد أهل جبال أوراس والقبائل الصغرى، وهي باغاية وبلزمة وسطيف وميلة، كما أشار إلى ذلك كل من اليعقوبي والقاضي النعمان.

الاختصاصات التي يتمتع بها الخليفة المناط بعهدته أداء واجب الجهاد المقدس. ومن هذه الناحية لا تختلف الخلافة الفاطمية الشيعية قط عن الخلافة العباسية أو الخلافة الأموية بالأندس. ذلك أن الخلفاء الفاطميين قد كانوا مثل الخلفاء العباسيين أو الأمويين، يضطلعون بأنفسهم بمهام «القيادة»، لقمع ثورة أو قيادة حملة عسكرية أو شن حرب، ولكنهم كثيراًماكانواعملياً يعهدون بمهمة ممارسة هذه الصلاحية إلى ولي العهد المُعَيَّن، أو إلى أحد «الوجوه»، فيرتقي «القائد» الذي وقع عليه الاختيار إلى أسمى المراتب العسكرية.

فيبدو حينئذٍ أن قيادة الجيش في العهد الفاطمي لم تكن تمثّل ـ كما هو الشأن بالنسبة إلى النظام العسكري المعمول به في سائر الدول الإسلامية خلال العصر الوسيط ـ مؤسسة منظمة حسب التدرج، مثل قيادة الجيش البيزنطي في إفريقية في عهد الامبراطور جستنيانوس[22]. فلا وجود في إفريقية الفاطمية لقائد عسكري من شاكلة بيليزير أوشولومون أو جرمانوس أوترغليتا. ولا وجود أيضاً لسلك ضباط ملحقين بخدمة القائد الأعلى للجيش، «ومرتبطين بشخصه بقَسَم الولاء»، وملتفين حوله في إطار «شبه هيئة أركان»[23].

إلا أن تأطير الجيش الفاطمي لم يكن من حيث المبدأ مختلفاً عن تأطير سائر الجيوش في العصور القديمة والعصر الوسيط. فقد كان على رأس كل فرقة مختصة من الجيش قائد خاص بها تحت سلطة القائد العام: مثل قائد الرجالة (أو سلاح المشاة) أو قائد الخيالة (أو سلاح الفرسان) الخ. . .

(22) انظر Diehl، ص 116 - 137 وبالخصوص ص 122 - 129.

(23) نفس المرجع، ص 123.

الفصـل الثالـث

إنشـاء ديـوان العطـاء

1 ـ جرايات ورواتب العسكر:

رغم أن قيادة الجيش لم تُنظَّم في شكل مؤسسة مُمَيَّزة، فقد كانت تابعة لديوان يكتسي صبغة مالية ولكنه يضطلع بمهمة عسكرية، ألا وهو «ديوان العطاء» الذي كثيراً ما يخلط الأخباريون بينه وبين ديوان الجيش أو الجند، ذلك أن جرايات الجنود كانت من مشمولات ديوان العطاء[1].

وقد كان أول ما حرص عليه المهدي لما تسلم عرش بني الأغلب ـ كما أسلفنا ـ تركيز الدواليب الإدارية الأساسية ومن بينها ديوان العطاء الذي أنشأه «وأمر بإثبات الموالي وأبناء العبيد، ومن سارع إلى الرزق واكتتب به فاجتمع من ذلك عرائس كثيرة»[2]. وولى على هذا الديوان عبدون بن حباسة الكتامي الذي أهله نسبه بلا شك لمعرفة أبناء قبيلته وتنظيم المصلحة الموكولة إلى عهدته حسب الطريقة التقليدية المستنبطة في عهد الخليفة عمر والمتمثلة في ترسيم مختلف البطون القبلية التي توفر الجنود للجيش.

وقد خُصِّصت في ميزانية الدولة أموال طائلة «للعطاء» والرزق»، أي للجرايات والرواتب التي يبدو أنها كانت تُدفَع بانتظام في مستهل كـلّ شهر ويمكن تقديرها بمبلغ يتراوح بين خمسمائة وألف درهم للشخص الواحد، مع

---

(1) انظر، دائرة المعارف الإسلامية 751/1 - 752 (العطاء)، و 616/2 (الجند)، و 517/2 و 522 (الجيش).

(2) افتتاح الدعوة، الفقرة 275.

العلم أن نصيب الفارس كان أعلى من نصيب الراجل، حسب القاعدة الجاري بها العمل سواء في العصور القديمة أو في العصر الوسيط. إلا أن المعلومات الممكن استيقاؤها من مصادرنا لا تتعلق إلا بحالات استثنائية تهم بعض الحملات الكبرى التي كان يستغلها الخليفة لتوزيع العطايا السخية على المقاتلين. ولدينا نص مقتبس من **المجالس والمسايرت** ويتعلق بالحملة التي قام بها جوهر على فاس وسجلماسة سنة 958، يدل على حسن تنظيم ديوان العطاء المُعَدّ لشخذ عزائم المجندين الكتاميين، بتوزيع الأموال الطائلة عليهم وإسناد الجرايات المرتفعة والعطايا الوافرة إلى الجنود. فقد كان المعز، حسب القاضي النعمان، «يسبغ على أوليائه وعبيده الصلات والأرزاق والكسى والحملان والعلوفة والجراية على نسائهم وأبنائهم، يقبضون ذلك بأيديهم. وإن خرجوا في بعث حَمَلَهم ووَصَلَهم وأدرّ أرزاقهم ما غابوا، وأبقى على مخلفيهم ما كان يجري عليهم. ومن استشهد منهم أو مات، أبـقى ما كان يجري عليه لمخلفيه. ويفرق عليهم السلاح والزوامل (الرواحل من الإبل) والمضارب (الخيام) وجميع أدوات السفر إذا سافروا، مع إقطاعهم القطائع أو الضياع واستعمالهم على الأعمال، وتعاهدهم بالهبات الجزلة والعطايا السنّية، وبلغتهم عند أوبتهم من البعوث بالكساء والصلات والمراكب والحملانات»[3]. فيبدو حينئذٍ أن الشعار الذي تبناه الخلفاء الفاطميون من تنظيم جيوشهم خلال الفترة الإفريقية التي قامت فيها كتامة بدور متفوق، كان يتمثل في إعطاء الجنود الكتاميين جرايات ورواتب مرتفعة.

2 ـ نظام ديوان العطاء:

ليست لدينا حول نظام ديوان العطاء سوى بعض المعلومات الزهيدة المتناثرة هنا وهناك في المصادر التي بين أيدينا، وذلك لانعدام الوثائق الفنية المتعلقة بهذا الموضوع. والواقع أن دور هذا الديوان التابع للإدارة المركزية الفاطمية لم يكن في الجملة يختلف كثيراً عن الدور الذي أقرته في المشرق

(3) **المجالس**، ص 531 - 532.

والمغرب على حد سواء التقاليد المعمول بها في سائر الدول الإسلامية منذ العصر الأموي، والتي يرجع عهدها بالتأكيد إلى «خلافة» عمر أثناء الفتوحات الكبرى. فقد كان دور ديوان العطاء ضمن النظام العسكري التقليدي يتمثل إجمالاً في ترسيم المجندين من أبناء القبائل حسب نسبهم، وتحديد رواتبهم وضبط مختلف طرق تجنيدهم، والسهر على تطبيقها، وسنحاول فيما يلي تحديد خصائص هذا الديوان في إطار النظام العسكري الخاص بالفاطميين.

فقد كان معظم الجنود العاملين في صفوف الجيش الفاطمي في شكل قوات مسلحة نظامية متألفة من البربر أي من أبناء البلاد من غير ذوي الأصل العربي. ذلك أن الفاطميين، خلافاً لأسلافهم الأغالبة، كانوا ـ كما هو معلوم ـ يستغنون عن خدمة العناصر العربية من أهل البلاد، سواء بالنسبة إلى الضباط السامين أو بالنسبة إلى الجنود.

ولكن بقدر ما تتوطد أركان الدولة الجديدة، يشمل التجنيد الذي كان مقصوراً في أول الأمر على «الأولياء» الكتاميين، المملكة الموروثة عن الأغالبة بأسرها، أي إفريقية بحصر المعنى. وهكذا بدأ منذ عهد المهدي حشد الجنود في كافة «الكُوَر»، حيث ستظل مهام قيادة الجيش وإدارة الأعمال حكراً على «مشايخ» كتامة من الطائفة الإسماعيلية[4].

إلا أنه يجوز التأكيد على أن السكان المدنيين لا يوفرون للجيش سوى عدد قليل من المجندين، إذ أن العدد الأوفر من رجال الجيش يتم تجنيدهم في بلاد القبائل الصغرى من بين أنصار القضية العلوية الكتاميين، وجيرانهم الأقرباء في بلاد القبائل الكبرى «زواوة»، ثم في الفترة الموالية من بين «الأولياء» الآخرين، أي أهل جبل تيتري من الصنهاجيين التلكاتة، أتباع القائد زيري بن مناد. وهذا يعني أن أهل إفريقية الذين أقصاهم عن المسؤوليات السياسية والعسكرية نظامٌ يكرهونه ويكرههم، قد كانوا «معفين من الخدمة العسكرية»،

(4) افتتاح الدعوة، الفقرة 123.

وغير معنيين بعملية التجنيد بحكم الواقع، ولكنهم كانوا، حسب الاحتمال، خاضعين للتعويض في شكل أداء على الجندية[5].

على أن نظام التجنيد هذا الذي كان يوفر معظم رجال الجيش النظامي ـ في حين كان القسم الأقل عدداً متألفاً من الخدم والعبيد الزويليّين ـ لم يكن يستثني أشكال التجنيد التقليدية الأخرى، مثل عملية «الحشد» التي كانت تزيد من عدد الجنود. ذلك أن الخلفاء الفاطميين الطاغية عليهم فكرة الغزو وأحلام الهيمنة قد كانوا حريصين على أن يجعلوا من جيشهم جيشاً عظيماً لا يُقهَر[6].

3 ـ عمليات التجنيد والحشد:

تتضمن النصوص التي بين أيدينا حول التجنيد والحشد، بالرغم من دقتها، معطيات متضاربة تتعلق ـ والحق يقال ـ ببداية الدعوة الفاطمية بإفريقية فحسب، أي الفترة التي دامت ما بين سبعة وثمانية أعوام، وكان الداعي أبو عبد الله يسعى خلالها، انطلاقاً من مخابئه الجبلية في إيكجان وتازروت، إلى تقويض صرح الدولة الأغلبية.

إلا أن صاحب الافتتاح قد قدم إلينا المعلومة التي كانت تنقصنا في روايته لمغامرة الداعي الإسماعيلي، حول الطريقة التي توخاها لحشد جنوده، وذلك بمناسبة فتح المدينة المحصنة الهامة طبنة التي سمحت له اعتباراً من سنة 905/293 ـ أي قبل سقوط رقادة بثلاث سنوات ـ بالتحكم في منطقة خصبة وهامة مثل بلاد الزاب الواقعة في تخوم المملكة.

فقد أعلمنا القاضي النعمان أن الداعي كان يلجأ إلى النداء لا غير، فقال:

---

(5) الهادي روجي إدريس. مجلة الدراسات الإسلامية 1935 ص 369 [ورياض النفوس، طبعة بيروت، ص 368]، وقد جاء فيه أن «أهل البلد بذلوا دينارين لحاشد السودان ليترك سبيل أبي رزين».

انظر كيف كان أهل الأندلس في نفس تلك الفترة يتخلصون من الاستنفار مقابل دفع غرامة مالية، إسبانيا الإسلامية 71/3، الهامش 1.

(6) انظر الباب الخامس من القسم الأول: ولاية المعز وبالخصوص الخطبة التي أظهر فيها وفاة والده.

«ثم لأن أبا عبد الله نادى في الناس فاجتمعوا إليه، وكذلك كان حشده إنما بالنداء»(7).

وقد أشار ابن عذاري من جانبه إلى هذا «الاستنفار بالنداء»، معتمداً حسب الاحتمال على الخبر الذي أورده الرقيق في هذا الشأن، مما يحملنا على تصديقه لأن الرقيق - ولئن عاش بعد النعمان بقرن - يمكن اعتباره من الأخباريين المعاصرين للوقائع التي تحدث عنها صاحب الافتتاح، والجديرين بالثقة مثله، لا سيما وقد اعتمد الكاتبان على وثائق المحفوظات(8). وحسب رواية ابن عذاري فإن أبا عبد الله «كان حشده بغير ديوان، إنما كان يكتب إلى رؤساء القبائل، فيحشدون من يليهم طاعة له ورغبةً فيه...»(9).

ويبدو أن طريقة الحشد هذه الملائمة جداً للفترة التي حقق فيها الداعي إجماع كتامة حول شخصه لحساب الإمام ونظم صفوف جنوده ليقودهم إلى فتح المملكة الأغلبية، قد كانت مستعملة فحسب خلال تلك الفترة الممتدة من سنة 902/289، وهي السنة التي تم فيها فتح ميلة، إلى سنة 909/296 الحاسمة.

وهكذا فإن الخبر المتناقض(10) الذي اقتبسه ابن عذاري هذه المرة من رواية محمد بن يوسف الوراق، المحشوة بالمعطيات الخرافية المستمدّة من الرواية الإبضاية لدعوة أبي عبد الله، أو المنمقة لمزيد التنديد بالنظام الذي فر منه العلامة القيرواني ملتجئاً إلى الحَكَم المستنصر، قلت إن هذا الخبر يمكن أن نجد له تفسيراً لو تعلق الأمر بالفترة السابقة التي دامت هي أيضاً سبعة أعوام، وسعى خلالها الداعي الإسماعيلي إلى حمل الكتاميين على اعتناق مذهبه والدخول في دعوته القائمة في دار هجرته بإيكجان ثم تازروت. ويجوز لنا أن

(7) افتتاح الدعوة، الفقرة 161.

(8) نفس المصدر، مقدمة الترجمة الفرنسية. انظر أيضاً، دائرة المعارف الإسلامية، 168/1 (أبو يزيد) و 107/1 (أبو عبد الله الشيعي).

(9) البيان، 138/1.

(10) نفس المصدر، 128/1.

نتصور أن أبا عبد الله قد أخضع أتباعه في تلك الفترة من دعوته للخدمة العسكرية بإنشاء ديوان لترسيمهم فيه ومراقبة تجنيدهم. ومما لا شك فيه أن الكتاميين الذين دخلوا في دعوته قد كانوا مسجلين لا محالة في ديوان مماثل لديوان الجند، للتثبّت من عدد المجندين وتحديد رواتبهم. وهذا بالضبط ما يتضح من المعلومات الثمينة التي أوردها القاضي النعمان في مناستين متشابهتين[11]، ومفادها أن الداعي المتمرن على أساليب التنظيم الثوري التي تدرب عليها قبل ذلك في اليمن لدى ابن حوشب، قد ابتنى قصراً بتازروت التي اتخذها دار هجرة لأوليائه، وقاعدة لخدمة الثورة في بلاد القبائل الصغرى، لما اضطر إلى مقاومة تحالف القبائل المعارضة لدعوته، ثم لمحاربة المدن الأغلبية المحصنة و «قوات الأمن» التي يتعين عليه مواجهتها في الحال. إلا أن أبا عبد الله قد نزل في إيكجان من جديد ـ كما أسلفنا ـ إثر انتصاره على قوات التحالف وانهزام الجيش الأغلبي الأول المُوَجَّه ضده، وذلك بعدما دمر القائد الأغلبي أبو حوال تازروت. «فابتنى بإيكجان قصراً، وارتحل الناس إليه، وصار دار هجرة للمؤمنين»، وقاعدة لصد الحملات الأغلبية والزحف على إفريقية.

ذلك أن «الأولياء» الكتاميين المسجلين في ديوان شبيه بديوان الجند، والمتأهبين في كل آنٍ وحين للقتال عند استئناف العمليات الحربية، بوصفهم «جنوداً» أو «أجناداً» (أي جنوداً نظاميين) لا بوصفهم «حشوداً» أو «أحشاداً» (أي جنوداً متطوعين)، قد أقطعهم الداعي دوراً حول القصر الذي ابتناه بتازروت[12].

أفلا يذكرنا نظام هؤلاء الكتاميين المجموعين ضمن تشكيلات سياسية وعسكرية، نظام «جنود» أو «أجناد» الفتح العربي، وأعقابهم المستقرين في البلاد خلال عهد الولاة الأمويين والعباسيين ثم على امتداد العهد الأغلبي؟ ذلك أن قدماء الجنود المسلمين من ذوي الأصل العربي أو الفارسي الذين نزلوا في

---

(11) افتتاح الدعوة، الفقرتان 80 و 107 بناء قصر بتازروت وإقطاع دور للأولياء، والفقرة 142، نفس الشيء في إيكجان.

(12) انظر الفرق بين جند أو أجناد وبين حشود أو أحشاد، إسبانيا الإسلامية، 68/3. الهامش 1.

المناطق الجبلية التي انتصبت فيها المؤسسات العسكرية، قد كانوا خاضعين لنظام عسكري شبيه بالنظام الذي سيخضع له الكتاميون في عصر أبي عبد الله، حين كانوا يتأهبون للدخول في تاريخ إفريقية الإسلامية. والجدير بالملاحظة أن هذا النظام الأخير لا يخلو أيضاً من أوجه شبه مع نظام «الجنود المُعمِّرين» الذين أُقطِعوا في العصور القديمة بعض الأراضي القريبة من الحدود لزراعتها والذود عنها بحد السلاح(13).

وبالتالي فإن الكتاميين الذين أقطعهم الداعي دوراً حول قصره قد كانوا خاضعين حينئذٍ للخدمة العسكرية المستمرة، ومع ذلك يبدو أنهم لم يكونوا يتقاضون أي راتب بصورة منتظمة خلال الفترة التي سبقت قيام الدولة الفاطمية أي طوال خمس عشرة سنة. فكانوا من «المتطوعين» الذين يظلون مجندين أثناء سير العمليات الحربية ثم يرجعون في زمن السلم إلى ديارهم محملين بنصيبهم من الغنائم. ولم يصبحوا جنوداً بأتم معنى الكلمة وقواداً للجيش النظامي المجهز «بديوان أجناد» إلا في عهد المهدي. واعتباراً من ذلك التاريخ ستصبح الخدمة العسكرية في أيام الخلفاء الفاطميين الأربعة احترافاً حقيقياً بالنسبة إلى الكتاميين الذي سما بهم دورهم التاريخي، تحت تأثير عصا أبي عبد الله السحرية، من وضعية فلاحين فقراء مغمورين، إلى وضعية فاتحين أمجاد، «وصانعي ممالك»(14).

فيجوز لنا التسليم بوجود ديوان جند منذ عصر الداعي، في شكل هيكل بدائي يستجيب من أول وهلة لمقتضيات إحصاء «الأولياء» الكتاميين وتحديد عدد المنتمين إلى التشكيلات العسكرية السبع (الأسباع). وفي إطار هذا النظام الملائم لما شهدته كتامة من أوضاع اجتماعية وعسكرية وسياسية جديدة،

---

(13) انظر، R. Cagnat، جيش إفريقيا الروماني. . . ص 742. انظر أيضاً، جعيط، المرجع المذكور ص 109 - 110 وإسبانيا الإسلامية 48/1 - 49و 68/3 - 69 «الكور المجندة».

(14) انظر Gautier، مغزى انتصار كتامة، ص 350 - 355.

فرضت أنماط العيش الخاصة بأهل الجبال المنتشرين في مختلف أرجاء بلاد القبائل الصغرى، اللجوء إلى «الاستنفار بالنداء».

وبطبيعة الحال فإنه لم يبق أي أثر لهذه الطريقة في عهد الأيمة. فمنذ إنشاء الجيش النظامي إثر إعلان المهدي عن قيام الخلافة، سيقع اللجوء ـ كما هو الشأن في الأندلس أو في المشرق ـ إلى طريقة «الحشد» المعروفة، سواء في شكل تجنيد أو تعبئة، وسيُطلَق على المجندين في سائر جهات المملكة اسم «الحشود»، وعلى المكلفين بعمليات التجنيد، اسم «الحُشاد» (جمع حاشد) ويبدو أن التمييز الذي أشار إليه ليفي بروفنسال في الأندلس خلال نفس تلك الفترة[15]، بين «الجنود» و «الحشود» أي بين «الاستنفار» أو «النفير» من جهة و «الحشد» من جهة ثانية، لم يكن معروفاً بإفريقية في العهد الفاطمي. إذ يطلق اسم «الحشد» على الجنود النظاميين المسجلين في الديوان والمجندين عن طريق التعبئة، على حد سواء. وإذا صدقنا أقوال أصحاب التراجم الإفريقيين، من أمثال صاحب رياض النفوس وغيره من الكتاب الذين كانوا يتعمدون الإساءة إلى سمعة الفاطميين، للرفع من شأن أهل السنّة من فقهاء وصلحاء في القرنين الثالث والرابع، «فإن الفاطميين كانوا يقومون بعمليات مطاردة حقيقية، وإذا قبضوا على العصاة أوثقوهم اثنين اثنين. . .»[16]. وقد شبه المالكي أو اللبيدي[17] سلوك الحُشاد الذين كانوا ينتمون إلى فئة العبيد، بسلوك الطغاة المريعين الذين كانوا يجمعون المجندين طوعاً أو كرهاً، شذر مذر، سواء في البوادي والمدن الداخلية الكبرى أو على طول السواحل[18].

---

(15) إسبانيا الإسلامية، 80/3.

(16) إدريس، المرجع المذكور، 1936 ص 80.

(17) نفس المرجع، 1936 ص 169 - 170 ومناقب أبي إسحاق الجبنياني ص 224 - 225 - 240 - 241.

(18) انظر أيضاً سيرة جوذر، ص 122: ربيع الصقلبي الذي خرج لحشد البحريين وتعسف على أهل فندق ريحان.

الفصل الرابع

البنية العرقية للجيش الفاطمي

1 ـ كتامة:

لقد كان البربر الكتاميون من بلاد القبائل الصغرى يمثلون طوال الفترة الإفريقية من العهد الفاطمي العنصر المتفوق داخل جيش العُبَيديين الذين ارتكزت دعوتهم منذ البداية على العصبية الكتامية. وبعد سقوط الدولة الأغلبية أصبح عرب إفريقية وأعقاب «جند» الفتح و «الأعاجم» (الفرس) المندمجون مع أهل البلاد، لا يقومون إلا بدور ثانوي. وقد انتهى بهم الأمر إلى فقدان ما كان يتميز به أجدادهم من ولوع بالمهنة العسكرية وتقديرها حق قدرها. وبناءً على ذلك فقد اعتمد الفاطميون على الكتاميين دون سواهم، سواء كانوا مقيمين أو رُحّلا، وعولوا إلى حد بعيد على حماسهم وإخلاصهم[1].

فلم ينتدب بنو عُبَيْد حينئذ العناصر اللازمة من الجنود والقواد لتكوين جيشهم العظيم، على عين المكان في إفريقية، بل انتدبوا في بلاد كتامة «الأولياء» الذين عهدوا إليهم بالقيادات الهامة والإقطاعات منذ أن اعتلى العرش المهدي بالله.

أما الإقطاعات التي تمتعت بها العناصر الكتامية من الجيش النظامي الذي ألف الداعي نواته الأولى وقسمها إلى «أسباع»، فإن المصادر المتوفرة لدينا لم تمدنا بمعلومات مضبوطة حول نظامها. فهل اتخذت الشكل الذي تم إقراره في

---

(1) المجالس والمسايرات، ص 248 وما بعدها وص 255 وما بعدها وص 344 وما بعدها. وسيرة جوذر، ص 59 - 60.

شرق بلاد المغرب منذ القرن الأول من الفتح، أي شكل إقطاعات، يتمتع بحق الانتفاع بها الجنود العرب وأعقابهم فيما بعد، مقابل الخدمة العسكرية المستمرة؟ يبدو أن إسناد الإقطاعات قد كان يتم على أساس تقديرالقيمة الإجمالية للضياع التي كان أبناء القبائل يقومون بإحيائها ويتمتعون بإيراداتها مقابل المبالغ المدينين بها للدولة[2].

ولم يتأخر الأخباريون عند عرض تاريخ الفترة الإفريقية من العهد الفاطمي، عن تأكيد ما قام به الكتاميون من دور متميز في انتصار قضية العلويين في المغرب وتعاظم قوتهم الهائلة. وقد أطنب آخرهم وأكثرهم وضوحاً، وهو ابن خلدون[3]، في كتابه «العبر»، في إبراز قوة عصبيتهم عند انطلاق مغامرتهم المذهلة، والدعم الفريد من نوعه الذي قدموه إلى القضية الشيعية، ثم إنهاك قواهم في العمل تحت راية الفاطميين في المغربين الأوسط والأقصى إلى حدود الأندلس غرباً، وفي مصر والشام شرقاً. وقد اعتمد المؤرخ الفرنسي غوتيي فيما بعد على رأي صاحب المقدمة العبقري، وقد كان معجباً بدقة تفكيره، في بضع صفحات جذابة بالرغم من جرأتها، «على ضخامة تلك الثورة وصبغتها القاطعة، وعلى الدور الذي قام به الكتاميون»، وأضاف قائلاً، مستشهداً بكلام ابن خلدون: «لقد قضت تلك الثورة قضاءً مبرماً على مُلْك العرب بإفريقية، ومكنت الكتاميين من امتلاك السلطة العظمى»[4]. ولكن لئن يرجع الفضل إلى الكتاميين في إقامة المملكة الفاطمية العظمى في المغرب ثم في مصر، لأن قيام مملكة من الممالك يعود فضله دوماً وأبداً إلى قبيلة حازمة ومحدودة العدد، ولأن القبيلة تمثل الخلية الأساسية والجزء الحي الوحيد من العنصر السياسي، فإن أولئك

---

(2) انظر حول المشرق دراسة كلود كاهين، تطور الأقطاع من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، الحوليات، 1953، ص 23 - 53 - وللمقارنة بين النظام المعمول به في الشام والنظام المغربي المعمول به في «الكُوَر المجندة» بالأندلس والذي وصفه ليفي بروفنسال، وبين النظام الذي شهدته إفريقية بُعَيْد الفتح، انظر هشام جعيط، المرجع السابق، ص 108 - 110.

(3) البربر، 291/1 - 293، و 510/2 - 515.

(4) Gautier، ص 350 - 351.

الجبليين من بلاد القبائل الصغرى، والمقاتلين البواسل، قد أنهكوا قواهم في الحروب. «إذ أن الشرف المنجرّ عن تأسيس مملكة عظمى لا بدّ أن يفنى. حيث ستستنفد القبيلة طاقتها في المعارك، بل ربما حتى في ملذات الحكم، وستحترق في لهيب هائل»(5).

ذلك أن منشأ الانفجار الذي أحدثه الفاطميون، وتعاظم قوتهم العسكرية بشكل خارق للعادة، يعودان إلى «التهاب» كتامة. على أن هذا الدور الفريد من نوعه في تاريخ الغرب الإسلامي يرجع سببه بالنسبة إلى الكتاميين، إلى ما اكتسبته قبيلتهم من قوة وراثية تعبر عنها الحمية العصبية التي تحدوهم في توقهم إلى السلطة في ظل الداعي أبي عبد الله. وقد اتفق الأخبَاريون على الاعتراف بخصالهم الحربية الخارقة للعادة، مبرزين فضلهم ومجدهم. كما نوهت عدة تصريحات نسبتها المصادر الإسماعيلية إلى الأيمة، لا سيما منهم المنصور والمعز، بالدور العسكري الذي قام به الكتاميون في خدمة الدولة التي أسهموا في بعثها، ثم «السيف القاطع» على امتداد ثلاثة أرباع قرن. وقد احتفظت سيرة جوذر بأبلغ التصريحات التي أدلى بها ثالث الخلفاء الفاطميين في هذا الشأن. ففي الخطبة التي ألقاها المنصور إثر انتصاره على ثورة الخوارج بقيادة «صاحب الحمار» وأظهر فيها وفاة أبيه القائم، تخلص ذلك الخليفة المقدام، بعدما أشار إلى ضراوة المعركة التي شنها على خصمه، إلى الإشادة بإخلاص الرعيل الأول من «الأولياء» الكتاميين، قائلاً بالخصوص:

«يا أهل دعوتنا! يا أنصار دولتنا! يا كتامة! احمدوا الله واشكروه على ما خصكم به من نعمته... هداكم والناس ضلال إلى دينه ونصرة حقه وطاعة وليه، علم الهدى وسراج الدجى، وحبل الله المتين، فأفازكم بالسيف إلى نصرته، والسعي في طاعته، والتفيء بظل دولته، والاستنارة بضياء حكمته...

اللهم إني أصبحت راضياً عن كتامة لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على

(5) نفس المرجع، ص 352 - 353.

البأساء والضراء في جنبك، تعبداً لنا واعترافاً بفضلنا وأداءً لما افترض الله على العباد لنا، وتوسلاً إليك بطاعتنا...»[6] وقد ألف بنو سكتان وجيملة الفريق الأول من «الأولياء»، وهو عبارة عن نواة جيش يضم الأنصار الذين دافعوا عن قضية الداعي في قلب بلاد القبائل الصغرى وبالعكس من ذلك، فإن بطنَيْن من بطون كتامة، هما مسالتة ولهيصة المعارضَيْن للدعوة الإسماعيلية قد جمعا حولهما العناصر المناهضة لذلك «المشرقي» الدخيل بقيادة أحد وجوه سكتان، وهو بيان بن صقلان الذي استاء من الحظوة التي نالها الداعي لدى بني جلدته، والمقاتل اللهيصي الرهيب فحل بن نوح، وعدو أبي عبد الله اللدود فتح بن يحيى المسالتي. أما البطون الكتامية الأخرى، وهي أجانة ولطاية وملوسة ومتوسة وغشمان ودنهاجة، فقد انضمت شيئاً فشيئاً إلى الداعي، إلى أن تحققت حوله وحدة كافة البطون الكتامية التي قسمها، كما أسلفنا، إلى سبع فرق عسكرية، أو «أسباع»، حسب نظرية إسماعيلية خاصة، تعطي قيمة رمزية لرقم سبعة المحبب إلى الطائفة الإسماعيلية المعروفة أيضاً «بالسبعية»[7].

وبعدما قضى السيل الكتامي الجارف على الدولة الأغلبية، امتد في الحين نحو الغرب في اتجاه تاهرت وفاس وسجلماسة، ثم نحو الشرق حتى ضفاف النيل. وقد دخل أبو عبد الله إفريقية رسمياً ونشر فيها «عساكره السبع»، فأدخل منظر أولئك البربر الجبليين القادمين من بلاد القبائل، الرعب في قلوب أهل إفريقية العرب. ولما وصف ابن عذاري «السبع عساكر»[8]، تحدث عن ثلاثمائة ألف رجل بين فارس وراجل. والواقع أن أبا عبد الله لا يستطيع وقتئذٍ سوى جمع ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألف رجل، بحساب عدد يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف رجل بالنسبة إلى كل فرقة من الفرق السبع ومما يؤيد هذا التقدير التقريبي المعلومة الواردة في المجالس والمسايرات[9]. فقد ذكر القاضي النعمان

---

(6) سيرة جوذر، ص 59.

(7) افتتاح الدعوة، الفقرة 123.

(8) البيان، 1/149 - 150.

(9) المجالس والمسايرات، ص 554.

أن الجيش الفاطمي إبان اندلاع ثورة الخوارج سنة 934 كان يعد سبعين ألف رجل، منهم على سبيل التقريب حوالي خمسين ألف كتامي، والبقية من الصقالبة والزويليين والمجندين العرب الذين كان عددهم قليلاً في دولة تعتمد أساساً على البربر.

2 ـ الصقالبـة:

يعتبر الأيمة الصقالبة أيضاً من بين «الأولياء» الأوائل. فمنذ أن خرج المهدي من سلمية كان محاطاً بمجموعة من الحرس تتألف من بعض النصارى من ذوي الأصل الصقلبي بلا شك، المسخرين أنفسهم قلباً وقالباً لخدمة مولاهم. وسواء كانوا عبيداً أم موالي، فإنهم سيحتلون المكانة الأولى في الجيش منذ قيام الخلافة الفاطمية، وسيوفرون سلكاً ممتازاً تتمثل مهمته إما في تأطير الكتائب أو في حراسة الإمام في ساحة الوغى، ونيـل شرف القتال إلى جانبه. وقد سبق أن رأيناهم يقومون بهذا الدور المتميز في تنظيم الجيش طوال الحملة التي قام به المنصور بنفسه على المتمرد الخارجي «صاحب الحمار». وقد قاد أشهر هؤلاء الصقالبة، وهو جوهر، الجيوش الفاطمية غرباً وشرقاً، وأحرز مجداً أثيلاً حين تمكن من فتح فاس وسجلماسة، ثم توفق بعد ذلك بعشر سنوات إلى الاستيلاء على مصر والشام والبقاع المقدسة، وأسهم بذلك في بعث المملكة التي طالما حلم بها أعقاب فاطمة على امتداد ثلاثة قرون مليئة بالتقلبات والمحن. كما ساهم قواد آخرون لا يقلون قيمة عن جوهر، مثل ميسور الصقلبي، في ذيوع صيت الجيش الفاطمي في بقاع نائية تمتد من المهدية إلى بيزنطة، ومن ضفاف الواد الكبير غرباً إلى ضفاف النيل شرقاً، حتى إلى دمشق وبغداد. واشتهر بعضهم بالمشاركة في مطاردة أبي يزيد إلى جانب المنصور، في حين لقي آخرون من بني جنسهم مصرعهم وهم يقاتلون جحافل القائد الخارجي قتالاً مستميتاً.

ذلك أن الصقالبة قد أظهروا حول المنصور كل ما كانوا يتميزون به من إخلاص لمخدوميهم الأيمة، وما يتحلون به من خصال حربية ومقدرة عسكرية،

أثناء المعارك التي خاضها الخليفة الفاطمي الثالث لإجلاء المتمردين الخوارج من القيروان، وحملهم على الانسحاب إلى تخوم الزاب الصحراوية أو إلى مخابئهم في جبال الحضنة، وإخماد ثورتهم في آخر الأمر بإلقاء القبض على قائدهم. أما الصقالبة الآخرون الذين أطلق عليهم صاحب سيرة المنصور[10] اسم «العبيد»، مميزاً بينهم وبين الزويليين، أي العبيد السود، فقد كانوا يحاربون على حدة بقيادة أحد أبناء جنسهم الحسن بن رشيق الريحاني الملقب بالكاتب، والذي انتصر على أبي يزيد أمام سوسة، وكانوا يقومون، لا سيما أثناء حرب الحصار، بأعمال شاقة تستدعي كثيراً من الشجاعة والمهارة، مثل أعمال التقويض والهدم. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن كلمة «عبيد» كانت تطلق بلا شك على الرقيق البيض من ذوي الأصل المسيحي العاملين في صفوف جيش المنصور، في حين كان يطلق على بني جلدتهم الذين ارتقوا إلى رتبة قائد، اسم «الخادم» (خادم الإمام) أو «العبد» (عبد الإمام) أو «الصقلبي»، سواء كانوا من الرقيق أو من الموالي. وقد برز منهم أربعة بالإضافة إلى حسن بن رشيق، وهم شفيع وطارق ووصيف وقيصر الذين قادوا الجنود لما اقتحموا قلاع الحضنة التي تحصنت بها قوات أبي يزيد المتمردة، كيانة وشاكر وعقار. وقد استرعى انتباه المنصور، القائد قيصر، على وجه الخصوص بما كان يتميز به من شجاعة وخبرة بالخطط الحربية، فعينه إثر إخماد ثورة الخوارج عاملاً على باغاية، في حين عين قائداً صقلبياً آخر من نفس الرتبة عاملاً على إقليم طرابلس العسكري، وهو مظفر. ويبدو أن هذين القائدين قد تقاسما السلطة في ثغور المملكة الفاطمية، الأول في الغرب، والثاني في الشرق، وبلغا من السطوة ما حمل المعز على الاستياء منهما، فأمر بقتلهما. أما شفيع فقد عهد إليه المعز بحمل مظلته التي كان الخليفة يستعملها في ساحة الوغى - كما أسلفنا - ليتعرف عليه المقاتلون، سواء كانوا جنود العدو أم جنوده هو ذاته. وتمكن قواد صقالبة آخرون أثناء الحملة على أبي يزيد من نيل المجد والارتقاء إلى أعلى المراتب

---

(10) ذكره الداعي إدريس بكنيته فحسب «أبو نصر»، **عيون الأخبار**، ص 391.

العسكرية، دون أن يحرزوا في الاضطلاع بمهامهم نفس النجاح الذي أحرزه جوهر. من ذلك أن بشرى الخادم الذي انتصر عليه أبو يزيد في باجة، ما لبث أن أخذ منه ثأره وأجبره على التقهقر أمام القيروان. وشن قدام الصقلبي من جهته حملة ضارية على أبي يزيد على رأس كتيبة من العبيد الصقالبة، اسمهم «المركوشيون» (نسبة إلى ماركوس)؟، وذلك أثناء معركة القيروان ذاتها أمام باب أصرم[11]. وقبل الخروج في طلب أبي يزيد استخلف المنصور قدام الصقلبي على القيروان، وأمره بعمارة مدينة جديدة في مكان المعركة ذاتها بظاهر القيروان، سماها المنصورية[12].

وسواء كان الصقالبة ضباطاً من ذوي الرتب العالية في أغلب الأحيان، أو قواداً للجيش أو حراساً ممتازين يسهرون على الخليفة في ساحة الوغى صحبة «مشايخ» كتامة، ويشاركون في المعركة في فتراتها الحاسمة، لتدارك ميمنة أو ميسرة استولى عليها الوهن، أو لترجيح كفة الفرقة التي يقودونها، وسواء كانوا مجرد جنود رجالة يعملون في قلب الجيش أو في ميمنته وميسرته، أو مكلفين أثناء حرب الحصار بالقيام أعمال معينة مثل التقويض والهدم، أو بالاضطلاع بمهام خاصة مثل حشد الجنود ورفع مظلة الإمام، فإنهم كانوا دوماً وأبداً في نظر الفاطميين أولياء ذوي بسالة نادرة، وخَدَمة أوفياء يكنون لمخدوميهم محبة فائقة وإخلاصاً لا مثيل له. وبما أنهم كانوا يمثلون العنصر الذي يستطيع الأيمة الاعتماد عليه أكثر من الكتاميين ذاتهم، فقد كانوا ينتدبون بعناية بالغة «ويتلقون تكويناً خاصاً»[13]. وكان الخصيان منهم يعيشون مع بعضهم بعضاً في القصر ضمن حاشية الخليفة، ويضطلعون إما بمهام مدنية أو عسكرية. وكان هؤلاء الصقالبة، سواء كانوا خصياناً أم لا «يأتون (في معظمهم) من البلقان وبالخصوص من الساحل الدلماسي، أو من البندقية إثر الغارات التي يقوم بها

(11) نفس المصدر، ص 365.

(12) المصدر المذكور، ص 386 - 387.

(13) سيرة جوذر، مقدمة الترجمة الفرنسية، ص 15 - 16.

الغزاة العرب في البحر، أو عمليات الأسر أثناء المعارك مع البيزنطيين الذين كان جيشهم يضم عدداً من الصقالبة»[14]. والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الصقالبة كانوا في خدمة المهدي منذ أن كان في سلمية بالشام، وهم قادمون من خراسان حيث كان يتولى بيعهم البلغاريون التابعون لمنطقة الفلغا، أجوار الصقالبة. «ومما لا شك فيه أنه كانت تحدوهم روح العصبيـة والتضامن الجنسي، ولكن بحكم انعزالهم داخل المجموعة الإفريقية، كانت عصبيتهم أقلّ خطورة من العصبية البربرية أو العربيـة»[15]، وكانوا يخدمون الخلفاء بإخلاص لا تشوبه شائبة.

وهكذا فقد كان الصقالبة ينتمون إلى فئة اجتماعية تابعة للخاصّة، وكانوا يحتلون في السلم العسكري والمدني مرتبة لا تقل قيمة عن مرتبة «مشايخ» كتامة. ورغم أن دورهم العسكري كان دون دور المشايخ، فيبدو أنهم كانوا يحظون باعتبار كبير راجع إليهم بحكم روابط الولاء والتعلق بشخص الإمام. ودون التوقف عند دراسة هذه الطائفة من الناحية الاجتماعية سنقتصر على الإشارة إلى ما كانوا يحظون به من منزلة متميزة داخل النظام الفاطمي. ففي نظر التشريع الإسماعيلي الذي يمنحهم نظاماً قانونياً غير مطابق لوضعهم كعبيد، كان الصقالبة يُعاملون معاملة الأحرار. وهذا صحيح على الأقلّ في عهد المعز الذي أدلى بفتوى في هذا الشأن، جواباً على سؤال وجهه إليه القاضي النعمان الذي لم يعترف بحق العبيد في الإرث. فقد أجاب المعز قاضيه الذائع الصيت بقوله:

«مَنْ كان من سائر عبيدنا ممن شملته دعوتنا، أجريت أموره مجرى أمور الأحرار المالكي أمورهم في مواريثهم وشهاداتهم. ومن لم يشمله ذلك جرى أمره مجرى أمور العبيد الذين لا يجوز لهم من أمورهم إلا ما أطلقه مواليهم»[16].

(14) نفس المصدر، الترجمة الفرنسية، ص 57 الهامش 42 [النص العربي ص 41].

(15) نفس المصدر، مقدمة الترجمة الفرنسية، ص 16.

(16) **المجالس**، ص 394، انظر أيضاً ص 246 و 250 و 463 - 464.

وهكذا ميز المعز بكل حذق بين وضعية العبد الذي دخل في الدعوة الإسماعيلية وغيره من سائر العبيد. فالأول قد ارتقى بحكم دخوله في دعوة الأيمة إلى مرتبة الرجل الحر، ولو لم يتم عتقه. أما الثاني فهو بالعكس من ذلك مِلْكٌ لمولاه.

وبناءً على ذلك فإن ما كان يتمتع به الصقالبة من منزلة ورتبة، لا سيما في النظام العسكري للدولة، يضاهي في الأهمية ما كان معمولاً به في الأندلس في نفس تلك الفترة، سواء من أجل قيمتهم العسكرية أو بسبب إخلاصهم المثالي لنظام لم يكن يحظى إجمالاً بالشعبية، بل كان يمقته شعب إفريقية المتمسك بالمذهب المالكي السنّي الخالص[17].

3 ـ جماعة الزويليين:

كان الزويليون ـ نسبةً إلى زويلة قاعدة فزان سوق العبيد ـ يؤلفون داخل الجيش الفاطمي فيلقاً خاصاً بقيادة واحد من بني جنسهم اسمه صندل[18]، وقد برزوا أثناء حصار أبي يزيد لمدينة المهدية. ولكن أثناء الفترة الثانية من الحملة على صاحب الحمار قاتلوا ضمن نفس الفيلق مع العبيد البيض من ذوي الأصل المسيحي، أي الصقالبة، بقيادة الحسن بن رشيق الخادم. ويبدو أن مهمة حشدهم وتدريبهم قد عهد بها إلى نفس هذا القائد في مدة المعز لدين الله[19]. إلا أن استخدام العبيد الزويليين السود في مهمات منزلية وعسكرية يرجع تاريخه إلى مستهل عهد المهدي. فهو الذي استخدم العبيد السود والبيض الذين كانوا

(17) انظر حول وضعية العبيد في عهد الدولة الأموية بالأندلس، إسبانيا الإسلامية، 122/2 - 130 و 178/3 - 179.

(18) انظر حول أصل الزويليين السود، سيرة جوذر، مقدمة الترجمة الفرنسية ص 16. وحول صندل الخادم الأسود، انظر عيون الأخبار، ص 153، لا ينبغي الخلط بينه وبين صندل الخصيّ، الذي أشار إليه Chambellan، سيرة جعفر، ص 307. انظر أيضاً عيون الأخبار ص 434، «من العبيد الزويليين من أصحاب حسن بن رشيق».

(19) سيرة جوذر، ص 104 - 105.

قبل ذلك يعملون في خدمة الأغالبة[20]. ورغم أن الدّور الذي كان يقوم به العبيد الزويليون لدى أمراء بني الأغلب الذين كانوا لا يستخدمون سوى عدد قليل من الصقالبة، خلافاً للفاطميين، لم يَعُدْ يكتسي نفس الأهمية مع أصحاب إفريقية الجدد، ومع ذلك فإن عملهم في سلك «الرجالة» لم يزل مقدراً حق قدره، لما كانوا يتميزون به من شجاعة وجلد. فقد شاركت فرقة أولى من الزويليين في الحملة الأولى على مصر بقيادة أبي القاسم الملقب فيما بعد بالقائم وقد أوقعهم جيش مؤنس المنتصر في الأسر. ثم قُتلوا مع الكتاميين، في حين نجا من الموت الأسرى العرب من ذوي الأصل الإفريقي وعناصر الجند القادمة من برقة أو طرابلس أو صقلية وأهل إفريقية[22].

وبطبيعة الحال كان الزويليون يضطلعون داخل الجيش بأقسى المهمات وقد رأينا من خلال رواية الحملة على أبي يزيد كيف كانوا يقومون بأعمال على غاية من الخطورة، مثل تسلق الأسوار لثقبها أو على الأقل لتقويض تحصيناتها تحت وابل من السهام وشتى القذائف. وهم الذين كانوا يتلقون ضربات خيالة العدو المتكررة في مقدمة قلب الجيش الفاطمي وكانوا مسلحين أثناء المعارك بأسلحة خفيفة، فكان كل واحد منهم يمسك بيده «درقة» وبالأخرى «رمحاً». وكانوا يسيرون الواحد تلو الآخر «بالقسي والرماح والسيوف والدرق». فكانوا يمثلون بأتم معنى الكلمة داخل فيلق الرجالة جند الصدام الذي تقع على كاهله تبعة المعركة في مستهل الاشتباك[23].

4 ـ العنصر العربي:

يتعلق الأمر بعناصر جنود إفريقية أو بالأحرى من تبقى منهم بعد انخرام

---

(20) افتتاح الدعوة، الفقرة 275، «واتخذ العبيد من السودان والروم».

(21) عيون الأخبار، ص 220.

(22) ولاة، ص 294 وسيرة جوذر الترجمة الفرنسية، ص 157، الهامش 352 [النص العربي، ص 104].

(23) عيون الأخبار، ص 220.

النظام الأغلبي. ذلك أن الدولة الأغلبية التي كانت بالأساس دولة عربية، لم تكن تعتمد في مصالحها المدنية والعسكرية ـ كما هو معلوم ـ لا على الصقالبة ولا على البربر، إنما كانت تستخدم العرب دون سواهم، ومن الأفضل أن يكونوا من بني مضر، لأن الأغالبة أنفسهم هم من بني تميم وبالتالي من العدنانيين. وبالعكس من ذلك كان النظام الفاطمي الذي تدعمه العصبية القبلية الكتامية يهمل العنصر العربي، وكان نظامه العسكري يرتكز ـ كما أسلفنا ـ على قوتَيْن متفوقتَيْن، هما قوة كتامة في المقام الأول وقوة الصقالبة.

وتبعاً لذلك كان العنصر العربي يمثل أقلية في الجيش الفاطمي ولا يقوم بأي دور خاص. وكان يطلق على المجندين الإفريقيين من ذوي الأصل العربي الذين كانت توفرهم عمليات الحشد في مختلف كور المملكة، اسم «الجنود» أو «أهل إفريقية». وقد ميزتهم مصادرنا بصورة واضحة عن الكتاميين والعبيد من ذوي الأصل الصقلبي أو السوداني و «بقية المغاربة»، أي بلا شك العساكر الذين لم يثبت بوضوح أصلهم البربري أو العربي[24].

ومع ذلك فقدكان عدد كبير من الجنود العرب يعملون في الجيش الفاطمي في مستهل عهد المهدي. ذلك أن بعض جنود الثغور كانوا ينتظرون سقوط آخر أمراء بني الأغلب للانضمام إلى الداعي والدخول في طاعة الإمام الذي كانت إفريقية تعلم أنه موجود في سجلماسة على استعداد لدخول رقادة وراء الداعي وأوليائه الكتاميين. فلم يتردد حينئذٍ بنو أبي خنزير من جند ميلة وبنو مالك من جند بلزمة، وبنو ملاس في الأربس، وحامية طبنة وقائدها أبو المقري، حين فتح أبو عبد الله إفريقية، في خلع طاعة بني الأغلب ـ كما أسلفنا ـ وقد كانوا لا يعترفون بسلطتهم إلا اسمياً، وذلك منذ وفاة إبراهيم الثاني. ولم يلبث أن التحق بعض الجنود الآخرين، بصورة تنقص أو تزيد، بالجيش الفاطمي، وتعاونوا معه منذ ذلك الحين. وتنتمي هذه العناصر بالخصوص إلى جنود برقة وطرابلس، الذين سنجدهم إلى جانب الكتاميين بقيادة أبي القاسم

(24) نفس المصدر، ص 215 «جنود إفريقية»، «كتامة» و «عبيد».

الملقب فيما بعد بالقائم أثناء الحملتين الفاطميتين على مصر، ثم تحت إمرة المنصور أثناء مطاردة أبي يزيد وفلول الخوارج[25].

وأثناء الحملة التي قادها أبو القاسم ذاته على زناتة بالمغرب الأوسط سنة 935/315، اجتمع الإفريقيون وبعبارة أخرى العرب من مختلف جنود المملكة في الأربس بقيادة أشهر القواد العرب في الجيش الفاطمي في أيام المهدي والقائم، ألا وهو خليل بن إسحاق التميمي من جند طرابلس، ذلك القائد الذي تمكن أبو يزيد بشكل غريب من إلقاء القبض عليه في القيروان. وقد بلغ عدد «عساكر الجند من إفريقية» أربعين ألف رجل، حسب بعض الروايات[26]. ويبدو هذا الرقم من أول وهلة مشطاً، ولكن إذا نظرنا إليه ملياً يمكننا اعتباره صحيحاً في فترة ظهرت فيها من جديد عناصر من الجنود السابقين في صلب الجيش الفاطمي، بعدما غابت عن الأذهان ذكرى سقوط النظام الأغلبي. وقد كان هذا الجيش بلا شك مرتكزاً على البربر الكتاميين، ولكنه لم يزل في حاجة إلى خدمات العناصر العربية لتحقيق الأهداف التي رسمها أصحاب البلاد الجدد. أفلم يحاول المهدي إضعاف الشق البربري بقتل الداعي وأخيه وبعض القواد الكتاميين، ومن بينهم القائد الحازم أبو زاكي، وإرجاع بعض أفراد أسرة بني الأغلب وعدد من كبار الموظفين السابقين الذين مكثوا في البلاد إلى مناصبهم؟ إلا أن هذه المحاولة الرامية إلى «تعريب» سياسة المهدي الداخلية، من خلال مراعاة بعض أسر الجند التميمي الذي كان يؤلف نواة الخاصة حول أمراء بني الأغلب، لم تعمر طويلاً إثر مقتل الداعي وأخيه. ذلك أن انتفاضة القصر القديم قد أقنعت الخليفة الفاطمي الأول بأنه لا سبيل إلى الاعتماد على انضمام المضريين إليه، ومن باب أولى وأحرى الأغالبة وأبناء قبيلتهم من سلالة بني تميم[27].

---

(25) نفس المصدر، ص 394 «كتامة» «العبيد» «عسكر البرقيين» و «جند الجزيرة».

(26) نفس المصدر، ص 220.

(27) افتتاح الدعوة، الفقرات 290، 291، 292.

وبالعكس من ذلك نجح الفاطميون في استمالة بعض الأُسر العربية الماجدة الأخرى التي خدمت تحت لوائهم الدولة الجديدة بحماس وإخلاص ومن أشهرها أسرة بني حمدون بالمسيلة وأسرة بني الكلبي بصقلية. وقد كان أفراد الأسرة الأولى من أصل جذامي، أي من تلك البلاد المباركة التي فشت فيها الدعوة الإسماعيلية، أعني اليمن الذي أظهر فيه ابن حوشب الدعوة لفائدة المهدي المنتظر[28]. فكان هؤلاء العرب الجذاميون من أوائل «الأولياء» الأوفياء، وفي طليعتهم حمدون المعروف بأبي عبد الله الأندلسي، ذلك الجاسوس الإسماعيلي ورفيق الداعي، ثم ابنه علي الذي أمره القائم، وهو ما زال ولياً للعهد، ببناء المسيلة[29] عاصمة الزاب المحصنة، للتصدي للزناتيين الرحل، فاستقرّ بها على رأس «جند» متألف من عجيسة وجماعة من العبيد، سيبرز فيما بعد أثناء الحملة على أبي يزيد. وقد أدى ابناه جعفر ويحيى اللذان خلفاه ـ وكان أولهما عاملاً على النواحي الحدودية ومتمتعاً بسلطات مطلقة ـ خدمات جليلة إلى الدولة حتى آخر أيام المعز، عندما خرج الأخوان عن طاعة الفاطميين ـ كما أسلفنا ـ وأيدا الزناتيّين ضد جارهما وخصمهما زيري بن مناد، قبل أن يرتحلا إلى الأندلس[30].

أما بنو الكلبي الذين هم أيضاً من أصل يمني، فقد قاموا بدور عسكري بارز في خدمة الفاطميين بصقلية ومحاربة الروم، ولم يتأخر جدهم علي بن أبي الحسين منذ سقوط دولة بني الأغلب الذين كانوا يستنكفون عن استخدام بني الكلبي، وتولية العلويين القادمين من المشرق والذائعي الصيت منذ عهد بعيد في اليمن ولدى المهاجرين من بني الكلبي في العراق والشام، قلت: لم يتأخر علي بن أبي الحسين عن تقديم خدماته وخدمات أبناء قبيلته إلى الفاطميين في صقلية وقلورية[31]. ولكن المتسبب في الحظوة التي أحرزتها هذه الأسرة في

(28) نفس المصدر، الفقرة 17.

(29) عيون الأخبار، ص 217.

(30) انظر الباب الخامس من القسم الأول: تعيين بلكين نائباً عن الخليفة بالمغرب.

(31) انظر بالخصوص، أماري، تاريخ المسلمين بصقلية 237/2 وما بعدها.

العهد الفاطمي هو ابنه الحسن الذي برز أثناء الحملة على أبي يزيد وتمكن من صد رجاله في تونس التي كان عاملاً عليها، وأثناء عملية التضليل والمناوشة التي قام بها بين جزيرة شريك وباجة وبلاد كتامة، لتعزيز الدفاع عن المهدية المحاصرة. وقد عرف المنصور كيف يقدر حق قدره ما كان يتحلى به هذا القائد من شجاعة وإخلاص، فعهد إليه وإلى أفراد أسرته بمهمة إدارة صقلية. واعتباراً من ذلك التاريخ حرص الحسن بمساعدة أخيه عمار على تهدئة الجهة الشرقية من الجزيرة، حيث تمكن من إخضاع القلعتين المنيعتين طبرمين ورمطة، واستأنف الغارات الحربية الفاطمية على الإقطاعات البيزنطية في شبه الجزيرة الإيطالية. ولما وافته المنية بعد أيام قليلة من فتح رمطة سنة 965/354 آلت القيادة إلى ابنه أحمد الذي قدم إليه ابن عمه الحسن بن عمار يد المساعدة لمواصلة الحرب ضد الروم(32).

واستمر المعز طوال عهده على غرار أبيه المنصور في إغداق النعم على بني الكلبي، كما تشهد على ذلك سيرة جوذر. ويدل الجواب الذي حرره المعز للإشادة بذكرى الحسن بن علي، ونقل نصه صاحب السيرة، على ما كان يحظى به بنو الكلبي في بلاط المنصورية من تقدير بالغ لدى الخليفة الفاطمي وحاشيته. فقد وصف المعز «سعي الحسن وبذل نفسه في ذات الله»، طالباً إلى جوذر أن يعبر باسمه لأحمد عما يكنه من عطف لأسرة بني الكلبي بأسرها. وأضاف قائلاً:

«عَرِّفْه ما لجميعهم عندنا من الجميل لَاسَلَبَهُمْ اللَّهُ نعمتَه فيها ما أبقاهم. فقد أبقى (الحسن) لذريته من العز والشرف ما أَيْسَرُه يَفِي بعظيم ما كان هو قد ناله منا. والله يعينهم على تشييد البنيان على ما أسسه والدهم، حتى تبلغهم آمالنا فيهم بحول الله وقوته إن شاء الله»(33).

---

(32) انظر الباب الخامس من القسم الأول؛ قضية اقريتش والحرب مع الروم.

(33) سيرة جوذر، ص 128.

فبالرغم حينئذٍ من المساعدة الثمينة التي كان يقدمها إلى الجيش الفاطمي الجنود الإفريقيون السابقون وبعض الأُسَر العربية الماجدة، يبدو أن دور العنصر العربي في جيش يكتسي أساساً صبغة بربرية وصقلبية، وبالتالي يعتبر غريباً عن أهل إفريقية، قد أخذ شيئاً فشيئاً في التقلص، كلما عظمت الدولة طوال عهد المعز لدين الله، لا سيما بعد فشل ثورة أبي يزيد.

الفصل الخامس

الحملات العسكرية

1 - قلة الوثائق المتعلقة بالعمليات الحربية:

يبدو أن النظام العسكري الفاطمي لم يكن يتسم بمزايا خاصة بالنسبة إلى إعداد الجيش وتجهيزه وتسليحه أثناء سير العمليات الحربية، سواء كان ذلك في ساحة الوغى أو أمام أسوار المدن الحصينة والقلاع المنيعة. كما أنه لم يكن يختلف عن النظام الذي كان معمولاً به قبل ذلك في إفريقية وسائر بلدان العالم الإسلامي، أو في الأندلس مثلاً في نفس تلك الفترة. وقد درس ليفي بروفنسال هذه المسائل الفنية دراسة مستفيضة بالاعتماد على وثائق غزيرة العدد بالنسبة إلى الأندلس. إلا أن هذه الوثائق منعدمة، ويا للأسف، بالنسبة إلى إفريقية في الفترة التي تهمنا[1] فسنقتصر حينئذٍ على إحالة القارىء الكريم على تلك الصفحات القيمة من كتاب **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، لتكون له فكرة عامة عن الموضوع، مع الإشارة إلى بعض المعلومات الزهيدة الواردة في المصادر التي بين أيدينا والمتعلقة بالجيش الفاطمي بالذات.

2 - حشد الجنود:

كانت عملية حشد الجنود تقع في أول الأمر في مراكز الاحتشاد الواقعة في معسكرات رقادة ثم المهدية والمنصورية. وذلك كلما قرر الخليفة الفاطمي تنظيم حملة عسكرية واسعة النطاق، أو مجرد حملة تأديبية. ومن سوء الحظ فإننا لا نعلم كثيراً عن عدد الجنود النظاميين ومستواهم العسكري، ولا عن عدد

(1) ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية، 2/85 - 90.

الرجال المجندين الذين يتم حشدهم أثناء المعارك. وكل ما نعرف أن بعض القواد الصقالبة كانوا يتحولون إلى مختلف كُوَر المملكة، بما في ذلك بلاد كتامة لجلب «الحشود» وضمها إلى جند الرجالة أو الخيالة. إلا أن الكتاميين كانوا يلبون نداء الجيش دون أي ضغط. كما كان شبان القبائل يهبون للالتحاق بصفوف الجيش وهم يتقدون حماساً وحزماً[2].

فيجتمع الجنود في المعسكرات ويتم تجهيزهم وتسليحهم بعناية فائقة. وتتخذ الاستعدادات اللازمة بكل عناية أيضاً لتنظيم الجنود الذين سينضمون إلى مقدمة الجيش. وبعد ما يتم تعيين القواد وأصحاب الطبول وحاملي الرايات بالنسبة إلى كل فرقة من فرق القبائل، ينطلق الجيش في أبهة وأحياناً في موكب فخم تحت إمرة قائد أعلى صقلبي، أو ولي العهد، أو الخليفة ذاته[3].

3 ـ أسلحة الخيالة:

كان الجيش الفاطمي الذي يكتسي أساساً صبغة بربرية وصقلبية، كما أسلفنا، يتألف في معظمه من الخيالة. ولا ريب أن الكتاميين، أولئك المقاتلين الجبليين المتعودين على القتال على صهوة جيادهم، قد كانوا يملكون خيولهم الخاصة. إلا أن إدارة الجيش كانت تعتني، بالإضافة إلى تسديد جرايات ورواتب العسكر، بالجنود وعتادهم، وكانت بالتالي تسهر على إمداد ذلك العدد الضخم من الفرسان، بالخيول والسروج والسلاح المناسب. وقد كانت إدارة الجيش تتصرف، حسب الاحتمال، في مرابط للخيل، وكان السراجون في القيروان وسوسة، ثم في المهدية والمنصورية، يوفرون للفرسان السروج واللجم التي لا نعرف نوعها، ولكننا نفترض أن هناك إلى جانب السروج واللجم

---

(2) أشير إلى «الملعب» أو «الميدان» برقادة في البيان، 144/1 وافتتاح الدعوة، الفقرة 290. وورد ذكر «حشود» كتامة في عيون الأخبار، ص 215. وحول عمليات «الحشد» في العهد الفاطمي بوجه عام، انظر، مجلة الدراسات الإسلامية، 1935، ص 169 - 170 وسنة 1936، ص 80. انظر أيضاً مناقب الجبنياني، ص 224 - 225 وسيرة جوذر، ص 104 و 122 - 123. ولكن الكتاميين كانوا في الغالب متطوعين، المجالس، ص 255.

(3) انظر الباب الخامس من القسم الأول؛ سياسة المعز الشرقية وفتح مصر.

العادية، سروجاً ولجماً أخرى مرصعة بالجواهر ومحلاة بخيوط الفضة والذهب، مخصصة للقواد السّامين[4].

ويتركب سلاح الفارس من الرمح المعد «للطّعان» والسيف الذي صار استعماله ضرورياً في «الجلاد» والدرقة التي هي عبارة عن درع مستدير مصنوع من الجلد يستعمله الفارس للاحتماء من ضربات العدو بالسيف أو الرمح أو من السهام المسددة إليه وهكذا كان الفارس الكتامي في أول الأمر، حين كان يحارب القوات الأغلبية، مسلحاً بعتاد بسيط للغاية، ثم ما لبث أن أصبح مجهزاً بأسلحة ثقيلة، وكان الفارس اللهيصي أو الجيملي المتعود على الركض في بلاد القبائل مسقط رأسه على صهوة جواده المطلق العنان وغير المسرج أحياناً، مقتصراً على استعمال الرمح أو السيف في القتال، ثم أصبح في العهد الفاطمي جندياً نظامياً ومحترفاً، سرعان ما تعلم حمل الدرع ووضع البيضة على رأسه واستعمال الأسلحة الضخمة.[5] إلا أنه تميز طوال الفترة التي تهمنا بحذق فن الفروسية الذي هو فطري بالنسبة إليه، كما هو الشأن بالنسبة إلى أي بدوي آخر، سواء كان من المقيمين أو من الرُّحّل. ثم اكتسب ذلك الفن فيما بعد عن طريق التدريب أو التمارين الخاصة بتقاليد الفروسية البربرية ووضعت الدولة من ناحية أخرى حلبات مغلقة على ذمّة الفارس الكتامي، سواء في رقادة أو المهدية أو سوسة حيث أقيمت «ميادين» و «ملاعب» لتدريب الفرسان على ألعاب الفروسية الجماعية أو الاستعراضات العسكرية[6].

وقد اشتهرت الخيالة الكتامية. بخفتها وسرعتها، علاوة على ما كان يتميز به الفارس من مهارة خارقة للعادة وما يتسم به الفرس من جموح طبيعي

(4) البيان، 138/1 وافتتاح، الفقرتان 138 و 159.

(5) افتتاح، الفقرة 111: شهادة رئيس مسالتة فتح بن يحيى حول طريقة كتامة في القتال وأشير إلى وضع البيضة على الرأس في سيرة جوذر، ص 50. وأشار الداعي إدريس إلى استعمال القائم للدرع والدرقة والبيضة، عيون الأخبار، ص 224.

(6) ورد ذكر الملعب والميدان بسوسة، في «الدولة الصنهاجية» 46/2 وبالمهدية، نفس المرجع، 53/2 (الترجمة العربية).

ومرونة. وبفضل مثل هذه الخصال تحولت الخيالة الكتامية إلى جيش رهيب. على أن البربري بوجه عام قد عوض دوماً وأبداً عن نقص عدته بحركية فرسه المفرطة، وبسرعته وبراعته في استعمال الرمح والسيف[7].

4 ـ أسلحة الرجّالة:

لقد كانت فرقة المشاة المؤلفة من الرجالة الكتاميين وغيرهم من المغاربة البربر أو العرب، والعبيد من ذوي الأصل النصراني أو السوداني تقوم داخل الجيش الفاطمي ـ كما هو الشأن بالنسبة إلى أي جيش آخر خلال العصور القديمة أو العصر الوسيط ـ بدور رئيسي أثناء عمليات الحصار أو المعارك الواسعة النطاق، أو أثناء التحام الجنود في ساحة الوغى. وكانت مهمة الرجالة المسلحين بالقسي أو القذّافات والمحتمين بدروعهم المستديرة المعروفة «بالدرقة»، تتمثل في تقبل ضربات العدو في بداية المعركة، والرد عليها بتوجيه الطلقات الفتاكة نحو الفارس وجواده على حد سواء[8]. ولكن إذا التحم الجندي الراجل مع العدو فإنه يستعمل الرمح أو العنزة (الرمح الصغير). وهناك كتائب خاصة من الرجالة مكلفة باستعمال المجانق (ج. منجنيق) والعرّادات والدبابات لثقب الأسوار أثناء عمليات الحصار. وكان بعض الرجالة المتدربين من قبل بلا شك على نسف التحصينات، يقومون بدور المنقبين بواسطة بعض الآلات الخاصة المتمثلة حسب الاحتمال في المِعْوَل والمِنْقر والمُخْل[9].

5 ـ خزائن الأسلحة والذخيرة:

كانت مصالح الجيش تتصرف في خزائن الأسلحة والذخيرة للسهر على تجهيز الجنود وتسليحهم، وكانت هذه الخزائن التابعة لإدارة البحرية موجودة

---

(7) افتتاح، الفقرتان 145 و 159 وعيون الأخبار، ص 220.

(8) عيون الأخبار، ص 220: دنا القائم «ومعه درعه وسيفه ومعه رمحه ودرقته والبيضة على رأسه».

(9) ورد ذكر «الدبابات» في افتتاح الدعوة، الفقرة 161، وكذلك «المنجنيق» نفس المصدر، الفقرة 162، وعيون الأخبار، ص 223. وبالنسبة إلى «العرادة»، انظر دائرة المعارف الإسلامية، 679/1.

بالخصوص في المهدية ويسهر على حظوظها مدير صقلبي بإشراف جوذر. وقد أصبحت خزائن البحر «و الأهراء» بالمهدية غير كافية لخزن التموينات والعُدَد، مما أجبر «صافي متولي خزائن البحر» على اقتراح استعمال المسجد القريب من مصانع السلاح «لخزن الأزواد»(10).

وكان تعهد جيش عظيم متأهّب للحرب مثل الجيش الفاطمي يستوجب تهيئة مستودعات ضخمة لخزن العـدّة والذخيرة وصنع الأسلحة على عين المكان في المصانع الرسمية. وتبعاً لذلك كانت المهدية منذ أيام المهدي والقائم ـ كما سنرى ذلك عند دراسة نظام البحرية ـ مجهزة بخزائن وأهراء ومصنعَيْن لصنع الأسلحة. وقد كان المنصور حسب شهادة واردة في **سيرة جوذر**، حريصاً على تشجيع الصناعة المحلية حتى تتمكن من منافسة الصناعة الأجنبية وتبلغ من الجودة ما يجعلها تنتسب إلى المهدية خاصة وتُعْرَف باسمها.

فقد أجاب المنصور جوذر في هذا المعنى قائلاً له:

«اعْمَلْ لنا سيوفاً بحمائل على نصول تطبعها بالمهدية تكون لها ولا يكون منها إفرنجي ولا يماني ولا غيره. فإن هذه السيوف المستعملة أمضى من كل سيف رأيناه، وقد اختبرنا ذلك وجربناه مراراً، وليكن حلية كل سيف منها بخمسين ديناراً»(11).

(10) سيرة جوذر، ص 102.

(11) نفس المصدر، ص 47 - 48.

الفصل السادس

العمليات الحربية والتعبئة

1 ـ الوثائق المتعلقة بالعمليات الحربية:

لا توفر المصادر التي بين أيدينا أدنى معلومات خاصة حول الخطط الحربية والقيمة القتالية وأساليب الحرب بالنسبة إلى الجيش الفاطمي، اللهم إلا الصورة الحية التي توحي بها إلينا الروايات الشاملة والمفصلة الواردة في كتب الأخبار الشيعية الحريصة على وصف مآثر الأيمة وأوليائهم، ولا سيما مآثر المنصور أثناء حملته على أبي يزيد. وهكذا فقد أمدنا كتاب الداعي إدريس النفيس **عيون الأخبار** بوصف دقيق بما فيه الكفاية ومتماسك للمعارك الدائرة رحاها في ساحات الوغى المنبسطة، وتحركات الجيش المتدرجة أو الدائرية في مناطق السباسب الوعرة، أو في المناطق القاحلة الواقعة في بلاد الزاب والحضنة وغيرها من النواحي المقفرة بالمغرب الأوسط. الأمر الذي يسمح لنا باكتشاف نظام معين للمعارك، وقواعد خطة حربية ملائمة لتضاريس البلاد، وطبيعة العناصر التي يتألف منها الجيش الفاطمي وجيش العدو.

2ـ الخطط الحربية والتعبئة[1]:

لا شك أننا نكتشف من خلال وصف الحملات العسكرية الفاطمية تلك العادة القديمة المتمثلة في «الكر والفر» أو «حملات الخيالة المتبوعة بالانسحاب الفجائي إلى الأراضي المنبسطة، وأساليب حرب السهول التقليدية»[2]. إلا أن

---

(1) [المقصود بالتعبئة فن تنظيم القوى الحربية أو تحريكها للقتال].

(2) إسبانيا الإسلامية، 99/3.

الطريقة السائدة عهدئذٍ كانت تتمثل في المناوشة والملاحقة عبر الجبال والأودية، ومحاصرة الحصون والقلاع الجاثمة فوق جبال المغرب منذ العصور القديمة في شكل «وكر عُقاب».

أما التعبئة فقد كانت تخضع للقاعدة التقليدية المتمثلة في التزام القائد بنصب معسكره بادىء ذي بدء في أرض ملائمة توفر له تضاريسها موقعاً متميزاً على موقع العدو. فكم من جيش عظيم هزمته شر هزيمة بضعة آلاف من الفرسان المسرعين إثر حملاتهم الضارية على ميمنته وميسرته وساقته، لأنه فوجىء بالهجوم قبل أن ينصب معسكره ليتمكن من مراقبة طليعته وتنظيم جنوده وتهيئتهم للقتال في وقت الإنذار. فقد اكتفى الداعي بلا شك بأقل من عشرة آلاف فارس من الفرسان الكتاميين البواسل ليهزم الأربعين ألف رجل التابعين للقائد الأغلبي ابن حبشي الواثق بقواته أكثر من اللزوم، أو الجاهل لقواعد فنون الحرب الأساسية[3].

وحالما ينتصب المعسكر يكون من الفائدة بمكان حفر خندق حوله، ويبدو أن استعمال الخندق بكثرة من قبل الجيش الفاطمي قد أملته تقاليد قديمة يرجع تاريخها إلى عهد الرسول ﷺ أثناء «غزوة الخندق». وقد ظهر الأيمة المتعلقون شديد التعلق بالسنّة النبوية الشريفة، ولا سيما منهم المنصور، في مظهر القادة الحريصين على الاقتداء بالرسول في فن الحروب. فقد نجح المنصور ـ كما أسلفنا[4] ـ داخل الخندق الذي حفره جنوب القيرون، في صد رجال أبي يزيد، وهزمهم شر هزيمة، ومن حكمة جوهر أيضاً أنه أحاط معسكره بالقاهرة بخندق لصد هجومات القرامطة[5].

وعندما يلتحم الخصمان في ساحة الوغى تبقى الخطة الحربية المتبعة مطابقة للطريقة التقليدية المتمثلة في توزيع فيالق الجيش على أربعة مواقع متناظرة بالنسبة

---

(3) افتتاح الدعوة، الفقرة 159.

(4) الباب الرابع من القسم الأل: معركة القيروان.

(5) اتعاظ الحنفاء، ص 180 - 182.

إلى الموقع المركزي (القلب) الذي اختاره القائد العام ليشرف بنفسه على سير العمليات الحربية. وتتمثل هذه المواقع الأربعة دوماً وأبداً في «الميمنة» و «الميسرة» و «الطليعة» أو «المقدمة» و «الساقة» المؤلفة من الرجالة المكلفين بالسهر على مؤخرة الجيش ووقايتها من محاولات المحاصرة وغيرها من التحركات الدائرية. أما «القلب» فهو يضم صفوة الجنود الراكبين خيولهم في أغلب الأحيان والملتفين حول القائد العام وضباط حرسه. وتدل الأمثلة التي سنسوقها فيما يلي على ما كان يقوم به من دور متفوق الكتاميون الذين تحملوا تَبِعَة كل المعارك التي خاضها الجيش الفاطمي.

3 ـ بعض الأمثلة من المعارك التي قادها الخلفاء:

أثناء الحملة التي قادها أبو القاسم الملقب فيما بعد بالقائم سنة 928[6] - 927/315، تجمع الجيش الفاطمي الذي كان يضم الجنود الكتاميّين وعساكر إفريقية وغيرهم من العناصر المختلفة، في الأربس، ثم التحق بهم في باغاية المجندون من قبائل مزاتة وهوارة وصدينة وعجيسة وأهل تيجس وقصر الإفريقي[7]. ولما التقى القائم بجيش زناتة عبأ جنوده على النحو التالي: فجعل في القلب جيملة وفي الميسرة أجانة وعساكر إفريقية وفي الميمنة ملوسة وبقية المغاربة وفي الساقة لهيصة.

أما الخطة التي طبقها المنصور في معركة مقرة[8]، فهي تختلف شيئاً ما عن الخطة السابقة ـ رغم أنها مماثلة لها إجمالاً ـ وذلك بالنسبة إلى توزيع فيالق الجيش بالنظر إلى ما تكتسيه المواجهة من أهمية بالغة، حيث التقى الجمعان إثر ملاحقة طويلة وشاقة، وأقحما جميع قواتهما في المعركة. وقد حرص الخليفة الفاطمي الذي شعر بمجازفة الحرب، على تعبئة عساكره بصورة غير معهودة. «فجعل في الميمنة جيملة ولهيصة من قبائل كتامة، وجعفر بن علي صاحب

(6) الباب الرابع من القسم الأول: التوسع الفاطمي في المغرب الأقصى.

(7) عيون الأخبار، ص 216.

(8) نفس المصدر، ص 393.

المسيلة، وألحق بهم بشرى الخادم بعد ذلك. وجعل في الميسرة ملوسة وأجانة من قبائل كتامة أيضاً، وجعل معه في القلب خاصة الأولياء من كتامة والعبيد وعسكر البرقيين. وجعل طائفة من رجال الجزيرة (جزيرة شريك) وجندها في ظهر الميمنة وأعطاهم بنداً وطبلاً... وجعل طائفة منهم أيضاً بالميسرة وأعطاهم بنداً وطبلاً...»[9].

وطوال حملته على صاحب الحمار، كان المنصور يبدأ بالانتصاب في «القلب» وسط مشايخ كتامة وحراسة الصقالبة، متظللاً بمظلته التي كان يرفعها فوق رأسه قائد صقلبي. وكان لا يتردد بعد ذلك في الهجوم على العدو في خضم المعركة وسيفه في يده، مضحياً بحياته، في حين كانت سرايا الخيالة المحيطة به تشن هجومات متتالية تضاهي في السرعة هجومات خيالة العدو البربرية هي أيضاً، والمتعودة مثلها على الهجومات السريعة والمتنقلة، حسب خطة حربية قديمة جُرِّبت فصحت منذ العصور القديمة ضد رومة وفيالقها وبيزنطة وخيالتها المدرعة[10]. وكانت تطرأ على هذه التعبئة بعض التعديلات الهامة عندما يتعلق الأمر بمحاصرة حصن أو قلعة، كما تدل على ذلك معركة كيانة، الملاذ الأخير لأبي يزيد وأنصاره الخوارج[11].

4 ـ معارك الحصار:

عندما يتقرر حصار مدينة حصينة أو قلعة منيعة، مثل كيّانة أو عقار أو شاكر، وهي كلها قلاع جاثمة في أعالي جبال الحضنة الشاهقة، يبدأ الجنود المكلفون بمحاصرتها بقطع جميع الطرقات المفضية إليها، وإن اقتضى الحال، حفر خندق في سفح الجبل حول القلعة لعزلها تماماً ومنع المَدَد والميرة من الوصول إليها. وفي الأثناء يتم حرق الزرع وقطع الأشجار المثمرة. وعندما يتأكد المهاجمون أن المحاصرين قد أُنهِكَت قواهم، يقوم بعض الجنود بثقب

(9) المصدر المذكور، ص 393 - 334.

(10) Diehl، ص 58 - 65 و 366 - 367.

(11) عيون الأخبار، ص 423 وما بعدها: حصار كيانة.

السور، في حين يشتد القتال ويتبادل المتحاربون وابلاً من السهام والقذائف المختلفة. ثم يستعمل المهاجمون العرادات والمنجنيق والدبابات لإضعاف المدافعين القابعين فوق السور، في حين يتوجه بعض وجوه الجنود من ذوي البأس نحوالأبواب لكسرها وإضرام النار فيها. وأخيراً عندما يحين الوقت ينطلق المهاجمون لاقتحام القلعة ودخولها عنوة[12].

ولا تقل معارك الحصار في المناطق الجبلية الوعرة فتكاً بالعباد، عن المعارك الدائرة رحاها في ساحات الوغى المنبسطة، بل إنها أشد منها عناءً. ومما يزيد من قيمة الانتصارات التي يحرزها الجيش الفاطمي على أهل الجبال البربر، أنها تمكن السلطة المركزية من استرجاع نفوذها في تلك المناطق التي كثيراً ما تعترض على سلطانها وتخرج عن طاعتها. من ذلك أن الانتصارات التي تمكن المنصور من تسجيلها في آخر الأمر بعد الهزائم النكراء التي مُنِيت بها جيوش دولته في مواجهتها للمتمرد الخارجي الذائع الصيت، قد ألهمت كثيراً من المؤرخين والشعراء على حد سواء. ولم يتأخر المنصور ذاته المشهور بفصاحته العجيبة، عن الإشادة بانتصاراته نثراً وشعراً. فقد نوه ببسالته في القصيدة البليغة التي أوردها صاحب سيرة جوذر، وهذا نصها[13]:

تبدلتُ بعد الزعفران وطيبه	صدا الدرع من مستحكمات السامري
ألم تَرَني بِعتُ المقامة بالسرى	ولين الحشا بالخيول الضوامر
وفتيان صدق لا ضغائن بينهم	يثورون ثورات الأسود الخوادر
أَرُوني فتًى يغني غنائي ومشهدي	إذا رهج الوادي لوقع الحوافر
أنا الطّاهر المنصور من نسل أحمد	بسيفي أقدّ الهام تحت المغافر

(12) نفس المصدر، ص 223 - 224.

(13) سيرة جوذر، ص 50.

الفصـل السابـع

الأسطول الحربي والجهاد في البحر

1 ـ السياسة البحرية الفاطمية:

إن سياسة الفاطميين التوسعية المرتكزة ـ كما أسلفنا ـ على ما كان يتميز به مذهبهم السياسي ـ الديني من صبغـة ملكية شرعية وشمولية، تعتمد على ادعائهم الخلافة وأطماعهم التوسعية شرقي وغربي البحر الأبيض المتوسط، قد أكسبت دولتهم من أول وهلة نزعة بحرية. ذلك أن الداعي أبا عبد الله قد حرص منذ أن دخل رقادة قبل قيام الخلافة الفاطمية، على الإعلان باسم الإمام المهدي عن هذه النوايا التوسعية في النسخة التي بعثها إلى أهل صقلية من كتاب الأمان إلى سائر البلدان، وزاد فيها ما يلي:

«وأنتـم، معشـر أهـل جـزيرة صقليـة، أحـق بمـا أَوْلَيْتُـه مـن المعـروف والإحسان وأَزْدَيْتُهُ، وأولى به وأقرب إليه، لقرب داركم من دار المشركين وجهادكم الكَفَرَة الظالمين. وسوف أَمْلأُ إن شاء الله جزيرتكم خيلاً ورجالاً من المؤمنين الذين يجاهدون في الله حق جهاده فيعز الله الدين ويذل بهم الشرك والمشركين، والحول والقوة لله العظيم»[1].

والواقع أن هذه النزعة البحرية المعلن عنها منذ ظهور الدولة الفاطمية، قد ورثها بنو عُبَيْد عن أسلافهم بني الأغلب الذين كانوا يملكون من ذي قبل أسطولاً حربياً قد تعزز أكثر فأكثر بفضل فتح صقلية والجهاد ضد بيزنطة ورعاياها

---

(1) افتتاح الدعوة، الفقـرة 232.

في صقلية الشرقية وإيطاليا الجنوبية[2]. وقد ظل الأسطول الأغلبي الراسي خاصة في سوسة وتونس وبلرم سليماً لما هرب زيادة الله الذي فضل سياسة الخنوع المتمثلة في الالتحاق ببلاد المشرق الخاضعة للدولة العباسية الحامية على سياسة الشرف المتمثلة في الرحيل إلى جزيرة صقلية المجاورة، ذلـك المعقل الذي تستأثر به أُسَر الجند العربية الماجدة لمواصلة محاربة أتباع أبي عبد الله البربر من أهل الجبال[3].

والجدير بالذكر أن صقلية ما لبثت أن ثارت على أصحاب إفريقية الجُدُد. إلا أن الخليفة الفاطمي الأول قد حرص منذ اعتلائه عرش رقادة على تنظيم الأسطول الحربي الذي كان تحت تصرفه في سواحل إفريقية لينتهج إزاء صقلية سياسة هجومية قد أفضت في آخر الأمر إلى إخضاعها. وسنحاول فيما يلي ـ بالرغم من قلة المعلومات المتناثرة هنا وهناك في مصادرنا[4] ـ وصف ذلك الأسطول العظيم الذي سيتعزز أكثر فأكثر فيما بعد ليصبح أعظم أسطول حربي في البحر الأبيض المتوسط في عهد آخر الخلفاء الفاطميين بالمغرب.

2 ـ الأسطول الحربي الفاطمي:

من المؤسف أن الأخباريين عندما يتحدثون عن الحملات البحرية لا يهتمون قط بالإشارة بما فيه الكفاية إلى نوعية المراكب أو سلاحها. ومن النادر أن يذكروا عددها في سياق حديثهم، فلا يهتمون إلا بالمعارك البحرية التي يشيرون إليها كما يشيرون إلى المعارك البرية. ولا تكتسي أهمية في كتاباتهم إلا الأحداث الدامية وبالتالي المجازر ومشاهد الجثث المنتشرة في ساحة الوغى أو الرؤوس التي يلتقطها الأطفال للحصول على مكافأة أو المرفوعة على سنان الرماح كشعار للغلبة.

---

(2) انظر حول البحرية الفاطمية، جورج مارسي «بلاد البربر الإسلامية» ص 62 - 67، وبول صبّاغ، الحملات العربية في القرن الثامن، كراسات تونس عدد 31، 1960، ص 73 - 82.

(3) افتتاح الدعوة، الفصل 31: ذكر هروب زيادة الله من رقادة.

(4) انظر الباب الخامس من القسم الأول، الفصل المخصص لقضية أقريتش والحرب ضد بيزنطة.

والوصف الوحيد الذي وصلنا للأسطول الفاطمي هو من وضع شاعرين اثنين، هما ابن هانىء الذائع الصيت ومعاصره الإيادي. ولكنه ويا للأسف وصف عام للغاية، يتضمن معلومات غامضة جـدّاً وغير كافية. فماذا كان حجم القـطع البحرية؟ وكيف كانت السفن الحربية من نوع «الصنادل» التي ورد ذكرها في سيرة جوذر؟[5] وما هو نوع المراكب التي كانت دور الصناعة تجهز بها الأساطيل المكلفة بالقيام بحملات على الأندلس أو جنوب إيطاليا، وشن الحرب على الأسطول البيزنطي؟ إن المصادر المتوفرة لدينا لا تتحدث عن أي شيء من ذلك، ولولا بعض المعلومات القليلة الواردة في سيرة جوذر حول دُور الصناعة وتجهيز الوحدات البحرية وصنع السفن بخشب صقلية، لاقتصرنا على سرد تاريخ انتصارات الأسطول الفاطمي أو هزائمه، ولتعذر علينا إعطاء فكرة دقيقة عن النظام البحري الذي لا شك أنه كان معقداً وعلى غاية من الأهمية، مما مكنه من ضمان حسن سير مثل ذلك الأسطول العتيد.

وقد تمثلت المهمة الدقيقة التي عُهِد بها سنة 912/300 إلى أول أسطول فاطمي تحت إمرة القائد العربي ابن أبي خنزير في محاربة المتمردين الصقليين الذين كانوا يملكون أسطولاً أكبر بقيادة محمد بن قرهب نجل قائد التمرد ذاته أحمد بن قرهب. وبطبيعة الحال فقد دُمِّر الأسطول الفاطمي الراسي في ميناء لمطة، ولكنه جُدِّد بعد ذلك بقليل، مما سمح للمهدي لا فقط بإخضاع العرب المتمردين في صقلية، بل أيضاً باستئناف حملاته المظفرة في جنوب إيطاليا[6].

وبعد ما تم تجهيز الوحدات البحرية الراسية في صقلية وإفريقية على أحسن وجه وأصبح لها من القوة ما يمكنها من القيام بحملات واسعة النطاق، اتجهت بعد ذلك ببضع سنوات إلى الإسكندرية لمد يد المساعدة إلى جيش القائم الذي اجتاح مصر للمرة الثانية. فمُني ذلك الأسطول بهزيمة نكراء في رشيد ووقع قائداه سليمان الخادم ويعقوب بن إسحاق في الأسر. ولكن سرعان ما تم

(5) سيرة جوذر، ص 98.

(6) الباب الثاني من القسم الأول: ثورة صقلية.

تجديده وتعزيزه طوال مدة المهدي وخليفته القائم بأمر الله. وسوف لا يدوم مدة طويلة الضعف الذي انتابه إثر تراجع السطوة الفاطمية تحت وطأة الضربات التي سددها إليها المتمرد الخارجي أبو يزيد. ولم تكن سلطة الخليفة الفاطمي الثالث المنصور قد توطدت بما فيه الكفاية في جميع أنحاء المملكة، حين اعتزم توجيه واحد من أحسن قواده العرب، وهو الحسن بن علي الكلبي، إلى جزيرة صقلية لتدارك الوضع الذي تعكر أثناء ثورة صاحب الحمار، وتجهيز الأسطول الصقلي من جديد لخوض الحرب ضد الروم. ومنذ ذلك الحين استرجع الأسطول الفاطمي قوته مع الانتعاشة الثانية التي شهدتها الدولة. وقد تعزز طوال عهد الخليفة الفاطمي الرابع، وسيبلغ ذروته أثناء النزاع الذي سينشب بين المعز من جهة وبين خصمه الأندلسي الناصر وخليفة قيصر الروم من جهة أخرى. وعندئذٍ، أي في منتصف القرن العاشر من الميلاد، لا سيما بعد الغارة المشهودة على المرية وما أحرزه الفاطميون من انتصار باهر في مياه مسينة، سيصبح البحر الأبيض المتوسط بالفعل بحيرة إسلامية في ظل راية الأسطول الفاطمي البيضاء(7).

ولبسط مثل هذه السلطة على امتداد واجهة الغرب الإسلامي البحرية، من سواحل سرت إلى مشارف الأندلس في طنجة وسبتة، وكذلك على امتداد سواحل صقلية إلى تخوم «دار الجهاد» في قلورية، سيكون الفاطميون في حاجة إلى أسطول حربي أقوى وأعظم من الأسطول الذي ورثوه عن أسلافهم الأغالبة على عين المكان. أفلم يكن من واجبهم إيجاد واجهة بحرية أوسع من واجهة المملكة الأغلبية، حتى يتسنى لهم الدفاع عن السواحل الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية على حد سواء، لا فحسب في شرق البلاد المغربية وجزيرة صقلية، بل في سواحل المغرب بأسره المطلة على البحر الأبيض المتوسط؟ أفلا يتعين عليهم لهذا الغرض الوقاية من هجومات الأسطول الأموي أو البيزنطي الفجئية، وبالتالي استعمال المراسي الموجودة في السواحل المغربية بالتناوب

(7) أماري، تاريخ المسلمين في صقلية وبالخصوص البابان الثاني والثالث.

مع القواعد البحرية الفاطمية الواقعة في صقلية؟.

فمنذ أن صار أصحاب إفريقية الجُدُد يعملون على بسط سلطانهم في اتجاه البحر الأبيض المتوسط، اتضح أن القواعد البحرية الواقعة على السواحل المقابلة لصقلية وجنوب إيطاليا، والتي استعملها الأغالبة في القرن التاسع من الميلاد، واستعملها قبلهم الولاة العباسيون والأمويون في القرن الثامن، قد أصبحت غير كافية. وكانت مدينة تونس منذ أواخر القرن السابع بعدما فتحها حسان بن النعمان، تقوم بدور بارز بفضل ترسانتها الجديدة «دار الصناعة» التي كان يشتغل فيها في صنع السفن ألف قبطي قادمين من مصر. وما ا نفكت تونس منذ ذلك التاريخ ـ حسب شهادة البكري ـ توجه المراكب التي كان المسلمون يُغيرون بها «على سواحل الروم ويكثرون فيهم النكاية والإذاية»[8]. أما سوسة المُجهزَّة هي أيضاً بدار صناعة، فقد كانت تقوم بدور متميز في القرن التاسع وظلت القاعدة الرئيسية للغارات البحرية حتى مطلع القرن العاشر. واعتباراً من ذلك التاريخ ستقوم القاعدة الجديدة التي تحمل اسم مؤسسها الإمام الفاطمي الأول بإفريقية (المهدية) بدور المعقل الفريد من نوعه بالنسبة إلى الأسطول الفاطمي الرهيب، وبالتالي ستتفوق على تونس وسوسة، ومن باب أولى وأحرى على القواعد البحرية الأخرى التي ستصبح بمثابة المحطات الواقعة على الواجهة المغربية الشرقية، مثل لمطة أو هرقلة.

3 ـ قاعدة المهدية:

ينبغي أن نتوقف هنيهة للحديث عن تأسيس المهدية. فإلى معطيات الدراسات والبحوث التاريخية والأثرية الحديثة التي أكدتها وأوضحتها الحفريات القريبة العهد ـ وقد استعادت ما قدمه الأخباريون والجغرافيون من بيانات، على أساس المعلومات التي أوردها الرقيق بصورة مفصلة ـ تُضاف اليوم الإيضاحات التكميلية الفريدة التي أمدنا بها القاضي النعمان أو صاحب سيرة جوذر[9].

(8) البكري، ص 37 - 38 وبول صبّاغ، المرجع السابق.

(9) رحلة التجاني، ص 321.

ومن الجدير بالذكر أن مؤسس المهدية قد اعتنى عناية فائقة باختيار موقعها، بعدما مر على جميع السواحل، «يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ به مدينة تحصنه وتحصن بنيه من بعده»(10) وحرصاً منا على تأكيد ما يكتسيه هذا الاختيار من قيمة إستراتيجية، سنحيل الكلمة إلى الكاتب الفرنسي غوتيي الذي أهلته كفاءته باعتباره جغرافيّاً أوّلاً وقبل كل شيء، لوصف الموقع الاستثنائي الذي تمتاز به المهدية، وصفاً دقيقاً إلى أبعد حد:

«إن خليج سرت هذا [الواقع في منطقة الساحل] فريد من نوعه: فهناك بحر غير عميق مليء بالجزر المنتصبة فوق ركيزة قارية تمتد إلى بعيد وتنعشها حركة مد وجزر محسوسة. فالمغربي المشتغل بخدمة الأرض في سائر المناطق الأخرى، يصبح هنا بحاراً. حيث توجد في هذه المنطقة مجموعة من البشر البرمائيين الذين يتمعشون إلى أقصى حد ممكن من مداخيل الزياتين والصيد البحري... وفي هذه البلاد التي لا مثيل لها يُعتبَر موقع المهدية فريداً من نوعه هو أيضاً. وإنه ليتعذر على المرء العثور بسهولة في هذا الساحل المتميز بتضاريسه الطميسة، على شِنَاخٍ(11) آخر شبه جزيري مماثلاً لشِنَاخ المهدية، يكون طويلاً ورقيقاً مثله ومتصلاً باليابسة بواسطة مثل هذا «المفصل» الدقيق.

ولتركيز عاصمة إمبراطورية في مثل هذا الموقع، ينبغي طبعاً التحكم في البحر. ولكن الأغالبة الذين كانوا يسيطرون على صقلية قد تركوا بالضرورة لخلفائهم أسطولاً جاهزاً. وبعد تسوية هذه القضية يصبح اختيار موقع المهدية ذكياً للغاية ويقتضي وضع رجالة شداد غلاظ من أصيلي بلاد القبائل وراء أسوار منيعة. ولا شيء يمنع حينئذٍ أهل الساحل البرمائيين من التفرغ لتموين البلاد. إذ لا وجود هناك لسكان من نوع رعاع المدن الكبرى الذين يتعين إطعامهم ومنعهم من التحدي. فالمهدية هي قاعدة منيعة بمثابة إيكجان ثانية. ولكنها أكثر منها ملاءمة للمقتضيات والمسؤوليات الجديدة»(12).

---

(10) البيان، ص 169.

(11) [الشناخ: أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر (المنهل)].

(12) Gautier، ص 348 - 349.

وهكذا فإن المهدية التي تأسست باعتبارها «معقلاً» يحمي الدولة الفاطمية من أي خطر داهم من البر أو البحر، وقاعدة بحرية مؤهلة للقيام بعمليات حربية واسعة الناطق، قد كانت أولاً وبالذات مدينة ذات طابع عسكري، رغم كونها عاصمة مملكة ومقر حكومة. وفي هذا الموقع الضيق شيئاً ما الذي يتخذ شكل يدٍ ممدودة فوق مياه البحر، لا يربطه باليابسة سوى برزخ لا يتجاوز عرضه مرمى السهم، سارت الأشغال سيراً حثيثاً. فقد بدأت يوم السبت 5 ذو القعدة 11/303 مايو 916 هـ، وانتهت سنة 918/306 - 919 هـ، أي في ظرف أقل من ثلاث سنوات. وقامت القاعدة الجديدة اعتباراً في ذلك التاريخ بتجهيز الأسطول المكلف بمد يد المساعدة إلى الحملة الثانية على مصر، التي فشلت بالخصوص لأن الجيش الفاطمي قد كان بعيداً أكثر من اللزوم عن قواعده ومفتقراً إلى الميرة والعتاد. ولكن الخليفة الفاطمي لم يستقر بالمهدية إلا بعد ذلك بسنتين إثر انطلاق الحملة العسكرية البرية والبحرية[13].

وبناءً على ذلك لم تشتمل المدينة عهدئذٍ إلا على بعض المنشآت العسكرية والمباني اللازمة لسكنى أفراد العائلة المالكة ورجال الخاصة وإيواء مصالح الإدارة المركزية والمؤسسات الدينية والاقتصادية. وباعتبارها مقراً للخلافة ومركزاً بحرية تجارياً، وبوصفها بالخصوص مرفأً حربياً، كانت العاصمة الجديدة تجلي سكانها إلى الأرباض في المساء بعد الانتهاء من الأشغال التي قاموا بها في النهار. وقد كانت المهدية متحصنة وراء الأسوار الغليظة المحيطة بها والمطلة على البحر من ثلاث واجهات ممتدة من الجنوب الشرقي إلى الشمال، وسادّة البرزخ أيضاً.

وبما أن مساحة شبه الجزيرة كانت ضيقة للغاية، «فقد زاد إليها المهدي من البحر»، وبنى فوق الأراضي المردومة الجامع الأعظم ودار المحاسبات وقصرَيْن اثنين تفصل بينهما فسحة، الأول متجه نحوا لغرب ويُعرَف باسم «قصر المنارة» أو قصر المهدي، «وبه طيقان من الذهب»، والثاني متجه نحو الشرق

---

(13) افتتاح الدعوة، الفقرة 296.

واسمه قصر القائم[14]. كما تضم المدينة بحصر المعنى الأسواق والمباني القريبة من دار المحاسبات. أما المنشآت العسكرية فقد كانت تحتل بقية شبه الجزيرة. ومن بين هذه المنشآت اهتم الخليفة الفاطمي بالخصوص بالسور، حرصاً منه على حماية ذرية فاطمة من «المحن»[15]. وهنا يتأثر التاريخ بالأسطورة، فقد اعتمد القاضي النعمان ذاته على المعطيات التاريخية لتبرير التكهنات المتعلقة بتأسيس المهدية المعروفة «بالبيضاء» ودار هجرة الأولياء[16]. فذكر أن المهدي «بناها بالحجارة وبوبها بأبواب الحديد المحصن. وكان إذا نظر إلى حصنها وأبوابها وإعجاب الناس بذلك يقول: «هذا كله عُدَّةٌ لساعةٍ واحدة من نهار!». فكان ذلك كما قال لما انتهى إليها مخلّد اللعين، ووقف عليها ساعة وكان آخر عهده بها إلى أن رُفع مصلوباً على سورها»[17].

وليس في وسعنا أن نضيف شيئاً كثيراً إلى ما كتبه حول هذا الموضع جورج مارسي[18] الذي درس مليًّا المعطيات الواردة في المصادر المكتوبة والحفريات المتعلقة بذلك «السور الصلب» المبني في شكل ستارة محفوفة بستة عشر برجاً، وبقطعته الضخمة التي كانت تسد الواجهة البرية بستة أبراج، اثنان منها في شكل مستدير في الأطراف، وأربعة في شكل مربع، والمتعلقة أخيراً بالبابَيْن الكبيرَيْن المصنوعَيْن «من الحديد المحض»[19]، اللذين كانا يحرسان مدخل المدينة، الأول في اتجاه البر في طرف الرواق المعروف باسم «السّقيفة الكحلة» (أي السوداء) الشهيرة، والثاني في اتجاه البحر في المكان الذي «نُقِر فيه مرسى المدينة في الحجر الصلد». إلا أن رواية معركة المهدية

(14) رحلة التجاني، ص 323.
(15) افتتاح الدعوة، المصدر المذكور.
(16) نفس المصدر.
(17) نفس المصدر.
(18) جورج مارسي، الهندسة المعمارية.. ص 89 - 90.
(19) عيون الأخبار، ص 209.

التي رواها الداعي إدريس في كتابه «**عيون الأخبار**»[20]، تسمح لنا بإدراك ما يتميز به من قيمة دفاعية ذلك السور المنيع القائم قبالة اليابسة في شكل سد كفيل بصد أي هجوم مُوَجَّه ضد عاصمة الدولة الفاطمية.

فهذا النص الذي لسنا في حاجة إلى تأكيد أهميته التوثيقية، يمكننا من تحديد ثلاثة أبواب من أبواب المدينة بكل دقة، وهي «باب المهدية» الممكن اعتباره مطابقاً للباب الضخم الذي يفتح على «السقيفة الكحلة»، و «باب الفتح» الواقع في الطرف الجنوبي من البرزخ، و «باب أكة» (أو بالأحرى «بكة»)، نسبةً إلى قرية توجد في الشريط الساحلي وتبعد ميلَيْن عن مدينة سوسة)[21]، الواقع في الطرف الآخر من الناحية الشمالية الغربية.

أما باب المهدية فهو الذي كان يقيم حاجزاً أمام الطريق الرئيسية المفضية إلى القيروان، ويفتح على مصلى العيد المتاخم للأرباض التي أحاطها القائم بخندق لعرقلة عمليات الجنود المغيرين وتوسيع نطاق مجال تحركات رجاله خارج السور.

وقد قام البربر بلا جدوى بهجوماتهم الضارية من جهة الأبواب الثلاثة على تحصينات المدينة، ومن بينها «قصر الرباط» الذي تحصن فيه جنود رشيق الريحاني الصقالبة للدفاع عن منافذ الخندق[22].

4 ـ مرسى المهدية ودار الصناعة:

وهناك مصدر نفيس آخر يتمثل في **سيرة جوذر**، قد كان له الفضل في دراسة المنشآت التالية عن كثب، وهي: المرسى الواقع جنوبي شبه الجزيرة والبعيد شيئاً ما في الاتجاه الشرقي من جانب الرأس، ودار الصناعة، أو بالأحرى دارا الصناعة وما يتبعهما من أهراء وصهاريج ومخازن تابعة لما يسمى

---

(20) نفس المصدر، ص 305.

(21) [انظر عيون الأخبار، ص 306 ـ الهامش 139].

(22) نفس المصدر، ص 307.

«بخزائن البحر». ولكن ينبغي قبل كل شيء فض قضية أصل هذا المرسى والتحقق من وجود دار صناعة واحدة أو دارَيْن في نفس الوقت.

فبالنسبة إلى النقطة الأولى، يشير جورج مارسي إلى ما يلي: «من المتفق عليه أن الأمر يتعلق بميناء فينيقي قديم اصطناعي قد استغله الفاطميون بلا شك وحَمَوْه بسور المدينة». ولئن استُعْمِل الحوض المستطيل الشكل في القديم لإيواء السفن، فهذا أمر غير مستبعد بالنسبة إلى شريط ساحلي كان متفتحاً كل التفتح على المؤثرات الفينيقية ثم الرومانية والبيزنطية. ألم يُكْتَشَف «في عمق 40 متراً حطام سفينة قديمة كانت قادمة من أثينا ومشحونة بتحف فنية ومواد بناء، وقد غرقت في أوائل القرن الأول من الميلاد»[23]. إلا أن النعمان قد أكد بوصفه شاهد عيان أن المهدي «زاد إليها (المهدية) في البحر واحتفر في آخرها ميناءً خرقها به وجعل لها مخرجاً إلى البحر وقفلاً عليه»[24]. كما ذكر البكري، نقلاً عن محمد بن يوسف الوراق، «أن مرسى المدينة قد نُقِر في الحجر الصلد»[25]. ألا يمكن أن نستنتج من هاتين الشهادتين النفيستين أن الميناء الذي أنشأه الفاطميون قد أقيم فوق أراضٍ بحرية مردومة، حتى يكون محمياً بالسور؟ وهل أن البرجَيْن المتصلَيْن بقوس والمرتبطَيْن بسلسلة يبلغ طولها حوالي 15 متراً لسد مدخل الميناء، لا يؤكّدان ما تكتسيه من صبغة دفاعية تلك المنشأة الفاطمية الصميمة التي أقيمت في قاعدة قد تم تصميمها وإنجازها دفعة واحدة، كما لو كانت «معقلاً» قيروانياً مؤهلاً للقيام بدور «المَحْرِز»[26].

أما النقطة الثانية فإن القاضي النعمان هو الذي يدعونا إلى طرحها. فهو الوحيد الذي أشار في «مجالسه» إلى «دَارَيْ الصناعة بالمهدية». إلا أن هذه

---

(23) Gsell، 2/131 - 132، Gautier، ص 131 - 132، وبالخصوص Lézine، المهدية، ص 13 - 17 و 38 - 53.

(24) افتتاح الدعوة، الفقرة 296.

(25) البكري، ص 30.

(26) Gautier، ص 347.

الإشارة لا تسمح لنا، ويا للأسف». بتحديد تاريخ إنشاء كل واحدة منهما. حيث اقتصر القاضي الذائع الصيت على ذكر «تضايق دارَي الصناعة بالمراكب وكثرتها وما زاد منها»، في عهد المعز الذي كان مشغول البال بهذا الأمر[27]. وقد كان في غاية السعادة لما علم بالعثور في دار الصناعة بسوسة «على سبعة مواجل أولية [تابعة للعصور القديمة]متقنة العمل ينفذ بعضها إلى بعض، كانت مدفونة تحت الأرض، إلا أنها تحتاج إلى بعض إصلاح وإلى صهريج يجري عنه الماء إليها، وإنها متى امتلأت ماءً استغنى بها أهل المدينة عما هو خارج منها. وكانت ذخيراً للمراكب. . فأمر المعز بإصلاحها وإصلاح هذا الصهريج وأن يُبْنى مسجد»[28].

ولئن كانت دار الصناعة الأولى المشار إليها في مصادرنا، والتي من الممكن مشاهدتها الآن بالعين المجردة، هي بالضبط الدار التي يرجع تاريخ إنشائها إلى عهد المهدي، فإنه يتعذر علينا بالعكس من ذلك تحديد موقع دار الصناعة الثانية بالتدقيق. ويمكننا أن نفترض وجودها اعتباراً من عهد القائم، إذ من المستبعد أن يكون المنصور الذي هاجر المهدية وتحول إلى المدينة الجديدة القائمة قرب القيروان [المنصورية] ـ أو خليفته المعز الذي شجع على التخلّي عن المهدية لفائدة العاصمة الجديدة ـ قد فكر في إنشاء دار صناعة ثانية في العاصمة السابقة المهجورة. على أن النعمان ذاته قد لمح إلى وجود دارَيْ صناعة بالمهدية قبل عهد المعز. فمن المحتمل جداً أن يكون القائم هو الذي أنشأ دار صناعة ثانية بالمهدية. ذلك إننا نعلم مدى ما كان يوليه هذا الخليفة من عناية إلى الحملات البحرية على النصارى في صقلية وجنوب إيطاليا. على أنه ليس من المستبعد أن تكون إحدى التجويفات الموجودة في طرف شبه الجزيرة من الناحية الشرقية قد آوت دار الصناعية الثانية التي قد تكون مطابقة «لدار البحر» المشار إليها مرتين في **رياض النفوس**[29] ومرة أخرى في **سيرة**

---

(27) **المجالس والمسايرات**، ص 530.

(28) نفس المصدر.

(29) [بل ثلاث مرات، **رياض النفوس** (طبعة بيروت)، 227/2، 345، 498].

جوذر[30] التي ورد فيها ذكر «دار الصناعة» في موضعَيْن[31]. اللهم إلا إذا كانت «دار البحر» هي نفسها دار الصناعة الأصلية التي أنشأها المهدي، ودار الصناعة الثانية المذكورة في **المجالس والمسايرات** هي الدار المشار إليها في **سيرة جوذر** والتي يوجد بقربها مسجد أراد صافي متولي خزائن البحر بالمهدية أن يخزن فيه «الأزواد النافذة إليه»، فأثار غضب الخليفة[32].

ومهما يكن من أمر، تجدر الإشارة إلى أهمية دار الصناعة التي أنشئت في عهد المهدي وكانت تسع مائتَيْ مركب، وهي مجهزة برواقَيْن مقبَبَيْن طويلَيْن وفسيحَيْن بما فيه الكفاية، لخزن المعدات البحرية والعتاد «وحوائج المراكب». ولا شك أن هذين الرواقين يمثلان «خزائن البحر» المشار إليها في **سيرة جوذر** والتي أصبحت في عهد المعز غير كافية لسد حاجات الأسطول[33]. وهناك خزائن أخرى مجاورة لدار البحر كان يشرف عليها موظف سامٍ من أصل عربي، هو بلا شك أحمد بن محمد الطلاس، وقد ظهر لنا من خلال **سيرة جوذر** مشغول البال مثل زميله صافي بضيق خزائنه التي أصبحت غير كافية «لخزن ما يُحتَاج إلى خزنه من حوائج المراكب»[34].

وقد كان دخول دار البحر ممنوعاً، باعتبارها منشأة حربية على رأسها جوذر ثم خليفته نُصَيْر العامل على المهدية. وكانت هذه المؤسسة تؤوي بلا شك بالإضافة إلى المساجين المشار إليهم في **رياض النفوس**[35]، الأسلحة والذخيرة المعدة للأسطول. ولم يكن مُرَخَّصاً في دخولها لأي شخص ما عدا نُصَيْر. وقد بدا لنا المعز من خلال **سيرة جوذر** حريصاً على منع دخول دار البحر حتى على متولي خزائن البحر ذاته. فقد كتب إلى جوذر ما يلي: «دع الدار في

(30) **سيرة جوذر**، ص 137.

(31) نفس المصدر، ص 102، 121.

(32) المصدر المذكور، ص 102.

(33) نفس المصدر.

(34) المصدر المذكور، ص 137.

(35) [انظر **رياض النفوس** (طبعة بيروت) ص 227، الهامش 174].

يدك على ما هي عليه، ولا يكن لهذا (أي ابن طلاس) ولا غيره يدٌ فيها ولا رِجْل»[36].

وقد كانت كلٌّ من دار الصناعة المخصصة لصنع معدات الأسطول وخزنها، ودار البحر، عبارة عن حظائر شاسعة معدة لصنع السفن التجارية والحربية على حد سواء. وكان الخشب اللازم لصنع السفن والذي لم تكن البلاد قادرة على إنتاجه بكميات كافية يُسْتَوْرَد من صقلية في ظروف غامضة، رغم بعض المعلومات الواردة في كتاب **الأموال** للداودي و**سيرة جوذر**[37].

ومن المعلوم أن الاستعمار الزراعي بجزيرة صقلية في العهد الإسلامي لم يكن فعلياً خلال القرن الخامس الهجري إلا في النصف الغربي من الجزيرة الكبرى، أي من جزيرة وادي مازرة إلى حدود وادي سالسو. وقد استمر النصارى في الخضوع للنظام الخاص بالذميين، فكانوا يدفعون الجزية والخراج الموظفَيْن على الأراضي التي كانوا ينتفعون بغلاتها. أما الأراضي الجبلية الواقعة في الجنوب الشرقي أو وادي نوتو، والشمال الشرقي أو وادي ديمون، فلم يشملها الاستعمار الزراعي بالرغم من احتلال طبرمين في عهد إبراهيم الثاني والغارات المتعددة التي تتابعت طوال ما يناهز الأربعين سنة بإذن من العمال الفاطميين، لا سيما منهم عمال بني الكلبي، اعتباراً من عهد المنصور. وكان فتح طبرمين ورمطة من جديد يمثل المحاولة الأخيرة التي قام بها المسلمون لإخضاع القسم الشرقي من الجزيرة وحصونها المنيعة[38].

ويبدو في مثل تلك الظروف الخاصة من الحروب المتواصلة في مناطق جبلية شاسعة غير معمورة أو مهجورة من قِبَل سكانها الفارين في اتجاه النواحي الشرقية، أن المسلمين قد أقاموا هناك نظام «سخرة» بأتم معنى الكلمة، يتمثل

(36) **سيرة جوذر**، ص 137.

(37) نفس المصدر ص 116 - 117 و**كتاب الأموال**، ص 436 - 437.

(38) انظر **كتاب الأموال** ص 431 حول «جزية على الأرض» و «جزية على الجماجم» (الضريبة الشخصية على الرؤوس).

في إجبار السكان على قطع الخشب. ذلك أن المستوطنين الذين استقروا منذ العهد الأغلبي في القلاع المفتوحة مثل جرجنت ـ كما أشار إلى ذلك الداودي في كتابه **الأموال** ـ دون أن تخول لهم السلطة ذلك أو تحرمه عليهم، قد كانوا مرغمين على قطع الخشب المعد لدور الصناعة[39]. وقد كان أهل الذمة من النصارى مُجْبَرين في العهد الفاطمي على قطع الخشب (أو العود) كما جاء ذلك في سيرة جوذر[40]. وكانوا بلا شك حطابين مَهَرَة مختصين في قطع جذور الشجر وإعداد الخشب لنقله إلى المكان المخصص لشحنه. ومما يزيد من قساوة هذه الأشغال أنها كانت إجبارية ولا تدر على أصحابها أي ربح مادي، فكان ذلك مما يحملهم على النزوح إلى الأراضي التابعة للسلطة البيزنطية. وقد كانت هذه الهجرة تشغل بال عامل الجزيرة أحمد بن الحسن الكلبي الذي اشتكى من ذلك للمعز، فوجه إليه الخليفة تعليمات لهذا الغرض أوصاه فيها بالحزم «وأكد عليه في أن يبذل في أمره مجهوده حتى ييسر الله منه العسيرة بلطفه وجميل صنعه»[41]. وتدل العبارات اللاذعة التي وصف به المعز الحطابين ما كان يشعر به من حيرة. ذلك أن الدولة كانت في حاجة ماسة إلى الخشب. وكانت الكميات التي توفرها صقلية لدار الصناعة غير كافية، حتى اضطر جوذر إلى إعطاء «الأعواد التي في مخزنه» لإتمام «الأطراف التي كمالها بالصواري والقرايا وما أشبه ذلك»[42].

5 ـ «صاحب البحر» أو «متولّي البحر»:

كان من اللازم بالنسبة إلى قاعدة بحرية هامة في مستوى قاعدة المهدية، أن يُعهَد بمسؤولية الإشراف عليها إلى موظف سام يتمتع بكفاءة وصلاحيات أمير بحر. وقد كان المضطلع بهذه المهمة في عهد المعز يسمى «صاحب البحر» أو «متولي البحر»، وكان يرجع إليه بالنظر جميع القواد المشرفين على وحدات

(39) كتاب الأموال، ص 436.

(40) سيرة جوذر، ص 117.

(41) نفس المصدر.

(42) المصدر المذكور، ص 119.

الأسطول، وكان هو ذاته تحت إمرة جوذر، ثم خليفته نُصَيْر الخادم الذي كان يمسك بجميع السلطات المدنية والعسكرية في المهدية(43). وكان المتقلد لهذه الخطة في عهد المعز قائد من أصل عربي اسمه حسين بن يعقوب، تكون في الميدان البحري تحت إشراف والده يعقوب بن إسحاق شقيق خليل بن إسحاق الذائع الصيت، وقائد الأسطول الفاطمي في عهـد المهدي. وأصله من جند طرابلس كان قد دخل في خدمة الفاطميين في نفس الوقت هو وأخوه خليل. وكان يتحلى مثله بحماس ووفاء الرعيل الأول من الأولياء، رغم انتمائه إلى سلالة بني تميم مثل أصحاب إفريقية السابقين (الأغالبة)، وكان أول من تقلد خطة صاحب البحر في المهدية. وقد قاد بهذا العنوان الأسطول الأول الذي شارك في الحملة الثانية على مصر بقيادة ولي العهد أبي القاسم الملقب فيما بعد بالقائم. وأثناء الحملة الأولى كان من بين القواد التابعين لهيئة أركان أبي القاسم الذي كلفه قبل رجوعه إلى المغرب بجمع خراج الفيوم. وأثناء الحملة الثانية التي قاد فيها الأسطول الفاطمي انتصر عليه خصمه ثمل(44) الخادم قائد أسطول طرسوس. فتم تدمير ذلك الأسطول في رشيد وأُلقِيَ القبض على يعقوب ونائبه سليمان الخادم. ومنذ ذلك الحين ستشهد حياة يعقوب بن إسحاق سلسلة من الأحداث العجيبة. فقد سيق الأسيران إلى بغداد حيث ذاقا ألوان العذاب، وأودع يعقوب السجن في حين قُتِل صاحبه سليمان، وقد دام اعتقاله زهاء الخمس عشرة سنة قضاها في غياهب السجن، ولكنه بقي على اتصال بدعاة المهدي وجواسيسه الذين اغتنموا فرصة اغتيال الخليفة المقتدر، لتمكينـه من الهروب والعودة إلى المهدية، رغم البحوث الحثيثة التي أمر الخليفة الجديد القاهر بالقيام بها للعثور عليه. وقد حظي يعقوب في قصر المنارة بالمهدية باستقبال الأبطال، ثم استأنف مهامه السامية التي كان يضطلع بها في عهد المهدي وبداية عهد القائم. وتوفي حسب الاحتمال خلال السنوات الأخيرة من

---

(43) نفس المصدر، ص 86 - 87.

(44) [في عيون الأخبار، ص 206، ثمال].

عهد المنصور، لأننا لم نعثر له على أثر بعد مساهمته الفعالة في المعركة التي دارت رحاها في سوسة ضد أبي يزيد(45).

وفي الفترة التي كان فيها ابنه حسين يتقلد منصب «صاحب البحر» بالمهدية تحت إمرة جوذر، كانت قيادة الأسطول قد آلت إلى قواد ينتمون إلى أسرة بني الكلبي الذين أهلتهم خدمات رئيسهم الحسن بن علي أثناء قمع ثورة الخوارج لنيل ثقة المنصور وخليفته المعز. ولكن يبدو أن حسين بن يعقوب قد تقاسم سلطاته مع الأمير الكلبي أحمد بن الحسن. فكان الأول يتولى قيادة الأسطول الراسي في إفريقية وعلى وجه التحديد في المهدية، في حين كان الثاني يمسك بجميع السلطات المدنية والعسكرية في صقلية ويضطلع في الآن ذاته بمهام قائد الأسطول الصقلي(46).

وباستثناء بني الكلبي وابن أبي خنزير وأبي سعيد الضيف ويعقوب بن إسحاق وابنه حسين، لا نجد في خدمة الفاطميين أي أمير بحر من أصل عربي. ولئن أُقْصِيَ الكتاميون من أهل الجبال عن مناصب قيادة الأساطيل، فليس ذلك بالأمر الغريب. ذلك أن الكتاميين المختصين في الحروب البرية قد تركوا المجال مفتوحاً في وجه عدد قليل من القواد المحترفين من ذوي الأصل العربي، وبالخصوص في وجه عدد كبير من الصقالبة الذين قادوا الأساطيل الموجهة ضد «بلاد الروم»، أمثال جعفر بن عُبَيْد وسليمان ومسعود وصابر الشهير، الذين شرفوا البحرية الفاطمية وأسهموا في تحقيق سيطرة الأسطول الفاطمي في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط(47).

---

(45) نفس المصدر، ص 351 - 354.

(46) سيرة جوذر، ص 86 - 87 - 88، 128 - 129.

(47) انظر المصدر المذكور، ص 86 - 87 - 88 حول صلاحيات حسين بن يعقوب، وص 128 حول منزلة الحسن بن علي وثناء المعز عليه.

6 ـ الرباطات:

بقي علينا أن نحدد بإيجاز دور الرباطات[48] في تنظيم الجهاد في البحر في الفترة التي تهمنا. ونحن نعلم ما قامت به تلك المنشآت العسكرية المنتشرة على ساحل إفريقية الشرقي والمعروفة أيضاً باسم «القصـور»، من دور في الدفاع عن السواحل المغربية، وما كانت تحتضنه من نشاط حثيث في الميدان الديـني والحربـي، على حد سـواء، لا سيمـا خلال العهـد الأغلـبي. ذلك أن المتعبدين المرابطين بها كانوا عارفين أيضاً بفنون الحرب، ومتحمسين للجهاد، يحدوهم على الأقل حماس المؤمنين، كما تدل على ذلك تراجمهم المحفوظة بكل عناية في كتب الطبقات ولا سيما في كتاب **رياض النفوس**[49].

فهل أصبحوا بين عشية وضحاها يتهربون من الجهاد منذ أن سقطت بلادهم بين أيدي الشيعة المارقين؟ إن بعض التراجم الواردة في **رياض النفوس** تشير إلى قيام المتعبدين بنشاط عسكري في رباطات الساحل حتى مستهل القرن العاشر من الميلاد[50]. ومع ذلك يبدو أن نشاطهم الحربي قد فتر منذ اعتلاء الفاطميين عرش رقادة، قبل أن يتوقف تماماً منذ قيام وترسيخ نظام يتبادل العداوة مع المذهب السنّي الذي ما زال المرابطون متعلقين به شديد التعلق. وقد رأينا عدداً كبيراً منهم يؤلفون مع فقهاء القيروان المالكية الأشد تحمساً فرقاً عسكرية التحقت بصفوف نظام آخر خارج عن أهل السنّة، ألا وهو نظام أبي يزيد النكاري، وساهمت مساهمة فعالة في حركة التمرد. ولكن صاحب الحمار قد تمكن خلال المعركة الفتاكة التي دارت رحاها أثناء حصار المهدية، من

---

(48) دائرة المعارف الإسلامية (رباط 1231/3 - 1233). انظر أيضاً: جورج مارسي، مذكرة حول الرباطات في بلاد البربر، في تحية René Basset الجزء الثاني، باريس 1925، وفصول ومحاضرات لنفس الكاتب، الجزائر 1957، 23/1 - 37.

(49) مجلة الدراسات الإسلامية، 1935، ص 174 - 175 و 1936، ص 72 - 73، 84. جورج مارسي، الهندسة المعمارية، ص 30 ـ Vonderheyden ، ص 117 - 119 وإسبانيا الإسلامية، 78/3 - 80.

(50) مجلة الدراسات الإسلامية، 1935، ص 294 - 298.

القضاء على مَنْ انضمّ إليه من أهل السنّة الذين دفعوا غالياً تحمسهم المفرط ضد الشيعة[51].

والواقع أن نشاط المرابطين الدفاعي الذي كان حثيثاً للغاية في الواجهة البحرية الشرقية قبل ذلك التاريخ، قد انخفض انخفاضاً محسوساً إثر سقوط النظام الأغلبي السنّي، ولم يلبث أن توقف تماماً مع انتصار القضية الفاطمية بالمغرب. وقد كان هؤلاء المرابطون المتعبدون مقاتلين بأتم معنى الكلمة ورجال حرب محترفين، فخلفهم بعد تخليهم عن الجهاد أهل جبال القبائل الذين تحصنوا في الرباطات القديمة والجديدة مثل رباط المهدية، مقرين العزم اعتباراً من ذلك التاريخ على الدفاع عن حوزة السواحل المغربية وأداء واجب الجهاد المقدس.

---

(51) انظر الباب الثالث من القسم الأول، ثورة أبي يزيد.

البَابُ الرَّابِعُ

النظام القضائي

الفصــل الأول

وظيفـة القضــاء

1 ـ الحياة الدينية والفكرية:

يبدو أن النظام القضائي داخل مؤسسات الخلافة الفاطمية قد كان مرتبطاً شديد الارتباط بالتغييرات العميقة التي طرأت على الحياة الدينية في بلاد ما زالت متمسكة بالمذهب المالكي السنّي، إلى حد يصبح من الصعب علينا في إطار هذا العرض المخصص لدراسة المؤسسات الفاطمية التمييز بما يكفي من الوضوح بين ممارسة وظيفة القضاء وبين انعكاسات سيطرة المذهب الإسماعيلي على الحياة الدينية بل حتى الفكرية في منتصف القرن العاشر من الميلاد. إلا أننا سنحاول عدم الابتعاد أكثر من اللزوم عن حدود دراسة تلك المؤسسة ذاتها، وذلك بالبحث في موضوع السلطة القضائية الرئيسية أي «القضاء» بحثاً فنياً، وتحديد صلاحيات القاضي لا بصورة نظرية بل بصورة واقعية ودقيقة، وما يقوم به من دور غير عادي داخل نظام هو أيضاً غير عادي ومفروض على مجتمع متأثر شديد التأثر بالظاهرة الشيعية وتصورها للخلافة وما أدخلته على الشعائر الدينية من مستحدثات.

فسنترك حينئذٍ إلى دراسة لاحقة مهمة إعادة النظر بصورة مستفيضة في تحليل الاضطراب الاجتماعي الذي أثاره تطبيق مبادىء المذهب الإسماعيلي السياسية والدينية، أولاً لدى الكتاميين، ثم في إفريقية ذاتها، إلى جانب التعمق

في دراسة الدور الجديد الموكول إلى «القضاء» وإلى المضطلع بمهامه داخل المجتمع الإفريقي، إزاء ما يضمره فقهاء المالكية من حقد دفين للنظام القائم، وما لهم من تأثير على أهل البلاد الذين ظلوا في الجملة أوفياء للمذهب السنّي.

إلى أن الأمر يقتضي أن نشير ولو بصورة مقتضبة إلى مدى أهمية التغييرات التي أدخلها قيام خلافة مضادة على الحياة الدينية في البلاد، حتى ندرك على أحسن وجه المهام الجديدة الموكولة لوظيفة القضاء ونوضح الصلاحيات التي كانت تتمتع بها منذ ذلك الحين، وكذلك الدور الذي أصبح قاضي القضاة مدعوا إلى القيام به في خدمة الأيمة الفاطميين، أصحاب البلاد الجُدُد.

ذلك أن عدة نصوص جديدة أغلبها بقلم مؤلفين إسماعيليين، أو بالأحرى بقلم كاتب واحد هو القاضي النعمان، قد ظهرت في السنوات الأخيرة لإثراء الوثائق التاريخية، لا سيما منها المتعلقة بالتراجم والسِيَر، المتوفرة لدينا إلى حد ذلك التاريخ، وقد كانت لا تسلط الأضواء على القرن العاشر من الميلاد إلا من جانب واحد مغرض لا محالة، هو جانب الفقهاء والأخباريين من أنصار المذهب السنّي أو المدافعين عنه بحماس مفرط. على أن إيضاحات الوثائق الشيعية، رغم صبغتها المغرضة هي أيضاً، قد كان لها الفضل على الأقل في تمكيننا من تدقيق وتصحيح بل حتى مراجعة نظريات كانت قد ضُبِطت بسرعة فائقة شيئاً ما على أساس معلومات مشكوك في صحتها بطبيعة الحال. وهكذا فقد تم تسليط الأضواء بصورة أقرب ما تكون إلى الواقع لا على عهود الأيمة فحسب بل بوجه خاص على التاريخ الفكري وتطور الشعور الديني في بلاد عانت كثيراً من المواجهات ذات الصبغة المذهبية والنزاعات السياسية الدينية قبل «الانفجار الشيعي». ذلك أن كثيراً من جوانب الحياة الدينية والفكرية قد ظهرت في مظهر جديد منذ أن رُفع عن وجه الحقيقة الحجاب الذي وضعه الإعلام السنّي بكل عناية.

إن النظرية الأولى الواجب مراجعتها بدقة والتي من الممكن الإشارة إليها في خطوطها العامة في هذا المقام، ريثما يتسنى لنا درسها في إطار أنسب، هي

التي كثيراً ما تم تأكيدها مراراً وتكراراً وهي تتعلق بالنزاع الشيعي السنّي الذي كانت القيروان مسرحاً له خلال القرن العاشر. ولا شك أن كتب التراجم مثل «**الطبقات**» أو «**رياض النفوس**» أو بعض كتب الأخبار مثل «**البيان المغرب**» قد دعت الباحثين إلى تجميع المعلومات المتعلقة بما تعرض له من اضطهاد بعض المتدينين والفقهاء والمتعبدين وغيرهم من «الصالحين» الذين ظهروا من خلال كتابات ومخيلة أصحاب التراجم في مظهر شهداء العقيدة بأتم معنى الكلمة[1].
وكان التحليل المنهجي لكتاب «**رياض النفوس**»[2] قد أبرز منذ حوالي خمس وثلاثين سنة مدى القطيعة التي حصلت بين الدولة الجديدة والرأي العام القيرواني. كما صدرت في فترة أقرب عهداً[3] دراسة حول «المذهب المالكي وفشل الفاطميين»، أولت أهمية بالغة إلى المعطيات المعروفة ولا سيما منها الواردة في **رياض النفوس** حول مناهضة فقهاء المالكية للفاطميين، ودافعت عن أطروحات جريئة قد أقيم عليها الدليل بسهولة مفرطة واعتُبِرت بعَجَلة من الأمور المسلم بها. ولئن نشب نزاع بين فقهاء المالكية والسلطة الفاطمية، فهذا أمر لا يمكن أن يتطرق إليه الشك. أما أن يكون هذا النزاع قد اكتسى مثل تلك الصبغة العنيفة التي ألح عليها أصحاب التراجم، فهذا أمر لا يمكن التسليم به دون قيد ولا شرط. فقد تم تضخيم الأحداث والمبالغة فيها من خلال كتابات أولئك المؤلفين الذين كان همهم تمجيد شيوخ المدرسة المالكية القيروانية الذائعي الصيت والصالحين وغيرهم من الزهاد.

ذلك أن النزاع القائم بين السلطة وفقهاء المالكية قد سبق قيام الدولة

---

(1) وبالفعل فقد قدمهم أبو العرب في مظهر «شهداء» حقيقيين في التراجم التي خصصها لهم في طبقاته، ونسج على منواله المالكي وابن ناجي والقاضي عياض. انظر تراجم ابن البرذون، ص 215 - 216 وأحمد بن نصر، ص 231 وأحمد بن موسى بن التمار.

(2) الهادي روجي إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية 1935، ص 105 - 178 و 273 - 305، 1936، ص 45 - 104.

(3) H. Monès، المذهب المالكي وفشل الفاطميّين، الدراسات الشرقية المهداة إلى روح ليفي بروفنسال، الجزء الثاني باريس 1962، ص 197-220.

الفاطمية. ألم تنشب خلافات حادة بين أتباع الإمام مالك وفي طليعتهم سحنون وبين أمراء إفريقية؟ ألم يكن من تقاليد أتباع مذهب إمام دار الهجرة منذ العهد الأموي الحرص على اتخاذ موقف مناهض صراحة أو معارض أو الأقل متحفظ ومستقل تجاه السلطة؟ ألم تكن عداوة فقهاء القيروان للفاطميين مجرد امتدادٍ للمناهضة التي أبدوها تجاه رجال الحكم السابقين، ولو بأكثر حدة، والحق يقال ـ وهذا أمر طبيعي ـ وامتداداً أيضاً لمناوأة شيوخ المدينة المنورة للمذهب الشيعي والعلماء الممثلين له كالإمام جعفر الصادق مثلاً[4]؟.

على أن النزاعات المذهبية كانت قد هزت المجتمع الإسلامي شرقاً وغرباً قبل أن يعتلي المهدي العرش في إفريقية[5]. فلا حاجة حينئذٍ إلى تضخيم المنافسة بين أهل السنّة والشيعة إلى حد تشبيهها بالحرب الكامنة بين السلطة والفقهاء الذين اعتبرهم بعض الأخباريين بمثابة الممثلين للرأي العام ليستنتجوا من ذلك بسهولة مفرطة إفلاس النظام القائم غداة ظهوره في بلاد كانت مع ذلك أول مركز لخلافة مؤهلة للإحراز على مثل تلك السطوة والمجد! وبالعكس من ذلك يمكن أن نتابع عن كثب، بالاعتماد على الوثائق الشيعية انتشار الدعوة الإسماعيلية في بلاد القبائل الصغرى ثم في إفريقية ذاتها وتطور علاقاتها مع السنّة. وسنرى عندما سنتمكن من إتمام الدراسة المتعلقة بالحياة الدينية والفكرية، كيف استطاع المذهب الشيعي الإسماعيلي التأقلم مع الخلافات الداخلية التي كانت تثير الشقاق بين فقهاء القيروان ليتمكن في آخر الأمر من تحييد الشق المالكي باحتواء الشق الحنفي. وعندئذٍ يمكن أن نلاحظ أن الدعم الذي قدمه أتباع الإمام أبي حنيفة من أهل القيروان إلى القضية العلوية لم يكن

---

(4) دائرة المعارف الإسلامية (جعفر)، 384/2 - 385، سيد الأهل، جعفر بن محمد الإمام الصادق، بيروت، 1954، ص 55 - 60، Laoust Les Schismes dans l'islam ، ص 67 و 88 - 89. وحول اضطهاد فقهاء المالكية في العهد الأغلبي، انظر، الطبقات، ص 227 - 229، وحول خصوماتهم مع السلطة انظر بالخصوص الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، 1935، ص 163 - 168.

(5) انظر Laoust، المرجع المذكور، ص 383، 397 - 413، 413 - 430.

مجرد رد فعل للانتقام من خصومهم المالكية بل كان يمثل بالعكس من ذلك حركة انضواء طبيعي تحت لواء مذهب قد سبق لفقهاء المدرسة العراقية أن أظهروا نحوه ميولاً أكيدة منبثقة عن التعاطف الذي كان موجوداً بين أبي حنيفة وجعفر الصادق[6].

ذلك أن الخاصة الأغلبية ذات النزعة الحنفية قد كانت تشعر تجاه القضية الشيعية «بعطف» لم تعد تجد أي حرج في الإعراب عنه بصراحة في الوقت الذي أصبح فيه أبو عبد الله يهدد غرب المملكة بالخطر. وقد أطنب القاضي النعمان في «**افتتاح الدعوة**» في الإدلاء بعدة شهادات حول هذا التعاطف والإشارة إلى شواهد الإخلاص التي عبر عنها فقهاء القيروان ووجهاؤها تجاه الداعي ثم المهدي. ولم يلبث الفقهاء الأحناف أن انضموا إلى الفاطميين. ورغم أن الخشني لم يذكر سوى أحد عشر شخصاً اعتنقوا مذهب «التشريق» لطمعهم في الالتحاق بسلك القضاء أو تقلد وظائف قضائية ثانوية، فمن المحتمل أن يكون عدد «العراقيين» (أي الأحناف) الذين أيدوا أصحاب البلاد الجدد أكبر من ذلك بكثير[7]، وأن تكون المدرسة «العراقية» أهم بكثير مما أشار إليه أبو العرب أو الخشني أو المالكي. ويكفي أن نسجل أسماء الفقهاء الأحناف الذين ذكرهم ابن عذاري مثلاً في «**البيان المغرب**» لندرك كثرة أتباع أبي حنيفة في إفريقية. ألم تنتشر تعاليم المذهب الحنفي بما في الكفاية في القيروان هي وتعاليم مالك بن أنس في نفس الوقت[8]؟ ذلك أن الدارسين من فرط رجوعهم إلى «**الطبقات** و «**رياض النفوس**» وغيرها من كتب التراجم والسير المالكية، قد مالوا إلى إهمال ما كان لأبي حنيفة وأتباعه، وفي مقدمتهم محمد بن الحسن الشيباني، من تأثير في تلاميذهم القيروانيين[9]. أفلا ينبغي التذكير بأن تعليم الفقه الحنفي

---

(6) سيد الأهل، المرجع السابق، ص 102 - 108.

(7) **الطبقات**، ص 224 - 226، انظر أيضاً، **افتتاح الدعوة**، الفقرتان 220 و 263.

(8) انظر حول هذا الموضوع رأي ح. ح. عبد الوهاب السديد، **الإمام المازري**، ص 18 - 28.

(9) دائرة المعارف الإسلامية (الشيباني) Laoust - 280/4، ص 90. أبو زهرة، **أبو حنيفة**، ص 206 وبالخصوص المقدسي، تحقيق Pellatص 42 - 44 و 43 - 45.

كان قبل نهاية القرن الحادي عشر من الميلاد منتشراً في القيروان على نطاق واسع بواسطة ابن فروخ الذي أخذ عن أبي حنيفة ذاته[10]؟ وكيف يمكن الحط من الدور المتميز الذي قام به أسد بن الفرات[11] في أوائل القرن الثالث الهجري لنشر تعاليم أبي حنيفة؟ ولا شك أنه من الضروري إبراز ما كان لشيوخ مدرسة الفسطاط المدنيين وبعض الفقهاء الآخرين، كابن القاسم وابن وهب مثلاً، من تأثير مباشر في أهل إفريقية الذين كانوا يرتحلون إلى المشرق لأداء مناسك الحج وطلب العلم (سماع الحديث والفقه). ولكن لا ينبغي مع ذلك التنقيص من تأثير أتباع أبي حنيفة في أولئك المغاربة ذاتهم الذين كانوا متعطشين للعلم وحريصين على «تدوين» المذكرات التي يمليها عليهم العراقيون والمدنيّون على حد سواء.

أليس من الصعوبة بمكان التمييز بكل دقة بين تعاليم المدرسة المدنية وتعاليم المدرسة العراقية، أو الفصل بين المواد التي جمعها فقيه شهير مثل أسد بن الفرات[12]؟ أليس من الأرجح انتظار القرن الثالث الهجري، مع ظهور سحنون، ذلك القاضي الرائع والأستاذ القوي النفوذ[13]، للحديث عن ضبط مبادىء الفقه المالكي بدقة في **المدونة** المحررة حسب مثال **الموطأ**؟ ولكن ماذا نعرف بالضبط عن تعاليم المدرسة «العراقية» بالقيروان في عصر سحنون؟ لقد كان هناك بالفعل فقهاء من ذوي المقام الرفيع يمثلون عهدئذٍ النزعة الحنفية ويواصلون دروس أسد بن الفرات حسب الطريقة العراقية الصميمة ويؤلفون

---

(10) **الطبقات**، ص 34 - 37 [انظر أيضاً، ح. ح. عبد الوهاب (عبد الله بن فروخ الفاسي) **كتاب العمر**، 889/2 - 895].

(11) دائرة المعارف الإسلامية، (أسد بن الفرات)، 706/1.

(12) ح. ح. عبد الوهاب، **الإمام المازري**، ص 18 - 22 وحول ابن وهب وابن القاسم، انظر دائرة المعارف الإسلامية (مالك)، ص 218 - 223.

(13) دائرة المعارف الإسلامية (سحهون) 66/4 - 67. انظر أيضاً ترجمة سحنون بن سعيد التنوخي في **رياض النفوس** [طبعة بيروت، 345/2 - 376].

مدرسة عتيدة حول سليمان بن عمران «إمام العراقيين بعد أسد»[14].

ألا نستطيع أن ندرك على الوجه الأفضل من خلال دراسة المعطيات الواردة في **الطبقات** أو المتناثرة في **البيان** دراسة دقيقة، حقيقة الحياة الدينية التي ستظهر لنا عندئذٍ في مظهر مخالف للنظرية التي تقول بتفوق مذهب الإمام مالك تفوقاً مطلقاً؟ والواقع أن نظرية سيطرة المذهب المالكي بالقيروان في القرن التاسع من الميلاد، المسلم بها على أوسع نطاق، نابعة من فكرة مبسطة أكثر مما ينبغي نشرتها الضجة التي أثارها بعض أصحاب التراجم المتحمسين، حول اسم سحنون، والهالة الخارقة للعادة التي أحاطوه بها في نظر الأجيال الصاعدة في الشرق والغرب على حد سواء.

على أن هشاشة هذه الأطروحة قد أصبحت واضحة أكثر فأكثر كلما تأكدت لا فحسب ملامح بعض أعلام المذهب الحنفي الأفذاذ مثل سليمان بن عمران، بل أيضاً ما قاموا به من دور قضائي واجتماعي. فقد توفرت لدينا الآن قطعة من كتاب «**أدب القاضي والقضاء**[15]»، وهو تصنيف ضخم بقلم قاضٍ حنفي من تلاميذ سليمان بن عمران اسمه هيثم القيسي. ورغم صبغتها النظرية فإن هذه الوثيقة تدعو إلى الاعتقاد بأن المذهب الحنفي كان منتشراً في البلاد أكثر مما يدعيه أصحاب التراجم، وبالتالي فقد كان أتباعه موجودين في مناطق أخرى مثل تونس وباجة. ويبدو أن المنافسة الحادة التي قيل أنها كانت موجودة أصلاً بين فقهاء المالكية والحنفية قد بالغ في تضخيمها أصحاب التراجم المالكية الحريصين على تمجيد أيمة مذهبهم. ذلك أنه رغم المجادلات التي كان يثيرها النظر في المسائل الفقهية والمنافسات الطبيعية الناشئة عن الطمع في المناصب

(14) **الطبقات**، ص 180 - 183 والهادي روجي إدريس، المرجع المذكور، ص 129 - 137 [انظر أيضاً، ح. ح. عبد الوهاب (سليمان بن عمران) **كتاب العمر**، 899/2 - 902].

(15) مخطوط غير مرتب من رصيد الجامع الأعظم بالقيروان [وقد صدر هذا الكتاب الذي حققه فرحات الدشراوي عن الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1972].

القضائية، كانت البلاد تعيش عند قيام الخلافة الفاطمية في مأمن من الإكراه في الدين والنزاعات المذهبية بين أتباع المدرستين المتنافستين، كما يتجلى ذلك من من الشهادة التالية التي أدلى بها المقدسي حين قال:

«ما رأيتُ فريقَيْن أحسن اتفاقاً وأقـلّ تعصباً من أهل القيروان، وسمعتهم يحكون عن قدمائهم حكايات عجيبة حتى قالوا: إنه كان القاضي سنةً حنفياً وسنةً مالكياً»(16).

إن مثل هذه الاعتبارات التمهيدية حول خصائص الحياة الدينية والفكرية في إفريقية في القرن العاشر من الميلاد لها الفضل، رغم طولها، في توضيح طبيعة الظروف الدينية والقانونية التي حفت بتركيز الجهاز القضائي الفاطمي في البلاد. فقد حصلت الصدمة الشيعية في الوقت الذي بلغت فيه إفريقية في ظرف قرن من استقرار النظام السنّي، درجة رفيعة من الازدهار الفكري والروحي في ظل المجموعة الإسلامية السنّية. ولم يبق لنا حينئذٍ، قبل الانتقال إلى دراسة النظام القضائي بحصر المعنى، إلا أن ننظر في ضوء ذلك الاضطراب كيف تأقلم النظام الجديد مع النظام السابق من وجهة النظر الشرعية.

2 ـ مقارنة بين النظام الجديد والنظام السابق:

ما زالت هناك نظرية شائعة تقول بحصول تصدع أو قطيعة بين النظام الجديد والنظام السابق. وهي نظرية لم تعد قادرة على الصمود أمام الدراسة المستفيضة للوثائـق المتوفرة لدينا الآن والتي أَثْرَتْها مؤلفات القاضي النعمان الفقهية(17). ومن غير أن نبتعد كثيراً عن سياق دراسة المؤسسات الفاطمية، نستطيع أن نقول إنه بالرغم من الاختلاف الأكيد الموجود بين المسائل المتعلقة بالعقيدة، يبدو أن الفقه الشيعي الذي وُضِع في إفريقية ذاتها ـ كما سنرى ذلك

(16) المقدسي، تحقيق Pellat، ص 43 [انظر أيضاً ح. ح. عبد الوهاب، كيف دخلت الحنفية إفريقية، ورقات، 44/3 - 47].

(17) إيفانوف، دليل الأدب الإسماعيلي، ص 37 - 40.

عند تعريف دور القاضي - لم يكن يختلف كثيراً عن الفقه المالكي، وأنه، باستثناء الخلاف حول بعض المسائل المتعلقة بالطقوس الدينية، قد سعى النظام الشرعي النظري والتطبيقي الذي ضبطه الفقيه والقاضي الفاطمي الذائع الصيت، الحريص على التوفيق بين المذهب الإسماعيلي والسنّة، إلى التلاؤم مع الوسط السنّي والانسجام مع اتجاهات الفقه المالكي الأساسية[18]. فقد حافظت الوظيفة القضائية في الدولة الفاطمية على الحظوة التي اكتسبتها خلال العهد الأغلبي، حيث كان القاضي يُعَدّ من بين كبار رجال الدولة الأكثر وجاهة التابعين لحاشية الأمير. ويمكن اعتباره في النظام الجديد تابعاً لطبقة الخاصة المتألفة من أفراد الأسرة العلوية والدعاة والأولياء. ولم يعد كما كان من قبل في العهد الأغلبي يحتل منزلة بين بين، أي بين فئة الخاصة التي تتألف من رجال الدولة وأفراد العائلة المالكة وفئة العامة التي تضم على وجه العموم بقية الرعية، ويُعْتَبَر الفقهاء ممثلين لها. فأصبح القاضي منذ ذلك الحين شخصاً «رسمياً» تُعتبَر مهمته مرتبطة أشد الارتباط بنشاطه الفكري الذي تحتل فيه مكانة مرموقة الدراسات الفقهية والجهود المبذولة لضبط نظام شرعي موافق لمذهب الدولة وملائم أيضاً للمحيط الإفريقي.

وبناءً على ذلك، فبالنسبة إلى الفقهاء الفاطميين لا يُنْتَظَر أن نجد لا في كتب التراجم مثل مؤلفات أبي العرب والخشني والمالكي، ولا في المصنفات الأدبية المتعلقة بالقاضي والقضاء، ولا في كتب «الأحكام»، طائفة من المعلومات ومجموعة وافرة من التفاصيل، كما نجد فيها من حسن الحظ مثل ذلك حول بعض فقهاء السنّة أمثال أسد بن الفرات وابن غانم[19] وسحنون. فينبغي أن نبحث في كتب الأخباريين الشيعة مثل كتاب الداعي إدريس **عيون الأخبار** - أو حتى في بعض كتب أهل السنّة مثل **البيان المغرب** لابن عذاري - وفي مؤلفات القاضي النعمان بالذات، عن المعطيات اللازمة لتحديد مفهوم

(18) برنشفيك، الفقه الفاطمي وتاريخ إفريقية، ص 13 - 20.

(19) الطبقات، ص 43 - 44 وفي مواضع متفرقة.

«القضاء» في النظام الفاطمي بكل دقة، ووصف ممارسة وظيفة القضاء في أخص خصائصها المميزة للنظام الجديد الذي أقامته خلافة «خارجة عن أهل السنّة»، وتقدير ما يكتسبه القاضي الفاطمي من أهمية سياسية واجتماعية فريدة من نوعها.

3 ـ قاضي القضاة الفاطمي[20]:

ترجع صلاحيات قاضي الجماعة في الخلافة الفاطمية إلى الإمام كما هو الشأن أيضاً بالنسبة إلى الخلافة السنّية. وبمقتضى مبدإ «النيابة» المعمول به في الدولة السنّية، يفوض الإمام في الدولة الشيعية سلطاته إلى قاضي الجماعة.

إلا أن إفريقية التي أصبحت مقر خلافة ـ وقد كان يحكمها في السابق أمير تابع للخلافة العباسية وكان فيها القضاء راجعاً من الناحية النظرية إلى سلطة الجالس على العرش في بغداد ـ سيقوم فيها للمرة الأولى منذ الفتح نظام تيوقراطي من الناحية النظرية والعملية، وسيمسك فيها بزمام السلطة الدينية والدنيوية شخص واحد هو الإمام المعصوم. وفي هذه الدولة الثيوقراطية التي قامت في المغرب في مطلع القرن العاشر من الميلاد، سيظهر الإمام ـ أكثر مما هو الشأن بالنسبة إلى خصمَيْه في بغداد وقرطبة ـ في مظهر الملك «المطلق السلطة»، المتمتع حينئذٍ بحق ممارسة جميع السلطات بنفسه والحكم بين الناس.

---

(20) انظر حول القضاء والقضاة، E. Tyan، النظام القضائي في البلدان الإسلامية جزآن، باريس 1938، وهي دراسة كاملة بالنسبة إلى المشرق وغير كافية بالنسبة إلى المغرب. وحول النظام القضائي في الخلافة الأموية بالأندلس، انظر ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية، 3/112 - 162. وحول القضاء بإفريقية في فترة موالية للفترة الفاطمية وفي فترة أخرى متأخرة، انظر، الهادي روجي إدريس **الدولة الصنهاجية** [الترجمة العربية، 2/159 - 183]، وروبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** [الترجمة العربية 2/114 - 153]. وانظر أيضاً J/ Schach، مدخل إلى القانون الإسلامي، ص 23 وما بعدها و 49 وما بعدها، وكذلك J. Hopkins، الحكومة الإسلامية في العصر الوسيط: المؤسسات القائمة الذات بإفريقية قبل العهد الحفصي وبالخصوص القضاء، ص 112 وما بعدها، انظر تقديم هذا الكتاب في مجلة أرابيكا 1960 ص 209 - 210.

فكيف سيقع حينئذٍ العمل بمبدإ «النيابة» الذي يقتضي أن يفوض الإمام سلطة الحكم بين الناس إلى القاضي؟ لقد قدم إلينا النعمان في هذا الصدد معلومات تستحق أن ننقلها بحذافيرها:

«(قال) وقال لي (المعزّ): يا نعمان، زعم لي فلان ـ لرجل سماه ـ أن بعض الأولياء يستثقلون أمرك ويقولون: فلان أرفق بنا ـ لبعض القضاة ـ. (قال) قلت له (الحديث للمعزّ): الذي يستثقل من أمر النعمان هو الذي منعني أن أتولى القضاء بين الناس. إن القضاء ميزان عدل الله في أرضه وقسطه بين عباده، فمن عدل به عن جهته وأحاله عن سبيله فقد باء بغضب من الله ولعنة أوليائه. فأمر القضاء عظيم ومحمله ثقيل. والله ما نقم الناس على أمير المؤمنين عليّ إلا لأنه تقلده لهم فحملهم على منهاج الحق فيه، فلذلك قلدناه من قلدناه وتعافينا منه»[21].

وقد ظهرت تسمية «قاضي القضاة» من أول وهلة منذ انبعاث الدولة الفاطمية حين تسلم الداعي أبو عبد الله عرش رقادة لحساب المهدي وكان أول من تلقب بهذا اللقب وبالتالي تولى خطة القضاء هو المَرْوَرُّوذي[21 م] الذي اختاره الداعي ـ حسب رواية النعمان ـ لأنه «كان له تشيع قديم ونظر في الفقه من قول الأئمة»[22]. «فجعل إليه تولية القضاة والحكام بسائر البلدان، وكان يكتب في كتبه وسجلاته: «من محمد بن عمر قاضي القضاة»، وكانت توليته إياه في أول شهر رمضان من سنة ست وتسعين ومائتين»[23] (24 ماي 909 هـ أي بعد أقل من شهرين من دخول الداعي رقادة مظفراً).

وقد أقر المهدي المروروذي في منصبه، لكنه ما لبث أن ولى القضاء برقادة كتامياً من ملوسة[24]. فهل كان هذا الفقيه الكتامي يتمتع أيضاً

(21) **المجالس والمسايرات**، ص 307.

(21 م) نسبة إلى مَرْوَرُّوذ بخراسان.

(22) **افتتاح الدعوة**، الفقرة 223.

(23) نفس المصدر.

(24) **عيون الأخبار**، ص 211 و**البيان**، ص 159/1 و**الطبقات**، ص 241.

بصلاحيات قاضي القضاة؟ إن كان الجواب بنعم فما هو حينئذٍ المدلول الصحيح «للأمة» في النظام الجديد؟ وهل كان هناك مفهومان للأمة، مفهوم السنّة التي ما زالت القيروان مهدها ومركزها التقليدي، ومفهوم أصحاب البلاد الجدد وأوليائهم الذين كانت رقادة لا تمثّل بالنسبة إليهم سوى مركز وقتي في انتظار تأسيس «دار الهجرة» الجديدة التي ستتخذ في المهدية شكلاً أعم وأشمل من «دار الهجرة» السابقة في إيكجان؟ يمكننا أن نؤكد أولاً أن الخليفة الفاطمي الجديد بتعيين قاضٍ كتامي في رقادة يتمتع بصلاحيات قاضي القضاة لم يرد بلا شك إحياء سنّة أسلافه الأغالبة الذين كانوا يعينون قاضي القضاة في مقر إقامتهم الرئيسي إن لم يكن من أهل القيروان[25]، بل أراد فقط أن يكون للجنود الكتاميين المقيمين برقادة قاضٍ خاص بهم، وأن يكون هذا القاضي من أبناء قبيلتهم. فهل كان في هذه الصورة بمثابة «قاضي العسكر» أو «قاضي الجند»، كما هو الشأن بالنسبة إلى بعض الدول الإسلامية الأخرى مثل الأندلس[26]. ولكن لا يبدو أن سلطة قاضي رقادة كانت مقصورة وقتئذٍ على الكتاميين، ومهما يكن من أمر فإن القاضي الكتامي الذي وقع عليه اختيار المهدي، وهو أفلح بن هارون الملوسي، ما لبث أن تقلد خطة قاضي القضاة الرسمي منذ سنة 916/303 خلفاً للمروروذي الذي عُزِل وقُتِل قبل ذلك بقليل[27].

وإن أمر هذا البربري القبائلي لغريب! فقد استرعى من أول وهلة انتباه الخليفة الفاطمي الذي أسند إليه منصباً هاماً كان يمثل في هذه البلاد التي أصبحت أرض السنّة المفضلة، العمود الفقري لنظام الدولة، وكان بالتالي حكراً على الفقهاء الذائعي الصيت من ذوي الأصل العربي، سواء كانوا تابعين للمذهب المالكي أو الحنفي. ذلك أن أفلح ـ حسب المعلومة النفيسة التي

---

(25) الطبقات، ص 240.

(26) إسبانيا الإسلامية، 118/3 - 119. .

(27) البيان، 173/1 ـ الطبقات، ص 239.

رواها أحد الدعاة المعاصرين له[28] ـ «قد تولى القضاء بالمهدية ورقادة وغيرها من الأعمال». وكان قبل ذلك ـ حسب نفس الرواية ـ «داعي ملوسة وشيخ الجماعة وفقيهها».

ثم أضاف الداعي المذكور قائلاً:

«وقد كان جمع مع الدعوة علوم الفقه، وأدرك أبا معشر والحلوني، وكان يحدث عنهما عن الحلبي، وانتسخ كثيراً من كُتب الفقه والآثار والفضائل وخُطَب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب... وسمعتُ عنده دعوة النساء وما يخاطبهن به من الدلائل التي تقبلها عقولهن ويحفظنها»[28م].

وهكذا أصبح أفلح بن هارون الملوسي في ظرف خمس عشرة سنة قضاها بين أفراد حاشية الداعي أبي عبد الله، عالماً متضلعاً في الفقه وبالخصوص متشبعاً بما فيه الكفاية بالمذهب الإسماعيلي إلى أن بلغ الدرجة التي مكنته من الارتقاء إلى رتبة داعٍ والاضطلاع بمهمة الدعوة لدى أبناء قبيلته. وسيضيف إلى خطة القضاء، منذ أن تقلد منصب قاضي القضاة في مستهل عهد المهدي، دوراً جديداً يتمثل في نشر الدعوة وبث المذهب الإسماعيلي، فضلاً عن دورها العادي والمألوف بوصفها قوة القضاء. فبالنسبة إلى داعي ملوسة المتحمس وفقيهها، كانت مهمة القضاء تعني، حتى قبل تأسيس الخلافة الفاطمية، نشر المذهب الإسماعيلي، على الأقل من جانبه «الظاهري»، وهو الدور الذي سيتألّق في أدائه عما قريب أبو حنيفة النعمان، قاضي المنصور ثم المعز الشهير.

ولكن حسب رواية أبي العرب[29] الذي يجهل تعيين أفلح في خطة قاضي

---

(28) عيون الأخبار، ص 211: اسم هذا الداعي هو أبو عبد الله جعفر بن محمد بن أحمد بن الأسود بن الهيثم.

(28 م) نفس المصدر، ص 211-212.

(29) الطبقات، ص 239.

القضاة، كان الذي خلف المروروذي هو محمد بن المحفوظ، وهو فقيه متشيع من مواليد قمودة. ويمكن أن نتصور أن المهدي قد رأى من حسن السياسة ـ حين أسند خطة قاضي القضاة إلى أفلح مع الإقامة في رقادة ثم المهدية ـ أن يعين بالقيروان قاضياً من أصل عربي يتمتع أيضاً بصلاحيات قاضي القضاة. ولكن اعتباراً من ذلك التاريخ سيقع الاختيار على فقيه تابع للطائفة الإسماعيلية أو على الأقل معروف بنزعته الشيعية. وسيكون الأمر كذلك بالنسبة إلى الفقهاء الذين سيضطلعون بهذه المهمة في أيام المهدي والقائم، وهم: إسحاق بن أبي المنهال ومحمد بن عمران النفطي وأحمد بن يحيى بن بحر[30]. ولكن الفقيه الذي خلف ابن بحر، لما قتل أبو يزيد هذا الأخير بالقيروان، هو أحمد بن محمد بن الوليد الذي تولى هذه الخطة بفضل تأييد فقهاء المالكية وموافقة أهل البلاد على ذلك، لما بدأ الخطر الخارجي يهدد المهدية. إلا أن المنصور الذي اعتزم معاملة أهل القيروان بلطف، قد امتنع من عزله لما استرجع مدينة القيروان، حرصاً منه على تهدئة الخواطر[31]. ولنفس الأسباب وقع الاختيار على الفقيه الذي خلفه وهو ابن أبي المنظور[32]. ذلك أن المنصور، وفاءً لسياسته الرامية إلى مراعاة أهل القيروان، قد ولى القضاء هذا الفقيه الشهير الذي ينتمي إلى أسرة أندلسية من الأنصار، ولكن المعني بالأمر لم يبق مدة طويلة في منصبه، إذ أدركته المنية في نفس السنة التي لقي فيه أبو يزيد مصرعه (948/336). وقد خلفه عبدالله بن هاشم[33] الذي كان قبل ذلك حاكماً بالقيروان وكان يتمتع بسمعة طيبة ويُعرَف بنزاهته المتسببة في تلقبه «بقاضي الحق». وقد

(30) نفس المصدر، ص 240.

(31) ابن حماد، ص 38 - 39. واتعاظ الحنفاء، ص 127 و 133.

(32) اتعاظ، ص 133، ابن حماد، ص 59 - 61 ـ والهادي روجي إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية، ص 156، 164 - 165 والدولة الصنهاجية [الترجمة العربية، 167/2].

(33) الدولة الصنهاجية [الترجمة العربية، 167/2، الهامش 39 و 40].

استمر في الاضطلاع بمهامه في أيام المنصور والمعز، حتى بعدما تولى النعمان القضاء في المنصورية، بعنوان وصلاحيات قاضي القضاة.

واعتباراً من تاريخ تعيين القاضي النعمان ستبدأ مرحلة جديدة في الوقت الذي تم فيه إخماد ثورة الخوارج واستئصال الداء الخارجي واستبعاد خطره نهائياً، وكذلك في الوقت الذي تخلص فيه أهل السنّة من أوهامهم وأدركوا عبث مناوأتهم للنظام القائم، في حين وهنت قواهم إثر الفشل الذي مُنِي به تواطؤهم مع الخوارج، وخرجت الأسرة الحاكمة أقوى من ذي قبل واسترجعت الدولة استقرارها وتوطدت أركانها. ومنذ ذلك الحين ستتخذ خطة القضاء شكلاً خاصاً أكثر من بقية دواليب الدولة، وذلك من خلال تعزيز صلاحيات قاضي القضاة الخارقة للعادة، وتكثيف نشاطه التبشيري.

ذلك أن خطة القضاء كانت إلى حد ذلك التاريخ ـ كما أسلفنا ـ متسمة بعدم الاستقرار ومُكتسِيَة صبغة مبهمة، إن صح التعبير. فقد ظهرت عهدئذٍ وجهاً لوجه نظريتان مختلفتان تمام الاختلاف، أو بالأحرى متضاربتان، إثر فوز القضية العلوية وترسيخ المذهب الإسماعيلي بالمغرب، إلى جانب المذهب السنّي. وقد وجد المهدي نفسه أمام خيارَيْن أحلاهما مر: إما مباشرة الحكم بالإكراه وفرض مذهب آبائه وأجداده وتصورهم للدولة ونظام الحياة وفقاً لمفهوم الإمامة، بالقوة والعنف، أو التفاهم مع الخصم بالتي هي أحسن، وبالتالي انتهاج سياسة المرونة والحلول الوسطى.

واعتباراً لما كان يتحلى به من فطنة ونفوذ بصر، واستجابةً للنصائح التي كان يسديها إليه أبو جعفر البغدادي، حرص المهدي على انتهاج سياسة التقارب مع أهل القيروان، بالرغم من جميع العقبات التي تقف حجر عثرة في طريق تطبيقها، ورغم مناهضة الشقين المتطرّفَيْن المتنافسَيْن: الشق الكتامي البربري والشق القيرواني العربي، ومناوأة العدو الخارجي، وبالخصوص معارضة فقهاء المالكية الصريحة. وقد انعكس هذا الموقف على تنظيم القضاء حسب صيغتين: من جهة قضاء الطائفة الشيعية وعلى وجه التحديد الإسماعيلية، ذلك القضاء الذي يوجد مقره في المدينة العاصمة، برقادة في أول الأمر ثم بالمهدية وأخيراً

بالمنصورية، وقد تقلده على التوالي أفلح بن هارون وزُرارة بن أحمد[34] وعلي بن أبي سفيان[35] وأبو حنيفة النعمان. ومن جهة أخرى القضاء الرسمي الذي يوجد مقره بالقيروان، وقد تولى مهامه على التوالي ابن المروزذي وابن المحفوظ وابن أبي المنهال ومحمد بن عمران النفطي وابن هاشم. وقد تولى القضاء حسب هذه الصيغة الرسمية التي تهم أهل إفريقية بأسرهم، أي عملياً المجموعة السنّية، فقهاء متشيعون ثم فقهاء من أتباع المذهب المالكي. ويمكن تشبيه هذا الوضع بالوضع الذي شهدته مصر في بداية الخلافة الفاطمية، حيث كان يوجد بها خلال عهد المعز لدين الله قاضيان أحدهم سنّي والآخر شيعي[36]. وكان يحدو المهدي ثم المعز من بعده بنصف قرن حرص مشترك، ألا وهو مراعاة الرأي العام السنّي وفقهاء المالكية الناطقين باسمه. ورغم ميل قاضي القيروان إلى النظام الشيعي في أيام المهدي ثم القائم، لم يكن أي شيء في صلاحياته أو في دوره يدل على حصول تغيير جذري في تولي القضاء حسب الطريقة المألوفة، أو من باب أولى وأحرى حدوث قطيعة مع أهل السنّة. وتبعاً لذلك لم يواجه الخليفة الفاطمي أي مشكل لإرجاع القضاء المالكي إلى سالف وضعه وإقراره في القيروان بعد فشل ثورة الخوارج.

ذلك أن التنظيم المبتكر لخطة القضاء في الدولة الفاطمية قد كان مرتبطاً بإصلاح المذهب الإسماعيلي الذي قام به المهدي، وقد كان أصحاب التراجم من أهل السنّة الذين غشت أبصارهم التغييرات الجديدة الطارئة على الشعائر الدينية، غير قادرين على إدراك أبعاده. وقد شمل هذا الإصلاح الذي ظهرت آثاره في مؤلفات القاضي النعمان الفقهية فكرة «المهدي المنتظر» ورسالته السياسية والدينية التي لا يمكن أن تكون مقصورة على عهده ذاته. كما شمل الإصلاح الاعتراف الرسمي بأبي القاسم بوصفه «ابن المهدي والقائم بالإمامة من بعده»[37]. والاعتقاد بوجود «الظاهر» و «الباطن» في آنٍ واحد مع نفس

(34) اتعاظ، ص 133 والطبقات، ص 241.

(35) اتعاظ، ص 133.

(36) نفس المصدر، ص 147، 189، 196.

(37) افتتاح الدعوة، الفقرتان 150 و 294.

الحقوق. وقد حلل مادلنغ هذا الإصلاح تحليلاً وجيهاً. وإننا نرى من اللازم، لتوضيح ملاحظاتنا حول العلاقة بين نظام القضاء في عهد الفاطميين وبين مذهبهم الديني كما أصبح بعد الإصلاح الذي طرأ عليه،أن نورد فيما يلي الأفكار الرئيسية التي عبر عنها الكاتب المذكور في هذا الشأن(38).

«لقد كان من المتوقع أن يخيب تسلسل تاريخ الفاطميين ما كان يعلقه عليه من آمال طموح أنصارهم الذين بدؤوا يشكون في عصمة المهدي وشرعية إمامته. ذلك أن التعاليم السابقة قد قضت بأن يلغي المهدي، مثل النبي المتكلم السابع، شرائع جميع الأنبياء ويعلن على رؤوس الملإ عن «المعنى الباطن» ويقدم الشريعة الشاملة التي لم يَعُدْ فيها أي فرق بين الحقيقة الظاهرة والحقيقة الخفية، إلا أن الخليفة الفاطمي الذي واجه مناهضة أهل إفريقية بأسرهم قد كان مضطراً لا فحسب إلى التقليص من أنشطة الدعاة إلى أدنى حد ممكن، بل أيضاً إلى إرغام أتباعه على احترام الشريعة الإسلامية دون قيد ولا شرط. ومن ناحية أخرى كان مفروضاً عليه أن يبسط سلطانه على العالم بأسره وأن يحكم البشرية قاطبة ويطبق الشريعة في البقاع التي كانت خاضعة قبل ذلك للاستبداد. ولكن الجيوش الفاطمية قد مُنِيت بالهزيمة في مصر المرة تلو الأخرى. كما أقامت الثورة الخارجية الرهيبة في عهد القائم الدليل على أن الفاطميين لم يتحكموا بعدُ في البلاد. وأخيراً ينص المذهب الإسماعيلي على أن المهدي سيكون بعد ظهوره هو آخر الأنبياء والإمام الذي ينتهي به العالم.

إلا أن الله يكون قد حط من منزلة أسرة الرسول لو لم ينحدر منها سوى مهدي واحد. فيتعين على المهدي المنتظر أن يعيد تطبيق الشريعة لفائدة آل الرسول وأنصارهم ولكن سيسود بعده مهديون كثيرون من سلالة الرسول بتأييد من الله إلى يوم القيامة. (وهذا هو بالضبط معنى «المهدي» و «الهادي» و «المُهتَدَى به»).

---

(38) انظر V.W.Madelung، Das Imamat، ص 80 - 81.

ويمكن اعتبار إصلاح المذهب الإسماعيلي إجراءً حكيماً من وجهة نظر مراعاة المصلحة العامة، بل قل أمراً حتمياً لو كُتِب لهذا المذهب أن يصبح يوماً ما دين دولة. ذلك أن أي مذهب يقوم على النظر ويعتبر أن الإسلام قد تجاوزته الأحداث وأصبحت أحكامه لاغية، غير قابل للتطبيق، وسيحكم أتباعه على أنفسهم بالخروج عن الأمة التي يطمحون إلى الإمساك بزمام حكمها في العالم بأسره.

وقد نجح المهدي بفضل تدخله الحازم والبارع في القضاء على ثورة أتباعه الذين خاب ظنهم فيه خلال السنوات الأولى من عهده. إلا أن تطور الظروف الخارجية كان لا بدّ أن ينعكس على المذهب انعكاساً عميقاً. وبناءً على ذلك فقد وجد المهدي نفسه مضطراً إلى الاضطلاع بالمهمة العويصة الملقاة على عاتقه والمتمثلة في الحرص على الملاءمة بين المذهب والظروف الجديدة والمحافظة مع ذلك على مظهر الاستمرارية[39].

ومن الجدير بالملاحظة، في ضوء علاقات القضاء الرسمي بالمذهب الإسماعيلي في الوقت الذي كان فيه هذا المذهب مضطراً إلى التلاؤم مع الواقع الإفريقي ليصبح مذهب الدولة، أن القضاء الفاطمي في القيروان لم يكن يختلف كثيراً عن قضاء أهل السنّة. على أن الطائفة الإسماعيلية قد كان لها قاضٍ خاص بها في المهدية ثم في المنصورية.

وقد طرأ على القضاء في آخر عهد المنصور تغيير جوهري سيتسع نطاقه أكثر فأكثر في عهد المعز، إثر توطيد أركان الدولة وتعاظم القوة الفاطمية بعد استئصال حركة الخوارج، وضعف الشق السنّي وتدهور علاقات نظام الدعوة المركزة في المنصورية مع الإسماعيليين القرامطة. وستبدأ عندئذٍ مرحلة جديدة مع المعز، وفترة ثانية من العلاقة بين المذهب الإسماعيلي والسنّة القيروانية، ستكون متزامنة مع تعيين أبي حنيفة النعمان في خطة القضاء، ذلك التعيين الذي ينبغي الآن دراسة انعكاساته على وظيفة القضاء.

---

(39) نفس المصدر ص 40 **والمجالس والمسايرات**، ص 348.

4 ـ القاضي النعمان ووظيفة القضاء:

إنها لعجيبة صورة هذا الفقيه المجهول الأصل والقاضي المغمور الذي تولى القضاء في إقليم طرابلس البعيد عن مركز الخلافة ثم ارتقى فجأة في وقت معين إلى منصب يتهافت عليه الفقهاء أكثر من أي منصب آخر، ألا وهو منصب قاضي القضاة. وسرعان ما أعطى من خلال مباشرته لهذه الخطة صورة القاضي المثالي المسموع الكلمة والمحترم من الجميع، بفضل كفاءته وخصاله الأخلاقية على حد سواء. ولكنه سيتألق بالخصوص بوصفه كاتباً غزير الإنتاج يرجع إليه الفضل في وضع نظام شرعي ومذهبي في متناول عموم الناس. واعتباراً من ذلك التاريخ سيذيع صيته عن طريق دروسه حول المذهب الإسماعيلي المبسط والمعتدل، المعبر عنها «بسماع الحكمة». وسيضفي على القضاء الشيعي ما سبق أن أضفاه فقيه شهير مثل سحنون من قيمة وإشعاع على القضاء المالكي. وقد حكى النعمان ذاته عن ظروف توليه القضاء، فقال:

«ولما أرحلني المنصور من مدينة طرابلس إلى الحضرة المرضية وافق وصولي إليها غداة يوم جمعة، فخلع عليّ يوم وصولي وقلدني وأمرني بالسير من يومي إلى المسجد الجامع بالقيروان وإقامة صلاة الجمعة فيه والخطابة، إذ لم يكن يومئذٍ بالمنصورية جامع، وأمر بجماعة من خاصة بوابي القصر الأعظم بالمشي بين يدي بالسلاح إلى أن صليت وانصرفت.

ثم خرج توقيعه من غد إلى ديوان الرسائل بأن يُكْتَب لي عهد القضاء بمدن المنصورية والمهدية والقيروان وسائر مدن إفريقية وأعمالها»[40]. ومنذ ذلك الحين ستتضمن خطة القضاء المسندة إلى النعمان مهمة جديدة ذات صبغة تعليمية. فقد كان مقامه الرفيع يؤهله للقيام لدى الإمام بدور منظر المذهب الإسماعيلي ويفرض عليه حينئذٍ وضع مؤلفات فقهية مطابقة لمذهب الأيمة وتبسيط محتواها بواسطة دروس الحكمة والسماع التي كان تُلقَى بعد صلاة

---

(40) **المجالس والمسايرات**، ص 348.

العصر وتُعقَد إثرها مجالس الجدل في قاعة خاصة، ولم تلبث أن أصبحت «مجالس الحكمة» مؤسسة حقيقية في شكل مركز للدراسات و الدعاية سيطلق عليها أهل السنّة اسم «دار الإسماعيلية»(41).

وبوصفه قاضي القضاة وفقيه الدولة الرسمي أخذ النعمان في تدوين مبادىء الفقه الشيعي وتأليف الكتب المخصصة للتعليم والمعدة لقضاة الآفاق والعمال والطلاب، بالتعاون الوثيق مع الإمام الذي يستأثر بالعلم دون سواه حسب مذهب أهل البيت.

وقد كان يستشير بانتظام المعز الذي كان ينيره بنصائحه ويراقب محتوى مؤلفاته، وبفضل ذلك استطاع تأليف أهم آثاره النظرية مثل **دعائم الإسلام** **وكتاب الهمة وأسرار التأويل**. وقد أشار النعمان ذاته في عدة فصول من كتابه **المجالس والمسايرات** إلى ما كان يقوم به من نشاط بوصفه فقيهاً وكاتباً وناشراً لمذهب الأيمة، وما كان يوليه المعز من عناية إلى المساهمة في مؤلفات قاضيه. من ذلك أن النعمان قد وضع كتاباً مختصراً «من قول أهل البيت يقرب معناه ويسهل حفظه وتخف مؤونته»، وسماه: **كتاب الدينار**. فاقترح عليه الإمام أن يسميه: **كتاب الاختصار لصحيح الآثار عن الأئمة الأطهار**، فإن ذلك أشبه من **كتاب الدينار**».

وبعدما يحرر أجوبته على «المسائل» التي تُرفَع إليه، يحرص القاضي النعمان دوماً وأبداً على تقديم عمله إلى المعز الذي كثيراً ما كان يصححه، وعلى استشارة الإمام بالخصوص حول «تأويل» بعض الآيات باعتباره المؤهل الوحيد لتأويل كلام الله تأويلاً صحيحاً(42).

وقد صدرت حول هذا الموضوع في السنوات الأخيرة دراسة ممتازة

---

(41) نفس المصدر، ص 435 - 465. وحول «دار الإسماعيلية»، انظر، **الدولة الصنهاجية**، المرجع المذكور، 358/1.

(42) **المجالس والمسايرات**، ص 357: النعمان يرفع إلى المعز أجوبة عن بعض المسائل. وص 270 - 271: حديث في مجلس في رمز من التأويل.

ولكنها مختصرة عمداً[43]، أبرز فيها صاحبها العمل الذي قام به النعمان لضبط نظام شرعي ومذهبي خاص بالدولة وموجه نحو التوفيق بين النظريات الإسماعيلية والنظريات السنّية القيروانية. فيتعين علينا الآن التعمق في هذا الجانب من الحياة الدينية بإجراء دراسة مقارنة للفقه الشيعي والفقه المالكي بالقيروان، مقتصرين على الإشارة إلى أن الاختلافات المذهبية بين الفقهَيْن تبدو طفيفة من خلال **دعائم الإسلام**، خلافاً لما يدعيه أصحاب كتب التراجم القيروانية. فلئن كان هناك اختلاف تام حول تعريف العقيدة أو مبدإ «الولاية» على سبيل المثال[44]، فإن كثيراً من نقط التضارب لا تهم سوى بعض المسائل الجزئية المتعلقة بالطقوس والشعائر الدينية. ولئن كانت صيغة الأذان تمثل نقطة خلاف دقيقة، فليس هناك أي خلاف حول القنوت (في صلاة الصبح أو الفجر)[45]، وإذا كان هناك تعارض بين فقهاء المذهبين حول دفع الزكاة واستعمالها، فليس هناك أي اختلاف في الرأي بينهم حول تحديدها[46]، كما يمكن أن يستنكر الشيعة «قيام» رمضان (صلاة التراويح) باعتبارها في نظرهم بدعة سنّها عمر بن الخطاب، إلا أن ذلك لا يمثل من قِبَلِهم تبديلاً للدين[47].

على أنه لا ينبغي أن نعتبر المهمة التي عكف النعمان على الاضطلاع بها، والمتمثلة في تدوين الفقه الإسماعيلي وتبسيطه، داخلة في حساب السياسة الواقعية والمعتدلة لا غير، بل إن هدفها يرمي أولاً وبالذات إلى تحويل نظام شرعي ومذهبي واضح ومنسجم إلى أداة سياسية متماشية مع أغراض الدولة الفاطمية التوسعية في عهد المعز. ذلك أن طموحات الخليفة الرابع المفرطة وأغراضه التوسعية المعلن عنها بصراحة وبإسهاب في الرسائل المتبادلة مع الخليفة الأموي بقرطبة[48] وفي خطابه الشهير الموجه إلى الزعيم القرمطي

(43) برنشفيك، **الفقه الفاطمي**... ص 13 - 20.

(44) **دعائم الإسلام**، ص 17 - 36 و**كتاب الهمة**، ص 38 - 39.

(45) **الدولة الصنهاجية** [الترجمة العربية، 2/350 - 358].

(46) نفس المصدر.

(47) المصدر المذكور.

(48) **المجالس والمسايرات**، ص 167 وما بعدها.

الحسن بن أحمد الأعصم[49]، ورسالته الموجهة إلى امبراطور الروم رومانوس الثاني[50]، تدعو المعز إلى إخضاع شمولية العقيدة الإسماعيلية لأغراضه التوسعية.

وبذلك ندرك ما كان يوليه الخليفة الفاطمي من أهمية لما يؤلفه قاضي القضاة من كتب فقهية تحت سامي إشرافه، إذ أن المذهب يمثل في نظره أداة سياسية، كما لاحظ ذلك مادلنغ بكل حصافة[51]. ولكن بقدر ما كانت الواقعية ومراعاة المصلحة العامة تحثان المهدي على اتخاذ موقف منافٍ للأفكار الخيالية المفرطة التي كان يبديها أتباعه حول شخصه، كانت أهداف المعز السياسية وآراؤه الطموحة حول الإمامة تحثه بالعكس من ذلك على «المبالغة في تقدير مرتبته الدينية ذاتها إلى حد التقديس»[52].

وقد كان القاضي النعمان يدرك بلا شك أنه يخدم تلك الأغراض التوسعية وذلك التصور الشمولي للإمامة بوضع نظام شرعي شمولي يكون في متناول الجميع. وهكذا استطاع ببراعة ومعرفة إقامة صرح جدير بالملاحظة والتقدير، لا سيما وأن المفكر يتردد دوماً وأبداً ـ اللهم إلا إذا شملته نعمة من نِعَم الله الخارقة للعادة ـ في المجازفة بنفسه في غياهب المذهب الإسماعيلي وفي متاهات «حكمة الأيمة»، من باب أولى وأحرى[53].

وقد كان وما زال ممكناً رفض نظرية قاضي القضاة الفاطمي العقدية حول «ضرورة الإمامة التي يشرف عليها الله سبحانه وتعالى»[54]. كما كان حق فقهاء

---

(49) اتعاظ، ص 251 وما بعدها.

(50) المجالس والمسايرات، ص 443.

(51) Madelung، Das Imamat، ص 90.

(52) نفس المصدر. انظر، دائرة المعارف الإسلامية (الفاطميون) 879/2.

(53) المجالس والمسايرات، ص 265: الحكمة تنتقل من إمام إلى إمام، و 271: الأيمة مخصوصون بالعلم، و 386 - 387 - 388: كلام في ذكر الحكمة.

(54) Das Imamat، المرجع المذكور.

المالكية بالقيروان أن يعتبروا فكرته المتعلقة «بالحس الداخلي»[55] نظرية فظيعة، ولكن لا يمكن أبداً اتهامه بالخروج عن حظيرة الإسلام، دون الانسياق إلى تطرّف الغلاة أو حجب نظرنا «بعصائب التقليد».

5 ـ ممارسة وظيفة القضاء:

إن صورة قاضي القضاة المألوفة هي صورة فقيه متدرب على التعامل مع الشريعة ومتصف بالمؤهلات الفنية المطلوبة لتولي القضاء، ومتحلٍّ أيضاً بخصال أخلاقية مثالية. وعلى هذا الأساس يبدو أن قاضي القضاة الشيعي لا يقل قيمة عما اشتهر به قاضي القضاة المالكي من كرامة واستقامة ونزاهة لا تشوبها شائبة. وبناءً على ذلك فإن صورة القاضي النعمان التي يمكن أن نكتشفها من خلال المعطيات الواردة في كتبه ولا سيما منها كتاب **المجالس والمسايرات**، وكذلك في كتب التراجم، تشبه في ملامحها الرئيسية الصورة التي رسمها لنا أصحاب التراجم لفقيه مالكي جليل في مقام الإمام سحنون[56]. فقد ألح النعمان في عدة فقرات من مجالسه على ما يتحمله القاضي من مسؤوليات جسام، وما تثيره ممارسة وظيفة القضاء من مضايقات. وتبعاً لذلك فهو لا يتورع من ذكر ماله من فضل في الاضطلاع بمهمة شاقة إلى أبعد حد، رغم سوء نية مناوئيه وما يدبره أعداؤه من مؤامرات للنيل من مقامه وإفقاده حظوته. فنراه كثيراً ما يشتكي من ذلك للمعز الذي كان يؤكّد له ثقته فيه ويحثه على عدم الاكتراث بما تثيره ممارسته المثالية لمهامه من ردود فعل مناهِضَة، ويدعوه إلى أن يتحمل بصبر الأحقاد التي لا بدّ أن يثيرها تطبيق الشريعة بكل دقة، بالنسبة إلى قاضٍ نزيه ومستقيم مثله. وبناءً على ذلك كان القاضي النعمان المتمتع بثقة مخدومه حريصاً على تمكين وظيفة القضاء ـ بفضل سلوكه المثالي ـ من

---

(55) نفس المصدر.

(56) انظر، رياض النفوس، ترجمة سحنون، [طبعة بيروت، 2/345 - 376]. انظر أيضاً، وصف القاضي المالكي الإفريقي النموذجي، الهادي روجي إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية، ص 155 - 161.

استرجاع ما فقدته من هيبة وحظوة، «لما أحدثه قضاة السوء من الأثرة والذمام لذوي السلطان ومَنْ يُرتَجى نفعه من العوام، والرشوة وغير ذلك»[57].

وهكذا كان يحدو أهل الشيعة والسنّة على حد سواء الحرص على أن تتوفر لدى القاضي النزاهة والإنصاف والدقة في الاضطلاع بالمهمة الملقاة على عاتقه دون أي خلل. ومن الجدير بالذكر أن الملاحظات التي أبداها المعز حول أهمية القضاء وشروطه ومقتضياته تشبه إلى حد كبير الأقوال المماثلة التي نسبها أصحاب التراجم من أهل السنّة إلى أيمة المذهب المالكي[58].

ويبدو أن لا شيء يميز صلاحيات قاضي القضاة الشيعي المألوفة عن الصلاحيات التي تنسبها السنّة عادةً إلى خطة القضاء، ما عدا ما يقوم به القاضي الشيعي من دور خارج نطاق القضاء لنشر مذهب الأيمة. فهو يتمتع بنفس الصلاحيات في ميدان القضاء المدني ليفصل ـ بطبيعة الحال حسب القانون الشيعي ـ النزاعات المتعلقة «بالوصية والطلاق والحجر وقسمة التركات (الفرائض) والتركات بلا وارث والتصرف في أملاك الغائبين واليتامى والعُجَّز»[59]. ويتمتع أيضاً بالصلاحيات الاستثنائية المرتبطة بمقامه الرفيع كالإمامة والخطابة. إلا أن بعض صلاحيات القاضي المالكي التي لا تتوافق مع أحكام الفقه الشيعي، كمراقبة «بيت مال المسلمين»[60] أو «ارتقاب الهلال»[61]، قد حُذِفت من مشمولات القاضي في العهد الفاطمي.

---

(57) **المجالس والمسايرات**، ص 307 - 309.

(58) انظر بالخصوص، **المركبة العليا**، ص 126 - 1361.

(59) **إسبانيا الإسلامية**، 125/3 - 126. وحول صلاحيات القاضي، انظر tyan، المرجع المذكور 14/2 وما بعدها.

(60) نفس المرجع، ص 32 و 132 - 135. وقد كانت إدارة الأوقاف راجعة بالنظر إلى موظف آخر غير القاضي، كما جاء ذلك في **الاتعاظ**، ص 170 بالنسبة إلى مصر وفي **المجالس والمسايرات** ص 530 بالنسبة إلى إفريقية، حيث ورد ذكر «صاحب الأحباس».

(61) بالنسبة إلى الأندلس، انظر، النباهي، المرجع المذكور، ص 78 وبالنسبة إلى إفريقية انظر برنشفيك «**تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، [الترجمة العربية، 119/2]. وانظر في **الاتعاظ**، ص =

أما بالنسبة إلى الإجراءات[62]، فإن المعلومات الهزيلة المتوفرة لدينا تدعونا إلى الاعتقاد بعدم وجود أي فارق بينها وبين الإجراءات المعمول بها تحت سلطة القاضي المالكي. ولكن لا يبدو أن قاضي القضاة الشيعي كان يستعين ببعض المستشارين من بين الفقهاء، لأن الإمام هو المؤهل وحده لتوجيه أحكامه. ومن جهة أخرى يبدو أنه لم يوضع أي مبنى خاص على ذمة القاضي ليحكم بين الناس كما لم يكن الجهاز القضائي بلا شك متسماً بأي مظهر من مظاهر الأبّهة، حيث تفرض عليه طبيعة وظيفة القضاء أن يكون بسيطاً وغير مزخرف.

6 ـ قاضي القضاة والسلطة:

إننا نعرف العادة الدينية المعهودة والمتمثلة في أن يرفض الفقيه الذي يعرض عليه الخليفة خطة القضاء، هذا الاقتراح، أو أن يقبله بعد كثير من التردد أو بعد تقديم شروط مسبقة لضمان استقلالية القضاء تجاه السلطة. ويتفق أصحاب ترجمة الإمام سحنون على تقديم صاحب المدونة في مظهر القاضي المستقل، وإبراز الشروط التي قدمها لتولي القضاء واضطرار الأمير الأغلبي إلى قبولها. ويلذ لهم ترديد مقولته الشهيرة التي خاطب بها ابنته خديجة يوم تنصيبه: «اليوم ذُبِحَ أبوك بغير سكين»[63].

وبالعكس من ذلك فإن قاضي القضاة الشيعي الذي ما زال يظهر في نفس المظهر المتسم بالبساطة والتواضع، قد كان تابعاً تماماً للسلطة. فلم يعد الناطق باسم العامة ولا مراقب القصر الذي يصغي السلطان إلى أقواله وتخشاه الخاصة. ولم يبق له أي شيء من صورة القاضي المستقل الذي كثيراً ما كانت تدعوه حرية رأيه وصراحته إلى التعبير عن معارضته لتجاوزات سلطة أمير مستبدّ واكتساب

= 165 كيف «كان أبو طاهر القاضي قد التمس الهلال على رسمه في سطح الجامع فلم يره، وبلغ ذلك جوهر فأنكره وتهدد عليه».

(62) انظر بالنسبة إلى إفريقية، الهادي روجي إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية، ص 161 - 162 و «الدولة الصنهاجية»، [الترجمة العربية، 2/174 - 176].

هيبة فائقة في نظر الرعية. واعتباراً من ذلك التاريخ ظهرت ملامح جديدة في صورة قاضي القضاة الذي أصبح شخصية رسمية وأحد كبار رجال الدولة الأكثر وجاهة ضمن حاشية الإمام، وصار رجل قانون «ملتزماً» في خدمة قضية قد تطوع للذود عنها وفرضها على أهل البلاد رغم مناهضتهم لها. ولكن هذا الدور ولئن أساء ولو قليلاً إلى سمعة قاضي القضاة الفاطمي قبل تولية القاضي النعمان، فإن هذا الأخير، بوصفه فقيهاً محنكاً وأديباً أريباً وموظفاً سامياً متحلياً بمؤهلات فنية وخصال أخلاقية لا جدال فيها، قد عرف كيف يكون فقيهاً نموذجياً لا يقل قيمة عن أشهر فقهاء المالكية، واستطاع أن يمكن خطة القضاء من الحفاظ على كرامتهـا ورونقها.

الفصـل الثانـي

الخطط القضائية الثانوية

1 ـ قضـاة الأقاليـم:

لئن توفرت لدينا معلومات هامة حول «قاضي القضاة» ومساعديه، فليست لدينا بالعكس من ذلك سوى معلومات هزيلة تتعلق بالنظام القضائي المعمول به في الأقاليم. ويبدو أن تقسيم الدوائر العدلية لم يكن يختلف كثيراً عن تقسيم الدوائر الترابية أو الكور. فقد كان في كل كورة بلا شك قاضٍ يتمتع بالضبط، ولكن على نطاق أضيق، بنفس صلاحيات قاضي القضاة الـذي يعين القاضي المذكور ويجعل منه نائبه في الدائرة الملحق بها[1].

وبمقتضى مبدإ النيابة ذاته الذي بموجبه يستمد قاضي القضاة من الإمام سلطته القضائية، كان نفس القاضي يفوض بدوره جزءاً من سلطاته إلى بعض مساعديه من القضاة الصغار لفصل القضايا باسمه ونيابة عنه على عين المكان، عندما لا تدعو الحاجة إلى تطبيق الإجراءات الشرعية بكل صرامة. وقد أُطْلِق اسم «حاكم» على أول من باشر ذلك القضاء «شبه المدني الذي يكتسي صبغة أبسط وأسرع من سلطة القاضي».

---

(1) وهذا مترتب على المعنى ذاته لعبارة «قاضي القضاة». ونستنتج من ذلك أن قاضي القضاة هو الذي كان يعين القضاة في مختلف الأقاليم ـ انظر المجالس والمسايرات، ص 348 وافتتاح الدعوة، الفقرة 223.

2 ـ الحُكّــام :

لدينا حول هذه الخطة القضائية في العهد الفاطمي عدة شهادات تتفق على تحديد السلطة المتعلقة بها بما يكفي من الوضوح. فهناك فقرة في **المجالس والمسايرات**[2] تؤكد أن حكام الأقاليم كان يعينهم قاضي القضاة، وأن من تم انتدابهم منهم على عين المكان وكانوا لا يتقاضون جراية ثابتة، قد أصبحوا منذ تولية القاضي النعمان يقبضون رواتبهم من ميزانية الدولة على غرار زملائهم في العاصمة.

وهناك فقرة أخرى في كتاب **افتتاح الدعوة**[3] تفيد أن قاضي القضاة هو الذي كان يولي «القضاة والحكام في سائر البلدان». والواقع أن هذه الخطة كانت موجودة قبل قيام الدولة الفاطمية، وأن صاحبها كان راجعاً بالنظر إلى قاضي القضاة.

ويبدو أن الحاكم، بالرغم من اتحاد خطته بخطة «صاحب المظالم» أو «المحتسب» أو «صاحب أحكام السوق»[4] منذ العهد الأغلبي، قد كان مكلفاً بالقضاء الإداري والبوليسي وراجعاً بالنظر مباشرة إلى قاضي القضاة، وكانت سلطته مقصورة على النزاعات البسيطة والاعتراضات القليلة الأهمية. ولكن دوره الأساسي كان يتمثل في معالجة تجاوزات السلطة التي يقترفها العمال والجباة. أفلا يذكرنا هذا القضاء «بالرد» الذي يختلف اختلافاً محسوساً عن «ولاية المظالم» الموجودة بالأندلس في نفس تلك الفترة[5]. وقد أظهرت لنا **سيرة جوذر** مرتين متتاليتين حاكم كورة الجزيرة (جزيرة شريك) وهو يقوم بتحقيق حول تجاوزات السلطة[6].

---

(2) **المجالس**، ص 395.

(3) **افتتاح الدعوة**، الفقرة 223.

(4) الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية** [الترجمة العربية، 160/2].

(5) **إسبانيا الإسلامية**، 144/3 - 145.

(6) **سيرة جوذر**، ص 99 و 123. وانظر حول دور الحاكم في إفريقية، الهادي روجي إدريس، **مجلة الدراسات الإسلامية**، ص 171 - 178. وانظر حول المسائل العامة المتعلقة بهذا الموضوع، Tyan، النظام القضائي، 345/2 - 350.

فقد أجاب المعز على كتاب جوذر المتعلق بتعسف ربيع الصقلبي المكلف بحشد البحريين في فندق ريحان، قائلاً له:

«لا تمكن النذل من هذه المنازل ولا تبلغه بغيته فيها، واكتب إلى الحاكم عن أمرنا بالكشف عن صورة هذه الحوادث، وبالكتاب إلينا بصحة ما تقف عليه من ذلك فنأمرك بما تعمل عليه إن شاء الله».

3 ـ ردّ المظالم:

إن هذه السلطة القضائية المعبّر عنها بهذا الاسم في إحدى فقرات **المجالس والمسايرات** كانت في الدولة الفاطمية من مشمولات قاضي القضاة الذي كان يستشير الإمام قبل إصدار أحكامه. والواقع أن هذه المؤسسة كانت هي الأخرى موجودة قبل قيام الخلافة الفاطمية في شكل خطة قضائية ثانوية تابعة للقاضي ومتعلقة بأنشطة السوق (الصناعة والتجارة...)، يرجع تاريخها إلى عهد سحنون. ذلك أن قاضي القيروان الشهير قد كان أول من تخلى عن سلطته القضائية المتعلقة بالقضايا الصغيرة التي لا تتجاوز العشرين ديناراً، لفائدة أحد مساعديه، وهو قاضٍ من أصل تميمي يُدْعى حبيب بن نصر، وأنشأ حينئذٍ «ولاية المظالم»[7]. وقد استمرت هذه المؤسسة بعد سحنون وتعززت في عهد القاضي عيسى بن مسكين الذي عين على رأسها أبا الربيع سليمان بن سالم الكندي[8] ومدد صلاحيتها إلى القضايا التي يمكن أن تبلغ 100 دينار. ولكن هذه الخطة التي كانت تكتسي في الأصل صبغة دينية أو «شرعية»، قد اتخذت عند التطبيق شكلاً سياسياً وشملت قضايا تهمّ الحياة الاقتصادية في المدينة، متحولة أحياناً من سلطة قاضي القضاة إلى سلطة الأمير ذاته. وقد كان الأمر

(7) وحسب القاضي النعمان، المجالس، ص 396، كان «ردّ المظالم» من مشمولات القاضي الذي يستشير الخليفة. وحول ولاية المظالم التي أنشأها سحنون، انظر، الطبقات، ص 141 حيث أطلق على حبيب بن نصر اسم «صاحب مظالم سحنون». انظر أيضاً ح. ح. عبد الوهاب، أصل الحسبة، ص 19.

(8) ح. ح. عبد الوهاب، المرجع المذكور. وانظر حول هذا القاضي الطبقات، ص 147 - 148 وبخصوص القاضي عيسى بن مسكين، انظر نفس المصدر، ص 142 - 143.

كذلك بالنسبة مثلاً إلى الطرزي الذي عينه إبراهيم الثاني بالرغم من تحفظه وتسامحه وقلة تضلعه في المسائل الفقهية النظرية. فباشر مهامه تحت إشراف الأمير، مقتصراً على استشارة الفقهاء عند الاقتضاء[9].

ويبدو هكذا أن ولاية المظالم أو مراقبة التجاوزات كانت في العهد الأغلبي غير منفصلة عن مراقبة النشاط الاقتصادي في سوق المدينة. والواقع أن الصلاحيات كانت متشابهة رغم اختلاف التسميات، وبالتالي كانت أسماء الحاكم وصاحب المظالم أو صاحب السوق تُطلقَ في فترات مختلفة على المتقلدين لنفس الخطة[10].

ورغم أن هذه المؤسسة قد ظلت خلال العهد الفاطمي راجعة بالنظر إلى قاضي القضاة، فإنها اتخذت شكل خطة قضائية استثنائية تقتضي أن يُرجِع قاضي القضاة السلطة إلى مَنْ فوضها إليه طبقاً لمبدإ النيابة، وبناءً على ذلك كان الإمام هو الذي يعالج بنفسه القضايا التي تُرفَع إليه.

وقد قدم إلينا صاحب سيرة جوذر بعض الأمثلة الدقيقة لذلك. ويتعلق المثال الأول بتدخل المهدي لوضع حد للمشاجرات والخصومات «التي جرت بين رجالٍ من أوليائه الكتاميين بسبب قسمة السواقي (الأراضي المروية) التي أقطعهم إياها، وترافعوا في الشكوى والتخاصم إليه. فلما وقف من تظلم بعضهم من بعض رأى إخراج أحد الثقاة من الصقالبة في الكشف عن صورة ما جرى بينهم والعودة إليه بصحة ما يقف عليه وما يظهر له من ذلك. وخرج الصقلبي حتى بلغ الموضع وكشف عن الأمر بقاضي الناحية وثقاة شيوخها، ووقع على معلوم من الأمر وعاد إلى الباب الطاهر. فأنهى ما وقف عليه إلى الإمام المهدي بالله الذي أحضر المتظلمين بحضرة جماعة من شيوخهم وبني عمتهم ووقف الحال بينهم وانصرفوا من بين يدَيْه على أجمل انصراف وهم

---

(9) **البيان**، 159/1، انظر أيضاً حول الطرزي، **الطبقات**، ص 130، 164 - 165، 230.

(10) **الدولة الصنهاجية**، المرجع السابق.

شاكرون حامدون لما أولاهم من تسديد أحوالهم وحسم الشر بينهم»[11].

أما المثال الثاني فيتعلق بقضية مماثلة جرت في عهد المعز[12]، حيث «تظلم إلى الأستاذ (جوذر) عبدٌ يُعرَف برصيف[12م] عبد الأمير تميم، من رجل يُعرَف بابن سهيل قريب الحسين بن رشيق الريحاني في ضيعة هي في يدي رصيف. فتطاول ذلك الرجل إلى أخذ بعض أرضها. فشرح الأستاذ (جوهر) لمولانا (المعز) صورة ما أوجبه الديوان، وسأل نفوذ الأمر بما يعمل عليه».

فبين له المعز في جوابه ما ينبغي اتخاذه من إجراءات لفصل النزاع وأوصاه «بأن يصرف أمرها في ذلك إلى القاضي، فيكشف عنها بالأمناء والصالحين»[13].

وأبلغ من هذا وذاك، المثال الثالث المتعلق «بتحزب البربر وتناصرهم على صافي الإكريكي في حين ولايته على قصر الإفريقي». فقد كتب إلى المعز «جماعة من أصحاب القبالات يشكون بأن صافي قبض على رجل منهم بسبب تظلمه إلى (الخليفة)، فأغرمه مالاً وأودعه السجن». كما وجه «القاضي الذي في بلده «رسائل إلى المعز يصف له فيها الوضع، «ويشرح ما الذي أوجب ذلك». فأمر الخليفة جوذر بأن يكتب إلى صافي «جواب كتابه إليه وينبّهه ويعرفه ما يجب أن يستعمله من اللطف والمداراة وصحة العزم»[14].

كما أظهرت لنا عدة فقرات من **المجالس والمسايرات** كيف كان يلذ للمعز أن يتولى بنفسه «رد المظالم»[15]. أليس من السنّن الحميدة التي سنها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الاستماع إلى شكاوي الناس والاعتراف بحقهم؟ وتبعاً

---

(11) **سيرة جوذر**، ص 37.

(12) نفس المصدر، ص 96 - 97.

(12 م) [في النص الفرنسي «وصيف» والتصحيح من الأصل].

(13) **سيرة جوذر**، المصدر المذكور.

(14) نفس المصدر، ص 93 - 94.

(15) **المجالس**، ص 251 - 259 - 396.

لذلك كان المعز يولي عناية فائقة إلى المطالب الموجهة إليه مباشرة أو عن طريق قاضي القضاة، للتشكي من تجاوزات السلطة. ويؤكد لنعمان أنه لم يتأخر قط عن اتخاذ الإجراءات اللازمة لتقويم الأخطاء، ولم يتردد عند الاقتضاء في عزل عامل متهم بارتكاب المظالم.

ولما فتح جوهر مصر اقتدى بمخدومه «وجلس للمظالم في كل يوم سبت»[16]. وعندما التحق به المعز بعد ذلك ببضع سنوات آل على نفسه أن يتولى هو ذاته «رد المظالم»[17].

4 ـ الحسبة أو أحكام السوق:

كان من الممكن في الأصل أن تكون سلطة «أحكام السوق» في العهد الأغلبي غير منفصلة عن «ولاية المظالم». ويرجع الفضل إلى سحنون ومساعديه في جعل السلطة القضائية تابعة للقاضي، وإكسابها صبغة «لا دينية» على نطاق واسع، حتى تكون متماشية مع النزاعات «الملوثة» الناشئة عن نشاط السوق، «مما يتنزه عنه القاضي».

ولدينا قائمة مفصلة في القضايا التي تدخل في نطاق مشمولات «صاحب السوق»، بفضل مؤلفات «الحسبة» ولا سيما منها كتب السقطي وابن عبدون، تلك المؤلفات التي بين ليفي بروفنسال ما تكتسيه من أهمية بالنسبة إلى دراسة الحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي في المدن الأندلسية[18]. ولكن، بفضل الكتاب الأول من نوعه الذي ألفه بالضبط فقيه إفريقي قبل الفترة التي تهمنا، وهو «كتاب أحكام السوق» ليحيـى بن عمر، أصبح لدينا من حسن الحظ تأليف

---

(16) اتعاظ، ص 165.

(17) نفس المصدر، ص 191 - 197. وحول علي «قاضي المظالم» انظر بالخصوص «المعز». انظر أيضاً، الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص 77 - 78. انظر الدراسة الشاملة حول ولاية المظالم في العالم الإسلامي، Tyan ، المرجع المذكور، 141/2 - 288.

(18) **إسبانيا الإسلامية**، 148/3 - 151 ـ وليفي بروفنسال، **إشبيلية الإسلامية في مطلع القرن الثاني عشر**، انظر أيضاً Tyan ، المرجع المذكور، 436 - 484 ودائرة المعارف الإسلامية، (الحسبة)، ص 503 - 547.

يتضمن وصفاً حياً ودقيقاً للحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي في السوق الإفريقية الموكولة مراقبتها إلى عهدة قاضٍ يُسمَّى «صاحب السوق» أو «صاحب أحكام السوق». ويبين تحليل هذا الكتاب والقضايا التي تتعلق بها أحكام القاضي المذكور، أن هذه الخطة تشمل التجارة والصناعة والقضاء البلدي والأخلاق العامة التي تتجاوز حدود صلاحيات القاضي العادي، بسبب ما تكتسيه القضايا المتعلقة بها من صبغة مدنية وما يقتضيه فضّها من إجراءات مستعجلة.

ويرجع تاريخ تنظيم الحرف في الأسواق ومراقبة نشاطها في إفريقية إلى ولاية يزيد بن حاتم المهلبي(19). فطوال نحو القرن، أي من سنة 154 هـ إلى سنة 234 هـ، تاريخ تولية سحنون، كانت مراقبة سوق القيروان من مشمولات الوالي، كما تدل على ذلك مقدمة كتاب يحيى بن عمر. فقد جاء فيها أن المهمة الملقاة على عاتق الوالي تتمثل في السهر على نشاط السوق ومراقبة المكاييل والموازين والتحقق من قيمة العملة المتداولة(20). ولما تولى سحنون خطة قاضي القضاة حرص على أن يمارس بنفسه صلاحيات الاحتساب التي كانت في الأصل من مشمولات القاضي. فسهر بنفسه على حسن سير المعاملات التجارية ومنع الأعمال المحظورة وتقويم الأخطاء وإقامة الحدود ومراقبة تنفيذ العقوبات. وبعده استنكف قاضي القضاة عن النظر في القضايا التافهة وبالخصوص الابتعاد عن اتخاذ الإجراءات الشرعية الصارمة، مفضلاً التخلي عن مراقبة السوق لفائدة قاضٍ مساعد يُسمَّى صاحب السوق(21).

ولا شك أن انفصال سلطة «أحكام السوق» عن مؤسسة القضاء الأم قد تم بهذه الطريقة. ويمكن أن ننسب هذا الانفصال دون أن نخشى الخطأ إلى أحد القاضيَيْن الحنفيَّيْن، ابن عبدون أو سليمان بن عمران الذي كان أحرص من سلفه

---

(19) البيان، 78/1.

(20) ح. ح. عبد الوهاب، أصل الحسبة ص 10.

(21) نفس المرجع، ص 18 - 20.

المالكي على أن يحتفظ أثناء ممارسته لمهامه السامية بخصائص الهيبة والكرامة[22].

واستمر «صاحب أحكام السوق» بعد قيام الدولة الفاطمية في التلقب «بحاكم السوق». ولكن سرعان ما ظهرت لتعريفه تسمية «المحتسب» التي لم تكن معروفة في العهد الأغلبي، إلا أننا لا نجد تفسيراً مقنعاً لظهور هذه التسمية في الدولة الجديدة. فهل كان ظهورها عرضياً في الوقت الذي تم فيه إقرارها بحكم تطور المؤسسات الخلافية في الدولة العباسية أو بالأحرى بالأندلس في أقصى الغرب الإسلامي؟ أم هل أنها كانت بالعكس من ذلك مترتبة على تخصص الأجهزة القضائية أكثر فأكثر في النظام الدولي الذي أقيم إثر إعلان الخلافة الفاطمية؟ ومهما يكن من أمر يبدو أن سلطات المحتسب قد انفصلت عن السلطات المميزة لمهمة رد المظالم، وأصبحت أقل اتساعاً وأكثر تخصصاً من ذي قبل، وذلك إثر تنظيم الشرطة البلدية وتركيز مصلحة متخصصة في شؤون الأمن تُعرَف باسم «ديوان الكشف»، واتجاه دور قاضي القضاة أكثر فأكثر نحو مهمة الدعاية المذهبية. وعلى الأقل يبدو أن القاضي المعروف «بالمحتسب» والذي ورد ذكره في العهد الفاطمي، كان يتمتع بصلاحيات من هذا القبيل[23].

5 ـ القضاء الزجري:

لقد بين ابن خلدون في مقدمته[24]، بوصفه منظراً للقانون العام، على النحو المحبب إليه، أي بصورة واضحة ودقيقة، كيف أن القضاء الزجري لا يدخل بطبيعة الحال ضمن صلاحيات القاضي، في مجال القانون المدني

---

(22) انظر حول سليمان بن عمران، بالخصوص الطبقات، ص 180 - 183، وحول ابن عابدين، نفس المصدر، ص 187 - 189.

(23) مجلة الدراسات الإسلامية ص 172 والطبقات، ص 230 والبيان، 185/1.

(24) مقدمة ابن خلدون ص 222 - 223.

والجنائي، بل يرجع بالنظر إلى سلطة قضائية متخصصة، هي «الشرطة»، فقال في هذا الشأن:

«كان النظر في الجرائم وإقامة الحدود راجعاً إلى صاحب الشرطة، وهي وظيفة أخرى كانت من الوظائف الشرعية، وتوسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً، فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم يَنْتَهِ عن الجريمة.

وانقسمت وظيفة الشرطة قسمَيْن: منها وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعيّن، ونُصِب لذلك حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية، ويسمى تارة باسم الوالي وتارة باسم الشرطة وبقي قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً، فجُمِع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفة ولايته»[25].

على أنه بالنسبة إلى نظام مثل النظام الفاطمي الذي يعارض شرعية المذهب السنّي وأيمته من فقهاء المالكية، كان شغل الخليفة الشاغل يتمثل في حفظ الأمن، وكانت مقتضيات سياسة الحزم تدعو إلى إقامة نظام قضائي زجري سريع بقدر ما هو صارم. وبناءً على ذلك كانت مسؤولية الأمن راجعة أساساً إلى الخليفة الذي كان يعهد بسلطات الشرطة إلى عامل المدينة. وقد كان صاحب الشرطة خاضعاً لسلطة الأمير منذ العهد الأغلبي[26]. مما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الشرطة بشكلها المؤسساتي الذي كان معروفاً في الدولة العباسية بالمشرق وفي الدولة الأموية بالأندلس، لم تشهد نفس التطور ولم تكتس نفس الأهمية في إفريقية. فحسب بعض الشهادات الواردة في كتب التراجم، كان صاحب الشرطة عبارة عن مجرد عون أمن تحت سلطة الأمير أو العامل[27]. وكان هذا

(25) نفس المصدر، ص 222.

(26) الهادي روجي إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية، ص 170.

(27) نفس المرجع ص 170 - 171. وبالنسبة إلى الأندلس، انظر، إسبانيا الإسلامية، 153/3 - 162 وبصورة عامة انظر Tyan، المرجع المذكور 352/2 - 435.

الأخير في الدولة الفاطمية يتصرف في المدينة تصرف الحاكم بأمره، ويتمتع ـ إن صح التعبير ـ بسلطات نائب الأمير في الميدان الجنائي، ويتمتع بكامل الحرية لاتّقاء أو قمع أي مس بأمن الدولة والنظام والمصلحة العامة، وتتبع مرتكبي الجرائم ومعاقبتهم حسب هواه، والنظر في التهم وإصدار الأحكام بالسجن أو الإعدام بطريقة تعسفية[28].

وهكذا يبدو لنا، على الأقل تحت هذا القناع الحديدي، من خلال معلومات يخفي أصحابها بصعوبة صبغتها المغرضة، عامل القيروان في عهد المهدي، أي أولاً ابن أبي خنزير المتهم بالاضطهادات التي تعرض لها علماء المالكية، ثم وعلى وجه الخصوص أبو سعيد الضيف الذي قُدِّم إلينا في مظهر طاغية قد نشر الرعب في القيروان[29].

وكانت قوات الأمن الخاضعة لسلطة العامل موزعة على مراكز حراسة منتصبة في مختلف أحياء المدينة تُعرَف باسم «المحرس» أو «الربع». وكان «صاحب المحرس»[30] أو «صاحب ربع المدينة وشُرَطِها» (محافظ الشرطة) يلجأ للقيام بعمليات التفتيش إلى استعمال أسراب من الكلاب أو «أبواق» (منبّهات الصوت) لفرض احترام تعليمات الأمن[31]. وجاء في سيرة جوذر أن «عبد الله بن رفيق استعقد ربع المهدية وشُرَطها وزاد فيها زيادة أوجبت صورتها قبولها لما في ذلك من توفير المال»[32].

على أن الأوضاع السياسية في عهد المهدي كانت تستوجب توخي مثل هذه الصرامة في تنظيم سلطة الشرطة، حتى اضطر الخليفة الفاطمي الأول إلى إنشاء مصلحة خاصة بالأبحاث تُعرَف باسم «ديوان الكشف»، وهي مكلفة

---

(28) الدولة الصنهاجية [الترجمة العربية، 135/2 - 136 - 137].

(29) البيان، 181/1، 183، 184 - 185، 186. الطبقات، ص 216 - 231.

(30) الطبقات، ص 231. الدولة الصنهاجية [الترجمة العربية 136/2].

(31) سيرة جوذر، ص 114.

(32) نفس المصدر، ونستنتج من ذلك أن محافظ الشرطة بالمهدية كان أيضاً يقبض الرسوم والمكوس والغرامات.

«بالمخابرات» وإجـراء التحقيقـات السريـة حول الأشخاص الذين يُظَنّ أنهم يثيرون الشغب، أو المتهمين بارتكاب جُنَح فكرية، ومطاردة المعارضين للنظام القائم، ويمكن أن تصل عقوبتهم إلى حد الإعدام.

وقد عَرَف أبو جعفر البغدادي، في فترة حاسمة جداً قام أثناءها أتباع المهدي ذاتهم بتدبير مؤامرة ضخمة ضده، كيف يقدم إلى مخدومه مساعدة ثمينة، تم بفضلها إحباط المؤامرة وكف أيدي جميع المتآمرين عن الأذى.

الخاتمة

ها أن الوقت قد حان في نهاية هذه المرحلة لنلقي نظرة أخيرة على الأشواط التي قطعناها ونحاول في خاتمة هذه الدراسة الناقصة بالضرورة[1] أن نقوّم نتائجها.

لقد كانت حصيلة جهودنا الشاقة هزيلة في الجملة، كما هو الشأن عندما يتعلق الأمر بكتابة تاريخ المغرب في العصر الوسيط. ذلك أن قلة الوثائق تحكم دوماً وأبداً بالفشل على كل محاولة لإقامة بناء متماسك بواسطة مثل تلك المواد الزهيدة التي توفرها إلى حد الآن المصادر العربية المعروفة للباحث في تاريخ القرون الأولى من العصر الوسيط المغربي. فلئن كانت العصور القديمة أسعد حظاً بفضل الأضواء التي سلطتها عليها من جهة كتابات مؤرخين أفذاذ مثل سالوست أوتيت ليف، ومن جهة أخرى الوثائق الأثرية والنقوش، ولئن بدأت، مع ابن خلدون بالخصوص، اعتباراً من بني حفص وبني مرين، بعض الأنوار الساطعة تبدّد الظلمات وتكشف ملامح تاريخ المغرب الأساسية، بفضل توفر عدد من الوثائق أكبر وأثبت وأكثر حيوية، فإن صورة المغرب خلال الخمسة أو ستة قرون التي تلت الفتح الإسلامي، ما زالت باهتة.

ولا شك أن بعض الدراسات التي أجريت مذ عهد قريب، لا سيما خلال السنوات الأخيرة، قد كان لها الفضل في اقتحام عالم الظلمات بكل شجاعة واكتشاف عدة فتحات مضيئة. فهل كان لهذا الكتاب نفس الفضل؟ إن كان له

(1) انظر في المقدمة كيف نفكر في إعداد تتمة لهذا الكتاب.

فضلٌ ما في هذا الميدان، فإنه مدين به لا محالة لمؤلفات القاضي النعمان التي لولاها لما كان يُتصَوَّر وضع مثل هذا الكتاب. وبدون انتقاص قيمة إسهام وثيقة بالغة الأهمية مثل سيرة جوذر، فإن الفضل في ظهور كتابنا هذا يرجع أولاً وبالذات إلى القاضي الذائع الصيت.

ولكن ما هي في نظر المؤلف العصري قيمة المعلومات التي يقدمها قاضٍ وفقيه مسلم هو علاوة على ذلك شيعي؟ وكيف تستطيع المنهجية التاريخية الدقيقة التي لا تتماشى مع تنافر كتب الأخبار العربية الكلاسيكية وجفائها، أن تقبل بطيبة خاطر رواية مثل ذلك الفقيه الذي يدعونا انتماؤه إلى فرقة من الفرق الإسلامية المنشقة على الأقل إلى التحفظ؟ ومع ذلك فإن القاضي النعمان، بالنظر إلى الحقيقة التارخية، ينتزع التقدير.

ذلك أن رجل القانون يتحاشى من حيث المبدأ تشويه الحقيقة. ويمكن بلا شك أن يميل إلى تغييرها شيئاً ما، ولكنه سيحرص حتى في هذه الحالة على عدم تزييف الواقع. وبناءً على ذلك يُحتَمل أن تكون المعلومة التي يقدمها أو الشهادة التي يرويها صحيحة. فهل هناك أوثق من المعلومات التي يقدمها المشرع؟ أليست في أغلب الأحيان، بالنسبة إلى الفترات الغامضة التي تشغل بال مؤرخ العصور الإسلامية، أوثق - إذا ما توفرت - وأثمن من الخبر الذي ينقله مدون الأخبار، وعلى كل حال أدق وأقرب إلى الواقع؟ فما أهزل مواردنا لو لم تأت المؤلفات ذات الطابع القانوني في الوقت المناسب لإفادتنا بالمعلومات الضرورية!.

فهل أن هذا الكتاب الذي وُضِع أساساً بالاعتماد على وثائق قد يكون عيبها أنها رسمية ومنحازة، قد قدم عن مآثر الفاطميين صورة منمقة وبالتالي غير صحيحة؟ الواقع أننا حرصنا على أن لا نسير في الطريق التي رسمها النعمان إلا بعد المقابلة الشاملة بين أطروحاته والأطروحات الواردة في المصادر السنّية والإباضية. فإذا أخضعنا أطروحاته للنقد السليم ستبدو لنا متينة، وستظهر مآثر الفاطميين في مظهر مخالف تماماً للصورة المألوفة.

ولئن اتخذ هذا الكتاب بهذه الطريقة شكل مرافعة مطولة ومحاولة لرد الاعتبار، فذلك لأن أعمال الفاطميين التي تم الحط من قيمتها بما فيه الكفاية في الماضي، ما زالت محل انتقاص من خلال بعض الدراسات الحديثة العهد التي أنجزت على عجل، وأبدى فيها أصحابها، اعتماداً على الملاحظات الجريئة التي قدمها جورج مارسي منذ نصف قرن مضى، بعض الآراء الواهية حول «إخفاق» الفاطميين أو «إفلاسهم»[2].

ذلك أن هذه الدراسات التاريخية ذات الطابع الروائي، التي أراد أصحابها مع ذلك الالتزام بالنقد الدقيق والمنهجية العلمية، قد سعت إلى إقرار سلبية نتائج عمل الفاطميين وإثبات إفلاسهم. كما عمدت بكل عناية إلى تشويه صورتهم التي سبق أن رسمها جورج مارسي في شكل صورة قليلة اللمعان.

فقد قيل لنا إن الفاطميين عجزوا عن السيطرة على المغرب، وظهروا في مظهر الغرباء الذين كان أهل البلاد يمقتونهم ويستنكرون مذهبهم، إذ أنهم كانوا مارين من المغرب، أو بالأحرى اتخذوا منه نقطة انطلاق نحو المشرق. كما قيل لنا «إنهم أفلسوا في إفريقية وأصبحوا غير قادرين على مواصلة الإقامة بها، وإن القطيعة بينهم وبين أهل البلاد كانت تامة. فقد فقدوا جميع السلطات، وأصبح حتى الخدم والجنود وأقرباء الخليفة لا يأخذونهم مأخذ الجد، بل كانوا يعملون جاهدين في سبيل تقويض دولتهم، فكان الإخفاق التام»[3].

إن مثل هذا الموقف المعادي الذي اتخذه أصحابه في دراسات تدعي أنها علمية، يبدو بمثابة الانحياز الواضح الموروث عن تحيز، بل قل نفور المصادر العربية القديمة تجاه الفاطميّين. ذلك أن عيب التاريخ الإسلامي يتمثل دوماً وأبداً في كونه تاريخ الإسلام السنّي، بصورة مطلقة أو تكاد. فهذا التاريخ الممتاز هو الذي يحتل الصدارة في كتب الأخبار، في حين يظل تاريخ المذاهب الأخرى الخارجة عن السنة، المشار إليه مجرد الإشارة، في الهامش وإذا ما اعتنى بعض

(2) H. Monès، المذهب المالكي وفشل الفاطميين في إفريقية، ص 197-220.

(3) نفس المرجع، ص 220.

المؤلفين غير السنيين بكتابة التاريخ فإنهم يحتفظون بكتبهم في كنف السرية من باب الاحتياط، كما لو كان الأمر يتعلق بالدفاع عن النفس. والحال أن هذا التاريخ لا تنقصه العظمة ولا التألق.

ويُعتبَر تاريخ الفاطميين بالمغرب بعيداً كل البعد عن كونه تاريخاً شاحباً إلى مثل ذلك الحد. ففي حوليات الغرب الإسلامي يبدو العهد الفاطمي بمثابة فترة استثنائية وقد أبدى المؤرخ الفرنسي غوتيي في هذا الصدد الملاحظة الصائبة التالية:

«إن الحدث الرئيسي بالنسبة إلى القرون الأولى من العصر الوسيط يتمثل بطبيعة الحال في تأسيس الخلافة الفاطمية. فقد غير هذا الحدث العالم الإسلامي بأسره. ولم يكتس تاريخ المغرب هذه العالمية شبه الكونية لا قبل ولا بعد ذلك»[4].

وقد غيّر الحدث المذكور على وجه الخصوص إفريقية. فلم يكن الأمر يتعلق بمجرد قيام دولة جديدة مكان دولة منقرضة، لتتحرك خلال مدة معينة في نفس الإطار الجغرافي والسياسي، وقد أصبحت إفريقية مقر خلافة، ووضعت حداً للوصاية الشرقية المباشرة. إذ لم تَعُدْ البلاد محكومة باسم دمشق أو بغداد ولحسابهما. وتفككت حدود المملكة الأغلبية لتشمل أيضاً دفعة واحدة المغرب الأوسط وصقلية، ولتمتد نظرياً إلى سائر بلدان العالم الإسلامي والمعمورة قاطبة.

وقد تمت منذ ذلك الحين عودة العرش الإسلامي التي لا مفر منها إلى «أهل البيت» أي إلى ذرية فاطمة رضي الله عنها، وأصبح العالم الإسلامي بإرادة الله سبحانه وتعالى تابعاً لهم. فقد اقتربت الساعة بالنسبة إلى المغتصبين العباسيين والأمويين وحان وقت الجهاد في سبيل الله ضد الأعداء النصارى في بلاد الروم، وأخيراً حل عهد الخلفاء الشرعيين على وجه الأرض!.

(4) Gautier، ص 335.

وتنطوي مثل هذه النزعة عملياً على انتهاج سياسة توسعية صريحة. فقد عبر الفاطميون من أول وهلة عن رغبتهم في الهيمنة على المغرب، وعن أطماعهم التوسعية في غرب المملكة وشرقها، وأعلنوا من أعلى منابر الجوامع في كل صلاة جمعة عن طموحهم إلى اعتلاء عرش كل من بغداد وقرطبة. فتتمثل سياستهم حينئذٍ في تحدي الخلافة العباسية بالمشرق والخلافة الأموية بالمغرب، وفي آنٍ واحد التصدي لقوة الروم المنيعة في قلب البحر الأبيض المتوسط.

إنها لمغامرة عجيبة بلا ريب! ولكنها محاولة ضخمة تفوق الوسائل المحدودة المتوفرة في المملكة الإفريقية المتواضعة بل حتى في المغرب بأسره، بجباله وقفاره الممتدة الأطراف. فرغم ضعفها الطبيعي اْرْتَدَت إفريقية معطف هرقل في ظل الراية الفاطمية الخفاقة.

وسيُعهَد بالقيام بهذا الدور العظيم إلى البربر الكتاميين من أهل جبال القبائل الصغرى، الذين سرعان ما ارتقوا إلى أسمى مراكز التاريخ. حيث ساهموا في تأسيس سلطنة وفتح عدة أصقاع في الشرق والغرب، ولكنهم سيدفعون غالياً ثمن مغامرتهم الخارقة للعادة وسيستنفدون قواهم في ساحات الوغى، لأن «شرف تأسيس مملكة عملٌ مآله دوماً وأبداً الفناء»، على حد تعبير غوتيي[5]. وستخلفهم كتلة بربرية أخرى، هي كتلة بني زيري الصنهاجيين.

ذلك أن الانفجار الفاطمي يتمثل أولاً في الانفجار القبائلي الذي يصادف المرحلة الثانية من انفجار القوة البربرية. أما المرحلة الأولى فقد تمثلت في تفكك الكتلة الزناتية التي كانت قوتها قد تحركت تحت القناع الخارجي. ولكن القوة العربية قد تمكنت من التغلب على الحركة الخارجية التي انكفأت إلى معاقلها في الجبال والقفار، وانطوت على نفسها في مركزها بتاهرت. إلا أن الدولة الرستمية لم تكن في مستوى طموحاتها، وسرعان ما انقرضت مملكة تاهرت.

---

(5) Gautier، المرجع المذكور، ص 352.

وانطلقت الكتلة القبائلية ـ الكتامية ثم الصنهاجية ـ بدورها إلى الاستحواذ على الحكم تحت قناع مذهب آخر خارج عن السنّة، هو المذهب الشيعي الإسماعيلي. ولكن القوة الهاشمية الكامنة، المتراكمة طوال ثلاثة قرون والمتضافرة مع القوة الكتامية كانت ضخمة، في حين كانت قضية بني رستم غامضة ـ ونجمهم في الأفول، بالإضافة إلى ارتفاع شأن «أهل البيت» في العالم الإسلامي بأسره. وبناءً على ذلك يُعتبر انطلاق الحركة البربرية الشيعية في المغرب حدثاً سياسياً على غاية من الأهمية وفترة استثنائية في التاريخ المغربي، شهدت انبعاث الخلافة التي طالما حلم بها آل الرسول وأبناء فاطمة، ومولد دولة عظمى.

وعندما يرد ذكر هذه الدولة يميل بعض الناس إلى وضع مركزها في مصر، وهذا خطأ محض. لأنهم ينسون بسهولة أنها قد بلغت أوجهاً في المغرب ذاته في بداية عهد المعز المجيد. والواقع أن الفترة الإفريقية من الخلافة الفاطمية تمثل الحقبة التي طلع فيها نجم الفاطميين إلى عنان السماء في حوض البحر الأبيض المتوسط، والتي شهدت نجاح سياستهم التوسعية. ففي إفريقيا الشمالية ذاتها استطاعوا المحافظة على هيبتهم بفضل كفاحهم ضد الدولة الأموية بالأندلس، ذلك الكفاح الذي كان المغرب الأقصى مسرحاً له ودام طوال نصف قرن، بل إنهم تمكنوا انطلاقاً من تلك الربوع من تعريض عرش قرطبة لخطر جسيم. ولم تحرز جيوشهم أقل نجاح في حروبها ضد الروم حلفاء قرطبة. كما أفضى بهم أداء فريضة الجهاد المقدسة بالأندلس إلى تكثيف القتال في المقاطعات البيزنطية بصقلية وجنوب إيطاليا وفرض وصايتهم عليها. وأخيراً فإن الجهود التي بذلوها بلا كلل ولا ملل لغزو المشرق قد آتت أكلها. ذلك أن المحاولات الأولى التي قاموا بها بلا جدوى للاستيلاء على مصر لم تصدّهم عن تحقيق غايتهم القصوى الرامية إلى خلع المغتصبين العباسيين. فتمكنوا من الاستيلاء على الممتلكات المصرية في الشرق الأدنى والاستقرار في جنوب الشام والبقاع المقدسة واليمن. ولما عجزوا عن الاستيلاء على بغداد اقتنعوا بالقاهرة التي أصبحت أكثر فأكثر أشهر مركز من مراكز البحوث والدراسات

الإسلامية، ومن أغنى المدن التجارية، وعاصمة العالم الإسلامي الكبرى.

وقد تسنى لهم إنجاز مثل هذا البرنامج في ميدان السياسة الخارجية بالرغم من التقلبات السياسية المألوفة في التاريخ الداخلي للدول الإسلامية في العصر الوسيط. فقد أخذت الدولة الفاطمية كغيرها من الدول نصيبها المحتوم من الاضطرابات والثورات والانتفاضات، مثل تمرد المتطرفين الكتاميين، وثورة العناصر الأغلبية، ومعارضة أهل السنّة، واندلاع حركة الخوارج مع ثورة أبي يزيد الذي أوشك أن يقضي على الدولة. إلا أن استعراض المصادر السنّية بإسهاب لهذه الصعوبات الداخلية التي تبدو طبيعية في الجملة، بالنسبة إلى تاريخ الدول الإسلامية بالمشرق والمغرب، قد حث بعض الباحثين على الدفاع عن أطروحة «القطيعة» بين المغرب والفاطميين، بل حتى أطروحة «إفلاسهم» في تلك الربوع.

ومما لا شك فيه أن الفاطميين قد وجدوا مشقة لتذليل تلك الصعوبات الداخلية، مع مواصلة سياستهم التوسعية خارج حدود مملكتهم. ولكنهم عرفوا كيف يتغلبون عليها في آخر الأمر من فرط ما كانوا يتحلون به في جدية وإخلاص في الاضطلاع بمهامهم الخلافية كما استطاعوا بفضل إقامة دولة مُمَرْكزة ذات سلطة مطلقة ونظام إداري عتيد، إنهاء المهام الملقاة على عاتقهم على أحسن وجه ممكن.

وكان على رأس هذه الدولة الإمام الذي يملك ويحكم بوصفه مرشداً روحياً وزعيماً دينياً، وبوصفه أيضاً صاحب السلطة الزمنية المستمدة من الله، والمكلل بهالة من الخصال الحميدة والحريص على ممارسة سلطته بكل حزم وبصورة فردية ومطلقة. فكان الإمام حينئذٍ يحكم البلاد حكماً مباشراً ويفوض مختلف سلطاته الإدارية والعسكرية إلى بعض الموظفين الأوفياء المختارين من بين أوليائه الكتاميّين وخدمه الصقالبة. وقد كان نظام الحكم خلال الفترة الإفريقية بسيطاً نسبياً ومتميزاً بغياب خطة الوزارة، وبالتالي بتجانسه والتفافه حول شخص الإمام الذي كان يراقب بنفسه سير الدواليب الإدارية، مقتصراً على

استخدام موظف سامٍ للقيام بدور «الوساطة» (أو السفارة) بينه وبين موظفي سائرالدواوين، باعتباره مجرد أداة لتنفيذ قرارات الإمام.

وتجمعت بالعاصمة جميع الأجهزة المشرفة على الشؤون الإدارية للمملكة وكافة الدواليب التابعة للإدارة المركزية كالبريد وديوان الرسائل والخبر والكشف وبيت المال والجيش والبحرية والقضاء، مع إجراء مراقبة صارمة على الإدارات الإقليمية. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن العمال كانوا يتمتعون بسلطة مطلقة في دوائرهم الترابية (وفقاً لمبدإ الاستكفاء) دون أن ينقص ذلك من السلطة الحكومية داخل البلاد. وقد أثارت السلطة الإدارية الشديدة الوطأة على العباد بعض القلاقل والانتفاضات، ولكنها لم تزعزع أبداً السلطة المركزية بالعاصمة، باستثناء ثورة الخوارج.

ورغم مناهضة أهل السنّة وثورة الخوارج بالإضافة إلى المعارضة الزناتية التي لا تُقهَر، وما أفضى إليه كل ذلك من تمرد صاحب الحمار، وبالخصوص رغم ما اتسمت به المؤسسات الدينية من صيغة شيعية مستمدة من السلطة السياسية، فإن الفاطميين لم يحكموا البلاد بأقل توفيق من أسلافهم الأغالبة. فبفضل تمركز دولتهم واستقرارها وتنظيم جهازها الإداري والمالي تنظيماً محكماً، وسير مؤسساتهم سيراً دقيقاً، عرفوا كيف يزيدون في مواردهم، ويكثفون من أنشطتهم الاقتصادية، ويساعدون على تقدم الحياة الفكرية والفنية، وعرفوا في الجملة كيف يزيدون في تطوير الحضارة بإفريقية. ففي هذه البلاد المغربية بالذات حيث لم يتجاوز «مرورهم» النصف قرن، بدأت حضارتهم الذاتية التي ستشع بكل بريقها في ضفاف النيل على حدود المشرق، في الازدهار الذي ترك آثاره الحية مدة طويلة من الزمن في المهدية ثم في المنصورية.

وعلى هذا الأساس فإن مأساة الفاطميين في إفريقية ـ إن كانت هناك مأساة ـ لا تكمن في مناهضة أهل البلاد للمذهب الشيعي، ولا في الخطر الخارجي الرهيب الذي تعرض له عرش المهدية من جراء تحركات البربر المنتمين إلى المجموعة الزناتية، بل تكمن في عدم قدرة البلاد على تحقيق الأهداف القصوى لسياستهم التوسعية. فقد كانوا يتصرفون لا محالة في الموارد

الكتامية الضخمة. إلا أن قوة العصبية التي تمثل العضو المكون للسلطة سرعان ما وهنت بلا رجعة. فلم تلبث القوة الكتامية «أن احترقت في لهيب هائل». وتبعاً لذلك فإن أحلام الفاطميين القديمة المتعلقة بخلع أعدائهم الألداء من ذوي الأصل الأموي والمغتصبين التابعين للفرع العباسي، للسيطرة على العالم الإسلامي، ومطامع أتباعهم العريقة وما كانوا يعلقونه من آمال عريضة على «ظهور» المهدي قد أصبحت تتحكم في سياستهم المقامة على أساس الهيمنة والعظمة،والحال أن البلاد التي هيّأها قدرٌ غريب لتصبح مقر دولتهم، لم تكن في مستوى مصيرهم العجيب. وبالتأكيد فإن إفريقية ـ بل قل بلاد المغرب بأسرها ـ لم تكن في حجم الفاطميين.

وقد لاحظ غوتيي بحصافة بخصوص هذه البلاد ما يلي:

«إنها «بلاد ملح» وبلاد جبال وبراح قاحلة. وهي عبارة عن «شريط» شاسع يبلغ طوله 3000 كم ولا يتجاوز عرضه 150 كم، ليس خصباً بغزارة ولا ملائماً جداً لتربية الماشية وتعاطي الصناعة الكبرى. تحيط به الصحراء من كل جانب وتؤثر فيه تأثيراً عميقاً. وتشتمل تلك الربوع على مساحات ممتدة الأطراف خالية من البناء، تكتنفها الفوضى والقفر على امتداد البصر. فلا توجد بها سوى بعض المراكز العمرانية. أما المدن الكبرى فهي تُعَدّ على أصابع اليد. وهي بلاد تكاد تكون غير صالحة للزراعة وغير آهلة. فكأن لعنة «بلدان الملح» قد أصابتها منذ بدء التاريخ».

ففي بلاد المغرب حينئذٍ كانت الجغرافيا هي التي تتحكم دوماً وأبداً في التاريخ. ومع ذلك فقد كانت وحدتها تتحقق بسهولة عجيبة، «ولكنها لا تدوم طويلاً». «فالدولة المغربية تظهر بسرعة مثل الفُطْر الذي ينمو في ليلة ويتعفن في الصباح...».

وبناءً على ذلك فإن مما يفسر عدم ثبات الدولة الفاطمية وقصر مدتها في المغرب، عجز هذه البلاد عجزاً فادحاً عن إيواء سلطنة قابلة للدوام، لأنها أرض قبائل ودُوَيْلات وممالك عابرة تابعة للغير، لا أرض خلافة.

تلك هي صورة الخلافة الفاطمية بالمغرب كما حرصنا على رسم ملامحها بطريقة مطابقة أكثر ما يمكن لتاريخها. فهل كانت هذه الصورة أقرب ما يكون للواقع، لا تشوبها شائبة؟ وهل أن هذا الكتاب، رغم اعتماده على وثائق أصلية، ورغم ما حققته تلك الوثائق من تقدم في معرفتنا لتلك الفترة الغامضة التي أقصى حد، لم يعط سوى صورة وهمية للتاريخ؟.

فلو اقتصرنا على الامتثال بكل دقة للمنهجية العلميـة التي تقتضي أن لا نعتمد إلا على الوثيقة الثابتة والقطعة المستخرجة من الأرشيف، ولو كان من اللازم أن لا يتركز الحكم في الميدان التاريخي إلا على الشهادة التي لا يتطرق إليها الشك، مثل الحكم الشرعي الذي يعتمد على «البينة» دون سواها، لكان من واجبنا العدول عن كتابة تاريخ المغرب في العصر الوسيط، بل التاريخ بوجه عام.

والواقع أن أي تأليف تاريخي ما هو إلاّ مقاربة للحقيقة. أفلا يجب علينا في أغلب الأحيان الاكتفاء، للتدليل على الحقيقة، بالمعطيات الحينيّـة التي توفرها لنا البداهة الحدسية والتأويل والاستقراء؟ فهل هناك بالفعل حقيقة مطلقة في التاريخ؟.

ومع ذلك، إن لم تكن الصورة التي قدمناها هي بالضبط الصورة الحقيقية للخلافة الفاطمية بالمغرب، ولو أن هذا الكتاب الـذي أراد أن يرسم ملامح تاريخها لم يعط سوى صورة منعكسة أو نظرة إجمالية إيحائية، فإن السنوات الطويلة التي قُضِيت في البحث وبذل الجهد لم تذهب سُدًى.

الفهارس

1 - فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ز)

(س)

(ق)

(ك)

2 ـ فهرس القبائل والطوائف والفرق

3 ـ فهرس الأماكن والبلدان

(ت)

(ث)

(ج)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ك)

(ل)

4 - المصادر والمراجع باللغة العربية

- ابن الأبار: كتاب الحلة السيراء في أشعار الأمراء. تحقيق M. J. Muller جزآن، مونيخ 1866 - 1878 وطبعة القاهرة، 1963 - 64.
- تكملة الصلة، تحقيق Codera، المكتبة العربية الإسبانية مدريد 1887 - 1889، والذيل تحقيق A. Bel وابن الشنب، الجزائر 1920.
- ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ، تحقيق النجار، القاهرة 1911.
- إدريس (عماد الدين الداعي): عيون الأخبار.

[تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)، تحقيق محمد اليعلاوي، دار المغرب الإسلامي بيروت 1985].
- إدريس (الهادي روحي):
- مناقب أبي إسحاق الجبنياني تأليف أبي القاسم اللبيدي ومناقب محرز بن خلف تأليف أبي الطاهر الفارسي (تحقيق وترجمة)، تونس 1959.
- [الدولة الصنهاجية، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992].
- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق وترجمة Dozy و De Goeje، ليدن 1866.
- الأصطخري: كتاب المسالك والممالك، نشر De Goeje، ليدن 1870.
- إيفانوف: سيرة جعفر (الحاجب) نشرية كلية الفنون - الجامعة المصرية، 2/4 - 1936.
- برنشفيك روبار:
- [تاريخ إفريقية في العهد الحفصي. تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988].

ـ ابن بسّام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسم الأول، الجزآن 1 ـ و 2 ـ القاهرة 1939 - 1942 ـ القسم الرابع، الجزء الأول، القاهرة 1945. [الطبعة الجديدة (8 أجزاء) تحقيق إحسان عبّاس، نشر الدار العربية للكتاب، تونس ـ ليبيا، 1981].
ـ ابن بشكوال: **كتاب الصلة في تاريخ أيمة الأندلس**. . نشر Codera، المكتبة العربية الإسبانية، 1 - 2. مدريد 1883.
ـ البكري (أبو عبيد): **المسالك والممالك** تحقيق وترجمة De Slane، الجزائر 1911، الطبعة الثانية، الجزائر 1913.
ـ التجاني: **الرحلة**، تونس 1927، انظر أيضاً الطبعة الثانية، تونس 1958، مع الفهارس، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب.
ـ التنوخي ت. 384 هـ: **نشوار المحاضرة** (كتاب جميع التواريخ) نشر Margolionth، القاهرة 1921، 1 ـ دمشق 1941/1361، 8، دمشق، 1930 م.
ـ ابن تيمية: **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، القاهرة 1955 ترجمة H. Laoust، طبعة بيروت 1948.
ـ جعفر بن منصور اليمن (تـ. في القرن الرابع هـ):
ـ **أسرار النطقاء**، نشره إيفانوف في كتابه «رايز» (قيام الدولة الفاطمية).
ـ ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق ليفي بروفنسال، سلسلة ذخائر العرب، 2، القاهرة 1948/1368.
ـ **كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء**، نشر G. F. Seybold (توبنغن أول أكتوبر 1911)، الطبعة الثانية نشر شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول القاهرة، ديسمبر 1951، 41 - 89.
ـ حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: **المعز لدين الله**، القاهرة، 1948/1367.
ـ **عبيد الله المهدي**، القاهرة، 1947/1366.
ـ حسن حسني عبد الوهاب:
ـ **الحسبة بإفريقية، تحليل كتاب أحكام السوق**، حوليات الجامعة التونسية، 1967، ص 5 - 21.
ـ ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، الجزآن الأول والثاني، تونس 1965 - 1966، [الجزء الثالث، تونس 1972].
ـ [**كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين**، المجلدان الأول والثاني دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990].

ـ حسن الزيّات: معجم المراكب والسفن في الإسلام، 1949].

ـ ابن حماد (= بن حماده)، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وترجمة Vonderheyden، الجزائر ـ باريس 1927.

ـ الحمادي محمد بن مالك: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، الطبعة الثانية، تقديم محد زاهد بن الحسن الكوثري، القاهرة 1955.

ـ الحميدي: جذوة المقتبس، القاهرة، 1952.

ـ ابن حوقل: المسالك والممالك، نشر J/H. Kramers، جزآن، ليدن 1938 - 1939.

ـ ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، جزء وحد، تحقيق علي الحاجي، بيروت 1965.

ـ ابن خرداذبة: كتاب المسالك والممالك، نشر وترجمة محمد الحاج الصادق، الجزائر، 1949.

ـ ابن الخطيب (لسان الدين): كتاب أعمال الأعلام، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب (مائوية أماري) بلرمو 1910، ص 427- 494.

ـ رقم الحلل في نظم الدول، تونس 1316 هـ.

ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تونس، 1911/1329، نشر علوش، منشورات معهد الدراسات المغربية العليا، الرباط، 1936.

ـ ابن خلدون: كتاب العبر . . . . (7 أجزاء) طبعة بولاق 1284 هـ[وطبعة بيروت 1958]. ترجمة دي سلان بعنوان «تاريخ البربر» (4 أجزاء) الجزائر 1852 - 1856، الطبعة الثانية نشر كازانوفا (3 أجزاء) باريس 1925 - 1934 والجزء الرابع، باريس 1956.

ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، طبعة القاهرة، 1948.

ـ الداودي: كتاب الأموال، نشر وترجمة مقتطفات في دراسات الاستشراق المهداة إلى روح ليفي بروفنسال، ج 2، باريس 1962 بقلم ح. ح. عبد الوهاب وفرحات الدشراوي، ص 401 - 444.

ـ ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الطبعة الثانية 1931/1350 [الطبعة الثالثة تحقيق محمد شمام، تونس 1967].

ـ ابن رستة: كتاب الأعلاق النفيسة، نشر وترجمة محمد الحاج الصادق، الجزائر 1949.

ـ أبو زكرياء: أخبار أبي زكرياء، ترجمة Masqueray، الجزائر 1878، وترجمة جديدة بقلم R. Le Tourneau، المجلة الإفريقية ابتداء من العدد 104، 1960.
ـ الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، القاهرة 1954/1373.
ـ ابن أبي زيد: الرسالة، نشر وترجمة L. Bercher، الجزائر 1945.
ـ ابن سحنون: كتاب أدب المعلمين، تحقيق ح. ح. عبد الوهاب، الطبعة الأولى، 1931/1350 [الطبعة الثانية 1972، مراجعة محمد العروسي المطوي، دار الكتب الشرقية بتونس].
ـ السقطي: كتاب الحسبة، نشر كولان وليفي بروفنسال باريس 1931.
ـ سليمان مصطفى زبيس: دولة بني خراسان بتونس، مجلة الندوة 1 - 2، تونس 1953.
ـ سيد الأهل: جعفر بن محمد الإمام الصادق، بيروت 1954.
ـ الشماخي: كتاب السِّيَر، القاهرة، 1883/1301 - 1884.
ـ ابن الصغير: أخبار الأيمة الرستميين، نشر Motylinski في أعمال المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين، باريس 1908.
ـ الصولي (تـ. 355 هـ): أخبار الراضي والمتقي، نشر H. Ounne، لندن 1935، ترجمة M. Canard، الجزائر 1946 - 1950.
ـ ابن الصيرفي (تـ. 542 هـ): كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة، BIFAO، 25 - 26، (1925 - 1926).
ـ الضبّي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، نشر كوديرا، المكتبة العربية الاسبانية، مدريد 1855.
ـ ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق وترجمة A. Gateau الطبعة الثانية، الجزائر 1948.
ـ أبو عبد الله محمد الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة 1938.
ـ ابن عذاري: البيان المُغْرِب في أخبار المَغْرِب، نشر كولان وليفي بروفنسال، 1 - 2 ـ ليدن 1948 - 1951 ـ الطبعة الثانية، ليفي بروفنسال باريس 1930.
ـ أبو العرب: كتاب طبقات علماء إفريقية، منشورات كلية الآداب بالجزائر (جزآن) باريس 1915 - 1920.
ـ علي بن يوسف المديوني: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، نشر حسين مؤنس، مدريد 1960.
ـ أبو علي منصور العزيزي: سيرة الأستاذ جَوْذر، تحقيق كامل حسين وعبد الهادي

شعيرة، سلسلة مخطوطات الفاطميين، 11، القاهرة 1954، ترجمة M. Canard، الجزائر 1957.
ـ أبو الفداء: كتاب المختصر في أخبار البشر (4 أجزاء) القاهرة [1] 523 هـ.
ـ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، موسوعة في 27 جزء، الجزء 17، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 2527.
ـ ابن قدامة (تـ. 620): مختصر في الفقه، ترجمة H. Laoust.
ـ كامل حسين:
ـ في أدب مصر الفاطمية، القاهرة، 1950.
ـ سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة (ترجمة حياته بأكملها) القاهرة، 1949.
ـ الكرماني: (تـ. حوالي 408 هـ) راحة العقل، تحقيق كامل حسين ومصطفى حلمي، القاهرة 1952 (سلسلة مخطوطات الفاطميين).
ـ الكندي (محمد بن يوسف): وُلاة مصر، بيروت 1959.
ـ ليفسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، مجلة الدراسات الإسلامية 1935 الكراس 2، 200 - 196. (Lewicki) ليفي بروفنسال.
ـ مقتطفات من مجموع مجهول المؤلف تم وضعه سنة 1312/712 يحمل عنوان: كتاب مفاخر البربر، الرباط 1934.
ـ ماجد: السجلات المستنصرية، القاهرة 1934.
ـ المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 2153. الجزء الأول، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة 1951.
[صدر الكتاب بأجزائة الثلاثة عن دار الغرب الإسلامي، تحقيق البشير البكوش ومراجعة محمد العروسي المطوي، بيروت 1983].
ـ الماوردي: الأحكام السلطانية، القاهرة 1298 هـ.
ـ أبو محمد البلوي: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق كرد علي، دمشق 1358 هـ.
ـ محمد أبو زهرة: أبو حنيفة، الطبعة الثانية، القاهرة 1955.
ـ [محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، تعريب المنجي الصيّادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985].
ـ محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (جزآن) القاهرة 1350 هـ.
ـ [محمد اليعلاوي:
ـ ابن هانىء المغربي الأندلسي، د. غ. إ. بيروت 1985].

ـ المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر دوزي، ليدن 1947، الطبعة الثانية 1881.

ـ المسعدوي: مروج الذهب، نشر وترجمة Barbier de Meynard و Pavé de Courteille (9 أجزاء) باريس 1872 - 1877.

ـ المُقَدّسي: وصف الغرب الإسلامي في القرن الرابع هجري، نشر وترجمة C. Pellat، عن كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقالي للمقدسي، الجزائر 1950.

ـ أحسن التقاسيم ترجمة جزئية بقلم أندري ميكال، دمشق 1963.

ـ المقريزي:

ـ اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، القاهرة 1948/1367.

ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخُطَط والآثار (جزآن) القاهرة 1270 هـ.

ـ النقود الإسماعيلية في ثلاث رسائل، اسطنبول 1298 - 1880.ج

ـ [كتاب المقفّى الكبير (تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية)، اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي، د. غ، إ. بيروت 1987].

ـ المكّي: التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، مدريد، 1954.

ـ ابن ميسّر: الخلفاء الفاطميون، نشر هنري ماسي، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1919.

ـ ابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، (4 أجزاء) تونس 1900/1320.

ـ النباهي: كتاب المركبة العليا في مَنْ يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة 1947.

ـ النعمان (أبو حنيفة):

ـ [افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، بيروت 1970].

ـ افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس 1975.

ـ كتاب الهمة وآداب اتباع الأئمة، تحقيق كامل حسين، القاهرة (بلا تاريخ).

ـ دعائم الإسلام 1 - 2، نشر Fyzee، القاهرة 1951/1370.

ـ [المجالس والمسايرات، نشر كلية الآداب بتونس، 1978].

ـ ابن هانىء: الديوان، بيروت 1326 هـ.

ـ ياقوت: معجم البلدان (8 أجزاء)، القاهرة 1906.

ـ يحيى بن عمر: أحكام السوق. مخطوط حسن حسني عبد الوهاب.

- **[أحكام السوق**، تحقيق ح. ح. عبد الوهاب وفرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، 1975].
- **اليعقوبي: كتاب البلدان**، الطبعة الثانية، De Goeje، المكتبة الجغرافية العربية، 7، ليدن 1892.
- **أبو يوسف يعقوب** (تـ. 182 هـ): **كتاب الخراج**، ترجمة Fagnan، باريس 1921.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

- **A. Abel,** Changement politique et littérature eschatologique dans le monde musulman, dans S.I.II (1954).
Le Calife, présence sacrée, dans S.I.I (1957).
- **H.H. Abdelwahab** , Les Steppes tunisiennes pendant le Moyen Age, C.T. N: 5. 1954, 5 - 16.
- Villes arabes disparues, Mélanges William Marçais, Paris, 1950, 1 - 15.
- **M. Amari,** Bibliotheca arabo - sicula, Leipzig, 1857, appendice 1875 et 1887.
- Storia dei Musulmani di Sicilia, 2e éd, revue par Nallino, 3 tomes en 5 Volumes, Catane, 1933 - 39.
- **P. Balog,** Monnaies islamiques rares fatimites et ayoubites, dans Extrait du Bulletin de l'Institut d'Egypte, T. XXXVI, 1953 - 1954.
- **J. Baradez,** Fossatum Africae, Recherches aériennes sur l'organisation des confins sahariens à l'epoque romaine, Paris.
- **H. Bel,** La religion musulmane en Berbérie, Paris, 1948.
- **M. Belin,** Du régime des fiefs militaires dans l'islamisme et principalement en Turquie, dans J. A. 1870.
- **F. Benoit,** Documents historiques sur les incursions des Sarrasins et des Barbaresques en Camargue au Moyen Age, dans R.T. 1932.
- **A. Bondot - Lamotte,** Contribition à l'étude de l'Archerie musulmane, principalement d'après le manuscrit d'Oxford, N: 226 Damas 1968.
- **R. Brunschvig,** Considérations sociologiques sur le droit musulman, S.I, III. 1955, 61 - 73.
- Fiqh fatimide et histoire de l'Ifriqiya, Mélanges G. Marçais, II, Alger 1957, 13 - 20.
- La Berbérie orientale sous les Hafsides, 2 Vol. Paris 1940 - 1947.
- La Tunisie dans le Haut Moyen Age, sa place dans l'Histoire, Conférences de l'Institut Français d'Archéologie orientale Caire 1948.
- Mesures de capacité de la Tunisie médiévale, R.A. 3: 4 trim 1938, 86 - 96.
- Sur les mesures tunisiennes de capacité au commencement du XVe Siécle, A.I.E.O, 1934, 74 - 87.
- Esquisse d'Histoire monétaire almohado-hafside, dans Mélanges W. Marçais, Paris 1956.
- Un aspect de la littérature historico - géographique de l'Islam, Mélanges Gaudefroy - Demombynes, Caire 1937 - 1945.

- Unbanisme médiéval et droit musulman, dans R.E.I. 1947, 127 - 157.
- A propos d'un toponyme tunisien du Moyen Age, dans R.T. 1935, 149 - 165.
- **J.B. Bury,** The naval policy of the Roman Empire in relation to the Western provinces, from the 7 th to the 9 th century, dans Centenario Amari II, 21 - 34.
- **Cl. Cahen,** L'histoire économique de l'Orient muslman médiéval, S.I, III, 1955, 93 - 115.
- Fiscalité, propriété, antagonismes sociaux en Haute Mésopotamie au temps des premiers Abbassides, d'après Denys de Tell - Mahrè, dans Arabica I, 1954.
- La changeante portée sociale de quelques doctrines religieuses dans l'élaboration de l'islam, colloque de Strasbourg, 1961, 5. 22.
- Point de vue sur la Révolution abbasside, dans R.H. N" 468, 1968, 295 - 338.
- **R. Cagnat,** l'armée romaine d'Afrique et l'occupation de l'Afrique, Paris 1892.
- **M. Canard,** La procession du Nouvel An chez les Fatimides, A.I.E.O, X, 1952, 364 - 398.
- Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin, essai de comparaison, Byzation 1951, 2e fasc 355 - 420.
- L'impérialisme des Fatimides et leur propagande, A.I.E.O, VI, Paris, 1942. - 1947, 162 - 199.
- Une famille de partisans puis d'adversaires des Fatimides en Afrique du Nord, Mélanges G. Marçais, II, 33 - 49.
- Une lettre du Calife fatimide al - Hafedh (524 - 544/1130 - 1149) à Roger II, Palerme 1925, 125 - 146.
- L'autobiographie d'un chambellan du Mahdi (sirat Jaafar al - Hajib), Hespéris 1952.
- Un vizir chrétien à l'époque fatimide, l'arménien Barham, A.I.E.O., 1954.
- Quelques notes relatives à la Sicile sous les premiers Fatimides, Palerme, 1956, 509 - 576.
- Textes relatifs a l'emploi du feu grégeois chez les Arabes, dans B.E.A. XXVI, 1946, 3 - 8.
- Vie de jawdhar (trad, de la sirat de jawdhar).
- **L. Carton,** les antiques cités de l'Afrique ou Nord, Revue de Tripolitaine, An. I, N" 3, Rome 1924.
- **E. Cat,** Essai sur la province romaine de Maurétanie Césarienne, Paris 1891.
- **H. Catenoz,** Tables de concordance des ères chrétinne et hégirienne, Rabat 1953.
- **Cheikh Bekri,** Le Kharijisme berbére, quelques aspects du royaume rustumide, A.I.E.O., XV. 1957. 55 - 109.
- **CH. Courtois,** Les Vandales et l'Afrique, Paris, 1955.
- Les rapports entre l'Afrique et la Gaule au début du Moyen Age, dans C.T. VI, 1954, 127 - 145.
- **De Mas Latrie,** Traités de paix et de commerce et documents divers concernant

les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale an Moyen Age, 1er Vol, Paris, 1866, 2e Vol, Paris 1972.
- **J. Despois,** la Tunisie orientale" Sahel et Basse Steppe», Paris 1940.
- **CH. Diehl,** Histoire de la domination byzantine en Afrique, éd. Paris, 1896 et éd New - York en 2 Vol.
- **H. Djait,** La Wilaya d'Ifriqiya an IIe/VIII siècle, dans S.I, XXVII et XXVIII, 1968.
- **N. Elisséeff,** Noureddine, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades, 3 Vol. Damas 1967.
- **E. Esprérandieu,** Epigraphie des environs du Kef (Tunisie), Paris, 1884.
- **E. Fagnan,** Exraits relatifs au Maghreb, Alger, 1924.
- **J. Farrugia De Candia,** Articles de numismatique, R.T. 1936, 333 - 372, 1937, 89 - 136, 1948. 103 - 131. Bulletin archéologique du Comité des travaux historiques et scientifiques, Paris 1953, 119.
- **H. Fournel,** Les Berbères, 2 Vol. Paris, 1875 - 1881.
- **A. Fyzee,** A chiite creed, Oxford. 1942.
  - Qadi an - Nuaâman, the fatimid jurist and author, dans J.R.A.S., 1934.
  - The fatimid law of inheritance, dans S.I,X, 1958, 61 - 69.
  - The study of the litterature of the fatimid Da`wa, dans Arabic and Islamic studies in honor of. Gibb, Leiden, 1965.
- **F. Gabrielli,** Histoire et culture de la Sicile arabe, dans Revue de la Méditerranée, Paris Alger, mai - juin 1957, 241 - 259.
- **L. Gardet,** La cité musulmane, vie sociale et politique, Paris 1954.
- **A. Gateau,** La sirat de ja far al-Hajib, dans Hesperis, 1947, 375 - 396.
- **M. Gaudefroy - Demombynes,** Notes sur l'histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam, R.E.I, 1939, 109 - 147.
  - Compte reudu du livre de Tyan, Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam, J. A, CCXXXV, 1946 - 1947, 123 - 132.
  - Un magistrat musulman: Le Mouhtasib, Journal des Savants, 1947, 33 - 40.
- **J. De Goeje,** Mémoire sur les Carmathes de Bahraïn et les Fatimides, Leyde, 1866.
- **S.D. Goitein,** From the Mediterranean to India: Document on the trade to India, South arabica and East Africa from the eleventh and twelfth centuries, the mediaeval Academy of America, Cambridge, Massachussets, Speculium XXIX, April 1954, N: 2, part, I, 181 - 197.
  - Glimpses from the Cairo Genizo on naval warfare in the Mediterraniean and on the Margal invasion, studi orientalici ine onore di G. Levi Della Vida, I, 1956, 393 - 408.
  - Jews and arabes, New-York, 1955.
  - The Cairo Geniza as a source for the history of Muslim civilisation, S.I, III,

1955, 75 - 91.
-The last phase of Yehuda Halevi's life the light of the Geniza papers, Tabriz quaterly, XXIV, 1954, 1 - 24.
- La Tunisie du XI^e S. à la lumière des documents de la Geniza du Caire, dans Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Levi Provençal, II, Paris 1962, 559 - 579.
- **Goldziher,** Islamisme et Parsisme, dans Revue des Religions, 43 (1901).
- **L. Golvin,** le Maghreb central à le'époque des Zirides, Paris, 1957.
- **P. H. Gosse,** The history pf piracy, trad, fr. par P. Teillac, Histoire de la piraterie, Paris, 1952.
- **R. Gottheil,** A distingnished family of Fatimide Cadis in the tenth century, dans, J.A.O.S. 27 (1907).
- **Von Grunebaum,** Medieval Islam, a study in cultural orientation, Chicago, 1947, trad, Odile Mayot, l'Islam médiéval, Paris, 1962.
- **S. Gsell,** Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, 8 Vol. Paris, 1913 - 1928.
- Atlas archéologique de l'Agérie, Alger - Paris, 1911.
- **Hassan Zaky Muhammad,** les Tulunides, Paris, 1937.
- **H.W. Hazard,** The numismatic history of th late medieval North Africa, Numismatic studies, N: 8, The american Numismatic Society, New-York 1952.
- **J. Hopkins,** Sousse et la Tunisie orientale médiévale vues par les géographes arabes, ans C.T., XXXI, 1960, 83 - 95.
- Medieval muslim governements in Barbary untilth silten century of the Hijra, Londres, 1958.
- **I.HERBEK,** Die Slawen in Dienste der Fatimiden, Prague, 1953 (4), 543 - 581.
- **H.R. Idris,** Analyse et traduction de 2 textes de l'epoque ziride, 70^e congrés de l'A.F.A.S. (Tunis, mai 1951), fasc 3, 209 - 216.
- A propos d'un extrait du Kitab al-Mihad.
da'l - Mazarı al - Iskandarani, C.T., 1953, 155 - 195.
- Contribtion à l'histoire de l'Ifriqiya, d'aprés le Riadh al - Nufus, R.E.I, 1935, IX, Cah. 2, 105 - 178, Cah. 3, 273 - 305, 1936, X, cah, 1 45 - 104.
- Contribition à l'histoire de la vie religieuse dans l'Ifriqiya ziride, Mélanges L. Massignon, II, Damas, 1957, 327 - 359.
- Deux juristes Kairouanais de l'époque ziride, Ibn Abi zaïd et al - Qabsi, A.I.E.O. XII, 1954, 122 - 198.
- Essai de datation de la maqsura de la Grande Mosquée de Kairouan, Arabica, mai 1956, 214 - 215.
- Fêtes chretiennes célébrées à l'époque ziride, R.A. N: 440 - 441, 1954, 216 - 176.
- La vie intellectuelle en Ifriqiya méridionale sous les Zirides, d'après Ibn al - Chabbat, Mélanges G. Marçais, II, 95 - 106.

- La Berbérie orientale sous les Zirides, 2 Vol Paris 1962.
- Le crépuscule de l'école malékite Kairouanaise, C.T. 1956, 494 - 507.
- Quelques Juristes ifriquiens à la fin du X[e] Siècle, R.A. N: 446, 449, 1956, 349 - 373.
- Une des phases de la lutte du malékisme contre le chiisme sous les Zirides: al - Tounisi et sa célèbre fetwa sur les chiites, C.T. 1956, 508 - 517.
- Sur le retour des Zirides à l'obédience fatimide, A.I.E.O. XI, 1953, 25 - 39.
- L'école malékite de Mahdia: L'Imam al - Mazari, Memorial E. Levi - Provençal, T.I, Paris, 1962, 153 - 164.

- **W. Ivanow,** a creed of the Fatimds, d'aprés le Taj al aqayid wa ma[c]din al - fawayid de Ali b. Mohammad ben al - Walid, Bombay, 1936.
  - The aleeged founder of ismailism, Bombay, 1946.
  - A guide of ismaili literatur, Londres 933.
  - Notes sur l'Umm'l - Kitab, R.E.I, 1932.
  - Rise ismaili tradition concerning le rise of the Fatimids, Oxford, 1942.
  - The organisation of the fatimid propaganda, Journal of the Bombay Brach of the RAS, Bombay, 1939.
- **L. Jacquot,** La caverne miraculeuse de Sidi Bouyahia et le culte de Mithra, Constantine, 1909.
- **Ch. A. Julien,** Histoire de l'Afrique du Nord, 1[ere] éd. Paris 1931.
- **H. Lammens,** Fatima et les filles de Mahomet, Rome, 1912.
- **H. Laoust,** Le Califat dans la doctrine de Rachid Ridha, Beyrouth, 1938.
  - La profession de foi d'Ibn Batta, Damas, 1958.
  - La Classification des sectes dans le Farq d'al - Baghdadi, R.E.I, XXIX, 1961, 19 - 59.
  - Les Schismes dans l'Islam, Paris, 1965.
- **H. Lavoix,** Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Paris, 1887.
- **G. Lecomte,** L'Ifriqiya et l'Occident dans le kitab al - Ma[c]rifa d'Ibn Qutayba, dans C.T, XIX - XX, 1957, 253 - 257.
- **Léon L'Africain,** Description de l'Afrique, éd. Epaulard, 2 Vol. Paris, 1956.
- **R. Letourneau,** La révolte d'Abu Yazid, dans C.T. 1953, 103 - 125.
  - Fés avant le protectorat, Casablanca, 1949.
- **E. Levi - Provencal,** L'Espagne musulmane au X[c] siécle, Paris 1932.
  - Histoire de l'Espagne musulmane, 3 Vol. Paris - Leyde, 1950 - 1953.
- **T. Lewicki,** Les Ibadites en Tunisie au Moyen Age, Academia di Scienze e Lettere, Bibliotheca di Roma, Conferenze, Fasc. 6, Rome 1959.
  - La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen Age, 1[ere] partie, Roeznik orientalistyezny, XXI, 1957, 301 - 343.
  - Les subdivisions de l'Ibadiya, S.I, IX, 1958, 71 - 82.

- Notice sur la chronique Ibadite d'ad - Darjini , Roeznik orientalistyezny, XI, 1936, 146 - 172.

- Quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibadite anonyme R.E.I. 1934 Cah, 3, Paris 1935, 275 - 296.

- Une chronique ibadite «Kitab al - Siyar» d'Abu - l - Albas Ahmad al - Chamakhi, R.E.I, Cah. 1, 59 - 78.

- Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord: observations d'un arabisant, Rocznik orientalistyezny, XVII, Cracovie 1953, 415 - 480.

- A propos d'une liste de tribus berbères d'Ibn Hawqal, dans Folia Orientalia, Cracovie 1 (1959), 129 - 135.

- **B. Lewis,** The Fatimiuds and the route to India, Revue de la Faculté des sc. économiques de l'Université d'Istanbul, XI, 1949 - 1950.

- The origin of ismailism: a study of the historical background of the fatimids Caliphate, Cambridge, 1940, Le Caire, 1947.

- Naval power and trade in the Mediterranean, A.D. 500 - 1100, Princeton University, New-Jersey, 1951.

- **A. Lezine,** Deux Ribats du Sahel Tunisien, C.T., 1956, 279 - 288.

- Le Ribat det Sousse, suivi de notes sur le Ribat de Monastir, Direction des Antiquités et Arts de Tunisie, Notes et Documents, XIV, Tunis 1956. (C.R. par G. Marçais, dans C.T. 1956, 127 - 135).

- Mahdia, Recherches d'archéologie islamique, Paris 1965.

- **Lokkegaard,** Islamic taxation in the classic period. Copenhague, 1950. (C.R. par Cl. Cahen dans Arabica I, 1954, 353 - 356).

- **M. Lombard,** Arsenaux et bancs de marine dans la Méditerranée musulmance VIII^{e} - XI^{e} siècles... Bib. générale de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes, VI^{e} section, Paris 1958, 53 - 106.

- Les bases militaires d'une suprématie économique. L'or musulman du VII^{e} au XI^{e} siècle, Annales, Economies, Sociétés, civilisations, II, av. juin 1947, 143 - 160.

- Une carte du bois dans la Méditerranée musulmane (VII^{e} - XI^{e} siécles), ibid, av. juin 1959, 234 - 254.

- **V.W. Madelung,** Fatimiden und Babrain qarmaten, dans Der Islam T. 34, 1959, 34 - 88.

- Das Imamat in edn fraihen ismailitischen lehre, dans Der Islam, T. 37 - 38, 1961, 43 - 135.

- **P.H. Mamour,** Polemics on the origin of the Fatimids caliphes, Londres, 1934.

- **G. Marçais,** Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident musulman. T.I, Alger, 1957.

- Les Arabes en Berbérie du XI^{e} au XIV siécle, Constantine - Paris, 1913.

- La Berbérie au IX siécle d'aprés El - Ya qubi, dans, R.A. 1941, 40 - 61.

- La Berbérie musyulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris 1946.
- Manuel d'Art musulman, l'Architecture, 2 Vol. Paris, 1926 - 1927; remanié sous le titre: L'Architecture musulmane d'Occident, Paris 1954.
- **G. Marçais et L, Golvin,** La Grande Mosquée de Sfax, I.N.A.A, Notes et Documents, Vol III (nouvelle Série), Tunis 1960.
- **W. Marçais,** Comment l'Afrique du Nord a été arabisée, A.I.E.O. IV, 1938, 1 - 23, 1956, 5 - 17.
- L'Islamisme et la vie urbaine, compte rendu de l'Académie des Inscriptions, 1928, 86 - 100.
- **Y. Marquet,** Imamat, Résurrection et Hiérarchie selon les Ikhwan al - Safa, R.E.I, 1962, XXX, 49 - 132.
- **L. Massignon,** Esquisse d'une bibliographie carmathe, Cambridge, univ presse 1922, 329 - 338.
- Salman Pak et les prémices spirituelles de l'Islam iranien, Paris 1934.
- Les sept Dormants d'Ephèse (Ahl al - Kahf) en Islam et en chrétienté, dans R.E.I, 1954, 59 - 112.
- **Mélanges L. Massignon,** 3 Vol Damas, 1956 - 1957.
- **Mélanges Renés Basset,** Publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, XI 2 Vol, Paris 1925.
- **M. Mercier,** Le feu grégeois: Les feux de guerre depuis l'Antiquité. La poudre à canon, Paris 1953.
- **P. Mesnage:** L'Afrique chrétienne, Paris 1912.
- **A. Mez:** Die Renainssance des Islams, Heidelberg, 1922 (traduit en arabe par Abd al - Hadi Abu Rida, 2 Vol. Le Caire, 1947 - 1948).
- **G.C. Miles,** Early arabic glass Weights and stamps, Numismatic notes and monographs, n 111, New-York, 1948.
- **Ch. Monchicourt,** La Région du Haut Tell en Tunisie, Paris 1913.
- Le voyageur Peysonnel de Kairouan au Kef et à Dougga, août 1724, dans R.T. 1911.
- **Montagne,** la civilisation du désert, Paris 1947.
- **C. Pallu de Lessert,** Les colonies attribuées à César dans l'Afrique Romaine, dans Extrait des Mémoires de la Société Nationale des Antiquités de France, T. LXXI, Paris 1922.
- **Ch. Pellat,** L'Imamat dans la doctrine de Jahiz, dans S.I, XV, 1961, 23 - 52.
- Le Culte de Muawiya au III^{e} Siécle de l'Hégire, dans S.I, VI, 1956, 53 - 66.
- **H. Pirenne,** Histoire économique de l'Occident médiéval, Bruxelles, 1951.
- **J. Pirenne,** De l'expansion musulmane aux traités de Westphalie, Neuf- châtel - Paris, 1950.
- **L. Poinssot,** Inscriptions arabes de Kairouan, Publications de l'Institut des Hautes Etudes de Tunis, II fasc. I - II, Paris 1950 et 1958.

- **A.N. Poliak,** La féodalité islamique, R.E.I, X, 1936, 247 - 265.
- **E. Quatremère,** Mamelouks (Histoire des Sultans Mamelouks), 2 tomes en 4 Vol. Paris, 1837 - 1845.
  - La vie du Calife fatimide al - Moizz Lidin - allah, J.A, III[e] série, N: 2 et 3, 1836 - 1837.
- **N. Quatremère,** Mémoires historiques sur les dynasties des Califes fatimides, Vie d'al - Moizz, Ja, 3[e] série, ao t 1836.
- **P. Salama,** Les voies romaines de l'Afrique du Nord, Alger 1951.
- **S. Santillana,** Instituzioni di Diritto musulmano nalichita... 2 Vol Rome 1943.
- **H. Sauvaire,** Matériaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmane, J.A. 7[e] série, XV, 1880.
- **J. Sauvaget,** Introduction à l'histoire de l'Orient musulman, Paris, 1943.
- **J. Schacht,** An introduction to islamic Law, Londres 1964.
  - Bibliothèques et manuscrits ibadites, R.A.1956, 375 - 398.
  - Esquisse d'une histoire du droit musulman, Paris 1953.
  - New sources for the history of Muhammadan theology, dans S.I, I, 1953, 40 seq..
  - Sur la transmission de la doctrine dans les écoles juridiques de l'Islam, A.I.E.O. 1952, 399 - 419.
  - The origin of Muhammadan jurisprudence Oxford 1950, 2[e] éd. 1952.
- **A. Shulten,** L'Afrique romaine, trad. D[r] Florence, Extrait de la Revue Tunisienne, Paris 1903.
- **W. Seston,** Sur les derniers temps du christianisme en Afrique, Mélanges de l'Ecole de Rome LIII, 1936, fasc I-IV, 101 - 124.
- **R. Serjeant,** Islamic textiles, Arts Islamica, IX - XV, University of Michigan Press, 1942, 54.
- **D. Sourdel,** Le Vizirat, 2 Vol. Damas 1959 - 1960.
- **M. Solignac,** Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII[e] au XI[e] siècle, Alger 1953.
- **S.M. Stern,** Three North African topographical notes, Arabica I, 1954, 343) 345.
  - Heterodox Ismailism at the time of - al - Moizz, dans BSAOS, XVII I 1955.
  - An original document from the fatimid chancery concerning italian marchants, studi orientalistici in onore di G. levi della Vida, II, 1956, 529 - 538.
  - An Embassy of the Byzantine Emperor to te fatimid caliphe al - Moizz, BSOAS, XVII, 1955.
  - Hatim b. Ibrahim on the history of the da wa in Yemen, Oriens 1951.
  - Ismailis Qarmatians, dans l'Elaboration de l'Islam, colloque de Strasbourg, Paris, 1961, 99 - 105.
- **M. Talbi,** Quelques données sur la vie sociale en Occident Musulman, d'après un

traité de hisba du XV^{e}S., Arabica 1954, 294 - 306.

- Kairouan et le malékisme espagnol, Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi Provençal Paris 1962, I, 317 - 337.

-[L'Emirat aghlabide: Histoire Politique, Maisonneuve, Paris 1966].

- **H. Terrasse,** Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français, 2 Vol, Casablanca, 1949 - 1950.
- **Ch. Tissot,** Géographie comparée de la la province romaine d'Afrique, T. 2, Paris 1884.
- **E. Tyan,** Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam 2 Vol. Paris, 1938.

- Institutions de droit public musulman, T. I Le califat, Paris 1954, T II, Sultanat et califat, Paris 1956.

- **A. Vasiliev,** Byzance et les Arabes, Bruxelles 1930.
- **M. Vonderheyden,** La Berbérie orientale sous la dynastie des Banou al - Aghalb, Paris 1927.
- **G. Weitt,** L'Egypte arabe, Paris 1937.
- **F. Wustenfed,** Gexhiste der Fatimiden - Califen, Gottigen, 1881.
- **Zambaur,** Manuel de généologie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam, Hanovre 1927 (Traduction arabe par Zaki Mohamed Hassan et Hassan Ahmed Mohamed, I, Le Caire, 1370/1951).

Abréviations:

A.I.E.O - Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger.

C.T. - Les Cahiers de Tunisie.

J.A. - Journal Asiatique.

R.A - Revue Africaine.

R.T - Revue Tunisiene.

R.H - Revue Historique.

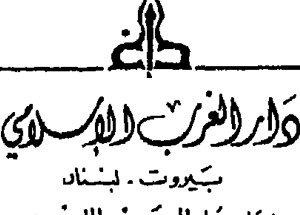
J.R.H.S - Journal of the Royal Asiatic Society.

R.E.I - Revue des Etudes Islamiques.

S.I - Studia Islamica.

5 ـ فهرس المواضيع

القسم الثاني
تنظيم الدّولة



شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود

تلفون البناية: 340131/ تلفون مباشر : 350331 ص. ب. 5787-113 بيروت ، لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

رقم 1994/10/2000/266

التنضيد: كمبيوتايب - بيروت

الطباعة : دار صادر ، ص. ب. 10 - بيروت

FARHAT DACHRAOUI

LE CALIFAT FATIMIDE AU MAGHREB

(296-365 A.H. / 909-975 A.D.)

Histoire politique et Institutions

Traduit en Arabe
Par
HAMADI SAHLI



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
1994



LE CALIFAT FATIMIDE AU MAGHREB

Série
Universitaire

FARHAT DACHRAOUI

LE CALIFAT FATIMIDE AU MAGHREB

(296-365 A.H. / 909-975 A.D.)

Histoire politique et Institutions

Traduit en Arabe
Par
HAMADI SAHLI

